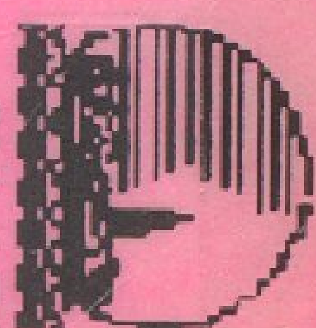
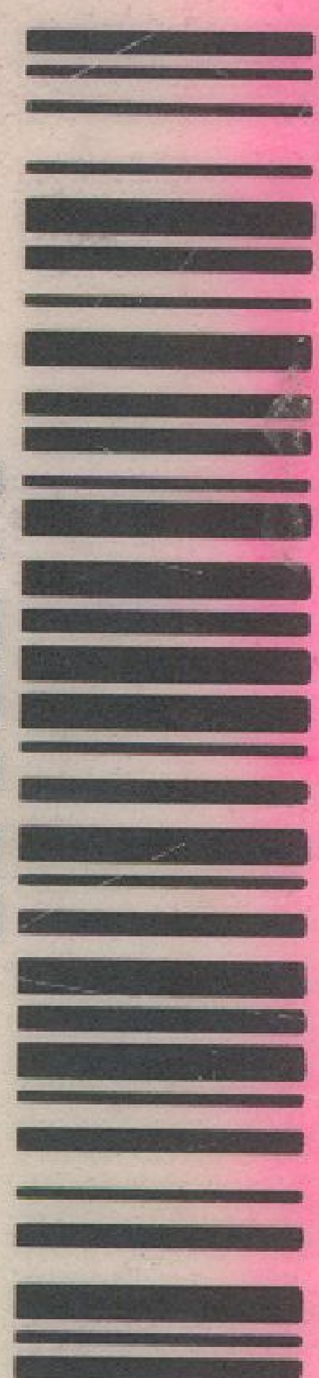



دكتور أحمد حمدي محمود

اقرأ

المدرسة الشاملة



دكتور أحمد حمدي محمود

المدرسة الشاملة

. تصميم الغلاف : صلاح العنانى

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

تقـــديم

يطيب لى أن أقدم لكتاب يضم لونا من ألوان التعليم الحديث ، الذى هو نتاج الفكر التربوى ، ولقد تبلورت صورة المدرسة بين ثنايا هذا الفكر إلى تلك الصورة الشاملة المتكاملة بعد أن تبين عجز الصورة السائدة للمدرسة الثانوية التقليدية فى إعداد الشباب للحياة فى مجتمعنا المعاصر.

ولقد تعرض التعليم الثانوى خلال القرن العشرين إلى ضغوط متباينة ، أحدثتها الانفجارات السكانية وبالتالى النمو المتزايد فى إعداد الناشئة من أصحاب القدرات والمستويات المتباينة ، الذين ينبغى أن تكفل لهم الدولة أماكن فى المرحلة الثانوية من ناحية ، فضلاً عن نوع التعليم الذى ينبغى أن تقدمه لهم من ناحية أخرى بحيث يساير التقدم العلمى والتكنولوجى وما يصحبه من تحول اجتماعى واقتصادى كبيرين .

لذا كان إنشاء نظام تعليمى تمزج فيه الثقافة العلمية العامة والأكاديمية بالدراسات التقنية والتطبيقية العلمية المرتبطة بالحياة وشئونها ، أمراً ضروريا فى عصرنا هذا ، عبرت عنه الصور المختلفة لهذا النظام سواء فى الشرق أو فى الغرب ، فلقد ظهر فى الدول الاشتراكية ما يعرف بالتعليم البوليتكنيكى ، كما ظهر فى الولايات المتحدة وبريطانيا والسويد ما يعرف بالمدارس الشاملة .

ولقد طاف هذا الكتاب بالآراء والأفكار التربوية التى لازمت نظم التعليم فى مختلف بلاد العالم وعلى فترات من الزمن ، حتى كانت صورة التعليم الشامل الذى ننشد فيه الآن الوسيلة المناسبة لإعداد أبنائنا لمواجهة الحياة المتطورة السريعة التغير ، بغية تحقيق أهداف نستطيع أن نستخلصها على النحو التالى :

— مواجهة الفروق الفردية بين التلاميذ من حيث القدرات والاستعدادات ، ثم الميول والاتجاهات التى تكون قد تكشفت واتضحت فى هذه المرحلة .

— التغلب على صعوبة تحديد المستقبل المهنى التلاميذ فى مرحلة مبكرة من التعليم ، وتوفير الفرص المتكافئة لهم فى المدرسة الشاملة ليتابع كل منهم نوع التعليم الذى تؤهله له قدراته .

— إزالة الطبقية العلمية بين التلاميذ ، والفوارق المصطنعة بين التعليم الفنى من جانب والتعليم العام من جانب آخر ، الأمر الذى كان يسبب التهافت على نوع والعزوف عن الآخر .

— توفير التعليم المهنى وفرص التوظف لمن لا يرغب فى مواصلة الدراسة بعد المرحلة الثانوية لسبب من الأسباب ، ولمن لا تؤهلهم قدراتهم متابعة التعليم العالى ، أو تضطرهم الظروف للتوقف عن الدراسة .

وبناء على ذلك يكون تطوير التعليم إلى الشكل الشامل جزءاً هاما من التطوير

الاقتصادى والاجتماعى والثقافى ، بل الإنسانى الاخلاقى لمجتمعنا الذى نعيشه الآن.

وإذا أردنا أن نستخلص الملامح الأساسية التى تميز التعليم الشامل عن غيره من ألوان التعليم السابقة له ، نستطيع أن نحدد له المبادئ الأساسية الآتية :

– مبدأ الشمول بمعنى أن تضم المدرسة طلاباً من مختلف القدرات والاستعدادات ومن مختلف المستويات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، وبمعنى أيضا أن تقدم المدرسة أنواعاً من البرامج الأساسية والأنشطة التربوية تتلاءم مع هذه القدرات ومع حاجات الأفراد والمجتمع .

– مبدأ التكامل ، بحيث تكون موضوعات الدراسة متكاملة مع أنواع النشاط التربوى من النواحى الفكرية والعلمية والفنية على المستوى الأفقى فى كل سنة دراسية ، وعلى المستوى الرأسى طوال سنى الدراسة الثانوية ، كذلك يكون التكامل فى أن تهدف الدراسة إلى تمكين التلاميذ من تطوير شخصياتهم من النواحى الجسمية والروحية والفكرية ، وتنمية مهاراتهم واتجاهاتهم السليمة.

– مبدأ التفاعل مع المجتمع والتأثير فيه لإصلاحه وتجديده وتحقيق التقدم المطرد ، فيتأثر التلاميذ بخير ما فى المجتمع من قيم وفضائل وتطلعات ، كما يتمكنون من المساهمة فى الخدمات الاجتماعية ، والنهوض بمتطلبات المواطنة ، وإبراز خصائص ومقومات الوطن ، وإحياء قيمه ومعتقداته السامية .

– مبدأ تنظيم المجتمع المدرسى للمدرسة الشاملة ، وتنظيم البرامج التربوية والمناشط ، بما يكفى الحياة الاجتماعية السليمة فى المدرسة ، ويجعلها مجتمعا يسوده التعاون والتضامن ، ويزخر بالنشاط والحياة .

ولعل القارئ أن يستمتع بما عرضه المؤلف من خواطر وفلسفات أدت بمفكرى

العالم شرقه وغربه إلى تحديث التعليم وما أدى بنا فى مصر إلى تجريب العديد من الصور الحديثة للتعليم لننتقى ما يلائم طبيعة مجتمعنا الأصيل وحضارتنا العريضة العريقة عبر القرون .

والله ولى التوفيق ،

دكتور مصطفى كمال حلمى

١ – أصل تعليمنا التقليدى

الظاهرة المميزة لتاريخ التعلم حتى منتصف القرن العشرين إنما هى : إما وجود نظام تعليمى واحد لقلة من الأفراد ، أو وجود نظامين : أحدهما للقلة والآخر للسواد الأعظم . وكما هى عادة مراجع التاريخ فإنها تبدأ عند كلامها عن تاريخ التعليم من مصر أيضا : فقد روت المصادر أنها عرفت التعليم النظامى إبان حكم المملكة القديمة (٢٩٨٠ ق.م – ١٤٧٥ ق.م) . فكانت هناك مدارس ملحقة بالقصور تعلم أبناء العائلة المالكة والطبقة الثرية فن الكتابة والسلوكيات والفلسفة العملية وآداب اللباقة الاجتماعية والرياضة البدنية ، وبخاصة السباحة .

وسبقت مصر العالم أيضاً فى معرفة معاهد القيادة الإدارية ، وكان يلتحق بها المميزون من أبناء الطبقة الوسطى . وقد أشاد الفيلسوف اليونانى أفلاطون فى مؤلفاته الأخيرة بالتعليم فى مصر . وهذا يثبت صحة ما قيل عن زيارته لها ، وأعجب

بدراسة المصريين للرياضيات إلى درجة أنه ذم اليونانيين وقال : إنهم بالمقارنة بالمصريين يبدون أقرب إلى الحلاليف !

ولم تختلف الحال فى الصين ، ولو أننا غير متيقنين من تاريخها قبل كونفوشيوس . وقيل : إن نظام التعليم الصينى الذى استمر حتى القرن التاسع عشر ، قد تركزت مهمته على إعداد موظفين للدولة ، وعلى غاية أخلاقية ترمى إلى تدعيم الخير فى النفس البشرية : فقد تصور حكماء الصين وجود صراع بين «شن» Shen وكوى Kwei ، وبين الجوهر الربانى «يانج» وجوهر الأرض ين Yin . ويرمى التعليم إلى مناصرة الجوهر الربانى حتى ينتصر على الأرواح الشريرة المنبعثة من «الكوى» .

وتتمثل الأرواح الخيرة فى رعايتها للنظام والجمال والاتساق والسمو بالذات ، وقد نجح نظام الصين أمداً طويلاً ، وحكمت البلادَ طبقة تعرف «باللِيتَراتى» .

ومن الشخصيات البارزة التى تتحدث عنها مراجع التعليم فى الصين «هونج شانج» الذى كان يحفظ التراث كله عن ظهر قلب ، وبخاصة مأثورة كونفوشيوس عن الربيع والخريف ، ونظر إلى باقى موضوعات المعرفة كالجبر والفلك كمجرد وسائل لبلوغ الشاعرية .

ولعل هذه الصورة لا تختلف كثيرا وصورة «الجنتلمان» التى شاعت حديثاً : فالجنتلمان الصينى أيضاً يحفظ قدراً كبيراً من النوادر والنكات والطرائف ، ويكثر من الاستشهاد بالكلاسيكيات ، ويتجنب فى أحاديثه أى خوض فى المسائل السياسية .

ولكن كيف اعتبرت هذه الخصائص إعدادا للقيادة السياسية والإدارية فى بلد متسع الأطراف كالصين ؟ «هنا يتقدم عالم الاجتماع ماكس ڤيبر بتفسير طريف :

فالصينيون يعتبرون الشعر والحكمة قمة المعرفة ، ومن يملكهما يثبت أنه يملك «الخارزما» : أى الهالة السحرية التى تدل على التميز وتبهر الآخرين . ويبرهن المثقف عن تمتعه «بالخاريزما» باتباع أساليب شتى كالتأنق فى تحرير رسائله وقراراته . وهذا دليل على صفاء ذهنه وروحه وقهره للأرواح الشريرة فى الطبيعة والبشر .

والهند أيضا – كان التعليم فيها من حق نخبة من الكهان والمنتمين إلى العشائر العليا ، ولاحق للمنبوذين فى التعليم على الإطلاق . أما أبناء الأعيان والتجار فيحق لهم الالتحاق بمدارس القرى التى تعلم القراءة والكتابة والعمليات الحسابية البسيطة التى تساعد على التعرف على النقود والموازين .

والتعليم عند العبرانيين يرمى إلى الناحية العملية والتدريب على ممارسة الشعائر والطقوس وتفسير الكتب المقدسة فى المعابد .

وتستحق اليونان دائما كثيراً من الكلام – وكان التعليم موضوعا أساسياً فى فلسفاتهم و«جمهورية أفلاطون» كتاب تربوياً أكثر منه سياسياً . ويعبر أفلاطون أحياناً عن روح عصره ، وفى أحيان أخرى سبق زمانه وربما عصرنا أيضا : فهو قد ردد الأفكار التى عاصرته عندما وضع نظاماً لتعليم الحراس (أو القادة بلغتنا) ونظاماً آخر لتعليم عامة الناس ، يتضمن تدريباً مهنياً على مختلف الحرف . وهذا أساس الاختلاف المعاصر بين «التعليم» و«التدريب» : فالتعليم يعنى المعرفة الحق Knowing that والإحاطة بالمبادئ الكلية . أما «التدريب» فيتناول مسائل عابرة كاكتساب المهارات والممارسة العملية ، أى Knowing how

والمعرفة الأولى لا تحتاج إلى أى مجهود بدنى ، وغير مرتبطة بالحذق اليدوى ؛ لأنها ذهنية صرفة تخص العلم بالمبادئ وفهم الطبيعة البشرية ، والتفرقة بين الخير

والشر ، وإدراك القيم التى تتسامى على الظنون والمهارات اليدوية ؛ لأنها تخص من يؤهلون لوظائف الحكم والوظائف القيادية التى تحتاج إلى عقل صرف ، أما المعرفة (الثانية) ، فتابعة للأولى تبعية الأطراف للعقل نفسها .

والموضوع المشترك فى نظامى التعليم هو غرس فضائل المواطن فى نفوس الناس ، وتعليمهم العادات التى تحثهم على اتباع القانون فى كل أفعالهم ، ومصر فى نظر أفلاطون هى المثل الأعلى للتعليم : فقد أدرك القادة المصريون أثر الموسيقى والتربية البدنية فى تقويم السلوك ، وأثر الرياضيات فى خلق عقول نيرة .

ومن دلائل اهتمام أفلاطون بالتعليم أنه ذكر تفاصيل كثيرة عنه وعن ضروراته ؛ حتى إنه حدد سن وزير التعليم ، فقال : إنه يجب أن يناهز الخمسين ويكون متزوجاً وله أبناء ، ويختار من طبقة الحراس ، وتعد وظيفته أرفع وظائف الدولة ؛ فهى معادلة لما نسميه الآن رئيس الوزراء [1] .

ولعل إسرائيل قد عمدت إلى تطبيق نظرية أفلاطون فى محاورة «القوانين» عندما عينت جولدا مائير — وهى ناظرة سابقة — رئيسة للوزراء ، حتى تثبت أهميتها ورسوخ قدمها فى عالم الحضارة .

ومن الأفكار النيرة التى سبق فيها أفلاطون عصره فكرة إنشاء مدرسة للمعلمين لتوحيد الموضوعات الدراسية ، ووضع منهج دراسى يشعر مريد العلم بوحدة المعرفة . ودعا أفلاطون إلى التعليم الإجبارى ؛ لأن الأطفال يتبعون الدولة أكثر من تبعيتهم لأمهاتهم وآبائهم . ومن أفكاره الثورية أنه نادى بتعليم الفتاة المنهج الذى

---

(١) Greek Polifical Theory (ص ٤٣٣ – ٣٥ – ٣٦) تأليف إرنست باركر.

(٢) أنشئت أول دار للمعلمين فى إنجلترا فى منتصف القرن الماضى .

يدرس هو نفسه للفتى ، ولكنه لم يباد بالتعلم المشترك .

وأدرك أفلاطون ضرورة عناية الدولة بما نسميه الآن المرحلة الثانوية ، أى لا ينتهى التعليم بمجرد الإلمام بمبادئ القراءة والكتابة . فهو يرى التلميذ «حيواناً» صعب الترويض نفسه مملوءة بالعكارة والشوائب ، ومحاجة إلى لجام وتوجيه دائم لسلوكه . ولا يعترض أفلاطون على اللجوء إلى الشدة فى تقويم المراهقين . فلا بأس فى نظره من تهذيبهم ، كما يهذب العبيد . ولابد أن تبدأ الدراسة كل صباح من شروق الشمس ؛ لأن الحياة قصيرة ، والتعليم الوافى يحتاج إلى زمن طويل .

هذا الكلام قاله أفلاطون عن عصر سعيد لم يعرف فى منهج الدراسة الثانوية غير موضوعات ثلاثة هى الأدب والموسيقى وأوليات الحساب .

ومن رأيه أيضاً ضرورة اكتمال تدريس كل موضوع قبل الانتقال إلى الموضوع التالى : فالأدب يدرس من سن العاشرة حتى الثالثة عشرة والموسيقى من سن الثالثة عشرة حتى السادسة عشرة . ولم يذكر متى يبدأ تدريس أوليات الحساب ، ولكنه ذكر أنها تنتهى فى الوقت الذى ينتهى فيه نفسه تعليم الموسيقى .

ونصح أفلاطون باختيار أشعار مناسبة لا تفسد السلوك ، وتهذب الروح . والرياضيات لها القدح المعلى عنده فهو يطالب بمعرفة هندسية تتجاوز الجوانب العملية . وانتقد اليونانيين ؛ لأنهم ظنوا أن الأبعاد الثلاثة تقبل القياس دائماً لخلو ذهنهم من مشكلة الأعداد اللامتناهية . وبعد سن السادسة عشرة تتوقف دراسة الأدب والموسيقى ، ويلتحق الطالب «بالجمنازيوم» ويبقى فيها سنتين يحصل بعدهما على لقب المواطن : أى عندما ينتهى من كل مراحل التعليم فى سن الثامنة عشرة ، ويسمى مواطناً كاملاً عندما يبلغ العشرين من عمره .

والرومان شعب عملى قليل العناية بالفكر النظرى ؛ ومن ثم عنوا بالناحية

السلوكية ، وبعد إنشاء مدينة روما (٧٥٣ ق . م) وخلال القرون الخمسة الأولى ، وقبل التأثر باليونان – كانت الأسرة المسئول الأول عن التعليم : فهى التى تعد أبناءها لكى يصبحوا مواطنين رومانيين ، يحفظون عن ظهر قلب القوانين الرومانية الاثنى عشر ، ويسترشدون بها فى سلوكياتهم. وقرابة نهاية هذه الحقبة – ظهرت بضع مدارس ابتدائية خاصة لتعليم أوليات القراءة والكتابة والحساب .

ولما اتسعت الإمبراطورية الرومانية أنشئت جملة مدارس كانت تعنى بالأدب واليونانيات بخاصة ، ولذا ترجمت الأوديسا إلى اللاتينية ، ونزح المدرسون اليونانيون إلى روما وأنشئوا مدارس للنحو وللخطابة ، واعتاد الرومان إرسال أبنائهم إلى اليونان لإكمال الدراسة .

وبعد إنشاء الإمبراطورية فى بداية القرن الأول ق.م انقسم التعليم إلى مرحلتين : مرحلة ابتدائية تعقبهامرحلة المدرسة الأجرومية التى انقسمت إلى نوعين : مدارس لاتينية وأخرى يونانية انتشرت فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، وتضمن منهجها إلى جانب قواعد اللغة اللاتينية تاريخ الرومان وعلمهم وأدبهم ، والرياضيات وعلم الجدل (الديالكتيك)

وبعد الانتهاء من هذه الدراسة فى سن الخامسة عشرة يلتحق الصبى الرومانى بمدرسة البلاغة (الريتوريقا) ، ويعد نفسه للحياة العامة ، ويعلم فيها الخطابة والموسيقى والحساب والهندسة والفلك والفلسفة . وغاية هذه المدرسة إخراج الخطيب المفوه الذى يعتمد على بلاغته وقدرته على الخطابة فى النهوض بالوظائف القيادية .

وترك لنا المفكر الإيطالى كونتليان فى كتابه De Instutlutione oraforia تصور الرومان للخطابة ، أول بحث واف عن التعليم . وقامت المكتبات العامة بدور

تعليمى كبير فى عهد الرومان ، وكانوا يجمعون الكتب فى أثناء غزواتهم . وفى هذه المكتبات كانت تدرس اللاتينية واليونانية والفلسفة والقانون والطب وفن العمارة والرياضيات .

وبعد أن انهارت روما تدهور نظامها التعليمى ، وأصيب بالجمود ، وانتقل الاهتمام بالتعليم إلى المسيحية التى انتشرت إبان القرنين الرابع والخامس . واضطلع آباء الكنيسة بمهمة نشر المسيحية فى البلدان الوثنية ، وفلسفوا العقيدة ، وشرحوا جوانبها العملية لعامة الناس . وتحولت المدارس الرومانية إلى مدارس مختلفة : بعضها تولى الرد على هجوم الفلسفة اليونانية ، وبعضها – ويدعى Catechumental أو Catechetical – يعلم المؤمنين العقيدة . وهذه المدارس هى أصل المدارس البطريركية ومدارس الفاتيكان فيما بعد التى تعلم فيها القسس فى القرون الوسطى وما تلاها من عهود

ولم يكتف أهل العلم من رجال الكنيسة بتعليم شروح الكتب المقدسة ، ولكنهم تعمقوا فى معظم العلوم وقسموها إلى ما يدعى بالفنون الحرة السبعة وتنقسم إلى قسم ثلاثى Trivium (النحو والخطابة والجدل) وقسم رباعىQuadrium يشمل الحساب والهندسة والموسيقى والفلك . والقسم الأول هو نواة ما نسميه حاليا بالشعبة الأدبية ، والقسم الآخر هو أصل الشعب العلمية فى نظامنا التعليمى .

ولما جاء القرن الحادى عشر ، وانتهت عزلة القرون الوسطى ، وتأثرت المسيحية بجملة حضارات أخرى وظهرت الحركة المدرسية (الأسكولائية) التى حاولت التوفيق بين الإيمان والعقل – أثمرت هذه الحركة جملة جامعات ومدارس كانت تعتمد على اللغة اللاتينية ، وتنوعت مدارس اللغة اللاتينية ، فلم تعد مقصورة – كما كانت الحال فى بداية المسيحية – على تعليم النشء أسرار العبادة ، ولكنها جمعت

بين المواد الدينية والعلمانية ، واشترك فى إنشائها النقابات والجمعيات الدينية والخيرية . واتخذت الدراسات اللاتينية الصدارة على الدراسات اللاهوتية ، فأصبحت مشابهة فى رسالتها لرسالة مدارسنا الثانوية حالياً ، ولما انتهى النظام الإقطاعى تحولت هى والجامعات إلى تعليم نظامى تعلم فيه حكام أوربا وأتباعهم زهاء ثلاثة قرون .

وفى مقابل هذه المدارس التى تحولت من مهمة إعداد رجال الدين إلى مهمة إعداد الحكام — حدث تحول كبير بين القرنين الثانى عشر والسادس عشر نتيجةً لازدهار التجارة ، واتساع أسواقها ، وظهور المدن الجديدة وفئات جديدة من الحرفيين والتجار ، وانعكس هذا التغيير فى ظهور نظام تعليمى جديد بعيد الاختلاف عن الأنظمة السابقة ، إذ كان أبناء هذه الفئات لا يهتمون باللاتينية وآدابها ، وكل ما يعنيهم هو معرفة مبادئ القراءة والكتابة والحساب ؛ ومن ثم ظهرت مدارس مستحدثة لتعليم هذه المواد باللغة الدارجة . وهذا هو أصل النوع الآخر من المدارس التى تعلم فيها الدهماء أو الفقراء .

وقبل إنشاء المدن وانتعاش التجارة — كان التدريب العملى على مختلف الحرف فى الزراعة والتجارة والصناعة يتم فى المنزل أو المتجر أو الورشة ، فلما أنشئت المدن ظهرت نقابات لأصحاب مختلف الحرف قامت بتنظيم تدريب خاص لإعداد الحرفيين .

هذا عن « روما » ولكننا نسينا الدور الكبير الذى قام به الإسلام ، ولعله فى جملة نواح كان أكثر تقدماً وعلماً ؛ إذ كان باب التعلم مفتوحاً أمام المسلمين لكل من شاء ، متى استطاع أهله أن ينفقوا عليه ، أو استطاع هو أن يجد ما يقتات به ، ولذا نبغ كثير من الأدباء والعلماء من طبقات فقيرة كأبى العتاهية ، وكان خزافاً ؛ كما

كان أبو تمام يسقى الناس بالجرة فى جامع عمرو بن العاص بمصر ، وكان أبو يوسف القاضى فى صباه قصاراً ، وكان يهرب من القصار ويذهب إلى حلقة أبى حنيفة .

ومناهج التعلم مختلفة باختلاف الغرض الذى يرمى إليه المتعلم : فنهج من أعد ليكون كاتباً غير منهج من أراد أن يكون محدثاً ، وكلاهما غير من أراد أن يكون طبيباً أو فيلسوفا .

ويروى فى تراجم العلماء أنهم ذهبوا أولاً إلى الكتاتيب ثم إلى حلقات للدروس ، فنهم : من تعلم الشعر ، ومنهم من أخذ الحديث وتفسير القرآن ، ومنهم من درس علم الكلام ، وكثير منهم كان يجمع بين هذه الأشياء ، فيلازم شيخه حتى يأخذ علمه ، ثم يتحول إلى حلقة أخرى ، وهكذا كانت المناهج مختلفة متشعبة متروكة لاختيار الطالب ورأى المعلم ، وهذا الاتجاه هو الاتجاه الحديث نفسه – كما سنرى .

وقصار القول إن التعليم فى الإسلام لم يعرف نظام المراحل الذى نقلناه عن الغرب ، ولكنه كان يجرى فى عدة مواقع كالكتاتيب وحلقات المساجد والمكتبات والمجالس والمناظرات ، بالإضافة إلى المعلم الخاص . واشتهر العرب بتنورهم وابتعادهم عن التعصب : فقد حافظوا على التراث اليونانى ، وترجموا ما جاوب احتياجاتهم ، وعلموا الغرب بعد ذلك الكثير من مبتكراتهم فى دراسات الجغرافيا والجبر والحساب والطب والجراحة والصيدلة وعلم وظائف الأعضاء !

وثمرة التفاعل الخصب بين الحضارتين العربية والغربية هو ما يسمى عند الأوربيين بعصر النهضة (الرينسانس) . وخلال هذا العصر الهام تغيرت مُثل حضارية كثيرة ، واتخذت العلوم والفنون والآداب الصدارة فى مناهج التعليم بمختلف المدارس ، وتراجعت العلوم الكنائسية ، واقتصرت فى الأغلب على

مدارس الإكليروس. وعبر باولوس فيرجيريوس أحسن تعبير عن هذا الاتجاه الجديد بقوله :

« إننا نسمى الدراسات التى تناسب الأمراء دراسات حرة ، أو (ليبرالية) ، إنها الدراسات التى تساعدنا على بلوغ الفضيلة والحكمة ، وتدرب الملكات العليا للجسم والعقل : أى الملكات التى تشرف الإنسان ، ولا يسمو إليها إلا باتباع الفضيلة ! » .

هذه هى نواة « الإنسانيات » التى اكتشف حكماء عصر النهضة امتلاء التراث الكلاسيكى (اليونانى الرومانى) بها ، ومن ثم عنوا باللغتين اليونانية واللاتينية بوصفهما مفتاحين لكنوز حضارات الماضى. وتأثر التعليم بهذه النزعة الجديدة التى تسمى النزعة الإنسانية أو « الهيومانية » ، وتضمنت مناهج التعليم مختارات من اليونانيات واللاتينيات الكلاسيكية بدلا من الدراسات اللاتينية الكنائسية ، وترتب على هذا الاتجاه نشوب خلاف كبير بين السلطات الكنائسية وأهل العلم حول من يحق له الإشراف على المدارس.

وفى إيطاليا وألمانيا وإنجلترا أنشئت مدارس أرستقراطية تدرس فيها معتقدات عصر الفروسية والنزعة الهيومانية (الإنسانية) ، وسميت هذه المدارس فى ألمانيا والبلدان التيتونية بالجمنازيوم. وهو اسم يونانى عرفناه عند الكلام عن أفلاطون. ووضع أول نموذج لهذه المدرسة يوهان شتورم (١٥٠٧ - ١٥٨٩) ، وظهرت فى إنجلترا المدارس العامة Public School مثل وينشستر (١٣٥٩) وإيتون (١٤٤٠).

ولكن رجال الكنيسة لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذا الانتصار « الوثنى » ؛ فسرعان ما ظهرت حركة الإصلاح الدينى التى اتخذت شعارها تحرر الفرد ،

والتضرع المباشر لله بدلا من الاعتماد على وساطة الكنيسة . ولما كانت الإرادة الإلهية تتكشف للإنسان فى أوضح صورها فى الكتب المقدسة فلذا أصبحت دراسة الإنجيل ضرورة للخلاص : أى لم تعد وقفاً على القساوسة الذين يدعون التفرد فى فهم الكتب المقدسة ؛ فلكلٍّ الحق فى ذلك ، والحصول على تعليم ييسر له هذه الغاية ، ومن ثم وضعت حركة الإصلاح الدينى (البروتستانتية) أساس التعليم الابتدائى بالدارجة ، واعتمدت على تقدم الطباعة ، وتدفقت الكتب والجرائد والمجلات ، وبذلك استرد رجال الدين سلطانهم على التعليم . وحدثت حركة كاثوليكية مناهضة للبروتستانتية اتبعت الوسائل نفسها وألف «لويولا» جماعة الجزويت أو «اليسوعيين» (١٥٤٠) الذين كرسوا حياتهم لنشر التعليم الثانوى ، وأسسوا مدارس ممتازة من ناحية الإدارة والإشراف وتدريب المدرسين ، وانفرد رجال الدين بالسيطرة على التعليم حتى نهاية القرن الثامن عشر.

وفى القرن التاسع عشر ، وعقب الثورة الفرنسية – نهض التعليم النظامى وتكاثر عدد المدارس وتلاميذها ، وانتشرت فى سائر البقاع ، وغدت ركناً هاماً فى حياة المجتمع ، لا يقل عن دور الدولة والكنيسة والأسرة . وتأثر التعليم بالثورات والحركات السياسية الكبرى كالنزعة القومية ، والثورة الصناعية . وأول سياسة قومية للتعليم ظهرت فى ألمانيا ، فقد اهتم ملوك بروسيا بالتعليم ، وشجعوا على إجراء تجارب فيه وتضمن الدستور Allgemeine Landrecht بنوداً خاصة بتنظيم التعليم .

وتجدد الصراع بين الكنيسة والدولة حول مهمة الإشراف على التعليم ، ولن نهتم بالخوض فى تفاصيله ، ولكننا نكتفى بالقول بأن أهم آثاره هو تغير غاية التعليم : فبعد أن كانت غايته عند الكنيسة مساعدة الفرد على الخلاص والتكفير

عن الخطيئة – أصبحت الغاية المصلحة القومية ، واختلفت من بلد لآخر الأراء حول : ما المواطن الصالح ولكنها اتفقت فى الأغلب على التركيز على جانب الولاء عند الفرد ، وتقوية شعوره الوطنى . وتنافست الحكومات والهيئات والأحزاب فى نشر التعليم باسم الديمقراطية لكسب أصوات الناخبين . وقيل فى تبرير ذلك : إن المواطن الصالح يجب أن يلم بالقراءة والكتابة ، ويعى المسائل العامة قبل أن يعطى حق الانتخاب ، ولن يتحقق هذا إلا عن طريق التعليم . وسمح بفتح المدارس الخاصة ، وظهرت قوانين للتعليم الإلزامى من سن ٧ إلى سن ١٣ . وراجت أيضا النظريات الداعية إلى تكافؤ الفرص . ولكن من الناحية العملية لم يتمتع بالتعليم الصحيح سوى حفنة صغيرة من أبناء الطبقة المميزة ، أما الباقون فلم يحصلوا إلا على قدر هزيل من التعليم الابتدائى ، ونادراً ماصعد أحد منهم إلى المراتب العليا باستثناء الولايات المتحدة التى ستحدث عنها فى فصل تال .

ونتنقل إلى الثورة الصناعية ، وأثرها على التعليم . وغنى عن القول أن التعليم لم يعد قادراً على الاكتفاء بالخبرة الحرفية السابقة ، وأنه قد احتاج إلى نوعيات جديدة من الخبرات المركبة التى نهضت بالعلوم الأكاديمية ذاتها . وكان الزارع فى الماضى لا يحتاج حتى إلى معرفة القراءة والكتابة ، أما العامل الصناعى فيمضى حياته كلها فى التدريب على تشغيل الآلات الدائمة التطور . وأثرت الصناعة أيضاً على حياة الأسرة التى لم تعد قادرة على التفرغ لتربية أبنائها ، وأصبحت بحاجة إلى دور للحضانة . ونهض التعليم الفنى ، وانتشرت مدارسه التى تتكلف نفقات باهظة يعجز الأفراد وأصحاب المدارس الخاصة عن مكابدتها ، ومن هنا تولت الحكومات فى أغلب الدول مهمة إنشاء مدارس هذا النوع الجديد .

واستمر التمسك بأفضلية التعليم النظرى ، وإيثاره على التعليم الفنى فى أغلب

الدول الأوربية حتى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) . وتدخلت الأهواء الطبقية فى هذا التفضيل .

هذه هى الملامح المشتركة فى تاريخ التعليم فى أوربا . ونلاحظ أن أهم التغيرات التى طرأت على أنظمة التعليم كانت بفعل مؤثرات خارجية كظهور أديان جديدة كالمسيحية والإسلام ، ثم ازدهار التجارة وبزوغ المدن بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر ، والحاجة إلى زيادة الإنتاج ، وتشغيل الأدوات الصناعية والتكنولوجيا الحديثة ، والنهوض بالمهام الإدارية الواسعة التى خلقتها الثورة الصناعية ، واكتشاف أسواق جديدة للتجارة الخارجية . ولما كانت الحركات القومية قد خلقت فروقاً بين الأنظمة التعليمية المختلفة فلذا ينبغى أن تتضمن هذه الخلاصة التاريخية، نبذة مختصرة عن حال التعليم فى البلدين الأوربيين الرئيسين اللذين تأثرنا بهما (فرنسا وإنجلترا) وكذلك ألمانيا باعتبارها ممثلة لذروة التعليم التقليدى .

ونبدأ بفرنسا : فهى أول دولة تأثرت الحياة المصرية بنظمها التعليمية عندما اتجه محمد على إلى «أوربة» ، وكعادتها ، رحبت فرنسا على الفور بكل مايختص ، بنشر الثقافة الفرنسية . ومن حسن حظ محمد على أن فرنسا كانت مازالت متأثرة بعهد نابليون الذى تجاوب هو وغايات محمد على . ولربما كانت فرنسا أكثر بلدان العالم عشقا للحضارة وفن الحياة . وهناك نوادر كثيرة تروى عن ارتفاع المستوى الثقافى للأفراد فيقال : إن مليونيراً أمريكيا بهت عندما استمع إلى طاهيه الفرنسى يتحدث بطلاقة عن الشاعر بول ڤيرلن .

وبدأ التاريخ الحديث لفرنسا بثورتها الشهيرة التى أثرت بطبيعة الحال على التعليم ، وجعلته قوميا ، بدلاً من خضوعه لسيطرة اليسوعيين . وفى سنة ١٧٩٦ ،

نشر الوزير الفرنسى تاليران وثيقة لتنظيم التعليم قال فيها :

إن غاية الدولة هى زيادة رفاهية الشعب عن طريق تنويرهم . وقبل ذلك قال الفيلسوف كوندورسيه من عهد التنوير بالقرن الثامن عشر العبارة التى نقلتها أغلب دساتير العالم عن دور التعليم فى خلق تكافؤ الفرص حتى يستفاد من طاقة البشر إلى أقصى حد .

وعندما تحمس الفرنسيون لتكافؤ الفرص ، ورأوا ضرورة تعميم التعليم لم يخطر ببالهم أن يكون التعليم إلزامياً لأكثر من المرحلة الابتدائية . واهتم نابليون وأنشأ ديواناً للإشراف عليه ، ولكنه فى الحقيقة جعل التعليم وسيلة لتحقيق طموحه الحربى : فكان كل تخطيط تربوى يرمى إلى خلق الصناعات والكفايات التى تخدم غاياته العسكرية ، التعليم ديمقراطى بالاسم ؛ إذ كان التعليم الابتدائى وحده مفتوحاً لجميع الطبقات .

أما التعليم الثانوى والجامعى فمن حق الأثرياء وميسورى الحال وحدهم الذين يستطيعون الالتحاق إما بالمدارس اليسوعية أو الدومنيكية الممتازة ، أو يلتحقون بمدارس الليسيه التى تعد استمراراً للمدارس اللاتينية التى سبق أن تحدثنا عنها . وأول ليسيه أنشئت سنة ١٧٨٦ ، فى عصر التنوير . وكانت فى صورة جامعة صغيرة ، وألقى فيها مشاهير فلاسفة فرنسا محاضراتهم : فقام مارمونتيل بإلقاء محاضرات فى التاريخ ، وألقى كوندورسيه محاضرات فى الرياضة والفلسفة والكيمياء وعلم وظائف الأعضاء والتاريخ الطبيعى ، ونشرت هذه المحاضرات تحت عنوان « ليسيه » . وكانت الليسيه فى عهد نابليون تدار بأسلوب شبه عسكرى ، ونجح

---

(١) الليسيه فى الأصل اسم جبل فى أركاديا باليونان ، وأيضاً اسم متنزه فى أثينا على شاطئ أحد الأنهار . اعتاد أرسطو إلقاء محاضراته فيه .

نابليون فى تحويل الكثير من مدارس اليسوعيين إلى مدارس ليسية . أما المدارس الثانوية التى تديرها السلطات المحلية ، أو ربما تحصل على إعانة من الدولة – فتسمى كوليج ، وتحول بعضها إلى ليسيهات بعد الثورة .

واستمر فترة طويلة الخلاف بين السلطات الحاكمة والهيئات الدينية حول تبعية المدارس الثانوية ، وانتهى الأمر بأن أصبحت المدارس اليسوعية دينية فى المظهر الخارجى فقط ، ولكنها من الناحية الواقعية والفعلية تتبع المناهج العلمية المقررة نفسها بالليسيه . وغاية التعليم فى فرنسا ليست عملية أو اقتصادية ؛ فهى ترمى إلى خلق الـ honn te homme ، المثقف ثقافة أدبية واسعة ، أى تخلق محدثين ظرفاء يملئون الصالونات بهجة وظرفا ، ولم يخطر على بال فلاسفة التعليم الفرنسيين دور التعليم فى زيادة الدخل القومى أو النهوض بالصناعة . واعتبر نظام التعليم مسئولاً عن كارثة ١٩٤٠ عندما انهارت فرنسا فى أيام قليلة .

وبعد أن انتهت الحرب حاولت الجمهورية الرابعة تنفيذ وعود الجمهورية الثالثة : أى إقامة نظام حديث يناسب القرن العشرين بدلاً من النظام التقليدى الذى تجمد بعد القرن السابع عشر ، ولم يعد مضمونه مسايراً للعصر . ولكن الحكومة واجهت مصاعب اقتصادية بسبب هبوط الفرنك وسوء حالة المشتغلين بالتعليم الذين كانوا يحصلون على رواتب متواضعة (ولعلنا نذكر المدارس المسكين فى رواية توباز لمارسيل بانيول التى نقلناها جملة مرات للعربية ، واعتقدنا أنها تمثل واقعنا تمثيلاً صحيحاً) .

والعيب الثانى هو بعبع « البكالوريا » أو « الباشو » التى تركزت على العلوم المجردة والمسائل النحوية ، ولا عجب إذا رسب فيها أديب كبير كأندريه جيد والأديبة المشهورة فرانسواز ساجان . ومن الشخصيات العظيمة التى تركت آثاراً واضحة على

التعليم فى فرنسا شخصية الوزير الكبير «دوريه» Duray الذى استغل ثقة الإمبراطور لويس نابليون عندما اختاره وزيراً أول ١٨٦٠ ، ونفذ إصلاحات هامة فى التعليم الفرنسى . وأقنعه بالعلاقة الوثيقة بين مستوى التعليم وحل المشكلات السياسية فى رسالة شهيرة قال فيها : «لما كانت فرنسا هى مركز الحضارة العالمية فلذا علينا أن نرفع المستوى الثقافى لأولئك الذين سيدافعون عن الحرية ويشرفون الدولة فى ميادين الأدب والعلم والفلسفة والتاريخ ، وبذلك تثبت أرستقراطية العقل» .

ونبه الوزير إلى ما طرأ من تغير على مستوى الشعب ، ونادى بضرورة الاهتمام بتعليم المرأة ، وقدم برنامجاً سخياً لم يسبق لوزير فرنسى التقدم به : فمنذ تولى المؤرخ «جيزو» وزارة التربية والتعليم ١٨٣٣ ، لم تتحسن أوضاع التعليم الابتدائى — وكانت هناك ملايين من الأميين. وخلت مقاطعات كثيرة من المدارس . وبعض التلاميذ يتعلمون بصورة غير منتظمة ؛ لأنهم مضطرون إلى ما يمسك رمقهم ورمق أسرهم ، إلى جانب الانتظام فى مدارسهم . والمدرسون لا يحصلون على أكثر من الكفاف. والمدرسات أسوأ حالا من المدرسين ، وأغلبهم يعيش فى ظروف غير آدمية على الإطلاق. والتعليم الحرفى غير معروف ، وعلم التاريخ يدرس بصورة مشوهة ممسوخة. ويعترض على أغلب موضوعات الفلسفة باعتبارها خطراً على الدين ، ولا أبنية مدرسية بالمعنى الصحيح أو معامل .

وبفضل «دوريه» أصبح التعليم الإبتدائى مجانياً ، واتسعت المدارس ، وارتفع مستوى المدرسين ، ورفعت مرتباتهم ، واستعادت مادة الفلسفة مكانتها الرفيعة ، وازدحمت المكتبات المدرسية بالرواد (وهذه دلالة هامة على ارتفاع مستوى التعليم) .

ولكن كل هذه الإصلاحات لم تكن كافية : فإبان حكم الجمهورية الخامسة

عمت الشكوى من النقص فى المهندسين برغم أن فرنسا من الدول الصناعية الأولى وصيتها فى العمارة غنى عن أى بيان وبرغم هذا فإن لديها حشوداً ضخمة من المحامين ، ولذا فمن الأحداث الممتعة بباريس الاستماع إلى مرافعة بليغة فى الطريق العام من سائق التاكسى أو بائعة الخضر أو الجزار ! وكلهم يستشهدون بجستنيان وبوفندورف وجروشيوس !

وفى ١٩٦٨ حدثت اضطرابات الشباب ، وكان من بين أسباب هذه الاضطرابات شعور الشباب بالضياع ؛ لأنهم لا يعرفون الغاية من نظامهم التعليمى أو مصير المواد المكدسة فى أمخاخهم ، لأن المنهج الفرنسى مزدحم بالموضوعات التى يتعذر استيعابها فى سنوات الدراسة القليلة . ونكتفى بهذا القدر عن فرنسا ونعود إليها فى مناسبة أخرى .

وننتقل إلى الكلام عن إنجلترا التى تزهو بأن نظامها التعليمى لا يرمى إلى شحن العقول بالنظريات والمعلومات ؛ لأن فلاسفتها يرون أن التعليم وسيلة لا غاية . ويكفى أن يعلم التلاميذ مبادئ العلوم التى تساعد على الاطلاع والبحث . فقيمة المرء لا تقاس بمقدار ما تعيه ذاكرته ، ولكنها تقاس بآثار هذا العلم على سلوكه . والإنجليز يفخرون بطابعهم العملى وكراهيتهم « لبعبع » الامتحان .

ومن النوادر التى قرأتها فى كتاب « الإنجليز فى بلادهم » لحافظ عفيفى منذ أكثر من أربعين سنة أن اللورد ألدون وزير العدل حصل على شهادة البكالوريوس بعد أن نجح فى الإجابة الشفوية على سؤالين : الأول الكلمة العبرية المرادفة لجمجمة ، والآخر من أسس إحدى كليات جامعته ؟ .

وتأخرت إنجلترا فى إشرافها الرسمى على التعليم ؛ إذ كانت مدارسها خاصة ، ولم تعرف التعليم الإلزامى إلا سنة ١٨٥٦ عندما صدر قانون يفرض على الآباء تعليم

آبائهم وعدم تشغيل الصبية إلا بعد البلوغ . ولعله من آثار تحرك الضمير الإنجليزى بعد أن قرأ أوليفر تويست لتشارلز ديكنز وغيرها . وبوجه عام لم يطبق هذا القانون بطريقة صحيحة إلا بعد صدور قانون جديد لوزير المعارف فيشر ١٩١٨ - ١٩٢١) صاحب كتاب «تاريخ أوربا» المعروف .

ونص هذا القانون على جعل التعليم إلزاميا حتى سن الرابعة عشرة ، وتضمن القانون بعض عبارات مهينة ! إذ نص صراحة على تعليم الفقراء مجاناً . ودارت مشاحنات لتحديد المستفيد الحقيقى من التعليم : الفرد أم الدولة ؟ . وفى الحالة الأولى لماذا تكابد الدولة نفقات هذا التعليم ، وتبعثر أموالها بلا مبرر ؟ وخشى بعض الرأسماليين أن يزداد التنوير فتسوء العاقبة . وهذا هو سر تأخر التعليم الإلزامى فى إنجلترا .

والتعليم الثانوى أرستقراطى المنزع بالرغم من تسمية مدارسه اسماً ديمقراطيًا هو Public Schools . فهى فى الحقيقة مدارس للخاصة . فلهم زى خاص ، وحلاقة شعر خاصة ، ومشية خاصة . ومن أهم فلاسفة هذه المدارس الشخصية الأسطورية الدكتور توماس أرنولد (١٧٩٥ - ١٨٤٢) ناظر مدرسة راجبى ووالد الناقد المعروف ماتيو أرنولد الذى علم كبار أدبائنا النقد الأدبى ، وفى طليعتهم العقاد وعلى أدهم .

ويزهو الدكتور أرنولد بأن مثله الأعلى هو السلوك القويم ، وأن العلم مسألة ثانوية ، والأدب فضلوه على العلم ، كما يقولون . وكثيراً ما ذكر أن الإنجليز قد كسبوا معركة واترلو فى مدرسة إيتون ، ورد عليه الفيلسوف الإنجليزى برتراندرسل - وكان يعرف أسرته معرفة عائلية - بأن الإمبراطورية البريطانية قد ضيعت ممتلكاتها فى إيتون أيضاً . وكان لأرنولد مقلدون كثيرون فى مصر ، كانوا يتباهون « بعبط »

التلاميذ صباح كل يوم ، مع إختلاف بسيط وهو أن الدكتور أرنولد كان يضرب التلاميذ الذين يرتكبون جرائم مخلة بالشرف فقط . أما «أرنولدات» مصر فكانوا ينتحلون أعذاراً مثيرة للسخرية لتبرير الضرب ، وإهدار شخصية الطالب !

وبالرغم من كل ما كان يقال عن عظمة التعليم الإنجليزى ، وتنافس أثريائنا على إلحاق أبنائهم بالمدارس الشهيرة : « إيتون » و « راجبى » فقد انكشف أمر هذا التعليم الأرستقراطى إبان الحرب . ففى تقارير تضمنها كتاب Foundation of Human Conflict لوليم برند قرأنا نقداً لجمود مناهج هذه المدارس التى تثبّت الأباطيل فى أمخاخ التلاميذ وتوحى لهم بأنها غير قابلة للنقد ، أو التغيير ، يتلقاها التلاميذ المساكين كقضايا مسلم بها ، وينقلونها إلى أخلافهم ، ويتحمسون حماساً أعمى فى الدفاع عنها .

وهكذا تجمدت المناهج الإنجليزية ، ولم تعد تساير العصر : فتلاميذ النصف الأول من قرننا لم يدرسوا حقائق نظرية التطور التى تعد أكبر مفخرة حققها إنجليزى فى القرن الماضى (داروين) ، ولم يسمع التلاميذ شيئاً عن نظريات الفزياء الحديثة أو الرياضة الحديثة ، وعاشوا فى عصر ما قبل أينشتين .

وقال اللورد «موران» وكان طبيباً لتشرشل ، ومن الشخصيات المتنورة الجريئة : «عملت عميداً لكلية الطب الملكية زهاء عشرين سنة وقد راقبت الطلبة ، وأدركت افتقار أكثرهم إلى القدرة الاستدلالية وعزوفهم عن حب الاستطلاع . والطالب الذى لا يتلهف للمعرفة ليس طالباً على الإطلاق ! » .

وقال مرب آخر : «إن الطلبة الذين تعلموا قواعد النحو ودقائق كثيرة فى الجغرافيا والتاريخ والرياضة يعجزون عن قراءة فقرة بسيطة من النثر أو الشعر . وغالباً ما لا يعون شيئاً منها بعد مرور أيام قليلة من امتحانهم ، وإذا كتبوا نصف

صفحة من التعبير فى أى موضوع أخطئوا فى الإملاء والنحو أخطاء تثير التقزز ! وياللكارثة إذا سئلوا سؤالاً تافهاً غير مباشر ! هنا يظهر الغباء فى أبشع صوره» .

وفى أثناء الحرب دهش القادة لهبوط مستوى المجندين ، وأكثرهم من خريجى هذه المدارس الأرستقراطية ، لأن جنودهم يجهلون المسائل الحيوية ، ، ويكتفون بتتبع أخبار المباريات وكواكب السينما ، ولا يقرءون غير مجلات الإثارة .

وننتقل إلى ألمانيا. والتعليم بها طبقى . وقد سبقت ألمانيا فى ناحيتين :

الأولى – خضوع التعليم لسيطرة الدولة المطلقة ابتداء من ١٧٩٤ عندما أعلنت الدولة البروسية الدستور Allgemeines Landrechl ، وساعد على توطيد هذا المبدأ بزوغ النزعة القومية بآثارها المعروفة على الاقتصاد والسياسة والجيش البروسى . ولم تخف هذه القيود إلا بعد هزيمة ألمانيا . إذ نص الدستور الألمانى الذى صدر سنة ١٩١٩ على حرية التعليم والفن والعلم مع تعهد الدولة بتقديم الرعاية والمشاركة فى الارتقاء بهذه الجوانب . وسمح هذا القانون بإنشاء المدارس الخاصة .

والناحية الأخرى – هى اتباع التعليم الإلزامى منذ عهد بعيد : فقد عرف فى ولاية فايمار ١٦١٩ وفى ساكس جونت ١٦٤٤ . ونص نظام التعليم فى بروسيا (١٧٦٣) على بدء الإلزام من سن الخامسة «حتى يثبت أن الطالب قد حصل على المعرفة الواجب توافرها لكل كائن عاقل» .

وهذا يبين استمرار التعليم فى الأغلب حتى سن الرابعة عشرة . وفى ١٩١٩ ارتفعت السن المقررة لإنتهاء التعليم الإلزامى إلى الثامنة عشرة ، ولم تزد نسبة التخلف عن ٥٪ .

والتعليم الألمانى العام مرحلتان (مرحلة أولية ٤ سنوات) ومرحلة رئيسية

---

(١) Tatsachen über Deutschland ٣٦٨ – ٣٨٣ .

(٥ سنوات) .

ويبدأ التخصص من سن مبكرة : أى بعد انتهاء المرحلة الأولية . هذا يعنى أن مصير الفرد يتقرر وهو فى سن العاشرة : فهو إما أن يلحق بالمدرسة الثانوية الأجرومية (الجمنازيوم) لدراسة اللغات القديمة ، أو اللغات الحديثة أو الرياضيات والفيزياء أو العلوم الاقتصادية ، أويزود بالمهارة التقنية لشغل الوظائف التقنية العالية فى المدارس المتوسطة Realschule

والنوع الثالث من المدارس الثانوية يدعى بالمدرسة العالية Hauptschule ويجب ألا نخلط بينها وبين ماكان يدعى بالمدارس العليا فى مصر. ومدة دراستها لا تقل عن خمس سنوات . وتعد العمال العاديين ، ودراستها بعيدة عن الطريقة الأكاديمية . واكتشف المسئولون الألمان قسوة هذا التخصص المبكر ، ولذا سمحوا بإعطاء فرصة ثانية للطالب بعد انتهاء المرحلة الأولية بستين توجيهيتين تختبر مواهب الطالب بعد انتهائهما : أى أن تقرير المصير قد أصبح يحدث فى سن الثانية عشرة بدلاً من العاشرة .

ولكن الأهم هو المعجزة التى حدثت فى ألمانيا التى تحطمت معنوياً ومادياً فى الحرب العالمية الثانية ، واستطاعت أن تنهض سريعاً . وتبنى مدارس جديدة وتتوسع فى التعليم ، وتتغلب على مشكلة النقص فى المعلمين بعد أن مات معظمهم فى الحرب ، وأن تدرب أبناءها على التكنولوجيا الحديثة ، (٥٣١ حرفة مختلفة التخصص) :

فبعد أن كان عدد الحاصلين على الثانوية العامة Abitur ٢٧,٥٦٨ سنة ١٩٥٢ ارتفع العدد إلى ٧٧,٠٣٢ عام (١٩٦٨) ، وإرتفع عدد المدرسين فى مختلف التخصصات من ١٤٣,٥٢٢ (١٩٥٩) إلى ١٨١,٠٠٠ (١٩٦٩) . واستعانوا

بعجائز فى الثمانين من عمرهم لسد النقص فى السنوات الأولى ، كانوا يدرسون عشر ساعات يومياً ، وأحياناً بدون أجر ! ومع هذا كان الألمان لا يشعرون بالرضا عن نظامهم التعليمى ، فهم يتطلعون إلى غايات متعددة ، يريدون الإبقاء على الدراسات الكلاسيكية العريقة بوصفهم إغريق العصر الحديث ! ويريدون التفوق فى ميدان التكنولوجيا . فالمثل الأعلى للتعليم مستمد من عظماء مفكريهم ، وفى مقدمتهم «جوته» فى رواية ڤيلهلم مايستر الذى إعتبر التعليم قادراً على تحقيق كل ما يصبو إليه ، وتصحيح كل عجز خلقى وفطرى .

هذه قصة غير وافية للتعليم حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، نستطيع أن نستخلص منها بعض الحقائق ، الحقيقة الأولى وهى وجود طبقية فى أنظمة التعليم برغم كل صيحات الديمقراطية والمناداة بتكافؤ الفرص : فهناك قلة تتعلم لشغل الوظائف القيادية فى الدولة ، وكثرة إما أن تتعلم لشغل الوظائف الثانوية أو يكتفى بتعليمها «فك الخط» باعتباره ضرورياً للانتخابات وتفضيل مرشح على آخر .

وعندما حدثت الثورة الصناعية نمت المدن ، وانتشر التعليم حقاً . وظل التعليم النظرى أو الكلاسيكى أو الأكاديمى محتفظاً بسيادته ، أما التعليم الفنى فقد نظر إليه على أنه مرتبة أحط بكثير من التعليم النظرى ، ووصفت بعض الأنظمة هذا التعليم بأنه مجرد تدريب مهنى ، ولم تعترف دول أخرى بجدارته بالمعاهد أو المدارس ، ورأت أن يجرى داخل الورش والمصانع ، ولا داعى للتدقيق فى المؤهل اللازم له . فتكفى القراءة والكتابة . وظلت هذه الأفكار مسيطرة على أوربا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

وقد وضع عالم الاجتماع النرويجى الأمريكى ثورشتاين ڤيلن (١٨٥٧ - ١٩٢٩) نظرية طريفة لتفسير احتقار الناس للتعليم الفنى رأيت تلخيصها هنا

لأهميتها فى فهم عقلية الشعوب والرواسب الضارة التى تترسب فى العقل الباطن فى معظم البلدان المتأثرة بالحضارة الغربية .

يرى ڤيبلن أن العادات الاجتماعية الراسخة قد توطدت بعد قرون طويلة أوحت بأن معرفة الغيبيات أسمى مكانة من المعرفة العملية : فالمعرفة الأولى من نصيب الكهنة الذين يتمتعون بمكانة وقدرات معينة ، ربما دهبت بعض المذاهب إلى حد تصور وجود صلة خاصة بين الإله ذاته وبين من يؤثر بهذه المعرفة . ومن الناحية الاجتماعية ، حرصت هذه الصفوة على إبراز تميزها بالزى أحياناً وباتباع عادات مميزة ، وفى ميدان التعليم : انعكس أثرها عندما اتخذت العلوم العريقة التى انحدرت إلينا من عهد اليونان مكانة أسمى من العلوم المستحدثة العابرة : فالعلوم الأولى هى التى تؤهل الناس لتبوؤ الصدارة فى المجتمع ، أما العلوم الأخرى فهى علوم الاتباع . وحتى بعد أن انقطعت صلة العلوم النظرية بمصدرها الكهنوتى الأول فإنها قد حافظت على طقوس معينة تدل على مكانتها الاجتماعية ، نتبينها فى الأرواب والقبعات وحفلات التخرج .

وتفشى هذا الداء حتى داخل العلوم التى يفترض أن تكون عملية تجريبية ، والتى بنى مجدها على التجربة والاختبار . فقد انقسمت هى الأخرى إلى ناحية تبحث المبادئ والأصول والنظريات ، وناحية تطبيقية تجرى فى المعامل والورش : النوع الأول يخص الأرستقراطية ، والآخر يخص الدهماء . فلا يعترف بالعلوم التى لا تؤثر على الاتجاهات التقليدية للحياة كبعض العلوم الطبيعية والرياضية ، وبعض التفسيرات الجديدة للكلاسيكية . فيجب أن تكون المعرفة لذاتها ، أى لا تحقق غاية نافعة مباشرة ، ولكنها تساعد فقط على إثبات الوجاهة وعراقة الأصل !

وهناك علوم اكتشفها أو ابتكرها محدثو النعمة من رجال الصناعة ، ولا بأس

من الإنتفاع بخبراتها مع المحافظة على عدم الاعتراف بأحقيتها فى المساواة بالعلوم التى انحدرت لنا من فجر الحضارة .

وانعكست هذه القسمة أيضاً فى الاختلاف بين سلوك من يتولون مناصب القيادة نتيجة لتعلمهم الكلاسيكيات والعلوم البعيدة عن الواقع ، ومن يتولون وظائف الاتباع التى تحقق نفعاً مباشراً ، وتتدرج إلى أحط الحرف والصناعات : فسلوك الطبقة الأولى يتكشف فى مظهريات عدة ، وأسلوب حياة دال على الترف والسمو ، ووفرة وقت الفراغ إلى حد أن أبناء هذه الطبقة يتباهون بما لديهم من فراغ وبالهوايات التى يمارسونها . وهم دائماً يشكون الفراغ القاتل إثباتاً لانتمائهم إلى الطبقة المنعمة التى تحسن التحدث فى الموضوعات التى لا تعود بأى نفع مباشر على الآخرين ، وتنفر من كل الحقائق البعيدة عن اللياقة أو « الشياكة » .

وهكذا انقسمت العلوم إلى علوم أرستقراطية « شيك » يتمتع صاحبها « بالجنتلمانية » والفراغ ، وعلوم أخرى تدل على الانتماء إلى الدهماء والأصل الوضيع . فلا عجب بعد ذلك إذا هرب الناس من الحرف النافعة ، أو أخفوا مصدرها . وعندما صححت إحدى الممثلات فى رواية للريحانى عمل زوجها وقالت — إنه تاجر غلال مبلولة وليس بائع بليلة — لم يكن كلامها مجرد نكتة ، ولكنها كشفت عن الداء الوبيل الذى أصيب به المجتمع . والذين يبتلون بالاشتغال فى إحدى الحرف يسعون جاهدين للإثراء حتى تزول لعنة الحرفة ويصبحوا رجال أعمال ، لا يمارسون أى عمل بأيديهم ، وهذا يفتح الطريق أمامهم للتحرر من أسر الطبقات النافعة الكادحة ، ويجيز لهم الدخول فى طبقة المنعمين الذين يتمتعون بوقت الفراغ ، كما يتبين من هندامهم الدال على عدم الصلاحية لأى عمل نافع يعود بالفائدة على المجتمع !

هذه النظرية نلاحظها عندما نرى حرفياً ناجحاً يكره أن يخلفه ابنه فى حرفته ، ويسعى جاهداً لإلحاقه بإحدى الكليات المظهرية ، وتنتقم الأقدار عندما يتنكر الأبناء لأبيهم ، ويخشون المعرة من حرفته . وهذا موضوع يشاهده أو يستمع إليه أبناؤنا عشرات المرات يومياً فى التليفزيون والقصص .

وهناك ظاهرة أخرى هى استمرار النظر إلى المرأة كعنصر جمالى يزين حياتنا وكأنها مجرد زخارف وحليات نستمتع بها فى وقت فراغنا : فمن يرى الملابس المعقدة التى ترتديها المرأة والأقفصة الحديدية التى تحرمها القدرة على الجلوس أو الوقوف ، أو يرى المرأة وهى ترتدى أردية السهرة « الديكولتيه » فى البرد القارس يرثى لحالها ، ولكن تقاليدنا هى التى تدفعنا إلى ازدراء الأيدى الخشنة والوجوه الطبيعية الخالية من الأصباغ ، لأنها تذكرنا بالحرف وشقائها ووضاعة أصلها .

وقام عالم اجتماع آخر هو ماكس فيبر الذى سبق أن استشهدنا بآرائه بتفسير سر استمرار أنظمة التعليم دهوراً طويلة دون أن يجرؤ أحد على تعديلها برغم اقتناعه بانعزالها عن الحياة الفعلية : فقد ذكر ماكس فيبر أن النظام البيروقراطى مدين بالفضل لنظام التعليم الذى حل مشكلة الجهاز الإدارى واختيار الموظفين ، وطريقة معاملتهم (النقل والترقى) : فبفضل الاختراع الجهنمى المسمى بالاختبار أمكن ترتيب الناس فيما يدعى بالسلم الوظيفى أو الأقدمية وتصنيفهم وفقاً لتخصصهم المدرسى . واعترف النظام البيروقراطى بهذا الجميل ، وفنى فى المحافظة على قداسة الأنظمة التعليمية ورآها ثابتة خالية من كل نقص . فهى تمثل المبادئ الثابتة للمعرفة التى يستحيل تغييرها ! ودليل نجاحها هو استمرارها هذه القرون الطويلة ، ومؤازرتها للنظام البيروقراطى ، بل للنظام الاجتماعى . فهى تعطى الفرصة كل من يريد تغيير وضعه الاجتماعى بأن يجد ويجتهد ويحصل على شهادة معتمدة من وزير

التعليم أو من يمثله . ولا يقصد بهذه الشهادة درجة تحصيل العلم فقط ، ولكنها صك أو جواز مرور يحق لحامله الزواج من طبقة أسمى ، وبخاصة إذا كانت الشهادة فى العلوم الشيك العريقة : أى شهادة تؤهله لحضور المجالس واللمعان فى جلسات السمر التى لا تطيق الكلام فى مشكلات الحياة اليومية أو مشكلات الحرف الصغيرة ! » .

* * *

هذا هو الهيكل التعليمى الذى نقلناه عن دول الغرب مع بعض مبرراته الاجتماعية التى لم نعرفها عندما تعرفنا على هذه الأنظمة لأول مرة فى بداية القرن الماضى : أى بعد الحملة الفرنسية التى وثقت صلتنا بأوربا وحضارتها . ولن نطيل الحديث عما فعله محمد على الذى لم يكتف بالتعليم الدينى السائد الذى كان يحمل أكبر أعبائه الأزهر الشريف . فقد استدعى خبراء فرنسيين أدركوا لأول وهلة طموح الوالى الكبير وتطلعه إلى محاكاة نابليون ، فوضعوا له نظاماً تعليميا منقولاً بحذافيره من التعليم الفرنسى ، وبذلك نشأت المدارس الابتدائية والتجهيزية (الثانوية) والفنية والصناعية ، كما أرسلت بعوث علمية قامت بترجمة الكتب الفرنسية ، وأنشئ ديوان على الطريقة الفرنسية للإشراف على شئون التعليم ، ونجحت الفكرة نجاحاً باهراً ، فقد زود التعليم الجيش بالضباط والأطباء والمهندسين والأسلحة والعتاد ، وخلق طبقة من الموظفين .

ولخص المؤرخ المصرى الدكتور عزت عبد الكريم أغراض محمد على من التعليم فى بنود قليلة لا بأس من نقلها : ١ - توجيه البلاد وجهة التعليم الحديث ٢ - نشر الثقافة الغربية إلى جانب الثقافة العربية ٣ - بث الروح القومية وتوطيد زعامة مصر للشرق العربى والنهوض باللغة العربية ، وفتح الباب لدعم النهضة العربية .

وبعد موت محمد على – سادت فترة ركود جاء بعدها إسماعيل الذى نشر التعليم فى دائرة أوسع ، ونقل ما كان يقال فى أوربا عن الغاية الحق للتعليم ، أى تهذيب عامة الشعب ، ورفع مستواه الثقافى ؛ وتعذر بطبيعة الحال تنفيذ هذه الغاية الطموح التى لم تتحقق حين ذاك حتى فى البلدان التى سبقتنا فى مضمار الحضارة بأكثر من خمسة قرون ، ومن ثم فإننا اكتفينا بخلق موظفين يحسنون القراءة والكتابة ، ويجيدون الخط العربى ، ويعرفون كل العمليات الحسابية الضرورية ابتداء من الموازنة العامة حتى تحريرا استمارة الماهية . ونجحنا والحمد لله فى هذا المضمار ، وخلقنا جهابذة قادرين على تحويل كل مهام الدولة إلى حلقة مفرغة من المكاتبات والمناقضات . وبعد الحرب العالمية الأخيرة خطونا خطوات موفقة فى الطريق الأوربى ، لوضع قانون للتعليم الإلزامى وعممنا المجانية فى المرحلة الابتدائية، ووسعنا نطاقها فى المرحلة الثانوية .

وفى البدء لم يكن متوقعاً أن نفعل أكثر من هذا ؛ فقد حاكينا الأنظمة الأوربية على علاتها ، واعتقدنا أنها تمثل الكمال بعينه ، كما يتبين من كتاب تخليص الإبريز (ص ١٥) نقد أعجب صاحب الكتاب رفاعة الطهطاوى بكل ما رأى فى باريس ابتداء من عربة الرش . والطبليات العالية . « والبانسيونات (جمع بنسيون بفتح الباء وسكون النون وكسر السين وضم المثناة التحتية وسكون الراء) » وصفها الطهطاوى بأنها مكاتب يتعلم فيها الصغار الكتابة والقراءة وعلوم الآلات كالحساب والهندسة وغيرها كالتاريخ والجغرافيا وهى نحو مائة وخمسين بنسيونا فيها أكل الإنسان وشربه ونومه وغسل حوائجه ، ونحو ذلك فيدفع أهل الأولاد (معلوماً) فى السنة

«وغير البنسيونات هناك بيوت يكون صاحبها عالماً فيأخذ عنده عدة أولاد

ليأكلوا معه ويشربوا ويعلمهم بنفسه ، أو يحضرلهم معلمين عنده وغير هذا كله . فكثير من الناس غير الأولاد . ومن الأشياء التي يستفيد منها الإنسان كثير الفوائد الشاردة اليومية المسماة (الجرنالات) جمع جرنال وهو يجمع فى الفرنسية على (جورنو) . وهو ورقات تطبع كل يوم وتذكر ما وصل إليه علمهم فى ذلك اليوم . وتنشر فى المدينة وتباع لسائر الناس وسائر أكابر باريس . يرقبونها كل يوم ، وتقول ما يخطر لها وتستحسن أو تستقبح ما تراه حسنا أوقبيحا . . » وهذا الكلام يرجع إلى أكثر من مائة سنة .

ومن دلائل اهتمام محمد على بالتعليم والأمانى التى عقدها عليه رسالة إلى أعضاء البعثات يستحثهم على العمل والاجتهاد ويقول :

« قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم ، ننهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوبة فيها مدى تحصيلكم (الشهادات) ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئاً . وأنتم فى مدينة باريس ، وهى منبع العلوم والفنون . . فيا أفندية ما كان هذا لينبغى . . إن كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من ثمار شغله وآثار مهارته ، فإذا لم تغيروا هذه البطالة بالشغل والاجتهاد والغيرة ، وجئتم إلى مصر دون أن تفطنوا إلى ما تعلمتم من فنون فإن ظنكم باطل . فعندنا والحمد لله رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرية ، فكيف إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ؟ » .

هذا يدلنا على أن (محمد على) كان لا يهتم بالتعلم النظرى فحسب ، ولكنه كان يتطلع إلى ثمار العلم فى النواحى العملية التى تساعد على بناء مصر كالجيش والصناعة والزراعة . . ولربما استنكرنا تسخير العلم والمعرفة للحرب ، ولكن هذه

الظاهرة لم تخل من آثار محمودة . . فلعل أول محاولات للربط بين التفكير النظرى والتفكير العملى قد ظهرت فى المدارس ذات الصفة العسكريه ، كما يدلنا أيضاً مثل نابليون .

وبوجه عام استمر التأثير الفرنسى على التعليم بمصر حتى بعد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ ، وراجعت لجنة دوفرين نظام التعليم ، ولكنها لم تستطع أن تضيف عليه أى شىء ذى بال لقلة خبرتها بالمسائل التنظيمية للتعليم . فكما نعلم كان التعليم البريطانى خاصًا ، ولم يخضع للإشراف الحكومى إلا فى وقت متأخر . وأثبت الاحتلال البريطانى وجوده فيما بعد فى جوانب أخرى كالبعثات التعليمية التى أصبحت ترسل إلى إنجلترا ، وإلى فرنسا أيضاً ، وعند اختيار بعض الموظفين لتولى المناصب القيادية . ومع كل هذا فقد ظل الهيكل التعليمى فرنسياً فى صميمه ، وتأثرنا بالإنجليز عند اختيار بعض الكتب الدراسية ، وازدادت عنايتنا بالألعاب الرياضية والكشافة ، وتباهى المدرسون والنظار بزياراتهم المتعددة لبريطانيا ، وأكثروا من استعمال بعض الألفاظ الإنجليزية الواسعة الانتشار فى مصر ، والتى لدينا عشرات من مرادفاتها باللغة العربية . وانتشر « البايب » والجوارب السكوتش والكرافتات الصوفية التى فضلت على الكرافتات الفرنسية تعبيراً عن الولاء والتقدير للحضارة الإنجليزية وآدابها العالية . لربما رجع تغيير اسم وزارة المعارف » إلى وزارة التربية والتعليم إلى الاقتداء بالإنجليز بدلا من الفرنسيين . فالمثل الأعلى الإنجليزى يرمى إلى تربية السلوك ، على حين ينزع التعليم فى فرنسا إلى الإحاطة بأكبر قدر من المعرفة .

٢ – الدعوة إلى التغيير

تفاءل الإنجليز بعد نجاح مونتجومرى فى معركة العلمين ، وشعروا باقتراب الانتصار على الألمان ، وتدفقت الكتب التى تتحدث عن المستقبل بعد الحرب ، وتتحدث عن المصائب التى تسببت فى حدوث الحرب . وانتهزت الأحزاب الإنجليزية الفرصة وقامت بالبدء بتحقيق كل ما تمناه الإنجليز قبل الحرب ، فقد انتهت مهمة تشرشل ، وأدى واجبه فى الحرب ، ولم يعد له دور فى السلام المرتقب . وأهم شرط لإعادة تعمير بريطانيا هو إقصاؤه وإقصاء أمثاله عن السلطة ، وأذكر أننى كنت أزور مكتبات القاهرة والإسكندرية وبور سعيد إبان الأمسيات المظلمة ، فكنت أراها غاصة بالجنود البريطانيين الذين كانوا يقبلون على الكتب التى تتحدث عن المستقبل وتحمل عناوين جذابة «كمستقبل الإنسان» و «هذا العالم المتغير» و «كيف نعيد بناء العالم ؟» ، وبعضها يتحدث عن

الآخرة ونظام التعليم فيها لأولئك الذين لن يسعدهم الحظ بالبقاء على الأرض بعد الحرب . ومن بين عناوين هذا النوع الأخير عنوان طريف هو How you live when you die وسأرجع لبعض هذه الكتب فى هذا الفصل لأنها هذا الفصل لأنها تضمنت نقداً عميقاً لأنظمة التعليم وأفكاراً بناءة لما ينبغى أن يكون عليه التعليم .

وعندما تحدث المفكر البريطانى هارولد لاسكى عن الروح الجديدة للعصر فى كتابه « خواطر عصرنا » قال إننا فى حاجة إلى المزيد من التعليم لمسايرة روح عصرنا ، ولن ينكر هذه الحاجة كل من لديه إحساس بالآخرين : فالأغلبية مازالت بكراً لم تتأثر إلا تأثراً طفيفاً بالحضارة ، ولا دراية لها بالقوى التى تتحكم فى مصيرها ، ومن ثم أصبحت فريسة سهلة لأى دجل صاخب يطرق آذانها ويفسد حياتها الفردية والاجتماعية . فهى لم تدرب على التعبير عن شخصيتها ، واحتياجاتها ، وإحساساتها قلقة ، تفتقر إلى الوعى والنظرة الراسخة للحياة ! وقال لاسكى .

إن الحالة التى تمر بها أوربا ليست فريدة من الناحية التاريخية ، فالأعراض السائدة من سمات كل عصر اقترب نظامه الاجتماعى من التدهور ؛ فقد ظهرت عندما أوشك العصر الوسيط أن ينتهى ، وكذلك فى الأربعين سنة التى سبقت اندلاع الثورة الفرنسية . إنهم لايرون بيئتهم وما فيها من تحديات وأخطار كفرصة سانحة لإعادة البناء ، ولكنهم يرونها تحذيرا يدعو إلى التيقظ وإبقاء كل شىء على حاله : فالخوف من المجهول وراء كل جمودهم ، إنهم يفتقرون إلى الخيال والتبصر بشكل العالم الجديد الذى بدأت بشائره تلوح أمامنا .

---

(١) Reflection on the Revolution of our Time

هذا هو طابع الروح العامة التى سادت فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهزت المجتمعات المحافظة هزاً عميقاً ، وبدا واضحاً أننا على مشارف عالم جديد يحتاج إلى نوع مختلف من التعليم يتجاوب هو وسماته وتطلعاته .

وتركز النقد على انفصال التعليم عن الواقع ! فنظم التعليم ورثها كل جيل مما سبقه من أجيال ، وبدلاً من أن يصحح التعليم الانفصام بين طبقات المجتمع زاد من حدة الطبقية ، بل خلق أرستقراطية لبعض العلوم ، وجعل بعض العلوم والحرف موضع ازدراء ، وقسم الاستعدادات الذهنية والمواهب إلى مراتب تتوافق هى وهذا الواقع الموهوم . وانعكست هذه التصورات الخاطئة على اتجاهات التلاميذ وأولياء أمورهم نحو مختلف العلوم والتخصصات ، فاندفعوا نحو المجالات التى تحقق لهم وضعاً اجتماعيا مرموقاً ، ونفروا من كل الاتجاهات النافعة للمجتمع ، بعد أن أوحى لهم بأن مثل هذه المجالات تناسب الطبقات الوضيعة .

وهكذا اشترك المسئولون التربويون والآراء السائدة فى اتباع الأهواء الاجتماعية دون مراعاة للاحتياجات الفعلية للأجيال القادمة ، واضطر بعض التلاميذ إلى اختيار مجالات ترهق أذهانهم ، ولا تعود عليهم بأى نفع ، لأنها فوق طاقتهم الفطرية ، واختفى فى زوايا النسيان عباقرة أصلاء لعجزهم عن دفع نفقات التعليم ، أو لجمود النظم التعليمية ، واتجه النقد إلى أنظمة الامتحان ، وعقمها ، وعجزها عن تصنيف التلاميذ تبعاً لمواهبهم الحق ومدى النفع الذى يتوقع أن يحققوه فى المستقبل . ووضعت اختبارات من أنواع مختلفة تقيس الملكات التى أغفلها نظام الاختبار التقليدى الذى لا يعترف بغير ملكة الحفظ باعتبارها الرصيد الحقيقى للمعارف ، وباعتبار الملكات الأخرى ملكات ثانوية تنحدر من الذاكرة .

واعتقد آخرون أن إصلاح التعليم يبدأ من بناء المدرسة ، ووضعوا تصميمات

أزالوا منها جميع الأسوار الحديدية التى سخر منها الأدباء والمفكرون ، وأحاطوا الفصول بجدران زجاجية حتى يتمتع التلميذ بأكبر قدر من الشمس والضوء ، ورأى فريق آخر الاستغناء عن الفصول الدراسية ، والاكتفاء بالحدائق والحقول باعتبارها ممثلة للطبيعة التى نادانا جان جاك روسو بالعودة إليها ، فى كتابه التربوى الشهير . وبدلا من الاتجاه الرومانتيكى الشاعرى حدث اتجاه مقابل يؤله الأدوات التقنية باعتبارها المنقذ الوحيد فى تعليم المستقبل . فلا داعى لأن يتعلم التلميذ الجغرافيا من الخرائط الملونة أو المرسومة على السبورة ؛ ويكفيه أن يشاهد فيلما سينمائيا . والأمر بالمثل فيما يتعلق بعلم الأحياء . وإذا اضطر مدرس المستقبل إلى استخدام الكتاب المدرسى – فليكن هذا فى أضيق نطاق ممكن .

ودعا آخرون إلى مراجعة المقررات الدراسية ، واستبعاد كل ما هو بعيد عن الحياة . فما الداعى إلى بقاء اللاتينية ، وحشر الأمخاخ بخزعبلات من الماضى كأساطير اليونان .

وهب معارضون لهذا الاتجاه ينبهون إلى أهمية اللغات القديمة . فهى تدرب الذهن ، ومن يؤكد براعته فى الكلاسيكيات يثبت قدرته على تولى أخطر المناصب والقيادات .

ووضع مفكرون معياراً لماينبغى أن يبقى من موضوعات ، وما يجب أن يزول على الفور : فالعلوم الراسخة هى التى يجب أن تبقى ، أما العلوم الدائمة التغير فليس لها أى قيمة . إنها « موضة » أو بدعة قد تختفى قبل أن يتم التلميذ دراسته ، ويتخرج للحياة العملية . وعندما رجع المختصون إلى أغلب العلوم وجدوا أن أغلبها لم يعد يساير العصر ، ووقعوا فى حيرة لأن ما بقى من مقررات مجهول المصير ، وقد يلقى حتفه قبل نهاية العام الدراسى !

وانتقد مفكرون مناهج الدراسة لأنها تعد أفرادا يصلحون للحياة فى الماضى ، وكان الواجب أن يعنى المربون بالجيل الصاعد وعالم الغد . وأهم رسالة للتعليم إنما هى إعداد العقلية العلمية الفاحصة المتفتحة . وهذه مهمة شاقة عجز عن تحقيقها حتى من تعلموا فى أفضل ظروف للحياة ، واختير لهم أبرع أساتذة متخصصين فى الماضى . وهل ننسى أن فاروقاً قد تعلم فى أفضل ظروف تربوية على يد النابهين من مصريين وأجانب ، ومع هذا فما أبعد عقليته عن الأوصاف التى ذكرناها ! .

وعندما نتأمل كلَ ما خطر ببال المصلحين فى وقت الحرب سنراه ترديدا لأفكار نادى بها الفلاسفة قبل ذلك بوقت طويل ، ولم يُلتفت إليها التفاتا صحيحاً ، واعتبرت شطحات نتيجة للإفراط فى العزلة والابتعاد عن الواقع ، ثم استرشد بها المصلحون فى الوقت المناسب ، وبذلك أكدوا أهميتها ، وأكدوا سبق الفكر النظرى للأحداث ، وإن كانت هذه النظرية قد تغيرت الآن لأن الأحداث قد أصبحت أسرع كثيراً من الأفكار . وهذه محنة الفكر المعاصر . ولنرجع إلى أهم هذه النظريات ، فقد يكون لها بعض النفع فى بلادنا المقبلة على ثورة فى نظامها التعليمى ، وتحتاج إلى تعزيز نظرى لخطواتها الإصلاحية .

وأول هذه النظريات هى نظرية الفيلسوف الأمريكى چون ديوى (١٨٥٩ — ١٩٥٢) الذى اعتبر التربية « مفتاحاً للقضاء على كل شرور البشرية ، ونادى بالتربية « الكلية » : أى بإتاحة الفرصة للجميع على قدم المساواة بتنمية مواهبهم واستعداداتهم .

وقصد ديوى معنى آخر بالإضافة إلى هذا المعنى ، وهو تعليم الشعب بأسره ، بل العصر كله ، وتصحيح النزعات والعادات حتى يتغير الجو الثقافى كله فى نهاية المطاف . وهذا المعنى يخالف النظم التقليدية التى كانت تكتفى بتعليم قلة تضطلع

بالقيادة دون نظر للآخرين وحقهم فى التعليم . والتربية الكلية التى دعا إليها ديوى نوع من غسيل المخ للشعب بأسره ، لتحقيق التحول الاجتماعى ، وتغيير أسس المجتمع فى جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وهذا لن يتحقق إلا إذا علمنا الجميع بلا استثناء .

فعلينا ألا ننتظر الكوارث حتى نغير المواقف التى تتحكم فى العادات السائدة فى الحضارة . وبدلاً من ذلك لنلجأ إلى وسيلة أكثر تحضرا لتحقيق التغيير . هذه الوسيلة هى « التربية » ولن تجدى التربية وتحل مشكلاتنا « الدائرية » إلا إذا امتدت إلى ثقافة العصر بأسره ونفذت فى أعماقها .

ولنرجع إلى ما قاله ديوى فى كتاب « الطبيعة البشرية والسلوك[1] » (١٩٢٢) :

« إن فكرة التربية الكلية لا يزيد عمرها على ربع قرن ، ومازالت مجرد خاطر أكثر منها حقيقة واقعة . ومن الميسور أن نشير إلى النقائص والعيوب فى كل نظام مدرسى موجود . ومن السهل أن ينتقد أو يسخر من تعلق الأمريكيين إلى درجة العبادة بالتربية . ومن السهل أن نتصور هذا التعلق حماساً بلا دراية وتعصباً أعمى لبلادهم . ومع هذا فإن هناك حقيقة لابد أن تستخلص وهى اعتماد كل نهضة اقتصادية دائمة ، ورفع لمستوى المجتمع على الاستفادة من تربية الجميع دون استثناء ، وتوجيه الأنماط السائدة فى الفكر تجاه الجوانب المرغوبة » .

وديوى شديد الإيمان بالعلم ، ويراه أسمى صورة للذكاء البشرى . وهو السلاح الأساس للإنسان فى كفاحه للبقاء . وقد اخترع مذهباً سماه « الوسيلية Instrumentalis » وهو مذهب يدور حول الخصائص الضرورية للعقل الذى وجد لحل المشكلات . فإذا نجحنا فى تطوير العقل لبلوغ هذه الغاية كان هذا أجدى

(١) Human Nature and Conduct

من اتباع التربية التى تدعو إلى الحصول على فتات من العلم بكل الأشياء . ولا يكتفى مذهب « الوسيلية » بالدعوة إلى اتباع المجتمع للتكنولوجيا الحديثة ، ولكنه يحاول أيضاً بيان كيف يعد التطبيق العملى للعلم فى التكنولوجيا وسيلة لفهم تآلف النظرية والعمل والتأمل والفعل الإنسانى .

وأشاد ديوى بدور التجربة والخبرة العملية كخطوات أساس لبلوغ المعرفة وبذلك حطم التعارض الأزلى بين المهارة التقنية والمعرفة بالوسيلة Knowing how ، والمعرفة النظرية أى التعرف بماهية الأشياء Knowing that فللأفكارنتائج عملية تبين اشتراك خيوط الممارسة العملية فى صنع نسيج العلم ، وأن يستطاع الكشف عن أسرار الطبيعة والمبادئ المتحكمة فى طبيعتها الداخلية بمجرد التأمل أو الاستدلال العقلى . فلن يكشف النقاب عن هذه الأسرار إذا اكتفينا بالتفكير الصرف دون تدخل التجربة والممارسة الفعلية . فمن المستطاع الكشف عن سلوك كل شىء على الأرض ، ووراء النجوم – إذا أمكننا التحكم فى الأحداث وجربنا كل السبل الممكنة حتى ندرك كيف تعمل الأشياء بالفعل . فالعلم عند « ديوى » يعنى التجربة ، والتجربة تعنى الفعل والعمل والممارسة العملية .

والعلم عند ديوى ليس مجرد تقبل سالب للوقائع أو تسجيل لها ، فنتائجه ليست كاملة ومنتهية ، ومن هنا يجىء الدور الفعال للقائم بالمعرفة . وهذا يتحقق عن طريق التجربة ، ولكي نكتسب المعرفة علينا أن نبتكر أجهزة ومواقف يستطاع اعتمادا عليها إرغام الأشياء على الكشف عن خصائصها المميزة ، فعلينا أن نستجوب الأشياء وننتزع منها الردود على أسئلتنا ، وإذا أردنا إكتشاف الإجابات كان من واجبنا أن نعرف كيف نوجه السؤال ؟ ويعتمد نجاحنا فى اكتشاف أسرار الطبيعة على براعتنا

فى توجيه السؤال ، وإذا أردنا انتزاع الإجابة من الطبيعة فعلينا ألا نسألها أسئلة بعيدة عن خصائصها وسماتها ، بابتكار مواقف تجريبية نشاهد فيها تأثير الأشياء بعضها على بعض . ومن حسن الحظ أننا قادرون على فحص الأشياء فى المعامل ، وتسييرها تبعاً للفروض التى تساعدنا على كشف الحقيقة .

بهذا أكد ديوى دور التجربة فى تقدم العلم الحديث ، وبين أن العوامل العملية والممارسة والسلوك لا يمكن أن تنفصل عن الفكر ، وبين خطأ الظن بوجود فكر نظرى صرف حتى فى العلوم الإنسانية ، وتثبت لنا وقائع العلم العلاقة الضرورية بين الفكر والناحية العملية ، ولا يكفى أن نتصور أن المعرفة العلمية عندما تتحقق تفيدنا فى الغايات العملية للهندسة والتكنولوجيا ؛ إنما علينا أن نذكر أن كل محاولة للاهتداء إلى المعرفة تتضمن عنصراً بشرياً فى كل مراحلها : ففى المرحلة الأولى تتمثل المشكلة أمامنا ، ثم ندرك فى مرحلة تالية نوع التجربة المناسبة للحل . ولا نكتفى خلال التجربة بالتسجيل السلبى للوقائع ، فعلينا ابتكار مواقف تجريبية نرغم فيها الواقع على إجابة أسئلتنا . والنتائج التى تعبر عنها فى صورة نتائج نظرية تمثل المرحلة الأخيرة لنمو الفكرة ، وإن وجب الاستدراك فقد تكون هذه المرحلة الأخيرة مقدمة لتجارب جديدة ولنتائج مازالت فى عالم الغيب ، وبحاجة إلى مزيد من البحث والاستقصاء .

والعلم عند ديوى شيء أكبر من التكنولوجيا بالرغم من أنه دعانا دائماً إلى تصور كل خطواته فى صورة تكنولوجية : فالعلم عنده هو الزيجة المثالية الحية للناحيتين النظرية والعملية . وتصور ديوى أنه من المستحيل أن تنفصل هاتان الناحيتان .

هذه هى أهم النتائج التى تهمنا عند الكلام عن نظرية التعليم عند جون

ديوى . ومنها نستخلص نتيجتين هامتين :

الأولى هى التربية الكلية : أى أن تكون التربية من حق الجميع ، وليس من حق قلة أو صفوة ، كما حدث فى تاريخ التعليم كله .

والنتيجة الأخرى هى عدم الفصل بين الناحية النظرية والناحية العملية . وهذا رد على ما جرى فى التعليم التقليدى عند ما يتم التشعيب والتقسيم إلى شعب بعضها يجنح إلى الجانب النظرى البحت تحت اسم الرياضيات والآداب ، ويجنح بعضها الآخر إلى الجانب العملى البحت . فالتجربة الحية نظرية عملية تكنولوجية ، فى الوقت نفسه .

وننتقل بعد ذلك إلى الفيلسوف الإنجليزى الأمريكى وايتهد (١٨٦١ – ١٩٤٧) ، وله كتاب شهير بعنوان غايات التربية[1] (١٩٢٩) والتربية عند وايتهد لا تقتصر على المهارات الذهنية المجردة واكتساب معرفة الحقائق . وهذه النواحى هامة ، ولكنها غير كافية ، لأن التربية أيضاً فن الانتفاع بالمعرفة . وعلى التربية أن تيسر للإنسان القدرة على التفكير والعمل على خير وجه ، فلا يصح أن يسمى متعلماً من لا يمارس التجربة الجمالية والأخلاقية والدينية . والممارسة هنا ليست دراية سلبية » .

والتربية تزود الفرد بالقدرة على تنمية كل الإمكانات الكامنة فيه حتى يستطيع التعامل مع بيئته على أفضل نحو فعال . والتربية هى التى توقظ حب الاستطلاع والخيال والقدرة على إصدار حكم متوازن ، وتحقق التوازن النفسى ، وتنمى ملكة إدراك القوانين العامة الكامنة فى المواقف الجزئية ، « والتكهن » الذى يساعد على استخدام هذه المعرفة فى حل مشكلات المستقبل . ويتميز المتعلم بأنه قادر على

(١) The Aims of Education & Other Essays.

التفرقة بين ما هو يقيني نسبياً ، وما هو محتمل فحسب ؛ لأنه يدرك التفاوت بين الأشياء . والتعليم يعرفنا كيف نتصرف بلا توان ، قبل أن يفوت الأوان ؟

وتتسم الحياة المكتسبة من التعليم بملامح مميزة Style . ويقصد بهذا المصطلح الامتياز فى الأداء وحسن التدبير والبعد عن التردد . هذه السمات هى التى تدفعنا إلى الإتقان الإجادة ، وإدراك الزيجة بين الفكر والعمل لتحقيق الحياة المثلى . والمتعلم يملك معرفة متخصصة فى بعض جوانب المعرفة البشرية ، ولكنه يتمتع بلذة الشعور بالتحرر عندما يؤلف نظريته العامة للحياة .

والمعرفة تشعرنا أننا كائنات مسئولة ملتزمة بحل مشكلات الحياة ، وتشعرنا بأهمية الحاضر . ولا تعنى كل هذه الصفات المثالية التى أضفاها وايتهد على التربية أنه قد ابتعد عن مذهبه الواقعى وحلق فى أحلام الخيال . فهو دائم الإشادة بأهمية معرفة الوقائع . واكتساب المهارة فى استخدام هذه الوقائع لحل مشكلات الواقع ، وألا نكتفى بالزهو بماضينا ؛ لأن هذا الزهو لن يضمن لنا مستقبلاً آمناً : فقد يكون لأى شعب أعظم الآثار ، وقد لا تكون الشمس قد غربت عن إمبراطوريته ، ولكن التخاذل ، وتبديد الطاقة الفكرية فى العبث كفيلان بجعل الحاضر لا يتوافق هو والماضى التليد ، برغم شدة تعلق وايتهد بالعلم فإنه لا يرى اقتصار نشاطنا الذهنى عليه ، بل علينا أن نوجه قدراتنا التى نجحت هى نفسها فى التعامل مع دقائق العلم – ناحية القيم السلوكية .

وبعد هذه التعميمات انتقل وايتهد إلى التحدث عن تفاصيل هامة توضح أفكاره المجردة : فهو يرى أن العقل الإنسانى ليس مماثلا لحقيبة تُحشَر فيها نتفُ من المعرفة ، ويقتصر دور الحقيبة على الاستيعاب دون أن يكون لها دور فعال يؤثر فى محتوياتها : فعلينا أن نتصور العقل كياناً حيًّا ، ومادة المعرفة غذاء ضروريًّا لاستمرار

الحياة والصحة والكفاية .

وهذا الرأى يرد على النظريات التى شبهت العقل بالآلة ، تشحذ أولاً ثم تستخدم فيما بعد فى حياتنا العملية ! وهذه النظرية مرفوضة لأنها تتصور العقل كياناً سلبياً أو منفعلاً فحسب يخضع للمؤثرات الخارجية ، ثم يستخدم فيما بعد كأى آلة صماء : .

فالعقل يجب أن يدرب على الفاعلية ، وأن يقوم بدور إيجابى عند تفاعله مع البيئة . ويجب أن تظهر نتائج التعليم وتحصيل المعرفة فى التو ، وليس فى المستقبل البعيد .

وينبغى أن يتجاوب العقل والمعرفة ، فكل ما يفرض على العقل من معارف يتحول إلى مادة صماء لا غناء فيها . ومالم يشعر المتعلم بأن ما يتعلمه يثير الاهتمام والمتعة ، فلن يحدث التقدم المنشود فى المعرفة . وقد ترجع هذه المادة الميتة التى لايشعر الدارس بقيمتها وأهميتها – إلى أنها تنتمى إلى ماضٍ لم يعد يثير الاهتمام . ويجب أن يشعر الدارس بأنه هو الذى اكتشف المعرفة . أى أنها ليست مجرد شىء يفرض عليه أو يحشر فى ذهنه . وكم فى علومنا من جوانب يتوهم غرابتها على حياتنا ، وبقليل من الإيضاح نشعر بالارتياح العميق لأننا لم نُضِع وقتنا فى التحصيل سدى .

وعندما جعل وايتهد شعور الدارس الاحتياج إلى ما يعرف ، وبأن هذا الشعور هو نقطة البدء فى كل عملية تعليمية – فإنه لم يقصد أن يكون هذا الشعور من الدارس مجرد احتياج ضحل أو نزوة ، أو أن عملية التعلم شبيهة بالمباراة الرياضية . فهو يعرف أن عملية التعلم تحتوى على نواح جافة فى حاجة إلى تركيز وانتباه شديدين ، ولذا رفض كل ما يرمى إلى تبسيط التعليم إلى حد الابتذال .

ويجب أن يشعر المتعلم بأن عملية التعلم تستغرق زمناً ، وأننا لن نعرف أثر هذا

التعلم إلا بالمقارنة بين حالنا قبله وبعده . والمشاق التى يتعرض لها الدارس تعوده الشعور بأن كل غاية عالية تحتاج إلى كثير من الانضباط والتضحية بالمتعة العاجلة لبلوغ الحرية الحق التى نشعر بها بعد استيعابنا لمادة المعرفة .

وينفر وايتهد من كل دوجماطبقية أو تجمد فى التعليم ، أو ظن بأن هناك معرفة مطلقة لأية مادة من مواد العلم . فكل شىء خاضع للمراجعة فى كل لحظة . ولا بأس من تغيير منهج أى مادة حتى بعد أن ينتهى التلاميذ من تعلمها . فهذا التغيير دليل على حيوية البحث ، وليس دليلاً على البلبلة أو الاضطراب !

ويشيد بأهمية التجربة فى التعلم ، وكل مادة من مواد المنهج المدرسى على وجه التقريب تصلح للعرض فى صورة التجربة التى يستطيع الدارس إجراءها بنفسه :

فعلم كالتاريخ كم هو ممتع عندما يدرس فى صورة رحلات إلى مواطن الآثار الكثيرة ، وبخاصة فى مصر .

والمعلومات الجغرافية كلها قابلة للتعلم بالمشاهدة الفعلية .

ولابد من المراجعة بين حين وآخر لكى يطمئن الدارس إلى الترابط الوثيق بين شذرات المعرفة التى اكتسبها فى مختلف العلوم . وتبدو براعة علماء التربية عند وضع المناهج الدراسية عندما يوفقون فى تحديد ما يحتاج إليه الدارس من جرعات متوافقة ومتكاملة ، وفى إحداث الموازنة بين نصيب الدارس من المعرفة المتخصصة والخلفية العريضة من المعارف العامة .

ويجب أن يشعر الدارس بالترابط بين الناحيتين ، وبأنهما غير منعزلتين على الإطلاق . والمثل الأعلى للتعلم هو أن يكتشف الدارس بنفسه كيف ينقله الفكر من موضوع تخصصه إلى باقى الموضوعات ، وبأنه لا وجود لموضوع علمى زائد عن الحاجة ، وأنه لن يشعر بالدهشة إذا اضطر يوماً إلى التعمق فى كل ما بدا بعيداً عن

اهتماماته العلمية الحاضرة؟

ومن أهم المبادئ التي دعا إليها وايتهد ضرورة الربط بين التفكير والحركات البدنية. والمعارف التي تنتقل من عقولنا إلى أطرافنا هي وحدها التي توقظ العقل من سباته، وتخلق معرفة حية نستطيع أن نجسمها عندما نريد في جسم خارجي نراه بأعيننا أو نسمعه بآذاننا. وهكذا أكد القيمة الكبرى للمهارة اليدوية كمقوم هام من مقومات التربية. فالمهارة اليدوية والبراعة في ترجمة الأفكار إلى مجسمات في البيئة المادية مهمة جداً في الفن والعلم والتكنولوجيا، وقد انتهى العهد الذي ظن فيه المفكرون أن النظر والتأمل أسمى مكانة من المعرفة العملية، أو المعرفة التي نمارسها بأيدينا. ومن الواجب ألا ينقطع العمل اليدوي عن كل دراسة في جميع المراحل. فيجب أن يكون العمل بالمعمل أو الورشة هو الأساس، والاستماع إلى المحاضرة النظرية هو الاستثناء.

وعندما نقدم أية نظرية للطفل في أول مراحل تعلمه يجب أن ندعمها بالتجربة العملية، وندرك أن التجريد العقلي، وبخاصة في مواد الرياضيات، يتبع مرحلة أسمى، على الرغم من أن بعض فلتات الأطفال لا تنطبق عليهم هذه القاعدة. والطريق إلى عقل الدارس طويل شاق، وليس هناك طريق واحد يتوافق هو وجميع العقليات، وعندما يظهر أي دارس نفوراً من تعلم موضوع، فلا يعني هذا كراهيته للمادة، كما يشيع الظن، ولكنه يعني أننا لم نستعمل الوسيلة الصحيحة التي تتواءم هي وفصيلة عقله ومستواه. فالمدرس الناجح هو الذي يملك عشرات الأساليب التي تناسب مختلف نوعيات الدارسين، والذي لا يقتنع بأن الأساسات التي يجب أن يعرفها كل طفل لا تناسب أطفاله، ويحارب مثل هذه الأوهام.

واعترض وايتهد على أنظمة الامتحانات التي تضع امتحاناً واحداً لكل نوعيات

التلاميذ ، وكأن عقولهم من نوع واحد ، وكأن الفهم والاستيعاب يتبعان طريقاً واحداً عند الجميع ، ويتناسى الممتحنون أنهم لا يقيسون فى أفضل الأحوال أكثر من ملكة واحدة هى ملكة الحفظ ، ويتناسون الملكات الأخرى التى لا تقل أهمية عن الذاكرة كالمبادرة وسلامة الحكم ، والقدرة على التعميم والتوقع والتكهن. فهذه الاختبارات تقيس الناحية السلبية فى العقل ، وينجح فيها عادة أصحاب العقول المحدودة التى تلتزم الحذر ، ولا تضيف أى شيء إلى ما تلقنته من المدرس. والاعتقاد بأن كل ما يفهم يجاب عليه بالكلمات خطأ شائع . فما أكثر المعارف التى يستطيع الدارس تجربتها دون أن تتوافر له البلاغة لشرحها ، ولكننا درجنا على الاعتقاد بأن الإجابة المكتوبة هى وحدها الصحيحة ، كما أنها دليل مادى يستطاع الرجوع إليه إذا حدث طعن فى نتيجة الامتحان !

واكتشفت وايتهد إيقاعاً معيناً فى عملية التعلم وعملية النمو البشرى.

فأولا هناك مرحلة « الرومانس » . وهى مرحلة يشعر فيها الدارس بوجود مواد كثيرة تثير اهتمامه دون أن يدرك طبائع هذه المواد ، أو العلاقة المركبة بينها . وتتميز هذه المرحلة بما يثيره الكشف من انتشاء. هذه المرحلة تستمر من المولد إلى نهاية المرحلة الابتدائية . ثم تجىء مرحلة « الدقة » وهنا يدرك الدارس وجود بناء للفكر والعمل . يدركه فى بناء الجمل التى يقرؤها ويكتبها ، وفى قوانين العلم . هنا يشعر بوجود نظام فى المتناثرات التى شعر بها فى المرحلة الأولى . هذه المرحلة الثانية تناظر المرحلتين الإعدادية والثانوية . وأخيراً تجىء مرحلة « التعميم » وتتميز بحماس مشابه لحماس المرحلة الأولى ؛ ففيها يستمتع الدارس بتنوع مادة العلم وتركيبها .

وكل مرحلة على حدة تمر أيضاً فى دورة ثلاثية من « الرومانس » و « الدقة » و« التعميم ». ولذا يقترح وايتهد أن تؤخذ فكرة المراحل فى الاعتبار عند وضع

« الدرس » فيجب أن يكون لكل درس إيقاع : أى يتضمن « رومانس » لفتح شهية الدارسين ، تليها مرحلة تحليل وتوضيح وتيقن فى مرحلة « الدقة » ، وأخيرا مرحلة تقدير كامل للموضوع وتحديد للمبادئ المستخلصة من الدرس .

ويهمنا هنا التفاصيل التى ذكرها وايتهد عن منهج المرحلة الثانوية : فقد ذكر وجوب تضمنه ثلاث نواح : أدبية وعلمية وتكنولوجية (قيل هذا الكلام منذ خمسين عاماً) ويزداد التركيز على الناحية التى يتخصص فيها الطالب . ولابد من تعويده على استخدام الأدوات التكنولوجية فى أية شعبة يختار .

والدراسات الأدبية تعرف الطالب أفضل ما فكر فيه البشر أو تخيله فى عالم القيم السامية . والتاريخ بوجه خاص يجب أن يدرك كعنصر حى يتخلل كل تجربة حاضرة . فما لم يكن التاريخ وثيق الصلة بالحاضر ، وما لم يُر التاريخ كتيار متدفق من الماضى عبر الحاضر ومتجهاً إلى المستقبل — سيبدو الحاضر ضحلا وبلا مغزى .

والفن يجب أن يدرس كنماذج فذة للكمال الذى بلغه خيال قمم البشر ، والآداب الكلاسيكية لها أثر فى تربية الذوق الفنى ، وكذلك فى استحضار العصور القصية ولعلها أقدر فى تقريب الماضى إلينا فى صورة حية من كل الدروس التاريخية الجافة التى لا تعرفنا أكثر من جثة الماضى .

والعلوم الطبيعية هى أفضل سبل لتعليم فن الفكر فهى تعلمنا كيف نعتمد على التجربة فى إثبات تساؤلاتنا ؟ وكيف تخلق نتائج التجربة أسئلة أخرى نحاول إثباتها بالتجربة ؟ وبذلك ينمو العلم ، وتتسع آفاقه ، ويصحح نفسه بنفسه : فالتفكير العلمى رياضة ذهنية وسلوكية لأنه يعلمنا خطل الإصرار على الخطأ ، وأن معرفتنا مهما كانت عميقة وجادة لابد أن تتسم بالنقص الذى قد تكمله الأجيال المقبلة ، ويجب أن تقتصر الناحية النظرية على الأسس ، أما باقى الجوانب فلا تدرس فى غير

المعمل مع توضيح صلة العلوم الطبيعية بتقنية الصناعة ، وبالحياة الاجتماعية للإنسان .

والرياضيات عظيمة الأهمية عند وايتهد : فقد اشترك هو وزميله وصديقه رسل فى تأليف أعظم كتاب بريطانى فى فلسفة الرياضة. فلا عجب إذا دفعه الحماس إلى القول بأن من يرغب التحدث عن شيء له دلالة فعليه أن يتكلم بلغة الكم : أى أن لكل موضوع جانبه الرياضى : فحتى طيران الطائر وإيقاع الشعر يستطاع التعبير عنهما بلغة الرياضة .

والتفكير الرياضى هو الذى يقوى التفكير المجرد ، ويعلمنا التعميم ، وبذلك يتحرر العقل من عبوديته للوقائع الجزئية .

ولا يعنى هذا أن وايتهد قد تخلى عن تقديره للتجربة فى المعرفة ، ولكنه يرى أن كل معرفة متوازنة لابد أن يشارك فى صنعها قسط من التفكير التجريبى والتفكير التجريدى والتطبيق التكنولوجى الذى نحتاج إليه جميعا ؛ فهو ليس وقفاً على المتخصصين فى الأعمال اليدوية أو الحرفية . والحذق اليدوى مسألة ثانوية بالنسبة للخبرة التكنولوجية . فأى صبى يستطيع اكتساب الحذق اليدوى إذا عمل صبياً فى حانوت حداد أو سباك . . إلخ . وما يقصده وايتهد هو تدريب الطالب على البراعة فى استخدام الآلة التكنولوجية مهما كانت درجة تعقيدها واعتمادها على النظريات العلمية . فهى امتداد للخبرة التى يكتسبها طالب العلوم فى المعامل العادية ، لأنها تبين له الثمرة المادية التى تتحقق فى مختلف الصناعات ، وبذلك يشعر بالقيمة العملية لدراسته ، وبأثرها على حياته .

والتكنولوجيا توحى بأفكار نظرية عظيمة الأهمية ، لأن المفكر لم يعد يفكر فى فراغ . فهو عندما يفكر الآن يتصور التطبيقات العملية لنظريته . وقد يستحدث

الآلة المناسبة لإثبات نظريته إذا توافرت له المعرفة التقنية المناسبة . ولاينبغى أن يدرب الفرد على آلة واحدة ، بل يجب أن يتعلم بدائل كثيرة ، وأن يتوقع تطور آلته ، وحدوث تغير كامل ، فى تصميمها وطريقة تشغيلها ، بل فى القوى المحركة لها .

والتعليم التكنولوجى بغير أساس لاقيمة له ، فدراسة الهندسة لازمة لمن يشتغلون بالتجارة ، وعلم الأحياء ضرورى للعاملين بالزراعة ، ويحذر وايتهد من الكتب الجماهيرية التى تعطى قشوراً فى العلم والمعرفة التقنية ، والتى تصور للبسطاء أن تشغيل الأدوات التقنية لم تعد تحتاج إلى أكثر من ضغط زرار ! وعلى هذا يرى أن يكون منهج الدراسة الثانوية متوازناً ، فيه جوانب نظرية وعلمية تجريبية وتقنية مهما اختلف التخصص . فلاأحد يستغنى عن المشاهدة العلمية وطريقة استدلال القوانين ، وحذق استعمال المعدات التقنية التى توفر الكثير من المحاولات .

ويبغض وايتهد كل من يكتفى بالقدر العلمى الذى يعلم فى أى مرحلة من مراحل التعليم النظرى : فمن المستحيل أن تعلم المدرسة كل مايستحق التعلم ، أى يجب أن يستمر التعلم من المهد إلى اللحد . ويعترض وايتهد على أفلاطون الذى جعل الحكم من نصيب قلة من الفلاسفة الملوك ، فهو يرى أن الحكم واجب المواطنين جميعاً ، ولذا وضع نظاماً تعليمياً يساعد كل المواطنين على تنمية معرفتهم وتعميقها حتى يشارك الجميع فى توجيه سياسة بلادهم عن جدارة واستحقاق . فوايتهد يمقت التخصص الذى يضيق أفق التفكير حتى عند أعظم العقول . ولابد من تكافؤ الفرصة فى التعليم ، ولايعنى هذا أن يعم التعليم الذى يناسب أحط العقول ، ولكنه يرى أن تتاح الفرصة للجميع بحيث يمنح كل إنسان مايناسب استعداده . وأن يختار لكل فرد أنسب الوسائل التى تناسب عقليته ، ونفسيته واستعداده .

وننتقل إلى برتراند رسل « ١٨٧٢ – ١٩٧٠ » الذى اكتسب خبرته فى المدرسة الخاصة التى كان يملكها ويشرف عليها . وكتابه المشهور عن التربية [١] يرجع إلى سنة ١٩٢٦ ومازال يطبع حتى الآن . وكان عظيم التأثير فى الفترة التى شغل بها الناس فى التفكير فى عالم مابعد الحرب . وبرغم أرستقراطيته فإنه قد اعترض على الاتجاه الأرستقراطى فى التعليم ، وانتقد انتقادا مريراً الدكتور توماس أرنولد الذى تبنى نظاما للتعليم الأرستقراطى يخرج رجالاً يصلحون لإدارة إمبراطورية واسعة الأطراف ، واعتبر أهم غاية لنظامه التربوى تربية السلوك والولاء المطلق لفكرة الإمبراطورية والإمبريالية . وليس للتربية الذهنية أى مكانة بين هذه الأهداف السامية التى هدف اليها الدكتور أرنولد ، فقد استبعد العقل من حسابه ؛ لأنه قد يخلق مشكلات ، فهو قد يتشكك فى غايات الدكتور أرنولد الذى كان يعبد كل قديم خالٍ من الحياة : ومن دلائل ذلك أنه كان يعتبر تعلم اللغة اللاتينية مثلاً أعلى لتعليم اللغات الحية ، فهو يرى أن تشريح اللغة وحفظها فى صورة قواعد نحوية أهم من التحدث بها ، ولذا كان ينصح طلبته عندما يتعلمون الفرنسية أن يكتفوا بحفظ القواعد ، ولاداعى للتحدث بها . واستبعد أرنولد التعاطف ، لأنه قد يضر عند التعامل مع الأجناس والفئات الدنيا « العالم الثالث حاليا » . ولامكان فى نطاقه التربوى للخيال ، لأنه قد يزعزع الثقة . ولو بقى العالم ثابتاً لايتغير لاستمر نظام الدكتور أرنولد لافى إنجلترا وحدها . ولكن فى جميع البلدان المقلدة لإنجلترا ، وفى أثناء الحرب العالمية الثانية اهتزت ثقة الإنجليز بكل شيء حتى بنظام الدكتور أرنولد ، وتبين لهم أن العالم الحديث شديد التركيب ، والذكاء أهم بكثير من فضائل الدكتور أرنولد . والحاكم فى المستقبل ليس من يؤدى دور الرجل الخيِّر

(١) On Education

ويكسب قلوب رعاياه بوسائل شريفة وغير ذلك إذا اقتضت الضرورة ، ولكنه من يثبت بعمله وعقله جدارته ، وبذلك يستحوذ على مشاعر مواطنيه .

ولايؤيد رسل كل الأفكار المستحدثة فى التعليم ، وأعترف بما لاقت المدرسة الأمريكية من نجاح -سنتحدث عنها بإضافة فى الفصل التالى - وبنجاحها فى خلق وحدة وتجانس بين أشتات متنافرة ، ولكنه أعتقد أنه لايناسب باقى العالم ، لأن أمريكا قد نجحت فى تحقيقه بفضل ثرائها الجم ، وبعدها عن أخطار الحرب « قيل هذا الرأى عندما كانت أمريكا تتبع سياسة العزلة » ، ولأنها لم ترث الميراث الذى ورثته أوربا من القرون الوسطى وقد انبهر النازحون من أوربا بالتكنولوجيا المتفوقة عند الأمريكيين ، ولكن بعد أن راحت السكرة وجاءت الفكرة أدركوا أن المستوى العقلى والفنى فى أوربا أسمى بكثير مما فى أمريكا . واعتمد رسل على هذا النقد عندما وضع غاياته التربوية التى لخصها فى أربع صفات يجب أن تتوافر فى الفرد : الحيوية والشجاعة والحساسية والذكاء . ومن المستطاع بلوغ هذه الغاية إذا أحسن تربية الفرد منذ حداثته بدنيا ووجدانيا وعقليا .

فالحيوية هى التى تنمى الاهتمام بالعالم الخارجى ، وكذلك القدرة على تحمل المشاق ، وهى صمام أمان ضد الحسد ، مصدر شقاء البشر.

والشجاعة تدل على عدة معان : كالقدرة على قهر الخوف . والتحكم فيه . ويقصد بالخوف هنا . الخوف اللاعقلانى الذى نشعر به فى حضرة أشياء غير جديرة بالخوف . وقد ينتهى هذا الفزع بأعراض القلق ، وربما ببرانويا الاضطهاد والعياذ بالله والخوف معد ، وكثيرا ماينقله الأبناء من ذوى قرابتهم ومعلميهم ، والأدب الرومانتيكى يوحى بأن سحر المرأة ينبع من مخاوفها وشعورها بالحاجة إلى الحماية ، ونسوا أن أمثال هؤلاء النساء عندما يكن أمهات هن اللائى يقمن بتربية مشاهير

الملوعين و«الأرانب» الذين انهاروا فى المواقف التى تحتاج إلى شجاعة وإقدام كالمعارك الحربية والكوارث الطبيعية . ولايرضى رسل عن الأسلوب الأرستقراطى للتحكم فى الخوف ، بالتظاهر بالتماسك والصلابة على طريقة الدكتور أرنولد : فرسل يرى علاجاً أفضل هو تنمية النظرة اللاشخصية للأشياء . ولن تتحقق هذه الغاية إلاعند من يملكون أكبر قدر من الاهتمامات ، والذين يشعرون بأن ذاتهم مجرد نتفة صغيرة فى هذا العالم . وهذا لايدعوهم الى احتقار أنفسهم ، ولكنه يدعوهم إلى تقدير أشياء كثيرة أخرى خارج ذاتهم . ولن تتحقق هذه الغاية إلا إذا تحررت غرائزنا ، ونشطت عقولنا . ومن هذين العنصرين تتحقق لنا نظرة شاملة لايعرفها الأبيقورى الغارق فى شهواته أوالزاهد على السواء ، هذه هى الشجاعة الحقيقية التى لاتعتمد على القمع أوالاتجاه السلبى ، ولكنها متوافقة مع غرائزنا وعقولنا .

والغاية الثالثة هى الحساسية ، ونضيف إليها لتبسيط العرض ، «الواعية» التى تساعدنا على تمييز ماهو ممتع جدير بالانتباه والغث الثقيل الظل . هذه الحساسية تخلق تعاطفاً ينتهى فى النهاية إلى حسن تقويمنا للمواقف وتمييزنا بين الخير والشر .

ولم يخطر ببال النظريات القديمة فى التربية أهمية العقل . فقد تركزت نظريات التربية على السلوك . ويعتقد رسل أن هذه الفكرة عائق كبير يحول دون تصور أن والعقل يعنى معنيين عند رسل : المعرفة العقلية ، والقدرة على تقبل المعرفة ، والعقل يعنى معنيين عند رسل : المعرفة العقلية والقدرة على تقبل المعرفة ، والناحيتان مترابطتان : فالبالغون الجهلاء لايصلحون للتعلم ، أو إدراك مايستطيع العلم أن يحققه . فالجهلاء يعتقدون أن العقل أداة صماء ، وأن مايعرف لايقبل التحوير والتبديل ، ومن هنا يصابون بالجمود والتحجر المتعارض مع العقل السليم .

واعتمدت أنظمة التعليم التقليدية على هذه الظاهرة اعتماداً كبيراً أفسد رسالتها : فقد ظنت أن التلقين والتحفيظ أهم أسس التعليم ، ولذا خلقت عقولاً حجرية سرعان ماتشبعت بماحشر فيها من علم ، وهذا يجعلها لاتتجاوب هى والشعارات الحديثة الداعية الى التعليم المستمر أوالثقافة المستمرة ، من المهد إلى اللحد . ومن الناحية النفسية : حب الاستطلاع أساس كل حياة فكرية . إنه حب الاستطلاع النابع من الحب الحقيقى للمعرفة . وليس حب الاستطلاع المشهور عن الدساسين والنمامين ، وعشاق الثرثرة .

ولكى يكون حب الاستطلاع مفيداً من الناحية العلمية يجب أن يقترن بفن اكتساب المعرفة ، ومن هنا يجب تنمية القدرة على المشاهدة والاستدلال واستخدام الأجهزة التقنية الدائمة التطور بالإضافة الى الصبر والشجاعة العلمية . فعالمنا مازال مجهولاً بقدر كبير ، ولم تُستنفد ميادين الاجتهاد ، ولن يشعر بالاكتفاء فى ميدان العلم سوى الخاملين . ولم يعد البحث العلمى سرًّا يجرى فى الخفاء . فما أكثر المراجع العلمية التى فتح فيها العلماء قلوبهم ، ولم يضنوا بشىء على أقرانهم واللاحقين ، إلا ماحرمته اعتبارات الأمن ! وكم أثبتوا حتى فى هذا المضمار سذاجتهم وإيثارهم التعاطف مع كل راغب للعلم على الأمن ومتطلباته ! وكل الخصائص التى ذكرها رسل تنمى روح الفريق والتآخى ، لذا يرى أن المجتمع الذى يتبع هذه المثل سيختلف اختلافا بينا وكل ماسبقه من مجتمعات . وإذا صادفنا شروراً فى أى مجتمع فعلينا أن نفتش عن التعليم ، فهو وراءها جميعاً .

ويفرق رسل فى نظريته التربوية بين مرحلتين : مرحلة عامة تنتهى فى سن الرابعة عشرة ، ومرحلة خاصة تبدأ من الخامسة عشرة إلى الثامنة عشرة . وهذه المرحلة الأخيرة تخص المتفوقين وحدهم : فمن الواجب أن تستمر المرحلة العامة

بلاتخصص لمتوسطى الذكاء الذين لايكتشفون عن أى شعف مميز . وربما لو طالت فترة إعدادهم لتكشفت ميولهم الحقيقية فى سن متأخرة .

وعلى العموم هناك مايناسب هذه الفئة من الحرف والأعمال المفيدة للمجتمع . ولن يشعر هذا النوع من الأفراد بأى حقد على رجال التربية بعد أن أتاحوا لهم فرصاً متعددة لكى يثبتوا جدارتهم ويكشفوا عن ميولهم الحق .

ولنتحدث عن الذين كشفوا عن قدراتهم ، وأصبح لهم حق الاختيار بين ثلاث شعب « الكلاسيكيات والرياضيات والعلم ، والإنسانيات الحديثة » وتضم هذه الشعبة الأخيرة عند رسل اللغات الحديثة والتاريخ والأدب . وهناك موضوعات ذات أهمية نفعية ينبغى أن تعلم جميع الشعب من بينها تركيب الجسم وعلم وظائف الأعضاء ، وكذلك العلوم التى تختص بتكوين الدولة والمجتمع . وينبغى أن يتعلم الجميع ماهو الدستور وواجبات المواطن ، والعلاقات الدولية . ومسألة طرائق التدريس ، والروح الواجب اتباعها فى العلاقة بين المدرس والتلميذ أهم بكثير من المنهج ومحتوياته . ويذكر رسل مبدأ عميق الدلالة هو أن تكون الدراسة مثيرة للاهتمام بغير أن تجنح إلى السهولة المفرطة . وينبغى أن يزود الطالب بمعلومات إضافيه حول موضوع الدراسة .

فعند تدريس الرياضيات مثلا ينبغى التنويع بإعطاء محاضرات بين الحين والآخر عن تاريخ الكشوف الرياضية ، وأثر بعض موضوعات الرياضة على العلم والحياة اليومية ، مع ذكر طرائف ولمحات عن الرياضيات العليا .

وعند تدريس التاريخ ، وبعد ذكر الوقائع المفردة لابأس من التحدث عن بعض الأحداث المماثلة التى يعتقد أن التاريخ قد كرر نفسه فيها ، ولو أن التاريخ فى الحقيقة لايكرر نفسه .

وعند تدريس العلوم ، ينصح رسل بالتشويق لتعريف الطلبة بأحدث ماظهر من كشوف علمية تؤيد بعض القوانين العلمية التى مازالت تؤكد ثباتها وصحتها . وهذه المعلومات حافز مفيد ومقبول لتشجيع الدارسين على دقة الدراسة . ولكنها خطرة إذا اعتقد أنها تصلح بديلاً للمعارف الأكاديمية الضرورية . فينبغى التذكير بأن الدراسة الجادة لها طريق شاق لايستطاع الاستعاضة عنه «بتخريمة» تختصر الطريق .

والتشويق لايعنى حث الدارسين على الاستهتار ، ولكنه يعنى إبراز أهمية الموضوع ، وحيويته ، حتى يبذل الطالب قصارى جهده فى تحصيله . ولعلنا لاحظنا جميعاً كيف يبذل أصحاب الفطنة من التلاميذ جهداً كبيرا لمعالجة الموضوعات الصعبة ؟ ومن هنا كانت مهمة المدرس تشجيع التلاميذ ، وتحريرهم من الخوف المقيت . وكم هناك من تلاميذ ظهروا بمظهر الأغبياء العاجزين فى المراحل الأولى ، ثم كشفوا عن نبوغ حق فى المراحل المتقدمة !

وينبغى تشجيع الطالب على البحث الفردى من جهة ، وعلى العمل بروح الفريق من جهة أخرى . وهذه هى الرسالة الحق للمدرسة : أى تعليم الطالب كيف يعلم نفسه بنفسه ، وتعليمه كيف يشترك هو والآخرون فى مجهود علمى جماعى ؟ ويجب أن تزود المدرسة بأكبر قدر من المكتبات والمعامل والورش ، ويخصص وقت طويل للدراسات الاختيارية ، ويعد الطالب تقريراً عنها متضمناً الكشوف التى يعتقد أنه انتهى إليها . ولهذه الطريقة جملة فوائد .

فهى تُثبت ثقة الدارس بنفسه ، وتعلمه كيف يقرأ ويلخص ويستخلص ؟ وتحببه فى أدوات العلم ومعداته ، وتعرفه أن الفصل والمعمل والورشة حلقات مترابطة فى كل بحث جاد .

وروح الفريق ضرورة من ضرورات البحث العلمي في عصرنا. ومن الآن فصاعداً ستكون الأبحاث الفردية استثناء ، أما القاعدة فهو اشتراك جملة علماء في البحث ، ولابد أن يعتاد العالم الانضباط العلمي ، والتوفيق بين حريته وحرية أقرانه ، واعتياد الرأى المغاير والحذر قبل إصدار أحكام قاطعة .

ويشجع الطلبة على الاهتمام بالمسائل الجارية ، سياسية واجتماعية ودينية بالاطلاع على كل أطراف النزاع ، وعلى المدرس أن يلتزم الحياد عند توجيه مثل هذه المناقشات حتى لو تعارضت آراء طلبته وآراؤه مكتفياً بتصحيح أخطاء الوقائع . وبذلك يتعلم الطلبة كيف يتناقشون لبلوغ الحقيقة بدلاً من النقاش لمجرد النقاش أو لإثبات البراعة فى المبارزة الكلامية . ويدركون ارتباط العلم بموضوعات الحياة العامة ، والحياة العملية ؟

وأهم كل الغايات التى اهتم بها رسل هى تنمية الروح العلمية . فهو يعتقد أن كثيراً من البارزين فى العلم لايعرفون هذه الروح خارج نطاق تخصصهم ، ولكن الواجب أن تكون هذه الروح طبيعة ثانية للطالب تلازمه عند بحث أى موضوع بلااستثناء . هذه الروح هى التى تدفعه إلى البحث عن الحقيقة . ولهذه الروح أعراض معينة . فالباحث يبدأ من حالة عدم التيقن المصحوب بالتصميم على التقدم من خطوة لأخرى اعتماداً على الدليل العلمي .

وعلينا ألانتخيل مسبقاً أننا نعرف بالفعل ما الذى يبرهن عليه الدليل ، كما أن علينا ألانقنع بالشك الدال على التبلد الذى يسوقنا إلى توهم استحالة بلوغ الحقيقة الموضوعية : فليس هناك دليل نهائى حاسم . وتحثنا هذه الروح العلمية على إدراك أن أرسخ معتقداتنا فى حاجة إلى بعض التصحيح . فالحقيقة التى يبلغها الإنسان تتسم بالنقص الذى يتسم به نفسه الإنسان . والحقيقة تنكشف على مراحل . والمهم

ألا نفقد الثقة فى التقدم . فمعتقداتنا فى الفزياء الآن أقل زيفا مما كانت عليه فى عصر جاليليو . كما أن معرفتنا بسيكلوجية الأطفال أفضل كثيراً وأقرب للحقيقة من معرفة الدكتور أرنولد (إياه) .

وكلما تقدمت المشاهدة العلمية ، وتقدمت أجهزتنا العلمية أمكننا التخلص من أهوائنا وأحكامنا المتسرعة . من هنا جاءت أهمية البدء من حالة اللايقين ، بعكس الاتجاه المطلق الذى يتبع فى عرض نظريات العلم فى الكتب المدرسية . هذا الاتجاه كان يقتل الروح النقدية ، وملكة البحث العلمى بالتبعية ، لأن تعريف الطالب بالنتائج النهائية للأبحاث العلمية – لن يعود بالنفع مثل تعريفهم روح المخاطرة التى عاشها العالم ، أى بتقديم العلم فى صورة تجارب حية يستطيعون تكرارها ، ولا مانع من الوقوع فى خطأ ، ومن توجيه النقد بقصد الإصلاح مقابل عبارات التشجيع عندما يستحقون الإطراء ، فيجب ألا يشعر الطلبة بالخجل من أخطائهم أو بأنهم معصومون من الخطأ . وأفضل حافز للتعلم هو الشعور بإمكان الإنجاز ، وكل معرفة تفرض علينا ونبتلعها رغم أنوفنا سرعان ما ننسى ، أما المعرفة التى نستوعبها بعد مشقة فإنها عميقة الأثر ، وتشعر الطالب بالعلاقة بين المعرفة والحياة ، ودور المعرفة فى تغيير العالم .

* * *

أخذنا نماذج مختصرة للفكر النقدى الذى وجه لأنظمة التعليم ، وربما نكون قد استطردنا بعض الشىء ، لأننا نريد أن نشعر قارئنا بأهمية التطورات الحديثة التى طرأت على نظريات التعليم ، ولم تحدث فى حينها أى أثر واضح ، فقد استمر التيار المحافظ قوياً للغاية . وقبل أن ننتقل إلى الفصل التالى نذكر خلاصة للأفكار التى دعت إلى تغيير أنظمة التعليم :

أولاً : الديموقراطية الحق تعنى التكافوء الصحيح فى الفرص وهذا لن يتحقق إذا تعلمت قلة أرستقراطية ، واكتفى بتعليم الأغلبية بعض الأوليات فى عالم شديد التعقيد ، يحتاج إلى جهد كل فرد فى تنمية اقتصاده وزيادة إنتاجه ورخائه .

ثانياً : تحددت غايات جديدة للتعليم تناسب المواطن الحديث لخصها علماء التربية فيما يأتى :

١ – تزويد الدارس بالحد الأدنى من المهارات الضرورية للقيام بدوره فى المجتمع ، والاعتماد عليها كركيزة لتنمية خبرته ومعرفته . ويستغرق هذا الحد الأدنى اثنتى عشرة سنة دراسية فى أقل تقدير .

٢ – تزويد الطالب بتدريب مهنى يساير العصر ، يمكنه من أن يعول نفسه .

٣ – خلق الكلف بالمعرفة ، والقدرة على تذوقها .

٤ – تقوية القدرة النقدية .

٥ – تعريف الطالب بمنجزات الحضارة وتدريبه على تذوقها ، وتنمية سلوكه الأخلاقى .

هذه الغايات تناسب فى حملتها المواطن بالمجتمع النامى والمتحضر على السواء ، وإن كان تحققها فى المجتمع النامى يحتاج أحياناً إلى إعداد خاص . فنحن لن نتوقع منه التجاوب الفورى مع التعليم الذى يعده لكى يصبح مواطناً عالمياً يدرك قيمة الحضارة ، ويتسع أفقه لفهم مشكلات البشرية . غير أننا برغم كل هذا نزوده بالقدرة على زيادة معرفته وعلى تعليم نفسه بنفسه وعدم الاكتفاء بما يدرس له فى المناهج المدرسية النظامية .

وتتطلب غاية تقوية القدرة النقدية تعديلاً كبيراً فى أسلوب التعليم ، لأنها تتعارض هى وطريقة التلقين التى تحشر فى أمخاخ التلاميذ أكبر قدر من المعرفة بغض

النظر عن استيعابها أو استساغتها . ويجاوبها الطالب بطريقتين إمابقبولها مؤقتاً إلى أن يلفظها فى الامتحان النهائى ، أو يحرص على الاحتفاظ بها فتتجمد داخل عقله أو تصاب بالعفن ! وفى الحالين - يعجز العقل عن اكتساب أى معرفة جديدة ، أوتصحيح ماحشر فيه من علم .

هذه الغايات تحتاج إلى معلم من نوع خاص ونظام تعليمى مختلف عن النظام التقليدى الذى ورثناه من عصور ماضية ، كانت تعتقد أن المعرفة ثابتة لاتتغير ، ومايقوله المدرس معصوم من الخطأ ! ولا اختلاف بين الكتب السماوية والمواد الدراسية ، والمطلوب من الطالب هو الحفظ عن ظهر قلب ، ليس إلا . وعندما تصطدم هذه المعارف المقدسة والحياة السريعة التقلب ينهار الإيمان بالعلم ، ومن هنا حدث تطور فى تعليم الدين ذاته ، وتنوعت أساليب تدريسه تبعا للتقدم الذى حدث فى فهمنا لسيكلوجية التربية وسيكلوجية النفس البشرية .

ودور المعلم فى حالة التلقين يسير هين يشبه إلى حد كبير المنوم المغناطيسى الذى ينيم الوسيط ، ويطمئن الى تجاوب عقله تجاوباً كاملاً مع المادة العلمية الملقنة ، أما فى حالة المعلم الحديث فإنه يطرح الفكرة ويحاول تعزيزها بأدلة كثيرة من تجاربه وتجارب الآخرين ، ويذكر مالها وماعليها . وغالباً مايترك لتلاميذه حرية استخلاص النتائج ، ولايهمه الاطمئنان إلى اقتناع طلبته اقتناعاً قاطعاً وحازماً بالفكرة ؛ لأن أهم غاية يسعى إلى تحقيقها هى خلق العقلية المتحررة القادرة على الانتفاع الذكى بالمعرفة المكتسبة ، والاعتماد على نفسها مستقبلاً ، فى اكتساب المعرفة فى حالة عدم وجود المدرس .

وقد صعبت هذه التطورات أيضا من وضع المناهج الدراسية ، ففى حالة ثبات المعرفة كان المنهج والكتاب الدراسى فى غير حاجة إلى مراجعة دورية . وترتب على

ذلك – كما رأينا – تخلف المقررات الدراسية عن الواقع والتقدم العلمى . وعاشت المدرسة بمعزل عما يجرى فى عالم الصناعة بمبتكراته التى لاتنتهى ، وعن العلم الحديث وكشوفه الثورية ، وانتهى الأمر كما هو معروف بأن وضعت المصانع أنظمة تعليمية خاصة بها تبدأ بغسل أمخاخ التلاميذ من كل ماعلق بها من شوائب علمية وتقنية متخلفة ، وتغرس بدلاً منها معارف أخرى تناسب احتياجاتها الفعلية الدائمة التطور والتبدل . وبذلك يضيع مايعلم فى المدارس النظامية سدى ، بل يعتبر مفسداً للتعليم الصحيح .[٧]

وهكذا ظهرت فى العصر الحديث مشكلة لم تكن معروفة من قبل وهى مشكلة وضع المنهج : من يضعه أويعدله ؟ المجتمع فى جملته « أوممثلون على الطريقة النيابية » أو أصحاب الخبرة من الأساتذة ، أو ربما التلاميذ أنفسهم ، أو جمع من كل هؤلاء ؟ وإذا اتبعنا مايقوله علماء التربية حديثاً فسنرى أنهم يكتفون بوضع أساس بسيط « من الناحية النظرية » لطريقة الاختيار فهم يقولون إن مادة البرنامج يجب أن تختار من أهم جوانب التراث الحضارى للمجتمع التى يستطاع أن يعهد بها للمدرسة لكى تنقلها نقلاً تربويا صحيحاً إلى أبنائنا الطلاب .

هذه الحضارة لم تعد حضارة زراعية أوحضارة حرف بسيطة . ولكنها حضارة شديدة التركيب ، ومن هنا يلزم أى منهج سليم أن يعد الطالب لكى يتمكن من فهم الإنسان والعالم ، وإلى جانب هذا يجب أن نكيف الطالب للتعامل مع الآلة ، إلهة هذا العصر الحديث ، بتطوراتها الدائمة التى يصادفها فى بيته وعمله وأوقات متعته .

٣ – الطفرة الكبرى

ولكن التغير الكبير لم يجيء من عند الفلاسفة ، أو من داخل عالم التربية والمربين . لقد حدث من خارج هذه المجالات . من الأحداث الكبرى التي تخللت الحرب العالمية الثانية ، ومواقفها الرهيبة التي استمرت خمس سنوات انتهت بأن قلبت الأوضاع ، وغيرت الموازين السياسية والاقتصادية . وترجع إلى الفترة من بداية الحرب العالمية الأولى إلى نهاية الحرب العالمية الثانية هذه الطفرة التي بلغت ذروتها في صنع القنبلة الذرية وإلقائها على هيروشيما ونجازاكي في اليابان ، ثم انتهاء الحرب على التو . فقد انتهزت الولايات المتحدة فرصة ابتعادها عن أخطار الدمار في الحرب ، وعبأت طاقتها العلمية ومواردها لتطوير معدات الحرب ، واستفادت من هجرة العلماء والمهندسين إليها من شتى الأقطار : إما بحثاً عن المال أو هرباً من مشكلات أوربا ، وتوقع الحرب في كل لحظة . وحقق الأمريكان تفوقاً ساحقاً في

المعرفة العلمية والتكنولوجية لم يسبق له مثيل .

وكانوا فى البداية ، أى قبل اندلاع الحرب سنة ١٩٣٩ ينوون استغلال الكشوف الثورية الكبرى لعصر روزرفورد وأينشتين لتفجير الطاقة الذرية لأغراض الصناعة ، ولكن اندلاع الحرب غيّر كل شيء ، ووجهت هذه الطاقة العلمية الضخمة بعد مضاعفة الموارد المالية وعدد العلماء إلى صنع القنبلة الذرية وغيرها من آلات الدمار . ومنذ ذلك الحين احتكرت أولوية البحث العلمى صناعة الأسلحة الفتاكة ، ولم تعد الدول تضن عليها بكل ما لديها من قوت . وما قلناه عن القنبلة الذرية ينطبق أيضاً على بحوث الفضاء التى اتجهت فى المقام الأول لتحقيق التفوق الحربى .

تفجر المعرفة : كان هذا تمهيداً ضرورياً لبيان ما يدعى بتفجير المعرفة ، ولم يكن مباغتاً ، ولكنه جاء فى أعقاب قرن من الزمان (١٨١٢ — ١٩١٤) ارتقت فيه تقنيه الصناعة والنقل والزراعة والاقتصاد . وكان من آثاره التفوق الهائل فى شتى جوانب الحياة . وانعكست آثاره على التعليم ، وإن كان للتعليم الفضل الأول فى تحقيق هذا التفوق[١] .

ومظاهر هذا التفوق المعرفى كثيرة ، فيقال : إن تسعة أعشار العلماء الذين عرفتهم البشرية فى تاريخها الطويل يعيشون بيننا فى هذا العصر . ولو افترضنا أن كل الكتب التى ألفت قبل سنة ١٩٠٠ ضاعت فإنها لن تترك فراغاً يذكر ، لأن البلدان البعيدة التخلف قد توافرت لها فى هذا القرن معرفة علمية وتقنية تفوق كل ما عرفه جدودنا : فكم هناك من موضوعات علمية مستحدثة ظهرت لأول مرة فى نصف القرن الأخير حتى خارج نطاق العلوم الفزيائية ؟

(١) War and Human Progress-(John) Nef.

فى أواخر القرن الماضى لم تكن الآداب الحديثة والإنجليزية تدرس فى جامعة كيمبردج الإنجليزية الشهيرة ، ولم تعرف كيمبردج أيضاً علم الاجتماع أو علم السياسة ، وكانت علوم الاقتصاد والهندسة والزراعة مقصورة على معلومات بسيطة بالمقارنة بعصرنا ، واقتصرت العلوم الطبيعية على الفزياء والكيمياء وقليل من علم الأحياء ، أما الآن فيدرس طلبة الجامعات علوما طبيعية واجتماعية جديدة لم تكن معروفة منذ ثمانين عاماً ، وازدادت العلوم عمقاً واتساعاً ابتداء من اللاهوت والكلاسيكيات حتى البيولوجيا النووية ، وتوافرت أدوات ومعدات لم يحلم بها أسلافنا . ويتبين هذا الاختلاف من مجرد إلقاء نظرة على غرفة المعمل فى أى دار للعلم منذ ثلاثين سنة ، والبناء الضخم الحافل بمعدات العلم وأدواته حالياً . وكم هناك من مجلات علمية وتقنية تظهر بلا انقطاع شهريًّا وربما أسبوعيًّا ، وفى كل عدد جديد اختلاف جذرى يتطلب مراجعة المقررات الدراسية !

ولو أردنا مثلاً واحداً للدلالة على سرعة التغير العلمى ، وسرعة ظهور المخترعات العلمية — لما علينا إلا أن نعقد مقارنة بين الوقت الذى يستغرقه أى اختراع فى الماضى ، وما يستغرقه حاليًّا : فقد اخترعت آلة التصوير بعد أبحاث دامت عشرين سنة ، واستغرق اختراع الآلة الكاتبة مائة وعشرين عاماً ، والتليفون خمسين عاماً . أما القنبلة الذرية فقد اخترعت فى ستة أعوام ، واستغرق اختراع الترانزستور ثلاثة أعوام ، وأول جهاز لاستخدام أشعة الليزر استغرق شهرين فقط !

وفى بداية القرن العشرين ، كان الطالب يستفيد فى حياته العملية بكل ما يتلقاه من علم فى أثناء دراسته ، وما يتغير منه بعد تخرجه لا يزيد عن جزئيات صغيرة يستطيع الاطلاع عليها فى كتيب صغير . أما اليوم فإن التغيرات الجذرية

تحدث بسرعة خاطفة ، ويقال : إن المعلومات ستضاعف سنة ٢٠٠٠ من ١٥ إلى ٢٥ ضعفاً .

وفى إنجلترا كان عدد المشتغلين بالعلم من أساتذة الجامعات أقل من الألف ، أغلبهم كان يعمل فى حقل الأدب والفن ، ونشاطهم مقصور على إلقاء المحاضرات . أما الآن فمن بين ٣٠,٠٠٠ من أعضاء هيئات التدريس فى الجامعات آلاف من علماء الطبيعة والاجتماع ، والأستاذية فى هذين المجالين تعنى المواظبة على البحث ، واكتشاف حقائق جديدة .

هذه المعارف المتدفقة لم يعد ميسوراً إغفالها عند وضع برامج التعليم ، ولذا يحرص المسئولون عن التربية على إضافة الجديد ، بل تغيير المضمون كله أحياناً . ولم يعد من المستطاع التنبؤ بمدى استقرار المنهج الدراسى ، فقد يطرأ جديد يتطلب التعديل قبل الاختبار بقليل ، ويواجه المسئولون حين ذاك مشكلةً حادة : هل يترك الطلبة لتعلم مسائل لم تعد تساير العصر ؟ وهل يختبرون فيها ماداموا قد بذلوا جهداً فى استذكارها ، أو أن الأمانة تقتضى تدريس أشياء جديدة تنفعهم وتُعودهم توقع مفاجآت كثيرة فى ميدان العلم ؟ . هذه أزمة خطرة تواجه المسئولين عن التعليم نتيجة لهذه الطفرة المعرفية الكبرى .

ولم تعد الإضافات والتعديلات الجديدة مجرد صفحات تضاف أو تنتزع من المنهج ، ولكنها كثيراً ما تمس أسس الموضوع نفسه . ولا يقتصر عدم الاستقرار على العلوم التجريبية ، لأن الكشوف العلمية لا تتوقف حتى فى التاريخ وقواعد اللغة والرياضيات . وانتهت مراجعة مقررات بعض المواد إلى قلب بعض الموضوعات رأساً على عقب ، أى نقلت مثلاً موضوعات من مناهج الجامعة إلى مناهج المدارس الابتدائية : ففى الرياضة الحديثة يبدءون المنهج فى المرحلة الابتدائية

أو الإعدادية بتدريس موضوعات من فلسفة الرياضة ، وأسس الإحصاء كانت تدرس فى الماضى فى الجامعة . كل هذه المسائل لم تعرفها القرون الغابرة فى جميع مراحل تعليمها. ففى التعليم الدينى كانت الكتب المقدسة هى هى تقدم فى كل عام دراسى بلا تغيير ، وعند تدريس الرياضيات كانت المناهج تقتصر على الرياضيات الإقليدية وهلم جراً .

وما ترتب على هذه الحالة هو غربلة وفحص كل المراجع العلمية ، ووسائل الاختبار ، وإعادة تدريب المدرسين . كما ترتب على التغير الكبير فى صورة المعرفة وحجمها أثر آخر : فعند ثبات موضوعات المعرفة كان من المستطاع إقامة حدود فاصلة بين الموضوعات التى تجمدت فى إطار محدد كالكلاسيكيات والتاريخ والعلوم الطبيعية ، وأحياناً الدراسات الاجتماعية . وأدى هذا التقسيم الحاد إلى تخصص نهائى بقطع صلة الطالب بالمواد خارج تخصصه . وغالباً ما يحدث هذا فى سن مبكرة كالثالثة عشرة أو الرابعة عشرة . واعتُقد فى الماضى أن التخصص لخير الفرد والمجتمع على السواء ، وأن إجادة معرفة شىء واحد أفضل من المعرفة الناقصة لجملة أشياء ، ولكن تفجر المعرفة قد خلق موقفاً جديدا : فقد أزال الحدود المصطنعة بين هذه الأقسام التقليدية : فعندما نمت بعض العلوم زحفت وتغلغلت داخل علوم أخرى : ولنذكر بعض الأمثلة كالرياضيات والإحصاء وعلم النفس التى يحتاج إليها كل دارس فى جميع جوانب الحياة ، وغالبا ما يحتاج المتخصص الحديث إلى علوم تنتمى إلى الأقسام التقليدية جميعاً : فعلوم الكلاسيكيات قد امتزجت بالدراسات الاجتماعية ، وأتخذ الاقتصاد وعلم الاجتماع الصدارة فى هذا المجال . ولما كان هذا العلمان فى حاجة إلى علوم أخرى مؤازرة فلذا ظهر ميل بين علماء التربية إلى إقامة شعب جديدة تخدم هذين العلمين . وهكذا أصبح من

الصعب اتباع القسمة التقليدية التى رأينا بدايتها فى القرون الوسطى أو العهد الاسكولائى (المدرسى) على وجه التحديد. ولكن هل يستطاع الاستغناء عن التخصص؟ وهل يتسع عقل التلميذ ووقته لدراسة كل العلوم فى عهد تفجر المعرفة؟ هنا رأى علماء التربية أن يخضع التقسيم لمستوى الذكاء، ولنوعية المدرسة، ولكن الاختبارات الحديثة فى الذكاء قد بينت صعوبة اكتشاف ذكاء فطرى لا يتأثر بالعوامل الاجتماعية.

وما قيل عن وجود صلة بين الذكاء وبعض مستويات الرياضيات، أو الدراسات الاقتصادية والاجتماعية لا يرجع إلى أسباب كامنة فى الأفراد، ولكنه يُعزى إلى ظروف اجتماعية معينة، وإلى العلاقات الأسرية أحياناً. وهكذا لم يعد من المستطاع أيضاً اتخاذ الذكاء الفطرى أساساً للتشعيب، وانتهى التربويون إلى ضرورة إطالة فترة الدراسة العامة، وإرجاء التخصص إلى مرحلة عالية، واتباع منهج مشترك للأغلبية العظمى من الطلبة.

ولما كان أغلب الناس يتعرضون لتغيرات اجتماعية ومؤثرات بيئية مختلفة ويغيرون عملهم جملة مرات، ولما كانت المعرفة فى تفجرها قد جعلت من العسير التمييز بين ما هو جوهرى وعرضى فى المعرفة فلذا علينا أن نركز فى التعليم على الجوانب التى تساعد على تنمية القدرات إلى أقصى قدر مستطاع (أى بقدر ما تسمح به إمكانات أساليبنا التعليمية فى حضارتنا المعاصرة) وحاليًا اكتُشف أن هذه الأساسات هى إتقان اللغة القومية، ولغة أجنبية نافعة، وفكرة صحيحة عن الرياضيات مع فهم عميق رحيب للبيئة الطبيعية والاجتماعية. كما أثبتت الدراسات الحديثة، وكما ذكرنا، ولما كان من العسير تحديد اختلاقات القدرة والرغبة فى التعليم فلذا يؤجل الانتقاء إلى أن يشعر الفرد باستقلاله العقلى وتحرره من المؤثرات البيئية التى قد تكون

معوقاً لاكتشافه لنفسه ، ومعرفته لحقيقة قدراته .

وما قيل عن الفكرة الصحيحة عن الرياضيات والعلوم الطبيعية والاجتماعية قد يكون موضع جدل ، لأنه يعنى تحميل المنهج الدراسى ما هو فوق طاقته ، وقد يستغل هذا المعنى استغلالاً خاطئاً . ويشعر التربويون بكل دلالات هذه المشكلة ، ولذا رأوا أن الحل يجب ألا يتجه إلى زيادة أبواب المعرفة ، ولكن إلى اكتشاف آفاق أبواب المعرفة ، ومن هنا اتجهوا إلى النهوض بالتقنيات التى تعلم الفرد كيف يعلم نفسه وتنمى فيه القدرة على البحث والتنقيب بمفرده أو بالاشتراك مع الآخرين ؟ ولعل هذه الوسيلة واضحة فى تدريس اللغات الحديثة : فلم يعد هناك تركيز على فهم القواعد النحوية ، وحفظ آلاف منها من الألفاظ الحوشية والمهجورة . وبدلا من ذلك اتجه إلى استخدام اللغة أداة لسرعة القراءة والتخاطب . وهكذا أدى تفجر المعرفة إلى شيوع فكرة إرجاء التخصص ، وإلى التركيز على فكرة التعليم المستمر ، ولولا ذلك اضطررنا إلى معاودة التعليم كلما جد جديد فى المعرفة حتى تصبح المعرفة مسايرة للزمان ، ويمضى التلميذ حياته كلها تلميذاً بالمدرسة على الطريقة التقليدية التى كانت تعتقد أن المدرسة وحدها هى التى تضطلع بمهمة التعليم .

الانفجار السكانى : تحدثنا عن تفجر المعرفة ، ولم نذكر تفاصيلها ، ونكتفى باكتشاف علمى واحد قلب الأوضاع رأساً على عقب : إنه اكتشاف المضادات الحيوية ، وما عاد به من أثر على إطالة الحياة ، وشفاء أمراض وأوبئة كثيرة كانت تحصد حشوداً من البشر ، فى العصور الغابرة التى كانت تعتبر هذه الأحداث علامات طريق يؤرخ بها التاريخ . وكانت هذه الأحداث البشعة برغم قسوتها مخرجاً هاماً للتغلب على مشكلة التفاوت بين عدد السكان والموارد الطبيعية .

ويترحم بعض علماء الديموجرافيا على هذه الأيام ، ويتمنون وقوع حرب دامية تعيد التوازن ، وبخاصة فى البلدان المتخلفة التى لا تعى مسئولية تنظيم الأسرة . ويقال : إن عدد سكانها ازداد فى ربع قرن فقط (١٩٥٠ - ١٩٧٠) بمقدار ٦٠٪ ، وينتظر أن يتضاعف عدد هؤلاء السكان على نهاية القرن . هذا الانفجار السكانى الرهيب هو المسئول الأول عن الاضطرابات السياسية والانقلابات والثورات والشعور بالنقمة والعجز عن التقدم ؛ لأن الزيادة السكانية قد صعبت على الحكومات رفع مستوى المعيشة وتحقيق الأمانى المنشودة والتطلعات الوثابة .

وبعد أن كان متوسط حياة الفرد فى القرن السابع عشر ٣٣ سنة أصبح سنة ١٩٥٠ - مقدار (٦٩ سنة) . وعزا علماء الاجتماع هذه الطفرة فى زيادة الأعمار إلى :

أولاً : الاستعمار ، واستيلاء المستعمرين على مصادر جديدة للموارد الطبيعية والغذاء والطاقة ، ومجالات حيوية للزيادة السكانية.

وثانياً : إلى زيادة التجارة والتبادل التجارى .

وثالثاً : إلى التغيرات التقنية فى الزراعة ونمو الصناعة الحديثة .

ورابعاً : إلى التحكم فى المرض وزيادة التقدم فى الطب الوقائى وانتشار المضادات الحيوية والمبيدات الحشرية . وبدأت هذه التغيرات فى البلاد المتقدمة ، ثم انتقلت إلى أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا التى أقبلت بنهم على المضادات الحيوية والمبيدات الحشرية ، وانخفض عدد الوفيات ، واختل التوازن السكانى ، ولم يعالج ، ومن هنا جاءت الطفرة الكبرى فى عدد السكان كما يتبين من الجدول الآتى :

السنة الميلادية	عدد سكان العالم بالبلايين	عدد السنوات اللازمة لتضاعف السكان
١	,٢٥ (؟)	١٦٥٠
١٦٥٠	,٥٠	٢٠٠
١٨٥٠	١,١	٨٠
١٩٣٠	٢,٠	٤٥
١٩٧٥	٤,٠	٣٥
٢٠١٠	٨,٠	الله أعلم

من هذه البيانات يتضح أن عدد سكان العالم قد وصل إلى أول نصف بليون فى مئات من القرون ، ولكن فى مدى قرنين فقط من الزمان زاد العدد نصف بليون آخر. وحاليًا تكفى ست سنوات لإضافة نصف بليون . ولو سار الحال على هذا المنوال فإن أربعة البلايين الموجودة حاليا ستصبح اثنين وثلاثين بليوناً بعد قرن . ولا أحد يدرى كيف ستعيش هذه البلايين ، وبخاصة إذا لم يتعلم الناس التحكم فى عدد المواليد بحيث لا يتجاوز عدد الوفيات ؟ ويدرك المتشائمون صعوبة هذا الأمر ، لأنهم يعرفون أن المعرفة والمهارة التقنية ورؤوس الأموال مركزة فى المناطق المتقدمة ذات المستوى المعيشى العالى . وهذه البلاد هى التى تشعر بالمسئولية وتدرك خطورة المشكلة السكانية ، أما البلدان التى يزداد فيها عدد السكان زيادة رهيبة ، ففيها لا تزيد المنتجات الزراعية والصناعية إلا زيادة طفيفة نسبيًا بالمقارنة بما يدرج فى مشروعاتها ومخططاتها الطموح . ومن هنا فإنها تعيش على العون الخارجى ، أو تنفق

كل إيرادها على الغذاء ، ولا يبقى شيء للتعليم والاستثمار !

وفى الماضى - كان الاستعمار والهجرة يحلان هذه المشكلة المتفاقمة ، أما الآن فقد ازدادت مطالب البشر المعيشية والترفيهية ، ولسوء الحظ لم يبق إلا القليل من الأراضى البكر التى تحتمل الهجرة ، وتضع الدول الكبرى تشريعات صارمة للتحكم فى كل نزوح خارجى يؤثر على اقتصادها ، وتحافظ على مجالاتها الحيوية التى لم تستغل فى موطنها ومستعمراتها . وقد تنشأ الحروب مستقبلاً نتيجة للصراع على هذه الثروة النفيسة .

بقى اتجاه هام لحل هذه المشكلة : إنه الاتجاه إلى الفرد فإذا اهتممنا بتعليمه فإننا قد نساعد - ولو جزئيا - على تخفيف حدة المشكلة ؛ فالتعليم يخلق شخصية واعية تدرك فداحة مسئوليتها . ومن ناحية أخرى - يخلق التعليم فرداً قادراً على الإنتاج كما حدث فى البلدان المتقدمة ، يحرص على تفوق إنتاجه على استهلاكه .

فالأمل الوحيد الباقى هو تغيير البناء الاجتماعى والاقتصادى . والبلدان التى تعانى هذه المشكلة السكانية الرهيبة مرغمة مع اتباع وسائلها البدائية أو التقليدية فى الصناعة والزراعة والتجارة والنقل على تغيير أساليبها الصناعية والزراعية بأسرع وقت . ويجب أن يتنوع النشاط الاقتصادى ، ويزداد تخصصاً ، وتختفى الأمية ، وكذلك البطالة المقنعة التى تتكدس فى المكاتب الحكومية والطرقات ووسائل المواصلات . وبطبيعة الحال لن تناسب الأساليب التقليدية فى التعليم الأعداد الضخمة من البشر والزيادة السكانية ، وهكذا ينبغى استحداث نظام تعليمى مناسب لهذه الحالة .

لن نسترسل فى هذا الكلام المعروف ، ولكننا أردنا فقط أن نمهد به للنقطة التالية ، وهى العلاقة بين التعليم والاقتصاد : فى الماضى لم تكن هناك مشكلات

اقتصادية لأن الموارد كانت تفوق عدد الأفراد بشكل ملحوظ ، أما الآن فقد أصبحت المشكلة الاقتصادية ملحة بعد أن ظهر التفاوت الكبير بين الموارد المحدودة والتطلعات غير المحدودة ، وأصبح لزاماً على العبقرية الاقتصادية أن تتدخل لحل هذه المشكلة ، وعلى هذا أصبح لرجال الاقتصاد دور فى تحديد نوع التعليم الضرورى للمجتمع ، ولم تعد هذه المسألة تربوية صرفة ، كما كان يظن قبل هذه الطفرة الكبرى .

التعليم والاقتصاد : هذه ظاهرة حديثة للغاية ، وتدل على الصدارة التى اتخذها التعليم فى عصرنا الحديث . فلم يخطر على بال العصور السابقة التى تركت التعليم حرًّا ، واكتفت بدفع إعانات يسيرة تعبيراً عن شعورها الخيِّر واهتمامها بالثقافة ، أن التعليم سيصبح ذا أولوية مطلقة فى تطوير الاقتصاد ؛ ولم تعد عوامل الإنتاج مقصورة على « الأرض » و « العمالة » و « رأس المال » فقد أصبح للتعليم الصدارة على هذه العوامل ، كعنصر منفصل من جهة ، وكأساس ضرورى للعمالة والخبرة الإدارية من جهة أخرى .

وكثيراً ما لا يعترف علماء الاقتصاد بهذا الدور الجديد للتعليم ، ويرون الأهداف الاقتصادية غايات ذات قيمة مادية فحسب ، على حين يسعى التعليم لتحقيق غايات ثقافية ومعنوية لا تمت بصلة مباشرة إلى غايات المنفعة المادية التى ينشدها الاقتصاديون . ولكن المذاهب الاقتصادية الكلاسيكية قد جعلت قيمها مرتبطة بكل ما يحقق سعادة البشر ، والثقافة وسيلة لتحقيق هذه الغاية بلا جدال .

ومع هذا فمن وجهة النظر الاقتصادية ليس تحديد اعتمادات التعليم بالأمر الهين ؛ لأن التعليم له قيمة فى ذاته ، وله قيمة أخرى كوسيلة لغاية أبعد هى الغاية الاقتصادية وتحقيق المنفعة المادية . واختيار نوع التعليم الذى يحقق غاية التعليم فى

داته ، وغايته كوسيلة لغاية أبعد موضع خلاف . فلقد اعتاد الاقتصاد أن يربط التكلفة بالمنفعة ؛ ولذا يهتم كثيراً بأن يعرف : هل يؤدى التوسع فى التعليم إلى زيادة فرص العمل ؟ ويهتم بأسبقية مختلف أنواع التعليم . وهل الأصلح والأنفع اقتصادياً أن تكون الأولوية للتعليم الابتدائى أو الثانوى أو الجامعى ؟ فقد نصح خبراء الاقتصاد المسئولين فى البلدان النامية بالتركيز على المدارس الثانوية ، ولا داعى للإكثار من خريجى الجامعات لأن عدد الأعمال التى تتطلب علماً جامعياً قليلة جداً ، ومعظمها يمكن أن يؤديه خريجو المدارس الثانوية بالكفاية نفسها ، وبتكلفة أقل . وهؤلاء الخريجون هم الذين سيضطلعون بمهمة التعليم فى المدارس الابتدائية ، وعلى هذا رأوا أن زيادة التعليم الجامعى لن تعود بالنفع على هذه البلاد ، والأفضل لها هو التركيز على المرحلة الثانوية .

ومن الناحية الاقتصادية — يقارَن أيضا بين التدريب المهى والتعليم الأكاديمى ، ويتساءل الاقتصاديون هل الأجدى أن تنشأ مدارس فنية ، أو يتَّجه إلى التعليم الأكاديمى باعتباره أقل تكلفة ، وأن المدرسة الثانوية العادية لا تحتاج إلى ورش ومعامل كثيرة باهظة التكاليف ؟

وقد تُعرض مشكلة الهيكل التعليمى على رجال الاقتصاد على نحو مختلف : أيهما أنفع : أن ينفق المال العام لتعليم عدد كبير من أنصاف المتعلمين ، أم يقتصر على عدد قليل يتعلمون تعليماً عالياً مع إرجاء تعليم الكتل البشرية إلى المستقبل ؟ ويقول أنصار الرأى الأخير : إننا نعانى من مصائب تعليم أنصاف المتعلمين ؛ فهم الذين يبنون العمارات الآيلة للسقوط ، ويفسدون التعليم الجامعى ! وربما يناقش رجال الاقتصاد مشكلات كان يُعتقد أنها تربوية خالصة كتعليم الكبار وتعليم المرأة ؛ فهم يرون أن هناك مشكلات اقتصادية ملحة تتطلب رفع المستوى العلمى

والتقنى فى أقصر وقت ، دون انتظار لانتهاء الأجيال الحاضرة من تعلمها ، وهذا يتطلب التعجيل بتعليم الكبار حتى يعاونوا فى زيادة كفاية الإنتاج . والبلدان الفقيرة غنية فى ناحية واحدة هى كثرة أيديها العاملة ، ولن يستطاع الاستفادة بعملها إلا إذا قدمت عملاً يتكافأ هو والمعدات المتقدمة التى تشتريها من قوتها .

وعندما يتحدث رجال الاقتصاد عن تعليم المرأة فإنهم لا يسعون لتحقيق غايات المرحوم قاسم أمين ، ولكنهم يهدفون إلى التنبيه إلى دورها فى التطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، وأهم من كل ذلك دورها فى نشر التعليم ومحو الأمية.

ويربط رجال الاقتصاد الرخاء بانتشار التعليم : فهناك صلة كبيرة بين درجة الكسب ونوعية التعليم . ويستطاع اعتبار تكاليف التعليم كرأسمال ينفق أو يستثمر فى التنمية البشرية . ولا اختلاف فى منطق الاقتصاد بين هذا الاستثمار والاستثمار بإنتاج أى سلعة مادية . ويقارن أحياناً بين أصحاب المستوى الرفيع من التعليم ومن حصلوا على نزر يسير من ناحية معدل الفائدة لمبلغ يستثمر . والنتيجة فى هذه الحالة قد تكون مضللة . فهناك أفراد على قدر كبير من العلم والذكاء ويقومون بدور كبير لمصلحة المجتمع ورخائه ، ومع هذا فإنهم يتقاضون مقابلا تافهاً كأغلب العاملين فى قطاع الخدمات ، ومن ثم يكون الربط بين دخل الفرد ، وإسهامه فى خدمة المجتمع خاطئاً من الناحية الاقتصادية . والأفضل هو أن ينظر إلى الدخول فى مجموعها باعتبارها حصيلة جملة عوامل متداخلة لا تتكشف بطريقة مباشرة . فقد يكون تعليم الابن ثمرة لمكاسب الأب ، وقد نلمس الدور الاستثمارى عندما يتوقف الإنتاج نتيجة للنقص فى الخبرة المكتسبة من التعليم .

ولنتحدث بعد ذلك عن التخطيط الاقتصادى للتعليم وصعوباته . ويقال : إن التخطيط يمر بجملة مراحل : فأولا يقدر الاتجاه المحتمل للنمو الاقتصادى لفترة

طويلة ، كعشرين سنة مثلاً . والسر فى تحديد هذه الفترة الزمنية الطويلة هو أن التعليم عملية طويلة الأجل ، والمستقبل مفتوح أمام الخريجين ، قد يمتد إلى أربعين سنة ، ومن هنا يكون التخطيط القصير الأجل عديم الجدوى . وقد يقال : إن التكهنات لفترة زمنية طويلة لا تصيب دائماً فى عالم مهدد بالحرب ، وتتغير تقنيته باستمرار فى عصر تفجر المعرفة . وكل هذه الجوانب تغير مسار الاقتصاد . والحل الأفضل إنما هو ذكر جملة احتمالات اقتصادية بدلا من الاقتصار على احتمال اقتصادى واحد . والمستقبل مجهول ، ولكنه ليس مجهولاً بصفة مطلقة ؛ لأننا نستطيع حصر المستقبل فى حملة احتمالات ؛ كما نستطيع بدلاً من التخطيط المطلق أن نقسم مخططنا إلى قطاعات اقتصادية مختلفة ، فى مجالات الزراعة والصناعة والخدمات . . إلخ . وكل قطاع من هذه القطاعات يحتاج إلى خليط مختلف من المهارات . . وفى المرحلة التالية تحدد العلاقة بين المستوى المطلوب من المهارات فى كل قطاع والمضمون التعليمى لهذه المهارات . ويكون الهدف التعليمى هو الهدف الاقتصادى نفسه ، مع التزام الحذر وتوقع مفاجآت كثيرة قد تصعب كل دقة فى التخطيط : ففى قطاع مثل هندسية السيارات – تتقدم التقنية يوماً بعد آخر ؛ ولذا يصعب التنبؤ بعدد المتخصصين المطلوبين لهندسة السيارات فى مدى عشرين سنة . كما أن الركيزة التعليمية وأسلوب تدريب المهندسين والفنيين يختلف من بلد لآخر ، ومن هنا قد يصعب تحديد تفاصيل المنهج المطلوب . **ويوصى بالاعتماد على البدائل** . وقد كان لرجال الاقتصاد الفضل فى تطوير التعليم الفنى فى ألمانيا ، حتى أصبح الطالب يتخصص فى جملة تخصصات لمواجهة تقلبات السوق ، ولوحظ أن أغلبية الفنيين يغيرون تخصصهم أربع مرات على الأقل فى مدى ثلاثين عاماً .

والصعوبات الاقتصادية لا حصر لها بعد ذلك ، وبخاصة عند تحديد من يموتون

أو يتقاعدون خلال فترة التخطيط ، وتحديد الأماكن التي تخلو ليشغلها الخريجون الذين قد يضطرون إلى تغيير تخصصهم إذا اتضح وجود فائض كبير فيه ، أو يتعرضون إلى البطالة . وعند التخطيط ينبغي أن يراعى اشتراك جملة عوامل ثقافية وسياسية واجتماعية إلى جانب العامل الاقتصادى : فقد يملى الاقتصادى نوعاً معيناً من التعليم على من يشغلون وظائف تقنية أو إدارية على حين يدعو المفكرون الاجتماعيون إلى زيادة الاهتمام بالتعليم فى الريف والمناطق النائية حتى يحدث توازن حضارى بين المدن وسائر البقاع . وقد يفضل علماء الاقتصاد تعليم البالغين ، فى حين ينادى علماء الاجتماع بأن تكون الأفضلية لتعليم الأطفال ، ثم يتدخل السياسيون ويؤثرون تعليم الكبار على باقى الفئات . وينبغى أن يتسع صدر علماء اقتصاديات التعليم لكل هذه الاحتمالات وآثارها الجانبية ؛ فقد لا ينجح محو الأمية فى تحقيق غايته عندما يكون الدافع سياسياً ، ولكنه قد يساعد على نشر الوعى الزراعى ، وييسر استخدام الأدوات الزراعية المستحدثة .

وعند التخطيط الاقتصادى لابد من مراعاة الترابط بين مختلف مراحل التعليم : فوراء كل خريج جامعة فى أغلب البلاد عدا مصر — عشرة فى المدرسة الثانوية ومائة فى المدرسة الابتدائية . وكل مائة تلميذ من الناحية النموذجية فى حاجة إلى ثلاثة مدرسين . هذا يعنى أن ثلاثة من كل عشرة فى المدرسة الثانوية ينبغى أن يشتغلوا بالتدريس . فإذا أردنا مؤهلات عالية فى مجالات أخرى غير المجال التربوى كان من الواجب مضاعفة العدد حتى يتخصص النصف فى التدريس والنصف الآخر فى المجالات المطلوبة .

وكشف التخطيط الاقتصادى التربوى عن بعض نواحى الخلل فى توزيع الخدمة التعليمية : فالمدن أسعد حظاً من الريف . وفى البلدان المتقدمة والمتقدمة

نوعاً يرث الأبناء الوظائف القيادية من آبائهم ، ولذا كثيراً ما يحاول المتطرفون هدم النظام التعليمى القائم تمشياً مع مبدأ (علىّ وعلى أعدائى يا رب !) كل هذه العوامل قد تصعب تنفيذ الخطط التعليمية الطويلة الأجل التى ترمى إلى تحقيق العدالة ، وزيادة الاستثمار .

وعلى أية حال هناك درس ينبغى أن نعيه من صعوبات التخطيط الاقتصادى للتعليم . وهو توفير أكبر قدر ممكن من المهارات لتأمين الفرد ، مع توفير احتياطى كبير من المهارات لمواجهة تقلبات العمالة . ولابد من اتباع هذه السياسة المرنة فى جميع مراحل التعليم ابتداء من أول مرحلة ، بدلاً من إجراء هذا التحويل بعد التخرج من الجامعة ، والتجمد ومقاومة كل إعادة تشكيل للشخصية الفردية ؛ فمن الصعب أن نحول خريج الجامعة الذى أعددناه لمجال نظرى صرف إلى الاشتغال بمهنة بعيدة عن تخصصه . وكان الأفضل أن نعلمه من البداية بعض الحرف من قبيل الاحتياط حتى تكون سلاحاً بيده يستعمله إذا خذلته سوق العمالة ، أو إذا ظهر فائض كبير فى مستقبله المفضل .

ولعلنا بعد هذا العرض لصعوبات اقتصاديات التخطيط التربوى فى حاجة إلى ذكر أمثلة مشخصة صادفناها فى جملة دول وفى مقدمتها أمريكا وروسيا ؛ فهما برغم اختلافهما العقائدى تؤمنان إيمانا راسخاً بالتخطيط التعليمى . وكلتاهما ساهمت مساهمة فعالة فى تفجير المعرفة ، والدولتان برغم كثافة سكانهما تعتبران زيادة الأفراد زيادة فى الثروة البشرية ، وتمثلان ذروة القوة العسكرية والسياسية ، فلا عجب إذا اضطرت إلى الاقتداء بنظامهما التعليمى حتى البلدان العريقة مثل فرنسا وألمانيا اللتين اشتهرتا باعتدادهما بذاتهما وبثقافتهما . فقد اكتشفتا مميزات فى النظام التعليمى لأمريكا وروسيا يتناسب هو والطفرة التعليمية الكبرى التى يمر بها العالم الآن . ولم

يكن هذا الاقتداء مجرد تقليد للدولتين صاحبتى النفوذ ، كما حدث فى أمثلة سابقة للتاريخ ، ولكنه اقتداء بحكم الضرورة لحل مشكلات صعبة ترتبت على الحرب العالمية الأخيرة .

أمريكا وروسيا – قد يعزى التقدم الحديث لأمريكا إلى ثرواتها الطبيعية ، وجهود النازحين من أوربا – كما ذكر برتراند رسل – ولكن المفكرين الأمريكان نسبوا هذه الظاهرة لحضارتهم التى جعلت الصدارة للتعليم . وردد الرواد الأوائل مثل توماس جيفرسون وبنچامين فرانكلين الدعوة إلى تطبيق كل الأفكار التى عجزت أوربا عن تحقيقها بسبب بنائها الاجتماعى الطبقى والأنظمة السياسية الأرستقراطية العتيدة . وأول اتجاه تبناه المصلحون فى أمريكا هو مسئولية المجتمع عن التعليم ، ومن هناك قامت مجالس المدن ومجالس الولايات بإنشاء المدارس ورعايتها . ووضعت عدة قوانين للنهوض بالتعليم سبقت جميع الإصلاحات التعليمية فى أوربا ، وصرف عليها بسخاء يناسب رخاء البلاد . والميزة (الثانية) هى تمتع الجميع بحق التعليم بقدر كاف باستثناء الجنوب . فلم تنتشر هناك « مدارس العموم » وهى الترجمة التى نفضلها لـ Common Schools وتحررت المدارس منذ البداية من وصاية الهيئات الدينية ، ولم يقبل الأمريكيون على مدارس البعثات التبشيرية إقبالاً مماثلاً لإقبال الأوربيين عليها .

ومن الظواهر المميزة الأخرى – الصلة الوثيقة بين المدرسة الأمريكية والبيئة والإنتاج الاقتصادى . فالمدرسة الابتدائية والثانوية مسئولتان عن تنمية المهارات فى شتى مجالات الحياة ، وبخاصة الزراعة ، ومن هنا جاءت الشهرة العظيمة لمدارس Land Grant ، وساعدت كل هذه المؤثرات على تميز النظام الأمريكى للتعليم . ومع هذا فلم يعترف كثيرون من علماء التربية بذلك . وعندما شاهدوا ضخامة أبنية

المدارس والمعدات التقنية المستخدمة فى التعليم وكثرة السجلات والبيانات التى تهتم بها إدارة المدرسة الأمريكية - قالوا : إن هذا النظام يُعْنى بالكم على حساب الكيف ، بعكس أوربا . ومهما كانت صحة هذه الادعاءات فلا ينكر أن أمريكا أول بلد منح أغلبية أبنائه قسطاً لا بأس به من التعليم ، بل استطاع خلق جامعات لا تقل عن مستوى نظائرها فى أوربا من الجامعات التى ترجع إلى القرون الوسطى .

وثمة تخصصات مستحدثة فى العلوم الطبيعية والاقتصادية بلا نظير فى شتى الأنحاء ، ويفوق عدد الدارسين فى المرحلة الثانوية أمثاله فى باقى الدول المتقدمة ، بالإضافة إلى توجيه عناية أكبر بالتربية الخاصة للمعوقين والمنحدرين من بيوت متواضعة .

ويربط علماء التربية المنهج الدراسى بالبيئة ، ويعترفون بضرورة بعض الموضوعات الأساسية كاللغة القومية ولغة حديثة أخرى والتاريخ والرياضيات والعلوم الطبيعية ثم يختار التلميذ بالاشتراك مع أستاذه الشعبة المناسبة له والمتوافقة مع استعداده .

ونجحت أمريكا فى الحد من رهبة الامتحان : فليس هناك أى شروط محددة تتحكم فى الالتحاق بالجامعة كالمستوى «أ» فى إنجلترا وويلز أو البكالوريا الفرنسية ؛ إذ يكتفى بمجموعة من الاختبارات الموضوعية التى هى أقرب إلى القذائف Battery of Tests مع الرجوع لصحيفة الطالب ، ويترك القرار الأخير لأستاذه المباشر بحكم معرفته الوثيقة به . والمدرسون متنورون ومستواهم أعلى بكثير عن أقرانهم فى البلاد المتقدمة ، ولا يتميزون بالتخصص فى موضوع بالذات بقدر تميزهم التربوى فى عملية التربية ذاتها . فما يعنيهم هو تكييف الطالب مع الجو الثقافى الذى يحيا فيه أكثر من اهتمامهم بالموضوعات التى يقومون

بتدريسها. ودافع الدكتور جون فايزى[1] عن هذا الاتجاه ، ورأى أنه حكيم وإنسانى : فأهم من أن يتصف المدرس بعلمه وتبحره فى موضوع علمى إنما هو أن يحسن توصيل المعلومات إلى غالبية التلاميذ الذين فى رعايته . والرعاية الاجتماعية والسيكلوجية ضرورة أساس للمدرس الناجح الذى لا يعترف بأن التعليم مجرد وسيلة لفرض عقائد ، أو أيديولوجيات يلقنها التلاميذ .

ويدين نظام التدريس فى أمريكا بالفضل للفيلسوف جون ديوى. فبفضله نهضت كلية المعلمين التابعة لجامعة كولومبيا ، وقامت بتزويد المدارس الثانوية الكثيرة التى ازداد عددها فى العشرينيات زيادة هائلة ، وتشبع الخريجون بأفكار أستاذهم الذى دعاهم إلى ضرورة معرفة الطفل معرفة جيدة ، والإحاطة بالطريقة التى يحتمل أن يتبعها فى نموه البدنى والعقلى ، ومواقف الحياة التى يتوقع أن يحيا فيها ، وطالبهم أيضا بفهم عملية التعليم وطريقة عرض الموضوعات الدراسية . وشعر الأمريكيون بخطورة المساواة وأثرها الضار على الطلبة المتفوقين ، فوضعوا فصولاً خاصة بهم .

ومن الأفكار الهامة التى عرضها ديوى وعلماء التربية الأمريكان أن يكون للتعليم مضمون مهنى . فقد آمن هؤلاء العلماء بدور التعليم فى تطوير المجتمع ، ومن ثم ضمنوا مناهجهم تطبيقات عملية مختلفة تشعرهم بالارتباط الوثيق بين النظرية والتطبيق ، وبين العلم والعمل . ولا يهتم المربون بالتحصيل النظرى وحده ، ولكنهم يهتمون أيضاً بتعليم طلابهم ممارسة بعض الحرف ، ويشجعونهم على الكسب . وما فعله المربون قد تعلموه من الآباء الأمريكيين والأمهات والأمريكيات . وقد حلت المدرسة محل الأبوين فى أمريكا . ولم يعد ضروريًّا أن يتعلم الابن حرفة والده ،

(1) Education in the Modern World

وبوسعه أن يختار حرفة تناسبه ويناسبها من جملة حرف مختلفة .

ولا يعتقد المربون أن اتجاه تلاميذهم للكسب سيصرفهم عن تعلم العلوم التى لا تحقق لهم نفعاً مادياً . فهناك حوافز كثيرة تعوض هذه الناحية ، فلا تعارض بين التثقف وبين التدريب العملى : فكلاهما ضرورة من ضرورات الحياة ، وكلاهما يحقق متعة مكملة للأخرى . فإذا تدرب الطالب على حرفة معينة اكتسب مالاً ، وعندما ينفق هذا المال سيحتاج إلى توجيه حتى لا يختار المتع المبتذلة أو الضارة . وهنا يتعرف على الأدب والفن والبحث العلمى والألعاب الرياضية . ففى كل هذه المجالات متسع لإشباع هواياته . فهو عندما يحترف مهنة السباك مثلا يقوم بأداء بعض المهام الآلية المتكررة التى قد تدفعه للملل ، ولكنه فى البحث العلمى يصادف مجالات عميقة للبحث تنقله من فكرة لأخرى ، ومن غاية إلى غاية أسمى ، وبذلك يعشق العلم ، ويكرس له حياته . والأمر بالمثل فى حالة الأدب ؛ لأنه إذا أولع بأديب معين فسيقرأ كل مبدعاته ، ثم ينتقل إلى أديب آخر . وقد يكتشف فى نفسه موهبة تسوقه إلى الإبداع الأدبى أو الفنى ، وبذلك لا يكون هناك أى تعارض بين الجوانب النظرية والتقنية والعلمية . فأهم دور يضطلع به المدرس إنما هو اكتشاف تلاميذه أو جوانب شغفهم ، وإرشادهم لخلق شخصية متكاملة قادرة على الحياة فى مظاهرها العملية والروحية .

وننتقل إلى روسيا التى تشترك هى وأمريكا فى تزعم العالم سياسياً ، وتشتركان أيضاً فى الاعتماد على التعليم كوسيلة واعية لتغيير المجتمع ، وتتميز بناحية هامة هى اعتقادها أن الفروق بين الأفراد ترجع إلى عوامل بيئية فحسب ، ولا وجود لما يعرف بأسطورة الذكاء الفطرى الذى يستطاع اكتشافه بمعزل عن المؤثرات الأخرى . وفى حالة أمريكا كانت الغاية هى خلق وحدة بين المتنافرين الذين وفدوا

من أقطار مختلفة لا تتحدث بلغة واحدة ، أما فى حالة روسيا فالغاية معروفة وهى خلق هذه الوحدة اعتماداً على العقيدة الماركسية اللينينية .

واستخدمت الدولتان التعليم كوسيلة للتنمية الاقتصادية ، واعتمدتا على التعليم فى حل مشكلات الأعداد الضخمة وتفجر المعرفة ، والتغلب على المعسكرات المناوئة . ويرجع التقارب بين نظامى التعليم إلى واقعة أخرى فقد تأثرت «كروپسكايا» زوجة لينين والمسئولة عن التعليم فى بداية الثورة بمعتقدات جون ديوى التى أشرنا إليها فى أكثر من مناسبة .

ونظام التعليم السابق للثورة منقول عن النظام الألمانى بنزعته الطبقية وخضوعه الكامل للدولة . ولما جاءت الدولة السوفييتية أحدثت تغييرات جذرية تساير مذهبها المعروف .

وكانت أول مشكلاتها مكافحة الأمية . وتتفاوت الآراء فى الحكم على مدى نجاح الروس فى القضاء على هذا المرض الوبيل فى وقت قياسى . وحتى عام ١٩٢٦ كان عدد الأميين فى روسيا ٤٢ ٪ وفى سيبيريا والجزء الآسيوى من روسيا ٧٥ ٪ أو يزيد . وبرغم كل ما يقال عن ستالين فإنه كان يعرف ما تحتاج إليه بلاده من متخصصين . أى من علماء ومهندسين وزراعيين وتكنولوجيين بالإضافة إلى الأعداد الوافرة من العمال المهرة . ولربما استطاع العامل الأمى الاشتغال بالزراعة ، ولكن الصناعة فى حاجة إلى مستويات علمية عالية . وربما كان هذا هو الذى حث المسئولين على الإسراع بالنهوض بالتعليم ، لولا الحرب العالمية الثانية وما صحبها من أهوال وويلات وخسائر فى الأرواح ودمار للمدارس . وفى الخمسينيات ذكر الروس أن الأمية قد محيت تماماً ، ولا نملك بينات حاسمة للحكم على هذا الحادث الفذ .

وركز الروس على مدرسة العمل المتحد « لتعليم الشباب والفتيات الكثير من فنون الصناعة إلى جانب التعليم العام . وفى هذه المدارس لا تعلم الموضوعات الصناعية كمواد دراسية منفصلة . فهى تتخلل جميع العلوم الأخرى كالفزياء والكيمياء ، بل العلوم الاجتماعية . فلابد أن يشعر الطالب بالارتباط الوثيق بين العلوم النظرية والمواد الحرفية والتقنية .

وصادفت روسيا عدة عقبات عندما أقدمت على تنفيذ التجربة فى العشرينيات بسبب نقص المعدات العملية ، واضطرت إلى التراجع . ولما جاء خروتشوف أعاد الاهتمام بهذه الناحية ، وهاله التزايد الشنيع فى خريجى المدارس الثانوية العامة الذين لا تستطيع الجامعات استيعابهم ، وهم فى الوقت نفسه لا يصلحون لمواجهة أعباء الحياة ، وأكثرهم يرددون كالببغاوات عبارات الازدراء للعمل اليدوى ويصفونه بأنه بغيض وقذر وماس بالكرامة ! وكثيراً ما يهدد الآباء أبناءهم بتعليمهم « صنعة » إذا لم يفلحوا فى التعليم الأكاديمى ! وهكذا نص القانون الذى صدر سنة ١٩٥٨ على تقوية ارتباط المدرسة بالحياة ، وتخصيص فترات طويلة لتعليم فنون الصناعة والزراعة فى مدارس التعليم العام . وطلب من تلاميذ المدارس الثانوية قضاء ثلث الوقت فى المصانع والمزارع لتأهيلهم للاشتغال بالحرف عند الضرورة . وزيدت مدة الدراسة فى المدارس الابتدائية والثانوية من ١٠ سنوات إلى إحدى عشرة سنة لمواجهة هذه الحالة . واتخذ التعليم شعار وجوب الارتباط بين العلم والعمل . وبرغم كل العقبات التى واجهت التنفيذ ، لم يتراجع المسئولون ، فزادوا من تدريب المدرسين وخففوا البرامج ، واستبعدوا منها بعض الموضوعات

---

(١) Education and Nation Building in the Third World
ترجمة الأستاذ عثمان نوية تحت عنوان التربية وبناء الأمة فى العالم الثالث .

التى لا تؤثر على غاية التعليم ، وغيروا مواقع المدارس بحيث تكون قريبة من مواقع التدريب العملى بالورش والمزارع . ولم تعد الناحية العملية على هامش الناحية النظرية . بل أصبحتا متكاملتين . ويبرز المنهج المدرسى صلة كل العلوم النظرية (الفزياء والكيمياء والأحياء وعلم الاجتماع . . إلخ) بالإنتاج . ويدرس التلاميذ الرياضيات فى جميع سنوات الدراسة العشر أو الإحدى عشرة (ما زال هناك شد وجذب فى هذه الحالة) ، وتتركز الدراسة فى المرحلة الثانوية على الفزياء والكيمياء وعلم الأحياء والفلك بالإضافة إلى المواد العملية والفنية .

وبوجه عام : تشغل الرياضيات والعلوم أكثر من ٢٠ ٪ من الزمن المخصص للدراسة ، ولا يحدث أى تشعيب خلال هذه السنوات ؛ لأنهم يعتقدون أن المنهج وحدة ثقافية متكاملة من العلوم والإنسانيات والتقنيات بغض النظر عن اختلاف المواهب والأذواق .

وبعد انتهاء السنوات العشر أو الإحدى عشرة يسمح بالتخصص لمدة أربع أو خمس سنوات فى موضوع واحد كاللغة أو الرياضيات أو التعدين . . إلخ . ويلاحظ أن أغلب المتخصصين يتجهون إلى العلوم والتكنولوجيا : ففى سنة ١٩٦٨ وسنة ١٩٦٩ تخصص فى الدراسات ذات الطابع التكنولوجى قرابة ٥٢,٥٪ . وهكذا حققوا حلم بطرس الأكبر بعد حوالى ثلاثة قرون برغم كل العقبات والنكسات ، وهناك تجارب كثيرة فى مجال التعليم السوفييتى جديرة بالاقتداء فى الدراسات الإضافية والمسائية وتعليم الكبار ، والدراية بالوسائل التى اتبعت لتحويل التعليم من حق أقلية محظوظة إلى حق عام تستحق أيضا كل اهتمام بعد استبعاد كل مؤثرات التهويل والدعاية الصاخبة التى أوحت بتحول جميع الروس إلى عشاق الباليه البولشوى وقراء لجوجول ودوستويفسكى واندرييف .

هاتان هما أكبر تجربتين علميتين فى الطفرة الكبرى التى أعقبت الحرب ، وقد تعلم العالم منهما درساً بليغاً فى أهمية الجمع بين العلم والعمل ، فلا الأعداد الكبيرة وحدها ولا الموارد الفنية وحدها هى التى تخلق الأمم العظيمة ؛ لأن هناك دولا كثيرة غنية ومتخلفة ودولاً كثيرة العدد والأعباء تعيش عبئاً على الدول الأخرى ، وترغم على فقدان استقلالها الداخلى والخارجى . ولعل كثيرين يعجبون للدولة كالسويد برغم صغر مساحتها وقلة سكانها ، فقد استطاعت أن تثبت وجودها وتختار الحياد السياسى بفضل ارتفاع المستوى العلمى والتقنى لأبنائها .

ولعلنا نعجب أيضاً لتفوق الاقتصاد الألمانى وقدرة الألمان على إعادة تعمير بلادهم بعد الخراب الذى لحق ببلادهم ، والخسائر الجمة فى الأرواح والموارد : فنى أعقاب الحرب ارتفعت الميزانية المخصصة للتعليم حتى وصلت سنة ١٩٧١ إلى ٦٠٤٠ مليون مارك ، أى حوالى مليارين من الجنيهات المصرية وأهم من المال وتدبيره شعور الأفراد بمسئوليتهم وتقديرهم لأهمية التعليم وتطوع أكثرهم بلا أجر لسدّ العجز فى المدرسين .

هذه أمثلة عابرة لأهمية التعليم نعرفها جميعاً ، ولن تتحقق إلا إذا ارتبط التعليم بالحياة وضرورات المجتمع ، ولم يعد مجرد حلية أو ترف تنعم به الصفوة فى عالم مهدد بالانفجار السكانى وبالنقص فى الموارد ، وسوء توزيع الخبرات العملية .

٤ – صداها فى مصر

قد يُظن من بعض الفقرات التى تضمنها كلامى عن نشأة تعليمنا الحديث أننا مازلنا مبهورين بالهيكل التعليمى الذى نقلناه عن فرنسا ثم إنجلترا ، وأدخلنا عليه حديثاً جملة تعديلات منقولة من شتى الأنحاء. فالواقع أن الطبيعة المصرية لاترضى طويلاً عن أى شىء برغم نزعتها المحافظة. وكثيراً ماتجهد نفسها بحثاً عن نقائص الأشياء ومفارقاتها ، وتكتفى بالاستمتاع بالنقد ، ولايهمها التنقيب عن حل أوطريقة للعلاج ! وياحبذا إذا عثرت على نكتة خلال هذه المفارقات . فهنا تصل المتعة إلى ذروتها . ومع هذا فما أكثر المحاولات الجادة التى صادفناها عند كتابنا فى الثلاثينيات والأربعينيات لنقد نظامنا التعليمى ، والتى توجها – كما هو معروف – كتاب طه حسين الشهير « مستقبل الثقافة فى مصر » وكان له أثر عظيم فى تطوير حق المواطن فى التعليم وأكتفى بهذه الإشارة وبالاستشهاد بنماذج أخرى من الكتابات

التى استهوتنى بوفرة مافيها من نقد بناء وإلهام بالتوقعات المنتظرة فى عالم التعليم . وكأنها قد كتبت اليوم ؛ لأنها تعالج مشكلات مازلنا نعانى منها :

فى كتاب ظهر سنة ١٩٤١ بعنوان « مبادئ فى السياسة المصرية » لمحمد على علوبة لاينكر المؤلف الجهود التى تبذل فى مناهج التعليم ، والاطلاع على برامجه فى شتى البلدان ، ولكنه ينتقد الارتجال وعدم التدقيق فى اختيار مايناسب العقلية المصرية والحاجات المصرية . وينتقد المؤلف التعليم النظرى ، ويطالب أن يكون للمعلم القدرة الكافية على أن يجعل الطالب يفهم العلم لاعن طريق الإدراك فحسب ، بل كأنه يراه بعينيه ويحسه بيديه وبسائر حواسه حتى يصبح جزءًا منه . « فأساس التعليم الحديث هو تطبيق العلم على العمل . **والتعليم المقترن بالتدريب والتطبيق العملى خير تعليم أتيح لخير الرجال** .

ووجهت أهم الانتقادات إلى تشعب التعليم فى المدارس العامة إلى قسم نظرى محض « أدبى » وقسم علمى ، وانفصال التعليم الفنى عن التعليم العام . وقال المؤلف إن التعليم النظرى البحت يحشو أذهان الطلاب بمادة لافائدة فيها ولاغناء . والتعليم المقصور على العمل المادى « يعنى التعليم الفنى » والتجربة المادية مع قليل من العلم يسىء إلى شخصية المتعلم . ويرى الكاتب « أن التوسط بين النظريات والعمليات ، وإيجاد التوازن بين هاتين الصفتين هو الذى يسدى للمتعلمين الثمرات الطيبة والخير الوافر . وفى موضع آخر يشير إلى أن وزارة « المعارف » تحس بكثرة ضغط المتعلمين على المدارس الثانوية ، وترى وجوب صرف الكثيرين منهم عن الوصول إلى الجامعة لعدم استعدادهم الفكرى والعلمى . والمخرج هو الإكثار من المدارس الفنية .

هذا الكلام قيل من قرابة أربعين عاماً ، عندما كانت كثافة الفصول نموذجية

لاتتجاوز الثلاثين تلميذا ، يقضون يوماً دراسيا كاملاً .

واتجه كاتب آخر إلى بحث حالة التعلم من الناحية الاجتماعية وكانت مصر تعانى البطالة . واستشهد ببحث للدكتور على عبد الواحد وافى عن خريجى المدارس الثانوية الذين لايصلحون للدراسة فى الجامعة ، ولايصلحون أيضا لشغل الوظائف العامة ، ويرى الباحث أن أهم أسباب زيادة جيش المتعطلين **إهمال ناحية المهارة اليدوية فى مدارس التعلم الثانوى** .وليس فى أنظمة هذه المدارس مايسمح بالإلمام بشيء من الصناعات الإنسانية أو المهارية فى أى عمل من الأعمال اليدوية ، بل إن هذه النظم من شأنها أن تقضى على ماعسى أن يكون لدى بعض التلاميذ من استعدادات فطرية فى هذه الناحية. وقد نجم عن ذلك أضرار كثيرة ، منها : إغفال غرض هام من أغراض التربية ، ومنها كراهية المتخرجين فى المدارس الثانوية للصناعات اليدوية . وترفعهم عنها لجهلهم بها ، إذ الناس أعداء ماجهلوا . ومنها - وهذا ما يهمنا كثيراً - أن المتخرج فى المدارس الثانوية إذا لم يُتح له الالتحاق بالمدارس العالية ، وأوصدت فى وجهه باب الوظائف لم يجد لديه أى ميل لمزاولة عمل من الأعمال اليدوية ، وإن أحس هذا الميل لايحسن القدرة ولامجرد الاستعداد للقيام به . فلايجد أمامه إلا التردى فى وهدة البطالة ، ولو كان قد أعد فى مدرسته الثانوية بعض الإعداد لهذه الناحية ، وزود بالميل إلى مزاولة أعمالها ما أحجم عن سلوك هذا السبيل ، ولوجد فى سلوكها مايكفيه شر البطالة والعوز ، ومايغنيه عن استدرار الرحمة من أكف الدواوين والمصالح ! .

وكأنما ظن المشرفون على شئون التعلم أن هذه المهارة غير ضرورية إلالطلبة المدارس الفنية والصناعية ، مع أنه من المجمع عليه أن كسب المهارة لايقل أهمية فى التربية عن كسب المعلومات ، وأن مواد كسب المهارة لايستقيم بدونها أى منهج

دراسى ، وبخاصة فى المرحلتين الابتدائية والثانوية « لم تكن هناك مرحلة إعدادية » . وكل ماهناك أن هذه المواد تدرس بتوسع وتفصيل فى المدارس الصناعية والفنية لتكوين محترفين وفنيين . أما فى غيرها فيجب أن تدرس لمجرد كسب المهارة وتمرين اليد على العمل المتقن ، وتكوين عادات حسمية صالحة ، وتربية الملاحظة الرفيعة . وتعلية ملكات التخيل والإبداع وإيجاد روابط وثيقة منظمة بين أعصاب الحس ومراكزه ، وأعصاب الحركة ومراكزها ، وإتاحة الفرصة أمام التلاميذ والمتخرجين بشغل أوقات فراغهم بأعمال منتجة ، وللانتفاع بمهاراتهم اليدوية فى كسب قوتهم إذا ماتقطعت بهم الأسباب ، وسدت فى وجوههم سبل العيش الأخرى .

وينبغى أن يعالج هذا النقص بإدخال طائفة من الصناعات اليدوية فى مناهج الدراسة الثانوية : كالطباعة والكتابة على الآلة الكاتبة وتجليد الكتب والتصوير الشمسى والعزف على الآلات الموسيقية والغزل والنسيج ومبادئ النجارة والعمارة والطلاء وصناعة الأوانى الخزفية وصنع اللعب والدمى وعمل السلال والكراسى وإصلاح الساعات والصناعات الزراعية بمختلف فروعها . . وهلم جرا . .

ولابد من إجراء امتحانات فى هذه المواد فلايصح ألايكون لنتائجها أثر فى انتقال التلاميذ ، وأن يصحب ذلك تخفيف عام فى مواد كسب المعلومات التى مازالت مكدسة بها المناهج .

ويبغى أن تختلف مواد كسب المهارة باختلاف البيئات المنشأة بها المدارس الثانوية ، فيقرر فى مدارس كل إقليم من هذه المواد مايمتد حصيلته إلى مظاهر النشاط والصناعات السائدة فيه : فمن الخطأ الزعم أن سكان القطر المصرى متحدون فى بيئاتهم ، ومظاهر نشاطهم الاقتصادى ، وحاجاتهم الأساسية وأن

اتحادهم فى هذه الشئون يقتضى اتحاد نظمهم التعليمية . .

هذا هو العلاج للبطالة الذى اقترحه الباحث بعد أن أزعجه أن يتعطل عن العمل ٦٥ ٪ من خريجى المدارس الفنية الذين لم يزد عددهم سنة ١٩٣٣ عن ٢٨٢ فى القاهرة والإسكندرية ، وعن ٤٠٨ فى المدارس التجارية ، وتجاوزت نسبة البطالة بينهم ٧٠٪ .

هناك ناحية واحدة ربما لم يتنبه لها المفكرون حين ذاك وهى حق الجميع فى التعليم حتى نهاية المرحلة الثانوية ، فهذه من الأفكار التى ظهرت بعد الثورة ، أوربما قبلها بقليل فى صورة مترددة . إذ كانت الفكرة السائدة هى أن التعليم على هذا النحو حق حفنة قليلة من القادرين على دفع المصروفات . أما باقى الشعب فيكفيه « فك الخط » لكى يوقع على الكمبيالات ويتصفح صفحة الوفيات ، ويقرأ مانشيتات القوانين التى تصدرها الحكومة ، من باب الرفق ، ولو أن الجهل بالقانون لايعد عذرا . . ولاعجب إذا رأينا تعبيرا عن هذا الاتجاه وكما سبق أن ذكرنا ، كانت هذه اتجاهات الدول المتقدمة نفسها فى بلادها : أى لم يكن هناك مخطط استعمارى ، كما تصور لنا الظنون أحيانا [1] وردد بعض المفكرين المصريين الذين خشوا أنتشار التعليم بين جميع طبقات الأمة الكثير من المخاوف ، وتوقعوا مصاعب اقتصادية ، واضطرابات اجتماعية ، وظنوا أن جهل الطبقات الفقيرة شرط من شروط الاستقرار الاجتماعى ، ولذا وافقوا على نشر التعليم الإلزامى والأولى « الابتدائى فى تصورنا الحديث » ولم يرضوا عن انتشار المراحل العليا ؛ لأنه

(١) فمثلاً : جلسة مجلس الوزراء فى ٢٤ من يونية سنة ١٩٠٢ : قيل فى تبرير زيادة المصروفات المدرسية فى جميع المدارس الابتدائية «حتى لا يقبل فيها إلا الطلبة الذين تسمح حالتهم بالاستمرار على تلقى التعليم الثانوى والعالى» .

سيؤدى إلى شيوع البطالة . ودعا هذا النفر إلى التريث فى نشر تعليم هذه المراحل ، لأن المهن والوظائف كلها حكومية . والحكومة مزدحمة إلى درجة لاتسمح بقبول أعداد جديدة . وتشاءم كاتب مهم وقال : إنه لايتوقع أن يساعد التقدم الاقتصادى وتقدم الصناعة ، على الأخص ، بتشغيل هؤلاء العاطلين ، لأن المدارس الصناعية نفسها تعد مئات من الشبان الذين لاتستفيد منهم الأمة ، وعلى هذا يجب أن يكون التعليم متناسباً مع الوظائف الخالية فى الحكومة والحياة الحرة .

لقد تجاوزنا هذا النوع من التفكير - بطبيعة الحال - ولعلنا ننعته الآن بالرجعية ، ولكنه لايخلو من بعض الصدق وخصوصاً إذا عجزنا عن خلق مشروعات حيوية تستوعب الأعداد الضخمة من المنتهين من التعليم ، وتشعرهم بأنهم غير زائدين على الحاجة . فلقد عممنا التعليم ، ولم تحدث الأخطاء الفظيعة التى نبهنا إليها المفكرون المتشائمون ، فى عهد لم يعرف الانفجار السكانى ، وضرورة تنظيم الأسرة ، والانتفاع بكل شبر من صحارينا . ومع هذا فإننا نلمح فى كل هذه الآراء المختلفة رصانة فى أسلوب البحث ، وعدم إلقاء الكلام على عواهنه . فكل الآراء مهما تباينت تدعو إلى حلول بناءة نفتقر إليها مع الأسف هذه الأيام ، لأن أكثر ماتطالعنا به الصحف اليومية لايزيد عن ترديد للانتقادات السهلة التى تنسق تنسيقاً فنياً . وتعرض عرضاً أدبياً شائقاً بعد « رش » عبارات من التوابل الحريفة ، والنكتات المضمونة . وتحت عنوان مثير « قبل أن تنهار عمارة بيومى » طالعنا القصصى الكبير يوسف إدريس بمقال أسبوعى طريف لخص فيه بألمعيته المعهودة كل الاتهامات الموجهة إلى التربية والتعليم . فهو يرى :

« أن التعليم تلميذ يريد المعرفة ، وأستاذ لديه المعرفة ، ومكان يجمعهما مع الآخرين ليصبحا فى النهاية مدرسة أوجامعة أو دراسات عالية دقيقة التخصص » .

وبرغم بساطة هذا التعريف فإنه يرى أن مشكلة التربية والتعليم الآن عويصة ورهيبة ، وشبهها بالأمراض الخبيثة ، وتنبأ بحلها بعد أجيال ! فهناك عدد من التلاميذ يتضاعف ويتكاثر ماشاء له الهوى ، ولكن لكى يكون التعليم تعليماً فإن علينا أن نقابل هذه الزيادة بزيادة كيفية وكمية لعدد المدرسين والأساتذة ، وشبه الحال بلوحات الرسم العبثية : أعداد رهيبة من خريجى جامعات ، لامعنى لتعليمهم الجامعى بالمرة ، يعهد إليهم بأعمال بعيدة كل البعد عما درسوه ، ونقص شديد فى العمالة اليدوية والحرفية والتكنولوجية والصناعية ، « فتصوروا برغم تعدادنا نشكو عجزاً رهيباً فى عدد السمكرية والكوائين ! » .

وباختصار انتهى إلى دق ناقوس الخطر ، وإلى الحكم بأننا نمر بأزمة خطيرة ، بل تكاد تكون أخطر الأزمات : « أزمة الإنسان المصرى . . وسوء توظيف طاقته الإنتاجية وتعليمه قسراً ، ووضعه فى وظيفة قسراً ، لاأحد يختار مساره ، لاأحد يختار وظيفته أوحرفته . إنما هى أشياء تحدث لنا ولا اختيار لنا فيها . . ومادام الإنسان قد فقد سيطرته على مصيره فكيف تطلب منه أن ينتج شيئاً لايريده ، أو يعمل أعمالاً لاأهمية لها ؟ . . المسألة خطيرة ، وليست مسألة تعليم وتعلم . . إنها مسألة أن يكون الإنسان أو لايكون . وليس علاجها أبدا لجاناً تعقد فى المجالس القومية المتخصصة . إنها فى حاجة إلى أن يعقد من أجلها مؤتمر يضم خلاصة العقول فى مصر . . فى كل المجالات ليدرس إلى أين نحن ذاهبون بالإنسان المصرى ؟ » .

وإنى أقف عند هذا الاقتراح الخاص بهذا المؤتمر ، ولاأعرف مدى اختلافه عن اللجان التى انعقدت وبحثت المشكلة فى جملة دراسات وانتهت إلى قرارات لم يشر إليها أديبنا الفاضل برغم قدرته على الاطلاع عليها ، واكتفى بالتعبير عن ضيقه

وأقتراح عقد مؤتمر بدلاً من اللجان . وأنا لاأعتقد أن مشكلة التعليم تحل بالإلهام والحدس الفنى . فلو أنه اطلع على التقرير الآنف الذكر لاقتنع بأن المختصين يعرفون جيدا كل سلبيات نظامنا التعليمى التى يعرفها الكاتب بغير شك . وهى وثيقة الارتباط بالزيادة الهائلة التى أوردها فى بداية مقاله . ولايتوقع أن يتشابه أسلوب تعليم آلاف بأسلوب تعليم ملايين فى ظروف صعبة للغاية ، وفى مستوى مادى لايتناسب هو وأكثر المهن الرائجة هذه الأيام ، مع التعرض للنقد «والتريقة» ، بدلاً من تقديرهم والإشادة بفدائيتهم فى معظم الأحيان . ومع هذا فإن موقف التعليم فى مصر ليس مُشيناً ، وليست حكايته «حكاية» ، كما ذكر الأديب الكبير فاللوحة المنشورة خلف هذه الصفحة تدل على بعض الحقائق الهامة .

أولا مصر بعد سنة ١٩٧٠ تعد من الدول المتقدمة نوعاً : أى فى الفئة التى تنتمى هى نفسها إليها إيطاليا وإسبانيا ويوجوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا والبرتغال وجنوب أفريقيا .

وأعود الى الاقتراح الوحيد الذى يراه الدكتور إدريس علاجاً شافياً وافياً لكل مصائبنا ، ويفقد الإنسان المصرى ويجعله «يكون» بعد أن جعلته التربية والتعليم «لايكون» . . هذا الاقتراح إنما هو عقد مؤتمر لم يحدد مكانه ، مع أن المكان مسألة هامة لها دور كبير فى إنجاح المؤتمر أو إخفاقه أوتخفيفه ، وأظننا نستطيع أن نتنبأ سلفاً بقرارات هذا المؤتمر وبكل ماسيدور فيه ، ولا أظنه سيهتدى إلى نتائج أفضل من النتائج التى اهتدى إليها المسئولون . هذه النتائج لم تنشر على نطاق واسع بدليل أن أحد أساتذة الجامعة الأفاضل «الدكتور فريد محمد بدران بكلية الهندسة» قد تشكك فى مدى فاعلية أنظمة التعليم فى تطوير المجتمع المصرى ، وتحقيق آمال الشباب نحو مستقبل أفضل ، ولذا اقترح الأستاذ الفاضل ضرورة إيجاد نوع معقول

متقدمة

١ – دانمارك
٢ – السويد
٣ – أرجنتين
٤ – إسرائيل
٥ – ألمانيا الغربية
٦ – فنلندا
٧ – الاتحاد السوفيتي
٨ – كندا
٩ – فرنسا
١٠ – اليابان
١١ – المملكة المتحدة
١٢ – بلجيكا
١٣ – هولندا
١٤ – أستراليا
١٥ – نيوزيلندة
١٦ – الولايات المتحدة

متقدمة نوعاً

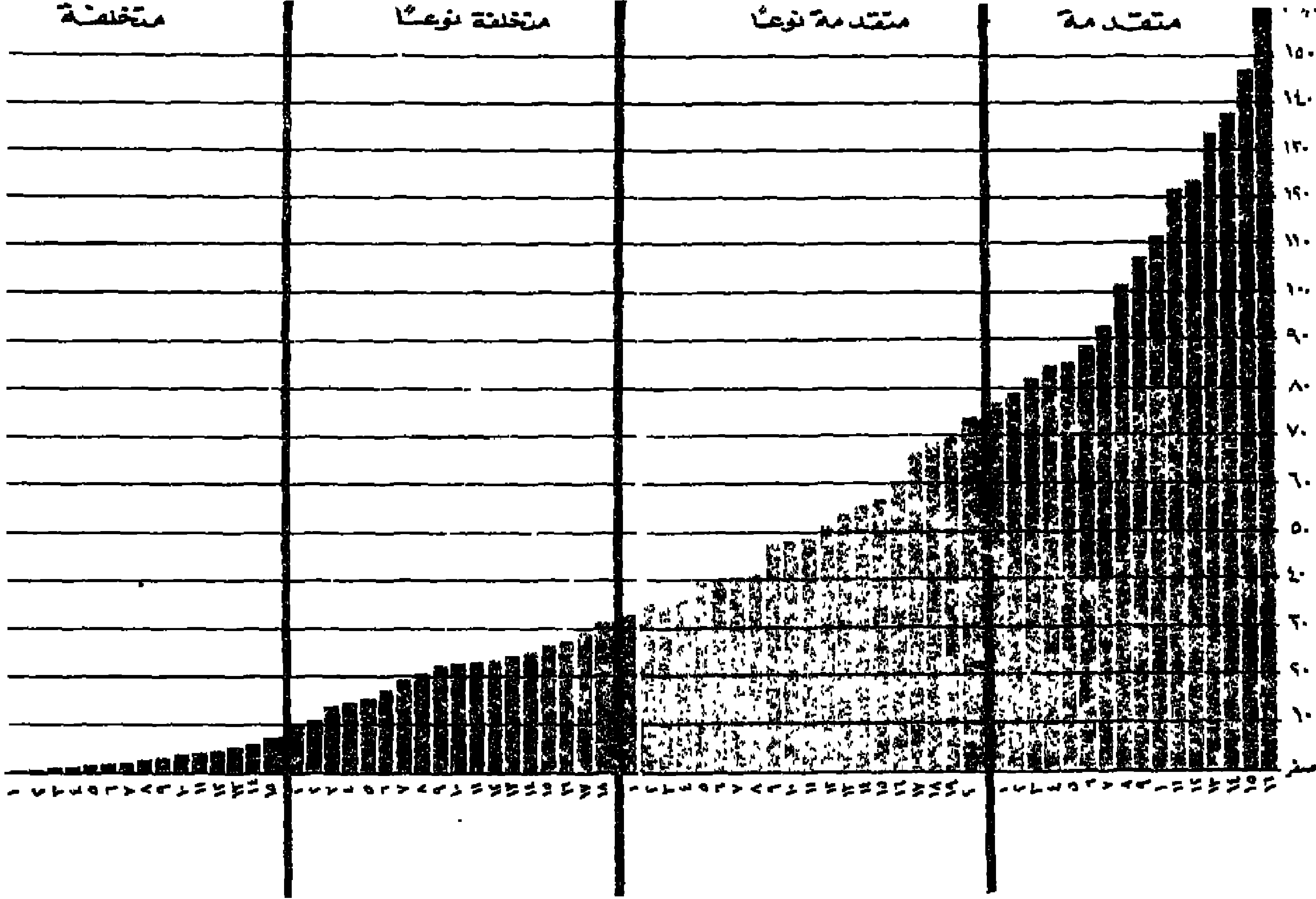
١ – مكسيك
٢ – تايلاند
٣ – الهند
٤ – كوبا
٥ – أسبانيا
٦ – شمال أفريقيا
٧ – مصر
٨ – برتغال
٩ – كوستاريكا
١٠ – فنزويلا
١١ – اليونان
١٢ – شيلي
١٣ – هنجاري
١٤ – شمال كوريا
١٥ – إيطاليا
١٦ – يوغسلافيا
١٧ – بولندا
١٨ – تشيكوسلوفاكيا
١٩ – أورجواى
٢٠ – نورواى

متخلفة نوعاً

١ – إندونيسيا
٢ – ليبيا
٣ – بورما
٤ – بوليفيا
٥ – تونس
٦ – إيران
٧ – الصين
٨ – برازيل
٩ – كولومبيا
١٠ – بارجواى
١١ – غانا
١٢ – ملايو
١٣ – إكوادور
١٤ – باكستان
١٥ – جامايكا
١٦ – تركيا
١٧ – بيرو
١٨ – العراق

متخلفة

١ – نيجر
٢ – إثيوبيا
٣ – مالاوى
٤ – صومال
٥ – السعودية العربية
٦ – تنزانيا
٧ – إفرى كوستا
٨ – زامبيا
٩ – زائير
١٠ – ليبريا
١١ – كينيا
١٢ – نيجريا
١٣ – هايتى
١٤ – أوغندا
١٥ – سودان


متخلفة
متخلفة نوعاً
متقدمة نوعاً
متقدمة
صفر
١٠
٢٠
٣٠
٤٠
٥٠
٦٠
٧٠
٨٠
٩٠
١٠٠
١١٠
١٢٠
١٣٠
١٤٠
١٥٠
١٦٠

من التوازن بين الاندفاع نحو التعليم العالى والحاجة الملحة للتعليم المهنى ، واقترح أن يكون التعليم شاملا بالنسبة لحوالى الثلث مهنيا لجميع الطلبة فى جميع المدارس على مختلف درجاتها ، حتى يقل الضغط على الجامعات التى قد أرهقتها الأعداد الكبيرة .

والاقتراح مفيد للغاية ، ولكن كم كنت أتمنى أن يقرأ الكاتب بيان وزير التعليم أمام مجلس الشعب قبل سنة من كلامه ، وأن يقرأ ايضا تقرير المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى والتكنولوجيا – الدورة الثالثة ١٩٧٥ – ١٩٧٦ » طبعة ٧٧ « .

فى البيان والتقرير ، اتجاهات دالة على وجود صدى للطفرة التعليمية الكبرى التى تميز بها عالمنا المعاصر كالانفجار السكانى وتفجر المعرفة . ووصف « البيان » النظام التعليمى التقليدى بأنه منغلق على نفسه ، منعزل عن محيطه الاجتماعى نتيجة لاقتصار التعليم على القلة أو الصفوة ، لأنه كان امتيازاً وطريقا لوظائف الدولة . . أما الآن فقد خرج التعليم عن مفهومه القديم العتيق ، إلى مفهومه الحديث الشامل . . وتستوجب النظرة إلى التعليم كأداة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية أن نركز على دور التعليم فى التنمية الاجتماعية والاقتصادية يعنى التنمية الشاملة .

وهكذا تضمنت خطة التعليم ١٩٧٧ – ١٩٨٠ اتجاهات لإعادة النظر فى الأزدواج بين التعليم النظرى والمهنى للقضاء على طبقية مختلف أنواع التعليم ، وإشراك جميع الأجهزة التى تطبق النظام التعليمى أو تعمل فى ظله ، أو تستفيد منه كالمعلمين والآباء والطلاب والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى رسم السياسة التعليمية حتى تتسع حركة التربية فى التعليم ؛ لتصبح حركة شعبية حقيقية .

أليس هذا الرأى الأخير مطمئنا للأستاذ (يوسف إدريس) ، وألايتوقع أن تضم مثل هذه الأجهزة والهيئات العقول النيرة التى تحدث عنها ؟

وعندما نتصفح تقرير المجلس القومي للتعليم والبحث العلمي والتكنولوجيا ، وقد سبق المقالين أيضاً ، فإننا سنلمح بين مبادئه وأهدافه : « أن هذا الشعب نفسه لايمكن أن يواجه القرن الواحد والعشرين ، وغالبية أبنائه لم تنل من خطة التعليم سوى محصلة سنوات ست (يقصد المرحلة الابتدائية) يضيع بعضها بالنسيان أوعدم الممارسة بعد ترك المدرسة . . ومن هنا فقد وجب أن نعمل على تحقيق المعادلة الصعبة ، ونوسع نطاق التعليم ، ونجدد الأداء فيه ، ونطيل فترة الإلزام » . .

وفى فقرة تالية يرى أن نوعية التعليم العام ذاتها ينبغى أن تتغير فتجمع بين النظرية والتطبيق ، وبين الفكر والعمل ، ويعنى فيها عناية خاصة بالتعليم الفنى الذى أصابه الإهمال ، ونظر إليه الجميع على أنه أدنى من التعليم العام النظرى ، وتلك النظرة ينبغى أن تصحح من أساسها .

وفى بند آخر ، يرى أن التعليم الثانوى العام قد أصابه شىء من الجمود فى التشعيب فانقسم جيل المتعلمين خلال نصف قرن كامل بين قسمين هما : القسم الأدبى والقسم العلمى ، وانقسمت جموع المتعلمين إلى طائفتين لاتكادان تلتقيان » .

وفاق التقرير فى صراحته وتحرره انتقادات كتابنا النابهين ، فهو مثلاً قد قال عن هيكل نظامنا التعليمى : إننا لم نستنبته ، ولم نحدثه فى إطار مقوماته الأصلية فى ضوء الاتجاهات المعاصرة ، بل دخل عليه من هنا وهناك من النظم ماجعله عاجزاً عن مواجهة الواقع ، وهضم الدخيل ، على حين أننا شعب يمتاز بالقدرة على هضم كل دخيل ، واستيعابه دون أن يفقد شخصيته » .

« وسلّم التعليم الحديث من ابتدائى وثانوى كان فى الأصل إعدادا للوظائف ، أو للمراحل التالية سعياً لوظائف أرفع ، ومن هنا جاء تهافت من أتموا مرحلة على

الالتحاق بالمرحلة التالية فى الاتجاه الذى يساعد على الاستمرار والعزوف عن المسارات التعليمية المغلقة ، وخصوصاً أن السياسة القائمة على الالتزام بتوظيف خريجى الجامعات والمعاهد العليا وسياسة الأجور القائمة على تسعيرة الشهادات قد ساعدت على ذلك : فالتلميذ ومن ورائه أهله وذوو قرابته حين يلتحق بالمدرسة الابتدائية يتطلع إلى الاستمرار فى المدرسة إلى آخرها ، والابتعاد ماأمكن عن تلك المسارات المغلقة ، حتى الحاصلون على الليسانس والبكالوريوس يزداد ضغطهم يوماً بعد يوم لفتح طريق الحصول على الماجستير والدكتوراه ! ولعل ذلك يفسر لدرجة ماعزوف الطلاب عن الالتحاق ببعض المعاهد ودور التدريب وتفضيلهم الالتحاق بالجامعات حتى أضطرت الوزارة أخيراً إلى تحويل المعاهد إلى كليات جامعية .

وهكذا نلاحظ عدم وجود نقص فى الاستقصاء والتشخيص . وفى الفصل التالى سنبين معرفة المختصين بطريقة العلاج . . ولكنّ هناك نقصاً أخطر وهو عدم شعور المثقفين ، بل رجال التعليم أنفسهم بهذه الدراسات برغم أهميتها ؛ فقد كان المفروض أن نقرأ تحليلاً ونقداً لهذه المقترحات الهامة ، بدلاً من السخط والضيق بحالة التعليم حالياً ، وربما السخرية بالكلمة والصورة . وهنا أقارن ما يحدث عندنا بما يحدث فى بلاد أخرى : فأنا أذكر أن برناردشو ألف مسرحية عن التربية سماها Misalliance (١٩١٠) ، ولم يضن على قرائه بالقفشات اللاذعة ، ولكنه لم ينس أيضاً الناحية الجادة ، فكتب مقدمة ممتازة للتمثيلية كعادته ، تضمنت آراء فى التربية سبق بها عصره ، وبذلك أنار الطريق أمام المتخصصين ، وأنا أعتقد أن التحول العظيم المراد حدوثه فى مجال التعليم فى حاجة أقصى إلى تعبئة جميع الأقلام حتى يعرف الجميع أن التعليم التقليدى الذى مافتئوا يتمسكون به لم يعد مسايراً

للعصر ، ولابد من تعديله ، وبذلك تخف الضغوط الشديدة لزيادة كثافة الفصول فى المدارس العامة ، وتجف دموع الآباء الساخنة لأن مجموع أبنائهم لايكفى غير التعليم الفنى . وكم ستكون الفضيحة هائلة إذا تخرج الابن الرابع أو الخامس من مدرسة صناعية ثانوية . فالعار سيحل بإخوته الكبار وقد تطلق أخته نتيجة لهذه الوصمة !

أليس من واجبنا أن نبادر بالتركيز على العلاج السريع ؟ لأن زمننا لم يعد يحتمل التريث والتسويف ، وترك هذه المشكلة تتفاقم على جسامة نتائجها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

مشكلتنا إذن ليست خاصة بضرورة التغيير ، فلن نستطيع إبقاء تعليمنا التقليدى بعد أن أدركنا ابتعاده عن روح العصر ، لأنه ناسب عصوراً مختلفة عن عصرنا ، كانت ترى أن التعليم من حق قلة أو صفوة ، ولكن مشكلتنا هى كيف نحقق التغيير فى أسرع وقت وحتى يساير ركب الحضارة ومعرفتها المتفجرة ، ويحل مشكلة الانفجار السكانى ؟ فقد أصبحنا بعد هذه الطفرة الكبرى فى مفترق طريق تاريخى : علينا أن نختار فيه بين التعليم أو الخراب « المستعجل » ، على رأى هـ . ج . ويلز (١) .

---

(١) Human History becomes more and more a race between education and catastrophe

نقلا عن كتاب
Education, Its Purpose and Nature
تأليف
M.C Jeffreys

٥ – التعليم الشامل ، وتجربتنا المرتقبة

فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ارتفع الحد الأدنى لنصيب المواطن من التعليم : فبعد أن كان المصلحون فى أعقاب الثورة الصناعية فى القرن الفائت لا يطالبون للمواطن بأكثر من التعليم الأولى للقراءة والكتابة والحساب البسيط أو الثلاث R [1] – أصبحوا الآن بعد الطفرة الكبرى لا يرون المواطن جديراً بالبقاء إلا إذا شارك بنصيب فى الإضافة إلى المعرفة ، أو إدراك اتجاهاتها على أقل تقدير . وقام بدور إنتاجى ، ولم يكن مجرد عبء مستهلك فى عالم متناقص الموارد.

كل هذه المعانى تعنى أن نظام التعليم التقليدى لم يعد مناسباً للعالم . فقد كانت مشكلات بعض العصور الزاهية كعصر النهضة وعصر التنوير لا تحتاج إلى تعلم أكثر من قلة صغيرة تدير دقة الحكم أو تستمتع بالمعرفة لذاتها . وكانت الموارد تفوق عدد

---

(1) Reading, Writing, Arithmetic

الأفراد ، ولم تعرف أزمات الانفجار السكانى ؛ لأن الطبيعة كانت تصحح نفسها بالأوبئة والمجاعات والزلازل والفيضانات والحروب . ونحن نغبط هذه العصور ، ولا أدرى : هل نغبطها أيضا لضآلة ما اكتسبت من معرفة ؟ فلم تزد المعرفة حين ذاك عن بعض معلومات لا تملأ أكثر من عشرة أجزاء فى الموسوعة الميسورة . أما الآن فلو حاول أحد تعلم كل ما هو موجود فى كتب المعرفة لاحتاج إلى مائتى عام مع النوم ست ساعات يومياً ، وتناول وجبات الطعام فى أثناء اطلاعه على مختلف الأسفار . وبعد أن ينتهى من الاطلاع والتحصيل يتضح له أن كل ما عرف قد تغير ولم يعد مسايراً للعصر !

والعلماء مجمعون على اقتصار مناهج الدراسة على الإرشادات التى تدرب الطالب على كيف يعلم نفسه بنفسه ، وكيف يختبر معلوماته بنفسه . فقد اتضح أن الدراسة النظامية حتى فى الحال الحاضرة لا تستغرق أكثر من فترة زمنية قصيرة جداً بالمقارنة بالفترات التى يحصل فيها الفرد العلم بنفسه ، وأثبت علماء النفس أن الطفل يحصّل بمعرفته الحرة قدراً كبيراً من المعرفة قبل أن يلتحق بالمدرسة . وبعد انتهاء الدراسة ينقسم الناس إلى نوعين : نوع يعتقد أن المعرفة انتهت بانتهاء الدراسة ، ونوع آخر يبدأ حياته الثقافية والمعرفية الحق ، فيدرس وحده العلوم التى لم يدرسها دراسة نظامية ، ويصحح المعارف التى درسها ، أو يضيف إليها على أقل تقدير .

ولننتقل إلى الكلام عما فعلته الدول المتقدمة لتطوير أنظمتها التعليمية . والولايات المتحدة تفخر لأنها صاحبة أول تجربة واقعية تساير العصر ، وتلبى احتياجات البيئة . فبالرغم من تأثرها بالمذاهب الفلسفية المستوردة من أوربا ، وخاصة فلسفتى لوك وروسو فى التربية فإنها قد خلقت نظاماً تعليمياً موحداً يحقق أكبر قدر من تكافؤ

الفرص ، فقد ذكر عالم التربية الأمريكي كونانت Conant في كتابه The American High School Today أن مدرسة العموم Common School هي نواة التعليم الشامل الذي بدأ في صورة مدرسة ثانوية تجمع تحت إدارة واحدة وسقف واحد نوعاً من التعليم الذي يزود بالأساسات النظرية والعملية عالم الذرة والفتاة التي ستنقطع عن الدراسة بعد الثامنة عشرة وقائد البحرية ورجل الأعمال .

ويناسب هذا النظام العباقرة والمتخلفين على السواء : فالمدرسون بهذه المدرسة متخصصون في التعامل مع كل النوعيات ، وقادرون على تعليم الطلبة كيف يعلمون أنفسهم بأنفسهم ، وعلى تزويدهم بجميع الموضوعات الأكاديمية المتقدمة التي تصلح كركيزة لمن يتابعون الدراسة بعد انتهاء التعليم ، وكذلك بالمواد العملية والتقنية التي قد تنفعهم في حياتهم العملية لو اكتفوا بالدراسة الثانوية ، أو واصلوا التعليم بالجامعة .

ولا يعترف علماء التربية المؤمنون بهذا النوع من التعليم بوجود عقبات غير قابلة للتذليل : فعندما قيل – إن هذا النوع يصلح للتلاميذ المتوسطين فقط ، ويقتل العبقرية – طور النظام بحيث يجمع بين التعميم ومراعاة الفروق الفردية ، واستخدمت للتغلب على بعض المعوقات وسائل التعليم الحديثة كالمعامل اللغوية وآلة التعليم Teaching Machine وأسلوب الفريق في التعليم Team Teaching. والتلفزيون . وابتكرت تنظيمات جديدة وأبنية وورش ومعدات تساعد على تعليم الأعداد الكبيرة تخصصات كثيرة وبالقدر الكافي من المدرسين المتخصصين . واحتاجت هذه المشروعات إلى اعتمادات مالية ، لم تعجز الولايات المتحدة بالطبع عن تدبيرها . وقيل : إنه من العسير فشل أي مشروع مادام المشرفون عليه يتميزون بالحماسة والمرونة . ومن آيات ذلك ما قيل عن صعوبة توافق استعداد أي تلميذين

وأخرى للعامة ، أو الفقراء ، أو مدارس أكاديمية وأخرى فنية . فالمدرسة الشاملة تحطم كل تعدد فى المدارس ، وتحقق نتائج ديمقراطية لا تنكر حتى لو اختلفت مواهب الطلبة واستعدادتهم ، وهذا أمر غير مستغرب .

وبعد الحرب العالمية الثانية حدث تقارب اجتماعى عندما اشتركت جميع الطبقات فى القتال ، وارتدى المجندون على اختلاف طبقاتهم الزى نفسه ، ولما انتهت الحرب نفر كثيرون من العودة إلى التفرقة فى الزى ، بل شاعت موضات الملابس الخشنة ، كما نلاحظ فى شيوع ملابس الجينز واستعمال حقائب من الخيش أو جراندبات «وشنط جراية» وهكذا تيسرت مهمة التربويين والمصلحين الاجتماعيين ، واتضح أن المدرسة الشاملة برغم تكاليف ورشها ومعاملها أرخص تكلفة من المدارس التقليدية الأكاديمية بأبنيتها الأرستقراطية وأسوارها الحديدية الشاهقة .

وما ذكرناه عن روسيا من قبل فيه الكفاية لبيان القيمة العملية للدراسة الشاملة بغض النظر عن اختلاف المذهب والعقيدة .

وكانت آخر دولة كبيرة تقر فكرة المدرسة الشاملة بعد تردد — ألمانيا الشديدة الاعتداد بأرستقراطيتها التعليمية . فقد اضطرت خضوعاً للزيادة الكبيرة فى المدارس الثانوية إلى إعادة التنظيم الجذرى للهيكل التعليمى ووُوفق على إنشاء مدارس شاملة فى يناير عام ١٩٦٩ ، على أن تحل تدريجاً محل النظام القديم . ومن الغريب أن ألمانيا كانت تشجع طلبتها دائماً على الدراسة الشاملة ، التى تجمع بين العلم والعمل ، باتباع جملة وسائل : أى بالاعتماد على الدراسات المسائية والدراسة بالمراسلة لاستكمال نوع التعليم الذى يفتقر إليه الطالب أو العامل بعد انتهائه من دراسته . فالمهم هو أن يجمع كل ألمانى بين العلم والعمل ، وبين الثقافة النظرية

فى المدرسة الشاملة ، فعلى الفور وضع نظام علمى استشارى لتعريف الطلبة كيف يختارون ؟ ورئى أن ليس هناك ما يحول دون تصنيف التلاميذ وفقا لمقدرتهم فى كل موضوع على حدة ، بدلاً من انتمائهم إلى شعب متخصصة قد تناسبهم بعض موضوعاتها ، ولا يفلحون لموضوعات أخرى . والمهم هو المثابرة وعدم إرغام الطالب على التخصص المبكر فى هذا العالم المركب باحتياجاته السريعة التغير.

ومازالت مشكلة تعليم العباقرة تحير علماء التربية : ففى الماضى ، لم يكن تعليمهم مشكلة على الإطلاق ، فكانوا يشقون طريقهم ، ويبتكرون وسائل تعلمهم ، ويتعلمون من الحياة . وإذا احتاجوا إلى أدوات ومعدات كانوا لا يصادفون أى عقبات مالية حقيقية ؛ إذ كان العالم قادراً على تحقيق غايته بالاستعانة بأوانى المطبخ أو أدوات مشابهة . ولم يتكلف المعمل الذى اكتشفت فيه مدام كورى مادة الراديوم أكثر من جنيهات معدودة . والشاعر لا يحتاج إلى أكثر من نوتة أو ربما علبه سجائر ليدون عليها خواطره ، والرسام لا يحتاج إلى أكثر من (اللوحة) التى يرسم عليها ويشتريها بنقود زهيدة . أما الآن فكم يلاقى الأمرين العباقرةُ فى كل مجال : . فالكتاب الواحد قد يزيد ثمنه عن الخمسين جنيهاً ، وإذا أراد موسيقى تأليف عمل أوركسترالى فإنه يستأجر قاعة موسيقية بكل إيراده فى سنة كاملة .

ومن الحلول التى ذكرت فى هذا السياق ألا يخضع التشعيب للقدرات ما دامت قدرات الطلبة تختلف من موضوع لآخر . ولامانع من تجميع أكبر عدد من التلاميذ فى فصل واحد مع تخصيص منهج منفصل لكل فرد . ويقصد بكل هذه الوسائل عدم تخصيص مدارس للمتفوقين ، وإبعادهم عن المدرسة الشاملة ، حتى لا تعود الازدواجية المقيتة التى كانت تقسم المدارس إلى مدارس للصفوة

والخبرة التقنية ، وكان هذا يحتم اتباع أنظمة معقدة ، أما الآن فبعد تعميم المدرسة الشاملة سيتحقق قدر أفضل من التكامل الاجتماعى للأطفال والمدرسين على السواء ، ويتسنى لكل طالب اكتشاف نفسه ومعرفة ما يناسبه من تعليم بإرشاد متخصصين فى التربية والاجتماع يعرفون ما يجول فى عقول تلاميذهم ، وما يستطيعون تقديمه من عون لهم حتى يحسنوا شق طريقهم فى الحياة.

يكفينا هذا بالنسبة لأهم الدول المتقدمة ، ونتحدث عن تجربتنا المرتقبة فى التعليم الشامل. وقد لاحظنا فى الفصل السابق الصيحات التى نادت فى الثلاثينيات والأربيعنيات بضرورة الجمع بين العلم والعمل ، وإعداد المدرسة الثانوية لكى تكون مرحلة منتهية لمن يرى الاكتفاء بهذا النصيب من العلم ، ولمثل ذلك قدم العائدون من بعثات تربوية خارجية تقارير إلى المسئولين يطالبون فيها بالغاية نفسها.

ولنا تجارب كثيرة منشورة فى تقرير المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى والتكنولوجيا أبرزها المدارس الإعدادية الحديثة ذات المجالات (وعددها ١٠٥) ، والتى كان من المفروض أن تضطلع بمهمة مماثلة لمهمة المدرسة الشاملة ، أى الجمع بين الثقافة النظرية والمجالات العملية. ولكن – وهذه مسألة مؤسفة – لقد اضطر المسئولون ، كما يقول التقرير ، إزاء تزايد أعداد التلاميذ وقلة الإمكانات المادية والبشرية – وهذه ظاهرة لن تتوقف وربما تفاقمت فى السنين المقبلة – إلى تحويل بعض المرافق والورش إلى فصول ، وتحوّل تدريس المواد العملية إلى صور صورية لا تحقق الهدف من إنشائها.

ويتحدث التقرير أيضاً عن تجربة المدرسة التجريبية الموحدة (البولتكنيك) بمدينة نصر وتجمع بين المرحلتين الابتدائية والإعدادية على طريقة ألمانيا الشرقية ،

التى عاونتنا على تنفيذ هذه التجربة . وفى هذه المدرسة أيضاً تم الجمع بين الدراسة النظرية والنواحى العملية التطبيقية ولا سيما دروس العلوم والرياضيات .

ولو رجعنا إلى الماضى القريب فسنرى أمثلة كثيرة نجحت فى البداية ولم تواصل رسالتها كالمدارس النموذجية . كل هذه الأمثلة يصح اعتبارها محاولات تجريبية أثبتت برغم عدم استمرارها صلاحية التعليم الشامل فى بلادنا .

ولكن الموقف الآن قد بات مختلفاً ، ولا يصح النظر إلى التعليم الشامل كمجرد تجربة ؛ فقد أصبح ضرورة من ضرورات الطفرة الكبرى التى يمر بها العالم لمواجهة تفجر المعرفة والانفجار السكانى والحياة الحديثة المعقدة التى لم يعد يصلح لها الملم بالقراءة والكتابة ومبادئ الحساب فحسب ، أو من اجتاز اختبارات محو الأمية ، ومن ثم فلا مفر من اتباع هذا الاتجاه العام الذى رحبت به حتى الدول التى ترددت كثيراً فى قبوله مثل ألمانيا وفرنسا ، لاعتزازهما بتراثهما العلمى العتيد الذى بنيت عليه حضارتيهما .

فى هذه المرة إذن لن يستطاع الاكتفاء بتجربة واحدة أو جملة تجارب ، بل يجب أن يتحول تعليمنا كله إلى نوع واحد من التعليم ؛ فقد لاحظنا النتائج السيئة التى عادت عن تعدد الأنظمة التى دعمت روح الطبقية ، وقضت على فكرة تكافؤ الفرص ، والديمقراطية والمساواة بالتبعية .

فى هذه المرة يجب أن توضع خطة واقعية ، تواجه شتى الاحتمالات بألا تتعرض للتدهور لعدم وجود اعتمادات مالية كافية ، أو التجاوب مع الزيادة السكانية المحتملة فى بلد يزيد أكثر من مليون كل سنة ، ويزيد عدد تلاميذه بأكثر من ربع مليون كل سنة . ومن الواجب ألا تتأثر هذه الخطة بنقص مواد البناء أو عدد المدرسين ؛ فكل هذه مسائل متوقعة ، وقد مرت البلاد الأخرى بتجارب مماثلة ،

ولها حلول موفقة تستحق الاستئناس بها ، ولا أعتقد أن هذه المسائل قد غابت عن فطنة المتخصصين ؛ لأن الخطة لا تسمى خطة إلا إذا كانت «شاملة» وإلا فكيف تقرر خطة غير شاملة ما يجب أن يكون عليه التعليم الشامل .

وليس لدينا أكثر من أن نأمل خيرا ، ونكتفى هنا بذكر أهم التوصيات والخطوات التنفيذية التى اتبعت لتحقيق المدرسة الشاملة . ويلاحظ أنها دراسات متأثرة بالاتجاهات العالمية فى الغاية وحدها ، أما التفاصيل فمنتزعة من الدراسات الواقعية والخبرات العملية لعلماء التربية المصريين . فنحن لم نعد نبهر انبهارا كاملا بالآخرين فننقل نقلاً حرفيًّا دون مراعاة لاختلاف المكان والزمان . ومن هنا أعدنا النظر فى سلمنا التعليمى الذى اهتز نتيجة للطفرة الكبرى ، ولم يعد يمثل الواقع الفعلى ، ولا تطلعاتنا للمستقبل .

وسلمنا الحالى ، كما هو معروف (٦ سنوات مرحلة ابتدائية + ٣ سنوات إعدادية + ٣ ثانوية) يفترض أنها تقابل الفترة من ٦ إلى ١٢ سنة ، ١٢ – ١٥ سنة ، ومن ١٥ – ١٨ سنة ، وإذا انتهى الطالب من الدراسة فى أى مرحلة اعتقد أنه أتم تعليمه ، وقطع صلته به ، ومن ثم فإنه يحتفل بالخلاص من كتبه إما الإعارة أو البيع أو ربما بالحرق .

والسلم التعليمى المقترح يدرس حالة الطفل سيكلوجيًّا وعقليًّا منذ ولادته ، ويدرس صلاحيته للتعليم ، وما يناسبه من تعليم ؛ فقد اكتشف السيكلوجيون أن مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية عظيمة الأهمية لإعداد التلميذ للدراسة ؛ كما اكتشفوا افتقار السلم الحالى إلى التداخل والترابط بين التعليم والعمل ، والتلاحم بين العلم والتكنولوجيا والتعليم الذاتى . والمحاولات السابقة لتحقيق هذه الغاية ساذجة ؛ فلم تزد عن تطعيم طفيف لم يُشعر الطالب بالتكامل بين الدراسة العملية

والعلمية ، وبين العلم والتكنولوجيا . والسلم المقترح سلم خبرات يمتد من المولد حتى نهاية العمر ، ويرتبط بالمجتمع واحتياجاته الاجتماعية والاقتصادية أكثر من ارتباطه بما بعده من مراحل . وقد تصوروه فى شكل حلقات ، كل حلقة تؤدى إلى ما يليها ، بدلا من أن يكون درجات فى سلم يصعب تجاوز واحدة منها . والسلم المقترح يسمح لمن ترك التعليم واتجه إلى العمل بالعودة مرة أخرى إلى التعليم .

ولن نتوسع فى الكلام عن مرحلة ما قبل التعليم الابتدائى التى ركزت الدول الأخرى عليها وبخاصة فى ألمانيا ؛ لأنها تراها أخطر مرحلة ؛ ففيها توضع نواة الشخصية الإنسانية ، وإذا أردنا أن يشب الطفل على حب العلم والعمل فإن علينا أن نخلق هذا الحب من السنوات الأولى لحياته .

واتجهت وزارة التربية والتعليم إلى إدماج المرحلتين الابتدائية والإعدادية وسمتها مرحلة التعليم الأساسى (من سن ٦ إلى ١٥) وفيها يزود التلميذ بالمهارات الأساس من عقلية وتعبيرية ودينية وبدنية ويدوية واجتماعية وترويحية . وقد طورت مناهج المرحلة هذه حتى يعد الطفل إعداداً متكاملاً من الجانبين الفكرى والمهنى بتزويده بالحد الأدنى من المعارف والاتجاهات والقيم والسلوكيات والمهارات والخبرات المناسبة التى تمكنه من مواجهة الحياة فى بيئته ، كما تهيئه لمواصلة تعليمه فى هذه المرحلة الأساسية على الأساليب الشكلية والنظرية ، وطورت مناهج مواد الثقافة العامة والأنشطة العملية لتحقيق أهداف التعليم الأساسى ، وتدعيم الأنشطة العملية ، ووضعها فى صورة مجالات للتدريبات العملية . ولن ينفذ هذا التغيير دفعة واحدة ، فستجرى فى البداية مرحلة انتقالية تختبر فيها هذه التجربة فى مواقع مختارة ، تليها مرحلة يعمم فيها التعليم الأساسى

ومن المستحدثات التى تتبع فى تدريس التدريبات العملية فى السنوات الست

الأولى من مرحلة التعليم الأساسى إتاحة الفرصة للتلاميذ للخروج للبيئة بالزيارة والمشاهدة ، وتمضية أيام كاملة فى المزارع الخاصة أو التعاونية أو فى المصانع والورش .

وترمى هذه الدراسات العملية إلى تعويد الطفل احترام العمل اليدوى والشغف به ، وتدريبه على أداء بعض الأعمال البسيطة وتناول الأدوات والمحافظة عليها ، وصيانتها ، وحفظها وتبصيره بأساليب استخدمها ، وغرس روح التعاون ، وتعويده على الانضباط واحترام المواعيد ، والاهتمام بكل ما فى بيئته من خامات وصناعات .

ويكتسب الطفل فى هذه المرحلة بعض المهارات الأساسية التى يحتاج إليها مستقبلاً فى حياته الخاصة . واختير ١٩ عملاً مختلفاً تناسب مختلف البيئات . فمثلاً يتعلم الطفل فى البيئة الساحلية أعمال أثاث البحر ، ونسيج شباك الصيد ، وتمليح الأسماك ، وحفظها . ولم ينس واضعو المناهج الحرف التى تعانى من نقص شديد فيها إثر نزوح أربابها إلى البلدان الأخرى : فمن بين المواد العملية : أعمال لصق البلاط وتدرس فى ٢٠ حصة ، وأعمال السمكرة الصحية (٢٠ حصة) وتدرس فيها الحنفية والسيفون وعدة الوابور وكذلك أعمال كاوتشوك السيارات (١٠ حصص) لفك وتركيب ونفخ ولحام كاوتشوك السيارات .

ولم ينس واضعو المنهج تخصيص مواد نسوية عملية لتزويد الفتيات بالمهارات فى الصناعة البيئية والمنزلية وتنمية إحساسهن بالجمال ، وتذوقه فى مختلف مظاهره : أى فى اختيار الألوان وانتقاء «الكلف» وطرق تقديم الطعام ، وترتيب المنزل ، وكذلك تعليمهن كيفية إصلاح الملابس القديمة وتطويرها ، واستغلال فضلاتها ، وعمل قطع نافعة منها . وتضم هذه الناحية ١٧ خبرة مختلفة .

وفى النصف الأخير من مرحلة التعليم الأساسى (٣ سنوات) يزود الطالب بالخبرات والمهارات التى تهيئه للعمل والكسب مستقبلاً ويتعرف بالخامات الشائعة فى بيئته ، ودورها فى العمليات الصناعية وإلى العدد والمعدات البسيطة لتشغيل الخامات ، وطرق استعمالها ، وصيانتها ، ويمارس بعض العمليات البسيطة التى تناسب قدرته ، وبذلك يدرك أهمية الصناعة ، ودورها وأثرها على الاقتصاد القومى. ويتدرب الطالب على كل شىء بنفسه ، ويقتصر دور المدرس على التوجيه والإرشاد ، كما يتدرب على العمل الجماعى ، والمحافظة على أدواته وموقع عمله نظيفاً سليماً .

واختيرت خمسة مقررات فى المجال الصناعى : فى أشغال الخشب والدهانات وأشغال المعادن البسيطة ، وإصلاح المنزل وأدواته والميكانيكا والكهرباء وتوصيلاتها ، والأدوات والخامات اللازمة لكل جانب . وفى المجال الزراعى — اختيرت مقررات فى البساتين (خضر وفاكهة) والألبان والدواجن وتربية النحل ودودة القز والتعاون الزراعى. ويتدرب الطالب فى المجال التجارى على ثلاثة مقررات فى السكرتارية والمعاملات التجارية والآلة الكاتبة الإفرنجية . وفى مجال الاقتصاد المنزلى عدد وافر من المقررات لا يقل عن ٢٥ مقررا .

وهكذا يتجه التعليم فى المرحلة الأساسية (الابتدائية والإعدادية) إلى تعليم شامل يجمع بين العلم والعمل . وتليها المرحلة الثانوية التى تحتاج بطبيعة الحال إلى تطوير — على حد قول تقرير المجلس القومى — لتخليصها مما ألفناه من تقسيم إلى علمى وأدبى ، أو فنى وعام لتحل محلها المدرسة الشاملة التى يدرس فيها الطالب مجموعة مترابطة من المواد الأساس والعلوم والتكنولوجيا ملتحمين .

ووضعت خطة لتنفيذ هذه المرحلة بغية تحقيق النمو المتكامل للطلاب من

النواحي العقلية والجسمية والاجتماعية ، وإتاحة الفرصة لمحبي العلم لدراسة الموضوعات العلمية المتقدمة ، وتشجيع مجالات الدراسة التطبيقية والربط بين العلم النظرى والتطبيقى والعملى ، وتنويع مجالات الدراسة ، وتوسيع مجالات الاختيار أمام طلاب هذه المرحلة مما يتناسب هو ورغباتهم واستعداداتهم ويوافق الفروق الفردية ، وخلق مجتمع ديمقراطى ، فيه قدر وافر من المهارات البشرية ؛ فبوسع من ينهى الدراسة بالمرحلة الثانوية الشاملة أن يعمل ، وأن يعتبر المرحلة الثانوية الشاملة دراسة منهية ، أى فى غير حاجة إلى متابعة فى الجامعة والمعاهد العليا ، وبوسعه أيضا أن ينمى خبرته الفنية بالالتحاق بالمعاهد الفنية ، وسيكون أفضل حالاً من أقرانه الذين يفتقرون إلى الثقافة الإنسانية .

ورئى أن تكون الدراسة موحدة فى السنة الأولى من المرحلة الثانوية ، ويبدأ التخصص فى السنة الثانية ، ويتضمن منهج السنة الأولى أسبوعيا تربية دينية (٣ ساعات) ولغة عربية (٦ ساعات) ولغة أجنبية (٥ ساعات) ورياضيات (٣ ساعات) وعلوم (٣ ساعات) ومواد اجتماعية (٣ ساعات) وتربية فنية (ساعة واحدة) وتربية رياضية وعسكرية (٣ ساعات) وفنوناً عملية وثقافة مهنية (٤ ساعات) فيكون المجموع ٣٢ حصة .

وهناك مواد إجبارية فى السنتين الثانية والثالثة : تربية دينية (ساعتان) ولغة عربية (٥ ساعات) ولغة أجنبية (٤ ساعات) وتربية رياضية (ساعتان) فيكون المجموع ١٦ ساعة .

ثم هناك عشر ساعات فى مختلف الشعب (اللغات والإنسانيات والعلوم والرياضيات والتعليم الصناعى والتعليم الزراعى ، والتعليم التجارى) ويختار الطالب لغة أجنبية أو مواد إنسانية ، أو علوماً رياضية (ولكل منها ٣ ساعات) وأخيراً تجىء

الفنون العملية فى المجال الزراعى أو الصناعى أو التجارى أو الاقتصاد أو التربية الفنية أو التربية الموسيقية (لكل ٣ ساعات) فيكون المجموع ٣٢ ساعة أيضاً.

وترك للمدارس المختلفة اختيار مواد الدراسة فى المجالات العملية حتى تتوافق هى واحتياجات البيئة، وبذلك يختلف الاختيار باختلاف الموقع الجغرافى والاحتياجات البيئية : فى مجال الاقتصاد المنزلى تستطيع المدرسة اختيار ما يناسبها من المجالات الآتية : (تربية طفل وتغذية ورعاية اجتماعية وتمريض وعلاج طبيعى وتدبير منزلى وتصميم أزياء وتجميل وتفصيل وحياكة وتطريز يدوى وآلى وصيانة ماكينات).

وفى المجال الصناعى - نجارة أثاث وديكور وبتروكيماويات وبلاستيك وميكانيكا سيارات، وصناعة مصايد أسماك ونماذج آثار وكيمياء صناعية.

وفى المجال الزراعى صناعة ألبان وصناعات غذائية وروائح عطرية ومشتقاتها وتربية دواجن وتربية نحل وتربية حيوان ومراع وحدائق وبستنة وحاصلات حقل وتربية دودة الحرير وصيانة آلات زراعية وميكنة زراعية وأراضٍ وحشرات وآفات زراعية ووقاية نباتات وتعاون وتنمية بيئية.

وفى المجال التجارى السكرتارية والآلة الكاتبة وإدارة أعمال ومخازن ومشتريات ومحاسبة وفندقة وسياحة وأعمال مصرفية وشئون مالية وإدارية.

وعند تخطيط الاحتياجات المختلفة - اختلف الاختيار من محافظة لأخرى : فاختارت مثلا «الوادى الجديد» المياه الجوفية والطلمبات على حين اختارت «القنطرة شرق» مصايد الأسماك ونجارة السفن والبتروكيماويات. وحدث الشيء نفسه فى مجال الزراعة والتجارة : لقد اختارت مطروح مثلاً أعمال الجمارك. واختارت (القنطرة شرق) السياحة والفندقة وأعمال المخازن فى حين اختارت الوادى

الجديد التشجير وهكذا .

وأفضل ما قام به المختصون هو عدم وقوعهم فى الخطأ السابق الذى جعل المواد العملية بلا مقابل ، ولذا كان الطالب يعتبر الاهتمام بها مضيعة للوقت : ففى المرحلة الأساس ستدرج نسبة مئوية للتدريبات العملية من ١٠ إلى ١٥٪ على حسب تدرج المادة فى الصفوف ، وفى المرحلة الثانوية ستنقسم درجات الامتحان ثلاثة أقسام متساوية : القسم الأول للتحريرى ، والثانى للعملى ، والثالث لأعمال السنة .

وبوجه عام ما أيسر تدوين المخططات والاحتياجات على الورق ، ولكن ترجمة هذه الاحتياجات والأمانى إلى حقائق وإمكانات بشرية ومادية شىء آخر ، وبخاصة فى فترات الضيق الاقتصادى . ولكن – كما حدث فى البلدان الأخرى – قد يستطاع التغلب على العقبة المالية بالاستعانة بالمدارس الفنية وورش المصانع ، ويحتاج حينئذ إلى مهارة إدارية . وكل هذه الجوانب قابلة للتذليل ، ولكن الصعوبة الكبرى هى مدى تجاوب الرأى العام معها . فقد يقتنع العقلاء بمبرراتها النظرية ، ولكن هل يرضون بسهولة عن ترك المدارس التقليدية العامة التى تعلموا فيها وتعلم فيها آباؤهم وجدودهم . فلا بأس عندهم من ألا يساير التعليم العصر ، أو يكون منهج التعليم من مخلفات عصور ولّى عهدها ، وابتعد عنها أصحابها ، فالمهم فى نظرهم أن هذا النوع من التعليم هو الذى يحقق الاحترام فى المجتمع ، وتذكرنا هذه الحالة بعاداتنا الغربية فى تأثيث بيوتنا . فقد اختفت من بيوت المدن المتحضرة طرازات الأثاث المشهورة ، وصناعتها ، كطرازات لويس الرابع عشر أو الخامس عشر أو الملكة آن فى إنجلترا ، واقتصر وجودها على القصور أو بيوت العائلات التى ورثتها عن أسلافها ، وعندما يحاولون صنع هذه الطرازات فى

الخارج فإنها تكلفهم الكثير من الجهد والمال . أما هنا وللعجب العجاب فإن أغلبية ما يصنع من أثاث يتبع هذه الطرازات ، وليس هذا بدافع الوطنية . فمن المفروض أن ننفر منها ونصفها بأنها من مخلفات الاستعمار أو الإمبريالية لأنها فعلاً ظهرت فى عهود الاستعمار ، ولكنه دافع التباهى وتوهم ارتباط صورة المنزل المحترم بالأثاث الدال على النعمة والجاه ، حتى لو ثبت أنه كثير التكاليف صعب التنظيف ، متعب فى الجلوس عليه . وأغرب من هذا أن أغلب ما ينتج من هذا الأثاث قبيح المنظر ويشوه سمعة الطرازات الأصلية وسمعة مبتكريه من أمثال تشبندال وكريسان وكارلان .

والأمر بالمثل فى حالة التعليم ! وكم نعانى من مرارة عندما نقنع أحد الآباء بأن مستقبل ابنه ليس فى مدارس التعليم العام أو الجامعة ، والبوادر كلها تدل على أنه سيعانى الأمرين . ولن يلتحق بجنة الميعاد أى كلية الطب أو الهندسة ، وقد يبكى الأب المسكين ، وينعى سوء الطالع الذى نكبه بهذا الابن الخائب الذى كان من المفروض ألا يسىء لسمعة عائلته العريقة ، وأن يحصل على مجموع مناسب يدخله كلية الطب وغيرها من الكليات الأرستقراطية ، ولكن هذه مشيئة الأقدار .

هذه الصعوبة لن تذلل إلا من خارج التربية والتعليم ، وهذا دور أجهزة الإعلام ، ومن هنا جاء تريث التربويين المختصين ؛ فبالرغم من اعتقادهم بضرورة الإسراع بتطوير التعليم ، ومسايرة العصر ، فإنهم يرون وجوب إعداد الرأى العام وتهيئته لتقبل تجربة جديدة تتعارض هى وأحلامه وأمانيه .

وكل تلكؤ يعنى الاستمرار فى اتباع تعليم ضار بالمجتمع ضحاياه هم الجحافل الضخمة من تلاميذ المرحلة الثانوية العامة الذين يزيدون كثافة الفصل ، ويحرمون الطلبة الجادين التحصيل ثم يفسدون فيما بعد الجهاز الحكومى عندما يكتظون فى

دواوينه ويملئونها بأجسادهم ، أما المرتبات التى يتقاضونها فوثيقة الارتباط بدبوننا ، لأنها مال ضائع لا يعود على الدولة بغير الخراب .

هذه هى إحدى العقبات الكبرى التى ستواجه التعليم الشامل . وننتقل إلى عقبة أخرى هى عقبة « المدرس » والمدرس التقليدى بسبورته التقليدية وطباشيرته التقليدية لا يتناسب هو والتعليم الحديث ولا التعليم الشامل : فى التعليم التقليدى كان التعليم عملية تلقينية من جانب واحد يجلس الطلاب متجهمين وعيونهم صاغرة إلى الأمام ، ويتيقن المدرس من حين لآخر يقظتهم بتوجيه بعض الأسئلة التى تطمئنه على إنصاتهم ، وعلى أنهم يعرفون أين هم جالسون ويعرفون اسم المدرس الذى يلقنهم . وحاليا يضيع الوقت فى إخماد أنفاس الطلبة ؛ لأن الكثافة قد تجاوزت العدد المشروع ، وأصبحت المحافظة على النظام والسكون مشكلة هامة يتباهى المدرسون بقدرتهم على حلها . كما يتباهون ببراعتهم فى تلقين الدروس وتمرين طلابهم على تقنية الامتحان ، وتعريفهم بالأجزاء التى يتوقع أن يختارها واضع أسئلة الثانوية العامة .

وهناك خبراء فى « الأرصاد التربوية » يتنبئون بموضوع الإنشاء العربى فى الثانوية العامة ، وربما باقى الموضوعات ، بالرجوع إلى الأسئلة القديمة ، وهذه الخبرة تحتاج إلى ما لا يقل عن العشرين سنة .

واليوم قد تغير دور المعلم ، وتغيرت اختصاصاته وطريقة تدريبه . فلم تعد أهم مميزاته القدرة على « تبليغ » التلاميذ قواعد اللغة العربية ، أو نظريات الرياضة الحديثة . ولكن ما يهم هو أن يدرك كيف تبدو قواعد اللغة العربية لطفل فى الثامنة من عمره ، وكيف يدرك طفل فى الثامنة أهمية قواعد النحو ، برغم انحداره من بيت بعيد عن الجو العلمى الذى يعيش فيه مدرسنا ؟

واتجهت طرق التدريس ، وبخاصة فى المرحلة الابتدائية إلى فهم طبيعة عملية التعلم ، وطريقة تنظيم المدرس لمادته العلمية ، وبرمجتها ، أى تقسيمها إلى خطوات تتمشى مع سيكلوجية الطفل وعقليته اعتمادا على خبرته فى التعامل مع الآخرين حتى يتيسر تقبلهم للمعرفة .

وأدرك علماء التربية ، وعلى الأخص جيمس كونانت فى أمريكا وروبينز Robbins فى إنجلترا أن تدريب الطلاب على تنظيم مايكتسبون من معارف جديدة من الأساسات التى ينبغى أن يهتم بها المدرس . وهذه الفكرة ترجع إلى برتراند راسل الذى طبقها فى مدرسته الخاصة منذ خمسين سنة تقريباً . فلا اختلاف فى نظره بين ما يحدث داخل العقل عند التعرف إلى موضوع جديد ، وبين ما يحدث داخل عقل عالم كبير يكتشف شيئاً جديداً .

وكما يقوم المدرس بإرشاد تلميذه يقوم العالم بالتشاور مع أقرانه وكلاهما يدون ملاحظات وكلاهما يعتمد على نفسه ، لأن أهم غاية ينبغى أن يتركز عليها التعليم إنما هى تعريف الطلاب دورهم الإيجابى فى المعرفة ، وأن مرحلة الدراسة مرحلة عابرة لن تستغرق إلا سنوات معدودة من حياتهم الحافلة ، بعدها يواجهون الحياة ، ويقومون بتعليم أنفسهم بأنفسهم . ومالم يكتسبوا هذه الخبرة فى أثناء الدراسة — فإنهم سيكتفون بحفظ ما يلقنون عن ظهر قلب ، ثم ينسونه غداة انتهاء الامتحان ، أوتبقى منه بعض شوائب ضررها أكبر من نفعها ، وكأنهم وسطاء التنويم المغناطيسى الذين يلقنون بعض تعليمات تتبع بكل دقة فى أثناء جلسة التنويم إلى أن يأمر المنوم بالعودة إلى الحالة الطبيعية .

هذا النوع من المعلمين ضرورى لنجاح المدرسة الشاملة ، ومن المؤسف أننا لا نستطيع أن نعوضه فى حالة العجز بآخرين من القوى العاملة ، لأنه يؤهل تأهيلاً

خاصاً ييسر له اتباع التقنيات التربوية الحديثة التي شاعت نتيجة لتغير معرفتنا السيكلوجية بعقلية الطفل ، وعملية التعلم ، ونتيجة لتفجر المعرفة ، وما استجد من موضوعات جديدة ، واتساع فى أبعاد المعرفة قد غير ملامحها حتى أصبحت توحى بانقطاع صلتها بالمعرفة التقليدية التى دامت دهوراً طويلة .

وعملية تجميع المعرفة ، وتنسيقها ، فن يتميز به عباقرة الطلبة وحدهم . أما الآن فقد أصبح علماً يستطاع دراسته . والكتاب المدرسى هو أول نموذج يُعرف التلميذ طريقة تسلسل المعرفة ، وتنسيقها ، ولكنه ليس الوسيلة الفريدة للتعليم ، كما كانت الحال فى الماضى . وتبدو هذه الظاهرة فى تطور تعليم اللغات : فاليوم لم يعد هناك من يتصور أن التبكير فى تعلم اللغة الأجنبية يسىء إلى اللغة القومية ، أو يضيع هباء . فالآن عندما يعلمون اللغة الفرنسية مثلاً يحيطون الطفل بجو فرنسى شامل يتحدث فيه المدرس باللغة الفرنسية وحدها . وتوضع (لوحات) تعليمية كل ما عليها مكتوب باللغة الفرنسية ، ويوحى للأطفال بأنهم مطالبون فى أثناء الدرس تقمص شخصية أطفال فرنسيين ، ولا يكتفى بالكتب ، بل تعرض أفلام سينمائية وتلفزيونية فرنسية ، ويستمع إلى إذاعات فرنسية ، وبعد أن يتمكنوا من التجرؤ على نطق الفرنسية يسمح لهم بقراءة اللغة ، وكتابتها . والمسجلات محببة جداً للأطفال والكبار على السواء ، تساعدهم على استعادة ما سمعوه ومحاكاة من يتحدثون بالفرنسية ، ومقابلة طريقة نطقهم بطريقة نطق الآخرين .

وفى التعليم التقليدى — كانت المدرسة تقسم إلى فصول متساوية المساحة (٥,٥×٨,٥ متر) مع تخصيص حجرة أو أكثر لمعمل العلوم ، وأخرى للمكتبة ، أما الآن فقد تغير كل شىء ، وأصبحت المدرسة تضم فصولاً متفاوتة المساحةِ ، لأن بعض الدروس يدرس سينمائيا ، أو تليفزيونيا . وقد يلتقى فى درس ما طلاب من

فصول وأعمار مختلفة فى مكان واحد . وهناك دروس أخرى لا داعى لوجود مدرس بها يترك فيها التلميذ لكى يعتمد على نفسه . وانتشرت فكرة تعاون المدرسين فى صورة فريق . فقد يكون أحد المدرسين موهوباً فى تدريس بعض ألغاز الرياضة الحديثة أو النحو ، ولا مانع إطلاقا من أن يتولى هذه المهمة نيابة عن زملائه . وقد يكون آخر ذواقة للأدب والفن ، ومن المصلحة أن يتولى مهمة عرض الموضوعات الأدبية أو الفنية . وقد ينكمش حجم الفصل ، وبخاصة فى حالة المتخلفين بحيث يصبح أقرب إلى صورة الدرس المخصوص . ولا يتقيد حينئذ بعدد الساعات المذكورة فى المنهج ، فالمهم هو أن يتساوى التلاميذ فى التحصيل فى نهاية المطاف . وقد تتشابه أحيانا صورة المدرسة الشاملة وصورة مطروقة لنا جميعاً فى مصر ، وفى البلاد العربية ، إنها صورة نظام التعليم القديم فى الأزهر الذى كان يعتمد على ثبات مكانة الأستاذ وتنقل الطلاب بين أماكن الأساتذة ، وبذلك يتدربون على ملاحقة البحث عن المعرفة لا مجرد تلقى المعرفة .

وقصارى القول إن المنهج قد أصبح يوزع فى المدرسة الشاملة وفقاً لمواهب المدرسين واستعدادهم . فهناك مدرسون يحسنون التعامل مع المجموعات الصغيرة ، وآخرون محاضرون بالفطرة ، يتقنون مخاطبة الجموع . وهناك اختلاف آخر بين المدرس المحنك ، والحديث التجربة ، ولكل المجال الذى يناسبه . والمهم هو أن يشعر المعلم أنه يعلم ويتعلم فى الوقت نفسه .

ومن المشكلات التى نجحت التقنية الحديثة فى حلها مشكلة الجمع بين التعلم المشترك لجماعات كبيرة مع عدم إغفال الفروق الفردية ، وساعد على حل هذه المشكلة المعمل اللغوى الذى لم يعد مقصوراً على تدريس اللغات بعد أن اتضح أن معظم المعارف يستطاع تقديمها فى هذا المعمل . وللتليفزيون فائدة أكبر ، وبخاصة

فى المواد التى قد يستحيل فيها الحصول على مدرسين ممتازين ؛ ومدرس التليفزيون يختار عادة بعناية ، وليس من ناحية وجهه الفوتوجنيك فحسب ، ويختار دروسه بطريقة نموذجية ، وتعد بعناية قد لا تتوافر لأى مدرس بمفرده . كل هذه الوسائل لا تعنى الاستغناء عن المدرس ، ولكنها تعنى تغير دوره : فقد ازداد عدد المدرسين فى العالم بعد الطفرة الكبرى حتى قيل : إن ثلث خريجى الجامعات أو ربما نصفهم يشتغلون بالتدريس الآن .

وقبل أن تنتهى من الكلام عن المعلم فى المدرسة الشاملة يجب ألا ننسى دوره فى إذابة فوارق المجتمع وتحريره من الطبقية المرذولة . وهى مهمة صعبة لم تنجح – فى ظل التعلم التقليدى – الاشتراكية والديمقراطية حتى فى إنجلترا فى التغلب عليها . والآن قد جاء دور التعليم الشامل ، أمل جميع الدول لتحقيق هذه الغاية التى دعا إليها المفكرون من قديم العصور ، ولكن دعوتهم تعثرت ، أو تحققت فى بعض جوانب ظاهرية كالتصويت فى الانتخابات ، أو إلغاء الألقاب ، ولكنها بقيت متغلغلة فى ضمائرهم وأرواحهم ومشاعرهم بتأثير ازدواج أنظمة التعليم ، أو اقتصار نوعه الجاد على أبناء الأثرياء . هنا تكمن أكبر صعوبات المدرسة الشاملة ، لأننا نتطلع إلى مهمة تكاد تكون مستحيلة أثارت عداء حزبياً فى بعض البلدان المتقدمة .

ومع هذا فإن العلماء لم يشعروا باليأس ؛ فهم يثقون فى قدرة التعليم على إذابة الفوارق ، وتحقيق المستحيلات ، ألم يكن التعليم الشامل هو صاحب الفضل الأول فى خلق دولة واحدة فى أمريكا من أشتات المهاجرين من مختلف دول أوربا ، بل من أفريقيا وآسيا ؟ وبذلك تحطمت معتقدات فلاسفة السياسة الذين ظنوا أن أهم شرط لظهور الدولة هو الوحدة الجغرافية ووحدة الأصل والعِرْق ؛ وإذا بالولايات المتحدة تكسر هذا الشرط ، وتخلق دولة من نوع جديد بفضل التعليم . ويقال

صفر ٨ ١٦ ٢٤ ٣٢ ٤٠ ٤٨ ٥٦ ٦٤ ٧٢ ٨٠

الأرجنتين
استراليا
برازيل
كندا
تشيكوسلوفاكيا
مصر
فرنسا
المانيا
الهند
اليابان
هولندا
أسبانيا
السويد
المملكة المتحده
أمريكا
روسيا

عناوين الكتب الجديدة (بالألف)

صفر ١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ ٧٠ ٨٠ ٩٠ ١٠٠٪

الأرجنتين
استراليا
برازيل
كندا
الصين
تشيكوسلوفاكيا
مصر
فرنسا
ألمانيا
غانا
الهند
يابان
هولندا
اسبانيا
السويد
المملكة المتحدة
أمريكا
روسيا

نسبة الكميات المباعة من الصحف

الشيء نفسه عن الاتحاد السوفييتي الذى اقتدى بأمريكا : فهو أيضا يتألف من قوميات متعددة تتحدث بعشرات اللغات . ومع هذا فقد نجح « التعليم الشامل » فى لم شمل هذه العناصر البعيدة عن التجانس .

وأول مشكلة ستواجه معلم المدرسة الشاملة إنما هى الرواسب الطبقية البغيضة التى أحسن المهندس سعودى المدير العام للتعليم الصناعى فى التعبير عنها فى حديث مع مجلة أكتوبر عن مشكلة العمالة الفنية ونسبها إلى التقاليد اللعينة التى تنطر إلى التعليم الثانوى العام على أنه التعليم الأسمى الذى يؤهل للجامعة والوظائف العليا ، والتى دفعت أصحاب الخبرات التقنية إلى عشق العمل المكتبى وكراهية العمل اليدوى ! .

المهم أن هناك حقائق واضحة فى مجتمعنا وغيره قد خلقت تبايناً فى العادات والأمزجة بين المتعلمين من مختلف نوعيات المدارس ، ولا تحل هذه المشكلات بتحسن الوضع المالى أو بتغيير عنوان السكن أو بحمل الحقيبة السمسونيت ، فهناك بالفعل حواجز اجتماعية فى حاجة إلى إزالة بالصقل والتهذيب والتثقيف .

وعندما تتزايد عندنا المدارس الشاملة التى تضم نوعى التعليم المعروفين – سينهض المدرس بدور اجتماعى خطير ، وهو غرس القيم السلوكية الصحيحة ، والقيام بالدور التربوى الهام الذى كان موكولاً للأسرة فيما مضى . فنحن إذا حللنا أسباب التنافر الاجتماعى فسنرى أنها ترجع إلى عادات مستهجنة فى طريقة الحديث وسوء اختيار الكلمات أو بعض عادات الذوق الفنى والجمالى ، كسوء اختيار لون الثياب أو أخطاء الإيتكيت أو الشمائل [1] ولا يرجع التنافر كما يتوهم بعضٌ إلى اختلاف درجات الثراء أو اختلاف الأصل أو المنبت ، فكم هناك من زيجات

(١) وأراها أنسب مرادف عربى لكلمة Manners الإنجليزية .

ناجحة قد حالفها التوفيق بفضل وحدة الثقافة والعادات السلوكية المشتركة ! فمن حق الجميع أن يرتفعوا ويتعلموا ويصححوا وضعهم الاجتماعي عن طريق التعليم ؛ فهذا الطريق أشرف بكثير من كل الطرق التسلقية غير المشروعة التي تحدث عنها علماء الاجتماع . من هنا ينبغي على المسئولين عن المدرسة الشاملة المعاونة في رفع المستوى الاجتماعي بتربية السلوك وخلق العادات الاجتماعية البناءة ، واستبعاد العادات القبيحة التي تصعب تفاعل المجتمع ، وتذويب الفوارق .

ولا ريب أننا نحتاج إلى جهود طائلة لتكوين المدرسين المناسبين الذين تتوافر لهم هذه الشروط ، ولتحقيق هذه الغاية التي تتطلب قدراً كبيراً من التحمل والصبر وسعة الأفق ، ولابد أن تسبق هذه المرحلة مرحلة أهم ، وهي خلق التجانس الاجتماعي والثقافي بين المدرسين الذين يمثلون حاليًّا تخصصات متنوعة ، هي حاليًّا بعيدة عن التجانس . ومادامت رسالة المدرسة الشاملة هي تكوين الطالب الذي يعلم أو يثقف نفسه بنفسه ، فلابد أن يكون مدرسه نموذجاً وقدوة . وحاليًّا لا نستطيع أن ندعي أن الثقافة منتشرة بين مدرسينا ، والرسم الإيضاحي المقابل يبين انخفاض عدد الصحف التي تنشر في بلادنا وقد اشتهرنا حتى بين البلاد العربية بأننا شعب لا يحب القراءة برغم أننا علمنا معظم هذه البلاد القراءة والكتابة ، والثقافة كما رأينا هي أهم عنصر في توحيد الشعوب ، والقضاء على كل تنافر .

أخيرا فإنني لا أرى داعياً للتشاؤم أو التحدث عن الحالات الكريهة التي قد تحدث إذا لم يتحقق التجانس . وعلينا ألا نلقي اللوم حينئذ على فكرة المدرسة الشاملة ، بل فلنلقه على عدم توافر المقومات الضرورية التي ينبغي أن تكتمل للإقدام على مثل هذه الخطوة الضرورية الجريئة ، ولدينا أمثلة جديرة بالاقتداء .

٦ – خاتمة

انتقلنا من عصر الملايين إلى عصر البلايين : فقد اقترب عدد سكان العالم من البليون الخامس ، وموازنات الدول تحسب حاليًّا بالبلايين بعد أن كانت لا تتجاوز ملايين قبل الحرب العالمية الثانية .

هذا التحول قد أحدث طفرة أكبر ، غيرت ملامح العالم ، فاختفت منه الأنظمة التقليدية ، والدبلوماسية التقليدية ، والحروب التقليدية . ولم تعد المشكلات تحل بالقطاعى ، بل يراعى صداها العالمى . حتى أغذيتنا التقليدية أصبحت مهددة بالانقراض . فنحن نكتشف البحار والفضاء بحثاً عن غذاء لكل فم . ولم تعد الشجيرات والدواب التقليدية قادرة على تكييف نفسها لكى تتجاوب هى والانفجار السكانى .

فى هذا العالم العجيب القلب – اتضح أن أنسب صيغة مناسبة من التعليم إنما

هى صيغة التعليم الشامل . وكلمة « شامل »[1] هى الأخرى من مصطلحات الطفرة الكبرى ابتداء من « الحرب الشاملة » التى طورت الحرب وحولتها من فروسية أفراد ، إلى مجابهة دول وإبادة بالجملة . أى إبادة شاملة . إلى النظم « الشمولية » التى تقحم نفسها فى كل خصوصيات الفرد ، ولا تعترف به إلا كشذرة صغيرة تخدم أغراضها ، إلى العيادة الشاملة التى يفحص فيها جسم المريض فحصاً شاملاً وتكشف علة مفاصله فى تسوس أسنانه ، وطرشه فى أمعائه وطحاله ، إلى المسرح الشامل الذى يزود الفرد بجملة فنون فى فن واحد شامل ، فلم يعد الوقت يسمح بالاستمتاع بالتمثيلية وحدها والموسيقى وحدها ، والرقص وحده لذا أدمجت كل هذه الفنون ، مادامت كلها تسعى لتحقيق غاية واحدة وهى الفرفشة والمتعة .

وقد تكون هذه الصورة كريهة لمعنى الشمول ، ولكنها فى التعليم لا تخلو من مميزات جمة : فقد صححت صورة التخصص الضيق الذى انتشر فى أعقاب الثورة الصناعية ، والذى أرغم الفرد على الانقطاع لعمل واحد طيلة حياته ، وأدت هذه الحالة إلى عبادة الآلة ، وأكرمت الإنسان فى ظنها عندما حولته إلى « ترس » صغير من آلة ضخمة . وترحم المفكرون على العصور السالفة عندما كان الفرد يشعر بفرديته واكتماله، فهو يصطاد فريسته بنفسه ، ويزرع حقله بنفسه ، ويصنع أدواته بنفسه ، ويطهو طعامه بنفسه ، ويقرض الشعر ويعزف على الربابة ، ويشعر بقدرته على الاكتفاء بذاته . ولم تكن شخصية روبنسون كروزو « هى الشخصية الفريدة التى اكتفت بذاتها . فكل جدودنا كانوا (روبنسون كروزو) عندما يشعرون بالخطر الخارجى ، وبقرب اندلاع حرب ، إذ كانوا يحولون بيوتهم وكهوفهم إلى جزيرة كروزو . وعندما نقرأ هذه الرواية وأمثالها ، أو نسمع عن كتاب ألفوا الموسوعات

(١) أقرب مرادف دارج لهذه الكلمة هى تعبير « بتاع كله » الذى شاع أخيراً .

وحدهم نحنّ إلى شاعرية هذه العصور ، ونلعن عصرنا وآليته وماديته ونلعن الأقزام الذين حلوا محل العمالقة العظام . وفى عالمنا آثار من هذا العالم القديم تثير دهشتنا وإعجابنا . فنحن نعجب عندما نسمع عن طبيب شاعر أو موسيقى أو قاض مصور أو زارع من علماء الاقتصاد . كل هذه المعانى يحاول التعليم الشامل إعادتها للحياة : فهو يسعى إلى إعادة الفرد إلى سابق عهده بتعليمه جملة حرف بدلاً من الحرفة الواحدة ، وبذلك يحل مشكلة التخطيط الاقتصادى الذى عجز عن عمل خطة واحدة توفر عملاً لكل فرد ، وتتنبأ بمستقبله ، وبعمله ، وإنتاجيته ، وهل ستعوض ما يستهلكه ، أو سيكون عبئاً جديداً على الموارد المتخمة ؟ .

ويحل التعليم الشامل المشكلة الاجتماعية والسياسية المترتبة على التفاوت بين الطبقات ، وسيطرة أقلية بتراثها واحتكارها للعلم والتعليم ، أو استبداد الأكثرية المطحونة التى تشعر بالحرمان ، ولا تتردد عن هدم الحضارة ذاتها ، إذا لم تأخذ نصيبها كاملاً من خيرات العالم ! فالتعليم الشامل يعد بالقضاء على كل ازدواجية ، ويخلق وحدة شاملة بين أبنائه ، ويشعر الجميع بالرضا ؛ لأنهم يختارون ما يناسبهم من تعليم ، ولديهم أسلحة تعليمية عدة يواجهون بها المصير المجهول .

وسيرضى التعليم الشامل رجال الصناعة والزراعة ؛ لأنهم لن يبدءوا عملهم بعملية غسيل أمخاخ عمالهم حتى يألفوا منظر معداتهم الإلكترونية التى قد تصبح موضة قديمة عند نشر هذا الكتاب ، فسيزودهم هذا التعليم بمستويات فنية تسد حاجتهم .

ويحل التعليم الشامل مشكلة الثقافة ، وإحجام المصريين عن القراءة الجادة ، وأزمات النشر ، واختفاء المجلات الأدبية والعلمية ، وتخلفنا فى عالمى التأليف والترجمة ، لأنه سيعلم الفرد كيف يعلم أو يثقف نفسه بنفسه ، وبأن المدرسة مجرد

مرحلة عابرة فى حياته ؟ وبذلك تختفى ازدواجية الفن والأدب والموسيقى التى ترتبت على ازدواجية التعليم ، فيختفى الفن السوقى ، والأدب السوقى ، والموسيقى السوقية ، نتيجة لوحدة الثقافة .

وإذا رضيت كل هذه الأطراف فستنعم وزراة التعليم بالراحة ؛ فهى الآن مسئولة عن كل وزر ، عن كل شعور بالضياع وخيبة الأمل ، عن الجهل والفقر والمرض . مسئولة عن أخطاء المستويات كافة . فكل هؤلاء كانوا تلاميذ عندها ، وكان من واجبها أن تهيئهم لمستقبلهم المرتقب . وترتاح التربية والتعليم من مشكلة الثانوية العامة وعنق الزجاجة ، لأنها ستعطي الفرد فرصة الانتهاء من التعليم النظامى عندما يشعر أنه أصبح قادراً على الاكتفاء بهذا القسط من التعليم النظامى ، وقادراً على تعليم نفسه بنفسه ؛ وبذلك يتضاءل الإقبال على الجامعة ، فيستريح محبو العلم ، ويسخط المتفعون بالتخمة الجامعية التى كانت تعنى عندهم مزيداً من التصحيح لأوراق الإجابة والمكافآت ومزيداً من الكتب الجامعية التى تؤلف فى أيام ، وتوزع بالآلاف وتباع فى السوق السوداء فى أمسيات الامتحان !

ومن الناحية القومية فإن مصر تعتز ، لأنها قد عرفت شكل التعليم الشامل حتى وقت قريب ، عرفته فى الكتاتيب وأعمدة الأزهر . وكل ما تغير هو المضمون وإذا اكتفينا بمضمون الأزهر القديم فسنحتاج إلى تطوير كبير حتى تتحقق النقلة من ألفية ابن مالك إلى الإلكترون .

رقم الإيداع	١٩٧٨/٤٩٠٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٥١١ – ١

١/٧٨/٢١٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



اقرأ

ظواهر التمرد الفنى فى الشعر المعاصر



اقرأ

تصدر أول كل شهر

[٤٤٢] ديسمبر – ١٩٧٨

رئيس التحرير

دكتور محمد أحمد العزب

ظواهر التمرد الفنى
فى الشعر المعاصر



الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . م . ع .

مَدْخل

إذا كان التمرد فى الشعر العربى المعاصر يشكّل ظاهرة أوظواهر حقيقية تلوح بارزة على نحو من التجسّد الوجودى – فقد يصبح إلقاء نظرة تاريخية مجملة على إرهاصات ظواهر التمرد فى الشعر العربى القديم والحديث والمعاصر قضية صميمة ، حتى لاتبقى الظاهرة المعاصرة معلقة فى فراغ تاريخى ، وغير قادرة على الجدل والمقارنة مع نظائرها وأضدادها جميعا .

إن التسلسل التاريخى فى النظر إلى هذه القضية ، مهما كانت ظواهر التمرد فى القديم مفرقة أومسطّحة أوعابرة – يعطى كلاً من القديم والمعاصر حجمه الحقيقى ، ويتيح للنظر النقدىّ أن يستبطن حقائق الأشياء ، وأن يقيم مقارناته على واقعٍ تاريخىٍّ متعادلٍ ، وليس على احتواء جانب وإهدار جانب آخر ، ويؤكد فى النهاية أن ظواهر التمرد المعاصرة فِعْلٌ فنىّ حقيقى ومشروع مهّدت له إرهاصات كثيرة إنْ لم

تستطع أن تفرض حلولها الكامل فقد أعطت الحركة الفنية المعاصرة مبرر قيامها بهذا الفعل وهذا الحلول .

١

وقد بدأ الشعر الجاهلي يرسي تقاليده الفنية من خلال نماذجه الرائعة ، واستجاب تماما في إرسائه لهذه التقاليد إلى روح الطبيعة البيئية والفكرية والحضارية ، فقلب طرفه في الصحراء المترامية ، وفيما تموج به هذه الصحراء من حياة وأحياء ، وفيما يربط بين أحيائها من علاقات ومواضعات وقد تناول كل هذه الجوانب بغير قليل من الاحتفاء الشكلي الذي برز في فحولة الأسلوب ، وصلابة الصياغة ، ووحدة البيت ، وتوحيد القافية ، والابتداء بذكر الأطلال ، وبكاء الأحباب ، ووصف الرحلة ، والناقة ، والصحراء ، ليخلص من كل أولئك إلى موضوعه الأساسي ، ولعله يختم قصيدته في النهاية بمجموعة من الحكم ، أولعله يشيع هذه الحكم في تضاعيف قصيدته منتزعا مفردات الحكمة من مجموع التجارب والمشاهدات التي يعيشها الجاهلي في صحرائه هذا النوع من الحياة[1] .

(١) العصر الجاهلي يبتدئ من قبل ظهور التاريخ إلى ظهور الإسلام . ويشمل العصر القديم أو الجاهلية الأولى (من قبل التاريخ إلى القرن الخامس للميلاد) – والعصر الجاهلي قبل الإسلام أو الجاهلية الثانية (من القرن الخامس للميلاد إلى ظهور الإسلام سنة ٦٢٢ م) – ومن شعرائه : المهلهل التغلبي ، وامرؤ القيس . والنابغة الذبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، وعنترة العبسي ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة بن العبد ، وأعشى قيس والحارث بن حلزة . ولبيد بن ربيعة ، وأمية بن أبي الصلت ، وعامر بن الطفيل ، والشنفرى ، وعروة بن الورد العبسي .

ولكن الحركة الشعرية الجاهلية لم تمض على هذا النحو الوادع فى إرساء تقاليدها الفنية ، وتثبيت دعائم هذه التقاليد ، وإنما اعترضتها أول حركة تمرد فى الشعر العربى متمثلة فى شعر الصعاليك الذين شقوا عصا الطاعة وخرجوا على الإجماع الشعرى ، وإن ظلت لغتهم هى لغة الشعر الجاهلى باستثناء قليل من الدماثة اللغوية التى اصطنعها بعضهم اصطناعا ليدنو بها من روح الجماهير التى يريد تحريكها فى اتجاه الغضب الاجتماعى على وضعية الفوارق الباهظة . .

لقد ظلت لغة الشعر الجاهلى سائدة فى شعر الصعاليك من حيث معجمها الشعرى ونسقها العروضى . ولكنها لم تستطع أن تواجه تمرد هذا الشعر على تمديد القصيدة من خلال شعر المقطوعات ، وانقلابه على تعدد الأغراض من خلال شعر الوحدة الموضوعية ، وثورته على المقدمات الطَّلَلِيَّة من خلال مواجهته لموضوعه المراد ، وغضبه على الروح القبلية من خلال تعاطفه مع الطبقة الكادحة التى هو واحد منها ، ورفضه لتفتت البناء من خلال القص الذى يكون الشىء فيه مبنيا على شىء[1] .

ومن الحق أن نقول : إن تمرد شعر الصعاليك كان فى المقام الأول تمردا على مضمون الشعر الجاهلى ، (وكما تحلل هؤلاء الصعاليك من «العقد الاجتماعى» بينهم وبين قبائلهم تحلل شعراؤهم من العقد الفنى الذى تعارف عليه شعراء القبائل ، وألغوا من شعرهم الشخصية القبلية التى كانت تذوب فيها شخصيات شعراء القبائل ، فلم يعد تعبيرا عن قبائلهم ولاصحيفة لحياتها ، وإنما أصبح تعبيرا عن شخصياتهم الفردية ، وصحيفة لأحوالهم لايشاركهم فيها غيرهم ، وسجلا لحياتهم المتمردة الثائرة بكل ماتنطوى عليه من خير وشر ، وكل مايدور فيها من

(١) انظر . الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى — للدكتور يوسف خليف .

بطولة ومغامرة وصراع من أجل الحياة ، وتصويرا لمواقف الاضطهاد والعنصرية التى وقفها منهم مجتمعهم ، وإعلانا لفلسفتهم الاجتماعية والاقتصادية ، فجاء شعرهم صورة جديدة وطريقة فى الشعر الجاهلى ، بل فى الشعر العربى كله على مر عصوره واختلاف بيئاته)[1] .

(ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات :

مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدى وقيس بن الحدادية وأبى الطمحان القينى .

ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السليك بن السلكة ، وتأبط شرا ، والشنفرى ، وكانوا يشركون أمهاتهم فى سوادهم ، فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب .

ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولاأبناء الإماء الحبشيات ، غير أنها احترفت الصعلكة احترافا ، وحينئذ قد تكون أفراداً مثل عروة بن الورد العبسى ، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتى هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالى . وتتردد فى أشعارهم جميعا صيحات الفقر والجوع ، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء[2]) .

وهكذا بزغت أول حركة تمرد فنى فى شعر هؤلاء الشعراء الصعاليك .

(١) د . يوسف خليف – حركات التجديد فى الأدب العربى – (بالاشتراك) – ص ٢٨ .

(٢) د . شوقى ضيف – العصر الجاهلى – ص ٣٧٥ .

٢

وفى عصر صدر الإسلام[1] يمكن أن نمر مرورا عابرا ، لأن هذا العصر لم يشهد ظاهرة من ظواهر التمرد فى الشعر العربى ، وإنما كان كل مافيه استجابة لواقع جديد هو الإسلام وبديهى أن الشعر فى هذه المرحلة لم يتمرد للحركة الإسلامية قبل أن تجيء ولم يستطع أن يتمرد عليها بعد أن جاءت ، مما يؤكد أنه اكتفى تماما بأن يكون صدى لما يحدث أوتعبيرا عما يجيء وكل مافيه لايتجاوز أن يكون احتواء مضمون عقائدى أهدته إليه الحركة الإسلامية فى زحفها الغلاب ، مما يميل به إلى جانب التجديد إذا شئنا وليس إلى جانب التمرد .

وعلى النقيضَ من شعر الصعاليك لم يكن صدى لواقع خارجى ، ولم يكن تعبيرا عن حركة الاجتماع الجاهلى ، ولم ينتظر أن يُهدى إليه الواقع التاريخى مضمونا يتمرد به على المضامين المعاصرة ، ولكنه رفض واقعه الخارجى. وانشق على حركة الإجماع الرتيبة ، وتمرد على مضمون الحياة المعاصرة له استشراقاً إلى مضمون جديد . . وهذا هو الفرق بين التمرد والتجديد .

ولقد حاول بعض الباحثين أن ينقب فى هذا العصر عن نتوءات شعرية يمكن أن تستوقف الحركة النقدية ، ولكنه لم يوفق إلا فى إضفاء نوع من القداسة الدينية على حركة الشعراء المخضرمين الذين أدركهم هذا العصر ، فتنفسوا هواءه الجديد ، وعاشوا تحت شرفاته قائلين ومناضلين ، (فقد أتم الله على هؤلاء الشعراء نعمة

---

(١) عصر صدر الإسلام يبتدئ من ظهور الإسلام حتى قيام الدولة الأموية سنة (٤١ هـ) ومن أبرز شعرائه : حسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، ولبيد ، والحطيئة ، والنابغة الجعدى .

الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم فى صفوف المجاهدين فى سبيل الله داخل الجزيرة العربية ، وفى الفتوح ، وهم فى ذلك كله يستلهمون الإسلام ، ويعيشون له ، ويعيشون به ، يريدون أن ينشروا نوره فى أطباق الأرض ، وقد مضوا يصدرون عنه فى أشعارهم صدور الشذا عن الأزهار الأرجة)[1] . هذا هو ماقاله الدكتور شوقى ضيف ، وهو قول يضفى على هؤلاء الشعراء نوعا من البطولة الدينية نحن لاننكرها ولانستطيع أن ننكرها . ولكن سلوك هؤلاء شىء وشعرهم شىء آخر ونحن هنا ملقون بأسماعنا للشعر لالتراجم الرجال .

٣

وفى العصر الأموى[2] — لاحت بوادر التمرد الشعرى ، وإن جنح سائر الشعر الى التردد بين التقليد والتجديد ، فإذا كان من الحق أن شعراء هذا العصر جعلوا من المدح ، امتدادا للمدح القديم ، ومن النقائض امتدادا للهجاء الجاهلى

---

(١) د . شوقى ضيف — العصر الإسلامى — ص ٥ .

(٢) العصر الأموى يبتدئ من قيام الدولة الأموية سنة (٤١ هـ) إلى سنة (١٣٢ هـ) سنة قيام الدولة العباسية . ويقسمه مؤرخو الأدب إلى أطوار :

الطور الأول من قيام الدولة الأموية سنة ٤١ هـ إلى ذهاب معاوية بخلافة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ .

والطور الثانى من خلافة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ إلى خلافة يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ . وخلفاء هذا الطور مروان وابنه عبد الملك فالوليد فسليمان فعمر بن عبد العزيز .

والطور الثالث من ولاية يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ إلى انقضاء الدولة الأموية سنة =

والإسلامى ، ومن شعر العصبيات امتداداً لشعر الفخر بالأصول – فإن من الحق أيضا أن شعر الغزل قد عطف بالشعر ناحية الدماثة اللغوية والقصّ الشعرى وصوغ المضامين الرهيفة فى مقطوعات . وكل هذه الجوانب هى إلى التجديد أقرب منها إلى التمرد . وربما لانستثنى من ذلك حتى الغزل اللاهى الذى مارسه أمثال عمر بن أبى ربيعة والأحوص والعرجى ، لأنه انحناء على لذاذات الذات وليس تمردا القيمة من القيم . ونحن نعرف أن التمرد ينطلق أساسا من الإحساس بالتزام قيمة أو قضية ، أما هؤلاء الشعراء الغزلون فماذا كانت قضيتهم ؟ لقد كان يمكن لهم أن يكونوا متمردين بهذا الشعر الغزلى لو أنهم وجهوه أساسا لفضح وضعية اجتماعية جائرة ، أو رفض وضعية اجتماعية جائرة ، ولكنهم تناولوا هذا اللون الشعرى من وجهة انهزامية بحتة أوتكاد . فاكتفوا فيه على لذاذاتهم الذاتية وأشبعوا حسهم الجنسى تصويرا وتضخيما وماهكذا يكون التمرد .

غير أن هناك لونا من التمرد السياسى ظهر فى هذا العصر من خلال شعراء الشيعة الموالين لعلى ، والخوارج الذين رفضوا فكرة الخلافة فى بيت أوطائفة ، وناهضوا فى ذلك الأمويين الذين نظروا إليهم على أنهم اغتصبوها اغتصابا وأحالوها إلى ملك عضوض ، وكذلك من خلال الشعراء الزبيريين الذين ناصروا عبد الله بن الزبير .

وغير خاف أن الخوارج من بين هؤلاء هم وجه التمرد الواضح والصحيح فى هذا العصر ، لأنهم كانوا يمثلون انشقاقا وانقلابا على الإجماع السائد .

أما الشيعة والزبيريون فقد كانت نظرتهم السياسية إلى الخلافة سلفية محضة فبينما

= ١٣٢هـ . ومن خلفاء هذا الطور : يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد بن يزيد . ومن شعرائه البارزين : عمر بن أبى ربيعة ، والأخطل ، والفرزدق ، وجرير ، والكميت ، وعبد الله بن قيس الرقيات ، وعمران بن حطان ، وقطرى بن الفجاءة ، والطرماح .

ينادى الشيعة بانحصار الخلافة أو وجوب انحصارها فى آل البيت — نادى الزبيريون فى انحصارها أو وجوب انحصارها فى قريش وهذا من الوجهة السياسية الإسلامية مرفوض المبدأ وإن كان مبررا من وجهة النظر التى ناطت دعوتها فى هذا الصدد برجال معينين .

(ولكل فرقة من هذه الفرق فى شعرها طوابع تميزة فبينما يتميز مثلا شعر الخوارج بتصوير استبسالهم فى الحروب وتهافتهم على حياض الموت مستصغرين الدنيا ومتاعها الزائل ، نرى شعر الشيعة يتميز بكثرة ماذرفوا على أئمتهم المستشهدين من دموع غزار ، مطالبين برد السلطان إلى أصحابه الشرعيين)[1] .

وهكذا يلوح واضحا أن هؤلاء الشعراء قد استحدثوا فكرة الالتزام السياسى ، وناضلوا تحت رايتها ، وأن شعرهم فى إطار هذه الفكرة قد تميز بالوحدة الموضوعية ، والجدل العقلى وجريانه على سنن المقطوعة أكثر من جريانه على سنن المطولة .

قد يكون التجديد فى شعر هذا العصر مختلطا إلى مدى ما بالتمرد ، ولكننا مع ذلك لانستطيع أن نغفل ملاحظة هذه الانتفاضة السياسية الماردة مهما خالطت غيرها أو تشابكت تخومها وتخوم أخرى بلاحدود .

---

(١) د . شوقى ضيف — العصر الإسلامى — ص ٦ .

٤

وفى العصر العباسى[1] بدأت قلاقل التمرد تتواتر على الشعر العربى : فنى الطور الأول منه أخذ الشعراء ينقضون على الطريقة الجاهلية ، وإن كانوا قد ارتطموا وصخور التقليد الرهيبة الجاثمة ، (لكنهم حاولوا الخروج من تلك القيود على الأقل من العصر العباسى الأول ، عصر حرية القول ، وأصبح حديث الشعراء فى مجلسهم انتقاد تلك الطريقة ، وأقدم ما بلغنا من هذا القبيل اجتماع مطيع بن إياس بفتًى من أهل الكوفة ، ففاوضه بشأن ذلك ، فقال :

---

(١) العصر العباسى يبتدئ من ظهور الدولة العباسية سنة (١٣٢ هـ) إلى سنة (٦٥٦ هـ) ويقسمه مؤرخو الأدب إلى عصور :

العصر العباسى الأول من قيام الدولة سنة ١٣٢ هـ إلى أول خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ هـ .

والعصر العباسى الثانى من خلافة المتوكل سنة ٢٣٢هـ إلى استقرار الدولة البويهية فى بغداد سنة ٣٣٤ هـ .

والعصر العباسى الثالث من استقرار الدولة البويهية سنة ٣٣٤ هـ إلى دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ .

والعصر العباسى الرابع من دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ إلى سقوطها فى أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ .

ومن أبرز شعراء هذا العصر العباسى : بشار بن برد ، وأبو العتاهية ، وأبو نواس ، وأبو تمام ، ومسلم بن الوليد ، وابن الرومى ، وابن المعتز ، والبحترى ، والمتنبى ، وأبو فراس ، والشريف الرضى ، وابن هانئ الأندلسى ، وأبو العلاء المعرى ، وابن خفاجة الأندلسى ، وابن زيدون ، والطغرائى ، والبهاء زهير ، وابن الفارض .

لأحسن من بيدٍ يحارُ بها القطا ومن جبليْ طيّ ووصفكما سلْعا

تلاحَظُ عينيْ عاشقين ، كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى[1]

وكان ذلك لسان حال أكثر الشعراء وإن لم ينظمره ، ومن جاهر به منهم أبونواس ومن أقواله التي يستدل بها على إنكاره طريقة القدماء قوله :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

ومن هذا القبيل قوله :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم[2]

ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر وأخذ عليه ألا يذكرها في شعره وكأنه كلفه الرجوع عنها إلى النظم على طريقة الجاهليين فقال :

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا

دعاني إلى نعت الطلول مسلط تضيق ذراعي أن أرد له أمراً .

فسمعاً أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مركباً وعراً

فجاهر بأن وصفه الأطلال والقفر إنما هو من خشية الإمام ، وإلا فهو عنده فراغ وجهل ، واقتدى به أبو العتاهية ومن جاء بعده[3] .

وهكذا بدأت قلاقل التمرد تثور في وجه التقاليد الفنية التي أرستها حركة الشعر الجاهلي ، وحمل لواء هذا التمرد أكثر من شاعر وأكثر من ناقد كذلك :

(فأما بشار فسَنّ للشعراء أن يزاوجوا مزاوجة دقيقة بين عناصر الشعر التقليدية وعناصره التجديدية ، بحيث يتدافع فيه تيار القديم الموروث دون تعويق لتيار

(١) الأغاني - ١٠٣ جـ ١٢ .

(٢) العمدة ١٥٥ جـ ١ .

(٣) جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الثاني - ص ٤٣ - ٤٤ .

الحديد المستحدث وسيوله الحضارية والاجتماعية والعقلية .

وكان تأثير هذه السيول فى أبى نواس أشد عمقاً وأكثر حدة ، فتعمق فى مذاهب المتكلمين وأسرف على نفسه فى اللهو والمجون .

وعكف أبو العتاهية على الحكمة الفارسية والهندية واليونانية عكوفاً أفضى به إلى تنويع واسع فى أشعار الزهد والمواعظ والأمثال .

وجذب مسلم بن الوليد الشعراء إلى أبنية الشعر المحكمة الشامخة مع التدفق الشديد فى المعانى ، والإكثار من ألوان البديع .

أما أبو تمام فامتزج الشعر عنده والفلسفة امتزاجاً رائعاً بحيث أصبح معرضاً باهراً لطرائف البديع وطرائف المعانى والأخيلة البارعة »(١) .

ولكن أبا نواس لم يكتف – من بين شعراء هذا العصر – بما أسلف من قول مشق على تقاليد الجماعة ، وإنما واصل تمرده حتى اقتحم به أبهاء الظاهرة الميتافيزيقية . ولقد روى له الجرجانى أبياتاً ماردة متمردة فى هذا الصدد . فهو يقول :

أنا مالى وللرباط وللغزو والفدا
لست ممن يطوف فى عرفات ولا منى(٢)

ويقول :

يا عاذلى فى الدهر : ذا الهجرُ لا قدرٌ صح ولا جبْرُ
ما صح عندى من جميع الذى يذكر إلا الموت والقبرُ

(١) د . شوقى ضيف – العصر العباسى الأول – ص ٥ – ٦ .

(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه – ص ٤٦ .

فاشرب على الدهر وأيامه   فإنما يهلكنا الدهرُ[1]

ويقول :

عاذلتى بالسفاه والهجر   استمعى ما أبث من أمرى !
باح لسانى بمضمر السر   وذاك أنى أقول بالدهر
بين رياض السرور لى شيع   كافرة بالحساب والحشر
موقنة بالممات جاحدة   لما رووه من ضغطة القبر
وليس بعد الممات منقلبٌ   وإنما الميت بيضة العقر[2]

ويقول :

أأترك لذة الصهباء نقدا   بما وعدوه من لبن وخمر
حياة ثم موت ثم بعث   حديث خرافة يا أم عمرو[3]

ويقول :

فدع الملام فقد أطعت غوايتى   ونبذت موعظتى وراء جدارى
ورأيت إيثار اللذاذة والهوى   وتمتعا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظُّر آجلٍ   ظنى به رجم من الأخبار
إنى بعاجل ما ترين موكل   وسواه إرجاف من الآثار
ما جاءنا أحد يخبِّر أنه   فى جنة مذ مات أو فى النار[4]

ويعلق القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى على هذه الأبيات بقوله :

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٥٠ .
(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه - ص ٥٠ . وبيضة العقر مثل لما لا يكون .
(٣) المرجع السابق - ص ٥٠ .
(٤) المرجع السابق - ص ٥٠ .

(فلو كانت الديانة عاراً على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر – لوجب أن يمحي اسم أبي نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر ، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعرى وأضرابهما ممن تناول رسول الله ﷺ ، وعاب من أصحابه بكما خرسا ، وبكاء مفحمين ، ولكن الأمرين متباينان ، والدين بمعزل عن الشعر)[1] .

هذا حكم رجل من فضلاء الكتاب والفقهاء[2] على تمرد أبي نواس الشعرى الذى شارف به عوالم الرفض والإنكار ، وهو حكم إن دل على شيء فإنما يدل على أن نقاد الشعر كانوا يستجيبون فى هذا العصر لهواتف التمرد التى تتنادى بها أصوات شعرية من هنا وهناك ، وعلى أن ظاهرة الفصل فى الشعر بين الفن والدين كانت قد أخذت طريقها إلى البروز والتجسد مما لا يجدى معها إنكار منكر أو تجاهل عارف بحقائق الأشياء .

وهنا لا ينبغى أن نغفل ظاهرة شعر التصوف وما أحدثه فى مضمون الشعر وفى شكله اللغوى من تمرد حقيق : ففى المضمون انتقلت القصيدة من الوصف والمدح والهجاء والرثاء إلى السياحة فى عالم العلاقات الروحية والميتافيزيقية ، وفى اللغة تهدم حائط المصطلح القاموسى ، وخرجت الكلمة عن معناها فيه بلا حدود !

ولكن تمرد الشعر فى هذا العصر العباسى على مضمون الشعر التقليدى لم يكن كل مظاهر التمرد ؛ فلقد أحدث تمرداً آخر على الشكل ، بدأ باحثاً منقباً عن أوزان

---

(١) المرجع السابق – ص ٥١ .

(٢) قال ابن خلكان : (كان فقيهاً أديباً شاعراً ، ذكره الشيخ أبو إسحق الشيرازى فى كتاب طبقات الفقهاء) – انظر ترجمته فى الوساطة – ص : هـ .

جديدة وإيقاعات جديدة ليصوغ فيها تجربته الشعرية الجديدة . فوفق إلى بعض من هذه الأوزان وهذه الإيقاعات : كنفوذه إلى وزنى المضارع والمقتضب اللذين سجلهما الخليل بن أحمد حين وضع نظرية العروض[1] ؛ كما اكتشف الشاعر العباسى أيضاً وزن المتدارك أو الخبب (ويقال : إن الخليل لم يسجله فى عروضه ؛ إنما سجله تليمذه الأخفش ، ولكنه إن كان لم يقترح له اسماً فإنه عرفه ونظم منه أشعاراً مختلفة)[2] .

وإلى جانب ذلك شاع فى هذا العصر استعمال عكس البحور ، كالذى فعله عبد الله بن هرون بن السميدع البصرى (ولم يصلنا من شعره سوى قصيدة واحدة احتفظ بها ياقوت فى معجمه وهى فى مديح الحسن بن سهل وزير المأمون ، وأولها :

قرّبوا جمالهم للرحيل غدوة أحبتك الأقربون
خلفوك ثم مضوا مدلجين مفرداً بهمك ما ودعوك

وإذا أنعمنا النظر فيها وجدناها تجرى على وزن من أوزان الخليل المهملة ، هو عكس وزن المنسرح ، فوزنها مفعولات مستفعل فاعلن ، وربما كان أهم شاعر نابه عنى بصنع أشعار على تلك الأوزان المهملة هو أبو العتاهية ، فقد روى له ابن قتيبة قوله[3] :

للمنون دائرات يدرن صرفها هن ينتقيننا واحداً فواحداً

(١) أنظر : العصر العباسى الأول - للدكتور شوقى ضيف - ص ١٩٤ .
(٢) د . شوقى ضيف - العصر العباسى الأول - ص ١٩٤ .
(٣) الشعر والشعراء - ص ٧٦٦ .

وقوله :

عتب ما للخيال خبريني ومالى لا أراه أتانى زائراً مذ ليالى

ووزن البيت الأول فاعلن مستفعلن مرتين فهو عكس البسيط ، بينما وزن البيت الثانى فاعلن فاعلاتن مرتين وهو عكس وزن المديد . والوزنان جميعاً من الأوزان المهملة التى تستنبط من دوائر الخليل)[1] .

ولم ينحصر تمرد الشعراء فى هذا العصر فى مواجهة الأوزان التقليدية وحدها ، وإنما امتد ليشمل مواجهة القافية كذلك . فاستحدث الشعراء ما سموه بالمزدوج والمسمطات . (أما المزدوج فالقافية فيه لا تطرد فى الأبيات بل تختلف من بيت إلى بيت ، بينما تتحد فى الشطرين المتقابلين ، وعادة تنظم من بحر الرجز)[2] .

(والمسمطات قصائد تتألف من أدوار ، وكل دور يتركب من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور فى قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة ، وفى الوقت نفسه يتحد فيها مع الشطور الأخيرة فى الأدوار المختلفة ، ومن أجل ذلك يسمى عمود المسمط ، فهو قطبه الذى يدور عليه ، وإنما سمى مسمطاً من السمط ، وهو قلادة تنظم فيها عدة سلوك تجتمع عند لؤلؤة أو جوهرة كبيرة ، وكذلك كل دور فى المسمط يجتمع مع الأدوار الأخرى فى قافية الشطر الأخير)[3] .

ثم كان التمرد الخطير الذى تمثل فى الموشحة ونظامها . (ويخالف نظام القصيدة التقليدية من وجهين :

(١) د . شوقى ضيف – العصر العباسى الأول – ص ١٩٥ – ١٩٦ .
(٢) المرجع السابق – ص ١٩٦ – ١٩٧ .
(٣) المرجع السابق – ص ١٩٨ – ١٩٩ .

الوجه الأول : أنه يتألف من صوتين أو لحنين .

والوجه الثانى أن كل صوت تجرى فيه شطور متتابعة ، وتتكون أنغام الصوت الأول عادة من شطرين أو من أربعة أو ستة ، وفيها تلتزم قوافى الشطور كلها فى الموشحة ؛ فهى المركز الذى تدور عليه أو الفلك الذى تجرى فيه ، أما الصوت الثانى فيتألف عادة من شطور ثلاثة ، وقد يزيد إلى سبعة ، ولا يلتزم فيه سوى الوزن ، أما القوافى فتختلف من دور إلى دور ، أما فى الدور الواحد فتلتزم بنفس الصورة فى جميع الشطور إن تألفت من شطور وفى الشطور المتقابلة إن تألفت من أبيات ذات شطرين . .

وواضح أن الموشحة تخالف القصيدة : فالوحدة فيها ليست البيت المفرد وإنما القطعة المركبة ، وقد تؤلف من وزن واحد ، وقد تؤلف من وزنين ؛ فلكل صوت أو لحن وزنه الخاص ، وقد تفننوا تفنناً واسعاً فى أشكالها وصورها . واستحدثوا فيها أوزاناً جديدة ولدوها من الأوزان القديمة »[1] .

كما استحدث المشارقة الدوبيت والمواليا[2] .

---

(١) د. شوقى ضيف – فى النقد الأدبى – ص ١٠٤ .

(٢) الدوبيت مأخوذ من الفارسية بدليل اسمه ، وسمى بذلك لأنه ينظم بيتين بيتين (ودو بالفارسية : اثنان) وهو مشهور عند الفرس بالرباعى ، ووزنه : فعلن متفاعلن فعولن فعلن : تقول بعضهم :

قد أقسم من أحبه بالبارى أن يبعث طيفه مع الأسحار
يا نار أشواقى به فاتقدى ليلاً فعساه يهتدى بالنار

أما المواليا فأول من نظمه بعض صنائع البرامكة بعد نكبتهم ، فكانوا ينوحون عليهم به . يكثرون من قولهم : (يا موالى) فعرف بهذا الاسم ، وهو مشهور بين عامة مصر – (تاريخ الأدب العربى – أحمد حسن الزيات – ص ١٦٠ – ١٦١) .

(ونشأ فى أثناء ذلك علم خاص يبحث فى أحوال الكلمات الشعرية سموه علم قرض الشعر، لا من حيث الوزن والقافية، بل من حيث حسن الألفاظ وقبحها للشعر، والجواز والامتناع، ومعايب التركيب، كما عاب الصاحب أبا تمام بقوله:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى وإذا ما لمته لمته وحدى

حيث قابل المدح باللوم، والتكرار فى لفظ أمدحه ولمته. ويعد من قبل النقد الشعرى أيضاً رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى. لأن المتكلم فيها زعم أنه جال فى الجنة وقابل الشعراء وانتقدهم!)[1].

وقد أسهم جانب من النقد المتمرد فى هذه المرحلة إلى حد بعيد فى دفع روح التمرد إلى مزيد من الاشتعال والتأجج؛ لأنه وضع عن الشعر عبء تقديس الماضى بمجرد أنه ماضٍ وحسب، كما أغراهم بالخلود إذ رفض فكرة تقديم القديم لقدمه وأجاز تقديم الجديد إذا كان فى مستوى فنى أعلى من هذا القديم مهما كان عصره وقائله، وهذا هو ابن قتيبة (٢١٣ – ٢٧٦ هـ) يحدد موقفه النقدى على هذا الأساس الصوابى فيقول:

(ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له – سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره. بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين، وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه. فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد لغة الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه فى متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له

(١) جرجى زيدان – تاريخ آداب اللغة العربية – الجزء الثانى – ص ٢٤٣ – ٢٤٤.

عنده إلا أنه قيل فى زمانه أو أنه رأى قائله . ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ! بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً فى عصره ، وكل شرف خارجياً فى أوله ؛ فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين . وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته ! » . ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم ، كذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريم والعتابى والحسن بن هانئ وأشباههم ، فكل من أتى بحسن قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله والا حداثة سنه ؛ كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه »[1] .

وجملة القول فى هذا العصر أنه كان عصر قلاقل فكرية شكل التمرد واحداً من أبرز عناصرها : ففيه اختلط العرب والفرس . وطغت الوفرة على الحياة ، وشاع التحلل المطلق ، والمجون العابث ، وتدفقت أنهار العلوم غير العربية كالطب والمنطق والفلك مما أحدث فى العقل العربى الدينى شيئاً من التشوش والانفلات . فتململ على إيمانه التقليدى ؛ كما ظهرت جماعات متأثرة بفكر المانوية والمزدكية . وجماعة أخرى تشاركها فى القلق العقائدى وتزيد عليها محاولة ضرب كل ما هو عربى . وهى ما عرف فى التاريخ الإسلامى بالشعوبية ؛ كما امتدت الحركة الشعرية لتعبر الشرق إلى الغرب وتتزاوج الثقافة هنا وهناك . فيحدث من هذا المزيج انقلاب فى الشكل العروضى للقصيدة العباسية يضارع بل يسبق الانقلاب فى المضمون ، وإن ظلت اللغة الشعرية وحدها – إلا نادراً – تميل إلى لون من

---

(١) الشعر والشعراء – المقدمة .

الفحولة البدوية ، والتعاظل الجاهلي بلا مبرر مقبول .

٥

ومرّ الشعر العربيّ بعصور الانطفاء الشعريّ : العصر المغولي (٦٥٦ هـ - ٩٢٣ هـ) ، والعصر العثماني (٩٢٣ - ١٢١٣ هـ) ، والعصر الحديث (١٧٩٨ م) بلا نتوءاتٍ شعرية بارزة تضع التمرد على مستوى القاعدة ، أو حتى على مستوى الشذوذ إذا استثنينا ظاهرة البند العراقيّ ، مما يجعلنا نعبر هذه العصور لنواجه (المعاصرة) التي أعطت التمرد إمكان أن يكون تمرداً حقيقياً يمتلك ملامح الظاهرة في نشوئها وارتقائها وتكاملها النظري . وهذه المعاصرة تبدأ – فيما ترى هذه الدراسة - مع مطالع القرن العشرين . . وسنرى إلى أيّ مدًى شكّلت هذه المرحلة ظواهر التمرد الشعري : في الشكل ، والمضمون ، واللغة ؟ وكيف فتحت بذلك للشعر العربي المعاصر طريقه إلى حدل الوجود الحضاري في عالم اليوم المليء بالكشوف والاحتمالات !

الفصل الأول

التمرّد على الشّكل

بدأت حركة التمرد على الشكل التقليدى للقصيدة العربية تأخذ شكل الظاهرة مع مطالع القرن العشرين ، أما قبل ذلك فقد كان التمرد على الشكل مجرد محاولات نرى لها شواهد متناثرة هنا وهناك ، ولكنها لا ترقى إلى مستوى الظاهرة ، وهذا يقطع بأن حس التمرد على الشكل التقليدى للقصيدة العربية له جذور تاريخية ترجع إلى الماضى البعيد والقريب . وإن كان فى هذا الطور المتقدم لم يستطع أن ينضو عن كاهله كل قيود الشكل القديم ، واكتفى بأن يعلن رفضه لوحدة القافية ، مما يؤكد أنه كان مجرد إحساس لم يرق إلى مستوى الظاهرة كما قلنا .

أما فى مطالع القرن العشرين فقد تغير الوضع تغيرا شاملا ، فهبت عواصف التمرد على الشكل الثابت للقصيدة ، وحاول غير واحد من الشعراء أن يزحزح القافية – أول الأمر – عن مكانها ، وأن يطلق الأبيات من عقال البحث عن

كلمات معينة تنتهي جميعها بحرف أو بحرفين أو بأكثر على هيئة واحدة ، وكان بحث الشعراء عن مخرج من هذه الضائقة الشكلية ناهضا على أساس فلسفي ، لا على مجرد البحث عن خلاص من الصعوبة التي يدركون جيدا أنها سمة لازمة من سمات كل خلق أصيل . . وكان هذا الأساس الفلسفي نابعا من طموح هذا الجيل من الشعراء إلى ارتياد آفاق الشعر القصصي والملحمي والتمثيلي الذي زخرت به حركة الشعر العالمي ، وأقفرت منه حركة الشعر العربي أو كادت على وجه التخصيص .

(وبناء على ذلك احتك الثائرون ضد التعريف التقليدي للشعر العربي المحدود بالوزن والقافية : بأن القافية وموسيقاها ليستا جزءا ضروريا من الشعر ؛ إذ القافية الموحدة تحدد المعاني وتقود الشاعر بعيدا عن أفكاره الأصلية ، وتضطره إلى أن يخضع عواطفه وأفكاره للقافية ، وتصدم إحساسه الشاعر وهو في غيبوبة الإبداع وحساسية الخلق . إنّ تأثيرها الرنان يفسد إيقاع الوزن ، كما أن الصور والأفكار في القصيدة الجيدة هي عناصر أكثر أهمية)[1] .

وقد حاول كثير من الباحثين أن يكتشفوا أول شاعر عربي استخدم النظم غير المقفى في الأدب العربي الحديث : (ففي مقال لدريني خشبة في الرسالة[2] بعنوان « الشعر المرسل وشعراؤنا الذين حاولوه » قال الكاتب : إنه لا يستطيع أن يجزم بأن أول شاعر بدأ كتابة الشعر المرسل في مصر والعالم العربي هل هو عبد الرحمن شكرى (١٨٨٦ - ١٩٤٩ م) أو أنه محمد فريد أبو حديد ؟

وفي مقال للعقاد في كتابه « يسألونك » حاول أن يجيب عن هذا السؤال

(١) س . موريه - حركات التجديد في موسيقى الشعر العربي الحديث - ص ١٥ وما بعدها .

(٢) ١١ ، ٥٤ ، ١٩٤٣ .

الصعب ، وأكد أن الشعراء الثلاثة : توفيق البكرى (١٨٧٠ - ١٩٣٢ م) فى قصيدته « ذات القوافى » وجميل صدقى الزهاوى فى قصيدة نشرت بالمؤيد ، وعبد الرحمن شكرى فى قصيدته التى نشرت بالجريدة - هم أول من حاول كتابته ، ولكن العقاد لم يستطع أن يقرر أى الثلاثة أسبق ؟ ورجح أن البكرى هو أول من فعل ذلك فى قصيدته « ذات القوافى » ثم تبعه الزهاوى ، وأخيرا نشر شكرى شعره المرسل)[1] .

إلاّ أن غير واحد من الباحثين لم يستطع أن يفصل فى القضية على نحو جازم ، أو أن يحدد أول شاعر عربى كتب الشعر المرسل فى القرن العشرين ، وإنما كان إجماعهم يكاد يكون تاماً على أولية الزهاوى فى العراق . وأولية شكرى فى مصر . أما أيهما أسبق من صاحبه إلى ممارسة الإبداع من خلال هذا الشكل فهذا هو موطن الخلاف والاختلاف .

وقد لا يعنينا هنا كثيرا أن نعرف على وجه التحقيق من أول شاعر عربى كتب على طريقة الشعر المرسل بقدر ما يعنينا أن نرصد الظاهرة ، وأن نخلص منها إلى ما تعطيه من دلالة على تململ شعراء هذا القرن ، ومحاولاتهم الجادة للخروج من ضيق القيود إلى فضاء الحرية ، ونظرتهم إلى القافية الواحدة أو الموحدة على أنها حائل كثيف يقوم بين الشاعر وبين كثير من ميادين الإبداع وأغراضه على السواء ، حتى لقد رأينا ناقداً كبيراً كالعقاد يبشر بأن الثورة على القافية تهيئ لمذهب جديد فى الشعر ، وتفسح الطريق لاستقبال المواهب الشعرية على اختلافها ، وتتيح للأدب العربى - من خلال شعر القوافى المرسلة - أن يعرف شعر الرواية ، وشعر الوصف ، وشعر التمثيل متنبئا بأن نفرة الآذان من هذه القوافى لن تطول . (ولاسيما فى الشعر

(١) س . موريه - حركات التجديد فى موسيقى الشعر العربى الحديث - ص ١٧ - ١٨ .

الذى يناجى الروح والخيال أكثر مما يخاطب الحس والآذان . فتألفها بعد حين . وتجتزئ بموسيقية الوزن عن موسيقية القافية الواحدة)[1] .

ولقد أعلن أصحاب هذه الدعوة – شعرا ونثرا كما عند الزهاوى – وشعراً هاجماً كما عند شكرى – وإصرارهم على دعوتهم . ورفض الزهاوى[2] أن يتجمد عند حدود القافية والروىّ . وأعلن أن الروى ليس فى مذهبه من الشعر فى شىء لأنه مجرد قيد يقيد الشاعرة وبقية جناس قديم سيزول كما زال السجع فى النثر المعاصر . كما أعلن أن القافية عبء يجب التخلص منه . وأن خير طريق للخلاص منها إنما هو أن يحافظ الشاعر على البحر وأن ينتقل بعد كل بضعة أبيات إلى روى جديد[3]

وكذلك رفض شكرى أن يتجمد عند هذا الحد . ولكن رفضه كان رفضا موضوعيا . لم يشأ أن يخرج به إلى مجال الجدل النقدى . فأصّلَ له من خلال قصائده المرسلة التى نفض فيها كثيرا من عذاب روحه الأسيانة الساخطة المتمردة .

وهكذا حدثت أول رجة حقيقية فى مسار القصيدة العربية المعاصرة منذ مطالع القرن العشرين . رجة تناولت بالتحوير شكل هذه القصيدة أملا فى تحوير مضمونها الداخلى . والخروج بها شكلا ومضمونا – إلى مجالات جديدة أرحب من مجرد أن تظل دائرة فى فلك الغنائية الضاغط المكرور . وبهذا تأخذ هذه الحركة المتمردة وجهها البطولى بما هى هادفة إلى نقل الإبداع الشعرى من وضعية جامدة مكرورة

---

(١) انظر : ديوان المازنى – مقدمة العقاد ص ١٤ .

(٢) انظر : شعراء العصر – الجزء الثانى – ص ٣ – ١٥ – تأليف محمد صبرى . و «الزهاوى وديوانه المفقود» ص ١٨٧ وما بعدها . تأليف هلال ناجى .

(٣) تطور رأى الزهاوى بعد ذلك فأجاز أن يكون لكل بيت روى واحد .

إلى وضعية جدلية فذة تستطيع من خلالها أن تفعل الكثير. وقد حاول شعراؤها أن يؤكدوا هذا الفهم لطبيعة النقلة من خلال ما أعطوا من شعر ذاتى وقصصى كشفوا به مجاهل نفسية وفنية على جانب من الأهمية.

ولكن . . يبقى المستوى الفنى الذى صاحب هذا التجريب – فى شعر القوافى المرسلة – مائلا إلى الهبوط ، فلسنا نحس فى تجارب الزهاوى وشكرى وغيرهما هذا النبض الوجدانى المحتدم ساريا فى الوحدة العضوية للقصيدة الواحدة ؛ وإنما كل ما هنالك خواطر متناثرة فقدت بفقدان القافية واحداً من العوامل الضابطة والرابطة ؛ ربما لأن الشاعر فى هذا الشعر قد أوغل فى ملاحظة إهماله للقافية، فنسى أن يعطى التجربة الشعرية نفسه، وأن يغيب فى أطوائها حاملا أسراره ، كما نسى أن يقف على مشارف الفن العالية فيعطى الشكل جلاله وجماله .

(وبالإضافة إلى هذا – فإن أى هيكل مبنى على تقسيمات صارمة شديدة التماثل تكرر نفسها يحتم استكمال هذا التماثل ، فالحساسية الفنية لا تطيق خرقا للقاعدة هنا ، بل تنتظر استكمال الوحدات المتشابهة ، ويكون الاختلاف فى عنصر واحد نشازا وخرقا للانسجام الكامل لا تطيقه هذه الحساسية سمعية كانت أم بصرية)[1]

وإذن ، فلقد كانت القافية فى الشعر العمودى ولا تزال عاصما من انزلاق العمل الشعرى إلى نثرية الإيقاع والإحساس ، وحارسا يحفظ على العمل الشعرى توهج الحضور الموسيقى والنفسى المصاحب لخلقه وتلقيه .

* * *

(١) سلمى الخضراء الجيوسى – مجلة عالم الفكر الكويتية – م ٤ ، ع ٢ ، ١٩٧٣ . ص ٢٨ .

غير أن ذلك كله لم يمنع الثائرين من الاندفاع فى ثوراتهم ، والمتمردين فى إشعال جذوة تمردهم ، فواصلوا ضربهم للشكل التقليدى فى القصيدة ، وحمل راية الريادة فى هذا العصيان الفنى فى المرحلة التالية « أحمد زكى أبو شادى » أجرأ الخائضين فى مجالات التجريب الشعرى لتعدد قراءاته فى الأدب الغربى وتأثره العميق بهذه القراءات ، فنادى فى مطالع العشرينيات بضرورة التحول من نظام الشعر التقليدى إلى نظام الشعر الحر ، وضرورة أن يقدم شعراؤنا على الجمع بين البحور فى القصيدة الواحدة ، وأن ينوعوا فى عدد التفعيلات التى يضمها كل بيت .

(وقد فضل « أبو شادى » الشعر الحر على الشعر المرسل ؛ لأنه وجد فى الشكل الأول وسيلة أفضل لصياغة الملاحم والدراما والشعر القصصى ؛ فهو ليس حرا من قيد القافية فحسب ، بل إنه أيضا أكثر مرونة ، إنه يمكن الشاعر من تنويع الإيقاع تبعا للفكرة والعاطفة ، كما يمكنه من استخدام التعبير المحكم لنقل الموضوع الذى يتناوله إلى المتلقى)[1] .

وإذا كانت هذه هى نظرة أبى شادى إلى الشكل المتحرر بكل ما ينطوى عليه من إمكانات التعبير والمرونة والتنويع – فإن نظرته إلى الشكل التقليدى بدت قاسية وساخرة ؛ فقد وصم هذا الشكل التقليدى بفقدان الشخصية الفكرية والفنية جميعاً !

(واستيقن « أبو شادى » – إلى جانب ذلك – أن الشكل التقليدى يميل إلى استعباد الشاعر ، فالوزن التقليدى يجر الشاعر إلى استخدام أسلوب وإيقاع وتكنيكات تضرب بجذورها فى أعماق عقله الباطن ، وتملى عليه الإيقاع والمعجم والأسلوب . وتغلبه على إبداعه وشخصيته ، وعن طريق إيجاد وسائل جديدة

(١) س . موريه – حركات التجديد فى موسيقى الشعر العربى الحديث – ص ٧٨ .

يكون من الممكن تجنب ما سماه بالتشابه اللفظي والمعنوى ؛ فحتى الشعراء الكبار - من أمثال شوقي ومطران - عندما يعالجون موضوعا واحدا مستخدمين بحرا واحدا - يعبرون عن الموضوع بكلمات وأفكار واحدة[1] .

وقد تابع « أبا شادى » فى هذه الدعوة إلى الشعر الحر بعض شعراء جيله فى مصر والعالم العربى ؛ مما يؤكد أن الدعوة كانت صدى لما يعتلج فى صدور الشعراء من ضيق بهندسة الشكل التقليدى للقصيدة العربية ، وتوق الى التحرر من شطورها المتساوية التى تصرف جهد الشاعر عن حقيقة الخلق إلى مراقبة هندستها الشكلية الجوفاء !

وقد عُنى كثير من الباحثين بجمع هذه التجارب الباكرة واستقصائها من مظانها المختلفة ، واستطاعوا أن يرصدوا منها : تجارب نقولا فياض سنة ١٩٢٤ ، وتجارب حسن كامل الصيرفى سنة ١٩٢٧ ، وتجارب خليل شيبوب سنة ١٩٣٢ ، وتجارب محمود حسن إسماعيل سنة ١٩٣٣ ، وتجارب على أحمد باكثير ١٩٣٦ ، وتجارب لويس عوض سنة ١٩٣٨ ، وتجارب محمد مصطفى بدوى وفؤاد الخشن سنة ١٩٤٦ . . وهذا يؤكد - مرة أخرى - أن الدعوة إلى تحرير الشعر لم تكن مزاجا فرديا بقدر ما كانت تعبيرا عن رؤية مرحلة وجيل ؛ بدليل أن الشعراء الذين مارسوا هذه التجارب كانوا يقفون مع تجاربهم موقفا نقديا خالصا يوضح الأساس الفلسفى الذى أملى عليهم السير فى هذا الاتجاه .

(فقد كتب « أبو شادى » يقول :

(إن روح الشعر الحر Free verse إنما هو التعبير الطليق الفطرى ، كأنما النظم غير نظم ؛ لأنه يساوق الطبيعة الكلامية التى لا تدعو إلى التقيد بمقاييس

(١) س . موريه - حركات التجديد فى موسيقى الشعر العربى الحديث - ص ٧٨ .

معينة من الكلام ، وهكذا نجد أن الشعر الحر يجمع أوزانا وقوافى مختلفة حسب طبيعة الموقف ومناسباته ، فتجىء طبيعته لا أثر للتكلف فيها »[1] .

كما كتب خليل شيبوب يشرح مفهومه لطبيعة الشعر الحر حين نشر قصيدته الحرة (السراج) فى مجلة أبولو سنة ١٩٣٢ . يقول :

« الشعر المطلق أو الشعر الحر غير الشعر المنثور ، لأن نثر الشعر إنما هو افتكاك من قيود الوزن والقافية ، فإن حفظت القافية صار هذا الشعر نثرا مسجعا ، وكتبنا الأدبية طافحة بالنثر المسجع ، أما الشعر المطلق فمذهبه فى الاحتفاظ بالوزن فقط ، أما القافية فقد اختلفوا فى إبقائها أو إغفالها ، وقد آثرنا إبقاءها فى هذه القصيدة . وإن كل شطر من هذه القصيدة يرجع إلى مثله من بحور الشعر أو مجزوئها ، وقد تنفر الأذن من مثل هذه القصيدة فى بادئ الأمر من تناكر الأوزان والتفاعيل ، ولكن من يتلو القصيدة مرتين لا يلبث أن ترتجع أذنه بحكم التكرار نغمة الوزن المفقودة . وفى هذه القصيدة أبيات تامة أوحتها المناسبة »[2] .

وإذا كانت نازك الملائكة تنفى أن تكون تجارب « أبى شادى » وحوارييه شعرا حرا بالمعنى الذى تعارفت عليه الحركة النقدية التى أرخت لحركة الشعر الحر كظاهرة نشأت فى نهايات الأربعينات ، وأن دعوة (أبى شادى) إلى الشعر الحر لم تكن فى حقيقتها إلا دعوة إلى المزج بين بحور الشعر العربى فى القصيدة الواحدة ، وأنه يخرج على وحدة الضرب وهو أمر تأباه الأذن العربية ، وأنه يجمع فى القصيدة الواحدة أكثر من تشكيلة موسيقية على حين أن الشعر الحر الذى دعت إليه يتقيد ببحر واحد

---

(١) أحمد زكى أبو شادى - أبولو ٢ ـ ١٠ ـ ١٩٣٤ ـ ٩٠٠ .

(٢) مجلة أبولو - ١ ـ ٣ ـ ١٩٣٢ ـ ٢٢٧ .

فى القصيدة فلا يخرج عليه[1] .

إذا كانت نازك الملائكة قد قررت ذلك – فإن بعض الباحثين قد تصدى للرد على مقولاتها تلك . ليؤكد أن « أبا شادى » خرج بتجربته على النظام الخليلى ذى الشطرين المتساويين والقافية الموحدة ، وأنه لم يكن يقصد إلى مزج بحور عربية فى القصيدة الواحدة ، وإنما كان يحس إحساسا جماليا بضرورة تغيير هذا النسق الخليلى ، وإيجاد نسق جديد يستوعب تجاربهم الفكرية والروحية ويلائم أذواقهم ويواكب تطور الحياة من حولهم . . ويستدل على ذلك بقصيدة « أبى شادى » (مناظرة وحنان) المنشورة فى ديوانة « مختارات من وحى العام » الصادر فى عام ١٩٢٨ . وقصيدته (الفنان) المنشورة فى ديوانه « الشفق الباكى » الصادر عام ١٩٢٦ . . لينتهى إلى أن دعوة (أبى شادى) لم تكن فى جوهرها دعوة للمزج بين البحور ، وإنما كانت دعوة هادفة إلى تأصيل نسق شعرى جديد له تشكيلات موسيقية لم يألفها فى نظام الخليل بن أحمد[2] .

ومهما يكن من أمر الخلاف حول طبيعة هذه الدعوة إلى الشعر الحر التى قادها (أبو شادى) فى العشرينيات من هذا القرن وتابعه فيها عدد من الشعراء المعاصرين له ـ فإن خلافا ما لا يمكن أن يثور حول كون هذه الحركة كانت تمردا على مسار الحركة الشعرية فى تشكيلها الموسيقى ، أو فلنقل فى شكلها العروضى التقليدى الذى انحدر إلينا من عصر الخليل . وهو تمرد إن لم يصل إلى تحديد لخصائص الشعر الحرّ فقد وصل إلى تحديد لخصائص الشعر المتحرر ، وهو مرحلة على طريق الوصول إلى

---

(١) انظر : محاضرات فى شعر على محمود طه لنازل الملائكة – ص ١٨٧ وما بعدها .

(٢) انظر : مجلة الثقافة العدد ٣٤ السنة الثالثة ، مقال (موسيقى الشعر الحر) للدكتور عبد العزيز الدسوقى .

الشعر الحر كما هو الآن .

إن حجم التمرد هنا كان أضخم من حجم التمرد الذى قاده الزهاوى وشكرى تحت راية الشعر المرسل ، لأن امتداداته كانت أعمق عمقا وأرحب مجالا ، فقد أثارت سكون الحركة النقدية ولا تزال ، ثم هى قد استطاعت أن تطوّع أقلام كثير من الشعراء لممارسة الإبداع من خلالها ، على العكس من حركة الشعر المرسل التى انحصرت أو كادت فى رائديها ، شكرى والزهاوى . . مع ملاحظة أن (أبا شادى) قد دعا بحرارة وحيوية إلى قصيدة الشعر المرسل ، وشاركه فى دعوته من مدرسته غير واحد من الشعراء والباحثين ، إلا أن دعوتهم إلى الشعر المرسل خالطت دعوتهم إلى الشعر الحر فغامت حدود الرؤية ، وحسب ولاؤهم للشعر الحر .

* * *

ولكن تاريخ التمرد على الشكل التقليدى للقصيدة العربية لم يتجمد عند هذه الدعوة ولا عند هذه المرحلة ، وإنما امتد فى نهاية الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات ليشمل نوعية أخرى من الشعراء الأكاديميين إذا جاز أن يقال ، بمعنى أن الحركة لم تعد تململا شعريا من نمط قائض متيبس ، ولكنها استحالت إلى تمرد فكرى ناهض على أساس فلسفى نابع من استيعاب لحركة الفكر العالمى التى وصلت فى اندفاعها إلى الأمام ومغادرة الوراء إلى أبعاد شاسعة ، وكان فى طليعة هؤلاء الشعراء : لويس عوض . . ومحمد مصطفى بدوى .

فقد خرج لويس عوض على الحياة الأدبية بكتابه الهاجم (بلوتولاند وقصائد أخرى) سنة ١٩٤٧ ، ليؤكد أنه (وقع مع شعراء آخرين فى نفس الفترة على سر التحرر فى شكل الشعر العربى ، وهو كسر هندسة الأبيات ، والتراوح فى عدد

التفاعيل بين بيت وآخر)[1] وفى هذا الكتاب قصيدة بعنوان (كيريالايسون) كتبها صاحبها عام ١٩٣٨ كما ذكر هو. يقول فيها:

أبى أبى
أبى أبى
أحزان هذا الكوكب
ناء بها قلبى الصبى
الشوك فى جنبى جراح الهدب.
الرزء تحت الرزء فى صدرى خبى
سلت دميعات كذوب السم من قلبى الأبى
شبت على قلبى سعيرا مستطير اللهب
أبى ، أبى ، أبى ، أبى ، أبى ، أبى ، أبى ، أبى ، أبى ، أبى
أبكى دموع الناس مختارا ، ودمع الأمس لما ينضب
يا منجبى
يا منجبى
قد طال فيك عجبى
لغزك لن يهزأ بى
دنياك قبض الريح قالها نبى
أخراك آلٌ ذو بريق ذهبى .
عبد الرماد وابن دفء البدن المعذب
حنينه للفجر فى ليل الشتاء الغيهب

(١) سلمى الخضراء الجيوسى مجلة عالم الفكر الكويتية – م ٤ ، ع ٢ ، ١٩٧٣ .

مائدة من نسج وهم الطيف « اريل » البهى المستبى
أنا كأطفال بكوا لم أستسر النجم تحت السحب

(هذه القصيدة تعتمد على تكرار تفعيلات الرجز من تفعيلة حتى تصل إلى خمس تفعيلات ويقال إن للشاعر نفسه قصيدة فى ديوانه (بلوتولاند) استعمل فيها تفعيلة الرمل « فاعلاتن » بطريقة حرة ، وقد صدر هذا الديوان عام ١٩٤٧ .

وقد حرج محمد مصطفى بدوى أيضا على الحياة الأدبية بشعره الحر . تقول سلمى الخضراء الجيوسى : (وفى سنة ١٩٤٦ حاول الشاعر المصرى محمد مصطفى بدوى تحرير بحر من البحور المركبة وهو بحر الخفيف فى مقطعين من قصيدته بقايا قصيدة ، وتوصل إلى تجربة مثيرة فى هذا البحر .

فى نعيب المداخن الحمراء
حالمونا
بين كون عفا مع الزمن العاثر يوما
وآخر لن يكونا
آه لسْنا سوى قطيع من الأشباح دثرن فى السبات سنينا .
وتخبطن فى ظلام الليالى .
تائهينا[1] .

وقد ميزنا هذه المرحلة عن مرحلة أبى شادى وتلاميذه لأنها شهدت عطاء نفر من الأكاديميين المتخصصين الذين استطاعوا أن يصعوا لتجاربهم وتجارب الآخرين من بعدهم أساسها النظرى ، وأن يتطوروا بفكرهم النقدى فيقفوا إلى جوار

---

(١) انظر : مجلة عالم الفكر الكويتية ج ٤ ، ع ٢ ، ١٩٧٣ ، وحركات التجديد فى موسيقى الشعر العربى الحديث لموريه ص ١٢٤ وما بعدها .

تجارب فى الشعر الحر جاءت على يد الجيل التالى لجيلهم حاملة معها رياح التمرد حتى على المدى الذين كانوا قد وصلوا هم إليه ، ولم يمنعهم ذلك على الإطلاق من الوقوف إلى جوار الحركة الجديدة ، والتأصيل المنهجى لاتجاهها الثورى الذى انتفض عليهم مع أنهم جزء من الظاهرة التى هوجمت ! فكان هذا الموقف تأكيدا تاريخيا على تأصيل روح الموضوعية العلمية فى نفوس هذا الجيل من الأكاديميين.

والذى يقوى من هذا الاعتقاد فى نفوسنا أن كثيراً من دعاة التمرد على شكل القصيدة العربية فى صدر شبابهم عادوا فى طور متأخر من أطوار حياتهم سدنة لهذا الشكل ، يقاتلون تحت رايته بعنفوان لا يعرف حتى الاعتدال كالعقاد الذى ناصر دعوة الشعر المرسل ، وتنبأ بأن الأجيال الطالعة ستجد فى موسيقى الألفاظ والمعانى تعويضا عن موسيقى الشكل والقافية ، وفتح صدره لرياح هذا التغيير ، ولكنه ما لبث حين انبثقت دعوة الشعر الحر أن حمل فى وجهها كل معاول التدمير ، ووصم شعراءها ونقادها جميعا بأنهم قرامزة ، وقرامطة ، ومخربون.

وهكذا يستبين الفرق بين الموقفين ، ولا يشفع للعقاد مظنة أنه كان رائدا من رواد التجديد ، وأراد أن يبقى رائدا فلا يجدد من بعده أحد . . وأن جيل الأكاديميين كانوا يطمحون فقط إلى أن يشار إليهم كجزء من ظاهرة التجديد فى الأدب العربى ، فقنعوا حين اعترف لهم بذلك ، لأن المتمرد يظل عاملا فى الجيل الذى يتلقف الشعلة من يديه ، ويمضى بها إلى مسافات أبعد وأعمق ، فليس يكتب التاريخ الأدبى فرد واحد مهما كان امتلاؤه الفكرى ، ونعتقد أن العقاد كان على وعى بذلك أكيد.

والمهم أن مرحلة تجريب الأكاديميين كانت تمهيدا حقيقيا للتمرد الأكبر الذى اجتاح شكل القصيدة العمودية ، ولكنها ظلت مرحلة تمرد وسط ، لم تخلد إلى

سكونيه القديم بتقاليده الراسخة ، ولم تبحر إلى جدل الجديد بكل ما ينطوى عليه ذلك من مغامرة واقتحام .

ويضع الدكتور لويس عوض تصوره لمراحل تمرد الشعراء على شكل القصيدة التقليدى محددا دوره ودور جيله على خارطة هذا التاريخ الحافل بالمد والانحسار فيقول :

(. . . فأزمة الشعر التى اجتاحت مصر والعالم العربى كله منذ اندثار كلاسيكية شوقى ورومانسية (ناجى) كانت فى حقيقتها وجها من وجوه هذا الصراع بين القديم والجديد ، وهذا الانفصام بين أشكال الشعر القديمة ومضمون الحياة الجديدة ، وتحول الشعر وزنا ولغة إلى إطار جامد غير قادر على احتواء الوجدان الدقيق المركب الذى استجد فى حياة العالم العربى . حتى ثورة الرومانسيين - لم تجد من قوالب الشعر إلا الرباعيات والخماسيات وما شاكلها من مقاطع ، فأحلت وحده المقطع الرومانسى مكان وحدة البيت الكلاسيكى ، ولكنها وقفت عاجزة عن تحقيق مبدأ وحدة القصيدة ، وهو الدعامة التى يقوم عليها عمود الشعر الجديد . بل إن الأندلسيين أنفسهم كانوا أشد ثورية فى لغة الشعر وأوزانه من رومانسية مدرسة أبولو ورومانسية مدرسة المهجر ، ومن هنا اندثرت الثورة الرومانسية فى الشعر العربى الحديث دون أن تترك فى مصر رواسب عميقة أو تقاليد راسخة ، اندثرت بتخلى زكى أبى (شادى) ومحمود حسن إسماعيل ومختار الوكيل وعبد الرحمن الخميسى ، بعد أن استنفد (ناجى) وعلى محمود طه كل ما عندهم من قول مبين قبيل الحرب العالمية الثانية . . وبين قيام الحرب العالمية الثانية وقيام الثورة خلت مصر من الشعر تماما أو أوشكت ، وكان آخر مزمار غنى بها هو مزمار محمود حسن إسماعيل ، ثم دندنات هنا وهناك من فم أحمد فتحى والخميسى

كانت رجع أصداء بعيدة . ومنذ أوائل الحرب ألغيت قاعدة العمود الجديد . ألغاها مندور فى نظرياته عن الشعر المهموس ، وألغيتها أنا بتجربة « بلوتلاند » . وعلى أحمد باكثير بتجاربه فى الشعر المرسل التى ترسم فيها خطا الرائد (فريد أبو حديد) ولكن دعوتنا ظلت كالجمرة تحت الرماد : لا هى تريد أن تنطفئ . ولا هى قادرة على الاشتعال ! فلما قامت الثورة نفضت الرماد فانطلق من الجذوة لهيب تأجج فى شعر عبد الرحمن الشرقاوى وصلاح عبد الصبور وأحمد حجازى الذين أقاموا عمود الشعر الجديد فى هذه الأرض الخراب ! [1] .

هذا هو تصور واحد من رواد الانتفاض والتمرد فى فترة من فترات تاريخنا الأدبى . هى نهاية الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات ، وهو تصور يحمل فى داخله كثيرا من الحقائق الأساس فى قضية الشعر العربى المعاصر . .

وإن كان يحمل فى داخله كذلك عدةً من التجاوزات الأساس فى قضية هذا الشعر العربى المعاصر . .

وفى ظنى أن هذه التجاوزات جاءت نتيجة انحصار الكاتب فى دائرة الشعر المصرى وحده بدليل أنه أعطى القضية كلها وجهها المصرى دون غيره من الوجوه حتى لو كان الوجه المصرى هو آخر ما يمثل الظاهرة فى حلولها على أرض الواقع التاريخى ، كما فعل فى رصده لتاريخية الشعر الحر . .

كذلك جاءت التجاوزات الأخرى من انحصار الكاتب فى فترة تاريخية مغلوطة الأساس ، حين حددها بما بين الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) وثورة (١٩٥٢) . . وهى مغلوطة الأساس ، لأن الكاتب استطرد منها إلى ما قبلها ليرصد أجواء الفراغ والامتلاء . فطوف بكثير من معالم الجدب والعطاء فى تاريخنا

(١) د . لويس عوض — الثورة والأدب — ص ١٦٤ — ١٦٥ .

الفكرى والفنى ، ولكنه لسبب غير منطقى أهمل تجربة شكرى فى مجال الشعر المرسل ، وهى تجربة نمت فى مطالع القرن العشرين ، على حين أنه قد توقف - عابرا - عند تجربة فريد أبى حديد التى حاول بها أن يعلمنا (ضرورة تجديد الشعر العربى لغة وعروضا قبل نهاية الثلاثينيات)[1] .

ومهما يكن من شىء فقد كانت هذه المرحلة من مراحل التمرد على شكل القصيدة العربية أكثر فهما وطواعية من المرحلة السابقة عليها ، لأنها استطاعت أن تستوعب « روح » التمرد وليس مجرد « شكله » الخارجى . فأعطت من خلال فهمها لطبيعة التطور كل إبداعها الفنى والنقدى ولم تقف موقف المعارضة والكبح من حركة التمرد التى تلتها والتى تناولت بالنقض والتجاوز - ضمن ما تناولت - تجربتها المحدودة فى تغيير شكل القصيدة العربية ، والخروج بها من عالم القيود والتقليد إلى عالم الجدل والانطلاق .

كانت هذه الانتفاضات المتتابعة توطئة تاريخية هائلة الإيحاء لحركة أشمل وأعمق ، وهى حركة (الشعر الحر) التى أرسى تقاليدها الفنية الجديدة جيل السياب ونازك والبياتى وعبد الصبور وحجازى وحاوى والقبانى والحيدرى ، وغيرهم من هذا الجيل المقتحم .

وقد بدأت حركة الشعر الحر سنة ١٩٤٧ فى العراق ، وكانت قصيدتا نازك الملائكة (الكوليرا) وبدر شاكر السياب (هل كان حبا) ، بداية البداية على خلاف فى ذلك أيهما كانت أسبق من الأخرى : قصيدة السياب أم قصيدة نازك ؟ فبينما تؤكد نازك الملائكة أنَّ قصيدتها كانت أول قصيدة حرة الوزن تنشر ، وأنها نظمتها يوم ٢٧ - ١٠ - ١٩٤٧ وأرسلتها إلى بيروت . فنشرتها مجلة (العروبة) فى

(١) د . لويس عوض - الثوره والأدب - ص ١٥٢ .

عددها الصادر فى أول كانون الأول عام ١٩٤٧ وعلقت عليها فى العدد نفسه[١]

يرى السياب أنه صاحب المحاولة الأولى فى هذا المجال . يقول :

(.... ففى عام ١٩٤٦ كتبت أنا قصيدة اعتمدت فيها التفعيلة وحدة موسيقية ، وتحررت فيها من قيود القافية إلى حد ما . وكنت يومها طالبا فى دار المعلمين العالية التى تخرج فيها معظم الشعراء العراقيين الذين يكتبون الشعر الحر اليوم . وكانت نازك الملائكة ورزوق فرح قد تخرجا ، وصحيح أن قصيدتى المذكورة لم تنشر إلا عام ١٩٤٧ فى ديوانى الأول « أزهار ذابلة » ولكنها كانت خلال هذه الفترة قد انتشرت بين أدباء الطلبة ووجدت صدى فى نفوس الشعراء منهم ، وكان عبد الوهاب البياتى وعبد الرازق عبد الواحد وشاذل طاقة بين هؤلاء الشعراء الطلاب . . وفى عام ١٩٤٧ نشرت نازك الملائكة قصيدتها عن (الكوليرا) التى كانت إلى الموشحات الأندلسية أقرب منها إلى الشعر الحر[٢] .

وعلى الرغم من أن كثيرا من الباحثين والدارسين والنقاد قد اختلفوا فى هذه القضية خلافات كثيرة ، وحاولوا أن يضيفوا إلى قائمة الرواد الأوائل أسماء جديدة كباكثير والبياتى - فإن عامتهم قد أجمعوا على أن الريادة الحقيقية للشعر الحر محصورة فى نازك الملائكة وبدر شاكر السياب ، وإن كانوا قد ظلوا على خلافاتهم حول قضية من منهما أسبق من صاحبه ، وليس يهمنا كثيرا أن نغيب فى هذا المتاه .

هذا هو الجانب التاريخى لنشأة الظاهرة .

فماذا عن الجانب الفنى ؟ لماذا ظهر هذا الشكل ؟ وما أهم القضايا الفنية التى يثيرها ؟

(١) قضايا الشعر المعاصر - ص ٢١ .

(٢) انظر : النقد الأدبى الحديث فى العراق - للدكتور أحمد المطلوب .

وإذا كانت مقدمة نازك الملائكة لديوانها « شظايا ورماد » هى أول محاولة لوضع نظرية نقدية لحركة الشعر الحر فإن من واجب أية دراسة منهجية أن تضع هذه المقدمة تحت عينيها . وأن تتلمس فيها بواكير النظرة الفلسفية التى أملت على شعراء هذا اللون اطراح النمط التشكيلى القديم واعتناق هذا النمط التشكيلى المحدث

لقد حاولت نازك فى مقدمتها أن تؤكد عبارة برناردشو : « اللا قاعدة هى القاعدة الذهبية » لسبب هام ـ فى نظرها ـ هو أن الشعر وليد الحياة وليس للحياة قاعدة معينة تتبعها فى ترتيب أحداثها . . وترى نازك أن كل شيء من حولنا قد تغير ، فلماذا فى الشعر وحده نريد أن نتجمد عند مقولات الخليل فى الشكل . وجماعة القاموسيين فى اللغة ؟ مع أن إيقاع العصر أكبر من أن يحتويه الخليل . وكذلك فإن هموم المرحلة أعقد من أن تعبر عنها مفردات اللغة المتآكلة ، وتعود نازك إلى حديث الأوزان لتبسط خاصية أسلوب الشعر الحر ووجه أفضليته على أسلوب الخليل ، وتستدل على ذلك بأبيات لها من بحر « المتقارب » وهو يرتكز على تفعيلة واحدة هى « فعولن » .

يداك للمس النجوم
ونسج الغيوم
يداك لجمع الظلال
وتشييد يوتوبيا فى الرمال

وتقول : (أترانى لو كنت استعملت أسلوب الخليل ـ كنت أستطيع التعبير عن المعنى بهذا الإيجاز وهذه السهولة ؟ ألف لا . فأنا إذ ذاك مضطرة إلى أن أتم بيتا له شطران . فأتكلف معانى أخرى غير هذه ، أملأ بها المكان وربما جاء البيت الأول

بعد ذلك كما يلى :

يداك للمس النجوم الوضاء ونسج الغمائم ملء السماء

وهى صورة جنى عليها نظام الشطرين جناية كبيرة ، ألم نلصق لفظ « الوضاء » «بالنجوم» دونما حاجة يقتضيها المعنى إتماما للشطر بتفعيلاته الأربع ؟ ألم تنقلب اللفظة الحساسة « الغيوم » إلى مرادفتها الثقيلة « الغمائم » وهى على كل حال لا تؤدى معناها بدقة ؟ ثم هنالك العبارة الطائشة « ملء السماء» التى رقعنا بها المعنى ، وقد أردنا له الوقوف فخلقنا له عكازات ؟) .

وتستطرد نازك من المتقارب إلى الطويل لتلاحظ أن العكازات تطول والرقع تتسع ، ومن الطويل إلى الكامل لتلاحظ أن عبودية الشطرين تقضى على حرية الخلق وبتر المعنى .

ثم تنتقل نازك إلى الحديث عن القافية (ذلك الحجر الذى تلقمه الطريقة القديمة كل بيت) فتؤكد أنها كانت السبب فى حرمان الأدب العربى من الملاحم . وأنها تضفى على القصيدة رتابة مملة ، وأنها تقتل كثيرا من المعانى فى صدور الشعراء ، وأنها تقضى على وحدة الفكر والإحساس فى القصيدة الواحدة ، ومن هنا فإن الخروج عليها يعنى اقترابا من الشعر الملحمى ، ومن التنويع غير الممل . ومن إتاحة البعد الكافى لكى يقول الشاعر كل ما عنده ، ومن العمل على تحقيق وحدة الإحساس والفكر فى القصيدة الواحدة .

هذه هى أهم القضايا التشكيلية التى تثيرها مقدمة نازك الملائكة لديوانها « شظايا ورماد » وهى قضايا كمنت بصورة ما فى تضاعيف كل الدراسات النقدية التالية والمصاحبة ، ولا يعنى هذا أن كل الدارسين والنقاد والشعراء الذين عالجوا قضية الشعر الحر قد نقلوا عن آراء نازك الملائكة بقدر ما يعنى أن هذه المقولات

التى طرحتها الشاعرة فى مقدمتها الباكرة كانت تعبيرا عن رؤية حقيقية لواقع حقيقى يشترك فى الثورة عليه معها مبدعون آخرون.

فالسياب -- مثلا -- يرى أن ثورة الجيل الجديد على التشكيل العروضى فى القصيدة التقليدية ترجع أولا إلى ضغوط القافية التى تضطر الشاعر إلى استعمال كثير من الألفاظ المنقرضة، كالسجنجل، والتعثكل، والكلكل..

وترجع ثانيا إلى الحرص على وحدة القصيدة وليس وحدة البيت..

وترجع ثالثا إلى طموح الشاعر الحديث فى أن يتجاوز التعابير الجاهزة مثل: « الجحفل الجرار » و « الشفير الهارى » و « الخيال أو النسيم السارى » و « الصيب المدرار » إلى تعابير جديدة تتفجر فيها ينابيع الخلق والابتكار، كما يلاحظ السياب أن التمرد على التشكيل العروضى سبق فى الظهور التمرد على المضمون الكلاسيكى. ويدعو -- لكى يتمكن شعرنا العربى من أن يكون محلياً وعالمياً -- إلى ملء الهوة الفاصلة بين الشعر العربى وحركة الشعر العالمى[١].

وهكذا يلوح بوضوح أن الآراء التى نادت بها نازك الملائكة فى مقدمة ديوانها: (شظايا ورماد). والآراء التى نادى بها السياب فى غير موضع وفى غير مناسبة -- كانت متقاربة إلى حد يقطع بأن العاملين فى مجال الشعر الحر خرجوا على التشكيل التقليدى للقصيدة العربية استجابة لإحساس عام بضرورة التغيير وليس استجابة لمجرد هوى فردى.. وأن الظاهرة كانت واقعا يحسه جميع المبدعين بدرجة تكاد تكون واحدة.

وبعد ذلك.. توالت الدراسات النقدية التى حاولت أن تضع لظواهر هذا الشعر الحر أساسا نظريا سليما يخرج به من مجال الرؤية الشعرية إلى علمية التأصيل

(١) انظر: النقد الأدبى الحديث فى العراق -- د. أحمد مطلوب -- ص ٩٤ وما بعدها.

المنهجي ، حتّى تصبح مقولاته النقدية وظواهره الفنية على درجة معقولة من الموضوعية والوضوح [1] .

وقد استطاعت هذه الدراسات بالفعل أن تحدد ملامح الظاهرة التشكيلية والمعنوية فى الشعر الحر ، وأن تدلل بمنطق معاصر على أن الحركة كلها كانت استجابة حتمية لروح التطور الزاحف ، وكانت ضرورة أكيدة لنقل الشعر العربى - ليس الحر منه فقط - من مراحل الالتصاق بالقوالب والأغراض إلى مرحلة الالتحام المباشر بكل قضايا العصر الفنية والفكرية بما فيها معاناة إنسانه الكادح الطموح .

وقد آثرنا أن نقف مع أول دراسة ظهرت وآخر دراسة ظهرت - حتى الآن - فى هذا المجال ؛ لأن أول دراسة ظهرت - وهى كتاب نازك الملائكة : (قضايا الشعر المعاصر) - يمكن أن تكون حاملة لبذور النظرة الفلسفية التى أوحت لشعراء الحركة باندفاعهم فى هذه التجربة ؛ كما يمكن أن تكون آخر دراسة ظهرت - وهى كتاب عزالدين إسماعيل : (الشعر العربى المعاصر. قضاياه وظواهره الفنية

(١) يستطيع المتتبع أن يرصد من بين أبرز هذه الدراسات : كتاب نازك الملائكة : (قضايا الشعر المعاصر) ، وكتاب الدكتور محمد النويهى : (قضية الشعر الجديد) ، وكتاب جليل كمال الدين : (الشعر العربى الحديث وروح العصر) . وكتاب عز الدين الأمين : (الشعر المتجدد) . وكتاب الدكتور عز الدين إسماعيل : (الشعر العربى المعاصر : قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية) . إلى جانب كمّ هائل من الدراسات والمقالات والأبحاث المنثورة فى دوريات العالم العربى منذ أواخر الأربعينات حتّى الآن ، والتى تضمنت أغلبها كتبٌ نقدية حرص أصحابها على أن يضموها كل ماكتبوه فى النقد الأدبى ، سواء منه ماكان خاصاً بالشعر ، أو بغيره من الأنواع الأدبية الأخرى .

والمعنوية) – حاملة لتمام هذه النظرة الفلسفية التى أوحت بهذه الحركة وهذا الاندفاع ، ولا يعنى هذا أننا سنهمل ما عدا هاتين الدراستين . . كل ما هنالك أننا سنضعهما – قبل غيرهما – تحت أعيننا بلا فكاك .

وبديهى أننا هنا – فى هذه المرحلة من هذه الدراسة – معنيون بالظاهرة التشكيلية من بين ظواهر الشعر الحر ، ولذلك فسنركز على جهود هاتين الدراستين فى المجال التشكيلى وحده ، حتى لا ننزلق إلى تفريعات أخرى ليست من هموم هذه الدراسة ، على الأقل فى هذه المرحلة .

وبدءاً تلاحظ نازك الملائكة أن الشعر الحر (ظاهرة عروضية قبل كل شيء ؛ ذلك أنه يتناول الشكل الموسيقى للقصيدة ويتعلق بعدد التفعيلات فى الشطر ، ويعنى بترتيب الأشطر والقوافى وأسلوب استعمال التدوير والزحاف والوتد وغير ذلك مما هو قضايا عروضية بحتة)[1] .

وترى . . (أن الشعر الحر ليس وزناً معيناً أو أوزاناً – كما يتوهم أناس – وإنما هو أسلوب فى ترتيب تفاعيل الخليل تدخل فيه بحور عديدة من البحور العربية الستة عشر المعروفة)[2] .

كما ترى أن الشعر الحر (شعر ذو شطر واحد وليس له طول ثابت ، وإنما يصح أن يتغير عدد التفعيلات من شطر إلى شطر ، ويكون هذا التغير وفق قانون عروضى يتحكم فيه)[3] .

وإذ تلاحظ أن أساس الوزن فى الشعر الحر أنه يقوم على وحدة التفعيلة – فإنها

---

(١) قضايا الشعر المعاصر – ص ٥١ .

(٢) المرجع السابق – ص ٥٦ .

(٣) المرجع السابق – ص ٥٨ .

تستطرد من ذلك إلى أن المعنى البسيط الواضح لهذا الحكم هو (أن الحرية فى تنويع عدد التفعيلات . أو أطوال الأشطر تشترط بدءاً أن تكون التفعيلات فى الأشطر متشابهة تمام التشابه . فيكتب الشاعر من بحر الرمل ذى التفعيلة الواحدة المكررة – أشطراً تجرى على هذا النسق مثلاً :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

فاعلاتن فاعلاتن

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

فاعلاتن

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

فاعلاتن فاعلاتن .

ويمضى على هذا النسق حرا فى اختيار عدد التفعيلات فى الشطر الواحد ، غير خارج على القانون العروضى لبحر الرمل ، جارياً على السنن الشعرية التى أطاعها الشاعر العربى منذ الجاهلية حتى يومنا هذا .

ومن تفريعات هذا القانون البسيط أنه يمكن نظم الشعر الحر بتكرار أية تفعيلة مكرورة فى الشطر العربى المعروف ، سواء أكان البحر صافياً مثل المتقارب :

فعولن فعولن فعولن فعولن

أو ممزوجاً مثل السريع :

مستفعلن مستفعلن فاعلن

فإنما تكون الحرية – فى الشعر الحر – فى حدود التفعيلة المكررة فى أصل الشطر العربى ، فإذا كانت التفعيلة منفردة فى الشطر ، كما فى (فاعلن) فى شطر السريع لم يصح للشاعر أن يخرج عليها ، فلابد له أن يوردها فى مكانها ، أى فى ختام كل

شطر من قصيدته الحرة ذات البحر السريع ، وإنما حدود حريته أن يزيد عدد التفعيلة (مستفعلن) – المكررة فى أصل الشطر – وينقصها فيقول فى قصيدته مثلاً :

مستفعلن فاعلن

مستفعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن

مستفعلن مستفعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن

وينبغى الشاعر ، أن يتذكر دائماً أن أى شطر فى مثل هذه القصيدة ينتهى بتفعيلة غير (فاعلن) إنما هو شطر ناشز مغلوط يخرج على قانون الأذن العربية خروجاً منفراً)[1] .

أما عن بحور الشعر الحر وتشكيلاته فإن نازك الملائكة ترى أنه (يجوز نظم الشعر الحر من نوعين من البحور الستة عشر التى وردت فى العروض العربى هما :

(ا) البحور الصافية : وهى التى يتألف شطراها من تكرار تفعيلة واحدة ست مرات وهذه هى :

الكامل ، شطره (متفاعلن متفاعلن متفاعلن)

الرمل ، شطره (فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن)

الهزج ، شطره (مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن)

الرجز ، شطره (مستفعلن مستفعلن مستفعلن)

(١) قضايا الشعر المعاصر - ص ٦١ – ٦٢ .

ومن البحور الصافية بحران اثنان يتألف كل شطر فيهما من أربع تفعيلات وهما :

المتقارب ، شطره (فعولن فعولن فعولن فعولن)

الخبب ، شطره (فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن)

أو (فعلن فعلن فعلن فعلن)

(ب) البحور الممزوجة : وهى التى يتألف الشطر فيها من أكثر من تفعيلة واحدة على أن تتكرر إحدى التفعيلات : وهما بحران اثنان :

السريع : شطره (مستفعلن مستفعلن فاعلن)

الوافر : شطره (مفاعلتن مفاعلتن فعولن)[1] .

وتؤكد الباحثة أن البحور الأخرى : كالطويل ، والمديد ، والبسيط ، والمنسرح ، لا تصلح للشعر الحر على الإطلاق : (لأنها ذات تفعيلات منوعة لا تكرار فيها ، وإنما يصح الشعر الحر فى البحور التى كان التكرار قياسيا فى تفعيلاتها كلها أو بعضها)[2] .

وأخيراً ترى أن أبرز الفوارق العروضية بين أسلوب الشطرين وأسلوب الشطر الواحد فارقان اثنان :

(الأول – أن القافية ، سواء أكانت موحدة أم لا – ترد فى نهاية كل شطر من الشعر ذى الشطر الواحد بينما ترد فى آخر الشطر الثانى من البيت فى أسلوب الشطرين : ومعنى هذا أن الشطر الأول من البيت يعفى من القافية ، بينما يتمسك كل شطر فى الشعر الحر بها ؛ لأنه شعر ذو شطر واحد .

---

(١) قضايا الشعر المعاصر – ص ٦٥ – ٦٦ .

(٢) المرجع السابق – ص ٦٧ .

الثانى . أن الشطرين فى البيت لا يتساويان تساوياً عروضيا ، وإنما يباح فى الشطر الأول ما لا يباح فى الثانى ؛ ومن ثم فإن قصيدة الشطرين تحتاج دائماً إلى تشكيلتين اثنتين . تجريان على نسق ثابت بحيث ترد التشكيلة عينها فى صدور الأبيات ، والتشكيلة الأخرى فى الأعجار . وهذه الحرية ، حرية إيراد التشكيلتين ، غير مباحة فى الشعر الحر لأنه ذو شطر واحد)[1] .

ثم تستطرد الباحثة بعد ذلك إلى المزالق التى يتردى فيها شعراء الشعر الحر – من الوجهة العروضية – وتقابل كل ذلك بمنطق الرفض وليس – كما يفعل غيرها – بمنطق التبرير .

هذه هى أبرز الظواهر التشكيلية التى ركزت عليها نازك الملائكة فى كتابها الرائد : (قضايا الشعر المعاصر) . فما أبرز الظواهر التى ركز عليها الدكتور عز الدين إسماعيل فى كتابه الأخير : (الشعر العربى المعاصر : قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية) ؟

يرى الباحث أن الأساس الجمالى لفكرة التشكيل الجديد لموسيقى القصيدة يقوم على هذا التصور : (أن موسيقى القصيدة الجديدة تقوم أساساً على هذا الفرض : إن القصيدة بنية إيقاعية خاصة ترتبط بحالة شعورية معينة لشاعر بذاته ، فتعكس هذه الحالة لا فى صورتها المهوشة التى كانت عليها من قبل فى نفس الشاعر ، بل فى صورة جديدة منسقة تنسيقاً خاصا بها ، من شأنه أن يساعد الآخرين على الالتقاء بها وتنسيق مشاعرهم المهوشة وفقاً لنسقها)[2] .

وتأسيساً على ذلك يرى أنه كان من الطبيعى – وقد قامت القصيدة على أساس

(١) قضايا الشعر المعاصر – ص ٧٣ .

(٢) الشعر العربى المعاصر – ص ٦٤ .

جمالى جديد – (أن يحدد الشعراء موقفهم من الوسائل التشكيلية الموسيقية القديمة ، وأبرزها الوزن والقافية ، لم يكن من الممكن الإبقاء على الصورة الجامدة للوزن والقافية ، وكان لابد من إدخال تعديل جوهرى على هذين العنصرين حتى يمكن تحقيق الصورة الجديدة)[1] .

ولكنه سيتدرك : (إن الشعر الجديد لم يلغ الوزن ولا القافية ، لكنه أباح لنفسه – وهذا حق لا مماراة فيه – أن يدخل تعديلاً جوهريا عليهما لكى يحقق بهما الشاعر من نفسه وذبذبات مشاعره وأعصابه ما لم يكن الإطار القديم يسعف على تحقيقه ، فلم يعد الشاعر حين يكتب القصيدة الجديدة يرتبط بشكل معين ثابت للبيت ذى الشطرين وذى التفعيلات المتساوية العدد والمتوازنة فى هذين الشطرين ، وكذلك لم يتقيد فى نهاية الأبيات بالروى المتكرر أو المنوع على نظام ثابت)[2] .

ويلاحظ أن انتهاء السطر الشعرى فى القصيدة الجديدة شىء لا يمكن لأحد أن يحدده سوى الشاعر نفسه (ومن هنا أصبحت القصيدة الجديدة نفساً واحداً أو تكاد ، تتخلل ذلك وقفات ارتياح لابد منها للمتابعة)[3] . . (فإذا كان هم الشاعر التقليدى أن يجود بناء البيت الشعرى لقد صار هم الشاعر المعاصر أن يتقن بناء القصيدة من حيث هى كل)[4] .

ويتتبع الدكتور عز الدين إسماعيل أشكال التجديد والتطور فى موسيقى شعرنا

---

(١) المرجع السابق – ص ٦٥ .

(٢) الشعر العربى المعاصر – ص ٦٥ .

(٣) المرجع السابق – ص ٦٨ .

(٤) المرجع السابق – ص ٦٩ .

المعاصر ، ويحددها فى ثلاث مراحل .

مرحلة البيت ذى الشطرين المتوازيين عروضيا المنتهى بقافية مطردة فى الأبيات الأخرى . .

ومرحلة السطر الشعرى ، وهى المرحلة التى فتتت فيها البنية العروضية للبيت ، واكتفى منها بوحدة واحدة من وحداتها الموسيقية هى « التفعيلة » تقوم وحدها فى السطر أو تتكرر فى عدد غير منضبط فى بقية السطور قد يصل إلى تسع تفعيلات .

ومرحلة الجملة الشعرية ، وهى بنية موسيقية أكبر من السطر وإن ظلت محتفظة بكل خصائصه ؛ فالجملة تشغل أكثر من سطر ، وقد تمتد أحياناً إلى خمسة أسطر أو أكثر[1].

وبخصوص القافية ينبه الباحث إلى أن القصيدة الجديدة لم تهمل القافية ولم تلغها ، ولكنه يضع فهمه لمصطلح القافية على أساس من ضرورة التفريق بينه وبين حرف الروى ، فإذا كانت القافية هى الوحدة الموسيقية التى ينتهى بها البيت فإن القصيدة الجديدة لم تلغها ولم تتخل عنها . . أما إذا كان المقصود منها حرف الروى – كما يخلط غير واحد من الدارسين – فقد آثرت القصيدة الجديدة أن تتخلى عنه من حيث تأكد أنه عامل تعطيل لقدرة الشاعر فى نفض كل أحاسيسه الداخلية على الورق .

ويختلف الدكتور عز الدين إسماعيل مع نازك الملائكة فى إلزامها الشاعر المعاصر بشكل واحد من الأشكال التى يمكن أن ينتهى بها الشطر فى كل القصيدة التى تنزع فى تشكيلها عن فلسفة (الجملة الشعرية) ، وإن كان يوافقها على هذا الإلزام فى القصائد التى تنزع فى تشكيلها عن غير هذه الفلسفة[2].

(١) المرجع السابق - ص ٧٩ - ١١٢ . (٢) المرجع السابق – ص ١١٩ - ١٢٣ .

هذه – أيضاً – هى أبرز الظواهر التشكيلية التى ركز عليها الدكتور عز الدين إسماعيل فى كتابه : (الشعر العربى المعاصر : قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية) ، وبين نازك وعز الدين أرتال من النقاد الذين تصاولوا فى هذا الميدان محاولين أن يضعوا لهذه الظاهرة أساساً تنظيرياً يوائم بين منطق التمرد الذى اجتاحت به هذه الظاهرة سكون الحركة الشعرية العربية المعاصرة من جهة ، وبين منطق التقعيد المنهجى الذى هو الإطار الضابط لتدفق أى من الظواهر الفنية مهما كان جموحها واندفاعها :

فالدكتور محمد النويهى يثور على الشكل التقليدى للقصيدة العربية ، هذا الشكل الذى ظل يستخدم ألفاً وأربعمائة من السنين بل تزيد ، ففقد قدرته على التعبير عن عواطف الإنسان المعاصر . . (ولا شك أنه فى عصوره الأولى استطاع أن يحمل ذخراً عظيماً من الروائع الصادقة ، لكن امتداد الأجل به كانت نتيجته المحتومة أنه استنفد ما كان باستطاعته أن يحمل ، وعمل بدوره على استمرار التقليد ؛ لأنه قد تم ارتباطه بالأفكار التقليدية والمواقف التقليدية والطرق التقليدية فى التعبير عن العواطف البشرية ، وهو فى أغلب ما استعمل فى تاريخه المديد استعمل فى حمل الكذب والافتعال ؛ حتى طغت نبرات الكذب والافتعال عليه ، فصار من العسير ، ثم صار عن المستحيل تصفيته منها وإجلاؤها عنه)[1] .

ويبدو الدكتور النويهى هنا متأثراً تماماً برأى « إليوت » فى ما قاله عن « موسيقى الشعر » ذلك الذى ضمنه الدكتور كتابه « قضية الشعر الجديد » والذى يقول فيه عن شكل القصيدة :

(هناك أشكال تناسب بعض اللغات ولا تناسب لغات أخرى ، وجميع

(١) مجلة الشعر – العدد الثامن – أغسطس ١٩٦٤ .

الأشكال أكثر مناسبة فى عصور منها فى أخرى : فالشكل الذى يتبع نظاماً معيناً فى الإيقاع والتقفية يناسب مرحلة معينة ويكون فيها تشكيلاً طبيعياً مشروعاً للغة الكلام فى نمط شعرى ، ولكن هذا الشكل معرض لخطر الجمود فى الأسلوب الذى كان شائعاً وقت أن بلغ حد كماله . وهذا خطر يزداد كلما زاد الشكل تعقيداً وكثرت القواعد التى يلزم أن تتبع فى تأليفه تأليفاً صحيحاً ، فيفقد الشكل بسرعة صلته بلغة الحديث الدارجة المستمرة فى التغير ؛ لأن الشكل المعين تطغى عليه النظرة الفكرية لجيل سابق ، فلا يثير إلا الاحتقار حين لا يستعمله إلا أولئك الكتاب الذين لا يجدون من داخل أنفسهم دافعاً يدفعهم إلى التشكيل المناسب لهم ، فيلجئون إلى شكل جاهز يصبون فيه عواطفهم السائلة ، آملين أن تستقر فيه وتأخذ قالبه ، ولكن ذلك منهم أمل خائب[1])

ويطلق الدكتور النويهى حكمه بموت الشكل التقليدى وبعجزه التام عن مواصلة الفعل والحياة ، ويرجع ذلك إلى عاملين : طول العهد به ، وغلبة الكذب عليه فى معظم تاريخه الطويل ، ولا ينسى أن ينبه إلى أن هذا الشكل التقليدى كان يحمل منذ البدء جراثيم جموده وتحجره : (وذلك من إسرافه فى الانضباط والتعقيد الشكلى ؛ فالقصيدة التقليدية تقوم على الوحدة الكاملة للبيت ، إذ كل بيت فيها مستقل استقلالاً تاماً إيقاعياً ولغويا ومعنويا ، وإيقاعه يقوم على عدد محدد مضبوط من الأجزاء العروضية المسماة « التفاعيل » يجب أن يلزمه الشاعر فى جميع أبيات قصيدته فلا يزيد عليه أو ينقص منه فى البيت بعد البيت ، ثم إن كل بيت مقسوم إلى نصفين متساويين يسمى كل منهما شطراً ويكرر كل منهما إيقاع الآخر « ما عدا بعض الفروق اليسيرة فى آخر كل منهما » .

---

(١) قضية الشعر الجديد – ص ٢٤ .

وأخيرا يجب أن تنتهى أبيات القصيدة بالقافية نفسها والروى نفسه ، « والروى هو الحرف الذى يتكرر فى قافية القصيدة فتبنى القصيدة عليه وتنسب إليه ، فيقال قصيدة لامية أو رائية أو همزية »[1] .

ويحاول الدكتور محمد مندور أن يبرر هذا التمرد بالبحث له عن ضرورات تاريخية داعية ، فيقول :

(اقتضى المضمون الشعرى الجديد النابع من الوجدان الجماعى أن يلجأ الشعراء إلى صور وقوالب جديدة يصبُّون فيها وجدانهم الجماعى ، وبخاصة بعد أن تغيرت الظروف بعد الثورة ، ولم يعد هناك مجال مستمر للاستنفار الثورى العنيف الذى يلائمه القالب الغنائى التقليدى فى شعرنا العربى ، فرأينا الكثيرين من شعرائنا الجدد يلجئون إلى قالب القصة القصيرة الساذجة حينا وقالب الحوار الدرامى السريع حيناً ، ولما كانت مثل هذه القوالب لا تستدّعى بالضرورة وحدة البيت الشعرى كوحدة للموسيقى الشعرية ، بل يقضى الحوار بتجزئة البيت الواحد إلى تفاعيل وفصل بعضها عن بعض لتوائم القصص أو الحوار – فقد أقدم شعراؤنا على تغيير الصورة مجاراة لتغيير المضمون وتغيير طريقة تصميم القصيدة وبنائها الهندسى)[2] .

وفى هذا يخالف الدكتور مندور نازك والسياب اللذين يريان أن تمرد الشعر المعاصر على الشكل سبق تمرده على المضمون .

ويشير الدكتور مندور إلى طبيعة التغيير التشكيلى الذى طرأ على شعرنا العربى فى هذه المرحلة تبعاً لتُغيير إيقاعه الموسيقى فيقول :

(وكل ما طرأ على الطبيعة الموسيقية لشعرنا الحديث هو أن استغنينا عن وحدة

---

(١) مجلة الشعر – العدد الثامن .

(٢) د . محمد مندور – فن الشعر – ٨٤ – ٨٥ .

البيت الموسيقية بوحدة التفعيلة مع توزيع التفعيلات فى مقطوعات تستقل وتتكامل مع المقطوعات الأخرى لتحقق الوحدة الموسيقية الكاملة للقصيدة : أى أن كل ما حدث هو تغير التوزيع الموسيقى داخل القصيدة ، وأما إهدار تلك الموسيقى إهداراً كاملاً فهول لا يستطيع أن يقره شاعر موهوب أو ناقد مستنير)[1] .

وهو يبنى تصوره لضرورة الموسيقى فى الشعر على أساس أن الموسيقى ليست حلية ولا وسيلة تطريب . (بل إنها وسيلة أداء تصل إلى التعبير عن مفارقات المعانى وظلالها العاطفية ، بل وألوانها النفسية التى كثيراً ما تعجز اللغة المنثورة عن استخراجها من باطن النفس)[2] .

ويربط الدكتور عبد القادر القط بين ظهور الأشكال الجديدة فى الفن وبين الانقلاب الحضارى فيقول :

(فالفن الجديد فى أى عصر من العصور لا ينبع من عجز أصيل فى الفن الذى سبقه ؛ وإنما ينبع من مفهوم حضارى جديد للفن ، ومن نظرة جديدة عند الفنان نحو الحياة والعلاقات الإنسانية تخالف نظرة الفن السابق الذى كان يعبر عن روح حضاره مختلفة ، ثم فقد وظيفته بانتهاء هذه الحضارة . فالرسم التجريدى – مثلاً – لم يظهر لأن فى الرسم القديم عجزاً أصيلاً فى طبيعة ألوانه وخطوطه يجعله غير صالح لتصوير انطباعات الفنان عن الحياة ، ولكنه ظهر لتغيّر فى مفهوم التصوير وفقدان نظرية المحاكاة لوظيفتها الحضارية ، وهكذا تظهر الأشكال الشعرية والفنية الجديدة نتيجة لحاجة الفنان إلى التعبير عن تجارب ومفاهيم جديدة لابد بالضرورة أن تحدث

(١) د . محمد مندور – فن الشعر – ص ١١٨ – ١١٩ .

(٢) المرجع السابق – ص ١١٨ .

لها عن أشكال تلائمها)[1].

ويتأمل أدونيس والبياتى ونزار قبانى القضية من منطلق شعرى لا يخلو من ذكاء موضوعى : فيعرب أدونيس عن قصد حيله من التمرد على تشكيل القصيدة العربية فى نسقه الخليلى على هذا النحو : (لا نقصد أن نرفض الشكل ، كشكل ، بل كنماذج مسبقة ، وأصول تقنية قبلية ، نقصد أن يتجرد الشعر من كل قالب مفروض ، وألا يخضع لغير الفن ، إن للشعر الجديد أشكاله الخاصة ، فللقصيدة الجديدة كيفيتها الخاصة ، وطريقتها التعبيرية الخاصة ، ولها بمعنى آخر ، نظامها . فشكل القصيدة الجديدة هو وحدتها العضوية ، وهو واقعيتها الفردية التى لا يمكن تفكيكها قبل أن يكون إيقاعاً أو وزناً . هذه الوحدة العضوية لا تقيم بشكل تجريدى ؛ لأننا حين نفصلها عن القصيدة تصبح وهماً ؛ ليس لهيكل القصيدة الجديدة واقعية جمالية إلا فى حياة القصيدة . . فى حضورها كوحدة وككل)[2] .

كما يتحدث البياتى عن تجربته الشعرية وتمرده على الشكل التقليدى على هذا النحو : .

(دفعنى فهمى لموسيقى الشعر المرتبطة بنوعية ومدى التجربة الشعرية إلى البحث عن إيقاع موسيقى خارجى يتسق مع إيقاع التجربة الجديدة ، تجربة تقويض أبنية قديمة واختيار أثمن ما فيها لتشييد بناء جديد لحمته وأكثر سداه ينعكس من واقع اجتماعى وفكرى ووجدانى مختلف)[3].

ويغلو نزار فى تقنيع رؤيته النقدية لقضية الشكل بقناع شعرى فيقول :

(١) د . عبد القادر القط – قضايا ومواقف – ص ١٠٢ .

(٢) أدونيس . زمن الشعر – ص ١٧ .

(٣) عبد الوهاب البياتى – تجربتى الشعرية – ص ١٨ .

(الإنسان هو الذى يصنع قوالبه ، وليست القوالب هى التى تصنع الإنسان . وليس فى الفن أشكال نهائية أو أبدية . فالأثواب الجاهزة لا تطيقها أجساد الموهوبين . وكل موهوب يختار الثوب الذى يستريح فيه)[1] . . (. . لا شاعر عربى - مهما كان مجيداً - يستطيع أن يدعى أن جميع قوافيه مستريحة ، وأنه دائماً فى أحسن حالاته ، فالقافية برغم كل سحرها وإثارتها - نهاية يقف عندها خيال الشاعر لاهثاً . إنها اللافتة الحمراء التى تصرخ بالشاعر (قف) حين يكون فى ذروة اندفاعه وانسيابه فتقطع أنفاسه ، وتسكب الثلج على وقوده المشتعل ، وتضطره إلى بدء الشوط من جديد . والبدء من جديد معناه الدخول - بعد الصدمة - فى مرحلة اليقظة أى مرحلة النثر ، وبتكرر الصدمات تصبح أبيات القصيدة عوالم نائية ، وطوابق مستقلة فى بناية شاهقة . . هذه الطريقة فى عمارة القصيدة العربية جعلتها قصيدة بيت واحد . نستعمله فى حديثنا حكمة مرسلة ، ونعلقه على جدران بيوتنا مكتوباً بماء الذهب)[2] .

فإذا كانت هذه هى أهم المقولات التى أسفرت عنها حركة التمرد التشكيلى فى الشعر العربى المعاصر فإن هذه الحركة تكون بالتأكيد حاملة لفلسفة نشوئها واندفاعها واستمرارها جميعاً ، وقادرة فى الوقت نفسه على تطوير ذاتها ومجالاتها بلا مبالاة .

إن رفض الجمود على قاعدة ثابتة ودفع الفن فى اتجاه الحياة الجارية على نواميس التطور يعطى الشعر وجهه الحضورى المستجيب لإيقاع الحياة المعاصرة . والمعبر عن كل ما يجيش فى أطواء هذه الحياة المعاصرة من قضايا ونوازع واحتدامات ، كما يعطيه حس تجاوز النماذج المسبقة والأصول التقنية القبلية .

---

(١) نزار قبانى - الشعر قنديل أخضر - ص ٣٦ .

(٢) المرجع السابق - ص ٣٧ - ٣٨ .

وتخليص القصيدة العربية من إسار وحدة البيت ودفعها فى طريق وحدة التفعيلة يعطى هذه القصيدة إمكان أن تحتاز وحدتها العضوية النامية . وأن تعبر عن عالم الشاعر الذاتى والموضوعى فى غير ترهل ولا ضمور ، وأن تحقق لنفسها نوعاً من التماسك البنائى المتوازن .

وطرح القافية الضاغطة ، واستبدالها بقافية مرنة أو بإيقاعات داخلية – يعطى العمل الشعرى حرية تَضْوِيئه للمضامين التى يريد تضويئها ، مع الاحتفاظ بقيمة الإيقاع والضبط التى تخلقها القوافى الداخلية أو القافية التى ينتهى بها السطر الشعرى فى شكله الجديد ، كما يعطيه تجنب الوقوع فى نثرية الإحساس والصحو الذى يفقد التجربة حرارتها ، ويُقَرِّب العمل الشعرى دائماً من دوائر القصة والمسرحية والملحمة .

والتمرد فى وجه الشكل الكلاسيكى للوصول إلى قيمة التعبير عن مضمون حضارى أشمل – يعطى الشاعر قدرة تشكيلية أرحب يستطيع من خلالها أن يعكس المضامين الحضارية المركبة التى قد تقف هندسة التشكيل التقليدى فى طريق التعبير الدقيق عن أبعادها الغائرة .

والتزام الشعر الحر بقانون عروضى معين ، وبتشابه التفعيلات فى الأشطر تشابها تاما ، وباستدعائه التفعيلة المنفردة فى الشطر كشرط لا يجوز الخروج عليه – يعطى هذا الشعر الحر ملامح الالتزام وليس ملامح الفوضى التى حاول دعاة القديم أن يلصقوها به ، وأن يضيفوه إليها .

٨ ووضع أساس جمالى ينهض عليه التشكيل الجديد ليحدث نوعاً من المواءمة بين الإيقاع وعالم الذات – يعطى حركة التمرد فى هذا المجال أساساً فلسفيا تصدر عنه مقولاتها وتطبيقاتها ، ويضفى عليها طابعاً منطقيا يتيح لها مكاناً فى حركة التاريخ .

وجريان التطور الذى تعرض له الشعر المعاصر فى مراحله الثلاث : مرحلة البيت الشعرى ، ومرحلة السطر الشعرى ، ومرحلة الجملة الشعرية — يعطى هذا التطور منطق النشوء والارتقاء إذا جاز أن يقال : بمعنى أن تمرد الشعراء لم يتجاوز ظاهرة إلى ظاهرة ، ولا مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية إلا وفق منطق طبيعى يضع الظاهرة فى مناطها التاريخي بلا تعسف أو ابتسار .

وربط التشكيل الجديد بتغير الوجدان الجماعى ، وبتغير الوضعية الحضارية — يعطى هذا التشكيل معنى الحلول فى قلب الحركة الاجتماعية من جهة ، ومعنى الحلول فى قلب الحضارة الإنسانية من جهة أخرى ؛ وبهذا يصل إلى تحقيق طموحه الأول : أن يكون وطنياً وعالميا ، وهو طموح هائل ومضىء .

ومحاولة خلق الأبعاد الزمانية والصوتية والفلسفية فى القصيدة الجديدة ، يعطى هذه القصيدة قدرتها على (التجول) فى التاريخ ، والتنويع على أكثر من لحن . واحتواء أعقد المضامين الفكرية والحضارية لمبارحة الغنائية المسرفة التى أنقضت كاهل شعرنا القديم .

وهكذا يخرج التمرد على الشكل فى إطار القصيدة العربية على تاريخه كله . فيتجاوز منه ما لا يلائم حركة التطور التقنى والحضارى ، ويرتفق منه ما ينحنى فى داخله على عناصر الحركة والتطور ومواءمة المد الثقافى فى العالم المعاصر .

وإذا كنا قد ركزنا — فيما مضى — على جوانب الإيجاب فى الظاهرة التشكيلية الجديدة — فإن جوانب السلب التى ركز عليها فريق من النقاد تبدو فى معظمها — إذا استثنينا جانباً من آراء العقاد — شديدة التعميم أو شديدة التعصب . وقد يرجع ذلك إلى أن هؤلاء كانوا صدى للعقاد ، أو حواريين لا يريدون أن يغضبوا أستاذهم فى شىء يعرفون عنه أنه يناهضه ويصادر وجوده .

إن آراء الدكتور شوقي ضيف – التي تتعلق بقضية الشعر الحر – في كتابيه : (الأدب العربي المعاصر في مصر)[1] ، و (في النقد الأدبي)[2]. لا تخرج على كونها تسجيلاً وثائقيا لبروز ظاهرة أدبية ، ثم إعطاء حكم عام وسريع بحتمية سقوط هذه الظاهرة في ظلام الضياع !

وكذلك تبدو آراء الدكتور زكي نجيب محمود لوناً من المساندة المنطقية المقتسرة تعاطفاً مع العقاد . ثم مع لجنة الشعر التي كان عضواً من أعضائها البارزين ، والتي كتب باسمها مذكرة إلى وزير الثقافة في عام ١٩٦٤ يضمنها رأي اللجنة القاطع في قضية الشعر[3]. . ومن خلال هذه المذكرة يسفر الدكتور زكي نجيب محمود عن رأيه في قضية « الشكل » فيقول :

(. . وبديهي أنه إذا أريد لشخصية الأمة ، بل إذا أريد لشخصية الفرد الواحد أن تظل محتفظة بطابعها المميز – فلا مناص من قيام إطار يدوم على مر التاريخ ليكفل لها الثبات . برغم تنوع المضمون الفكري داخل هذا الإطار عصراً بعد عصر ؛ لأنه إذا تحكم الإطار في كل مرحلة يتغير التفكير خلالها – فأين يكون الرباط بين يومنا والأمس ؟ وما هذا الإطار الثابت إلا مجموعة القيم التي يتواضع أبناء الأمة الواحدة على أن يقيسوا أمورهم بها قياساً يتسم بالمرونة الحية) . . . (وإنه لما يلفت النظر في الداعين إلى موجة التهديم أنهم كأنما يؤذيهم أن يروا الشكل التقليدي المراد تحطيمه متمثلاً في قمم شوامخ من شعراء العربية الأقدمين

---

(١) انظر ص ٧٥ وما بعدها .

(٢) انظر ص ١٠٨ – ١٠٩ .

(٣) انظر نص المذكرة في كتاب (قضايا ومواقف) للدكتور عبد القادر القط – ص ٩ – ١٣ .

والمحدثين . فتراهم يجعلون جزءاً من خطتهم أن يطيحوا بتلك القمم) .

وربما كانت هذه الحجة الأخيرة – هدم التراث وتحطيم عمود الشعر – محورها ما دار من هجوم كاسح على حركة الشعر الحر ، وكان أضرى هؤلاء المهاجمين هم الشعراء التقليديون الذين لا يملكون من أسلحة النقد الموضوعى سوى أن يكيلوا الاتهامات لأنصار الحركة الجديدة ، بدءاً من العمالة للمخابرات الأجنبية وانتهاء بقصد هدم العمود الشعرى والتراث العربى !

وانبرى لهؤلاء الغاضبين جيل من النقاد الدارسين حاول – ليس فقط أن يبرر تمرد الحركة على عمود الشعر التقليدى – وإنما نهض ليؤصل للحركة فى تراثنا القديم الذى زعموا أنه مقصود بالهدم والتخريب ، فكانت ردودهم الموضوعية إسهاماً حقيقيا فى استقرار الحركة ، وإرساء فاهماً لتقاليدها الفنية والحضارية .

يقول الناقد أحمد أبو سعد فى كتابه : (الشعر والشعراء فى العراق) :

(إن عمود الشعر العربى لم يتحطم على أيدى السائرين فى اتجاه الشعر الحر ، وإن هؤلاء المتحررين هم أشد غيرة على التراث من أتباعه ؛ فهم لا يعربون عن حفظهم له بتحيطه . ولكنهم يدفعونه إلى الأمام ، ويكشفون عن عبقريته التى تنفتح للجديد ، وتقبل التطور ، ولهم من اعتبارات الأوائل ما يبيح لهم هذا التصرف . فقد روى عن الأقدمين أن الخليل بن أحمد حين قرر ما قرر لم يقصد به إلى أنه كذلك قضية حاصرة ، أو قضى بعدم جواز الخروج عليه حتى نأخذ عمله بعد ذلك على وجه الإلزام للشاعر بألا يحيد عنه : يقول الشيخ العلايلى فى كتابه « مقدمة لدرس لغة العرب » الصادر عام ١٩٣٧ :

« العروض هو الفرع الوحيد الذى بقى لا يدين إلا إلى عمل واحد فقط ، فنحن ندرسه على ترسم لحدود الخليل ، وعلى أنى أرى فى الخليل أمة عبقرية ،

ونسقاً فذاً ، فلا أستطيع إلا أن أحكمه بالشخصية التى لا يمكن أن تجىء إلا فى آفاق محدودة . . وكأنما لمس هذا أو لمسه بالفعل السكاكى فى بحث الشعر من « المفتاح » فقال ما خلاصته : « لا يظنن أحد أن الزيادة على ما حصر ليست من كلام العرب ، فهذه الزيادة تنادى بأعلى صوتٍ :

لقد وجدت مكان القول ذا سعة   فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

على أننا نقول : من أنبأ هؤلاء أن الخليل والأئمة من بعده لم يكونوا يرون الزيادة على ما حصر هى من حيث الوزن مستقيمة (مفاتيح العلوم ص ٢٧٥) .

ثم يمضى العلايلى فيهتف قائلاً :

« وعلينا أن نحرر من أمر هذا العروض ما يتساوق مع مطالبنا ، ويتسع لها . وينهض بالأدب . ونحن من اعتبارات الأوائل بين ما يبيح لنا هذا الأخذ ؛ فقد ذكروا فى حد الشعر أنه القول الموزون دون زيادة قيد (على نهج مخصوص) مما يعلننا بأنهم لا يتحرجون من قبول النظم على غير الموازين المحفوظة ، أو عليها مع تغييرات فى الضروب لم تحفظ ، ولا يستضيقون من إطلاق كلمة شعر عليها ، وإن خرجت على مألوف ما أثر . ويؤكد هذا قول السكاكى حين عرض لتعريف الشعر قال : « ومذهب الإمام الزجاج فى الشعر أنه لابد من أن يكون شعراً ، ولا أدرى أحداً تبعه فى مذهبه هذا »[1] .

مما تقدم يتضح لنا أن التقيد بالخليل أو ترسم حدوده غير وارد حتى عند الأقدمين ولا ملزم لهم . وقد روى عن الزمخشرى أنه قال فى القسطاس : « والنظم على وزن مخترع خارج على أوزان الخليل لا يقدح فى كونه شعراً ولا يخرجه عن كونه شعراً » فكيف إذا كان الشعر غير خارج على الوزن فى أساسه ، بل كان جل

---

(١) عبد الله العلايلى : مقدمة لدرس لغة العرب – ١٩٣٧ .

ما فعله أنه لم يشترط كالخليل وحدة القافية ولا اكتمال التفاعيل ؟ أظن أنه حينئذ لا يكون فقط داخلاً فى التراث بل نابعاً من صميمه »[1] .

لم تكن هذه الرحة هى كل ما تعرض له « شكل » القصيدة العربية فى هذه المرحلة ، وإنما تعرض هذا الشكل لنوعين آخرين من التمرد لزحزحته عن مكانه ، وإحداث تغيير جذرى فى عروضه وموسيقاه . . فكانت (القصيدة المدورة) ثمرة التمرد الأول ، وكانت (قصيدة النثر) ثمرة التمرد الآخر .

والتدوير مصطلح عروضى قديم ، وهو اشتراك الشطر الأول والثانى من البيت الشعرى فى كلمة واحدة بأن يكون بعضها من الشطر الأول وبعضها من الشطر الثانى مثل :

إن مانولتنى مد ـــــ لك وإن قل – كثيرا !

ثم انتقل فى الشعر الحر إلى نهاية الجملة الشعرية فوصلها بأول الجملة التالية بحيث صارت القصيدة أو المقطع نفساً واحداً لو توقف القارئ قبل تمام المقطع أو تمام القصيدة المدورة لحدث الكسر العروضى . يقول (حسب الشيخ جعفر) الشاعر العراقى :

بمقبرة خلف برلين يرقد طفل من النخل ، قيل :
استراح ابن جودة ، هل يذكر السرو ، منحنياً .
فوق قبر ابن جودة طفلين فى النخل يحتطبان ؟
اهدئى عند جرفك أيتها الموجة ، الصبية
الساحبون المهازيل فى الريح والبرق ينتظرون

(١) أحمد أبو سعد -- الشعر والشعراء فى العراق – ص ١٧ .ما بعدها

التى وجهها فضة ، فى مقاه مقاعدها خشب
أو حصير ، قرأنا الجرائد والنسوة السافرات
اهدئى عند جرفك أيتها الموجة . . .[1]

إلى آخر القصيدة . . مما يشد القارئ إلى قراءتها دفعة واحدة حتى لا يحس بالنشاز الموسيقى إن هو حاول إن يتوقف قبل تمامها . . وقد ترخص بعض أنصار الشعر الحر – قبل اندلاع هذه الموجة – فى أن تحتوى الجملة الشعرية على تسع تفعيلات[2] بعضها يحسن السكوت عليه ، وكانوا فى ذلك شبه مغالين فى إعطاء الحرية لهذا الاستطراد ، ولم يكن يدور بخلدهم أنهم سيواجهون القصيدة النفس الواحد التى ترفض كمّ الحرية الضيق الذى خيل إليهم يوماً أنهم كرماء فى منحه لأقلام المبدعين .

أما (قصيدة النثر) فتبرر سلمى الخضراء الجيوسى ظهورها على هذا النحو : (يبدو لى أن فى تاريخ الشعر العربى الحديث نموذجاً كرر نفسه منذ بداية القرن . إن الشاعر الحديث عندنا يبدو كأنه يصارع الزمن ويسابقه ، فهو أبداً منقلب على نفسه ، لا يكاد يجد حلاً لمشكلة الشعر الذى كان يكتبه الجيل الذى سبقه حتى يتاح له من يتهم شعره المتجدد بالرجعية والتأخر ، وأظن أن هذا هو ما حدث إلى حد ما فى مجال الشكل الشعرى ، ولكن علينا أن نضيف إليه عاملاً آخر هو كثرة التقليد والتكرار الممل المرهق فى الشعر الحر . . وبما أن عودة الشاعر الحديث الآن إلى شكل الشطرين لم تزل متعذرة بسبب الامتلاء والاتباع اللذين ما نزال نعانيهما منه فإن الشعر المكتوب بالنثر يبدو شيئاً معافى ، وبناء متماسكاً ، وملجأ أكثر

(١) حسب الشيخ جعفر – زيارة السيدة السومرية – ص ٩ – ١٠
(٢) انظر : الشعر العربى المعاصر – لعز الدين إسماعيل – ص ١٠٢ وما بعدها

رسوخاً ، وعطاء أكثر استقلالاً وتفرداً)[1] .

ويدخل أدونيس إلى عالم البناء الفنى للقصيدة الشعرية ليحدد طبيعة الفروق الجوهرية بين ما هو شعر وما هو نثر منتصراً لقصيدة النثر بالطبع فيقول :

(من القضايا الشكلية الثنائية التى تثار ضد الشعر الجديد - قضية التعبير بغير الأوزان التقليدية ، فحيث لا تكون أوزان - فى رأى من يثيرونها - لا يكون شعر . . ! إن تحديد الشعر بالوزن تحديد خارجى سطحى قد يناقض الشعر ، إنه تحديد للنظم لا للشعر ، فليس كل كلام موزون شعراً بالضرورة ، وليس كل نثر خالياً بالضرورة من الشعر . إن قصيدة نثرية يمكن بالمقابل ألا تكون شعراً ، ولكن مهما تخلص الشعر من القيود الشكلية والأوزان ، ومهما حفل النثر بخصائص شعرية - تبقى هناك فروق أساسية بين الشعر والنثر :

وأول هذه الفروق - هو أن النثر اطراد وتتابع لأفكار ما ، فى حين أن هذا الاطراد ليس ضرورياً فى الشعر .

وثانياً - هو أن النثر يطمح لأن ينقل فكرة محدودة ، ولذلك يطمح لأن يكون واضحاً ، أما الشعر فيطمح لأن ينقل شعوراً أو تجربة أو رؤية ، ولذلك فإن اسلوبه غامض بطبيعته .

وثالث هذه الفروق : هو أن النثر وصفى وتقريرى ذو غاية خارجية معينة ومحدودة على حين أن غاية الشعر إنما هى فى نفسه ؛ فمعناه يتجدد دائماً بتجدد قارئه . . لا يجوز إذن أن يكون التمييز بين الشعر والنثر خاضعاً لمنطق التركيب اللفظى ، أو للوزن والقافية ، فمثل هذا التمييز شكلى لا جوهرى . ومن جهة أخرى ليس الشعر نثراً سامياً أو نثراً معجزاً ، إذ ليس الفرق بين الشعر والنثر فرق فى

(١) مجلة عالم الفكر - ص ٤٥ .

الدرجة ، بل فرق فى الطبيعة »[1] .

ويلخص أنسى الحاج عناصر البناء الشكلى فى قصيدة النثر فيقول :

(لتكون قصيدة النثر قصيدة نثر ، أى قصيدةً حقاً لا قطعة نثر فنية أو محملة بالشعر — يجب توافر شروط ثلاثة : الإيجاز (أو الاختصار) ، والتوهج ، والمجانية)[2] .

من هذا كله — نستبين أن (قصيدة النثر) تمرد على الوزن بكل وحداته البيتية والشطرية والإيقاعية ، وأنها (ذات وحدة دائرية مغلقة ، وحدة عضوية ، هى كثافة وتوتر قبل أن تكون جملاً أو كلمات)[3] .

* * *

وهكذا تبدو المرحلة الأخيرة من مراحل التمرد على (الشكل) فى بناء القصيدة العربية أخطر مراحل هذا التمرد ، لأنها دفعت إلى الساحة بأشمل حركة غاضبة فى وجه الشكل وهى حركة (الشعر الحر) ، ولأنه قفّت على ذلك بحركة أخرى أكثر إيغالاً فى عصيان قوانين الشكل وهى حركة (القصيدة المدورة) ، ولأنها تابعت هجومها الفادح على قضية الشكل من خلال حركة (قصيدة النثر) ، ثم لأنها ترهص — على يد شعرائها — بمزيد من الغضب والعصيان والتمرد الشامل على كل قواعد الشكل — وصولاً إلى عالم شعرى آخر يختلف فيه التشكيل الحالى تبعاً لاختلاف الرؤية الشعرية للواقع ، ويتخطى مراحل البيت والسطر والجملة والمقطع والتدوير والنثر إلى ما لا ندرى من الحدود الرافضة للحدود !

---

(١) أدونيس — زمن الشعر — ص ١٨ — ١٩ .

(٢) أنسى الحاج — لن — ص ١٢ .

(٣) أدونيس — مجلة شعر — ربيع ١٩٦٠ .

وهنا لابد أن ننبه إلى أننا قد تخطينا كثيراً من ظواهر التمرد التشكيلي التي يمكن أن تتصف بالهامشية ، أو بكونها جزءاً من ظاهرة عامة آصل منها وأشمل : كالقصيدة الحوارية ، والقصيدة الديوان ، إلا أن هذه جميعاً كما قلنا يمكن أن تكون مضوية فى طواهر عامة أقرب إلى منطق التأصيل والتنظير .

. . .

الفصل الثانى

التمرد على المضمون

من الضرورى أن نحدد هنا – أولاً – ما نفهمه من مصطلح « المضمون » ، فليس المضمون هو الموضوع الشعرى الذى يختاره الشاعر من بين حشود الموضوعات فحسب ، ولكنه الموضوع المنتخب والمعالج برؤية الشاعر الخاصة وفلسفته الحياتية والفنية الشاملة . لأن ما يميز شاعراً من شاعر ليس هو اختيار موضوع رائع أو متواضع ، وإنما هو طريقة انتخاب الموضوع وطريقة معالجة هذا الموضوع فى الوقت نفسه من زاوية الرؤية الخاصة التى ينزع عنها الشاعر فى إبداعه الفنى .

ولقد تعرضت قضية (للشكل والمضمون) فى الفكر الأدبى المعاصر لكثير من موجات المد والانحسار : فبينما أعطت الحركة النقدية – التى تدين بالنظرة السلفية إلى الفن – أغلب اهتماماتها للشكل باعتباره مظهر الانتماء التاريخى للتراث العربى فى فحولته وجزالته[1] أعطت الحركة النقدية التى تدين بالنظرة التقدمية إلى الفن –

(١) انظر : الرافعى والبشرى والزيات .

أغلب اهتماماتها للمضمون، وكانت فلسفاتها فى هذا الصدد تتردد بين انتماءاتها التاريخية إلى روح الثقافة المعاصرة[1] ، وروح الطبيعة الخالدة[2] ، وروح الطبقات الكادحة فى عراكها البطولى مع واقعها المادى والحضارى والإنسانى[3] .

كان هذا هو واقع « الفكر » الأدبى المعاصر فى مطالع هذا القرن ، أما واقع « الفن » فقد مثلت فيه الكلاسيكية الشعرية جانب الاهتمام بالشكل ؛ كما مثلت فيه مدرسة الديوان ومدرسة المهجر وجماعة أبولو ومدرسة الشعر الحر جانب الاهتمام بالمضمون ،

فإذا سلمنا بأن كلا من الشكل والمضمون يؤثر أحدهما فى الآخر ويتأثر به — فقد كان من الطبيعى أن يكون مناط المسايرة والموافقة هو الجانب الكلاسيكى الذى يعمل على (بعث) و (إحياء) التقاليد العربية القديمة فى الفكر والفن . . وأن يكون مناط التمرد والخروج هو الجانب التقدمى الذى يعمل على (نقض) و (تعصير) التقاليد العربية فى الفن والفكر .

ولكن هذا التعميم لا يمنع أن يخرج من بين الكلاسيكيين من يتمرد على واقع المضمون والشكل — كالزهاوى — فى شعره المرسل وثورته فى الجحيم ، وأن يخرج من بين التقدميين من يساير واقع الشكل والمضمون — كزكى قنصل من شعراء المهجر — فى هجائه اللاذع لحركة الشعر الحر ، وتنديده القاسى بتجديد جبران .

وبديهى أن (تغليب) جانب الشكل ، أو (تغليب) جانب المضمون لا يلغى — فى العمل الفنى — أياً منهما على الإطلاق ؛ لأن العمل الفنى إذا فقد

---

(١) انظر : مدرسة الديوان .

(٢) انظر : المهجر وأبولو .

(٣) انظر : مدرسة الشعر الحر .

جناحا من جناحيه هذين صار إلى العجز الكامل والشلل الطبيعى ، إنه فقط يتيح للفنان أن يميل مرة هنا وأن يميل مرة هناك ، بلا تخل مطلق عن أى منهما حتى لا يتخلى عن وضعية كونه فناً .

وإذن فقد يكون من المفيد أن نتفق على أن أى « مصمون » فنى لا يمكن أن يقوم منفصلاً عن « شكله » الفنى . . (إن الموضوع يمكن أن يقوم منفصلاً عن الشكل ، ولكنه فى هذه الحالة لا يكون عملاً فنياً)[1] . . . (ذلك أن الشعر كيان ذو شكل لا تنفصل فيه المادة عن الصورة)[2] . . . (والشكل – بداهة – هو قوة المضمون ووحدته وتركبه ، وليس قالبه أو وعاءه الذى يحفظ فيه)[3] . . . (والموضوع هو الذى يحدد الشكل ، ومن ثم فالشكل هو الذى يكيف الموضوع ويحيله من خبرة عادية إلى خبرة فنية)[4] . . . (ومعنى ذلك أن مادة النموذج الأدبى وصورته لا تفترقان ؛ فهما كُلٌّ واحد ، وهو كل يتألف من خصائص جمالية مختلفة قد يردها النظر السريع إلى الخارج أو الشكل ، ولكنا إن أنعمنا النظر وجدناها ترد إلى الداخل والمضمون ، فهى تنطوى فيه ، أو قل تنمو فيه ، كما تنمو الشجرة من ساق ضئيلة وتتشعب إلى فروع وأغصان كثيرة)[5] . . . وإذن فالمضمون والشكل (يرتبط كل منهما بالآخر برباط وثيق فى تفاعل جدلى)[6] .

(١) د . رشاد رشدى – ما الأدب – ص ٤٢ .

(٢) د . مصطفى ناصف – دراسة الأدب العربى – ص ١٠٠ .

(٣) د . مصطفى ناصف – دراسة الأدب العربى – ص ١٠٢ .

(٤) د . رشاد رشدى – ما الأدب – ص ٤٤ – ٤٥ .

(٥) د . شوقى ضيف – فى النقد الأدبى – ص ١٦٤ .

(٦) أرنست فيشر – ضرورة الفن – ص ١٧٢ .

هذه مقدمة قد يكون من المفيد أن نتفق على مقولاتها أولاً ؛ حتى لا يظن أننا نقصد من وراء الحديث عن « الشكل » والحديث عن « المضمون » أننا نعزل فى العمل الفنى بينهما ، أو أننا نشطر القصيدة إلى شكل أجوف وإلى مضمون مجرد ؛ فنحن ندرك جيداً أن القصيدة الشعرية الناجحة هى الشكل المحنى على مضمونه فى وحده عضوية متدامجة ؛ كالزهرة وأريجها ، لا تستطيع أن تفصل بينهما إلا إذا شئت أن تخرج بالزهرة عن وضعيتها الوجودية التى هى بها ما هى ، إلى شىء آخر مختلف قد يعرف الاقتدار العلمى أن يفصل عنصراً فيه عن عنصر ، فتصبح الوضعية الوجودية للزهرة ليست هى الوضعية الوجودية ، وإنما تصبح وضعية عناصر شتى يحمل كل عنصر منها ملامح وجود جديد .

والعملية النقدية تحاول أن تقترب من منطق العلم فى التشريح وعزل العناصر بعضها عن بعض ، حتى تستطيع إعطاء حكم موضوعى على كل عنصر بعيداً عن العناصر الأخرى ، مع إيمانها البدئى بأن العمل الشعرى لا يصبح عملاً شعرياً إلا إذا توحد فيه الشكل والمضمون بدرجة ما .

فلندع هذه القضية إذن ، ولنحاول فى ضوء هذه النظرة أن نستقصى ملامح التمرد على المضمون فى الشعر العربى المعاصر ، ولنضع تحت أعيننا دائماً أن ضرورة المواجهة النقدية هى التى فرضت على هذه الدراسة أن تنظر إلى المضمون فى معزل عن الشكل ، ولنذهب أبعد من المعاصرة قليلاً ؛ لنرى كيف كانت ملامح القضية . . وماذا أعطت المعاصرة هذه الملامح من تمردات ؟

كان البارودى رائد البعث فى الشعر العربى الحديث بإجماع آراء النقاد والباحثين ، (فإذا أرسلت بصرك خمسمائة سنة وراء عصر البارودى لم تكد تنظر إلى قمة واحدة تساميه أو تدانيه ، وكنت كمن يقف على رأس الطود المنفرد

فلا يرى أمامه غير التلال والكثبان والوهاد إلى أقصى مدى الأفق البعيد »[1] . . .
وكانت ريادة البارودى قائمة على محاولته الفذة فى استخلاص القصيدة من قبضة المحسنات البيانية والبديعية الباهظة ، وعلى محاولته الابتكار والرجوع بالقصيدة إلى عصر سطوعها وامتيازها ، وقد استطاع بالفعل أن يجدد شباب الشعر ، وأن يجعل منه إطاراً للمضامين التى تموج بها الحياة من حوله ، وأن يخرج بالتعبير الشعرى عن الغياب الكامل فى ألاعيب الزخرف والصناعة الجامدة ، إلى التعبير عن « الشخصية » تعبيراً حقيقياً – (ولهذا بزغت مقومات . . « الشخصية » البارودية من وراء حجب الأوضاع وأعباء العرف والاصطلاح ، فعرفنا الرجل من شعره على صورة كالتى عرفناه بها فى سيرته وأخباره)[2] . . .

وإذا كان البارودى قد عارض فى شعره ، أو احتذى ، أو حاكى – فإنه كان يفعل ذلك عن وعى يقينى بأن حركة الشعر فى عصره محتاجة إلى أن تغوص فى أعمق أعماق التجربة الشعرية العربية فى عصورها المتألقة ، وبخاصة فى العصر العباسى الذى وصل الشعر فيه إلى ذرا عالية من الإجادة والشمول (فهو لم يكن مقلداً للقدماء بالمعنى السيئ للتقليد ، إنما كل ما هناك أنه يريد أن يرد إلى شعرنا جزالته ونصاعته ورصانته)[3] . . . (وربما كانت محاكاة البارودى للأقدمين هى أنفع ما فى شعره للأدب المصرى الحديث ؛ لأنه رد إلى المعاصرين يقين القدرة على مجاراة العباسيين والمخضرمين والجاهليين فى ميدان اللغة والتركيب بما أتقن من معارضتهم فى المذاهب والأساليب ، وليس أدعى من هذه الثقة إلى الابتكار

---

(١) عباس محمود العقاد – شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى – ص ٩٠ – ٩١ .
(٢) المرجع السابق ص ٩٨ .
(٣) د . شوقى ضيف – الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٤٤ .

والاستقلال والاعتماد على النفس والإفلات من قيود التقليد !

فإذا حسبنا للبارودى سليقته المستقلة و « شخصيته » المعبرة ونزعته إلى الاعتراف بحق العصر على الشاعر – فلا ننسى أن نحسب له جودة التقليد وما استتبعه من حسن الثقة وعزيمة النهضة . وللبارودى بعد هذه الآية آية أخرى ، وهى أن الفضل الذى له على عصره أكبر من الفضل الذى لعصره عليه ؛ فما جاء به من عند نفسه كثير لا يقاس إليه ما يجئ من قدرة معاصريه ، وذلك وحده خليق أن يبوئه زعامة جيله ويقدمه إلى طليعة معاصريه وتابعيه »[1] .

كان هذا هو محور الدور الذى نهض به البارودى رائد (البعث) و (الإحياء) : محاولة العودة بإطار القصيدة ومحتواها إلى عصر فتائها واخضرارها ، والعبور بها فوق مساحات زمنية وفنية مختلفة أنقضت كاهلها بألوان من التعقيدات الشكلية والمعنوية ، وإعطائها ملامح شاعرها حتى تتضح الفوارق الذاتية والموضوعية فى العمل الفنى بين قصيدة لشاعر وقصيدة أخرى لشاعر آخر .

ولكن كل ذلك تم على يد البارودى من خلال انعطافه نحو الماضى بكل تقاليده التراثية ، وليس من خلال استشرافه المستقبل بكل ما ينطوى عليه من احتمالات التجديد ، فبقى (التمرد) فى هذه الحركة شيئاً أشبه بحنين الرجل للعودة إلى عالم الطفولة الأول ، وليس إلى تمام النضج والتجريب .

* * *

وإذا كانت حركة البعث أو الإحياء التى مثلها البارودى لا تدخل ضمن الإطار الزمانى الذى تتناوله بالتقويم والنقد هذه الدراسة – فإن الحركة الكلاسيكية التى تلقفت الشعلة من يد البارودى – وعلى رأسها شوقى وحافظ وعبد المطلب

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى – ص ١٤٣ – ١١٤ .

ومحرم والجارم والزهاوى والرصافى وغيرهم من أبناء هذا الجيل – تعد نقطة البدء – تاريخياً – فى اهتمامات هذه الدراسة ، ويعد استقصاء جوانب التمرد فى إبداعها محوراً من محاور البحث فى إطار تأمل الظاهرة الكبيرة التى هى الشعر العربى المعاصر بكامله .

فهل أحدثت هذه المدرسة – فى مضمون الشعر العربى المعاصر – ظواهر تمرد بارزة ؟

قد يلوح التمرد فى إبداع هذه المدرسة تمرداً هو إلى التجديد – أى العمل فى مجال التراث بمحاولة بعثه أو استلهامه – أقرب منه إلى التمرد الحقيقى – أى العمل فى مجال التراث أيضا ، ولكنه بمناوأته والاحتجاج فى وجه جوانب كثيرة منه .

فقد عبرت هذه المدرسة فى بعض نماذجها الشعرية عن روح التمرد السياسى ، والتمرد الاجتماعى ، والتمرد الميتافيزيقى ، ولكن هذا التعبير كان مزقاً متناثرة فى شعر شعراء الكلاسيكية بل فى القصيدة الواحدة لشاعر واحد على حين بقى إبداعها كله دائراً فى إطار المضامين الشعرية القديمة من مدح إلى وصف إلى هجاء إلى رثاء ؛ مما يقطع بأن الاحتذاء وليس التمرد هو طابع المدرسة واتجاهها العام ، إذا استثنينا شاعراً كالغاياتى فى مجال التمرد السياسى ، وشاعراً كالرصافى فى مجال التمرد الاجتماعى[1] ، وشاعراً كالزهاوى فى مجال التمرد الميتافيزيقى[2] ؛ فإن كلا من هؤلاء يكوّن بحق ملامح ظاهرة فنية تقارب إلى حد بعيد ما نعنيه من مصطلح التمرد إذا نحن أطلقناه على شاعر معين بالذات .

(١) انظر : ديوان الرصافى – الأجزاء .

(٢) انظر : الزهاوى وديوانه المفقود ، (النزعات) وديوانه (الأوشال) . (ثورة فى الجحيم) .

ولكن يبقى دائماً أن هذه المدرسة الكلاسيكية لا تشترك فى ملامح تمرد عامة يمكن أن نستخلص منها فلسفة تدل على شعرائها جميعاً ، أو تشير إلى اتجاههم الفنى والفكرى الذى يتحركون فى إطاره ، وينزعون عن الإيمان به فى هذا الصدد .

والدليل القاطع على ذلك أن زعماء المدرسة نفسها مثل شوقى وحافظ ومحرم لا يمكن أن ينضوى شعرهم كله أو حتى معظمه تحت مفهوم شعر التمرد السياسى ، أو شعر التمرد الاجتماعى ، أو شعر التمرد الميتافيزيقى ، مما ينتفى معه أن تكون المدرسة الكلاسيكية قد أحدثت فى مضمون حياتنا الشعرية أى فلسفة للتمرد غير هذه الانتفاضات الفردية التى أوحتها تكوينات ذاتية للشعراء الذين لا يشاركن المدرسة الكلاسيكية إلا فى الإبداع من خلال الإطار الخليلى ، والذين إذا درسناهم نعثر فيهم بالضرورة على ظواهر فردية لا على مدرسة أو اتجاه .

وإذا كانت تجربة الغاياتى فى التمرد السياسى وتجربة الرصافى فى التمرد الاجتماعى تعدان بشكل ما من التجارب المشتركة : أى التى شاركها فى اتجاهها – من غير مدرستها – شعراء آخرون ففقدت بذلك نوعاً من الخصوصية التى تضعها ملمحاً من ملامح فلسفة المدرسة الكلاسيكية – فإن تجربة الزهاوى فى التمرد الميتافيزيقى تبقى وحدها من بين تجارب المدرسة الكلاسيكية تجربة فذة ورائدة تشكل بحق ظاهرة من ظواهر التمرد التى يمكن أن تضاف إلى رصيد هذه المدرسة بما هى عملُ واحدٍ من شعرائها . وإن كان غيره من شعراء مدرسته لا يدورون معه فى إطار هذه الفلسفة ، ولا يقفون معه حتى على هذه الأرض .

وقد لا يمنع هذا التعميم أن لدى بعض شعراء الكلاسيكية ما يقولونه فى قضية الوجود والعدم ، وقضية الجدوى واللاجدوى . .

يقول الرصافى :

من أين من أين يا ابتدائى ثم إلى أين يا انتهائى ؟
أمن فناء إلى وجودٍ ومن وجود إلى فناء ؟
أمن وجود له اختفاءٌ إلى وجود بلا اختفاء ؟
خرجت من ظلمة لأخرى فما أمامى وما ورائى ؟
مازلت من حيرة بأمرى معانق اليأس والرجاء !

ويقول أحمد محرم :

وجودى ما عرفتك غير معنى تغلغل فى الخفاء فما يبين
غريق فى الظلام ولا مناص ولا جسر يلاذ به أمين
أقيم عليه سور من عباب تضل على جوانبه السفين
أظل ويضرب التيار وجهى فأين أنا ؟ أحر أم سجين ؟

هذه بعض خطرات تعرض لبعض شعراء الكلاسيكية ، ولكنها أبداً لم تأخذ فى شعرهم صيغة الظاهرة التى تدل عليهم أو يدلون هم عليها بما هى تساؤلات حائرة أمام طلاسم الوجود . وليست كما هى فى شعر الزهاوى تمرداً جارفاً على غوامض هذه الطلاسم الوجودية الخرساء .

من هنا قد تبيح هذه الدراسة لنفسها أن تلم إلماماً عاماً بظاهرة التمرد الميتافيزيقى كما هى فى شعر الزهاوى غير مبيحة لنفسها أن تخوض فى تفاصيل هذه الظاهرة التزاماً بما فرضته على نفسها فى هذا الصدد من مجانبة الإغراق فى رصد أدق ملامح هذا التمرد الفاجع .

والتمرد الميتافيزيقى يدور أساساً حول ثلاثة محاور ، هى :

أولاً : (تمرد التساؤل) الذى يواجه الظواهر الإنسانية والوجودية والميتافيزيقية

كلها أو بعضها بنوع من اللاأدرية الشاملة ، من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وكيف؟ . وهو حين يلقى هذه الظواهر بتساؤل شاملٍ فإن تساؤله ليس تساؤل البادئ الساذج ، وإنما هو تساؤل الباحث الذى ووجه بالحائط الأخير ولم يصل بعد إلى اقتناع نهائى ، إنه تساؤل يتضمن تمرداً على استعصاء هذه الظواهر الأبدى ، على الفهم والجدوى ومعقولية الحلول . ولكن هذا النوع من التساؤل يعنى – حتى ضمنياً – أن هناك قوة أعلى تستطيع جوابنا عن هذه التساؤلات .

ثانياً : (تمرد المواقف) الذى يواجه مناطق معينة من هذه الظواهر الإنسانية والوجودية والميتافيزيقية باللاأدرية الشاملة مرة ، وبالرفض الشامل أيضاً مرة أخرى ، ولكن ما يميزه من (تمرد التساؤل) هو عمله فقط فى « مناطق » معينة من هذه الظواهر لا يتجاوز ذلك إلى مواجهة الظاهرة كلها : بمعنى أنه يتمرد على قضية الموت فى موقف ، وقد يتمرد على قضية الشر فى موقف ثانٍ ، وقد يتمرد على قضية الوجود الإلهى فى موقف ثالث ، وهكذا . إنها مواجهة ليست شاملة ، ولكن التمرد من خلالها أيضاً لا يجىء إلا بعد معاناة البحث ومداومة الحوار .

ثالثاً : (تمرد الرفض) الذى يواجه مجموع هذه الظواهر بالمصادرة الكاملة من أول الأمر ، أى أنه لا يلجأ إلى التساؤل المتضمن إقرار الاعتراف بوجود قوة أعلى قادرة على الإجابة عن تساؤلاته ، ولا يلجأ كذلك إلى انتخاب مناطق أو مفردات من مجموع هذه الظواهر الإنسانية والوجودية والميتافيزيقية ليمارس فيها تمرده . . ولكنه يدينها جميعاً – بعد يأسه من الحصول على أمل فى الفهم – بالعبث ، وخطل القوى الكامنة من ورائها ، وركاكة كل ما يربط بينها من وشائج وعلاقات : أى أنه يضع رفضه و (تمرده) فى مواجهة المنبع والقاعدة ؛ يقينا منه بأن كل المفردات تكون بعد ذلك واقعة فى قبضة هذا الرفض الشامل الرهيب !

هذه هى المحاور الثلاثة التى يدور حولها التمرد الميتافيزيقى ، فأين موقع الزهاوى من هذه المحاور؟ وأين موقع تمرده على خريطة هذه التمردات؟

يبدو أن (تمرد المواقف) هو ألصق هذه المحاور بطبيعة ما أبدع الزهاوى من شعر التمرد الميتافيزيقى ؛ لأنه لم يجنح إلى (التساؤل) اللاأدرى الشامل كما فعل إيليا أبو ماضى ، ولم يجنح إلى (الرفض) المنكر الشامل الذى يتصدى للألوهية بالمصادرة والإنكار ؛ وإنما كانت مواقفه الشعرية تتسم بالإقدام والإحجام ، بالتساؤل مرة عن شيء محدد ، وبالرفض مرة لشيء محدد كذلك ، فهو يختار مناطق معينة يشهر فى وجهها تمرده ، ولكنه لا يقابل الكل الوجودى والإنسانى والميتافيزيقى بسلاح التمرد البتار ؛ بدليل أن الزهاوى نفسه ألف فى اليقينيات أشياء تتخطى حدود الدراسة المألوفة – إلى التأليف الموغل فى التصوف ككتابه : (الفجر الصادق فى الرد على منكرى التوسل والكرامات والخوارق) . . وككثرة من شعره الذى يتجه فيه إلى إبراز القيم الدينية والاعتراف الصريح بانتمائه الفكرى والنفسى إلى هذه القيم ، بل إنه فى ديوانه المفقود : (النزغات) الذى يمثل قمة تمرده يقسم شعره قسمين : الشك واليقين ؛ مما يؤكد تردده بين هذين المحورين (إذ المحقق من معارضة دلائل الشك والتردد ودلائل الإيمان واليقين – أن هذه الدلائل جميعاً قد وجدت فى مؤلفاته الباكرة كما وُجدت فى مؤلفاته الأخيرة ، على درجة واحدة من القوة والوضوح)[1] . . وهذا يؤكد أن تمرد الزهاوى ينتمى إلى (تمرد المواقف) وليس إلى تمرد التساؤل أو تمرد الرفض .

وإذا كان ديوان الزهاوى المفقود : (النزغات[2]) وملحمته الغاضبة : (ثورة

---

(١) عباس محمود العقاد – رجال عرفتهم – ص ١٣٦ .

(٢) جمعه وحققه ودرسه ونشره هلال ناجى بعنوان : (الزهاوى وديوانه المفقود) .

فى الجحيم[١]) يمثلان واقع تمرده الميتافيزيقى وقته جميعاً – فإن الملامح العامة لهذا التمرد فى شعر هذين العملين هى ما يهمنا أن نقف عليه فى هذه الدراسة غير خائضين كما قلنا فى تفصيلات الظاهرة ، وغير ملحين على الاستشهاد بما فيها من شعر فاقع الاحتجاج .

و (النزغات أو الشك واليقين) هو اسم الديوان الذى كتبه الزهاوى ولم ينشره فى حياته ، وآثر أن ينشر بعد موته لما فيه من آراء (تصادم آراء المتعصبين) وتثيرهم عليه كما صرح هو بذلك . . وقد قدم لديوانه بهذه الكلمات : (اختُلف فى صاحب هذا الشعر فمن قائل : إنه لجماعة من الفلاسفة كالرئيس أبى على بن سينا وابن رشد وابن كمونة البغدادى ، وقائل : إنه لفيلسوف كان فى زمن الغرور من حياته مادياً ، فقال ما قال من شعر كله شك ، ثم ظهر له الحق فعاد روحياً ، وقال ما قال من شعر كله يقين)[٢].

وقد حاول محقق ديوانه المفقود (هلال ناجى) أن يستشف من هذه المقدمة نزعة الزهاوى الكامنة إلى التدين لا إلى الإلحاد ، كما حاول من خلالها أن يخطّئ نقاد الزهاوى الذين فسروا هذه الكلمات على أساس أنها تغطية لموقف الشك والتمرد ، وأن يرد خطأهم – إلى أن الشاعر لم يكن فى حاجة إلى التستر وخاصة أنه يعلم أن هذا الشعر لن ينشر إلا بعد موته ، أى بعد أن تسقط مسئوليته تماماً .

ويخيل إلى أن الاتهام والدفع كليهما لم يحاولا أن يصلا من الكلمات إلى أبعد من منطوقها الحرفى . . إن الزهاوى لا يدلل بها على نزعة تدين كامنة ،

(١) طبعت فى آخر ديوانه ، (الأوشال) ومستقلة بعنوان (الزهاوى وثورته فى الجحيم) مع دراسة لها بقلم الدكتور جميل سعيد .

(٢) الزهاوى وديوانه المفقود .

كما أنه لا يغطى بها موقف شك اتخذه وسار فيه . ولكنه أراد بها لوناً من التقرير يؤكد أن الشك (فى الشعر العربى) ليس وليد اليوم وإنما هو غائر الجذور فى تاريخ التراث من ابن سينا إلى ابن رشد إلى غيره من الفلاسفة الشعراء ، كما أراد بها لوناً آخر من السخرية بمقولة الرجعة عن الشك إلى اليقين !

ومهما يكن من شيء فإن (النزغات) تمثل فى مسيرة (المضمون الشعرى) المعاصرة تمرداً هائل الأنحاء والأعماق ، بما انطوت عليه من أفكار فلسفية ثائرة ، وبما شاع فيها من روح السخرية بكل ما هو يقينى وثابت فى حياتنا الأدبية والفكرية والدينية مخالفة فى ذلك لطبيعة المضامين الشعرية السائدة التى كانت ترى فى الوصف والمدح والهجاء والرثاء كل ما يمكن الشعر أن يقوله أويدور من حوله . . لقد شذ الزهاوى عن هذه القاعدة بشعره المفكر ومضامينه الفلسفية ، (إلا أنه غلبت عليه فى معالجة هذه الموضوعات روح العالم المفكر أكثر من روح الشاعر الأديب ، فجاء شعره مثقلاً بالحقائق وبعض الأصول والنظريات العلمية أحياناً ، والاستطراد إلى ما قد يخرج به عن المراد ، فضلا عن الطابع التفكيرى والجمود التقريرى الذى يسلكه فى صفوف المفكرين المصلحين لا الشعراء الملهمين)[1] .

وتمثل (النزعات) إلى جواز ذلك هجوماً جاداً على كثير من الأساسيات الدينية : كالعبادات ، والغيبيات ، وحقائق الخالقية والمخلوقية ، وبدء العالم ، ومواجهة إبليس لله ، والفناء والخلود ، والأديان والعقل ، وتناقض الرحمة والعذاب ، ومصادرة الحرية فى الدين ، وشيئية صفات الله ، وغير ذلك من الهجوم المارد على كل ما هو دينى بدءاً من الحقائق الصغرى وانتهاء إلى الحقيقة الكبرى التى هى الله ، ويكفى أن ندلل ببعض أبيات على هذه القضية غير موغلين فى النقل والاستدلال :

(١) انظر : الشعر والشعراء فى العراق – أحمد أبو سعد – ص ٣٦ – ٦٧ .

لما جهلت من الحقيقة أمرها   وأقمت نفسك فى مقام معلل
أثبت ربا تبتغى حلاً به   للمشكلات فكان أكبر مشكل

صلى الإله على إبليس فهو له   تصرف مثلما لله فى الناس
الله يلقى بإلهام مقاصده   فى كل قلب وإبليس بوسواس
إنما فكرة (الله)   من الجهل تنجم
عبد الناس فى معا   بدهم ما توهموا

وعلى الرغم من قسوة هذا الهجوم فإن ناقداً كالعقاد يلاحظ أنها شكوك يسيرة وأيسر منها أن نرد عليها: (فكل شكوك الزهاوى بلا استثناء مما يقبل الرد والاستخفاف من النظرة الأولى ؛ لأنها مبنية على تصور العامة الجهلاء للخرافات والأساطير التى يلصقونها بالدين وهو برئ منها بعيد عنها ، وليس من هذه الشكوك شك واحد يقوم على فهم الدين كما ينبغى أن يفهمه المؤمنون به على صحته ، وقد كان خطأ الزهاوى الأكبر أنه يتلقى حجة العقائد من الأوهام الشائعة بين المقلدين دون الثقات المجتهدين . .)[1]

وإذا صح حكم العقاد على جانب من شعر الزهاوى المتمرد فإنه لا يصح على جانب آخر ، لأنه فى بعض هذا الشعر يثير من القضايا الجدلية ما يمكن أن يكون مناطاً لحوار طويل بما هو صادر عن نظرة فلسفية عميقة تحاول أن تستجلى أغوار قضية من القضايا ، أو تستكنه عالم مشكلة من المشكلات ، وليس مجرد خطف من العامة يمتلئ بأشتات من الخرافات والأساطير كما يقال .

ولكن العقاد يزن شعر الزهاوى وزناً فنياً فيقول :

---

(١) عباس محمود العقاد — رجال عرفتهم — ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(وجملة القول فى الديوان المفقود وفى الدواوين المنشورة أنها طور واحد من الفكر لم يتغير فى مدى خمسين سنة ، ويوشك أن ينقل كل بيت فى ديوان من هذه الدواوين المتتابعة إلى ديوان آخر صدر قبله أو بعده بغير اختلاف فى المعنى أو فى النسق أو فى الأسلوب إلا ما تقتضيه المرانة الطويلة من تيسير النظم فى نهاية الشوط بعد تعسر فيه عند الابتداء) [1] .

وهو قول على جانب كبير من الصواب لولا إسرافه فى إطلاق الحكم بإمكان نقل بيت من ديوان إلى أى ديوان آخر بغير اختلاف فى المعنى أو فى النسق والأسلوب ، وهذه واحدة من إطلاقات العقاد التى عمم فيها الحكم على غير أساس علمى أو منطق منهجى مدعوم بالاستدلالات .

أما (ثورة فى الجحيم) فهى تنويع على فكر (النزعات) المتمرد الرافض الشاك ، وهى ملحمة طويلة تتألف من خمسة وثلاثين وأربعمائة بيت من الشعر الملتزم لقافية رائية واحدة ، وقد نشرها الزهاوى عام ١٩٢٩ ، فأثار بها حرائق الجدل النقدى والغضب الدينى ، لما تنطوى عليه من فكر متمرد ثائر يهز قواعد التقاليد والطقوس المحسوبة على الدين .

و (تتلخص الملحمة فى أن الشاعر يموت ويودع القبر فيظهر (منكر ونكير) ملكا الحساب فيسألانه عن عقيدته ومذهبه فلا يرضيان عن أجوبته ولا يرضى هو عن أسئلتهما فيعذبانه عذاباً أليماً ، ثم يطيران به إلى الجنة ليرى أى نعيم حرّم منه نفسه بتفلسفه ، فيبصر من المباهج والطيبات أشهاها ، ولكنه يجد من يتمتعون بها كثرة من الجاهلين إلى قلة من المصلحين . . ثم يهبطان به إلى الجحيم فيجدها ملأى بالعباقرة والمتحررين . . ! وفجأة يحدث ما ليس فى الحسبان إذ يخترع أحد هؤلاء

---

(١) المرجع السابق – ص ١٣٩ .

الحكماء مضحخة يطفئ بها النار ، وتنشب الثورة فى الجحيم ، فيزحف سكانها إلى السماء ويحتلونها فى حرب صاعقة خاطفة على ظهور الشياطين)[1] .

ومن شعر الملحمة هذا الحوار بين الملك السائل والميت المسئول :

قال ما ذاته . . فقلت مجيباً ... بلسان قد خانه التفكير
إننى لا أدرى من الذات شيئاً ... فلقد أسدلت عليها الستور
إنما علمى كله هو أن الله ... حىٌّ وأنـــه لا يـــبـور
مـا لـكـل الأكـوان إلا إلـه ... واحد لا يزول وهو «الأثير»
منه هذا الوجود فاض عميماً ... وإليه بعد البوار يصير
ليس بين الأثير والله فرقٌ ... فى سوى اللفظ إن هداك الشعور !
ويحسبى أنى صدعت بما أدْ ... رى على علمى أنه سيضيرُ

ولقد كان الزهاوى يعتبر ملحمته هذه أروع ما أبدع من شعر فقال : (ولما نظمت قصيدتى (ثورة فى الجحيم) أخذ بعض الخطباء يلعننى على المنبر فى خطبة صلاة الجمعة ، فقلت فى نفسى : تساوى قصيدتى كل هذا اللعن ثمناً لها ، وستذهب لعناتهم وتبقى ثورة فى الجحيم خالدة !)[2]

أما الذين كتبوا عن الزهاوى فقد قدم بعضهم قصيدته هذه على بقية شعره ، يقول الريحانى : (إن للزهاوى آثاراً شعرية نفيسة ، وأنفسها فى نظرى وأحقها بطول البقاء قصيدته أو ملحمته الصغيرة «ثورة فى الجحيم»[3] .

(١) أحمد أبو سعد – الشعر والشعراء فى العراق – ص ٥١ .
(٢) مقدمة الأوشال – ص : و .
(٣) قلب العراق ص ٢٥٦ مطبعة صادر ببيروت سنة ١٩٣٥ .

(ويقول المستشرق كراتشكوفسكى[1] ، بعد الحديث عن الزهاوى وأشعاره .

«أما القصيدة الطويلة المعنونة بثورة فى الجحيم . . . وكذلك القصائد المفردة فخير الشواهد على تطبيقه لنظرياته من الناحية العلمية ، وهى النظريات التى أفرد لبسطها عدداً من المقالات والمحاضرات والمقدمات التى وضعها لدواوينه الشعرية .

«وقال إسماعيل أدهم :

«وإنى أعتقد اعتقاداً لا يوهنه الشك ، ولا يتطرق إليه الريب – أن شاعرية الزهاوى كامنة فى شعره الفلسفى . وقال : «والآن لنختر من بين مقطوعاته الفلسفية أهمها لنحللها ، ولا شك فى أن ملحمة «ثورة فى الجحيم» خالدة ؛ إذ بثها معتقداته الدينية وآراءه الفلسفية . . . وهى إلى جانب ذلك تحفة فنية غنية بطاقاتها الشعرية»[2] . . من هذا كله ترى أن الزهاوى رأى نفسه ورآه نقاده أشعر ما يكون فى قصيدته هذه)[3] .

ولكن بعض النقاد لا يرون فى القصيدة أو الملحمة سوى جبن الشاعر أمام الملكين (فلا عجب إذا جبن وارتاع وفقد حتى لغة الشعر فنطق بالنثر المنظوم) . . بل إنهم يرون أنها مجرد تقليد لشاعرين عربى وغربى ، دانتى والمعرى)[4] .

وأخيراً . فلقد قيل : إن الزهاوى قال للملك فيصل عندما عاتبه بشأن هذه القصيدة : «لقد عجزت يا مولاى عن إضرام الثورة فى الأرض ، فأضرمتها فى السماء !» . . .

---

(١) المجلد العاشر ٤٤٦ – ٤٥٠ دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) مجلة الإمام . عدد مارس لسنة ١٩٣٧ – ص ١٠٦ .

(٣) د . جميل سعيد – الزهاوى وثورته فى الجحيم – ص ٣٣ – ٣٤ .

(٤) مارون عبود – أمين الريحانى – ص ٨٥ .

وهذه المقولة الأخيرة تعكس إحساس إنسان معذب بفكرة الجهر من جهة وبسوط الجلاد من جهة أخرى ، لقد أراد أن يجهر برأيه فى الحاكم والجماهير فتعقبته السلطة حتى جففت فى قلمه المداد ، فاتخذ من السماء معادلاً موضوعياً يفرغ فيه أحزانه وتمرداته .

والعجيب أن هذا المنزع امتد بعد الزهاوى حيث ظهر فى الشعر الحر بكثافة كثيفة ، فلجأ شعراؤه إلى مواجهة السماء حين عجزوا أو حين جبنوا عن مواجهة الأرض ؛ لأن للأرض سيافاً ، ولأن للسماء عيوناً ترمقهم فى وداعة وهم يجدفون .

* * *

وتأتى (مدرسة الديوان) بأعلامها الثلاثة : العقاد وشكرى والمازنى ، لتمثل فى حركة الشعر العربى المعاصر ثورة تمرد عارمة ، فإذا تخطينا تمردها على شكل القصيدة التقليدى بترهل بنائها وتفكك أجزائها ، والمناداة بضرورة أن تتحقق فى القصيدة «الوحدة العضوية» التى تجعل منها كائناً عضوياً أشبه بالكائن الحى فى تساوق أنساقه وتناغم أجزائه . . إذا تخطينا هذه الدائرة إلى دائرة الحديث عن عطاء هذه المدرسة فى مجال التمرد على (مضمون) القصيدة المعاصرة - هالنا بحق جسارة هذا الثالوث ، ووضوح رؤيته النقدية والفنية ، وتصديه لإبداع مرحلة بكاملها - هى مرحلة الكلاسيكية - بالرفض والتقبيح ، ومحاولته الباسلة لنقل العمل الشعرى المعاصر من طور المناسبة والمحفلية والقشور وتمييع الشخصية إلى طور الصدق ، والتعبير عن الذات ، والغوص وراء حقائق الأشياء ، والإطلال على العالم من خلال رؤية فلسفية خاصة ؛ مما أتاح لهؤلاء أن يكونوا - إلى جوار كونهم شعراء مبدعين - نقاداً ، لهم منهجهم النقدى الذى يحمل مضمون فلسفتهم فى

الفن والإبداع .

تمردت مدرسة الديوان – فى إطار قضية المضمون – على محدودية الفضاء الذى (يتجول) فيه الشاعر بشعره مسقطاً من حسابه بقية آفاق الوجود[1] ، داعيةً إلى تحطيم السدود التى يحبس الشعر فيها أصحاب التعريفات من الجامدين أو المقلدين[2] .

وتمردت على محدودية الطموح والانحصار فى توافه الأمور ، ودعت إلى أن يحلق الشاعر فوق اليوم الذى يعيشه ، ثم ينظر فى أعماق الزمن بأضلاعه المثلثة – الماضى والحاضر والمستقبل – فيجىء شعره أبدياً مثل نظرته ، وألاَّ يقبل من جديد أن يكون نديم الملوك وحلية فى بيوت الأمراء ! فهو رسول الطبيعة المزود بنغماتها العذاب ![3]

وتمردت على رضوخ الشاعر حيال ما يراه فى الكون من تناقض ونقص ، واتساع المسافة بين ما يجب أن يكون وما هو كائن بالفعل ، ودعت إلى ضرورة دخول الشاعر فى قلب هذا التناقض والتعبير عن زواياه الحادة والمغلقة[4] .

وتمردت على تعالى موضوعات الشاعر عن الواقع الجدلى بكل مفرداته ونثره اليومى ، ودعت إلى توسيع قاعدة استلهام الأشياء والأحياء إنقاذاً لملكة النفس

---

(١) انظر : ديوان عابر سبيل للعقاد .

(٢) انظر : مقدمة ديوان (وحى الأربعين) للعقاد .

(٣) انظر : مقدمة ديوان (زهر الربيع) لشكرى . وقصائده (كلمات العواطف) و (حياة الأمم أو التجدد والتغير) و (الإنسان والكون) .

(٤) انظر : مقدمة ديوان المازنى – للعقاد . وقصائد المازنى (خواطر الظلام) و (معاهدة غرامية) و (فى الرثاء) .

الإنسانية وليس فقط لإنقاذ الملكة الفنية وحدها ؛ لأن تعويد النفس على مخاطبة كل الأشياء ينفض عن النفس تلك التفاهة التي غلبت على الحياة والشعر[1] .

وتمردت على بوار الشعر المعاصر من عناصر التفكير ، ودعت إلى فهم قضية الشعر المعاصر على ضوء كل ما أنجز الشعر العالمي من فتوح فكرية وفنية ، بدءاً من أغاني شكسبير التي تمتزج فيها الفهم بالشعور . . إلى فاوست التي هي فلسفة الحياة والبقاء ، وفلسفة الخير والشر ، وفلسفة المعرفة والضمير . . إلى رباعيات الخيام التي تدور الرباعية منها على فكرة أو خلاصة أفكار . . إلى قصائد المتنبي التي لا يستطيع زاعم أن يزعم أنه أهمل في واحدة منها عنصر الفكر ، أو أنها وجدان بغير تفكير[2] . .

إن الشاعر هنا مطالب بنوع من الشره العقلي الذي يجعله راغباً في أن يفكر كل فكر ، وأن يحس كل إحساس ، حتى يتخلق منه الشاعر الأمل (العبقري)[3] .

وتمردت على شعر المواربة والترلف ، وشعر انتظار المناسبة ليهنئ بمولود وما نفض يديه من تراب الميت[4] ودعت الشعراء إلى رفض أن يكونوا شعراء ندابين يتوثب الداعي بهم فحسب إذا تهدم جدار أو اصطدم قطار أو وقع

---

(١) انظر : مقدمة ديوان (عابر سبيل) للعقاد . وقصائد (كواء الثياب) و (سلع الدكاكين) و (عسكري المرور) .

(٢) انظر : مقدمة ديوان بعد الأعاصير للعقاد . وقصائد (مناجاة الدنيا) ص ٦٩ — ٧٠ و (لا فناء) ص ٢٠٨ و (فلسفة حياة) ص ٣٠٥ — ٣٠٦ من (٥ دواوين للعقاد) .

(٣) انظر . مقدمة ديوان (الخطرات) لشكري .

(٤) انظر : مقدمة ديوان المازني للعقاد . وقصيدة : المثل الأعلى ص ٤٦٠ من ديوان شكري .

طيار[1] .

وتمردت على (وصف) الأشياء وتعديد أشكالها وألوانها ، ودعت إلى الشعور بجوهر هذه الأشياء ونقل هذا الشعور من نفس إلى نفس ، فإن مزية الشاعر العظيم ليست هى أن يقول لك عن الشيء : ماذا يشبه ؟ وإنما مزيته هى أن يقول ما هو ؟ ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به[2] .

وتمردت على بقاء الشعر قيمة لسانية وليس قيمة إنسانية[3] . ودعت إلى الانطلاق فى تقرير إنسانية الشعر من قاعدة الإيمان بأن الشعر هو بوح الكائن الإنسانى الكادح وراء التهدى إلى سليقته الأولى بما هى خط دفاعه الأول فى معركة قتاله البطولى عن تجذير وجوده على الأرض ، ومن هنا اهتمت بأن يكون الشعر تأملات فكرية وفلسفية تستقطب حقائق النفس وتستجلى غوامض الوجود لإيجاد صيغة مقبولة يلتقى عندها الإنسان والوجود .

وتمردت على ضياع الموقف الشخصى النابع من رؤية ذاتية والدال على رؤية ذاتية فى القصيدة الشعرية ، ودعت إلى ذاتية الرؤية وخصوصية الأسلوب ؛ فالشاعر الذى بلا أسلوب ليس شاعراً على الإطلاق[4] .

(١) انظر : صحيفة عكاظ عدد التاسع من مارس سنة ١٩١٤ مقال العقاد (الشعراء الندابون) .

(٢) انظر : (الديوان) ص ٢٠ – ٢١ . وقصيدة : (الفصول) ص ٤٦٢ من ديوان شكرى .

(٣) انظر : مجلة الكتاب – عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ ، مقال العقاد . وقصيدة : (معان لا يدركها التعبير) ص ١٢١ من ديوان شكرى .

(٤) انظر : الديوان – ص ٥٩ . وقصيدة (معاهدة غرام) ص ٢١٧ وما بعدها من ديوان المازنى .

وتمردت على (الغموض) وفرقت بينه وبين (العمق) ، ودعت إلى أن يكون الشاعر عميقاً كما يشاء . . ولكن مع الوضوح والجلاء ، (فكل غموض دليل : إما على العجز عن الأداء ، أو التدجيل ، أو استبهام الفكرة فى ذهن صاحبها)(١) .

وتمردت على التفكك الذى يحيل القصيدة إلى مجموع مبدد لا تربطه وحدة معنوية صحيحة ، ودعت إلى أن تكون القصيدة عملاً فنياً تاماً يكمل فيه تصوير خاطر أو خواطر متجانسة ، لأن فقدان «الوحدة المعنوية» فى الشعر يحيل القصيدة إلى نثير من الألفاظ والتراكيب (٢) .

وتمردت على الإحالة التى هى فساد المعنى ، (وهى ضروب : فمنها الاعتساف والشطط ، ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ، ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مغزاه) (٣) . ودعت إلى التزام الحقائق ، والوعى بمعقولية المضامين ، وإثراء الوجدان المتلقى من خلال ما يقدمه الشعر له من رؤى وقضايا وفلسفات .

هذه على وجه التقريب هى أبرز ظواهر التمرد التى يمكن اقتناصها من شعر مدرسة الديوان وفكرها على السواء ، وهى ظواهر فنية تحاول دفع المضمون الشعرى المعاصر فى طريق التمرد على كلاسيكية المضامين السلفية ، وقد أحدثت هذه الدعوة فى حياتنا الشعرية المعاصرة ما يحدث الزلزال فى سكون القشرة الأرضية الخرساء ، وإن كان من المسلم أن حظوظ روادها الثلاثة قد تفاوتت فى تطبيق هذه الآراء النظرية على واقعهم الإبداعى فى الشعر تفاوتا يتسع هناً ويضيق هناك .

---

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى – الديوان ص ٦٥ وقصيدة يوم ميلادى ص ٢٠٠ من (٥ دواوين للعقاد)

(٢) انظر : الديوان – ص ١٣٠ – ١٣١ .

(٣) عباس محمود العقاد ـ الديوان – ص ١٤٢ .

ولكن هناك ظاهرة أخرى من ظواهر التمرد هى من أبرز ما قدمت مدرسة الديوان فى مقاتلة الحس الأدبى السائد ، ومناجزة العرف الاجتماعى الذى ألف أن يلقى فى المضامين الشعرية جل ما يتوقعه إن لم يكن كل ما يتوقعه بلا نقصان .

هذه الظاهرة هى ظاهرة (التمرد الميتافيزيقى) التى خرجت على شكل ومضمون تجربة الزهاوى ، وعبرت عن هموم الإنسان المعاصر ومعاناته النفسية والفكرية تعبيراً شعرياً يمثل منزعاً فنياً رائداً ، من خلال قصيدة العقاد : (ترجمة شيطان)[1] ، وقصيدتى شكرى : (ليتنى كنت إلهاً)[2] و (الملك الثائر)[3] .

أما قصيدة : (ترجمة شيطان) فهى وليدة غيم نفسى ، وشك مؤذ ، وغيظ شديد ، تناولت بالرجة كل قواعد الرأى عند العقاد ، وشوهت بالزراية كل حالة من حالات الوجود الإنسانى ، فلم ير للحياة حكمة ولا معنى ، ولم يجد لها مساغاً فى صورة من صورها أو غاية من غاياتها ، ووقر عنده أنها كما قال سليمان الحكيم بعد تجربتها «قبض الريح وباطل الأباطيل»[4] .

يقول العقاد :

(وقصيدة «ترجمة شيطان» هى قصة شيطان ناشئ سئم حياة الشياطين وثاب عن صناعة الإغواء لهوان الناس عليه ، وتشابه الصالحين والطالحين منهم عنده ، فقبل الله منه هذه التوبة وأدخله الجنة وحفه فيها بالحور العين والملائكة المقربين ، غير أنه ما عتم أن سئم عيشة النعيم ، وملّ العبادة والتسبيح ، وتطلع إلى مقام الإلهية

---

(١) ديوان العقاد ، وديوان من دواوين .

(٢) ديوان عبد الرحمن شكرى . الجزء الثانى (لآلئ الأفكار) .

(٣) ديوان شكرى – الجزء السابع (أزهار الخريف) .

(٤) انظر : مقدمة الديوان الثالث للعقاد ، وحصاد الهشيم للمازنى . ص ٤٠ .

لأنه لا يستطيع أن يرى الكمال الإلهي ولا يطلبه ، ثم لا يستطيع أن يطلبه ويصبر على الحرمان منه ، فجهر بالعصيان فى الجنة ، ومسخه الله حجراً ، فهو ما يبرح يفتن العقول بجمال التماثيل وآيات الفنون)[1].

ويقول طه حسين فى شيء من التحليل إلى جانب تلخيص الموضوع :

(أراد العقاد أن يترجم لشيطان ، ويظهر أن العقاد سئم ترجمة الناس ، وسئم نقد الناس وما يكتبون وما ينظمون ، فأبى إلا أن يبحث فوفق إلى شيطان خلقه خلقاً ، ومشى معه فأبعد فى المشي ، إنه خلقه فى أول القصيدة وصعد معه السماء وهبط به إلى الجحيم ، ومن حسن الحظ أنه قتله فى آخر القصيدة . هذا الشيطان غريب ، خلقه وأذن له كما أذن للشياطين أن يغووا الناس ما استطاعوا ، فهبط إلى بلاد الزنج ، ولكنه لم يكد يرى هذه البلاد وأهلها حتى ضاق بالأرض وسكانها ، ورأى أنه أرفع من إغواء الزنوج ، فارتحل عنهم مطوفاً بالأرض ، وما زال يطوف حتى بلغ بحر الروم أو بحر العجم ، حيث البلاد المتحضرة ، وهناك استطاع أن يخدع الناس فأخرج لهم شيئاً يسمى الحق ، ولكنه الاعتداء الشنيع المنكر الذى أفسد الحياة الإنسانية إفساداً ، ثم كلفه أن ينوب عنه فى فتنة الناس ، نظر إلى الناس وقد وقعوا جميعاً فى شركة ، وخضعوا لفتنته فاحتقرهم ، وكفر الشيطان بالشر ، أرأيتم شيطاناً يكفر بالشر إلا عند العقاد ؟

والطريف أن هذا الشيطان خالف طبيعته وظفر بما لن يظفر به شيطان . ظفر بالعفو ، وأذن الله له أن يصعد إلى الجنة ويعيش بين الملائكة عيشة راضية فى مكان لا سبيل إلى تصويره فى الشعر بأجمل من تصوير العقاد . ولكنه شيطان لا يرضيه شيء ولا يقنع بشيء ، وما أسرع ما ضاق بالجنة ورفاقه الملائكة ، حتى

(١) عباس محمود العقاد – إبليس – ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .

خيل إلى الذين يرافقونه أنهم ينظرون إلى الجحيم وقد تجسد فى وجهه ، ثم يوحى الله إلى الجنة فإذا هدوء شامل وسلام كامل وأمن وسكينة ، وإذا الشيطان قائم أمام جلال الله . . . ! أترون أنه خضع أو اضطرب أو أحس شيئاً مما تحسه النفس وهى فى مثل هذا الموقف ؟ كلا ، ظل مرفوع الرأس ، شامخ الأنف ، متحدياً ، ينكر على الله آياته ، ويتحدى الله أن ينزل به المكروه ، ثم ينزل المكروه به فإذا النار قد استحالت حجراً . . . ومع ذلك فطبيعته لم تتغير حتى بعد المسخ بعد أن صار حجراً هامداً . طبيعته مفسدة دائماً ، أليست تتخذ الصور الخلابة من هذا الصخر ؟ هذا الشيطان الذى أحياه العقاد وأماته ، وصور لنا حياته هذا التصوير البديع ، هذا الشيطان – اسمحوا لى وليسمح لى العقاد ، وأنا أعترف بأنى متأثر جداً – هذا الشيطان هو شيطان العقاد وشعره ، وهذه النفس الطامحة التى لا حد لآمالها ، هذه النفس التى لا يرضيها شىء ، ولا تستريح ولا تطمئن إلى شىء ، ولا ترضى إلا لتسخط ، ولا تستقر إلا لتتحرك حركة لا حد لها ، حتى إذا خرجت من الحياة ، وانتهى عهدها بالوجود ، فإن آثارها ما تزال قائمة تعمل فى النفوس وتغريها وتبعث فيها الحركة ، وإن كان الشيطان قد استحال إلى رماد فى القبر ، هذا الشيطان هو سحر صاحب الفن والذى نلاحظه فى كل أثر من آثار العقاد أو الشعراء النابهين أمثال العقاد)[1] .

إن العقاد حين يعلن ثورته الضارية وتمرده الفكرى على هذا النحو – لا يفعل ذلك من خلال الجهر الساذج فى أبيات مباشرة إن تركتْ فى المتلقى بعض أصدائها الفكرية فإنها لا تترك فيه صدى فنياً ، وهو من هنا يختلف فى منزعه الفنى فى ظاهرة التمرد الميتافيزيقى وصاحبُه الزهاوى .

---

(١) طه حسين – العقاد دراسة وتحية – ص ٢٣٠ – ٢٣١ .

ويمتاز هذا المنزع الذى اشترعه العقاد بأنه يتيح للفنان أن يقول كل ما عنده ، وأن يتكئ فى حواره مع الفكر الفلسفى المتمرد الذى يريد أن ينقله إلى المتلقى – على عديد من المستويات التى تتيحها طبيعة القص والحوار والتجول فى أعطاف الزمان والمكان والتاريخ والفلسفات والشعوب والأنواع ، فضلاً على أن (الشخصية – القناع) التى يتحدث الفنان من خلالها تتيح له كذلك أن يقول كل ما عنده . وإذا كان «الشيطان» هنا هو الشخصية (القناع) – فإن طبيعته المتمردة التى أحسن العقاد اختيارها والوقوع عليها لا تتيح له فقط ، بل تفرض عليه أن يتمرد من خلالها ما شاء له التمرد ، وأن يتسخط على لسانها وسع ما يطيقه هو من تسخط ، وأن يسقط تمرده وسخطه على موقف الطغاة من حرية الفنان ، فى الوقت الذى يسقط فيه نفسه تمرده وسخطه على موقف القوة الخالقة من مصير الإنسان .

وعن الناحية الفنية الخالصة فى هذا العمل يقول المازنى :

(لأول مرة فى تاريخ الأدب العصرى – والعربى أيضاً – يرى القارئ عملاً فنياً قائماً على فكرة معينة تدور على محورها القصيدة وتجول ، ولعل هذا من أظهر مميزات الأدب الحديث وأكبرها ، فقد كان الرجل يقول القصيدة مسوقاً إلى قرضها بباعث مستقل عن النفس ، ولكنك هنا ترى بناء مشيداً نبتت فكرته لسبب مفهوم وعلة طبيعية مشروحة ، وأعمل الشاعر ذهنه فى جملتها وتفاصيلها ، ثم أفرغها فى قالب تخيره لها بعد الروية ، وعرضها فى أسلوب فنى موسيقى أبدعه لها)[1] .

ويذهب الدكتور شوقى ضيف إلى أن قصيدة «ترجمة شيطان» هى أم قصائد العقاد جميعها ، وأن العقاد يتخذ من الشيطان رمزاً له ولأمثاله من الفنانين الأحرار

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى – حصاد الهشيم – ص ٣٦ .

مع الطغاة والمستبدين ، وأنه يتمثل فيها سحر الفن الخالد القادر على فتنة الناس مهما تعرض لحملات المسخ والتشويه(١) .

وهكذا يلوح بوضوح أن قصيدة أو فلنقل ملحمة «ترجمة شيطان» للعقاد – تمثل فى مجال التمرد على مضمون الشعر العربى المعاصر مرحلة تحول كاملة كيفيًّا وكميًّا ، فلم يكن الشعر العربى المعاصر ليطيق أن يواجه الشاعر الله بمثل هذا التمرد الغاضب ، والجدل المحتدم والإصرار على قضية المواجهة بلا ملال ، فأخذ العقاد ورفقاء له على كواهلهم عبء تفجير قضية المضمون وحشده برياح التمرد والاحتجاج والسخط ، حتى لا يستحيل الخلق الشعرى إلى بحيرة راكدة يتأسن ماؤها من طول ما أخلد إلى قراره البطىء .

ولعل الدكتور طه حسين كان يشير إلى هذه القضية حين قال فى بحثه الذى ألقاه بمناسبة تكريم العقاد لتأليفه النشيد القومى سنة ١٩٣٤ .

(... ما الذى يعجبنى من العقاد الشاعر؟ يعجبنى منه شىء لا يعجب الناس كثيراً ، أو هو يعجب الناس جميعاً ويخافون أن يظهروا إعجابهم به ، أو هم لا يشعرون أنهم يعجبون به : ذلك أن العقاد متمرد ، ويعجبنى تمرد العقاد الذى أثر فى كاتب من الكتاب الأجانب حين نظر فى شعر العقاد ، فكتب عنه منذ أسابيع فى مجلة فرنسية يقول : (إن أدب العقاد أشبه بالهواء الطلق . هذا التمرد . هذه الريح العاصفة هى التى تعجبنى ، لأنها صورة من الحرية ، من حرية الفن التى لا تعرف حداً ولا أحداً ولا غاية ، والتى لا تنتهى إلى غاية إلا التمس غاية أبعد منها ، يعجبنى العقاد لأنه ساخط دائماً ، والرجل الكريم هو الساخط دائماً ، يعجبنى لأنه لا يرضى ولا يطمئن ولا يستقر ؛ إنما الرضا والاطمئنان والاستقرارية

(١) انظر : مع العقاد – ص ١٥٠ وما بعدها .

آية من آيات الضعف ، وعلامة من علامات الخمود)[1] .

فإذا انتقلنا إلى قصيدتي شكرى : (ليتني كنت إلهاً) و(الملك الثائر) – وجدنا فيهما روح التمرد القانط الذى يرى الشر والقبح والعشوائية آخذة كلها برقاب هذا الوجود . وليس يعنينا هنا أن الشاعر حاول فى ردوده على الذين تأذى حسهم الديني من قصيدتيه أن يقلب القضية فيزعم أنه أراد بهما أن يفضح غرور الآدمى الذى يتطاول بالنقد والتجريح على مقام الألوهية الأرفع ، تماماً كما حاول العقاد أن يقلب قضية تمرد شيطانه الجارف ، وكما حاول كذلك الزهاوى أن يلصق بأواخر قصائده المتمردة بيتاً أو أبياتاً تنم عن رجوع الفكر المتمرد إلى حظائر الإيمان !

إن كل هذه الأعمال المتمردة كانت تستطيع لو أنها انطلقت من قاعدة الإيمان الحقيق أن تخلع دور البطولة على المتمرد فى وجه الإلحاد والرفض ، وليس على المتمرد فى وجه الإقرار والقبول ، وهى كانت تستطيع من خلال بطولة التمرد على الإنكار أن تقيم كل هذا الجدل الفكرى بينها وبين الفكر النقيض ، وأن تورد جوانب فلسفة المصادرة والجحد ، وأن تطوف بكل المقولات الغاضبة فى القديم والحديث ، ولكن من خلال إعطاء البطولة لفكر اليقين ؛ حتى يستشعر المتلقى بأن الشخصية (القناع) تتمثل ملاكاً وليس شيطاناً ، وبشراً إلهياً وليس بشراً إلهاً ، وملكاً ثائراً بالعقائدية وليس ملكاً ثائراً على العقائدية . .

إن محاولات الزهاوى والعقاد وشكرى فى التراجع والاعتذار تدين مواقفهم المتمردة ، وتؤكد أنهم جميعاً ينتمون إلى (تمرد المواقف) وليس إلى (تمرد الرفض) : بمعنى أنهم فى فترات انفلات فكرى وعاطفى كتبوا هذه الأعمال المتمردة ، أو أنهم وقعوا تحت تأثير حيرة جارفة حيال بعض الظواهر الكونية

---

(١) طه حسين – العقاد دراسة وتحية – ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

أو الإنسانية أو الميتافيزيقية فكتبوا هذه الأعمال المتمردة ، ثم لم يستطيعوا أن يبحروا إلى النهاية مع التيار ، فعادوا إلى مرافئهم الأولى من جديد !

وإذا كان بعض النقاد قد حاول أن يخلع على تمرد العقاد صفة الفلسفة ، وعلى تمرد شكرى صفة التأمل[1] – فإننا نميل إلى إخضاع كل التمردات التى حدثت فى شعرنا العربى إلى حس التأمل ، وليس إلى حس الفلسفة ؛ لأن الفلسفة موقف نهائى أو صدور عن موقف نهائى فى الكون والطبيعة وما بعد الطبيعة والإنسان . وشعرنا المعاصر حتى الآن لم يقدم الشاعر صاحب الموقف النهائى ، وإنما هى مواقف تميل طوراً هنا وطوراً هناك .

. . .

وتأتى (مدرسة المهجر) متزامنة مع مدرسة الديوان ، ويتبادل زعماء المدرستين بطاقات التأييد والائتلاف ، فيقدم العقاد لكتاب ميخائيل نعيمة (الغربال) سنة ١٩٢٣[2] ويكتب ميخائيل نعيمة فى غرباله عن كتاب (الديوان) الذى ظهر للعقاد والمازنى فى طبعته الثانية سنة ١٩٢١[3] . وعن كتاب (الفصول) الذى ظهر للعقاد سنة ١٩٢٢[4]

وقد حاولت مدرسة المهجر أن تتمرد على كثير من مواضعات القصيدة العربية التقليدية . وكانت محاولاتها المتمردة فى مجال المضمون تتسم بكثير من الجرأة وكثير من الاضطراب كذلك . . ولعل صيحة جبران فى وجه اللغة الكاذبة كانت قمة

(١) انظر : النقد والنقاد المعاصرون – للدكتور محمد مندور – ص ٩٨ – ٩٩ .

(٢) انظر : الغربال – ص ٣ – ٩ .

(٣) انظر . الغربال – ١٧٥ – ١٨٣ .

(٤) انظر : الغربال – ص ٢٠٥ – ٢١١ .

الاجتراء على القداسة المزعومة للمضامين التقليدية التى حبست الإبداع فى دائرة أغراض هزيلة ، يقول جبران :

(لكم لغتكم ولى لغتى ! لكم منها القواميس والمعجمات والمطولات ، ولى منها ما غربلته الأذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مأنوس تتداوله ألسنة الناس فى أفراحهم وأحزانهم . لكم لغتكم ولى لغتى ! لكم منها الرثاء والمديح والفخر والتهنئة . ولى منها ما يتكبر عن رثاء من مات وهو فى الرحم . ويأبى مديح من يستوجب الاستهزاء ، ويأنف من تهنئة من يستدعى الشفقة . ويترفع عن هجو من يستطيع الإعراض عنه ، ويستنكف من الفخر إذ ليس فى الإنسان ما يفاخر به سوى إقراره بضعفه وجهله ! لكم لغتكم ولى لغتى ! لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق ، ولى من لغتى نظرة فى عين المغلوب ، ودمعة فى جفن المشتاق ، وابتسامة على ثغر المؤمن . لكم لغتكم ولى لغتى ! لكم أن تلتقطوا ما يتناثر خرقاً من أثواب لغتكم ! ولى أن أمزق بيدى كل عتيق بال ، وأطرح على جانبى الطريق كل ما يعوق مسيرى نحو قمة الجبل ! لكم لغتكم ولى لغتى ! لكم لغتكم عجوزاً مقعدة . ولى لغتى صبية غارقة فى بحر من أحلام شبابها ! أقول لكم : إن النظم والنثر عاطفة وفكر ، وما زاد على ذلك فخيوط واهية . وأسلاك متقطعة . . لكم لغتكم ولى لغتى !)[1] .

وهكذا تشتعل كلمات جبران تمرداً وغضباً واجتراء على المحتوى التقليدى الذى يزيف أحاسيس الشاعر واقتداره . . . ولكن شعراء المهجر لم يكونوا جميعاً على هذا المستوى الهاجم من التمرد ؛ وإنما هم طبقات تتمايز اندفاعاً وانصياعاً ؛ فحقيق أن جبران ونعيمة وأبا (ماضى) وشكر الله الجر ونسيب عريضة وإلياس فرحان

---

(١) بلاغة العرب فى القرن العشرين (جمع محيي الدين رضا) ص ٥١ وما بعدها .

والشاعر القروى وغيرهم من شعراء المهجر – حاولوا أن يتمردوا على المحتوى الجامد الذى كانت تحمله القصيدة الشعرية ، وتتردد فيه بين مدح رخيص ، ووصف مسطح ، وغزل كاذب ، وفخر مجوف ، وهجاء سوقى ، ورثاء مزور ؛ فغنوا فى شعرهم المغترب لقضايا الاغتراب والحنين والتصوف والطبيعة والمرأة والحرية والتساؤل ، وأعطوا من خلال هذا الغناء عطاء رائعاً يمكن أن يكون إضافة تجديدية لمضمون الشعر المعاصر بلا خلاف .

ولكن التسليم بقضية التجديد لا يعنى التسليم بقضية التمرد ؛ فبينهما فارق واضح حددناه فى كون التجديد عملاً فى التراث بإحيائه أو بعثه أو استلهامه مع محاولة تعصيره ما أمكن . . ولكن التمرد عمل فى التراث من خلال معارضته والاحتجاج عليه وتهديم جوانب كثيرة من مسلماته والخروج من بهوه إلى أبهاء عصر جديد !

ومن هنا تكون الملامح المميزة لشعر المهجر لوناً من التجديد فى شعر التراث . . أما إضافة هذا الأسى الغيمان الذى فجرته الغربة على نسيج شعرهم ومحتواه فهو لا يعنى الخروج به من إطار التجديد إلى إطار التمرد ؛ لأن التمرد لا يبكى ، ولا يسترجع ، ولا يتصوف ، ولا يغيب فى حضن المرأة والطبيعة . . إنه تمرد على البكاء والاسترجاع والدروشة ودفء الأحضان من كل لون . . أجل ؛ قد يعمل التمرد من خلال هذه المضامين ولكن ليزلزلها أو يعصف بها أو يسخر من سكونيتها ، ولكنه لا يمكن أن يكون نادباً أو درويشاً أو مخدراً ذاهلاً !

يبقى من ملامح شعر المهجر : (الحرية . . والتساؤل) ، وهما ظاهرتا التمرد الحقيقى فى هذا الشعر ، وعندهما يجب أن نتوقف ونتأمل .

والحرية فى شعر المهجر تشكل ظاهرة تمرد حقيقى ؛ لأنها صوت جديد ضد

أصوات التقليد والإتباع فى الفن والحياة .

يقول أمين الريحانى مهاجماً عبرات الشعراء الباكين : (فإذا نحن حملنا على الشعر الباكى الذى ألفه شبان هذا الزمان – فإننا نحمل على التعمد والتعمل التخنث فى الشعر الباكى ! نحمل على دموع الزور وعلى دموع الخوف والجبانة ، وعلى دموع الشعراء السوداء المكونة من الحبر الممزوج بماء العواطف الآسن !)[1]

ويقول : (إننا سائرون إلى الاستعباد ، الاستعباد الاقتصادى ، وإن النخاسين يصفقون لأغانينا المحزنة المبكية ، ونحن نتجادل فى الأدب الباكى والأدب الثائر أيهما أنفع لنا ؟)[2] .

أما جبران خليل جبران فيحدد ملامح الشاعر الحقيق بأنه ذلك الذى يخرج من هيكل نفسه كل يوم بجديد !

أما المقلد فهو الذى يردد صلاة المصلين وابتهال المبتهلين بدون إرادة ولاعاطفة ، فيترك اللغة حيث يجدها ، والبيان الشخصى حيث لابيان ولاشخصية ![3] .

ويصيح جبران : « إن المغنين والشعراء فى الشرق هم حملة المباخر بل هم العبيد ، وقد فرض عليهم أن ينشدوا فى الأعراس ، ويترنموا فى الحفلات ، ويندبوا فى المآتم ، ويرثوا فى المقابر ! هم الآلات التى تدار فى أيام الحزن وليالى الأفراح ! وأنا ألوم المغنين والشعراء والأدباء الذين لايحترمون نفوسهم ، ولايضنون

(١) مارون عبود – أمين الريحانى – ص ٨٧ .

(٢) انظر : التجديد فى شعر المهجر – أنس داود – ص ٩٣ .

(٣) جبران – المجموعة الكاملة – ٣ ، ٢٤٨ .

بماء وجوههم ، ألومهم لأنهم لايترفعون عن الصغائر والتوافه ! ألومهم لأنهم لايفضلون الموت على الخضوع والذل[1] .

ويرى ميخائيل نعيمة أن الشعر هو الحياة بكل أضدادها ومتناقضاتها ، وهو مجال البقاء وبقاء الجمال ، وهو ميل جارف وحنين دائم إلى أرض لم نعرفها ولن نعرفها ، وهو الذات الروحية تتمدد حتى تلامس أطرافها الذات العالية[2] :

ويخرج نعيمة بالشعر من مجال الاهتمامات الصغيرة إلى رحابة القيم الخالدة ، لأن الشعر منوط به أن يجسم أحلام الإنسان عن الجمال والعدل والحق والخير

وإذا كانت هذه بعض آراء الأدباء والشعراء المهجريين فى ضرورة الحرية للشاعر والفنان - فإن الشعراء اندفعوا يواكبون هذه الآراء المغنية للحرية بشعر يتألق حرارة وتمرداً : يقول إليا أبوماضى من قصيدته أنا :

حر ومذهب كل حر مذهبي　　　ماكنت بالغاوى ولا بالمتعصب

....

أنا من ضميرى ساكن فى معقل　　　أنا من خلالى سائر فى موكب

ويعبر الشاعر القروى عن رفضه لتحيف القيد للحرية :

أبيت جوارها أرضا　　　بغير الذل لاترضى

بلاد خسفها أمسى　　　على أبنائها فرضا

....

بلادى أين سيف العزّ　　　م فى وجه القضا ينضى

(١) المرجع السابق - ٣ ، ١٤٠ .

(٢) انظر : الغربال - ص ٦٣ .

(٣) المرجع السابق - ص ٦٦ .

ويوغل فى تمرده حتى ليعاتب إلهه على ضياع الحرية فى وطنه وشعبه :

إلهى ردّ مالك من أياد على وطنى ورد له الإيادا
خلعت على رباه الحسن فذّا وألبست القطين به الحدادا
وما شرف الجبال لساكنيها وشم إبائهم خسفت وهادا
أهيب بهم فلا ألقى سميعا كأننى المنادِى والمنادَى !
ألا ذوقتهم ألمى فثاروا فيا رباه لست أنا البلادا
شبول (الأرز) بات الحلم عجزا وبعض الصبر موت إن تمادى
فكونوا النار تحرق أوقدى فى عيون المطل إن كنتم رمادا

ويضع الحرية على مستوى المقولة الفلسفية الهازئة بحدود الزمان والمكان ، والمتمردة على لوازب الضرورة الجوفاء :

صغرت نفس حاصر النفس فى أشـ ـبار أرض يمدها أوطانا ؛
أنت حر فاستوطن البلد الحـ ـر وصاحب من أهله إخوانا
مثلك الكون والزمان فلا تلـ ـح مكانا ولاتسب زمانا
ليس فى قضمك الحديد هوان إن فى بثك الشكاة هوانا
بسمة تظهر الفقير غنيا دمعة تمسخ الشجاع جبانا
فتلق الحياة بالبشر فالعيـ ـش نعيم إن لم تكن شيطانا
كن إله النضار إنك عندى لست شيئا مالم تكن إنسانا
أشبع العقل حكمة واختبارا واملأ القلب رحمة وحنانا
ولك الأرض والسماء وهل يُدْ عى فقيرا من يملك الأكوانا

ويرسل الشاعر إلياس فرحات هذه الصيحة المدوية إلى كل الشعراء الخانعين :

حاربت ضد جيوش الظلم منتقماً منها برأس يراع يقذف الحمما

ثم انسحبت من الميدان مرتعدا والظلم يجترف الأفراد والأمما
كن كالحسام وقل ما أنت معتقد للمستبد ولاترهب إذا احتدما
إن الجياد تلوك اللجمْ مزبدةً غيظا ولكنها لاتبلع اللجما

ويجلجل الشاعر نعمة الحاج فى قصيدته بلادى :

أتبكى ؟ ومايجدى البكاء وإنه لشر سلاح يحمل المرء مرغما !
سلاح ضعيف العزم ليس بنافع ليدفع غرما أوليجلب مغنما !
فلاقول إلا للحسام مجردا ولا حق إلا للسنان مقوما
وياحبذا يوم الجهاد فإنه ليطربنى فيه الرصاص مدمدما !

وهكذا تتوالى تنويعات الشعراء على لحن الحرية الرائع ، ونلاحظ أن شعراء المهجر لا ينادون بالحرية من خلال الزعيق الصاخب المتوتر بقدر ما ينادون بها من خلال تعميق الحس الإنسانى ، وتثوير الإنسان على وضعية التفاوت أو الظلم أو الاستعباد أو انهزام القيمة فى مواجهة المادة ، ومخاطبة المستوى الفكرى والثقافى فى إنسان المرحلة بما هو قادر على التعامل مع هذه النوعية من الشعر ، وليس مع نوعية الشعر الذى لا يخاطب فيه غير حاسة السمع وبعدها لا يترسب شىء فى القرار !

كما نلاحظ أن الحرية فى شعر المهجر تتعالى حتى تشارف التساؤل الميتافيزيقى ؛ فتصير بذلك قضية وجودية شاملة ، وليس مجرد انتفاض فى وجه عدوان من العدوانات ؛ كما أنها تمتد حتى تصير تمردا فنيا يرفض الحدود والقيود والأقيسة الصماء .

أما عن التساؤل الميتافيزيقى الذى يشكل فى شعر المهجر ظاهرة أخرى من ظواهر التمرد فهو – بحق – أروع ما قدمته مدرسة الشعر المهجرى لحركة الشعر المعاصر من إنجازات ، وهو تساؤل يدور فى محورين أو يكاد : محور الحيرة واللا أدرية ،

ومحور الرفض والتورة . .

ويقف على رأس محور الحيرة واللا أدرية ، إيليا أبو ماضى ، كما يقف على رأس محور الرفض والثورة نسيب عريضة ، ولكن الشعراء الذين مشوا على هذه الطريق من بعدهما ربما كانوا أوغل منهما فى طرح تساؤل الحيرة واللا أدرية وفى تعميق تساؤل الرفض والثورة .

وإذا كان نسيب عريضة واحداً من شعرائنا المعاصرين الذين فى شعرهم مدى ، ولشاعريتهم وجه يميزها عن كل شاعرية ، وفى شعرهم شخصية لا تندغم فى شخصية أحد من الشعراء ، كما يلاحظ ذلك ميخائيل نعيمة[1] فإن هذا العمق والتفرد يرجع بالضرورة إلى محور الرفض والثورة الذى تزعمه نسيب ، فأعطى شعره بعداً فنيا جديدا يتجاوز الحياة إلى ما بعد الحياة ، ويتخطى الأرض إلى السماء ، ويعبر حواجز « الآدمى » إلى فضاء « الإلهى » .

(ها هو ذا ينظر إلى الحياة ، أو بالحرى إلى ما يحيط به بصره من مظاهر الحياة ، فيراه مشوش النظام ، منافيا لأفكاره الشخصية عن العدل والتوازن ! ها هى ذى بقعة من الأرض يجرفها السيل وأخرى يشويها القيظ ، ها هو ذا غنى يشكو التخمة وفقير يشكو مضض الجوع ، وطفل يولد كسيحا أعمى فى كوخ وآخر يأتى هذه الحياة صحيحا معافى محاطا بالوفرة وبكل أسباب الراحة والعناية ! فيسأل الشاعر فكره عن القصد من مثل هذا التفاوت فى قصيدة عنوانها « لماذا » ؟ :

لماذا تهب الرياح على شواهق ليست بها حافلة
وتحرم (من) بردها مهمهاً به أوشكت تهلك القافلة
لماذا السفينة تطلب ريحا ومن تحتها أبحر هائلة

(١) انظر : الغربال — ص ١٠٧ .

وفى القفر عطشى يريدون ماءً وريح السموم ، بهم نازلة
لماذا نحب ؟ . لماذا نحسُّ ؟ لماذا نعيش بلا طائلة ؟

لكن فكره لا يهديه إلى نور ، بل يزيد ظلمته سوادا ، ويحاصره من كل جانب بأسئلة جديدة ، واستفهامات هى أكثر تعقيدا من ذى قبل ، وإذ لا يجد له مفرا من إلحاح فكره يخدره بقوله : إن ما يراه من التفاوت فى مظاهر الحياة إنما هو ظلم من الحياة وخلل فى تنظيمها ، وإنه لو كان هو ربًّا لرتبها على غير ما هى من السنن ، ولاستغفر الإنسان عما أنزله به — منذ خلقه — من الآلام والشدائد والأوجاع . فيقول :

لو كنت ربا فى السماء عظيمًا بجميع أمر الكائنات عليمًا
لهبطت من عرشى إلى أرض الشقا نحو ابن آدم من خلقت قديما
وطرحت نفسى عند موطئ رجله وسجدت ثم لوجهه تكريما
ولبثت أغسل بالدموع كلومه وأزيده بتذللى تعظيما
مستغفرا عن عيشة قُسِمت له منذ الخليقة لاتزال جحيما[1]

إن الشاعر هنا ينتقل من موقف التساؤل المبطن بالإنكار[2] ، إلى موقف إلقاء الدينونية على الديان . وفى كلا الموقفين يلوح رفضه وتمرده وإصراره على مواصلة

(١) ميخائيل نعيمة — الغربال — ص ١١٠ — ١١١ .

(٢) يرى جورج صيدح فى كتابه (أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية) أن الشاعر فى هذه الأبيات السالفة (يتوجه إلى ربه ، لا بالتجديف ، بل بالاقتراح المبطن بالعتاب ، كأن للشاعر دالة على خالقه) انظر ص ٢٧٧ ، ولسنا نرى أن هذا المعنى يمكن أن يستشف من أبيات الشاعر لا شكلا ولا مضمونا . ولكن موقف التساؤل المبطن بالإنكار هو المعنى المتبادر .

المواجهة مهما تكاءدته على هذه الطريق من عقبات ، لأنه فى هذه الوضعية حصاد لتساؤلات وتمردات سالفة أفضت به إلى ما هو عليه من غضب ، ورفض ، وإدانة للسماء .

يقول ميخائيل نعيمة : (لم يصل نسيب عريضة إلى هذا المستوى الشعرى إلا بعد أن قطع مفاوز شاسعة فى التساؤل والحيرة والشك واليأس ناله فى كل منها نصيب وافر من التحرق والتوجع والتفجع . ولا شك عندى أنه لو أتيح له أن يعود ويقطع ذاك الطريق نفسه ما تردد ، وما ثناه خوف الألم والوجع ، لأن أكبر لذة يلاقيها الشاعر فى حياته هي لذة الألم المولد ، لذة لا يتذوقها من البشر إلا الأمهات وأبناء الفن) (١)

وقد كان من نتائج هذا الموقف المبدئى لنسيب عريضة – إفضاؤه به إلى (اليأس المطلق والوحدة القاسية ، والزهد ، وعدم المبالاة بالكون وما فيه ، فكل الأشياء بالنسبة إليه مظاهر خادعة وملاذ جوفاء) (٢) .

ويأتى على رأس المحور الآخر ، محور الحيرة واللا أدرية – إيليا أبو ماضى . . وإذا كان نسيب عريضة قد أراح نفسه بموقف الرفض والثورة فإن إيليا قد أجهد نفسه بالغوص وراء حقائق الأشياء واستكناه سر الوجود . . حتى فى تفاؤله واستبشاره كان باحثا دائب التنقيب عن الفحوى ، (فلم يكن تفاؤله عابثا أولاهيا عن التفكير حتى فى التفاؤل نفسه ومصدره ومصدر ما يبحث عنه من مسرة (٣) .

---

(١) ميخائيل نعيمة – الغربال – ص ١١٧ – ١١٨ .

(٢) د . نادرة جميل السراج – نسيب عريضة الشاعر الكاتب الصحفى – ص ٥٥

(٣) د . شوقى ضيف – دراسات فى الشعر العربى المعاصر – ص ١٩١ .

وإذا كان ما يعنينا من إيليا هنا هو شعر التساؤل – فإننا نستطيع أن نزعم أن شاعرا معاصرا آخر لم يستطع أن يفجر فى شعره كل هذه التساؤلات بمثل هذا العمق العميق الذى فجر به إيليا تساؤلاته. إنه لم يقف على شاطئ القضية الميتافيزيقية مرسلا سؤالا له هنا وسؤالا له هناك، ولكنه دخل فى أعماق المحيط، وغاص طويلا وراء لآلئه، واستطاع بالفعل أن يستخرج من هذه اللآلئ الكثير. وإذا كان قد عاد من رحلته أخيرا بهذه اللا أدرية الشاملة فإن ذلك يضفى على موقفه الشعرى نوعا من الصدق الحقيقى الذى يواجه به الشاعر مغاليق الكون وأسرار الوجود وما بعد الوجود، ثم يعود من هذه المواجهة الشعرية وهو موقن بأن قامته أقصر من أن تطول هذا الأفق، وأن قدرته على الكشف لا تتعدى محاولة الاستشفاف.

وليس إيليا أول من راد هذه الطريق الوعرة، فقد سبقه عليها كثير من الشعراء والفلاسفة والمفكرين، ولكنه لم يذب فى هذا الرعيل الرائد، وبقى يطرح من التساؤلات الذاتية المتمردة المعبرة عن احتدامه الداخلى ما أفرد له مكانة خاصة وسط شعراء جيله النابغين.

(ثم هو فوق هذا كله وقبل هذا كله صاحب شك لا يؤمن بشىء ولا يطمئن إلى شىء؛ فهو بقية من هؤلاء القدماء الذين كانوا يجيبون عن كل سؤال بهذا الجواب المتواضع البديع: (لا أدرى)[1] ! كما يقول الدكتور طه حسين.

ويخطئ الذين يحاولون أن يضعوا إيليا فى موقع غير موقع الشك، والشك المتمرد الرافض الذى حصل نوعا من المعرفة المستقرة حيال ما أثار من تساؤلات، وأراد أن يطرحها على الناس حاثا لهم على بحثها للوصول بشأنها إلى قرار نابع من

---

(١) د. طه حسين – حديث الأربعاء ج ٣ ص ١٩٨.

مكابداتهم الذاتية ، كما لاحظ ذلك عيسى الناعورى فى دراسته لشعراء المهجر .

وقد تكون قصيدة إيليا (الطلاسم)[1] خلاصة فلسفته فى هذا الصدد ، وقد تتوزع هذه الفلسفة فى اتجاهات : الوجود الذاتى والموضوعى من جهة ، والمصير الإنسانى والكونى من جهة ثانية ، وقضايا الخير والشر والحكمة والعبث من جهة ثالثة وإن كان الفصل الحاسم بين هذه المحاور الثلاثة يبدو شاقا وغير منهجى .

فهو فى المقاطع الأولى يصور حيرته الفاجعة أمام (طلاسم) الوجود الذاتى :

جئت لا أعلم من أيـ ـن ؟ ولكنى أتيت !
ولقد أبصرت قدا مى طريقا فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت !
كيف جئت كيف أبصر ت طريقى ألست أدرى !

ثم يتساءل عن ماهية هذا الوجود . أجديد أم قديم هو فى هذا الوجود ؟ وهل هو حر طليق أو هو أسير فى القيود ؟ وهل هو قائد نفسه فى حياته أو هو مقود ؟

ويتساءل عن طريقه : أطويل هو أم قصير ؟ هل هو صاعد فيه أو أنه هابط يغور ؟ هل هو السائر فى الدرب أو الدرب يسير ، أو كلاهما واقف والدهر يجرى ؟

ويتساءل عن وعيه الأول وهو جنين فى عالم الغيب : أتراه كان يدرى أنه فيه دفين ، وأنه سوف يبدو وأنه سيكون ، أم تراه كان لا يدرك شيئا ؟

ويتساءل : هل كان – قبل أن يصبح إنسانا سويا – محوا أو محالا أو شيئا من الأشياء ؟ وهل لهذا اللغز حل أو سيبقى أبديا ؟

وعن كل هذه التساؤلات التى تحاول أن تَسْتَكْنِهَ سر الوجودُ الذاتى يجيب إيليا بهذه الكلمة الفاجعة : لست أدرى !

---

(١) الجداول – ص ٩٩

وينتقل من الوجود الذاتى إلى الوجود الموضوعى ، فيسأل (البحر) عن وحدته به ، وعن تاريخه الزمنى ، وعن حريته وأسره ، وعن العلاقة الجدلية بينه وبين السحب وبينه وبين الأحياء الراكضة فى جوفه ، وعن الأجيال التى طواها ولم تطوه ، وعما قبل وما بعد ؟

ويسأل (القصر والكوخ) : من بناهما ؟ وكيف كانا فكرة فى دماغ غيبته الظلمات ؟ ، ثم كيف اتحد الطين فيهما والرخام ؟

وعن كل هذه التساؤلات التى تحاول أن تستكنه سر الوجود الموضوعى فى الأشياء يجيب إيليا بهذه الكلمة الفاجعة : لست أدرى !

وأمام المصير الإنسانى والكونى يقف إيليا (بين المقابر) ليتساءل : إلى أين ؟ ويرثى للإنسان الفاقد أمنه حتى فى الحفير ، ويضع يده على تلاشى الحاجز المادى بين العبد والسيد ، ويدين قضية الموت التى تبدو له غير عادلة :

إن يك الموت قصاصا : أى ذنب للطهارة
وإذا كان ثوابا : أى فضل للدعارة
وإذا كان وما فيه جزاء أو خسارة
فلم الأسماء إثم وصلاح ؟

ويتوجه إلى القبر مناشداً إياه أن يتكلم ، فيبوح بأسراره ولو مرة واحدة ، ويرفض أن يكون البعث حكمة ؛ لأنه مادمنا سنبعث بعد أن نموت فلماذا نموت ؟

إن يك الموت رقاداً : بعده صحو طويل
فلماذا ليس يبقى : صحونا هذا الجميل ؟

ويروح يشكك فى قضية البعث بإقامة نوع من التقابل والتضاد يولد نوعا من المستحيلات ، فيتساءل :

إن أكن أبعث بعد الموت جثماناً وعقلا
أترى أبعث بعضاً : أم ترى أبعث كلا
أترى أبعث طفلا : أم ترى أبعث كهلا
ثم هل أعرف بعد الموت ذاتى ؟

ويكاد يجهش بالرفض المصرح فى نهاية الوقفة :

يا صديقى لا تعللنى بتمزيق الستور
بعد ما أقضى ، فعقلى : لا يبالى بالقشور
إن أكن فى حالة الإدراك أدرى ما مصيرى ؟
كيف أدرى بعد ما أفقد رشدى ؟

وعن كل هذه التساؤلات التى تحاول أن تستكنه سر المصير الإنسانى والكونى يجيب إيليا بهذه الكلمة الفاجعة : لست أدرى !

وأمام قضايا الخير والشر، والحكمة والبعث – يقف إيليا أبو ماضى فى (صراع وعراك) : إنه يحتوى فى داخله الشيطان والملاك ، والجميلة والقفر ، والطفولة والكهولة ، والمراح والنواح ، والإيمان والكفر ، والتغير والثبات ، والمعرفة والجهل ، والجمال والقبح ، والخير والشر ، والحكمة والعبث ؟ فلماذا هو مسرح لكل هذه التناقضات ؟ إنه يتمزق دائما بين النقيضين ، ويحاول عبثا أن يعرف الحكمة من وراء ذلك ، فلا يجد غير جُدران من الظلام الكثيف ؟

وعن كل هذه التساؤلات التى تحاول أن تستكنه سر هذا التناقض الحاد يجيب إيليا بهذه الكلمة الفاجعة : لست أدرى !

وهكذا يشهر الشاعر هذه اللا أدرية الفاجعة فى وجه كل المغاليق الذاتية والموضوعية والمصيرية والقيمية ؛ لا ليؤكد جهله وانكفاءه ، ولكن ليؤكد تمرده

على إلقاء الإنسان فى غابة عالم كثيف ، كلما ثقب حائطا من حوائطه الغليظة قام فى وجهه ألف حائط وحائط غليظ ! إن الشاعر مفتون برحلة البحث والاقتحام ، وليست لا أدريته نوعا من الارتعاش أمام حوائط الكون بقدر ما هى نوع من إسباغ العبث واللا جدوى على مظاهر الكون والطبيعة والإنسان ، وكأنه يقول : إن كل ما هنا غير قابل للفهم والإدراك ، لأنه ينطوى فى أساسه على خطل التناسق الوجودى الذى به تفهم حقائق الأشياء !

(فما الكون وما الفلك وما الطبيعة وما بدؤها ونهايتها ؟ ومن أين نجىء وإلى أين نذهب ؟ وما الموت المخيف الذى لا يبقى على حى ؟ وما الدِّين وعالم السماء ؟ وهل يستطيع هذا العالم أن يفسر لنا المعميات التى نحار فيها ؟ وهل هو عالم حقيقى أو من صنع الخيال ؟ لقد حاول فى قصيدته (نار القرى) — أن يصعد فى مدارج هذا العالم ، فطار قليلا ، ولم يلبث أن هوى إلى الأرض ، وظل فيها وظل معه قلقه وحيرته ، فلجأ إلى العقل يسأله ولم يجد عنده جوابا شافيا ، فيئس منه ، ومضى يتخبط فى شكه غير مؤمن بشىء سوى وجوده وما يكون بعد الوجود من موت وعدم :

ما لحى بالموت عنه انفصال   إن دنياه هذه أخراه !

فمن شاء فلينعم بدنياه وملاذها قبل أن يفوت الأوان ، وينزل به الفناء الساحق الماحق ، وليدع التفكير فى الحلال والحرام وما شرعه النبيون :

أكبر الإثم قوله هذا الأمر   إثم وهـــذه فـحشـــاء !
ليس بين الصلاح والشر حد   كالذى شاء وضعه الأنبياء[1] !

(١) د. شوقى ضيف – دراسات فى الشعر العربى المعاصر – ص ١٩١ – ١٩٢ .

وإذا كان هذا هو موقف قادة التمرد فى شعر المهجر فإن هناك تنويعات أخرى من شعراء آخرين : فيحائيل نعيمة فى قصيدته (يا رفيقى) يدعو إلى رفض المراءاة أمام الله ، وينادى بأن يشهر الإنسان فى وجه خالقه بعضا من التناقضات الحادة التى تؤرق فكره البشرى . كأن يقول لله : لقد جهلت الحرام فى وجود لم أخير فى صنعه . فأنا أرى كل شىء فيه جميلاً وطاهراً وجليلاً . لقد هبطت على الحياة ضيفا لا وليا أدير منها خطاها ، فأنا أحسو ما يقدم لى على خوانها المملوء ، لقد جئت الحياة عاريا فاكتسيت من أبرادها الملونة ، وسأتركها كما جئتها عاريا ! لقد نزلت إلى الأرض أطعم من لحمها وتطعم هى من لحمى فلماذا وحدى أدان ؟ نحن قسراً نجىء ، وقسرا نمضى ، وقسرا فعلنا ما فعلنا :

فأبحنا للنفس كل مناهـا
وتركنا الحـرام للفقهاء !

ويتساءل ندرة حداد عن حكمة الحياة والموت ، وفوزى المعلوف عن معنى ما يحدث ، والشاعر القروى عن معقولية السبب ، ويفضون من كل ذلك إلى نوع من الإيحاء بالعبث الكامن وراء كل هذه الأشياء !

ولكنّ فريقا آخر من شعراء المهجر يغرسون سيوف سخريتهم فى لحم الظاهرة الدينية بلا وجل ! فيسخر إلياس فرحات من معقولية رحلة المسيح إلى مصر على ظهر حمار ، ومن مقولة الدين أن اللص المؤمن أقرب إلى الله من الملحد الشريف !

دع آل عيسى يسجدون لربهم عيسى وآلَ محمد لمحمد
فيوحدون ويشركون جهالـة والموت يخلط مشركا بموحد
تعويد كفيك الصلاح أبر من تعويد رجليك الوقوف بمسجد
أنا لا أصدق أن لصا مؤمنا أدنى لربك من شريف ملحد !

ويسخر الشاعر القروى من التناقض بين مقولة القدم ومقولة الحدوث :

سبحانه وتعالى أن يصاحبه نقص ويعنى بنفى أو بإثبات
لو قال «كن» كان للتكميل مفتقرا وكان فى حاجة الماضى إلى الآتى

ومن دعوة الجماهير إلى الصيام والصلاة على حين أنها تعانى من واقع الهوان الوجودى :

أنت يا بن الله سورى صميم أفناس يا ترى أم تتناسى ؟
كم غريب للك قد صام وصلى وعلينا آخر القداس داسا
اخْى فينا أنفساً ماتت هواناً علّنا نرفع بين النّاس رَأْسَا
أنت إنسان جعلناك إلهًا أفلا تجعلنا فى الناس ناسا ؟

وهكذا كان شعر التساؤل المتمرد والحائر أروع عطاءات الشعر المهجرى الذى تناول كل أبعاد الظاهرة الوجودية والإنسانية والميتافيزيقية .

* * *

وتأتى (جماعة أبولو) على فترة من الإبداع الشعرى العظيم ؛ فقد تجمد اتجاه المدرسة الكلاسيكية بعد رحيل شوقى وحافظ ، وانحسر اتجاه مدرسة الديوان بعد أن اتجه أعلامها إلى ممارسة النقد الأدبى ، فكان ضروريا أن تنبثق حركة شعرية جديدة تتجاوز تجمد الكلاسيكيين وذهنية مدرسة الديوان ، وكانت هذه الحركة هى جماعة أبولو بكل ما أحدثته فى حياتنا الشعرية من تدفق عاطفى وجيشان وجدانى واستجابة لروح النزعة الفردية الثائرة .

وإذا كانت المدرسة الكلاسيكية ومدرسة الديوان ومدرسة المهجر لم تجد أمامها نماذج سابقة عليها يمكن أن تستفيد منها فى حركة تخليقها للجديد – فإن جماعة أبولو وجدت فى هذه المدارس الثلاث السابقة وبخاصة مدرسة المهجر محاولات جادة

وعميقة على طريق تطوير القصيدة العربية وحشدها بعناصر التمرد والانتفاض . فإذا أضفنا إلى ذلك نموذج الرومانسية الغاضبة المتوفرة الذى كان يمثله إلياس أبو شبكة فى لبنان ، ونموذج الرمزية الغامضة المبهمة الذى كان يمثله فى لبنان أيضا سعيد عقل ويوسف غصوب — عرفنا أن طريق جماعة أبولو كانت ممهدة وحافزة على إجادة الخلق والإبداع .

وبالفعل استطاعت هذه الجماعة أن تحقق كثيرا من التحولات الفنية التى تتصل بمضمون القصيدة المعاصرة ، ولكنها اتسمت بالهروبية المنسحبة أكثر مما اتسمت بالتمرد المقتحم ، فدارت فى فلك الشكوى ، والحنين ، والحب ، والطبيعة ، والاعتزال ، والتأمل .

قد يقال : إن خروج الشعر المعاصر عن المدح والهجاء والوصف والغزل والرثاء إلى مجالى الطبيعة وأحضان الأنثى وعوالم الذات الأسيانة — يعد تمردا على مضمون القصيدة التقليدى ، وهذا هو ما فعلته جماعة أبولو .

وقد لا نوافق على هذه المقولة المغلوطة ؛ لأن « المضمون » ليس هو « الموضوع » كما قلنا من قبل ؛ فإن أى شاعر بادئ يستطيع أن يكتب شعرا فى سفن الفضاء بدلا من كتابته فى وصف ناقة فى الصحراء ، ويبقى مع ذلك شاعرا متخلفا وتقليديا ومسطح القرار ! إن الموضوع لا يعطى الشاعر قيمة ما ، ولكن الموضوع الذى يتناوله الشاعر من زاوية رؤية خاصة ، وبفلسفة ذاتية تؤكد حضور الشاعر فى عصره وفى ثقافة هذا العصر — هو الذى يقيم الحد الفاصل بين الشاعر المقلد والشاعر المتمرد .

ربما نستصفى ظاهرة التأمل (على هون) كلون من ألوان التمرد فى شعر أبولو ، ونحن نستصفيها (على هون) ؛ لأن الشعراء الذين مارسوها وقفوا بها على أعتاب

الخسارة الفكرية ، ولم يتجاوزوا بها حدود هذه الأعتاب . . حتى القصيدة التى يجمع دارسو الأدب المعاصر على أنها قصيدة متمردة ، وهى قصيدة (الراهب المتمرد) لصالح جودت – تمضى شوطا على طريق الرفض والجدل ، ثم تكسر خطها البيانى الصاعد عند ذروة الاشتعال ، وتنحنى منكفئة فى اتجاه الموادعة والجفول ! وهكذا يفعل أبو شادى فى قصيدته : (أقصى الظنون) .

إن التأمل يشغل مساحة هائلة فى إبداع شعراء أبولو ، ولكنه تأمل لا يصل إلى مستوى التمرد إذا استثنينا الشاعر محمود أبو الوفا فى قصائده المتمردة : (عنوان النشيد ، والنشيد ، والإيمان ؛ وفى بعض قصائده الأخرى التى لا تصل فى تمردها إلى ذروة ما وصلت إليه هذه القصائد الثلاث .

يقول محمود أبو الوفا عن قصائده المتمردة : (. . . ففى هذه القصائد الثلاث بالذات نوع من الشعر ، إنه ليس مجرد شعر . . ولكنه الشعر بكل معنى هذه الكلمة ، وشىء آخر هو الفكرة ، هو الثورة . . وليس هذا فحسب . إنه شىء آخر أيضا . . إنه ناقوس . . إنه أذان . . إنه الإيمان . . ولكن بالإنسان ، إنسان الفضاء ؟ كلا . ولا هذا . . إنه الإنسان الذى تلتقى فيه الأرض بالسماء ، بل هو إنسان الفصل الخامس كما يطيب لى أن أسميه أو هو الإنسان الثائر[1] .

ولكن الدكتور طه حسين يهاجم الشاعر مهاجمة ضارية ، ويرى أنه رجل أراد أن يزعم لنفسه فنا من فنون الفلسفة فيه خروج على ما ألف الناس من أحكام الدين ، فأتى بشىء من الفلسفة التى لا تمتاز بشىء ؛ كما تمتاز بالفراغ والقدرة على إحراج الصدور ! ثم يستدل بأبيات له ، منها هذه الأبيات :

---

(١) محمود أبو الوفا – شعرى – ص ١٢ – ١٣ .

رب فيم ابتعثت رسلا ولو شئت   لأغنت إرادة الإنسان
أفصح الحسن مستهلا فما حاجة   هذا الجمال للترجمان
لا أرى آدما عصى الله   لكن شاء أن يستقل بالسلطان
يكره الحر أن يعيش على السجن   ولو كان سجنه فى الجنان [1]

وواضح أن الدكتور طه حسين قد تحامل على الشاعر تحاملا هائلا ، فربما يكون الشاعر قد ذهب فى التعبير عن إحساسه بالحرية الإنسانية إلى مدى أبعد أو أرعن مما يجب فى مخاطبة الله ، ولكن ليس من الإنصاف أن نغمط الشاعر – فنيا – فنتهمه بالفراغ والثرثرة ؛ لأن شعره هنا يستوى على أفق الفن الحقيق بصوره وتعابيره وشحنة الانفعال التى ينقلها إلى قارئ هذا الشعر حتى لو خالفنا فى مضمون ما يقول وشكله .

ويبلغ التأزم النفسى بالشاعر ذروة الاحتدام ، فيجهش فى قصيدته الفاجعة (رثاء نفسى) بعذاب روحه الحائرة ، ورفضه المأساوى لوضعية حلوله فى الوجود :

فى ذمة الله نفسٌ ذات آمال   وفى سبيل العلا هذا الدم الغالى
بذلته لم أذق فى العمر واحدة   من الهناء ، ولا من راحة البال
كأننى فكرة فى غير بيئتها   بدت فلم تلق فيها أى إقبال
أو أننى جئت هذا الكون عن غلط   فضاق لى رحبه المأهول والخالى

ثم يوسع أبويه تعنيفا ورفضا :

أبى ، وفى النار مثوى كل والدة   ووالد أنجبا للبؤس أمثالى
خلفتنى فوضعت الحبل فى عنق   تشده كف دهر جد ختال !

(١) انظر : حديث الأربعاء – الجزء الثالث – ص ١٩٠ – ١٩١

ما كان ضرك لو من غير صاحبة قضيت عمرك شأن الزاهد السالى !

ولا يفلت الدين والدنيا من قبضة تمرد الشاعر :

مالى أرى الدين والدنيا قد اختصما كلاهما عن أخيه معرض سالى ؟
كأنه رابه منها تزينها فرابها هى منه ثوب أسمال !

ونستطيع أن نضم إلى أصوات المتمردين من جماعة أبولو هذا الشاعر التونسى الرائع أبا القاسم الشابى إذا اتفقنا أولا على أنه واحد من شعراء هذه الجماعة ، وليس مجرد واحد ممن وصلتهم بهذه الجماعة صلة النشر فى مجلتهم الذائعة « أبولو » وقدم له رائد الجماعة على صفحات المجلة باعتزاز .

لقد تعرض الشابى – كما يقول فى مقدمة قصيدته (إلى الله) لأزمة نفسية ثائرة ، عصف فيها الألم والقنوط بكل حقائق الحياة ، وتزعزعت معها كل قواعد الإيمان والحق والجمال ، فشعر كأنما انبت ما بينه وبين الكون فأصبح غريبا ، وأصبحت الحياة تلوح لعينيه فى صورة عبثية مقززة ! فكتب تحت وطأة هذا الإحساس قصيدته المتمردة الغاضبة : (إلى الله) . . وفيها يعتب على إلهه أن خلقه ، وأن وهب له كل الإحساس بالجمال حين خلقه ! ثم يعتب عليه أن خلفه وحيدا بين تناقض الأشباه والأضداد ، وأن أشعل فى قلبه جمرة الحس حتى بذرات الأشياء ، ثم يحتدم فينحى العتب جانبا ويصرخ فى تمرد موتور .

يا رياح الوجود سيرى بعنف وتـــغنى بصوتك الأواه
وانفحينى من روحك الفخم ما يبلغ صوتى آذان هذا الإله
فهو يصغى إلى القوى ولا يصغى لصوت بين العواصف واه

ثم يبلغ به الاحتدام ذروة التمرد :

خبرونى ، هل للورى من إله راحم – مثل زعمهم – أواه ؟

يخلق الناس باسما ويواسيهم ويرنو لهم بعطف إلهى
ويرى فى وجودهم روحه السامى وآيـات فـنـه المتـنـاهى
إننى لم أجده فى هاته الدنيا فهل خلف أفقها من إله ؟

ولكن الشاعر فى نهاية القصيدة يعود بطيئا – بعد كل هذا الاحتدام – إلى قراره الأول ، ويعتذر إلى الله فى سذاجة طفل لاعب بالتراب ، متناسيا حكمة أجدادنا : « يداك أوكتا وفوك نفخ ! » . . لقد كتب قصيدته ، وملأها بالتمرد ، وطوعا فعل كل ما فعل ، فلماذا هذا الاعتذار الشاحب بعد هذه التمرد المجتاح ؟

* * *

وتأتى – أخيرا – مدرسة الشعر الحر[1] فى أعقاب تحولات سياسية واجتماعية وفكرية هائلة ربما لم يشهد تاريخ المنطقة العربية مثيلا لها من قبل ؛ فالصدام مع واقع الاحتلال بلغ مرحلة التأزم ، والتمرد الاجتماعى بدأ من نقطة الحوار مع مفاهيم التحرر وانتهى إلى نقطة الانقلاب على كل المفاهيم ، والفكر العربى وصل إلى طور الامتلاء واستشرف أطوار الفعل والعطاء ، ثم وقعت – وسط هذا التأجج – كارثة فلسطين الرهيبة ، فأصيب الشاعر العربى بشرخ حضارى عميق ، وعاد إلى كل شىء يبحثه من جديد : الواقع السياسى ، والواقع الاجتماعى ، والواقع الفكرى ؛

(١) يختلف النقاد فى الاسم الذى يطلقونه على هذه المدرسة فبعضهم يطلق عليها : مدرسة الشعر الحر ، وبعضهم يسميها مدرسة الشعر الحديث ، وبعضهم مدرسة الشعر التفعيلى ، وبعضهم مدرسة شعر الوجدان الجماعى ، وبعضهم مدرسة الشعر الواقعى . وقد آثرنا نحن تسميتها (مدرسة الشعر الحر) أولا لبزوغه مع ميلاد الحركة ، وثانيا لشيوعه الأغلب على هذا الاتجاه ، وثالثا لأنه أكثر تحديدا لما يراد بهذه الحركة .

وانقلب على كل مفاهيم هذا الواقع المتشعب ، وناوأ فيه الشكل والمضمون والرؤية الحضارية .

ومن الإنصاف هنا أن نقول : إن انتفاض الشاعر العربى المعاصر على تاريخه السياسى والاجتماعى والفكرى كان انتفاضا مبررا وحاملا لمضمونه الفلسفى ، ولم يكن مجرد انتفاض عشوائى متحمس يريد به أصحابه أن يكسبوا موقعا ما على خريطة الواقع الثقافى الجديد .

وقد أعطى « إليوت » [1] هذه الحركة الشعرية المعاصرة – كما يقرر روادها – أرضية تتحرك عليها وخلفية تصدر عنها من المنظور الفنى على الأقل ؛ فهو يحمل أشعاره كثيرا من الصور البلاغية والأفكار الفلسفية العميقة ، وهو ينتقل بالقارئ انتقالا فجائيا دون تمهيد أو مقدمة مما أشاع الغموض فى معظم أشعاره ، وهو يفتتح قصائده بالافتتاحيات الدرامية التى تثير فى المتلقى عنصرى الدهشة والفضول ، وهو يدخل الحوار فى معظم أشعاره ليوسع محيط الدائرة التى يتحرك فيها أبطاله وشخوصه ، وهو يكتفى بكلمة أو كلمتين ليشير إلى مبدأ معين أو نظرية فلسفية أو حركة فكرية عامة ، وهو يركز على الإشادة بالأمور العادية وفتات الواقع اليومى ، وهو يغترف من التراثات العالمية قديمها وحديثها ، ويدعو إلى إحياء الشاعر لأسلافه فى شعره مع الحذر من طغيانهم على فرديته وذاتيته ؛ وهو يتخم المضمون الشعرى بالمشكلات الفلسفية الكبرى ويترك القصيدة نهبا لصراع الخير والشر ، والمادة والروح ، والزمن واللازمنية ، والمكان واللانهائية ، والذاتية والموضوعية . والحقائق الكلية وانعكاساتها على النفس الواعية ، ثم الوجود الحقيقى للإنسان .

وكما كان لإليوت ثقله الفنى فى دفع حركة الشعر الحر فى اتجاه الواقع الزمنى

(١) انظر : إليوت – للدكتور فائق متى

والواقع الفلسفى والواقع الميتافيزيقى – فقد كان لفكر الواقعية الاشتراكية ، وفكر الوجودية الملحده – تأثيرهما العميق على دفع الحركة فى اتجاه الواقع الاجتماعى من جهة ، والواقع التجريدى من جهة أخرى .

لقد أعطت حركة الشعر الحر نفسها تماما لفهم الإبداع على أنه جزء من الصراع المادى وعامل من العوامل المؤلفة لهذا الصراع ، وليس مجرد تعبير عنه فحسب ؛ وعلى أن هذا الإبداع لا يزدهر إلا فى دفء الحرية الخالقة (١)

كما أعطت نفسها كذلك لفهم الإبداع على أنه مشاركة صميمة فى إسقاط القلاع الفوقية ، وبذل كل الجهد لخلق مملكة الإنسان حتى لو اضطرها ذلك إلى فعل الخطيئة كثمن لما تريد(٢)

ومضت هذه الحركة فى تدميرها للمحتوى التقليدى للقصيدة العربية ، ومضى شعراؤها ثوارا على هذه الطريق (لا يقيدون أنفسهم بمقولات مسبقة سواء كانت واقعية أو كلاسيكية أو حتى طليعية : فالعادة هى ألد أعدائهم ، وهم لا يعتبرون هذه « العقائد » متخلفة فحسب ، بل يعتبرونها كذلك (إرهابية) ! إن الشعر المعاصر قد ولد ولا يزال يولد كل يوم ولادة عسيرة على أرض التناقض والقلق والصراع والعذاب ، وما أصدق قول الشاعر الروسى المعاصر أندرى فوسنيسنكى : « إن الأدب ينشأ فى منطقة الألم ! إنه يوجد حيث يتألم الناس وحيث يتألم الشعب »

وليس غريبا أن نلمس جرأة الشاعر المعاصر التى تصل فى بعض الأحيان إلى حد البعد عن الحياء فى تحطيم التصورات والصيغ التقليدية ، وشق عصا الطاعة

(١) انظر : الأدب والفن فى ضوء الواقعية – لجون فريفيل – ص ١٤٠ – ١٥١ .
(٢) انظر : المتمرد – لألبير كامى – ص ٣٣ .

على القوالب والقواعد والأشكال العتيقة ، سواء أكانت هي النظام والتوازن الكلاسيكي ، التجانس والتناسب الإقليدي ، أم التجربة والعاطفة والإحساس الرومانتيكي ، أم ضيق الأفق والتزمت الواقعي والطبيعي ، أم الفوضى والاضطراب والجنون السيريالي والطليعي !

وهو لا يكتفي بالثورة عليها فحسب ، بل يثور كذلك على نفسه ليتحرر منها ! إنه دائما على الطريق إلى نفسه ولغته وتراثه وواقعه ، يحاورها ويحاسبها ، ولا يتخفى وراء ستار الماضي ، ولا يعتصم بقلعة التزمت ، ولا يتحصن ببرج الأحلام ، وإنما يمضي في هذا الحوار بكل قلبه وعقله ، ولا يجد بأسا من أن يستعير لقصيدته أغنية أطفال ، أو مثلا عاميا ، أو إعلانا من الشارع ، أو خبرا من جريدة ، أو عبارة من مرجع علمي عويص [1].

ولقد عرفت حركة الشعر الحر – كما يقول نزار قباني – كل الفلسفات المعاصرة وكل النزعات وكل المدارس : الالتزام ابن الماركسية المدلل الذي مر برءوسنا في أوائل الخمسينيات مرور الدوار المباغت ؟ والوجودية السارترية التي دقت أبوابنا بعنف ؛ واستطاع سارتر وكامي وكافكا وكولن ولسن أن ينقلوا إلينا عوارض الغثيان والسأم ، والتجربة الإليوتية التي أتخمت شعرنا بالرموز الدينية والأساطير والتاريخ والتداعي [2] !

ويلاحظ الدكتور عز الدين إسماعيل أن حركة الشعر الحر قد استحدثت في مضمون القصيدة نوعا من الغموض المتفاوت والمرتبط أساسا بالمصطلح الجديد ، ونوعا من الرمز والأسطورة للاستعانة بهما على خلق عالم معادل للعالم الداخلي الذي

---

(١) د . عبد الغفار مكاوي – لحن الحرية والصمت – ص ١٧ وما بعدها .

(٢) انظر : الشعر قنديل أخضر – ص ٤٦ وما بعدها .

يريد الشاعر تجسيده والتعبير عنه ، ونوعا من الدراما التى تخرج بالشعر عن مجرد كونه بوحا غنائيا إلى كونه غناء فكريا إذا جاز أن يقال ، ونوعا من الاغتراب الذى يلازم إنسان القرية عندما يجوس خلال المدينة ، وقد عانى شعراء الشعر الحر هذه التجربة وأحسنوا التعبير عنها تماما ، ونوعا من الحزن النابع من إدراك الشاعر للمأساة الذاتية والوجودية ومعاناتها كأنها واقع وجوده الفردى ، ونوعا من الالتزام والثورية يرفض أن يكون الشاعر مجرد شاهد للعصر ، ويدخل به إلى جدل الفعل والخلق والالتحام (١)

ويركز أدونيس على ظواهر تمرد المضمون فى الشعر الحر إيجابا وسلبا : فهو يتمرد على المضمون إيجابا : بقبول مخاطرة التساؤل بدلا من تقليدية القبول ، فإذا كان القبول رضاً وطمأنينة ويقينا فإن التساؤل تمرد ورفض وشك ، وبقبول محنة الغربة والانفصال واعتناق المطلق فى الزمن والموت والفناء والأبدية ؛ فليست القصيدة الجديدة شكلا من أشكال التعبير وحسب ؛ وإنما هى كذلك شكل من أشكال الوجود ! (٢) .

وهو يتمرد على المضمون سلبا : بتخلى القصيدة الجديدة عن الحادثة ، إذ إن هناك تنافرا بين الحادثة والشعر ؛ لأن الحادثة عرض يفقد حلوله فى المستقبل على حين أن الشعر الجديد اتجاه إلى المستقبل ، وبتخلى القصيدة الجديدة عن الوقائع ، أو الواقعية ؛ لأن الشعر الواقعى اقتراب من النثر من حيث هو يستخدم الكلمات وفقا لدلالاتها المألوفة ؛ وبتخلى القصيدة عن الجزئية ؛ لأن الشعر العظيم يتخطى القصيدة — الأغنية ، والقصيدة — الوصف ، والقصيدة —

(١) انظر الشعر العربى المعاصر وقضاياه وظواهره الفنية والمعنوية .

(٢) انظر : مقدمة الشعر العربى — ص ٣٧

الأيديولوجية – إلى القصيدة الرؤيا ، رؤيا العالم بكل أبعاده وأعماقه ، وبتخلى القصيدة الحديدة عن الرؤية الأفقية ، التى تنظر إلى الأشياء باعتبارها أشكالا أو وظائف ، على حين أنها مطالبة بتجاوز السطح إلى الأعماق حيث يمكننا أن نرى العالم فى حيويته وبكارته وطاقاته على التجدد ، وبتخلى القصيدة الجديدة عن التفكك البنائى ، الذى يجيز إعطاء شكل متطور لمضمون بليد فى الوقت الذى يعتنق فيه الشعر الحر قضية تطوير الأشكال والمضامين بدرجة متساوية [1]

وتذهب الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسى إلى أن تمرد الشعر الحر على مستوى المضمون كان تمردا على الثبوتية الجامدة ، والوثوق الذاتى المغرور ، وخاصة بعد نكبة عام ١٩٤٨ ، وتمردا على التراث الذى فى ظله حدث هذا الانحسار الحضارى بعد مقارنته بالتراث العالمى الذى يحرز كل يوم آلاف الانتصارات ، وتمردا على فصل العذاب الذاتى عن العذاب الجماعى الذى تئن الجماهير العربية الكادحة فى قبضته الغليظة الجاسية ، وتمردا على الوضعية السياسية المنكمشة التى لا تلتحم فى سعيها نحو التحرر وجميع الحركات الثورية العالمية ، وتمردا على السكونية والقناعة والرضا والمواطنة فى أرض العبوديات استشرافا إلى وضعية القلق والاغتراب والرفض والتساؤل والمنفى ، وتمردا على مواجهة العالم والكون بمنطق جبرى طموحا إلى منطق العبث والتجاوز وتخطى النمطية العشواء [2]

من هذه المقولات النقدية نستطيع أن نرى أن تمرد الشعر الحر على المضمون التقليدى فى القصيدة العربية كان تمردا سياسيا واجتماعيا وفكريا وميتافيزيقيا ، وأن شعراء هذا الشعر قد فتحوا عقولهم ووجداناتهم لجميع التجارب العالمية فى القديم

(١) انظر : زمن الشعر – ص ١١ – ١٥ .

(٢) انظر : مجلة (عالم الفكر) الكويتية ، المجلد الرابع – العدد الثانى – ١٩٧٣

والحديث وكذلك صدورهم لكل ألوان العسف والنفى والتغريب ، وأن حصاد هذه التجربة كان فى حجم طموح المرحلة .

وإذا كان هذا هو إنجاز الحركة فى مثل هذا الطوْر الزمنى المحدود تمردا على مضمون القصيدة بكل هذا العنف وهذا الامتلاء وهذا الفهم لتعصير القضايا والمفاهيم فإنه يكون بالتأكيد إنجازا رائعا يوائم طبيعة ما أحدثته هذه الحركة الشعرية المتمردة من قلاقل واشتباكات !

الفصل الثالث

التمرد على اللغة

اللغة فى هذه المنطقة العربية لا تعنى مجرد إطار تعبيرى ، ولكنها تعنى مضمون الوجود الروحى والفكرى لشعوب هذه المنطقة ، ولكن لابد من الاعتراف أولا بأن التمرد على اللغة لا يتم إلا باللغة نفسها ، ومن هنا يتساقط وهم أن الشعر حين يتمرد على اللغة إنما يهدم هذه اللغة ، ويبقى أن تمرد الشعر على اللغة يعنى نقل هذه اللغة من طور التحجر والجمود إلى طور المطاوعة والتطور ، ورفض أن تظل طاقاتها الهائلة مأسورة فى قوالب ومعطلة عن ابتداع قوالب جديدة .

ولابد كذلك من الوعى بأن العمل الفنى – والقصيدة الشعرية بالذات – لا تنفصل فيه اللغة عن الشكل ؛ لأن شكل القصيدة لا يتجسد وجوده الحقيقى إلا من خلال اللغة ؛ كما أنه لا تنفصل فيه اللغة عن المضمون ؛ لأن مضمون القصيدة ليس شيئا بدون هذا الوعاء اللغوى الذى يحمل عن الشاعر بوحه الداخلى ، وبغير

هذا الوعاء اللغوى يبق بوحه همهمات مختلطة بكماء ! ! إلا أننا مضطرون بالضرورة إلى هذا الفصل المرحلى بين الشكل والمضمون واللغة ؛ حتى يتسنى لنا تأمل كل عنصر منها على حدة مع إيماننا البدئى بأنها عناصر عضوية فى بناء واحد متكامل الأنساق .

وقد آثرنا مصطلح (اللغة) على غيره من المصطلحات : كالصياغة ، والأسلوب ، والمعجم ، لشمول مصطلح (اللغة) ودلالته على الصياغة والأسلوب والمعجم والصورة والتجربة الشعرية وغير ذلك من المفردات التى تنطوى فى إهاب الظاهرة الكلية التى هى القصيدة ؛ فإن أى عنصر من هذه العناصر يجوز أن يتخلف ويبق العمل الفنى قائما على نحو من الأنحاء ، ولكن تخلف اللغة كوجود مستقل عن أى عمل فنى يتركه فرضية مستحيلة أو وجودا غير قابل للوجود !

ونعنى هنا باللغة كل ما يدخل فى تركيب العمل الشعرى من : ألفاظ ، وجمل وعلاقات ، وأسلوب ، وصور ، وتجارب ، ومحسنات . وفى إطار هذه النظرة إلى اللغة سنتحرك واضعين تحت أعيننا حقيقة أننا لا نتأمل هذه القضايا تأملا تاريخيا ؛ وإنما نتأملها تأملا انقلابيا إذا جاز أن يقال بمعنى أننا سنركز على :

١ - تمرد الشعر المعاصر فى وجه سكونية الألفاظ التاريخية وجريانها فى مستويين متوازيين : مستوى النثر ومستوى الشعر . .

٢ - كما سنركز على تمرد الشعر المعاصر فى وجه وضعية الصياغة التاريخية وجريانها على منطق نحوى وبلاغى معين من جهة ، ثم على نوع من العلاقات الجامدة المكرورة من جهة أخرى . وطبيعى أننا سنلم من خلال حديثنا على هذين المحورين بتمرد الشعر المعاصر فى وجه نمطية الأسلوب وجريانها على مبدأ التقليد

والاحتذاء . وبتمرده فى وجه جمود الصورة وجريانها فى مساحة شكلية أو ذهنية محدودة الآفاق ، وبتمرده فى وجه نضوب التجربة وجريانها على قاعدة الكذب والافتعال ، وبتمرده فى وجه عدوانية المحسات وجريانها على أساس من التلفيق والتمويه والافتعال . وبذلك نكون قد أعطينا الظاهرة - فيما نعتقد - ما يجب من تأمل واستقصاء .

ولكن قبل أن نستطرد فى تأمل واستقصاء هذه الظاهرات اللغوية الصميمة ، نتساءل : لماذا ننظر إلى التمرد على اللغة باعتباره تمردا مشروعا ؟

ولكى نجيب عن هذا التساؤل فإننا نقرر مبدئيا أن اللغة ليست طقوسا مقدسة يحرم هزها وتغيير ملامحها ، وإنما هى ظاهرة كسائر الظواهر التى تخضع بالضرورة لسنن التطور وعوامل التغيير ، ومادام ذلك كذلك فإن اللغة مطالبة بأن تواكب ركض الحياة ، وأن تعبر عن مضامينها الجديدة بصيغ جديدة موائمة ؛ حتى لا تتخلف فى رحلة التعبير عن إنسانها المعاصر الذى يقف على مفترق الطرق بأشواقه الجديدة وتجاريبه الجديدة وهمومه الجديدة باحثا عن اللغة الجديدة التى تستطيع أن تعكس أشواقه وتجاريبه وهمومه بعيدا عن القوالب الميتة ، والصيغ المحنطة . والألفاظ التى فقدت قيمتها الإيحائية من طول ما تداولتها العصور .

إن الذين عارضوا ويعارضون هذا التطور باسم الفن مرة وباسم التراث مرة أخرى لم يعوا جيدا أن الشعر فى الجاهلية والإسلام وفى العصر الأموى والعصر العباسي - قد عبر عن روح المرحلة التى عايشها بأسلوب المرحلة ومضامينها الوجودية . وأن لغته كانت لغة الناس فى عصره وليست لغة القواميس فى جانبها الميت ، وأن لغة الفن إذا تخلت عن احتواء نبض الحياة تحت زعم أنها يجب أن تظل لغة منتخبة منتقاة حتى ولو باعد هذا الانتقاء بينها وبين اقتدارها الحقيقى على

التعبير عن خوالج المرحلة – فإنها تكون بذلك قد أهدرت فهمها لطبيعة الفن الذى يجب أن يظل باحثا عن لغة عصره ، ولطبيعة اللغة التى يجب أن تظل دون سواها قادرة على تفجير طاقات الحركة والحياة فى شرايين العمل الفنى مع احتفاظها فى الوقت نفسه بتعبيريتها المكثفة المصفاة .

(ومن هنا يبدو أننا نتطلب فى لغة الشعر ألا تكون هى لغة الناس ، وأن تكون لغتهم فى آن واحد ! وفى هذا تناقض ظاهر ، ولكن الحقيقة أن لغة الشعر دائماً كذلك ، وهذا التناقض الظاهر هو سر الشعر فيها . على أننا نستطيع بشىء من إنعام النظر أن نحل هذا التناقض الظاهر حين نعود إلى فكرة نبض العصر ؛ فلغة الشعر تخاطب الناس بما تحمل من هذا النبض ، وإن اختلفت من حيث هى لغة ولغة الناس اليومية) [1]

وإذا كنا لا نسمى حركات « التجديد » فى لغة الشعر المعاصر انعطافا ظاهريا بحجم التمرد فلأن هذا التجديد يأخذ دائما دور الاحتذاء لأنماط لغوية وتعبيرية سابقة يحاول أن يبعثها من مراقدها ، وأن يعيد إليها صبوة الحضور التاريخى بعد آماد من الهزيمة الفكرية تكون قد جففت فى الشعر كل عوامل الخصب والحياة . على حين أننا نعنى بالتمرد أن ينقلب على كل القوالب والمعارضات ، وأن يستحيل فى حقل اللغة إلى نار مشتعلة تتأجج بلهب الرفض وحرارة الابتكار .

وقد أحدثت رجة التمرد فى لغة شعرنا العربى المعاصر مدرستان :

الأولى : مدرسة الرومانسية بأجنحتها المتعددة : الديوان والمهجر وأبولو .

والثانية : مدرسة الواقعية التى يمثل الشعر الحر قمة مدها الفنى ، وتأتى الرمزية بينهما تضىء فترة وتغيب !

---

(١) دكتور عزالدين إسماعيل – الشعر المعاصر – ص ١٧٩ .

وإذا كانت مدارس الديوان والمهجر وأبولو قد استقلت فى تمردها على الشكل ، وفى تمردها على المضمون ، وشكلت كل واحدة منها هناك ملامح تمرد خاص ؛ مما أباح لهذه الدراسة أن تنظر إلى إنجاز كل منها على حدة - فإنها هنا فى تمردها على اللغة تبدو مشتركة فى قسماتها العامة بحيث يكون إخضاعها معا لتيار واحد مشترك مبررا وناهضا على أساس علمى .

وفى يقيننا أن تيار (الرومانسية) هو أظهر التيارات الأدبية دلالة على الملامح المشتركة لهذه المدارس ، أما مدرسة الشعر الحر فقد قربت لغتها الفنية بينها وبين الواقع بمستوييه : المادى والثقافى . إن الواقع فى لغة الشعر الحر ليس واقعا واحدا على الإطلاق ، ولكنه واقع مادى يتناول مفردات الظاهرة الوجودية للمنطقة العربية بكل همومها السياسية ، والاجتماعية ، والفكرية ، والحضارية ؛ وواقع ثقافى يتمثل المناخ الفكرى العالمى ، ويعيش همومه ، وغثيانه ، ورفضه ، وامتلاءه ؛ ومن هنا كان ضروريا أن نفهم واقعية الشعر الحر على ضوء هذه الثنائية المسلمة .

وحين هبت رياح التمرد على (المعجم الشعرى) فى مطالع هذا القرن لم يعد مثل الشاعر الأعلى أن يبعث القاموس الشعرى الذى حاصره الشعراء والنقاد العرب فيما أطلقوا عليه : (الألفاظ الشعرية) ؛ وإنما أصبح المثل الأعلى للشاعر أن يتمرد على هذا المعجم ، وأن يحاول استخدام ألفاظ جديدة ليثرى بها لغة الشعر المعاصر ، ويعبر من خلالها عن الواقع الذى يحياه . وهذه طائفة من آراء الداعين إلى الانقلاب على قداسة المعجم الشعرى ، المنادين بلغةٍ ألفاظُها مقدودة من لحم الواقع الحى !

يقول محمود تيمور : (وإلقاء نظرة عامة على أدبنا العربى فيما سما إليه من تجديد

ومسايرة للأفكار العصرية فى فهم رسالة الأدب ومهمة الأديب – ترينا أن أدبنا هذا قد مر أول مرة بعهد حاول فيه تعصير اللغة بالاقتصار على الألفاظ الحية المأنوسة فى الاستعمال، وحاول فيه تعصير الأسلوب بإخلائه من التزاويق والمحسنات، وحاول فيه تعصير موضوعه بجعله أدبا محليا يستجيب للبيئة من حوله ويعبر عنها) [1]

ويقول خليل مطران شارحا طريقته فى رفض المعجم القديم، واجترائه على الألفاظ :

(... واستقلت لى طريقة فى كيف يجب أن يكون الشعر، فشرعت أنظمه لترضية نفسى حيث أتخلى، أو لتربية قومى عند وقوع الحوادث الجلى، متابعا عرب الجاهلية فى مجاراة الضمير على هواه، ومراعاة الوجدان على مشتهاه، موافقا زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب، لا أخشى استخدامها أحيانا على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب) [2].

وعلى الرغم من أن مطران قد تمرد على عبودية اللفظ فإنه هنا يتمرد بسلاح قديم هو سلاح السجع الذى نلاحظه فى هذه السطور، مما يقطع بأن عالم الشاعر الداخلى كان أثرى وأكثر اقتحاما من لغته التعبيرية الراسفة فى قيود المواضعات ولو فى جانب واحد من جوانبها وهو السجع.

ويرجع العقاد ظاهرة التطور اللغوى ليس إلى إبداع الشاعر، وإنما إلى حذق العالم، ولكنه يلاحظ أن التطور اللغوى حين استوفى أمده فى جيل شوقى بطل التدرج فيه بعد ذلك، وانحصر الاختلاف فى المزايا والخصائص بين الفخامة أو

---

(١) محمود تيمور – اتجاهات الأدب العربى فى السنين المائة الأخيرة – ص ٤٤.

(٢) مقدمة ديوان الخليل.

الدقة أو الموسيقية أو الإغراب أو السلاسة [1]

ولا شك أن نظرة العقاد هنا إلى اللغة نظرة سكونية تقف بمراحل التطور اللغوى عند مرحلة يستوفى فيها أمده ، وكأن التاريخ قد توقف عند هذا الحد ! إن واقع إبداع العقاد نفسه ينفى هذا الحكم المطلق نفيا قاطعا ؛ فقد طورت مدرسة الديوان التى يمثل العقاد فيها واحدا من زعمائها الثلاثة لغة القصيدة الشعرية مرحلة بعد مرحلة شوقى ، وإذا كان العقاد قد حاول أن يحصر الاختلاف بعد تمام التطور فيما سماه – المزايا والخصائص بين الفخامة أو الدقة أو الموسيقية أو الإغراب أو السلاسة – فلسنا نعرف إذن : ما الفرق بين هذه الخصائص وبين التطور اللغوى ؟ إن التطور اللغوى هو هذه الأسس ، أو قل إنه وضع هذه الأسس فى مناطها الصوابى من الظاهرة اللغوية .

ولقد كان العقاد أهدى سبيلا حين نزع عن العبارة الشعرية رداءها التاريخى وأدان فيها جمودها عند حدود مدلولها المنطقى المحدود ، وأناط بالشاعر الحقيقى عبء تفجير الكلمة بطاقات المفاجأة والإدهاش وروعة المعنى دون إعنات لفظى عقيم ! فقال فى «خلاصة اليومية» محددا علاقة الكاتب المتمرس والكاتب المبتدئ بعالم الألفاظ :

(والعواطف قد تتأثر بالعبارة المفاجئة أشد من تأثرها بالعبارة ذات القضايا المرتبة والمعانى الجلية فقل أن ترى كبار الشعراء يتكلفون الشرح والتفصيل فيما يريدون الإعراب عنه ؛ كما يتكلفها المبتدئون منهم ؛ لأنهم أخبر بوسائل التأثير وأعرف بالألفاظ التى لها وقع أبلغ من غيرها على الإحساس) [2]

---

(١) انظر : شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى – ص ١٤٩ – ١٥٠ .

(٢) خلاصة اليومية – ص ٢١ .

وقال فى الكتاب نفسه أيضا مفرقا بين حساسية الشاعر وحيادية الخطيب . وبين سخونة التجربة وبرودة المنطق :

(وليس الشاعر بصاحب الكلام الفخم واللفظ الجزل ، فذلك ليس بشاعر أكثر مما هو كاتب أو خطيب ! وليس الشاعر من يأتى برائع المجازات وبعيد التصورات ، فذلك رجل ثاقب الذهن حديد الخيال ، إنما الشاعر من يشعر ويشعر ، ولقد ضاع الشعر العربى بين قوم صرفوه فى تجنيس الألفاظ وقوم صرفوه فى تزويق المعانى ! [1])

كما تحدث الرصافى عن لغة الشعر حديثا غنيا بالايحاء وحسٍّ التمرد على القديم ، ورفض أن نعبر نحن عن همومنا العصرية بلغة امرئ القيس ، فقال :

(. . . فليس من الموافق لروح هذا العصر ألا ننشد الشعر إلا بلغة امرئ القيس ، فلابد للشعر وللغة قبل الشعر من تقمصهما روح العصر وسيرهما مع الزمان وتطورهما بأطواره ، وليست اللغة سوى وسيلة نعرب بها عن أفكارنا ، ونترجم عن حياتنا ، ونعبر عن حاجاتنا ، ولا ريب أن أفكارنا وحياتنا وحاجاتنا اليوم غيرها فى زمن امرئ القيس ؛ فكيف نتقيد بلغته وهى قاصرة عن هذه الأفكار وهذه الحياة وهذه الحاجات ؟ فيجب أن ننتفض من هذا الجمود ، وأن ننهض باللغة إلى مستوى تكون فيه صالحة لأفكارنا ، منطبقة على حياتنا العصرية ، كافية لحاجاتنا اليومية ؛ وإلا فعلى اللغة السلام !) [2]

أما مذهب الزهاوى فى اللغة الجديدة فهو جواز استعمال كل كلمة شاعت فى الصحف الراقية بقلم كبار الكتاب كالتعاسة والزهور والأوراد والبؤساء والعائلة

(١) خلاصة اليومية – ص ١٦٧ .

(٢) معروف الرصافى – دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية – ص ٤٨ .

والتحرير والصحافة والقيثارة والأثير والتطور [1]

ويرى الدكتور محمد مندور أن الألفاظ المألوفة وليس المبتذلة (هى التى تستطيع فى الغالب أن تستنفد إحساس الشاعر ؛ كما أنها أقدر من الألفاظ المهجورة على دفع مشاعرنا إلى التداعى ، وقد كثر استعمالنا لها فى الحياة ، فتحددت معانيها ، وتلونت بلون نفوسنا فحملت شحنة عاطفية ، وهذه صفات من أولى خصائص الأسلوب الشعرى ، بل أسلوب الأدب بوجه عام)[2]

أما ميخائيل نعيمة فيرفض أن تستعبد اللغة الإنسان (لأن الإنسان أوجد اللغة ولم توجد اللغة الإنسان ! فهى تحيا به لا هو بها ، وتتغير بتغير أطواره ولا يتغير بتغير أطوارها) [3]

ويحاول الدكتور عبد القادر القط أن يبرر ثورة شعرائنا على المعجم بإيجاد نظير فى الأدب العالمى سبقت ثورته ثورة شعرائنا بنحو قرن أو يزيد ، فيشير إلى الخصومة النقدية التى اشتعلت فى مطلع القرن التاسع عشر فى انجلترا بين أنصار المعجم الشعرى ودعاة التحرر ، ويورد ما قاله الشاعر الإنجليزى المعروف ورد زورث فى مقدمة ديوانه من حرصه البالغ على اختيار موضوعاته ومواقفه من الحياة العادية ، وتعبيره عن هذه الحياة باللغة التى يستخدمها الناس فى حياتهم العادية ، ملونا هذه اللغة بشىء من الخيال تبدو معها الأشياء المألوفة فى صورة غير مألوفه متجنبا (استخدام كثير من التعبيرات التى هى جميلة فى ذاتها ، ولكن الشعراء أسرفوا فى تكرارها إسرافا قبيحا حتى أصبحت تثير النفور وتستعصى على كل محاولة لبعثها إلى

---

(١) النقد الأدبى الحديث فى العراق ـ للدكتور أحمد مطلوب ـ ص ١٢٧ .

(٢) فى الميزان الجديد ـ ص ٥٥ .

(٣) الغربال ـ ص ٧٦ ـ ٧٧ .

الحياة من جديد) رافضاً تحجر بعض الناقدين وتعصبهم ضد الكلمات المأنوسة التى يزعمون أنها كلمات نثرية مع أنه ليست هناك فروق جوهرية بين لغة النثر ولغة الشعر [1]

وقد تحدث الدكتور إبراهيم السامرائى عن اللغة فى شعر المجددين ، وذكر أنها فى شعر هؤلاء اكتسبت طرافة وجدة ، وربما كان لهم دلالات جديدة لألفاظ قديمة ؛ لأنهم توسعوا فى المجازات والاستعارات ، وفى أشعارهم استعمالات جديدة كما فى قول نازك :

نحن هـــنـــا اللاأمس واللاغـــد

فنى هذا البيت استعمال جديد التزمته الشاعرة ، وهو من باب التركيب فى اللغة يقوم على الإفادة من أداة النفى فى الاسم المضموم إليها كما جاء فى ألفاظ العلوم الحديثة مثل « اللاسلكى » و « اللاوعى » و « اللاشعور » وغير ذلك [2]

ويرى الدكتور مصطفى ناصف أنه (لابد لكل تجديد من الخروج على لغة الشعر المتوارثة) وأن الاستعمال الفصيح وحده (يضطر الشاعر إلى أن يأخذ لخبرته من واد آخر غير واديها فلا يصدقها التعبير تماما) ؛ لذلك فالشاعر (يتنزل إلى بعض الألفاظ العامية وألفاظ عامة المثقفين فى هذه الأيام) وهكذا أخذ الوقار اللغوى الذى يعكس الوقار الاجتماعى – كما يقول الدكتور ناصف – فى الانحدار ! [3]

(١) انظر : قضايا ومواقف – ص ٢٥ – ٢٦ .

(٢) انظر : النقد الأدبى الحديث فى العراق – للدكتور أحمد مطلوب – ص ١٢٧ – ١٢٨ .

(٣) انظر : الصورة الأدبية – ص ٢٤٥ .

وينحو الدكتور شوقي ضيف منحى التحليل التاريخي في رصده لظاهرة التمرد على المعجم الشعري ، ويذهب إلى أن نقاد العرب أجمعوا على أن يظل للشعر معجمه الخاص لا يتجاوزه ، ووقفوا بالمرصاد لكل شاعر يحاول الخروج على ما سنه أسلافه ، ولكنه يرى أن الشعراء لم يخضعوا جميعا لهذا الحصار النقدي ؛ فقد انحاز أبو العتاهية عن اللغة الكلاسيكية إلى لغة جديدة مشتقة من الحياة اليومية ، وملأ أبو تمام وابن الرومي شعرهما بالتعليلات والاحتجاجات والأساليب المنطقية ؛ مما جعل النقاد يرمون شعرهما بالميل إلى طبيعة النثر ، وكأنهم أحسوا أن اللغة العاطفية عندهما ليست غنية ؛ وإنما الغنى هو لغة العقل وعلاقاته المنطقية .

ويرى الدكتور شوقي أن تمرد أبي العتاهية من جهة وأبي تمام وابن الرومي من جهة أخرى قد أثار حركة نقدية واسعة عند العرب ، فوقف رجال الفكر والفلسفة في صف هذا التجديد ، وخاصة عند الشاعرين الأخيرين ، ووقف رجال اللغة والنحو ورواية الشعر في الصف المقابل داعين إلى المحافظة على ما سموه بعمود الشعر ، وإلى التزام صورته القديمة في ألفاظه الموروثة ومعانيه المحفوظة .

ويلاحظ أن نزعة المحافظة انتصرت ، وأضافت قيودا جديدة إلى القيود القديمة ، فصرف ذلك الشعراء عن اقتحام أنواع شعرية جديدة إلى محاولات فاشلة في إثقال كاهل القصيدة بالغريب والحوشي والمهجور .

ويقف الناقد مع تمرد المعاصرة على هذا القاموس المتحجر ، ويعطي الشاعر كل حقه في أن يستخدم أساليب الحياة الحاضرة أو اليومية وألفاظها في شعره ، ويرى أن هذا المنزع يرفع من قيمة المعجم وقيمة الشعر على السواء . (١)

(١) انظر : دراسات في الشعر العربي المعاصر — للدكتور شوقي ضيف — ص ١٩٥ وما بعدها .

ويحذر الدكتور شوقى ضيف من اهتمام الشاعر الزائد بمعجمه قبولا أو رفضا ؛ لأن ذلك سيصرفه عن تعبئة اللغة بمضامين الحياة والنفس ، ويحيلها إلى مجرد هياكل لفظية جوفاء مع أن مهارة الشاعر الحقيقية تكمن فى ملاءمته بين ألفاظه ومعانيه بحيث لا يطغى فيهما جانب على جانب (١)

اللغة الشعرية الجديدة هى إذن اللغة المغسولة من صدأ الاستخدام الشائع الجارى كما يقول أدونيس(٢)

أو هى الكلمات النادرة والعبارات الدقيقة التى غسلتها مياه التكرار ، فأكسبتها نعومة خاصة كما يقول الدكتور مايكل بيرد فى حديثه عن لغة أدونيس الشعرية (٣)

هذا مجمل ما قيل من آراء فى ضرورة الانقلاب على ما سمى فى النقد العربى القديم بلغة الشعر ، أو القاموس الشعرى . وإذا كان هذا الانقلاب مشروعا من وجهتين على الأقل : وجهة تحرير اللغة الشعرية من عبودية القوالب والأنماط ، ووجهة التعبير عن المضامين الجديدة بلغة قادرة على التحليل والتركيب – فإن شرطا تاريخيا يجب أن يتوافر فى الشاعر الذى يتصدى لمحاولة الانقلاب على اللغة القديمة ، هو احتواء هذا الشاعر أولا لهذه اللغة القديمة ، وامتلاك طيعها وآبدها وشاردها ، واستيعاب نثيرها ونظيمها فى الفكر والفن ، والوقوف المفكر المستأنى على دقائق العلاقات والروابط التى تربط بين مفردات اللغة فى العمل الشعرى على تعاقب أجيال هذا العمل الشعرى المتواتر الفيضان ؛ هذا الشاعر وحده هو الذى يمكن أن يكون مؤهلا لإحداث هذا الانقلاب ، وتجسيد هذا التحول ، أما

---

(١) انظر : فى النقد الأدبى – للدكتور شوقى ضيف – ص ١١٢ – ١١٣ .

(٢) انظر : زمن الشعر – لأدونيس – ص ٢٤٤ .

(٣) انظر : مجلة الشعر – العدد الرابع – أكتوبر ١٩٧٦ .

أن تستحيل القضية إلى هروب بالعجز عن مواجهة الظاهرة اللغوية ، والانكفاء فوق فصيلة من الألفاظ الجارية على أقلام الخاطفين فى الفن والفكر – فإن العمل الشعرى سيصير إلى شكل هش لفقدانه خاصية التكثيف من جهة ، وخاصية التعامل مع الكلمات كلها من جهة أخرى ؛ ولا يبقى له غير أن يقول أخبارا نثرية مسطحة بلغة ركيكة ضامرة !

إن التحول الذى قادته الرومانسية كان ينزع فى تمرده الى استبدال معجم بمعجم ، ولكنه كان يشترط فى المعجم البديل – إلى جوار كونه مأنوسا – أن يكون منتخبا ومنتقى ومتعاليا على الدلالة الوضعية المحدودة للألفاظ ؛ وكذلك كان تيار الواقعية فى تمرده على المعجم الشعرى : كان ينزع هو الآخر إلى استبدال معجم بمعجم ، ولكنه كان يشترط فى المعجم البديل – إلى جوار كونه مأنوسا أيضا – أن يكون مقدودا من لغة الواقع المادى ، أو مقدودا من لغة الواقع الثقافى ، ولكن الرومانسية والواقعية جميعا لم تنحدر أى منهما فى مراغة الإسفاف والابتذال ، وعلى النقيض رأينا لغة هذين الاتجاهين تميل إلى الجزالة وهز بعض الألفاظ من قبورها القديمة ! غير أن ذلك كله كان يتم فى ضوء من الوعى بحركة اللغة وحركة التاريخ جنبا إلى جنب مع التفطن الهائل لوضع الكلمة القاموسية بين شقيقات تحمل عنها وتضيف إليها وتضوئ مناخها العام فى موقعها من الجملة والسياق . . وبهذا كانت تضفى هذه الكلمة لونا من الثراء والأصالة والتاريخية المحببة على عالم القصيدة .

وربما كان وقوفنا مع نماذج تمثل الرومانسية بأجنحتها المتعددة ، ومع نماذج أخرى تمثل الواقعية بمستويها المادى والثقافى – أعون على استشفاف ملامح الظاهرة ، وأقدر على تحديد خصائص الفعل والانفعال المتبادلين فى كل الأعمال الناجحة التى قدمها هذان التياران ، ولكننا – قبل أن نتأمل النماذج – نضع تصور

هذه الدراسة لطبيعة الانقلاب القاموسى الذى نهض به كل من هذين التيارين الكبيرين ، فى خطوط عريضة تلم بأبرز ملامح هذه الطبيعة وأبرز ملامح هذا الانقلاب .

وفى تصور هذه الدراسة أن تمرد التيار الرومانسى على المعجم الشعرى تناول كمّ هذا المعجم وكيفه معا : بمعنى أن شعراء الديوان والمهجر وأبولو حاولوا توظيف ألفاظ جديدة من لغة الناس – كان ينظر إليها المعجم الشعرى القديم على أنها ألفاظ غير شعرية – توظيفا شعريا ، فأثْرَوْا بذلك لغة الشعر المعاصر ، كما أنهم حاولوا اشتقاقات جديدة قد تضيق بها القواعد الصرفية والنحوية ، فوسعوا بذلك من دوائر تحرك اللفظ وقدراته على استيعاب المحسوسات والملموسات . . وهم كذلك حاولوا إدخال ألفاظ جديدة مما ابتدعته الحضارة المعاصرة على اللغة ، فأتاحوا بذلك للعمل الشعرى أن يواكب التطور ، وأن يعبر عن روح المرحلة بلغة المرحلة وقاموسها المحدث . بمعنى أن شعراء الديوان والمهجر وأبولو حاولوا نقل مدلولات الألفاظ من واقعها القاموسى والمألوف إلى واقع وجدانى ومبتكر ، كما حاولوا نقل هذه الدلالات من وضعيتها المنطقية الصارمة إلى وضعية غائمة وموحية . . وكذلك حاولوا خلط هذه الدلالات وقسرها على التعبير عن مقابلاتها : كأن يعبر عن الملموس بالمسموع ، وعن اللون بالرائحة ، وعن الحلو بالتفكير .

كما أنه فى تصور هذه الدراسة أن تمرد التيار الواقعى على المعجم الشعرى تناول كمّ هذا المعجم وكيفه معا كذلك : بمعنى أن شعراء الواقعية استفادوا من إنجاز الرومانسية ثم اقتربوا من المعجم الدارج للتعبير عن أحزان الإنسان وأفراحه اليومية . . كما اقتربوا أكثر من المعجم الخاص فى تعبيرهم عن هموم العصر وقضاياه

الفكرية والميتافيزيقية . وكذلك نقلوا الألفاظ ليس فقط عن دلالاتها المنطقية أو القاموسية أو التعبيرية ، وإنما عن الدلالة فى شكلها العام بحيث بدت اللغة فى كثير من أشعارهم غير دالة على شىء ولا منبئة عن شىء ! وإنما هى معادلات ذهنية كثيفة فقدت أى معنى على الإطلاق ، وخرجت كأنما لتواجه العبث الكونى بعبث لغوى قادر هو الآخر على الخلط والتشويه !

ولكن هذا لا يمنع أن كلا من هذين التيارين كان يتبادل مواقعه والتيار الآخر ، وأن أجرأ مغامرات التطوح الفكرى بالشعر نهضت به الرومانسية فى مجال الواقع المادى والثقافى جنبا إلى جنب مع الواقعية ، كما أن أجرأ مغامرات التطوح الوجدانى بالشعر نهضت به الواقعية فى مجال الواقع العاطفى والنفسى جنبا إلى جنب مع الرومانسية .

هذا هو تصور هذه الدراسة العام لطبيعة الانقلاب الذى نهض به التيار الرومانسى والتيار الواقعى ضد المعجم الشعرى التقليدى الذى ربما يستبين أكثر من تأمل بعض النماذج المختلفة ودلالتها على أن عصرا قاموسيا جديدا بدأ يفرض حلوله التاريخى على حركة الإبداع الشعرى فى العصر الحديث .

يقول العقاد فى قصيدته : (الصدار الذى نسجته) :

هنا هنا عند قلبى يكاد يلمس حبّى
وفيه منك دليل على المودة حسبى
ألم أنل منك فكرة فى كل شكة إبرة
وكل عقدة خيط وكل جرة بكرة ؟
هنا مكان صدارك هنا هنا فى جوارك
والقلب فيه أسير مطوق بحصارك !

هذا الصدار رقيب على الفؤاد قريب
سليه هل مر منه إلىّ طيف غريب ؟
نسجته بيديك على هدى ناظريك
إذا احتوانى فإنى مازلت فى اصبعيك !

ويقول عبد الرحمن شكرى فى مقطوعة بعنوان : (صلاح الحياة أم غايتها ؟)

قل كيف نحيا ؟ ولا تقل لى ما حكمه العيش والبقاء
فطالب للعلاء يحدو وآخر كله عناء
كم سأل السائلون قدما ما الكون ؟ ما العيش ؟ ما الفناء ؟
مسألة مالها جواب وليس يُلفى لها غناء

كما يقول المازنى فى مقطوعة بعنوان : (قبر الشعر)

ليت ديوان (يكون) له من بديع الزهر تيجان
فكأن الشعر فى جدث فوقه ورد وريحان
يالها من خضرة عجب كل ما تطويه أشجان
كل بيت فى قرارته جثة خرساء مرنان
خارجا من قلب قائله مثل ما يزفر بركان

هذه ثلاثة نماذج لشعراء مدرسة الديوان : العقاد وشكرى والمازنى ، وقد اخترت أن تكون هذه النماذج ممثلة لجوانب التجربة الشعرية ما أمكن :

فالنموذج الأول تجربة عاطفية ، والنموذج الثانى تجربة فكرية ، والنموذج الثالث تجربة وصفية ، ولكنها جميعا تشترك فى خاصية واحدة هى جريانها فى معجم شعرى مأنوس ، تترقرق ألفاظه دماثة وحيوية وإشعاعا ، بل إن العقاد يجنح فى

قصيدته إلى التقاط اللفظة الجارية على ألسنة الناس[1] حتى ليصعب التفريق بينها وبين اللفظة العامية :

ألم أنل منك فكرة في كل شكة إبرة
وكل عقدة خيط وكل جرة بكرة ؟

ومع ذلك يظل المستوى الشعرى شكلا ومضمونا على جانب كبير من الأصالة والروعة الواضحة ، فماذا يمكن أن يقول العاشق لحبيبته التى نسجت له صدارا أكثر أو أقل من هذه الكلمات ؟ ربما كان المصطلح الشعرى بتعاظله التاريخى يرفض هذا القاموس الجديد ؛ لأنه يرى أن اللغة التى لا تدوخ متلقيها بين النص والمعاجم ليست بلغة شعرية عظيمة ، ولكن هذه التيارات الجديدة المتمردة جاءت لتصفع غرور هذا القاموس ، وتبدع شعرا يتألق جمالا وجيشانا من خلال لغة منسابة دمثة ، وقادرة فى الوقت نفسه على لمس مواطن الحس الحقيقى فى القارئ والمتلقى ، متكئة فى حركتها على انتخاب نوعية من الألفاظ هى أقدر من غيرها على حمل مضمون التجربة الجديدة بكل امتلائها الفكرى ، واتساع رقعة الرؤية التى تتحرك عليها :

فالعقاد فى النموذج الأول لم يترك خالجة يمكن أن تمر بذهن العاشق المنتشى بصداره المغزول بأنامل من يحب دون أن يستبطنها ويعكسها ، ولكنه لم يلجأ إلى القاموس المتروك ليصدم حس القارئ بلفظة تخرجه من عالم القصيدة الحالم ؛ فالصدار المهدى قريب من القلب يوشك أن يلمس الحب ! وهو حصار رقيق يطوق القلب العاشق الذى يتنزى فى إساريه : العاطفى والمادى ، وهو رقيب فاتن

(١) لعلنا لسنا فى حاجة إلى التأكيد على أن العقاد كان أجرأ شعراء المرحلة فى التعبير عن هموم الحياة اليومية باللغة الحية النابعة من الحس العادى فى ديوانه (عابر سبيل) .

يحيط قلب العاشق فلا يترك لطيف غريب أن يتسلل إليه ! وهو فى النهاية هدية أنامل المعشوقة ، فإذا احتوى العاشق بين أحضانه فإنما ليضعه أبدا فى سحر هذه الأنامل الرقيقة الصناع !

والنموذج الثانى تجربة فكرية يضع فيها شكرى فلسفته بين صلاح الحياة وغايتها داعيا إلى طرح التساؤلات عن الحكمة والجدوى جانبا ، والدخول فى التحام مباشر مع إيقاع الحياة المادى : (قل كيف نحيا ؟ ولا تقل لى ما حكمة العيش والبقاء ؟) . . . وعلى الرغم من أن (شكرى) واحد من شعراء مدرسة الديوان الذين يلوح شعرهم أحيانا مثقلا بالمعاظلات اللغوية نتيجة تبحره فى الإلمام بقاموس اللغة وأوابدها[1] فإنه هنا – كما فى سائر شعره بعامة – يؤثر الاتكاء على اللفظة الرقيقة الموحية ، ويعبىء اللفظة ليس بالدلالات المنطقية التى تبدو معها غير شعرية ؛ وإنما بروح التفلسف الغائم المتشائم الذى يشيع فى المتلقى جوا من الكآبة المفكرة التى يواجه بها مغاليق الكون والحياة .

أما النموذج الثالث فهو تجربة وصفية مملوءة بروح الحزن القانط الساخر الذى عرف به المازنى ، ولكنها تشارك النموذجين السابقين فى دماثة اللفظ وطواعيته وإشراقه ، وبعده عن القاموسية الجامدة التى تتعامل هى والمعجم قبل أن تتعامل هى وحيوية اللفظ فى حضوره وجدليته الوجودية ، مع أن المازنى يشارك (شكرى) فى خاصية التعاظل باللغة أحيانا[2] ، وإن كان ذلك يبدو لى شعره

---

(1) مثال ذلك استعماله لكلمات مثل : أذال بمعنى أرخص وحقر ص ١٢١ . والسمندل بمعنى دابة ص ٤٥٧ . والشخشان بمعنى القوى الشجاع ص ١١٩ . والدقعاء بمعنى الأرض ص ٥١٣ .

(2) مثال ذلك استعماله لكلمات مثل : رفل بمعنى طويل ص ٣٧ . والضراس بمعنى =

بكثافات متفاوتة .

هذه النماذج على الرغم من اختلاف مضامينها بين غزل وفكر ووصف – تشترك في التعبير عن هذه المضامين بلغة بعيدة عن المعاظلة ، والمغالاة ، والخطابية .

واستعمال الكلمات في شبه وضعية ثابتة بحيث يمكن القارئ المدرب أن يتوقع كثيرا من الألفاظ في مواطن معينة من التعبير ، كما أن هذه النماذج تشترك في تمام الصحة اللغوية ، فليس هناك تجاوز للحس القاموسي في أصل اختيار الكلمة وإن كانت هناك تجاوزات لهذا الحسّ في نقل الكلمة – شعريا – عن معناها الأصلي والتعبير بها عن عالم من المعاني المتضاربة الوجوه . .

ولكن من الضروري أن نشير هنا إلى أن إنجاز مدرسة الديوان في التمرد على اللفظ كان إنجازا محدودا ، ربما لا يتجاوز إلا قليلا تخوم (التجديد) الذي قاده شوقي وحافظ ومطران أما ما عدا اللفظ فإن إنجازها كان كبيرا بحق .

وتقتحم مدرسة الشعر المهجري على الكلمة معاقلها الحصينة ، وتشارك الديوان في دماثة اللفظ وترقرقه ، ولكنها تخرج به عن طبيعة الاشتقاق اللغوي المأثور ، وتدافع عن جسارتها في هذا الصدد دفاعا نقديا عارما يتناسى أن للغة قوانينها الشاملة ، ومن أشهر الكلمات التي أثارت نقعا نقديا كثيفا كلمة « تحمم » في قول جبران :

أعطني الناي وغن وانس ما قلت وقلتا
إنما النطق هباء فأفدني ما فعلتا
هل تخذت الغاب مثلي منزلا دون القصور

= الفظاعة والخشونة ص ٦٦ . والغيهم بمعنى الظلمة ص ٢٧٥ . والقرحاء بمعنى ذات النوار الأبيض ص ٢٧٦ .

فتتبعت السـواقى وتسلقت الصخور ؟
هل تحممت بعطر وتنشـفت بـنور
وشربت الفجر خمرا فى كئوس . من أثير ؟

ولندع لميخائيل نعيمة أن يحدثنا عن قصة هذه الكلمة ، يقول : (أذكر أنى قرأت انتقادا من كاتب مصرى لقصيدة جبران خليل جبران « المواكب » وقد عثر فيها الناقد على هذا البيت :

هل تحممت بعطر وتـنشـفت بـنور ؟

فأثبته ووضع بعد كلمة « تحممت » كلمة كذا وبعدها علامة استفهام . وإن شئت فقل علامة استغراب ! كأن الناقد يقول للقارئ (انظر هو يقول « تحممت » وليس فى اللغة كلمة « تحمم » بل « استحم » فيا للجريمة » .

ثم يشتعل نعيمة حماسة فى دفاعه عن حق الشاعر فى اشتقاق ما يرى فيقول :

(سألتكم ، ياسادتى باسم العدل والفهم والقاموس : لماذا جاز لبدوى لا أعرفه ولا تعرفونه أن يدخل على لغتكم كلمة « استحم » ولا يجوز لشاعر أعرفه وتعرفونه أن يجعلها « تحمم » ؟ وأنتم تفهمون قصده ، بل تفهمون « تحمم » قبل أن تفهموا « استحم » ؟ وما الشريعة السرمدية التى تربط ألسنتكم بلسان أعرابى عاش قبلكم بآلاف السنين ، ولا تربطها بلسان شاعر معاصر لكم ؟ تقولون . ولو أجزنا لكل كاتب وشاعر أن يتصرف باشتقاقات اللغة كما شاء ما بقيت لنا لغة » .

فأجيبكم : إنه لو صح ذلك ما كان لكم من لغة الآن ؛ لأن الذين كتبوا أو نظموا أو الذين يكتبون وينظمون بلغتكم ويهفون ضد قاعدة صرفية أو نحوية من

---

(١) المواكب – لجبران .

قواعدها ، هم أضعاف أضعاف الذين كتبوا أو نظموا ولم يهفو ، بل ليس من كتب أو نظم بالعربية إلا ارتكب بدل الهفوة هفوات ، هل نسيتم انتقادات المرحوم إبراهيم اليازجى اللغوية ؟ ألم يعب أشياء كثيرة على أكبر أساطين اللغة ؟ أو لم يكن له من عاب عليه أشياء كثيرة ؟ ولغتنا مع ذلك لا تزال حية ولم تعبث بدولتها الفوضى !

ويمضى ميخائيل نعيمة ليوسع من دائرة رفضه للمواضعات اللغوية القديمة ، فيتهم بالركاكة والتخلف أولئك الذين يجمدون عند « صحيح اللغة ومتينها » . ويعيب عليهم جفولهم الخرافى من تاء طويلة بدل القصيرة ، وألف ممدودة بدل المقصورة ، وهمزة كرسيها الياء بدلا من الألف ، وفعل متعد بـ «إلى» بدلا من «على» [1] .

ومع أن نعيمة من الأدباء المهجرين الذين أحسوا قيمة الكلمة العربية وظلالها وإيحاءاتها ، (فلكل كلمة معنى أو روح ، ولكل كلمة رنة ، ولكل كلمة صبغة أو لون) [2] فإنه كان يرى ضرورة إعطاء الشعر حقه فى التمرد على قاموسه الموروث ، لأن هذا القاموس ليس تنزيلا مقدسا ولسنا نحن مطالبين بأن نعامل لغة (العسلوج بدل العصا ، والإسفنط بدل المدامة ، والخنشليل بدل السيف ، والفدوكس بدل الأسد !) [3] .

وقد ناقش العقاد هذه القضية فى المقدمة التى كتبها لكتاب نعيمة (الغربال) مناقشة هادئة وقوراً فقال :

(١) انظر : الغربال — ص ٨٠ — ٨٢

(٢) انظر : الغربال — ص ٥٩ .

(٣) انظر : الغربال — ص ٧٨ .

(. . . المؤلف يحسب العناية باللفظ فضولا ، ويرى أن الكاتب أو الشاعر فى حل من الخطأ ما دام الغرض الذى يرمى إليه مفهوماً ، واللفظ الذى يؤدى به معناه مفيدا ، ويعن له أن التطور يقضى بإطلاق التصرف للأدباء فى اشتقاق المفردات وارتجالها ، وقد تكون هذه الآراء صحيحة فى نظر فريق من الزملاء الفضلاء ، ولكنها فى نظرى تحتاج إلى تنقيح وتعديل ، ويؤخذ فيها بمذهب وسط بين التحريم والتحليل : فرأيى أن الكتابة الأدبية فن ، والفن لا يكتفى فيه بالإفادة ولا يغنى فيه مجرد الإفهام ، وعندى أن الأديب فى حل من الخطأ فى بعض الأحيان ، ولكن على شرط أن يكون الخطأ خيرا وأجمل وأوفى من الصواب ! وإن مجاراة التطور فريضة وفضيلة ، ولكن يجب أن نذكر أن اللغة لم نخلق اليوم فنخلق قواعدها وأصولها فى طريقنا ، وأن التطور إنما يكون فى اللغات التى ليس لها ماض وقواعد وأصول ، ومتى وجدت القواعد والأصول فلماذا نهملها أو نخالفها إلا لضرورة قاسرة لا مناص منها ؟)[1] .

كما ناقش الدكتور محمد مندور هذه القضية كذلك بكثير من التعقل والموضوعية ، وذهب فى ذلك إلى أن القيود اللغوية جزء من بنية التعبير الأدبى وليست فضولاً ، فقال : (. . . وناقدنا المثقف ميخائيل نعيمة وإخوانه من أدباء المهجر الأفذاذ — لا يمكن أن يغيب عنهم أن قواعد اللغة ليست قيوداً متطفلة ، بل أدوات تعبير بالغة الأهمية ، وإذا كانت ألفاظ اللغة هى رموز التعبير عن ذوات الأشياء والمفاهيم — فإن أدوات الإعراب هى وسائل التعبير عن العلاقات التى تقوم بين دلالات الألفاظ من فاعلية ومفعولية وإخبار وإنشاء وتحديد زمنى ونوعى للأحداث ، واللغة التى تتهاون فى قواعدها إنما تتهاون فى أهم جانب من جوانب

(١) انظر : مقدمة الغربال .

وظيفتها ، وهو جانب التعبير عن الروابط والعلاقات)[1] .

غير أن الاجتراء على الاشتقاق ظل تياراً متدفع الأمواج ، وظل شعراء المهجر وشعراء أبولو وشعراء الرمزية فى لبنان يتابعون ضرباتهم فى هذا الصدد ، حتى رأينا جبران يصرخ صراخه الحاد : (لكم لغتكم . . ولى لغتى) !

والواقع أن هذه القضية الخلافية ظلت موضع أخذ ورد من كثير من الأدباء والمفكرين فى العصر الحديث ، ولعل (محمود تيمور) كان واحداً من أبرز من عنوا بتقويم هذه الظاهرة ، والفصل فى مقولاتها بكثير من الجرأة والاعتدال ، فهو يحدد الظاهرة على هذا النحو .

(منا من يقف بالقياس عند الحدود التى رسمها أئمة اللغة وفقاؤها فى العصور الأولى ، كما يقف بالسماع عند ذلك العهد الغابر الذى أخذ فيه العرب الخلص يختلطون بغيرهم من الأمم ، فسرى اللحن على الألسن ، وتدسست العجمة إلى الفصحى ، وإذن فلا قياس إلا ما قاسه من قبل أولئك الأئمة والفقهاء ، ولا سماع إلا ما أثر عن العرب قبل أن تفقد سلائقهم ما لها من خلوص وصفاء) .

ثم يضىء فعل التطور فى اللغة على ضوء من التحامه بقضية التطور الاجتماعى فيقول :

(اللغة ظاهرة من ظواهر الحياة ، وقانون من قوانين المجتمع ، وظواهر الحياة تتبدل وتتشكل طوعا لتصاريف الزمن ، وقوانين المجتمع تتجدد وتتطور وفقاً لما تقضى به ضرورات الاجتماع . وليست أقيسة اللغة إلا استنباطاً مما يجرى من ألفاظ وصيغ ، فاللغة هى الأصل ، والقياس منها يتفرع ، فهو ظلها الناشئ عنها ، يمتد إذا امتدت ، ويميل معها حيث تميل . . . والصواب فى اللغة مناطه الشيوع ، فمتى

(١) النقد والنقاد المعاصرون - د . محمد مندور - ص ٤١ - ٤٢ .

ساغت الكلمة فى الأفواه فقد ظفرت بحجتها فى الاعتداد بها ، وأصبح لها فى الحياة حق معلوم) .

ثم يفصل فى القضية لمصلحة التطور بقوله :

(لنتدبر المثل القائل : «خطأ مشهور خير من صواب مهجور» . . ما أصدق انطباقه على اللغة ، لولا أنه يسمى المشهور خطأ ويسمى المهجور صواباً ، فهذه التسمية لا تصح إلا من باب التجوز والتسمح ، فليت شعرى : أى خطأ فى لفظ شهر؟ وليت شعرى ، أى صواب فى لفظ هُجر؟) .

وأخيراً يدعو إلى فتح باب الاجتهاد بإطلاق حرية السماع والقياس فيقول :

(سواء على القارئ أو السامع إذا فهم المعنى المقصود من لفظ مقروء أو مسموع أن يكون اللفظ فى حساب اللغوى المتفقه خطأ أو غير خطأ - فحسبه من اللفظ أنه اضطلع بمهمته التى تخلق من أجلها الألفاظ ، مهمة إبلاغ المعانى إلى الأذهان ، وتأدية الأفكار بين الناس . . . فلنؤمن بأن السماع حجة للغة قائمة ؛ حتى لا نقف باللغة موقف الجمود الذى يجافى طبع الحياة ، وليكن باب القياس مفتوحاً على مصراعيه ؛ حتى لا يمنع مانع من استنباط أقيسة جديدة فوق ما ورثنا من أقيسة صاغها الأقدمون[1]) .

وكما شغلت مدرسة المهجر الحياة الأدبية بتمردها على اللغة التقليدية ، وخروجها ليس فقط من دوائر الإغراب والمعاظلة ، وإنما من دوائر الصحة القاموسية والنحوية والصرفية فقد شغلت جماعة أبولو الحياة الأدبية بتمردات أخرى على اللفظة الشعرية ، شاركت فيها كُلاً من مدرسة الديوان ومدرسة المهجر ، وزادت على ذلك تخصيص قاموس جديد مستلهم من واقع الطبيعة وواقع الروح مازجة فى

(١) مشكلات اللغة العربية - ص ٢٤ - ٢٩ .

ذلك بين الحسى والمعنوى ، وبين المسموع والمشموم ، وبين الحياتى والميتافيزيقى .

يقول على محمود طه ، فى شبه صوفية طبيعية مستغرقة :

وانتحينا من جانب البحر مجرى مطمئن الأمواه شاجى الخرير
نزلت فيه تستحم النجوم الزّهـر فى جلوة المساء المنير
راقصات به على هزج المـو ج عرايا مهدلات الشعور
وعلى صدره الخفوق طوينا الليل م فى زورق رخى المسير
ورياح الخليج دافئة تثنى م حواشى شراعـه المنشور
خافقا فوقنا يدف شعاع البدرم فى ظله دفيف الطيور

ويقول الهمشرى ، فى توحد ظاهر بين ما هو طبيعى وماهو روحى :

كنت فجراً وكنت فيه ضباباً شاع فى أفقه الوضىء فتاها
وهبطت الحياة شعلة تقديس م وجئت الحياة أنت إلها
أنت لحن مقدس علوى قد تهادى من عالم نورانى
سمعت وقعه السماوى روحى فأفاقت فى معبد الأحزان
أنت ظل مقدس أنت كهف طائفى فى ربوة الأحلام
غمر الروح فى سكينتها السحر م فتاهت عن عالم الآلام

ويقول الهمشرى أيضاً فى قصيدته (أحلام النارنجة الذابلة) هادماً حوائط المسافة الألوان والأصوات والأشياء :

خنقت جفونى ذكريات حلوة من عطرك القمرى والنغم الوضى
فانساب منك على كليل مشاعرى ينبوع لحن فى الخيال مفضض
وهفت عليك الروح من وادى الأسى لتعبّ من خمر الأريج الأبيض

من هذه النماذج يستبين حجم الانقلاب القاموسى الذى قادته أبولو على اللفظة

الشعرية ، من حيث إيثار دماثة اللفظة بدلاً من عورتها ، ومن حيث خلق قاموس نوعي جديد بدلاً من الشيوع والاحتذاء فى التعبير ، ومن حيث وضع الألفاظ ضمن إطار تراسل الحواس. فيعبرالملموس عن المجرد ، والمجرد عن الملموس ، والمرئى عن المسموع ، والمسموع عن المرئى ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما أدخلته هذه المدرسة على الشعر من ألفاظ الميثولوجيا اليونانية أو التاريخ القديم كإيزيس وأزوريس وإرفيوس وأبلون وزيوس – عرفنا إلى أى مدى كان إبحارها مع الانقلاب على نمطية المعجم القديم .

إن المجرى المطمئن ، والخرير الشاجى ، والنجوم المستحمة ، والمساء المنير ، والموج الهازج ، والكواكب العرايا المهدلات الشعور ، والشعاع الخافق ، والإنسانة الإله ، والمعبد الحزين ، والظل المقدس ، والكهف الـ... والقمر المعطر ، والنغم الوضيء والألحان الينابيع ، والخيال المفضض ، وخمر الأريج الأبيض – كلها ألفاظ تحمل دلالة التمرد على المعجم القديم الذى كان يحصر المجرى بين الواسع والضيق ، والخرير بين العالى والخافت ، والنجوم بين السطوع والمحو ، والمساء بين الظلمة والغبشة ، والموج بين الهدير والانسياب ، والكواكب بين الطلوع والأفول ، والشعاع بين التوهج والانطفاء ، والإنسان بين الحياة والموت ، والمعبد بين الهدوء والضجة ، والظل بين الكثافة والشفافية ، والكهف بين الظلام والنور ، والقمر بين الجمال والقبح ، والنغم بين الحلاوة والرداءة ، والألحان بين الانسياب والنشوة والخيال بين السعة والضيق ، والخمر بين الحداثة والقدم – إن هذا التمرد يعنى أن المصطلح القاموسى القديم وصل إلى مرحلة العجز عن استبطان عالم الشاعر المعاصر ، والتعبير عن همومه الداخلية التى تختلط تخومها وتتشابك ؛ فقد يحس الشاعر بأن ألمه الملم ليس (عميقاً) ولا (سطحياً) ، ولكنه ألم (متكلم) ،

أو (ضارب بالسيف) ، أو (مهاجر فى كل الفصول) . . فهل يستطيع المعجم الشعرى القديم أن يعبر عن طبيعة هذا الألم المتكلم ، الضارب بالسيف ، المهاجر فى كل الفصول ، من خلال محدودية معناه القاموسى ، وضمور دورانه فى مجالات رتيبة حتى مع التوسع البلاغى الذى أتاحته الاستعارات والكنايات والمجازات ، ثم جمده الاستعمال المقلد ؟

أما من حيث خروج اللفظ على الصحة اللغوية والنحوية ، فيكفى أن نتأمل الحوار العنيف الذى نشب بين الدكتور طه حسين والشاعر إبراهيم (ناجى) بعد صدور ديوانه (وراء الغمام) ، فقد أخذ الدكتور طه حسين على الشاعر أنه لا يجيد لغته ، ويستشهد على ذلك بقوله :

عجبا لقلب كان مطمعه   طربا فجاء الأمر بالعكس
وأشد ما فى الكون (أجمعه)   بين القلوب أواصر البؤس

ويعقب بقوله : (انظر إلى قوله «وأشد ما فى الكون أجمعه» فكيف تقرأ أجمعه ؟ أتضم العين أم تكسرها ، فأنت إن ضممت أرضيت القافية وأغضبت النحو ، وأنت إن كسرت أغضبت سيبويه وأرضيت الخليل) . . . ثم يؤكد على أن الديوان يحتوى على كثير من مثل هذا الخطأ ، وأن شعراءنا مطالبون بإجادة اللغة والنحو ، فليس التجديد تعذيباً للغة والنحو ، بل إن الجمال نفسه يفسد إذا لم يؤد فى لفظ مستقيم جميل[1] .

ويشرع الدكتور (ناجى) قلمه ليرد ، ويظهر واضحاً أنه يأخذ قضية اللغة من زاوية متمردة ، لأنه يعتب على الدكتور طه حسين أنه لا يزال يحاسب الشاعر كلمة كلمة ، ويقيس الفن بالمسطرة ، وربما انتزع اللفظة من جارتها وهى تسندها وتشد

---

(١) انظر : حديث الأربعاء - الجزء الثالث - ص ١٥٠ وما بعدها .

أزرها ولا تكمل إلا بها . . ويعتب عليه كذلك اهتمامه النقدى (باللغة التى يلطمهم بها [1] . . . وإذن فالشاعر يرى أن اللغة هى آخر ما يلزم أن يلتفت إليه النقد ، وعلى الناقد أن يعطى الفنان حرية العمل فى اللغة ولا يحاسبه عليها كلمة كلمة ، ولفظة لفظة .

غير أن ذلك كله لا يقلل من قيمة النقلة الهائلة التى أعطتها جماعة أبولو المفردة الشعرية ، وأسهمت بذلك فى تخليق تيار عام يسمى بالتيار الرومانسى ، بأجنحته المتعددة .

لقد أعطت الرومانسية العربية الشعر المعاصر فضاء هائلاً يستطيع أن يجرب فيه أجنحته ، وأن يعبر عن أدق مشاعر الذات الضائعة بين طموحاتها المتعددة وقدراتها المحدودة ، وأن ينقل إحساسه بكثير من الأشياء التى تستعصى ماهياتها على التحديد والتجسيد كالموسيقى واللوحة وعطر الزهور ، وأن يثير فى المتلقى نشوة جمالية دافئة من خلال كثير من المفردات الجميلة الموحية التى تخلق عالماً من السحر تسبح الروح فى مياهه بلا ملال .

وهكذا يمكن أن يقال : إن تمرد التيار الرومانسى بأجنحته المتعددة على المعجم الشعر كان تمرداً شاملاً ، بمعنى أنه بدأ وادعاً وانتهى عميقاً ، وبمعنى أنه تناول تهذيب اللفظ ، وتوسيع اشتقاقاته ، ونقله من دلالته القاموسية إلى دلالات متعددة . . فكان من هذه الزاوية تمرداً متراحب الأبوان ، وضع الرومانسية على قمة التحول بالمعجم الشعرى من شاطئ الجمود إلى شواطئ المغامرة والابتداع .

وتأتى الرمزية العربية فى أعقاب الرومانسية أو قل بعد انفراط عقدها الجماعى الذى كانت آخر مظاهره مجلة أبولو التى اختفت فى ديسمبر سنة ١٩٣٤ .

---

(١) انظر : ناجى حياته وشعره — لصالح جودت — ص ٨٨ .

وإذا كانت بذور الاتجاه الرمزى قد بدأت تتحرك فى التربة العربية بعد سنة ١٩١٩ فإن بوادره لم تظهر قبل سنة ١٩٢٨ ، على أن هذا الاتجاه ما برح يختمر شيئا بعد شىء ، حتى اشتد واستوى عوده بعد نحو من ثمانى سنوات أى عام ١٩٣٦ .

والرمزية لا تبحث فى القصيدة عن المعنى ، ولا عن الفكرة ، ولا عن الصورة ، ولا عن العاطفة ، ولكنها تبحث عن الغنائية عن طريق اختيار الألفاظ تبعا لقيمتها الصوتية والأحرف الغنائية التى تتضمنها ، حتى لو تجردت هذه الألفاظ عن كل معنى فإنها تؤدى مالا تؤدى الألفاظ القاموسية ذات المعنى الموضوعى الضيق ، لأن اللفظ يفقد بالاستعمال «كيانه العفوى» وتغدو كل قيمته «اصطلاحية» فتضعف الحساسية الصوتية على أثر ذلك وتقوى الذاكرة .

من هنا كان تمرد الرمزيين على المعجم الشعرى تمرداً حقيقياً . (مما دفعهم إلى اختيار ألفاظ كونوا بها لغة فى اللغة) (١)

يقول سعيد عقل على قصيدته (من تلالنا القمر) :

من تلالنا القمر يا هلا بها ذكر
جايلته أخت ليلى والدمى الأخر
طال ما فاجأنه حافيا على الزهر
مزق القميص ما انهم والحلى غمر
منزل لجده كان فاكتسى القمر
وانفرطن حوله باقة من الشرر
ضحكة سعت وأغنية على الأثر
والمساء حل مواله القرير قر

(١) انظر : الرمزية والأدب العربى الحديث - لأنطون غطاس كرم .

ذاهـــل تـــزلجت رجلـه على الدور
والـــربى تـــكسرت ملء حرجه ضور

إن الألفاظ هنا لا تعنى معانيها الموضوعية الضيقة ، ولا تقع فى مواقعها القاموسية ، ولكنها تعنى أشياء أخرى ، وقد لا تعنى شيئا محددا غير أن تثير فينا « حالة » ما . . فالتلال والقمر والدمى والزهر والقميص والحلى والمغزل والباقة والشرر والضحكة والأغنية والمساء والموال والتزلج والدرر والربى والحرج لا يمكن أن تكون دالة هنا على معانيها الوضعية المألوفة ، وإلا أصبح المعنى العام للقصيدة منافيا تماما لما أراد الشاعر أن يعبر هنا عنه أو يوحى لنا به . . فالشاعر يريد شيئا مختلفا تماما عن تصوير التلال والقمر وهذه المفردات التى يتكون منها الإطار النهائى لشكل القصيدة . . (فنرى كيف يشير إلى أن القمر هو الشاعر ، وأنه من ربا غير ربا الأولمب ، ربا الشعر ، يوم تفيض النفس بالإحساس الكونى والتوق إلى المجهول ، ثم فكرة الشاعر وكان « مغزلا » تغذيه الأساطير وحكايات الزمان ، فإذا به يتسلل إلى أعماقه ، يمزق ما تسترت به فتنجلى متقدة عارية ، فإذا هو يمشى على أزاهر نفسه وينتزع الحلى ، ثم يلتفت إلى الكون فإذا المرأة تحمل النار والحركة ، وتستحيل الضحكة فى ثغرها نشيد الحب والجمال ، وإذا به تهدأ ذاته وتنقبض عند نزول المساء ، ثم تنطلق إلى الملأ الأرحب ، إلى أزرار النجوم ، ويلتفت إلى أسفل فيرى العالم المحسوس صورا تترجرج وتبتعد أمام عينيه كالأخيلة ، فتحدث فى نفسه جمالا عجيبا وأصداء حية) (١)

هل يمت هذا التفسير ـ الغامض هو الآخر ـ إلى وضعية كمّ الألفاظ فى القصيدة بسبب ؟ إن المعنى القاموسىّ هنا أخلى مكانه تماماً للمعنى الذى أراده

---

(١) الرمزية والأدب العربى الحديث – ص ١٧٠

الشاعر ، وهو إشاعة هذا الجو الأسطورى الذى تتخلق فيه العبقرية الشاعرة ، وتنفذ فى صميمه وتلتحم هى وذبذباته الخفية فى محاولة لرصدها والإيحاء بها .

ليس ذلك فحسب ، ولكن الرمزية العربية لجأت إلى خلخلة الشكل اللفظى وإدخال كثير من الأدوات التى لا يجوز - من وجهة القاعدة إلا شاذا - إدخالها عليه ، تمردا على المواضعة اللغوية الصارمة كما فى هذا النموذج الذى ينزع فيه سعيد عقل إلى إدخال (أل) على كل الأفعال التى يسوقها فى قصيدته أو يكاد :

الدرج الحالى بزيزفون
والفوقه تعرش ياسمينة
تكوكب السفينة
للحلوة التخطر كالظنون
الدرج الرنا إلى عهدا
والكاد لى يشهق من دلال
يقول : جن جن أو أشدا
عليك بالأزهر والظلال
الدرج الوشوش : « طر إليها
حسناؤك البيضاء فى انتظار »
والقال : « عمرى قفزتا رجليها »
بالبال ذاك الدرج الثرثار .

فالشاعر هنا يدخل (أل) على الظرف المكانى (فوق) وعلى الأفعال (تخطر) و (رنا) و (كاد) و (وشوش) و (قال) . . وحشد مثل هذه التجاوزات فى قصيدة لا تتعدى سطورها اثنى عشر سطرا يؤكد أن الشاعر

هادف بفعله هذا إلى التمرد على الشكل اللفظى ، وإضفاء صفة الإسمية على الفعل الماضى والمضارع ، وإخلاء ساحة اللغة من الأفعال ما أمكن . .

وفى يقيننا أن هذا المنزع إذا جاز ـ على ندرة ـ لإعطاء الفعل لونا من صلابة الاسم وحضوره وتعريفه ـ فإنه لا يجوز بمثل هذه الكثرة المرهقة التى تجرح إحساسنا اللغوى من جهة ، وتحرم قاموسنا اللغوى أروع كنوزه وهو الفعل بكل امتداداته الزمنية والجدلية والتعبيرية من جهة أخرى .

ويأتى الاتجاه الواقعى فى أعقاب فقد اتصال الشعر العربى بمعاناة إنسانه الكادح ، وصراعه المأساوى مع واقع التخلف والاستعمار ، ووقوعه فى قبضة أعنف أزماته الروحية والفكرية . . فقد اكتفى الشعر فى المرحلة الرومانسية والمرحلة الرمزية ببكائه الهارب على أطلال ذاته المحطمة . وبغنائه الشاحب لأطياف عالم كل ما فيه أشباح هائمة وظلال مخيلة ، فى الوقت الذى كان العالم العربى فيه يخوض معارك مواجهات عسكرية وحضارية ، ويُمنى فى كثير من هذه المواجهات بانهيارات متعددة ، جللها انهياره الفادح على أرض فلسطين السليبة .

كان على الشعر أن ينقب فى أعماق هذا الليل المأساوى عن ذاته الضائعة ، فرفض كل ألوان الترف الجمالى ، وغادر هذه الحفنة المتأنقة الدمثة من كلمات الرومانسية وكلمات الرمزية ، وانحنى على الواقع الجماهيرى يناجيه بلغة أليفة مشحونة بالغضب حتى يتمكن من إيقاظه وتثويره على واقعه ، فيكون له من ذلك قاموس شعرى دارج إن أرضى روح المرحلة فقد أغضب تاريخ الفن فى كثير من نماذجه وأشكاله .

وكأن هذا الشعر قد أحس مخامرته بقضية الخلود فى التاريخ ، فانقلب يعمق من مصطلحه وقاموسه ورؤيته حتى استحال إلى لون نقيض أو يكاد ؛ فلغته قد جنحت إلى التكثيف ، والغموض ، واستعمال المفردة فى مناطات تعبيرية لا تمت إلى وضعيتها القاموسية ، وألفاظه قد مالت إلى نفى بعضها بعضا ليس فى السياق أو البيت أو الفقرة فحسب ، وإنما فى الجملة الواحدة التى قد لا تتجاوز ثلاث كلمات .

من هنا كانت مرحلة الخمسينيات فى عمر الشعر الواقعى مرحلة خطابية فاقعة ، نزلت بلغة القصيدة إلى مستوى هابط ، وكان الخطل فى فهم معنى الواقعية من وراء هذا الهبوط . . فليست الواقعية فى الفن هى نقل حرفية الواقع الوجودى كما فعل بعض الشعراء ، ولكنها الانطلاق من هذا الواقع . . أى أن الشاعر مطالب بتكوين موقف فلسفى عن قضايا الواقع السياسى والاجتماعى والحضارى الذى يحياه ، ثم بالتعبير عن هذا الموقف تعبيرا فنيا يتناول كل مفردات الواقع ليس بمنطق الواقع وإنما بمنطق الفن ، لأن الفنان الذى ينقل الواقع نقلا حرفيا يمسخ هذا الواقع المنقول ويمسخ كذلك الفن الناقل ، لأن الواقع الموضوعى حين ذاك يكون أبلغ فى التعبير عن نفسه ، وأروع فى الدلالة على مفرداته وظواهره ومجاليه ، ولأن الفن يستحيل حين ذاك إلى محاكاة ساذجة مسطحة تحذف دوره الفاعل فى حركة الكون وحركة التاريخ .

وكانت المرحلة التالية مرحلة تأمل وعطاء شعرى أصيل ، اختفت فيها ظواهر الهبوط الشكلى ، والمحاكاة السطحية ، واللهث وراء تسجيل الواقع الخارجى . . وأخذ الشعر يمزج فى اقتدار حقيقى بين ظواهر الواقع الموضوعى وظواهر الذات بكل ما ينطوى عليه عالم الذات من مشاعر وأفكار ومواقف وطموحات ، فكان لنا من

ذلك شعر بحجم ثقافة العصر، وحجم رؤية الشاعر للواقع الثقافى فى إطاره العالمى، وليس فقط فى إطاره الشاحب المحدود.

فى الخمسينيات كان شاعر كصلاح عبد الصبور يقول:

يا صاحبى إنى حزين
طلع الصباح فما ابتسمت ولم ينر وجهى الصباح
وخرجت من جوف المدينة أطلب الرزق المتاح
وغمست فى ماء القناعة خبز أيامى الكفاف
ورجعت بعد الظهر فى جيبى قروش
فشربت شايا فى الطريق
ورتقت نعلى
ولعبت بالنرد الموزع بين كفى والصديق
قل ساعة أو ساعتين
قل عشرة أو عشرتين
وضحكت من أسطورة حمقاء رددها الصديق!

وعلى الرغم من أن الأبيات تجسد واقع الضياع الذى يحياه الشاعر، وتصور اليباب القارس الذى يلف عالمه النفسى والمادى فإن نثريتها المفرطة تجعل منها فى النهاية شيئا أشبه بمجموعة من الأخبار العادية المنثورة لا تمزق فى المتلقى سكونية ما، ولا تثير فيه غير هوامش من إحساس العادة والتكرار الأليف.

وكان شاعر كحجازى يقول:

– يا عم..
من أين الطريق؟

أين طريق «السيدة» ؟

– أيمن قليلا ، ثم أيسر يا بنى

قال ولم ينظر إلى .

وكان شاعر كمجاهد عبد المنعم يقول فى رسالة موجهة من مواطن بورسعيدى إلى جندى بالأسطول السادس :

السيد :

من قلبى أهديك سلامى . . أما بعد :

اسمى محمود

وأنا أدعى بين الإخوان «أبو حنفى» إلخ

أظن أنه مهما تعللنا بمنطق «الواقع» ومهما حاولنا أن نزعم لشعرنا من تأثرات مفرطة فى التواضع أو مفرطة فى الغرور – فلن نستطيع تجاوز هذا التهدم اللغوى دون إدانة فاقعة .

لقد أعلن بعض هؤلاء الشعراء أنهم توقفوا فى مطالع حياتهم الشعرية عند الشاعر ت . س . إليوت ، ولكن أفكار اليوت لم تستوقفهم أول الأمر بقدر ما استوقفتهم جسارته اللغوية ، فقد كان ناشئة الشعراء هنا يحرصون على أن تكون لغتهم منتقاة منضدة تخلو من أى كلمة فيها شبهة العامية أو الاستعمال الدارج . . . فغير إليوت من طبيعة نظرتهم إلى اللغة الشعرية باستقطابه ألفاظا مثل (التايبست ، وعلب الصفيح ، والغسيل المنشور ، والأطقم الداخلية ، والجوارب ، والشباشب ، والمشدات) . . ويؤكدون أن هذه الكلمات هى الكلمات الفريدة التى تستطيع نقل الصورة التى هدف إليها الشاعر ، وأنهم عرفوا من إليوت أن الشعر لا قاموس له ، وأن الشعر الحديث فى العالم كله قد تجاوز منطقة القاموس الشعرى

منذ أمد ليس بقريب[1] .

واقتحم بعضهم ميادين الابتداع فى اللغة فملأ شعره بكلمات : (الجاز . والتابو . والفساتين ، والمانيكير ، والتليفون ، والمايوه ، وأحمر الشفاه ، والسامبا ، والبنطال ، والسيمفونية ، والدانتيل)[2] إلى آخر هذا المعجم الهاجم الجرىء .

ولكن القضية لم تكن قط هى أن يقدم الشاعر أو لا يقدم على تضمين قصائده كمًّا من الألفاظ العامية أو الهجينة ؛ وإنما كانت ولا تزال هى : ماذا يريد الشاعر من وراء تضمين هذه الألفاظ فى قصائده ؟ وكيف يستطيع أن يضمن ولا يترخص ؟

إن قصائد إليوت قد استفادت بالفعل من التراث القديم والحديث ، واستفادت كذلك من اللغة الفصيحة والدارجة ، ولكن الشاعر كان قادرا باستمرار على إنطاق هذه اللغة الشاملة ، وعلى تفجير اللفظة العامية بألوان من الإيحاءات التى تضفى على القصيدة نوعا من التوهج الحضورى العظيم .

أما أن يعمد الشعر العربى إلى حشد كثير من الألفاظ العامية دون سند فنى يبرر هذا الفعل العشوائى ، فإن هذا هو الذى يمكن أن يشكل خطرا ليس على الشكل اللغوى للقصيدة فحسب ، ولكن على المستوى الفنى والرؤية الفلسفية التى تنطوى عليها القصيدة كذلك .

إن قول الشاعر مثلا : (قل ساعة أو ساعتين . . قل عشرة أو عشرتين) . . وقول الثانى (– يا عم . . من أين الطريق ؟ . . وقول الثالث : (اسمى محمود . .

---

(١) انظر : حياتى فى الشعر – لصلاح عبد الصبور – ص ٩١ – ٩٢ .

(٢) انظر دواوين نزار قبانى .

وأنا أدعى بين الإخوان أبو حنفى) . . ترخص لا يمكن أن يضيف إلى القيمة التعبيرية ولا إلى القيمة الفلسفية فى القصيدة أية إضافة ما ، وإنما هو على النقيض يطفئ إحساس المتلقى بأنه أمام عمل شعرى ، ويصرفه عن معانقة عالم القصيدة تحت وطأة هذا التسيب الشكلى الرهيب .

لقد كان باستطاعة هؤلاء الشعراء أن يأخذوا من الواقع ما أرادوا ، وأن يثْروا لغتهم بالمصطلح العامى المتوهج القادر على الحركة الحية كما يشاءون ، ولكن فى إطار التقنية الفنية التى تحيل مفردات الواقع إلى جزء من التجربة المعبر عنها بكل صدقها وحرارتها وشكلها الشعرى . . . أما أن تكون مجرد رقع فى ثوب القصيدة فليس فى قدرة الفن أن يسيغها على نحو من الأنحاء .

من هنا كان هذا الاتجاه فى الخمسينيات غير مبرر وغير فنى ، وكان شعراؤه مخطئين خطأ فنيا بالغا لأنهم حاولوا تقليد ظاهرة فى جانب من جوانبها السيئة ، وأهملوا الجانب المضىء ربما لأنهم لم يستطيعوه .

وفى الستينيات وما بعدها انحسرت موجة نقل الواقع الحرفى ، وتعالى الشاعر فوق المعجم الدارج المترخص وعاد إلى احتواء الواقع من خلال التعبير الفنى المكثف عن تناقضاته الهائلة بلغة شديدة التركيز والتجريد ، فرأينا (نازك الملائكة) تستعمل ألفاظا مملوءة بالدفء والحيوية والفكر والمعاصرة . . تقول من قصيدتها (الماء والبارود) وهى مستلهمة من ذكريات حرب رمضان (أكتوبر) :

الله أكبر
الله أكبر
هتافة الآذان فى سيناء تبحر
فى موجها تسيل فى الصحراء أنهر

الله أكبر

نداء رحمة ند تشربه الرمال

مد جناحيه ارتمى فى حضن التلال

محمولة أنغامه على شراع أبيض مروره معطر

ويبدأ السياب شديد الولوع بالمفردة الأنيقة والمفردة الأسطورية المضمنة :

يا صخرة معراج القلب

يا «صور» الألفة والحب

يا دربا يصعد للرب

لولاك لما ضحكت للأنسام القرية

فى الريح عبير

من طوق النهر يهدهدنا ويغنينا

(عوليس مع الأمواج يسير

والريح تذكره بجزائر منسية :

«شبنا يا ريح فخلينا»)

ولاح (خليل حاوى) أكثر تعمقا فى عالم الفكر الوجودى والميتافيزيقى على السواء نافضا همومه الفكرية من خلال لغة شعرية عالية تتسم بكثير من الرمز والتكثيف . . يقول من قصيدته (جنية الشاطئ) — فى مقطع بعنوان (فى المدينة) — على لسان الغجرية الرامزة للخصب ورفض مواضعات المدينة البكماء :

هل كنت فى ليل المدينة غير أعياد البيادر فى الحصاد

تفاحة الوعر الخصيب ، وهبت من جسدى ، دمى ، خمرا وزاد

وعجبت من جسد تلويه وتعصره سياجات عشر

أيعب غير رطوبة الحمى . ويعقدها ثمر ؟

واسترد صلاح عبد الصبور وجهه الفنى ، وانتقى لغته بعناية فائقة . واحتضن معجما خاصا به يمتلئ بألفاظ الموت والحزن والسأم والملال والحب والتذكار والفكر والوحدة والظل والمرارة ، وغير ذلك من الألفاظ الأليفة الغائمة ذات الإشعاع الفكرى والميتافيزيقى . . وقد تكون الأبيات القليلة التى جعلها « مفتتحا » لديوانه « أحلام الفارس القديم » دلالة تؤكد ما ذهبنا إليه من انتقال الشعر إلى مرحلة التأمل الهادئ المفكر بلغة أليفة ولكنها عميقة الإيحاء :

معذرة يا صحبتى ، لم تثمر الأشجار هذا العام
فجئتكم بأردأ الطعام
ولست باخلا ، وإنما فقيرة خزائنى
مقفرة حقول حنطتى
معذرة يا صحبتى ، فالضوء خافت شحيح
والشمعة الفريدة التى وجدتها بجيب معطفى
أشعلتها لكم
لكنها قديمة معروفة لهيبها دموع
معذرة يا صحبتى ، قلبى حزين
من أين آتى بالكلام الفرح

وعاد أحمد عبد المعطى حجازى إلى مصاحبة قاموس شعرى معتمد على التقاط مفردات الحضارة المعاصرة ، والتقاط فتات الواقع المرئى ، والتعبير من خلال ذلك بألفاظ حسية حية تجسد المضمون فى صورة جدلية قادرة على بعث الحياة فى المشهد الشعرى . . يقول من قصيدته (مرثية لاعب سيرك) :

حين يصير الجسم نهب الخوف والمغامرة
وتصبح الأقدام والأذرع أحياء
تمتد وحدها
وتستعيد من قاع المنون نفسها
كأن حيات تلوت ،
قططا توحشت ، سوداء أو بيضاء
تعاركت وافترقت . . على محيط الدائرة
وأنت تبدى فنك المرعب آلاء وآلاء .
تستوقف الناس أمام اللحظة المدمرة
وأنت فى منازل الموت تلج . . عابثا مجترئا
وأنت تفلت الحبال للحبال
تركت ملجأ ، وما أدركت بعد ملجأ
فيجمد الرعب على الوجوه لذة ، وإشفاقا ، وإصغاء

وانفرد أدونيس بالتعامل الفلسفى مع اللغة . أى أنه أعطى اللغة فى الشعر قانونها الخاص الذى تتواصل به وتتقاطع ، ويرفض به بعضها بعضا . . إن أدونيس واحد من أجرأ شعراء المرحلة على المعجم الشعرى ، وعلى تحريك اللفظ ووضعه فى مكان من الجملة يخرج به عن طبيعته الأولى :

قبل أن يأتى النهار ، أجىء
قبل أن يتساءل عن شمسه ، أضىء
وتجىء الأشجار راكضة خلفى ، وتمشى فى ظلى الأكمام
ثم تبنى فى وجهى الأوهام

جزرا وقلاعا من الصمت يجهل أبوابها الكلام
ويضيء الليل الصديق ، وتنسى نفسها فى فراشى الأيام
ثم إذ تسقط الينابيع فى صدرى ، وترخى أزرارها وتنام
أوقظ الماء والمرايا ، وأجلو مثلها ، صفحة الرؤى ، وأنام

وحاول بلند الحيدرى فى ديوانه (حوار عبر الأبعاد الثلاثة) أن يعبر بالقصيدة – الديوان عن علاقة الإنسان بذاته ، وعلاقته بالموضوع ، وعلاقته بالمطلق . . ولأن الديوان يحمل كل هذا الثقل الفلسفى فقد جنحت ألفاظه إلى التكثيف والامتلاء واختيار الكلمات الدالة على الكلى والمطلق :

ومرة ركضت خلف ظلى
حاولت أن أمسكه
حاولت أن أصير فيه كلى
وعندما انحنيت كان
منحنيا مثلى
محدقا مثلى
فى كسرة عتيقة من وجهى الطفل
ظلت بلا أرض ولا زمان
ظلت بلا ظل .

وأقلع البياتى عن خطابياته الجهيرة ، ومال إلى الرمز والتضمين والاتكاء على البعد الثقافى ، فجاءت ألفاظه موائمة لهذا التطور الجديد ، وإن كانت رؤيته الموغلة فى الغموض قد خلعت على ألفاظه بعضا من ملامحها الغامضة :

من قبل أن تولد فى ذاكرة البحر وفى ذاكرة الوردة والعصفور

ماتت على نوافذ الفجر وفى دفاتر الوحشة : نيسابور
تاركة حضورها الغائب فى حدائق الليل وفى أجنة الزهور
وخصلة من شعرها فوق سرير المطر المهجور .

وعلى هذا النحو مضت الواقعية تفتح الطريق إلى عالم جديد فى اللفظة الشعرية ، وتؤكد أن شعر الخمسينيات كان فى جملته نزاعا إلى الخطابية والنثرية فى قاموسه المفرد والمركب ، وأنه بدأ يستوى على عرش الأصالة والتحقق بعد بداية الستينيات ، حين فتح كل نوافذه على شعر العالم المعاصر ، وعاش واقع الثقافة العالمية بكل قلقها وطموحها وتمردها ورفضها للجمود على نمط من الأنماط .

وقد تكاملت الظاهرة الواقعية ببزوغ لون جديد من الشعر العربى المعاصر ، هو شعر الأرض المحتلة الذى استفاد بالتأكيد من حركة الشعر الحر فى أروع نماذجه ، والذى أفاد هو الآخر برؤيته القريبة للأحداث المأساوية من الداخل ، وببعده النسبى - مكانيا وفنيا - عن دائرة الجذب الذى قولب الشعر الحر فى صيغ لفظية وتكنيكية محددة ، وباحتكاكه مع الجانب الآخر النقيض لفلسفة الرؤية العربية فى صراعها مع العدو الغاصب ، وباستلهام أرضه الأسيرة بكل ما عليها من حياة وأحياء حتى ليبدو شعره قاموسا يضم مفردات التل والزيتون والزعتر والياسين والتوقيف والمصادرة . . إلى آخر هذه المصطلحات .

وإلى هنا . . نكون قد فرغنا من تأمل رحلة التمرد على المعجم الشعرى ، غير مهملين حقيقة أننا هنا نلم فحسب بأبرز ظواهر هذا التمرد . أما مفرداته وتفصيلاته واستقصاءاته النقدية فربما احتاج كل عنصر من عناصرها إلى دراسة علمية متخصصة ، وليس إلى صفحات فى دراسة من الدراسات .

* * *

فإذا انتقلنا فى تمرد الشعر المعاصر على اللغة من مجال المعجم إلى مجال البناء بكل ما يشتمل عليه هذا البناء من تقديم وتأخير ، وحذف ووصل ، وإظهار وإضمار ، وتعريف وتنكير ، إلى آخر ما هنالك من قضايا بنائية محدثة كالتعبير بالصور ، وكخلق المعادل الموضوعى فى القصيدة ، وكالتكميل بالصمت فى أواخر الكلمات ، فإننا سنواجه بالفعل كثيراً من الظواهر الفنية المتمردة التى أحدثت فى حركة الشعر العربى المعاصر تحولاً حقيقياً .

سنواجه من هذا الظواهر الفنية : ظاهرة البناء الفنى للقصيدة المعاصرة . . وظاهرة الوحدة العضوية . . وظاهرة شخصية الأسلوب . . وظاهرة الحرية التعبيرية والتركيبية . . وظاهرة الشعر المهموس . . وظاهرة المعادل الموضوعى . . وظاهرة الغموض . . وظاهرة القص الشعرى . . وظاهرة التعبير بالصور . . وهى ظواهر تمرد ، ليس لأنها مقطوعة الوشائج بجذورها التاريخية فى شعرنا العربى ، ولكن لأنها صارت فى شعرنا المعاصر ظواهر كاملة بعد أن كانت مجرد إيماض شعرى ونقدى يتناثر فى ديوان شعرنا العربى القديم .

ولعل من أبرز من تناولوا قضية البناء الفنى للقصيدة المعاصرة وتأسيس هذا البناء على عناصر بلاغية وتشكيلية ذات مفهوم جديد – عبد الرحمن شكرى ؛ فهو يرى أن هذا البناء يقوم على جودة الخيال وهو (كل ما يتخيله الشاعر من وصف جوانب الحياة ، وشرح عواطف النفس وحالاتها ، والفكر وتقلباته . والموضوعات الشعرية وتباينها ، والبواعث الشعرية) . . . وعلى التشبيهات التى لا تراد لذاتها وإنما التى تراد (لشرح عاطفة ، أو توضيح حالة ، أو بيان حقيقة) . . وعلى الشعور الحى ، والإحساس العميق بعيدا عن الإلغاز المنطق أوالتجديف الخيالى (فالمعانى الشعرية هى خواطر المرء وآراؤه وتجاربه وأحوال نفسه وعبارات

عواطفه) . . وعلى خلق الصلة الحميمة بين معنى البيت وبين موضوع القصيدة (لأن البيت جزء مكمل ، ولا يصح أن يكون البيت شاذا خارجا عن مكانه من القصيدة بعيدا عن موضوعها) . . . وعلى الوحدة العضوية التى تحقق فى القصيدة نوعا من التنامى والالتحام (من حيث إنها شيء فرد كامل لا من حيث إنها أبيات مستقلة) . . . وعلى إيجاد نوع من التعادل بين الفكر والعاطفة فى القصيدة الواحدة (إذ إن كل موضوع من موضوعات الشعر يستلزم نوعا ومقدارا خاصا من العاطفة والتفكير) . . . وعلى ملاحظة الفرق بين وظيفة الشعر ووظيفة القاموس ؛ (فإن الغرابة لا تستعصى على أحد ؛ وإنما الصعوبة فى الجمع بين المتانة والسهولة) . . . وعلى فتح أبواب التوليد مع رعاية خصائص وذوق اللغة ؛ (فإن مذاهب القول التى تستلزمها حياتنا تقتضى درس آداب العناصر الأخرى التى غمرت العالم وأنشأت لها حضارة وعلوما وفنونا)[1] .

أما الوحدة العضوية فقد أصّل لها العقاد ، ودافع عنها ، وظلّ يضيء جوانب فلسفتها حتى أصبحت ظاهرة نقدية محددة ، وهو يرى أن تكون القصيدة (عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها ؛ فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره فى موضعه) . . . (ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية فى الشعر فلم تجدها فاعلم أنه ألفاظ لا تنطوى على خاطر مطرد أو شعور كامل الحياة !) . . (إنك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال فى الأدب ألفيت تشابها فى الأسلوب والموضوع والمشرب ، وتماثلا فى روح الشعر

(١) انظر مقدمة الجزء الخامس من ديوان شكرى – ص ٣٦٣ – ٣٧٢ .

وصياغته . فلا تستطيع مهما جهدت أن تسم القصائد بعناوين وأسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من أن الأسماء تتبع السمات ، والعناوين تلصق بالموضوعات ، ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لا عضوا متصلا بسائر أعضائها فيقولون : أفخر بيت وأغزل بيت وأشجع بيت . وهذا بيت القصيد وواسطة العقد ، كأن الأبيات فى القصيدة حبات عقد تشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها . وهذا أدل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين أبيات القصيدة ، وتقطع النفس فيها ، وقصر الفكرة ، وجفاف السليقة . فكأنما القريحة التى تنظم هذا النظم ومضات نور متقطعة لا كوكب صامد متصل الأشعة يريك كل جانب . وينير لك كل زاوية وشعبة . أو كأنما هى ميدان قتال فيه ألف عين وألف ذراع وألف جمجمة ولكن ليس فيه بنية حية ، ولقد كان خيرا من ذلك جمجمة واحدة على أعضاء جسم فرد تسرى فيها حياة)[1] .

وأما شخصية الأسلوب فإن المازنى يبسط فى كتابه الباكر «الشعر . غاياته ووسائله» نظرية فى الشعر تجمع بين رومانسية المضمون ورمزية التعبير ، وهى النظرية التى نادت بها جماعة التجديد كلها فى خطوطها العريضة كما يقول الدكتور محمد مندور . . . (فهو يؤكد أن الشعر ليس تصويرا ، وأن مجاله هو العواطف ، وأن اللغة قاصرة بحيث يصبح لزاما على الشاعر أن يلجأ إلى الرمز والإيحاء عن طريق الصورة الشعرية ، أو الأنغام الموسيقية)[2] . . . وهو يدعو إلى استقلال كل شاعر بأسلوب خاص يميزه عن سواه ، ويعيب عليه أن يقلد كل كاتب ويقتاس بكل

(١) انظر : الديوان – للعقاد والمازنى – ص ١٣٠ – ١٣٢ .

(٢) انظر : النقد والنقاد المعاصرون – للدكتور مندور – ص ١٦٢ .

شاعر ، وأن يستعمل اللغة جزافا ويكيل «توافيق وتباديل» كما يقول الرياضيون — من الكلام غير واضحة ولا مؤدية ، وأن يسطر على الطرس أصداء متقطعة لأصوات مألوفة لا ، مورا منتقاة لتمثيل المعنى وإحضاره . . وهو يرى (أن الخيال يجب أن يطير بجناحين من الحقيقة ، وأن كل كلام ليس مصدره صحة الإدراك وصدق النظر فى استشفاف العلاقات لا يكون إلا هراء لا محل له فى الأدب)

وهو يذهب إلى أنه لا تنافى بين العمق والوضوح (فليكن الشاعر عميقا كما يشاء ولكن مع الوضوح والجلاء ، إذ أيهما أحوج إلى النور يراق عليه ويكشف عنه . . ما تلمسه اليد وهى تمتد وتعثر به الرجل وهى تخطو ، أم ما يغوص عليه المرء فى أغوار الفكر؟)[1] .

وأما الحرية التعبيرية والتركيبية فقد دعا إليها ميخائيل نعيمة (وأبو شادى) والرمزيون دعوة حارة موصولة : فميخائيل نعيمة يرى أن اللغة كائن حى يجب أن تخضع لناموس التطور ولابد للشاعر أن يجدد فى وسائل أدائها التعبيرى وتركيباتها اللغوية ؛ لأنها رموز للتعبير عن ذوات الأشياء والمفاهيم وليست غاية بذاتها يجب ألا تمس ، كما يرى أن المقاييس الأدبية تنحصر فى الإفصاح عن عوالم الذات ، وفى القبض على الحقيقة ، وفى الجمال والإيقاع ، وفى الحرية الرافضة للقيود[2] .

(وأبو شادى) يدعو إلى التحرر فى الموضوع والصيغة والروح ، وينفر من الرواشم التقليدية التى ما تزال معبودة الجماهير ومعظم المتأدبين فى العالم العربى ، ويهيب بالشعراء أن يمتلكوا قدرا من الاجتراء على الاستعارة والكناية والتشبيه ،

(١) انظر : الديوان — للعقاد والمازنى — ص ٥٩ — ٦٥ .

(٢) الغربال — مقال «نقيق الضفادع» ص ٧٤ وما بعدها ومقال المقاييس الأدبية ص ٥٤ وما بعدها .

وأن يعرفوا قدر لغتهم ، فلا يقفوا معها جامدين وأن يقدموا معجما واستعارات وموضعات وأشكالا جديدة لكى يكونوا قادرين على تجنب الأسلوب الاستعبادى والنغمة الخطابية التى كانت سمة من سمات الشعر التقليدى

والرمزيون يرون أن لغة الشعر المعاصر لابد أن تتكئ فى تمردها على الفيض الصورى ، وعلى الحذف ترفعا عن الابتذال ، وعلى الألوان وظلالها وعمل العلاقات من خلال مبدأ وحدة الجوهر فى الأشياء وتوقف وجود الأشياء على وجودنا ، وعلى نقل الجو والإيحاء الذى يدفع الشاعر إلى تشكيل لغة فى اللغة ، وعلى الإبهام الناشئ من حركة التضاد الأولى بين كثافة المادة المعبر عنها وضآلة الأداة المعبرة (١) .

وأما الشعر المهموس فقد استقل بالدعوة إليه والتقعيد المنهجى لأصوله وقضاياه الدكتور محمد مندور :

ففرق فى نظريته بين الهمس والضعف (فالشاعر القوى هو الذى يهمس فتحس صوته خارجا من أعماق نفسه فى نغمات حارة ، ولكنه غير الخطابة التى تغلب على شعرنا فتفسده ، إذ تبعد به عن النفس وعن الصدق وعن الدنو من القلوب) . . .

وبين الهمس والارتجال : (الهمس ليس معناه الارتجال فيتغنى الطبع فى غير جهد ولا إحكام صناعة ، وإنما هو إحساس بتأثير عناصر اللغة واستخدام تلك العناصر فى تحريك النفوس وشفائها مما تجده وهذا فى الغالب لا يكون من الشاعر عن وعى بما يفعل ، وإنما هى غريزته المستنيرة ما تزال به حتى يقع على ما يريد) . .

(١) انظر : الرمزية والأدب العربى المعاصر – لأنطون كرم غطاس – ص ١٥٧ ومابعدها .

وبين الهمس والانكفاء على الذات : (الهمس ليس معناه قصر الأدب أو الشعر على المشاعر الشخصية ، فالأديب الإنسانى يحدثك عن أى شىء يهمس به فيثير فؤادك ولو كان موضوع حديثه ملابسات لا تمت إليك بسبب)[1].

وأما المعادل الموضوعى فقد استلهم أصوله من التراث النقدى لإليوت الدكتور رشاد رشدى الذى تحمس له ، وخاض فى سبيله كثيرا من المعارك الأدبية ، وهو يذهب إلى مفهوم جديد فى البلاغة العربية : (فالبلاغة) - وفقا للنقد الجديد - ليست فى صدق الإحساس أو فى صدق التعبير أو جمال الأسلوب وإفصاحه عن شخصية الكاتب ، بل - كما يقول إليوت - فى أن يخلق الكاتب معادلا موضوعيا للإحساس الذى يرغب فى التعبير عنه ، أو بعبارة أخرى : أن يخلق الكاتب شيئا يجسم الإحساس ويعادله معادلة كاملة فلا يزيد أو ينقص عنه ، حتى إذا ما اكتمل خلق هذا الشىء أو هذا (المعادل الموضوعى) استطاع أن يثير فى القارئ الإحساس الذى يهدف إلى إثارته . . والبلاغة فى هذا المفهوم الجديد تهتم بالعمل الفنى من نواح ثلاث : العمل الفنى فى ذاته ، والعمل الفنى فى علاقته بالفنان ، والعمل الفنى فى علاقته بالقارئ .

أما من الناحية الأولى فالبلاغة تحدد العمل الفنى على أنه (معادل موضوعى) للإحساس لا الإحساس نفسه ، أو كما يقول الناقد المعاصر س . لويس : الأدب هو استخدام اللغة لخلق جسم محدد .

أما من الناحية الثانية ، وهى علاقة الفنان بالعمل الفنى - فالخلق الفنى ليس تعبيرا عن الشخصية ، بل هو إحالة عدد لا يحصى من المشاعر والإحساسات التى خبرها الفنان فى حياته إلى مركب جديد يخالف هذه المشاعر والإحساسات

(١) انظر : فى الميزان الجديد - للدكتور مندور - ص ٤٨ .

كما عرفها الفنان ، وعملية الخلق تشبه فى هذه الناحية العملية الكيمياوية . وكلتاهما عملية تحويل للمادة الأصلية إلى مركب جديد .

أما من الناحية الثالثة ، وهى علاقة العمل الفنى بالقارئ فإن البلاغة فى مفهومها الجديد ترى أن العمل الفنى لكى يحقق الأثر المطلوب يجب أن يترجم الإحساس إلى شيء محسوس : أى أن العمل الفنى لا ينقل الإحساس كما هو بل يعادله ، وهذه المعادلة تتضمن أن الإحساس الذى يثيره الفن يخالف الإحساس الذى تثيره الحياة . . وبناء عليه فإذا لم يترجم الإحساس إلى « معادل موضوعى » انتقل إلى القارئ كما هو فى الحياة ، وبذلك يفقد العمل الفنى أثره وتزول صفة البلاغة عنه) . .

ومن مقاييس البلاغة فى النقد الجديد التعبير غير المباشر . . والمعنى الكلى للعمل الفنى . . ورمزية اللغة . . واستقلال عالم العمل الفنى بكيانه الخاص بعيدا حتى عن الخبرات الموحية به ، والفنان الخالق له . (١)

وأما ظاهرة الغموض فقد كتب عنها كثير من النقاد المعاصرين ، وفرقوا بينها فى الشعر القديم وبينها فى الشعر المعاصر تفريقا دقيقا ، ووقف الدكتور شكرى عياد يرد مظاهر الغموض فى الشعر المعاصر - والحر منه بالذات - إلى اعتماد الشاعر فى عصرنا على ثقافته أكثر من اعتماده على تجاربه المباشرة ، فإذا أضفنا إلى ذلك شخصية التعبير الشعرى فإن ثقافة الشاعر تستحيل إلى رموز يصعب فهمها على غيره . . وكذلك فإن تجارب الشاعر المعاصر - وهى تجارب مع الأفكار فى المقام الأول - تميل إلى التركيز الشديد ، وهذا التركيز مظهر ثان من مظاهر الغموض أو سبب من أسبابه . .

(١) انظر : ما الأدب – للدكتور رشاد رشدى – ص ٢ – ١١ .

وكذلك فإن خلق الشاعر المعاصر لعالمه الخاص المستقل عن تجارب الحياة العادية يجعله يلح على العلاقات الداخلية فى العمل الفنى أكثر من إلحاحه على تصوير العلاقات للعالم الخارجى ، وهذا هو لب (التجريد) وهو مظهر ثالث من مظاهر الغموض فى الشعر الحديث . . .

ويفرق بين ظاهرة « التضمين » فى الشعر المعاصر وبين التضمين البديعى الذى شاع فى أدبنا العربى فى عصور الانحدار (بأن التضمين البديعى نوع من الزخرفة التى سيطرت على الشعر فى تلك العصور ، أما التضمين عند المحدثين فأداة لها قيمتها التعبيرية ، مثلها مثل الصورة والرمز ، فالشاعر الحديث حين يورد سطرا من شاعر سابق بين ثنايا كلامه ، أو حين يستعمل لغة الشاعر السابق وإيقاعه فى تضاعيف لغته وإيقاعه ـ فإنما يريد أن يحضر بأوجز عبارةٍ مضمون القصيدة السابقة أو روحها لتكون عنصرا مكونا للتجربة الشعرية الجديدة . . .

ويفرق كذلك بين ظاهرة التركيز فى الشعر المعاصر وبين التركيز فى الشعر القديم بأنه كان فى القديم ما سمته البلاغة « بالإيجاز » حين ذهبوا يعدون ـ فى محاولة رصده ـ حروف الجمل ليقارنوا بينها أيها أوجز . . أما فى الشعر المعاصر فالتركيز (نوع من التوازن الموقوت بين مواقف كثيرة متناقضة ، وهو فى كثير من الأحيان ، البديل الوحيد للصمت أو للكذب ، وهنا يحمل الشاعر حقاً مأساة هذا العصر (١) .

وأما ظاهرة القص الشعرى فقد حدد الدكتور مصطفى ناصف رؤيته لها من خلال التركيز على الإدراك الفردى ، فى الجنوح إلى التعبير القصصى ، وبساطة اللغة ، ومحاولة النفاذ من الخاص إلى العام ، والتوسع فى الصور ، والاعتماد على

(١) انظر : الأدب فى عالم متغير ـ لشكرى عياد ـ ص ٨٠ ـ ٨٣ .

غير المجاز والاستعارة فى تكوينها من مثل الفعل المادى وإيثاره ليتوب عما وراءه ، (وفى أثناء القص الذى يكون جوهر القصيدة المعاصرة يسوق الشاعر جزئيات كثيرة ليفيض جزئى على جزئى ، وتمتد القصة القصيرة إلى ما وراء الحادث المعين ، وتختلط الحركة القصصية بتصورات واقعية قريبة لا تصورات محلقة ، تعتمد فى قوتها على شىء من الإبهام وإشاعة الحزن الغامض ، ولكن الصورة الجديدة على الرغم من هذه السمة يراد لها أن تهب لنا جوا أسطوريا يعتمد على تخيل المصادفة ، وإضافة لون من الحلم الذى لا تتضح فيه الدلالات المباشرة ، وربما لا تتعلق أجزاؤه فيما بينها تعلقا سافرا) (١)

وأما التعبير بالصور فقد حاول الدكتور عز الدين إسماعيل أن يرصد أهم خصائصه من خلال تأمله المركز لطبيعة الصور الشعرية . . وفى تحديده لمفهوم هذه الصورة ، يقول ؛ (أما الصورة فى الشعر الحديث فلها صفات غير ذلك ، أو فلنقل إنّ لها فلسفة جمالية مختلفة ، فأبرز ما فيها « الحيوية » وذلك راجع إلى أنها تتكون تكونا عضويا ، وليست مجرد حشد مرصوص من العناصر الجامدة ، ثم إن الصورة حديثا تتخذ أداة تعبيرية ولا يلتفت إليها فى ذاتها ، فالقارئ لا يقف عند مجرد معناها ، بل إن هذا المعنى يثير فيه معنى آخر هو ما سمى « معنى المعنى » . بعبارة أخرى أصبح الشاعر يعبر بالصور الكاملة عن المعنى كما كان يعبر باللفظة ، وكما كانت اللفظة أداة تعبيرية فقد أصبحت الصورة ذاتها هى هذه الأداة ، وكذلك ارتبطت الصورة دائما بموقف من الحياة ، ودلت على خبرة الشاعر ونظراته الدقيقة إلى دقائق الأمور ، وبذلك أصبحت الصورة تنقل مشهدا حيا ، كما تلخص خبرة وتجربة إنسانية ، وهى وإن ظلت حسية « لأن

(١) انظر : الصورة الأدبية – لمصطفى ناصف – ص ٩٨ – ٩٩ .

الصور دائما لا مفر من أن تستخدم العناصر الحسية إلاّ أنها تختلف فى معنى الحسية عن الصورة القديمة ، فهى لا تختار العناصر الحسية ، لأنها تبدو فى ذاتها جميلة ، فجمال العناصر أو قبحها لا يعنى شيئا بالنسبة للشعر الحديث ، إذ المهم أن تكون الصورة فى مجملها معبرة ناقلة للمشاعر الصادقة نقلا مثيرا)[1] .

هذا مجمل ما قيل من آراء حول هذه الظواهر الفنية المحدثة ، وفى ضرورة الانقلاب بها على لغة الشعر العربى المعاصر من جانبها البنائى . . وهى آراء استطاعت أن تؤصل فى الحياة الأدبية لهذه الظواهر التى أصبحت من أهم ملامح التغيير فى مسار القصيدة العربية المعاصرة .

ولسنا نزعم أن كل شاعر استقل بواحدة من هذه الظواهر ؛ فنى هذا الزعم فوق كونه خطلاً فنيا بليغاً - محاولة للتعسف والقسر الذى لا يطيقه منطق الظاهرة فى الفن . . ولكن الأمر جرى فى الشعر العربى المعاصر على نسق آخر استفاد فيه كل الشعراء من كل الظواهر ، بحيث يمكن أن تبدو فى القصيدة الواحدة ملامح الوحدة العضوية ممتزجة بشخصية الأسلوب وبالمعادل الموضوعى ، وبحيث يمكن كذلك أن تستطيع قصيدة أخرى أن تحتاز قيمة الوحدة العضوية ، ولكنها تحبط إحباطاً كاملاً فى التعبير عن ذاتها بالصورة الشعرية . . وهكذا تتوزع هذه الظواهر فى قصائد الشعر العربى المعاصر على تفاوت حائل أو مكثف بين شاعر وشاعر ، وبين قصيدة وأخرى لشاعر واحد فى بعض الأحيان .

يقول العقاد فى قصيدته (جمال يتجدد) :

كلما قلت لى الربيع جميلٌ   قلت حقاً وزاد عندى جمالا

(١) انظر : الأدب وفنونه - لعزالدين إسماعيل - ص ١٢٠ - ١٢١ .

عجباً لى ، بل العجيبة عندى		صور الكون كم يسعن كمالا
خلتنى قد وعيتهن عيانا		وتتبعت من وعوها خيالا
شاعراً عاشقاً وقارئ كُتْب		قرأ الكتْب دارساً فأطالا
فإذا نظرة بلحظك تبدى		صوراً ما طرقن عندى بالا
بعداد الأنوار فى أعين الحب		نعد الأكوان والأجيالا

فالشاعر هنا يجسد إحساسه بتجدد الجمال الخالد فى كل مظهر من مظاهر الكون الصائتة والصامتة ، وتلوح الوحدة العضوية فى قصيدته بارزة بروزاً واضحاً ، فهى تدور حول إحساس واحد لا ينتقل الشاعر من مفردة من مفرداته إلا بعد استيفائها استيفاء كاملاً ، وهو ينتقل فى التعبير عن هذا الإحساس انتقالاً نامياً يبدأ من الخاص « الربيع » وينتهى إلى العام « الكون » ، ونحس معه بأن كل بيت يسلم إلى كل بيت يليه ، وأن المعنى يتخلق شيئاً فشيئاً حتى يتكامل بتكامل الأبيات ، ولا يبدو أنه محتاج بعد ذلك إلى مزيد .

ويقول شكرى فى قصيدته (رثاء عصفور) :

ليت أن الربيع إذ مت ماتا		حلت ميتا بين الربيع وبينى
كنت حليا للروض والروض غض		بالتدلى فى أيكه والتغنى
فرزئناك شادياً علم الشاعر		أن يخلب القلوب بلحن
نغمات مثل الربيع حسان		وغناء يحيى الهوى والتمنى
كفنوه بالغض من ورق الورد		ولا تضرحوا الضريح لدفن
وحفيف الغصون أروع ناعٍ		للذى كان حليةً فوق غصن
فالأزاهير كالطيور على الغصن		سكوت ، والطير زهر يغنى

فالشاعر هنا يجيد بناء قصيدته بناء فنيًّا ، ويبدع خيالاً فى استقصاء عالم

الطير والغناء وتشبيهاً فى قوله « فالأزاهير كالطيور على الغصن سكوت ، والطير زهر يغنى » ، وحسًّا فى استشعاره بحيلولة موت العصفور بينه وبين الربيع ، ووحدة فى جريانه فى جو شعورى واحد وتوثيق عُرا أبياته بعضها ببعض ، وفكراً فى استقصاء كل ما يمكن أن يقال فى موت طائر صديق ، وعاطفة فى هذا الوجد الصوفى الذى يودع به الشاعر طائره الصغير.

ويقول المازنى فى قصيدته (فى الرثاء) :

قضى غير مأسوف عليه من الورى ... فتى غره فى العيش نظم القصائد
لقد كان كذاباً وكان منافقاً ... وكان لئيم الطبع نزر المحامد
وكان خبيث النفس كالناس كلهم ... جباناً قليل الخير جم الحقائد
وقد كان مجنوناً تضاحكه المنى ... وفى ريقها سم الصلال الشوارد
فعاش وما واساه فى العيش واحد ... ومات ولم يحفل به غير واحد
وجاء إلى الدنيا على رغم أنفه ... وراح على كره الأمانى الشوارد

* * *

أراد خلود الذكر فى الأرض ضلة ... فأورده النسيان مر الموارد
ولم يبكه إذ مات إلا أجيرة ... لها زفرة لولا اللها لم تصاعد
فلا دمع يروى يوم ولى ترابه ... وكيف يروى تُرْبه غيرُ واجد
فلا تندبوه إنه ليس بالأسى ... حقيقاً ولا أهل الهموم العوائد
وخلّوه للديدان تأكل لحمه ... وذاك لعمرى خطب كل البوائد
ولا تزعجوا الديدان بالندب إنها ... هدى لمن تطويه سود الملاحد
وقوموا ارقصوا قد فاز بالموت موجع ... بلى ربما كان الردى خير ضامد

لعلى لست فى حاجة إلى التأكيد على أن المازنى يطل هنا من خلال كل بيت

وكل جملة ، وأن « شخصية الأسلوب » أظهر من أن تحتاج فى هذه الأبيات إلى تدليل ، فهذه السخرية الفلسفية الشفافة ، وهذا التشاؤم الشاعر المتمرد ، وهذا العبث بمواضعات التعبير عن مضمون معين بشكل لغوى معين — كلها سمة من سمات المازنى الشاعر الفنان الذى تناول كل معنى وكل شىء عبّر نتاجه الشعرى والفكرى بمنطق السخرية والعبث والتشاؤم الفلسفى المتمرد الشفاف . . إننا نألف فى الرثاء أن يذكر الشاعر مناقب المرثى ، فما بالك إذا كان المرثى هو الراثى ، ولكن المازنى يتمرد على هذه الوضعية ، وينحنى على كل المقابح التى يمكن أن يلصقها حى بميت ، ويفضح من خلال ذلك كذب الدموع المستأجرة ، وخواء العالم المتهدم ، وزيف الخلود الأجوف الفارغ ، ويترك المتلقى غارقاً فى الإحساس بأنه أمام أسلوب له شخصية متفردة لا تختلط تخومها بتخوم غيرها على الإطلاق .

ويقول نعمة قازان من مطولته (معلقة الأرز) :

فقلتم بقول النحاة فقلت ... لقد كان ذلك فى البصرة
أقاس النحاةُ حدود الزمان ... ومرمى خيالى وعقليتى
لقد حددوها لأفكارهم ... فضاقت وزمت على فكرتى
فقلتم بقول الكسائى فقلتُ ... وجبران قال على صحة

* * *

إذا فتح الله يوماً علىّ ... رفعت البناء على الكسرة
فإن كنت نظماً فقد تكسرونى ... وإن كنت شعراً فيا منعتى !

إن هذا الهجوم العاصف على قواعد اللغة يبين إلى أى مدى كان هؤلاء الشعراء ضائقين بالحدود اللغوية قاموساً ونحواً ، وهذه سمة عامة من سمات شعر

المهجر وأبولو .

إن هؤلاء الشعراء ضاقوا لسبب غير مفهوم وغير مبرر بقواعد اللغة ، ورأوا أنها قيد يعوق من حرية انطلاقهم فى آفاق الحرية الشاملة ، فتمردوا عليها ، ولكنهم – مع الأسف – لم يعثروا على مفاتيح الحرية الحقيقية ، فبقى تمردهم أشبه بومضات البرق الخاطف فى ليل العواصف .

ويقول سعيد عقل فى قصيدته (أجمل منك ؟ لا) ؟

أجمل منك ؟ لا
لم يضرب الرباب
لم تحلم الحجار فى الحلى
ولم يخط الشعر فى كتاب
أطرف منك ؟ لا
لم تحتضن ذراع
باحق عطر أرهق الفلا
يا ضحكة أوجعت الشعاع
إذا الفراشات عراها اهتياج
لا تهربى
علىَّ إحداها وأنت السراج
يا مطلبى
أطيب منك ؟ لا
لم تعتصر دوال
مارنة الكئوس ؟ ما الطلى ؟

يا سكرة سكب يد المحال .

هنا ينتفى المنطق انتفاء قاطعاً فى اللغة ، لأن حق العطر الذى يرهق الفلا ، والضحكة التى توجع الشعاع ، والعاشق الفراشة ، والمعشوقة السراج ، والمرأة التى هى سكرة سكب يد المحال – لا تجرى على منطق اللغة العربية المألوف ، ولا تجرى حتى على منطق اللغة الشعرية التى تتأبى على المنطق العادى فى اللغة ، ولكنها خرق لعادة التعبير فى اللغة ، وتهديم لحوائط المعنى فى الأسلوب ، وتضحية بالجدوى فى سبيل شكل جمالى يتعالى على برودة التشوه فى منطق تجريدى تفضى مقدماته إلى نتائجه ، أو تسلم فيه مرحلة معنوية إلى مرحلة معنوية أعلى . . إن الشكل هنا هو العشق والعاشق والمعشوق إذا جاز أن نستعير من كلمات الصوفية لندلل على نوعية هذا اللون التعبيرى الجديد .

ويقول صلاح عبد الصبور من قصيدته (الظل والصليب) :

هذا زمن الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتول من قاتله ، ومتى قتله

ورءوس الناس على جثث الحيوانات

ورءوس الحيوانات على جثث الناس

فتحسس رأسك !

فتحسس رأسك !

هذا المقطع يبدأ بطرح قضية هائلة (هذا زمن الحق الضائع) وكان يمكن فى الشعر القديم أن يعقب الشاعر على هذا الاستهلال بالصراخ على ضياع الحق ، والإستنفار لاسترداده ، وتهديد سالبيه بالويل والثبور . . ولكن الشاعر هنا تحدث عن قضية الحق الضائع ، وأرجعها إلى سبب فلسفى عميق ، هو غياب

العقل الحضارى ، واندلاع وحشية الغاب ، كل ذلك فى همس خافت أليف ، لا تعلو نبرته ، ربما لأنه يعرف أن الحق يضيع فى زحمة الصخب ، ويسترد مواقعه فى صحبة الهمس العاقل والحركة المفكرة .

ويقول محمود درويش فى قصيدته (خطوات فى الليل) :

دائماً . . نسمع فى الليل خطى مقتربة
ويفر الباب من غرفتنا
دائماً ، كالسحب المغتربة !
ظلك الأزرق من يسحبه
من سريرى كل ليلة ؟
الخطى تأتى ، وعيناك بلاد
وذراعاك حصار حول جسمى
والخطى تأتى
لماذا يهرب الظل الذى يرسمنى يا شهرزاد ؟
والخطى تأتى ولا تدخل .
كونى شجراً
لأرى ظلك
كونى قمراً
لأرى ظلك
كونى خنجراً
لأرى ظلك فى ظلى . . ورداً فى رماد !
دائماً أسمع فى الليل خطى مقتربة

وتصيرين منافيّ .. تصيرين سجوني
حاولي أن تقتليني
دفعة واحدة
لا تقتليني
بالخطى المقتربة !

هنا لم يحاول الشاعر أن يتجه إلى بلاده بالمشاعر العارمة اتجاهاً مباشراً . ولكنه اتخذ من الخطوات المقتربة في الليل معادلاً موضوعيا لحلم الخلاص وتحرير أرضه المأسورة ..

إن الشاعر ينقل إلينا عذابه الروحي المثقل بالأوجاع والحنين من خلال شيء خارجي عن عالم الذات ، ولكن هذه الشيء لا يلبث حين يتكامل تجسده في القصيدة أن يهمس إلى المتلقي بكل الأحزان التي يريد الشاعر تفجيرها في كلماته . وهذا هو جوهر المعادل الموضوعي .

ويقول عبد الوهاب البياتي من قصيدته (عين الشمس أو تحولات محي الدين ابن عربي في ترجمان الأشواق) :

أحمل قاسيون
غزالة تعدو وراء القمر الأخضر في الديجور
ووردة أرشق فيها فرس المحبوب
وحملا يثغو وأبجدية
أنظمه قصيدة ، فترتمي دمشق في ذراعه قلادة من نور
أحمل قاسيون
تفاحة أقضمها

وصورة أضمها
تحت قميص الصوف
أكلم العصفور
وبردى المسحور
فكل اسم شارد ووارد أذكره : عنها أكنى واسمها أعنى
وكل دار فى الضحا أندبها : فدارها أعنى
توحد الواحد فى الكل
والظل فى الظل
وولد العالم من بعدى ومن قبلى .

فى هذا الشعر لا نستطيع أن نضع أيدينا على معالم محددة ، لا نستطيع – من خلال هذا التضبيب الكثيف الذى ينشره الشاعر حول مضمونه – أن نقول : إنه يريد أن يقول شيئاً معيناً بالذات ، ولكننا مع ذلك نحس أن فى هذا الشعر بعداً أعمق من البعد المألوف فى الشعر الواضح المسطح ، نحس أن الشاعر يحمل الأرض والطبيعة والسماء تحت أهدابه ويعدو بها جميعاً وراء «الحقيقة» التى يهيم بحبها وينشدها ولكنها دائماً تهرب منه ، إن الغموض الكثيف الذى أشاعه الشاعر فى قصيدته لم يقف حائلاً بين المتلقى وبين الإحساس العميق بخصب ما يشيع فى القصيدة من أجواء فلسفية وصوفية وميتافيزيقية يلوح الشاعر من خلالها تائقاً إلى معانقة الأشمل والأكمل . وحسب قصيدةٍ مَّا أن توحى بهذا الجو ، وتلهم هذا الإحساس !

ويقول أحمد عبد المعطى حجازى فى قصيدته (مقتل صبى) :
الموت فى الميدان طن

الصمت حط كالكفن
وأقبلت ذبابة خضراء
جاءت من المقابر الريفية الحزينة
ولولبت جناحها على صبى مات فى المدينة .
فما بكت عليه عين !

* * *

الموت فى الميدان طن
العجلات صفرت ، توقفت ، قالوا : ابن من ؟
ولم يجب أحد
فليس يعرف اسمه هنا سواه !
يا ولداه !
قيلت ، وغاب القائل الحزين
والتقت العيون بالعيون
ولم يجب أحد
فالناس فى المدائن الكبرى عدد
جاء ولد !
مات ولد !
الصدر كان قد همد
وارتد كف عض فى التراب
وحملقت عينان فى ارتعاب
وظلتا بغير جفن !

قد آن للساق التي تشردت أن تستكن !
وعندما ألقوه في سيارة بيضاء
حامت على مكانه المخضوب بالدماء
دبابة خضراء !

هذه قصة شعرية كاملة تعكس مصير الغرباء في المدن الكبيرة ، والشاعر لم يهدر شيئاً من التفصيلات الموحية التي يمكن أن تضيف إلى القصيدة بعداً جديداً ، فالموت كظاهرة شاملة حط في الميدان إيحاء بأن شيئاً ما سيحدث . . وفجأة صفرت العجلات . . وتوقفت ، وقيل : ابن من ؟ وبهذا يختصر الشاعر رحلة الحياة والموت . . وحين ينتهي كل شيء يتساءل ! عابر من هنا وعابر من هناك ولا يجيب عن كل التساؤلات أحد ، فالناس في المدائن الكبرى عدد ، جاء ولد ، مات ولد . كل الأشياء متساوية . . وفي حركة شعرية نافذة يصور الشاعر صراع الصبي مع لحظاته الأخيرة على الأرض ، الصدر كان قد همد ، وارتد كف عض في التراب ، وحملقت عينان في ارتعاب ، وظلتا بغير جفن . . ويستدعي الشاعر ذبابة خضراء لترسم نقطة النهاية في رحلة الفتى الراحل إلى ما وراء الغروب . . إن القص هنا ظاهر من خلال التشكل والمفردات والبناء القصصي الشاعر المنساب .

ويقول أدونيس من قصيدته (هذا هو اسمي) :
نحمل الأزمنة
مازجين الحصى بالنجوم
سائقين الغيوم
كقطيع من الأحصنة

إن التعبير هنا لا يميل إلى لون من التجريد الذى كان شائعاً فى الشعر العربى ، ولا إلى لون من البوح الخطابى الذى كان طابعاً غالباً على كثير من نماذج هذا الشعر العربى ، ولكنه تعبير قائم على تجسيد الصور والإفضاء من خلالها بكل ما يريد الشاعر أن يقول ، فالجموع الحاملة للأزمنة ، والمازجة بين الحصى والنجوم ، والسائقة للغيوم كأنها قطيع من خيول راكضة ، كلها صور جمالية تنبض بالدفء والفحوى ، وتعانق قيمة الجمالية فيها قيمة البنائية ، فالصورة ليست مقصودة لشكلها الجمالى الجامد المحدود كما كانت فى القديم ؛ وإنما لوضعها البنائى من حيث إنها جزء من حركة التعبير الشاملة فى العمل الفنى المعاصر .

بقى أن نشير إلى أن الشعر المعاصر ملأ هذه الأشكال المختلفة بحرارة التجربة ونزوعها إلى صدق التعبير . . وأنه انقلب على مبدأ المحسنات التقليدية التى كانت تراد لذاتها إمعاناً فى إظهار الشاعر لمزيد من الصنعة الخارجية والإغراب المظهرى . . وأنه بتر الجملة الشعرية وكملها بالصمت حيناً وبجزء من الصمت حيناً آخر ؛ ليعطى مدلول الجملة أكبر من مدلول واحد . . وأنه – فى النهاية – لا يكف عن مواصلة التجريب والمغامرة فى الشكل واللغة والمضمون .

وهكذا نرى أن ظواهر البناء ، والوحدة والأسلوب والحرية والهمس والمعادل والغموض والقص والصورة ليست ظواهر نظرية تتجسد فقط فى كتابات النقاد والدارسين ؛ وإنما هى ظواهر فنية تتجسد فى قصائد الشعر وإبداع الشعراء ، مما يؤكد أنها ظواهر حقيقية وافقت روح تطور الشعر فى هذه المرحلة ، فاستحالت فيه إلى دم يجرى فى شرايينه ، وملامح تطل من عينيه .

ولا ينبغى أن نصادر هذا المنطق بزعمنا أن بعض هذه الظواهر أو كلها

عرفت طريقها إلى الشعر العربي القديم فى هذا العصر أو ذاك ؛ فإننا لا نجهل أن الشعر العربي القديم قد حاول على كل أرض ، وجرب فى كل اتجاه ، ولكنه بالنسبة إلى هذه الظواهر المحدثة لم يفعل شيئاً سوى كونه ألم بها خطفاً فى نص من هنا أو بعض قصيدة من هناك ، أما الشعر المعاصر فقد أخذها على عاتقه قضية فنية لها حدودها وفلسفتها ، ومازال يبدع من خلالها حتى تكاملت ظاهرة حقيقية .

إن الذين يحاولون مصادرة كل شىء باسم وجوده فى القديم لا يفطنون إلى أنهم يجففون بدعوتهم هذه ينابيع اقتدار هذا القديم على إنجاب الجديد ، ويخطئون فهم أن القديم الممتلئ هو وحده الذى يعطى حوارييه سلاح التمرد عليه بما يزودهم به من جسارة وتفتح واستشراف للآفاق العريضة .

وإذن . فالوحدة العضوية – مثلاً – قد يكون الحاتمى[1] قد أشار إليها هنا أو هناك[2] ، وقد يكون ابن طباطبا العلوى[3] قد فصل القول فيها بعض

---

(١) الحاتمى (ت ٣٨٨ هـ) .

(٢) روى صاحب زهر الآداب عن الحاتمى قوله : (مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد من الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفّى معالمه) وقوله : القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء ، وقوله بعد أبيات أوردها للنابغة الذبيانى : وهذا هو كلام متناسب تقتضى أوائله أواخره ، ولا يتميز منه شىء من شىء . ولو توصل إلى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذى واصلوا المعانى وفتحوا أبواب البديع واجتنبوا ثمر الآداب وفتقوا زهر الكلام لكان معجزا . انظر زهرة الآداب ٣ – ١٦ .

(٣) يقول ابن طباطبا : وأحسن الشعر ماينتظم القول فيه انتظاما ينسق به أوله مع آخره=

الشيء ، وقد يكون عبد القاهر الجرجاني [1] قد تعرض لها في حديثه عن المعاني والنظم ، وقد يكون المرصفي قد ألمح إليها في الوسيلة الأدبية [2] ، وقد يكون خليل مطران قد فطن إلى ضرورتها في مقدمة ديوانه [3] . . وقد يكون غير واحد من الشعراء القدماء - كالمعري مثلاً - قد فطن إليها وطبقها في قصائد من شعره . . ولكن الوحدة العضوية كبناء نقدي وفني له فلسفته الخاصة وتخومه المعروفة لم يؤصلّ لها سوى شعراء الديوان : العقاد وشكري والمازني ، حتى

= على ماينسقه قائله فإن قدم بيتا على بيت دخل الخليل ، ويقول : يجب أن يكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجا وحسنا وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجا لطيفا حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا لا تناقض في معانيها ، ولا وهي في مبانيها ، ولا تكلف في نسجها ، تقتضي كل كلمة ما بعدها ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها . انظر : عيار الشعر ١٢٤ - ١٢٧ .

(١) يقول عبد القاهر : (من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه الحسن كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض) انظر : دلائل الإعجاز - ٦٧ - ٧٠ .

(٢) يقول المرصفي (انظر هداك الله أبيات هذه القصيدة فأفردها بيتا بيتا تجد ظروف جواهر أفردت كل جوهرة لنفاستها بظرف ، ثم اجمعها وانظر جمال السياق وحسن النسق فإنك لا تجد بيتا يصح أن يقدم أو يؤخر ، ولا بيتين يمكن أن يكون بينهما ثالث) . . انظر : النقد والنقاد المعاصرون - لمندور - ص ٢١ - ٢٢ .

(٣) يقول مطران : هذا شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن والقافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح ، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد ولو أنكر جاره ، وشاتم أخاه ، ودابر المطلع ، وقاطع المقطع ، وخالف الختام ، بل ينظر إلى جمال البيت في ذاته وفي موضعه ، وإلى جملة القصيدة في تركيبها وترتيبها ، وفي تناسق معانيها وتوافقها . انظر : ديوان الخليل ، جـ ١ ، المقدمة .

أصبحت فى الفكر النقدى والإبداع الشعرى على السواء ظاهرة كاملة وليس مجرد إشارة عابرة قد تكون مقصودة لصاحبها وقد لا تكون . . وعلى هذا النحو يمكن أن ننظر إلى سائر هذه الظواهر التى تكون الملمح المتفرد لحركة الشعر العربى المعاصر بلا خلاف .

* * *

نستطيع إذن أن نقرر فى النهاية أن التمرد امتد ليس إلى الانقلاب على قيود الوزن والقافية فى الشعر فحسب ، ولكن إلى الخروج على مواضعات اللغة نفسها من خلال تحطيم العلاقات المنطقية وابتداع أنساق تعبيرية ليست فى طوق اللغة ذاتها ؛ فقد امتد هذا التمرد إلى العلاقات النحوية والبلاغية والتركيبية فى الجملة ؛ فالصفات ملحقة بغير موصوفاتها ، والتشبيه قائم على التضبيب لا على التضوىء ، والجملة لا تتم وإن تمت فبغير الصورة المألوفة فى تركيب الجملة العربية . . وامتد التمرد إلى خلخلة الجسور الواصلة بين حاضر الإبداع الشعرى وبين (التقاليد الراسخة) بحثاً عن أشكال ومضامين أكثر تلاؤماً مع طبيعة العصر وأحلام إنسانه المتمرد ! وامتد التمرد إلى احتواء معنى التجديد والحداثة والمعاصرة والأصالة ، ولكنه كان يضيف دائماً إلى كل مصطلح من هذه المصطلحات معناه الذاتى « التمرد » فالتجديد المتمرد غير التجديد الباعث أو الملتزم بقضية الإحياء . . والحداثة المتمردة غير الحداثة التاريخية التى تستمد وجودها الأساس من حلولها المعين فى مرحلة تاريخية حديثة . . والمعاصرة المتمردة غير المعاصرة المواكبة . . والأصالة المتمردة – أى الناقدة والمنتخبة – غير الأصالة المرتدة العابدة للقديم لمجرد أنه قديم . . وامتد التمرد إلى تجاوز الذات حين فرغ من تجاوز الأنماط ، وتجاوز الذات هنا بغير انتهاء ، وأيضاً فإن

تجاوز الذات لا يعنى فقدانها ، ولكنه تجاوز للبسيط إلى المركب ، وللسطحى إلى العميق ، وللجزئى إلى الكلى .

كان هذا هو حجم التمرد على لغة الشعر أملاً فى الوصول إلى لغة معاصرة قادرة على مخاطبة إنسان المرحلة ، وعلى احتواء الهموم الذاتية والاجتماعية والحضارية ، وعلى العبور بالإبداع العربى فى الشّعر من عصر البداوة إلى عصور التألق والكمال ! ويخيل إلينا أن الأمل قد تحققت بعض أبعاده إن لم يكن قد تحقق جل أبعاده بلا مبالغات !

* * *

المحتويات

رقم الإيداع	١٩٧٨/٠٠٩٥
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٥٢٠ - ٠

٧٤/٧٨/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

م
٢٠

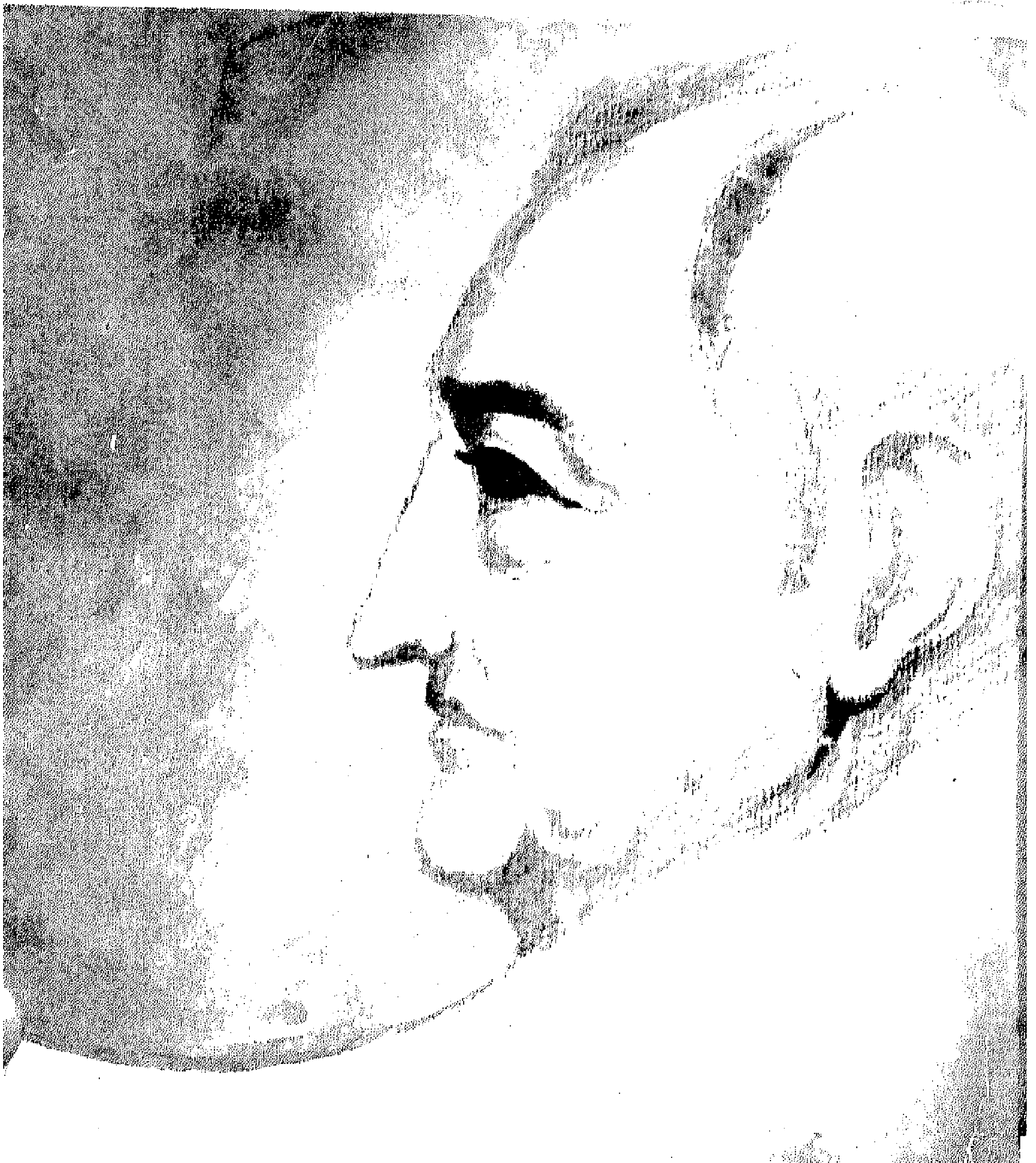
١٠/٠٥٧٤٠٤



د. عبد الغفار مكاوي

اقرأ

النور و الفراش



اقرأ

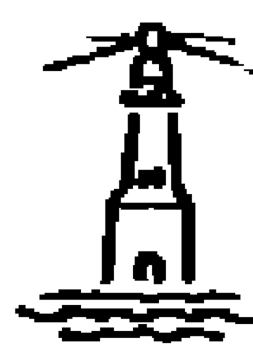
تصدر أول كل شهر

[٤٤٣] فبراير — ١٩٧٩

د. عبد الغفار مكاوي

النور والفراشة

زهرات من بستان الديوان الشرقي لجوته
مع رؤيته للأدب العربي وأدب الفرس



دار المعارف

تصميم الغلاف : جودة خليفة

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إلى الدكتور فرتس شتيبات

(معهد الدراسات الإسلامية – جامعة برلين الحرة)

أحببت بلادى وأحببتنى ،

علمتنى ووقفت بجانبى ،

هل تقبل زهرة حب ووفاء من غرس يديك ؟

(المؤلف)

نحن والأدب العالمى

لعل قضية «العالمية» أن تكون من أهم القضايا التى تشغلنا فى السنوات الأخيرة . فنحن نكثر من الحديث والكتابة عنها فى كل مجال مقروء أو مسموع . نتساءل – إلى حد تعذيب النفس أحياناً ! – بأصوات تمتزج فيها الحسرة والأسى باللهفة والتمنى : كيف يكون لنا أدب وفن وفكر يعترف به العالم ؟ متى تصل أغانينا وموسيقانا إلى سمع الناس فى كل مكان ؟ ما السبيل إلى التوفيق بين الأصالة والمعاصرة ، والتقليد والتجديد ، والمضمون المحلى والشكل العالمى ! كيف نتيح لأمم العالم أن تلمس نبض قلوبنا ووجداننا ، وتطل على حركة عقولنا وأفكارنا بنفس القوة التى تتابع بها كفاحنا العادل فى سبيل التحرر والتقدم ! هل سيقدر لنا أن نعيش حتى نرى العالم يهتم بطه حسين والحكيم ومحفوظ ، وسيد درويش وصلاح طاهر وغيرهم من الأسماء والمواهب العزيزة علينا ، كما يهتم بأخناتون وتوت

عنخ آمون ورمسيس الثانى ! وكيف نصبح أمة تعطى بقدر ما تأخذ ، وتشارك فى حضارة العصر بقدر ما تتلقى منه ؟

ربما كانت الترجمة هى أول ما يخطر على البال فى هذا المقام ، بشرط أن نفهمها بمعناها الحضارى الواسع الذى يقترب مما نسميه اليوم بالانفتاح ، فهى الجسر الذى تعبر عليه الأمم وتتلاقى ، وتمتد منه دروب التعارف والتفاهم والاحترام المتبادل . فعل هذا أجدادنا العرب منذ عهد المأمون وخلفائه ، فاتصلوا بتراث اليونان والفرس والهند والأمم السامية وبعض الأمم المتأثرة بالثقافة اللاتينية فى إسبانيا ، ونتج عن هذا الاتصال « هذا الأدب العربى المختلف المعقد ، الذى تجاوز الشعر والخطابة والرسائل إلى فنون من العلم والفلسفة ، وألوان من المعرفة تشبه ما كان العالم يعيش عليه فى القارات الثلاث . بين حروب الإسكندر وقيام الدولة العربية (1) .

ولم يكتف العرب بالنقل والتقليد ، بل تمثلوا ما نقلوه ، ولم يكتفوا بالإعجاب به والتحمس له ، بل وقف بعضهم منه موقف النقد والرفض ، أو أضافوا إليه بصمات من روحهم وشخصيتهم وحوارهم المستمر مع مشكلات عصرهم ومجتمعهم ودينهم . واستؤنف الاتصال بين العالم العربى والعالم الأوربى فى أواخر القرن الثامن عشر ، وقوى واشتد فى القرن التاسع عشر على يد رائد الترجمة وأبيها الأكبر رفاعه رافع الطهطاوى ومئات من تلاميذه ، واستمرت على يد الرواد المحدثين ، وتجلت فى مئات الكتب التى نقلت ولاتزال تنقل عن مختلف اللغات قديمها وحديثها ، وكلها تؤكد حاجة عقولنا إلى الروافد التى تصب فيها وتغذيها ،

(1) طه حسين ، ألوان ، دار المعارف ، ص ١٨ – وكذلك من حديث الشعر والنثر ، ص ١٨ ، ١٩ :

كما تؤكد ضرورة توحيد جهود الترجمة وإحكام مناهجها ، وتحديد أهدافها ، واختيار الملائم منها لظروف حياتنا وتطورنا ، وتوجيهها قبل كل شيء إلى عيون التراث الإنساني وأمهاته التي تخصب العقل العربي وتزيده وعياً بذاته ، وتعصمه من التقليد الأعمى والانبهار بكل جديد[1] . وعلى الجانب الآخر نجد تأثير العرب على تكوين العقل الغربي منذ أواخر العصر الوسيط . وكتب تاريخ العلم والحضارة تشهد بتأثيرهم على النهضة الأوربية الأولى والثانية وفضلهم على الغرب المسيحي في الاتصال بجذور العلم والفلسفة اليونانية قبل التعرف على أصولها ونقلها عن منابعها . فقد بدأ تأثير العلم العربي على الغرب منذ القرن العاشر الميلادي . وانطلق هذا التأثير من الأندلس بفضل ما نقله العرب من التراث الإغريقي في العلوم الطبيعية والرياضيات والفلك والطب . وفي الأندلس تعلم جربرت الذي رعى هذا العلم (وأصبح فيما بعد البابا سيلفستر الثاني ومات سنة ١٠٠٣) وازدادت حركة الترجمة اللاتينية عن الكتب العربية في القرنين : الحادي عشر والثاني عشر ، فترجمت معظم مؤلفات أرسطو وشروحها . وازدهرت هذه الحركة مع بداية تأسيس الجامعات الأوربية في ساليرنو ، وبولونيا ، وأكسفورد ، وباريس . ثم ارتفعت موجتها في القرنين : الثاني عشر والثالث عشر ، مع الحروب الصليبية التي زادت من احتكاك الغرب بحضارة بيزنطة والحضارة العربية في آسيا الصغرى والشام . ويكفي أن تفتح أي كتاب عن فضل العرب على الغرب لتقرأ فيه عن العلماء العرب

---

(١) لو أملك شيئاً من أمر الفعل أو القول لبعثت للحياة مشروع (الألف كتاب) الذي قضى عليه غباء البيروقراطية ، وجعلت منه مشروع المليون كتاب ! مع ذلك تبقى هذه الفكرة وأمثالها ترفاً غير مسئول ما بقي كابوس الأمية جاثماً على عقول الملايين . فمتى ندرك أن تحرير الإنسان بالمعرفة هو الطريق إلى تحرير الأرض ؟ . .

الذين عاشوا فى بلاط فردريك الثانى فى باليرمو (صقلية) وعن أثر أرسطو « العربى » على ميخائيل سكوتس وألبرت الأكبر وتوماس الأكوينى . وكم من مؤلفات علمية وفلسفية فقد أصلها اليونانى فنقلها الغربيون من العربية إلى اللاتينية فى القرنين : الثالث عشر والرابع عشر ، وقبل أن يرجعوا إلى هذه الأصول نفسها ابتداء من القرن الخامس عشر .

ولم يقصر الغربيون أيضاً منذ مطالع العصر الحديث فى نقل بعض آثار التراث العربى قديمه وحديثه . ويكفى أن نذكر – بعد القرآن الكريم وألف ليلة وليلة – بعض ما نقلوه عن العربية إلى اللاتينية أو إلى لغاتهم الحديثة ، مثل كتب الفلاسفة العرب كالشفاء لابن سينا ؛ ومقاصد الفلاسفة ، والمنقذ من الضلال للغزالى ، وتهافت التهافت لابن رشد ، وحى بن يقظان لابن طفيل ، وطوق الحمامة لابن حزم ، ومقامات الحريرى ، ومقدمة ابن خلدون ، وبعض آثار الحلاّج وابن عربى وغيرهما من المتصوفة ، وألوان من الشعر العربى من المعلقات وحماسة أبى تمام حتى البارودى وشوقى ومطران وأدونيس والبياتى وعبد الصبور ، وألوان أخرى من النثر الحديث من جبران وطه حسين وتيمور والحكيم ويحيى حقى ونجيب محفوظ حتى الشرقاوى ويوسف إدريس والسباعى وإحسان والشارونى وغيرهم من مواهب الجيل الجديد .

بيد أن الترجمة ليست إلا الخطوة الأولى على الطريق إلى ما نسميه الأدب العالمى . إذ لابد من تمثل الآثار الأجنبية واستيعابها حتى تصبح جزءاً من تكوين الوجدان الثقافى ، ثم الانتقال إلى مرحلة أرقى يمكن أن نصفها بأنها استلهام هذه الآثار وإعادة صياغتها فى أعمال بعيدة عن الالتزام بتلك الأصول ، بحيث تسهم الأعمال الجديدة التى ينتجها المبدعون فى إيجاد الهويّة الأصيلة . ولا بأس علينا من

هذا التأثر والاستلهام والاتصال الحميم ، فكل أديب خليق بهذا الاسم يأخذ ويعطى ويتلقى الثروة من كل وجه . والمهم أن يحتفظ الأدب بشخصيته ويحرص على مقوماته ويحسن الموازنة بين عناصر الثبات والاستقرار وعناصر التحول والتطور[1] . وربما كانت مرحلة الاستلهام الحر هذه – التى تتلوها بغير شك مرحلة الإبداع المستقل بغير تأثر مباشر بعناصر غريبة ، وبغير شعور بالنقص نحو النماذج الراسخة – هى الجسر الآخر الذى عبرت عليه كل الآداب القومية إلى شاطئ العالمية ، فاستطاعت عن طريق المحاكاة الحرة أن تتعرف على ذاتها وطاقاتها الخاصة قبل أن تضيف ما أضافته من كنوز إلى الرصيد الإنسانى . وفى ظنى أن هذه المرحلة الوسطى هى التى نمر بها اليوم ، وأنها وراء عدد كبير من محاولاتنا وتجاربنا الحديثة فى الأدب والفن والفكر والعلم لتأصيل شجرة ذاتيتنا بحيث تتصل جذورها بتراثنا القومى ، وتتشرئب فروعها نحو آفاق العالمية . وطبيعى أن يوفق أقل هذه الجهود وأن يتعثر معظمها ، فليس أشق على الأفراد والشعوب من معرفة النفس ، وليس أولى منها بالصبر والصدق والتضحية . وأخطر الأعباء التى تواجه هذه المحاولة هى أن يتعاون المخلصون فى رعاية تلك الشجرة ، ويحموها من حشرات التطفل والادعاء والتسرع والاستعراض ، مهما اشتد طنينها وارتفع صياحها وضجيجها كما هى الحال – للأسف – اليوم على الأرض العربية . والمهم أن نعمل بكل وسيلة لكى نزداد قرباً من كنوز التراث الإنسانى . ونقبل عليها بنفس الحب والشغف والصبر الذى نقبل به على كنوز تراثنا . لأنها فى النهاية ملكنا نحن أيضاً بوصفنا بشرا ، كما أننا قد شاركنا فى تكوين بعضها مشاركة فعلية . والمفارقة الغريبة فى أمر الاتصال الحضارى والثقافى بين الشعوب هو أنه كلما استمر وازداد قوة ، أصبح التقليد

(١) طه حسين ، ألوان . ص ٣٢ .

الخالص أمرا نادراً . فكل ما استعاره الإغريق من حضارات الشرق الأدنى حولوه إلى شكل جديد أصيل . والنقاد العرب القدماء نصحونا بالحفظ ثم محو ما حفظناه بالنسيان ، حتى لا نصبح كالمهرجين ، ولا نزهو بثياب غيرنا وننسى مع الزمن أنها ليست ثيابنا . . وهى نصيحة تقوم على خبرة عميقة بالنفس البشرية ، وبصيرة نافذة إلى أسرار الخلق . . ولأضرب الآن مثلا على استقبال الأدب العالمى من جانب الشعوب المختلفة على مر العصور ، وليكن هذا الأدب هو الأدب اليونانى القديم الذى لا يختلف اثنان حول مكانته من الآداب الكبرى . هذه المكانة تحددها فى المقام الأول حقيقة بسيطة تقول : إن أهم الفنون والأنواع الأدبية (كالمأساة والملهاة إلى جانب الأشكال الرئيسية فى الشعر الملحمى والغنائى) قد نشأت فى بلاد اليونان قبل أن تنتشر فى سائر أنحاء الأرض . وقد تم انتشارها فى معظم الأحوال عن طريق الأدب الرومانى ، كما حفظتها مدارس الرهبان بعد سقوط الدولة الرومانية وانتشار المسيحية ، وظلت تلهم الكتاب والأدباء (خصوصا فى ألمانيا وإنجلترا وإيطاليا التى امتدت منها إلى إسبانيا وفرنسا) منذ العصر الوسيط وعصر النهضة وعصر النزعة الإنسانية حتى يومنا الحاضر . بحيث لا تكفى القوائم الطويلة لإحصاء الأسماء التى تناولت موضوعات هذا الأدب ومواده وأشكاله فى مختلف العصور والظروف وشتى الصور والأساليب ، ولا تكفى الصفحات لبيان تأثير النماذج اليونانية سواء على الأدب أو على تكوين الإنسان الجديد منذ عصر النهضة . صحيح أن الاقتداء بهذه النماذج كان يتراجع فى بعض العصور – كما حدث مثلا فى القرن التاسع عشر ، مع الحركة الرومانتيكية والواقعية – ولكنه لم يختف أبداً كل الاختفاء . ولم يزل الأدباء وكتاب المسرح – خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية – يحركون أوديب ، وأورست ، وأنتيجون ، وأمفتريون ، وألكترا ، وميديا ،

وهرقل . . . إلخ على خشبة المسرح ليروا مشكلات واقعهم الجديد بعيون جديدة . ويطول بنا الحديث لو تقصينا هذا التأثير فى المسرح والشعر والرواية والنقد والتمثيلية الإذاعية والأوبرا والباليه . . إلخ . وحسبنا أن تأثير الفن والأدب القديم مازال حيًّا . وأن دعوة طه حسين لدراسة هذا التراث وإحيائه لاتزال دعوة ملحّة . تهيب بنا للإقبال على قراءته واستلهامه والحوار معه ومع غيره من آداب الشرق والغرب (بشرط ألا ننسى الأرض التى نقف عليها لحظة واحدة ، لأن الاتصال بالتراث الأجنبى يفترض قبل ذلك المعرفة بتراثنا الشعبى والفصيح . حتى « تتحاور » الروافد والأنهار ، ولا يصب الماء الغريب فى حفرة فارغة !) ولاشك أن هذا سيكون عوناً لنا على تعمق قضايانا ومشكلات واقعنا الأدبى والاجتماعى . ومدّ طاقتنا الإبداعية بدماء جديدة تحيى شبابها الذابل المكتئب ! .

الحديث كما قلت ذو شجون وشجون . وقد ظهرت عندنا مكتبة كاملة عنه ، أقلها يسجل الحقيقة العلمية ، وأكثرها يميل إلى الزهو الكاذب وتعزية النفس بماض لا تستحقه عن حاضر لا تريد أن تواجهه . ولكننى أردت أن أمهد به لتقديم مثل حى للاستلهام الحر الذى قصدته . وصاحبه هو شاعر الألمان الأكبر جوته (١٧٤٩ – ١٨٣٢) ورابع القمم العليا فى الأدب الغربى بجانب هوميروس ودانتى وشكسبير . لقد استطاع هذا الشاعر الغربى أن يستوحى عالم الشرق وشعراءه من فرس وعرب ، ويقدم إلى تراثه القومى والتراث الإنسانى كنزاً شعريًّا يتألق بين كنوزه ، كما يسطع بين أعماله الأدبية المتنوعة بحيث يعدُّ – إلى جانب قصيدته الكبرى فاوست ! – أكثرها تعبيراً عن شخصيته وتجربة حياته فى الحكمة والحب .

ونحب أن نتوقف هنا قليلا لنسأل : ما المقصود بالأدب العالمى !

يرجع الفضل لأديب الرومانتيكية وناقدها « أوجست فيلهم شليجل »

(١٧٦٧ - ١٨٤٥) فى صياغة هذا المصطلح الذى نشره جوته وروجه بين الناس بعد أن طبقه على نفسه . وهو يصدر عن الإيمان بأن الآثار الأدبية الكبرى تتخطى حدود الأمم والحضارات التى نشأت فيها وتكتسب دلالة عالمية . ولا يعنى « الأدب العالمى » الاهتمام بالأجنبى أو الغريب عنا لغرابته ، وليس معناه كذلك الالتفات إلى القيمة « الوثائقية » للإنتاج الأدبى وكأنه شاهد على مجتمع معين فى موقف تاريخى معين ، كما أنه لا يستتبع بالضرورة إنكار الطابع القومى وطمسه فى « عالمية » شاحبة مجردة . فالأهم من هذا كله هو الاعتراف بأن الأعمال الفنية العظيمة تخاطب الناس جميعاً بصورة مباشرة عندما تصوغ التفكير والإحساس بالواقع الإنسانى فى أشكال عامة الصدق وهذا هو سر عظمتها ! . بهذا يكون « الأدب العالمى » أبرز وأسمى مظاهر الوعى ، وأن عالمنا الذى نعيش فيه أسرة بشرية متعددة الأفراد والملامح والصفات . وهو فى الحقيقة عالم واحد يبنيه جنس بشرى واحد يتجه نحو مصير مشترك . وتعذبه هموم وآلام مشتركة . .

وطبيعى أن تعمل الأمم المتحضرة على نقل هذا المفهوم من التجريد إلى التحقق الحى فتحاول - عن طريق ترجمة روائع الأمم الأخرى ونشرها وعرضها وإذاعتها على الناس تمهيدا للتأثر بها واستلهامها - أن تتعرف على شخصية تلك الأمم وقيمها الثقافية لتفهمها فهماً أفضل ، وتدعم روابط التسامح والتفاهم بين البشر . صحيح أن كل شعب سيجد عند الشعب الآخر شيئاً يقبله وشيئاً يرفضه ، شيئاً يمكنه أن يحاكيه وشيئاً ينفر منه . ولكن هذا سيؤدى فى النهاية إلى نمو الثقة المتبادلة ، لأن وراء الخصائص القومية فى إنتاج الأدباء العظام عند كل الشعوب قيماً إنسانية عامة . تسطع كالمنارات فوق بحار الاختلافات الناشئة عن تنوع البيئة واللغة التراث واختلاف المصالح والاتجاهات والغايات . ورسالة الأدب العالمى هى

رعاية هذه القيم والتنافس النبيل في إحيائها ونشرها ، بحيث تصبح ملكا للإنسانية كلها . ربما تسرب إلينا اليأس كلما فكرنا فى أن الأدب والفن لم يمنعا حرباً ولا عدواناً . ولكن القليل من التفكير يمكن أن يهدينا أيضاً إلى أنه كان فى فترات تاريخية معينة (كما حدث مثلا بعد الحرب العالمية الثانية) من أهم عوامل التقريب بين شعوب تأصلت العداوة فى نفوس أبنائها زماناً طويلا بفعل الجهل والتعصب والأحكام المسبقة . ولا ننسى أن الأديب إنسان ومواطن فى وقت واحد . ولكن وطن فنه وإبداعه وتأثيره هو الحق والخير والجمال الذى لا يتقيد بوطن ، ولا يقتصر على شعب دون شعب . وقد حقق الأدب اليونانى القديم هذه الغاية ، فكان الأساس الذى ارتفعت فوقه الحضارة الغربية فى العصور الوسطى ، ثم فى عهد النزعة الإنسانية وعصر النهضة ، ومازال حتى اليوم عماد كل ثقافة حقيقية . واستطاع الأدب العربى أن يحمل لواء الأدب الإنسانى والعقل الإنسانى طوال عشرة قرون . فلم يكد يتقدم القرن الثانى للهجرة حتى استطاعت اللغة العربية أن تسع آداب الهند وفلسفة اليونان وثقافة الفرس ، وظلت حية مسيطرة على نحو ما رأينا حتى أحيت العقل الأوربى فيما يسمى بنهضته الأولى فى القرن الثانى عشر . نتيجة اتصاله بالعرب ونقل ما استطاع نقله عن الأدب العربى .

وقد كان للحركة الرومانتيكية الألمانية أكبر الفضل على إحياء فكرة الأدب العالمى ؛ فاهتمت بجمع الأدب الشعبى ، كما اهتمت باللغات الشرقية ونقلت عنها وحاكت بعض نماذجها (كما فعل بعض شعرائها مثل بلاتن وركرت ، عندما قلدا شكل القصيدة الغزلية عند الفرس والعرب ، بل لقد ذهب ركرت إلى ترجمة مقامات الحريرى بالسجع الألمانى !) ولا شك أن النظر فى مجموع المؤلفات الأدبية المترجمة إلى أية لغة (وهو ما لانزال نفتقده بصورة شاملة فى لغتنا) يمكن أن

يكشف عن تطور الأسلوب الأدبى فى هذه اللغة ، وعن وعيه بإمكاناته ، ومدى استفادته من الاتصال بآداب الشعوب الأخرى والتأثر بها سلباً أو إيجاباً . بل لعله أن يلقى الضوء على تطور العقول وتنوع الاتجاهات والميول وطبقات القراء وأذواقهم . . . إلخ . فالأدب الأجنبى المترجم قد قام فى كل العصور والآداب بدور الوسيط والملهم فى آن واحد . وربما يرجع إليه الفضل فى بعض الأحوال إلى تكوين الأدب المحلى نفسه أو النهوض به من سباته الطويل وهدايته إلى آفاق إنسانية أرحب . ولهذا تتجاوز قضية تلقى أدب معين من جانب الآداب الأخرى حدود الأدب المقارن ، وتتخطاه إلى تكوين الوجدان الثقافى وتزاوج الحضارات وتفاعل « أرواح الشعوب » (هذا إذا جازت مثل هذه التعميمات !) . ويكفى أن نفكر لحظة واحدة فى الآثار المترتبة على استقبال أدب قوى حى على أدب آخر لنرى أن المسألة أكبر من أن تكون مسألة ترجمة أو دراسة مقارنة أو تأثير وتأثر أو تعارف وتقارب بين الشعوب . لأنها فى الحقيقة مسألة اكتشاف الذات الفردية والجماعية لنفسها من خلال الآخر ، على نحو ما يؤكد الفكر المعاصر – والحس السليم أيضاً ! – إن الأنا لا تستطيع أن تعرف نفسها إلا فى مرآة « الأنت » ، بل إنها لتتضمن وجود « الأنت » فى صميم تكوينها . ولهذا كان التقاء الآداب أصدق شاهد على وحدة الجنس البشرى ، على الرغم من الخلافات التاريخية والسياسية والاجتماعية التى مزقته ولاتزال تمزقه وتدفعه إلى تدمير نفسه بنفسه . ويكفى أن نستعرض بعين الخيال هذه الصور السريعة عن تلقى الرومان للأدب الإغريقى ، والجرمان للأدب اللاتينى – المسيحى ، وتأثير الأنواع والأشكال الشعرية الرومانية (الفرنسية والإسبانية والإيطالية) على شعر الحب والفروسية (المينه زانج) وملاحم البلاط فى الشعر الألمانى فى العصر الوسيط بعد تأثرها جميعا بالموشح

والزجل والشعر الأندلسي ، واستقبال نماذج الأدب اليوناني والروماني القديم منذ النزعة الإنسانية وعصر النهضة - كما ذكرنا من قبل - حتى يومنا الحاضر ، وتأثير النماذج الفرنسية والإيطالية على الأدب الألماني في عصر الباروك والمأساة الفرنسية الكلاسيكية على هذا الأدب الأخير في عصر التنوير ، ثم الأثر الضخم الذي تركته ترجمات الشعر الشرقي والشعر الشعبي من كل اللغات والشعوب - منذ عهد هردر - وترجمات شيكسبير والأدب الإسباني على الحركة الأدبية المعروفة في ألمانيا باسم حركة العصف والدفع وعلى الرومانتيكية ، أما الرمزية الفرنسية فقد تجاوزت الأدب الأوربي إلى الأدب الشرقي والعربي الحديث ، وأما المدارس الطبيعية والواقعية في الآداب الفرنسية والروسية والإسكندنافية فقد زحف مدها القوي إلى شواطئنا في نصف القرن الأخير قبل أن ينحسر عنها في السنوات الأخيرة . .

لن يمكننا المضي في هذا التتبع إلى ما لا نهاية ، إذ تغنينا عنه مئات البحوث المتخصصة والندوات واللقاءات الأدبية والثقافية التي تتقصى قضية تلقي أدب معين من جانب الآداب واللغات الأخرى (1) . والواقع أن الأمر في هذه اللقاءات

(1) أذكر منها الندوة التي عقدت من ٢١ إلى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٧٥ بمدينة لودفيجسبورج عن تلقي الأدب الألماني المعاصر في آداب الأمم الأخرى ، وشارك فيها عدد كبير من الدارسين من مختلف الشعوب وتناولت مشكلات الترجمة الأدبية بوجه عام وتأثير بعض الأدباء الألمان على الآداب الأخرى في أوربا وآسيا (كاليابان وكوريا) وإفريقيا والأمريكتين ، وفي مقدمتهم توماس مان ورلكه وهرمان هسه إلى جانب بعض الشعراء وكتاب المسرح المعاصرين . وقد نشرت بحوث الندوة في كتاب بعنوان تلقي الأدب الألماني المعاصر في الخارج ، وظهر عند الناشر كولهامر في مدينة شتوتجارت سنة ١٩٧٦ - ولا يفوتني أيضاً أن أشيد ببحث قيم للدكتور أحمد عثمان عن الأصول الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكيم ، وقد ظهر بعد إعداد هذا الكتاب ليحقق بعض الآمال التي ينتظرها من إثارة قضية استلهام التراث الإنساني والاتصال الحميم به (هيئة الكتاب ١٩٧٨) .

الخصبة من خلال موضوع أدبي معين أكبر من أن نتعرض له فى هذه السطور . إذ يكفى أن ننظر فى موضوع واحد مثل أوديب لنرى تحولاته وصيغه الكثيرة من سوفوكليس إلى كوكتو وهينر مولر والحكيم وباكثير . وما أصابه فى السنوات الأخيرة على خشبة المسرح المصرى من كوارث يهون بجانبها قتل أبيه وزواج أمه وفقأ عينيه ! يكفى أيضاً أن ننظر فى قصة ليلى والمجنون منذ الروايات العربية القديمة إلى (نظامى) الشاعر الفارسى (١١٤٠ – ١٢٠٣) وشوقى وصلاح عبد الصبور ، أو فاوست منذ الكتاب الشعبى الذى وضعه مؤلف ألمانى مجهول فى القرن السادس عشر (١٥٨٧) إلى مارلو وجوته الذى جعل منه قصيدة كونية كبرى ، إلى عدد لا يحصى من الأدباء والشعراء والفنانين من مختلف الشعوب صوروه ومازالوا يصورونه فى صور شعرية ومسرحية وقصصية مختلفة . بل لقد نفذت روح فاوست ، وهى روح الفعل والمغامرة وإرادة التمرد على كل حد وإدراك المجهول وتعمق المبدأ والأصل – فى قشرة الجمود العربى ، فوجدنا لبعض أدبائنا محاولات قد تكون متواضعة حقًّا ، ولكنها ذات دلالة هامة على تسرب مارد الثورة والحيرة إلى القمقم الشرقى العريق ، وعلى الجهد الهائل الذى تبذله السلحفاة العربية لتشق الدرع الحصين الذى يطوقها ويخنقها . نذكر من هذه المحاولات مسرحية « عبد الشيطان » لفريد أبو حديد و« نحو حياة أفضل » لتوفيق الحكيم و« فاوست الجديد » للمرحوم على أحمد باكثير . وهل كان من الممكن أن تتعدد هذه الصيغ والمحاولات لولا أن جهود الشهداء المجهولين – الذين نسميهم عادة بالمترجمين ! – قد يسرت كنوز الثقافة العالمية للمواهب والطاقات المبدعة ، وتركتها بين أيديها حتى تفتحت عبر الأجيال فى أعمال استلهمت الأصل البعيد ، وانطوت فى نفس الوقت على نبض أصحابها وأنفاسهم ؟

مهما يكن من شيء فلم أقصد هنا تتبع اللقاء بين الآداب الغربية والشرقية . فلذلك مجال آخر يضيق عنه هذا المجال . فقد كان كل همى أن أثير قضية ، وأقدم تجربة لقاء . وليست الصفحات التالية إلا شهادة على هذه التجربة الفريدة ، ومثلا على اهتمام شاعر الألمان الأكبر – الذى يعرفه القارئ بغير شك من ترجمات بعض مؤلفاته إلى العربية [1] بالآداب العالمية وبالأدب الفارسى والعربى فى المرحلة الأخيرة من حياته وإنتاجه . ولقد عبر عن هذا بنفسه قبل وفاته بسنوات قليلة فى أحد أحاديثه الرائعة مع تلميذه وصديقه الأمين « أكرمان » فى آخر أيام شهر يناير سنة ١٨٢٧ عندما قال له : « إننى أزداد مع تقدم العمر إيماناً بأن الأدب ملك مشاع بين الناس جميعاً ، وأنه يظهر دائماً وفى كل العصور لدى المئات والمئات منهم . كل ما هناك من فرق بينهم هو أن أحدهم قد يفضل غيره قليلا أو كثيراً ، أو قد يسبح على السطح أكثر من صاحبه ، ولهذا فإننى أحب دائماً أن أقلب الطرف فى آداب الأمم الأخرى ، وأنصح كل إنسان أن يفعل نفس الشيء من جانبه . إن الأدب القومى لم يعد له اليوم من معنى . لقد آن أوان الأدب العالمى ، وعلى كل امرئ أن يشارك بجهده فى التعجيل به » . .

(١) لا يزال جوته سيئ الحظ فى اللغة العربية فأغلب ما ترجم له ركيك أو غير دقيق أو متسرع عاطل من الإحساس . وإليك بعض مؤلفاته مع أسماء مترجميها الذين ننوه بفضلهم على كل حال : آلام فرتر للمرحوم أحمد حسن الزيات وأنور لوقا (وكلاهما مترجم عن الفرنسية) . وفاوست (القسم الأول) للمرحوم محمد عوض محمد ولعبد الحليم كرارة (الذى صاغها نظما) وهرمان ودوروتيه لمحمد عوض محمد . وافيجينيا واجمونت للمرحوم محمود إبراهيم الدسوقى . والأنساب المختارة والديوان الشرقى للمؤلف الغربى لعبد الرحمن بدوى . وجوتس ذو القبضة الحديدية – وفاوست الأولى ونزوة العاشق والشركاء لمصطفى ماهر . وتاسو والأقصوصة والحكاية لكاتب هذه السطور .

جوته والأدب العربى

لشاعر الألمان الأكبر كتاب يتضوع بعبير الشرق وأنفاسه ، وتسرى فيه روح الإسلام بسماحتها وحكمتها ، وقناعتها واعتدالها . ويعدّ هذا الكتاب الذى سماه الديوان الشرقى للمؤلف الغربى من أجمل أعماله وأكثرها رقة وسخرية وعذوبة . ولقد شاء الشاعر الكبير أن يتقمص كذلك شخصية الباحث المتمكن فعقب على ديوانه تعقيبات وافية ، أضاف إليها عدداً من البحوث والتعليقات التى تعين قارئه الغربى على تفهم عالم الشرق والإسلام ، وتعرف شعرائه من عرب وعجم ، بقدر ما أسعفته مذكرات الرحّالة ودراسات المستشرقين وترجماتهم التى استطاع التوصل إليها فى ذلك الحين .

ومع أن جوته قد اقتصر فى كلامه عن العرب على الحديث عن المعلقات وشعرائها ، وعلى ترجمة قصيدة مشهورة لشاعر عربى هو تأبط شرًّا وجد أنه لا

يختلف فى روحه اختلافاً كبيراً عن أولئك الشعراء الكبار ، فإن أوراقه ودراساته التى مهدت للديوان تشهد بأن معلوماته عن الأدب العربى تفوق ذلك بكثير . فهو مثلا قد عرف بعض المجموعات الشعرية العربية – لعل جزءا من حماسة أبى تمام كان من بينها – كما عرف مجموعة من الأمثال والحكم العربية ؛ وقرأ جزءاً كبيرا من ألف ليلة وليلة ، إلى جانب أنه ذكر اسم المتنبى ذكراً عابراً فى معرض كلامه عن الرسول ، وفى إحدى قصائد الديوان الشرقى ، وإن لم يعرف فى الحقيقة شيئا يذكر عن شاعر العربية الأكبر . ونستطيع أن نقول اليوم فى شىء من الحسرة والأسف إنه لو قدر له أن يعرف شيئاً من الترجمات الألمانية المتأخرة لشعر المتنبى والمعرى ومقامات الحريرى وغيرها فربما كان اهتمامه وحماسه للأدب العربى قد زاد أضعافاً مضاعفة عما نعرف عنه اليوم . مهما يكن من شىء فسوف أقصر حديثى هنا على تأثره بشعراء المعلقات ، وبروح الإسلام من كتابه الكريم ، محاولا أن أبين مدى تأثره بهما فى إنتاجه .

والمعلقات هى أغلى كنز من كنوز الأدب العربى قبل الإسلام . وقد يختلف مؤرخو الأدب فى عدد هذه القصائد المشهورة بالقصائد السبع الطوال وفى مدى أصالتها ، وذلك منذ أثار طه حسين الشك حولها فى كتابه المعروف عن الأدب الجاهلى ، إلا أنهم سيتفقون بلا جدال على الإعجاب بشاعر غربى اهتم بهذه القصائد أيما اهتمام ، وراح يبحث عنها فى ترجماتها المختلفة بكل الوسائل التى تيسرت له فى عهده ، بل بلغ إعجابه بها أن ترجم عددا من أبيات معلقة امرئ القيس ثم تأثر بها بعد ذلك بعض التأثر فى إنتاجه . ويبدو أن التفسير اللفظى لكلمة المعلقات من أنها قصائد تكتب بالذهب ويعتز بها العرب فى الجاهلية فيعلقونها على الكعبة الشريفة – لعل هذا التفسير الخرافى الجميل كان من أقوى الأسباب التى جعلت الشاعر الألمانى يعجب بها كل هذا الإعجاب .

مهما يكن من شيء فقد عرف جوته سبع معلقات ، وصلت إليه فى ترجمة لاتينية قام بها المستشرق الإنجليزى وليم جونز وظهرت مع الأصل العربى فى لندن سنة ۱۷۸۳ تحت هذا العنوان : « المعلقات أو القصائد العربية السبع التى كانت معلقة على الكعبة » . ولعل أوفى تعليق على هذه القصائد هو ما نجده فى التعليقات والبحوث التى ألحقها جوته بالديوان الشرقى فى الفصل الذى خصصه للعرب حيث يقول : « ونحن نجد لدى العرب كنوزا رائعة فى المعلقات . وهى قصائد مديح فازت فى المباريات الشعرية ، ونظمت قبل عهد محمد ، وكتبت بحروف من ذهب وعلقت على أبواب بيت الله الحرام فى مكة . وهى تعبر عن أمة بدوية محاربة ، تُعذبها من الداخل المنازعات المستمرة بين القبائل المتعددة ، وتصور التعلق الراسخ برفاق القبيلة ، كما تصور حب الشرق والشجاعة ، والشهوة العارمة للأخذ بالثأر التى يخفف منها الحزن فى الحب والكرم والتضحية ، وكل هذا بغير حدود . وهذه الأشعار تعطينا فكرة وافية عن الثقافة العالية التى تميزت بها قبيلة قريش التى نشأ فيها محمد نفسه ، وتزداد قيمة هذه القصائد البديعة ، وعددها سبع ، بما يغلب عليها من تنوع شديد » . ثم يعزز قوله بما ذكره عنها وليم جونز عندما وصفها بقوله : « إن معلقة امرئ القيس لينة ، مرحة ، ناصعة ، أنيقة ، متنوعة الأغراض ، رشيقة . أما معلقة طرفة فجريئة ، جياشة بالعاطفة ، متوثبة ومع ذلك يشع فيها شيء من البهجة . ومعلقة زهير حادة ، جادة ، عفيفة ، حافلة بالوصايا الأخلاقية والحكم المهيبة . ومعلقة لبيد خفيفة غرامية ، أنيقة ، رقيقة ، وهى تذكرنا بالرعوية الثانية لفرجيل : لأنه يشكو من كبرياء الحبيبة وتكبرها ، ويتخذ من ذلك فرصة لتعداد فضائله والتفاخر بقبيلته . ومعلقة عنترة تبدو متكبرة ، متوعدة ، رصينة ، فخمة ، وإن كانت لاتخلو من جمال الأوصاف والصور . وعمرو (ابن كلثوم) عنيف ،

سام ، ميال إلى الفخر ، أما الحارث (ابن حلزة) فهو على العكس غنى بالحكمة والذكاء ، والكرامة . كذلك تبدو هاتان القصيدتان الأخيرتان أشبه بخطبتين شعريتين سياسيتين مما كان يلقى فى الأسواق أمام جمهور من العرب لتسكين الحقد والعداوة المدمرة بين قبيلتين » .

هنا يعبّر جوته عن مختلف العواطف التى تصورها المعلقات ، وأهمها ما يسميه « الحزن فى الحب » وهو قريب من البكاء على الأطلال الذى اشتركت فيه كل المعلقات ، واختلف الشرّاح ومازالوا مختلفين حول تفسيره . ويظهر أن جوته قد أحس بهذه العاطفة أشد إحساس وأقواه فى معلقة امرئ القيس ، الأمر الذى دفعه إلى الاهتمام بها ، بل ترجمة جزء لا بأس به منها ، مما كان له تأثيره بعد ذلك على إحدى قصائد الديوان الشرقى .

يرجع اهتمام جوته بهذه المعلقة إلى فترة مبكرة من حياته ، عندما كان يبلغ من العمر أربعاً وثلاثين سنة . ويكفى أن تعلم أنه أرسل فى نوفمبر سنة ١٧٨٣ إلى صديقه كارل فون كنتيبل رسالة يخبره فيها أن جونز المشهور (وهو المستشرق وليم جونز الذى سبق ذكره) قد ترجم القصائد السبع للشعراء العرب العظام . ثم يقول عن هذه القصائد : « إنها فى مجموعها عجيبة مدهشة ، وتحتوى على أجزاء بالغة اللطف والروعة ، ولقد صممنا (وهو بهذا يقصد نفسه وصديقه هردر) على الاشتراك فى ترجمتها » . ونفذ جوته بالفعل ما صمم عليه ، فترجم من معلقة امرئ القيس ثمانية عشر بيتا مع تصرف قليل فيها . فلنرجع أولا لبعض منها لنرى بعد ذلك كيف تبدو فى ترجمة جوته :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل
بسقط اللّوى بين الدّخولِ فحوْملِ

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لم نسجتها من جنوبٍ وشمألِ
وقوفاً بها صحبي على مطيّهم
يقولون لا تهلك أسىً وتجمّلِ
وإنَّ شفائى عبرة مهراقة
فهل عند رسم دارسٍ من معولِ

وسنرى من ترجمة جوته لهذه الأبيات – أو بالأحرى من تعبيره عن معناها وانطباعها فى نفسه – مدى التصرف الجميل فيها ، وكيف أسقط أسماء الأماكن الكثيرة ليقتصر على إبراز العاطفة الأساسية :

قفا وخلنا نبكى هنا فى مكان الذكرى
هناك كانت خيمتها على حافة الكثيب الرملى المتمايل
ومازالت الآثار قائمة لم تختف
وإن جعلت ريح الشمال وريح الجنوب
تنثر الرمال هنا وهناك
وبجانبى وقف الرفاق صامتين
وقالوا لا تهلك من الأسى وتجمل
فهتفت قائلا : إن الدموع هى عزائى الوحيد .

(لاشك أن النتيجة محزنة ومضحكة معاً ، فترجمة الشعر فى حدّ ذاتها مشكلة عسيرة قلما توفق فى أية لغة ، فكيف الحال إذا كانت الترجمة العربية لنصّ بالألمانية مترجم عن اللاتينية كالحال هنا ؟ !) مهما يكن من شىء فهى شاهد على اهتمام شاعرنا المبكر بالمعلقات . ونحن نعلم اليوم أنه عاد إلى الاهتمام بها فى سنة ١٨١٥ ،

أي بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً ، عندما قرأ بعضاً منها للأميرة لويزة أميرة فيمار وغيرها من أصدقائه . ويبدو أن ما يقرؤه شاعر وينطبع على نفسه لا يمكن أن يمضي بغير أثر قريب أو بعيد . فها هي ذى الأيام والسنون تمر بعد ترجمته القديمة لبعض أبيات امرئ القيس ، وها هو ذا نفس الإحساس يتردد صداه مرة أخرى عن وعى أو غير وعى فى واحدة من أجمل قصائده فى الديوان الشرقى ، يرجح معظم النقاد أنها كتبت بعد وداعه لماريانه فون فيلليمر ، وهى المحبوبة التى هام بها قلبه بعد أن شاخ وتجاوز الستين . وهذه القصيدة التى نشرها بعد وفاته ونسبوها لكتاب العشق من الديوان يتردد فيها موضوع البكاء على الأحباب الذين فارقوه ، والرغبة فى ذرف الدموع التى لا ينفع فيها عزاء . . تقول القصيدة :

دعونى أبكى ، يحوطنى الليل
فى الصحراء الشاسعة .
الجمال راقدة ، الرعاة كذلك راقدون ،
والأرمنى سهران يحسب فى هدوء .
أما أنا فأرقد إلى جواره ، وأعد الأميال
التى تفصلنى عن زليخا ، وأتفكر باستمرار
فى الدروب الملتوية المزعجة التى تطيل الطريق .
دعونى أبكى ، فليس هذا عارا .
الرجال الذين يبكون طيبون
لقد بكى أخيل حبيبته بريزيس
واكسيركس بكى الجيش الغلاب
والإسكندر بكى رفيق عمره الذى قتله بنفسه

دعوني أبكي . إنّ الدموع تحيي التراب ،

وها هو ذا يخضر .

فالموضوع هنا هو فراق الأحباب ، والعاطفة الغالبة هي الرغبة في إطلاق الدموع دون حاجة إلى خجل أو تبرير . وغني عن الذكر أن هذا هو الموضوع الأساسي الذي تبدأ به المعلقات ، ألا وهو البكاء على الأطلال . وسواء أكان جوته قد تنبه إليه بإحساسه كشاعر أم عرفه من ملاحظات المستشرق الألماني تيودور هارتمان ومن مقدمته لترجمته للمعلقات التي عكف عليها جوته في الفترة التي كان فيها مشغولا بتأليف ديوانه الشرقي ، فإن تأثير معلقة امرئ القيس على القصيدة السالفة وكذلك مطلع معلقتي طرفة بن العبد والحارث بن حلزة تأثير واضح لاشك فيه . ولست أحب أن أحسب هذا التأثير بطريقة تشبه أن تكون رياضية كما فعلت الباحثة السيدة كاترينا مومسن التي أخذت توازن موازنة دقيقة بين أبيات قصيدة جوته وبين أبيات امرئ القيس وطرفة وغيرهما من شعراء المعلقات . ففي اعتقادي أن مثل هذه الطريقة المضنية ربما لا تؤتي الثمار التي توازي ما بذل فيها من جهد وعناء . إن الشاعر العظيم يتأثر من هنا ومن هناك ، ومن العبث أن نحسب مقدار هذا التأثر بالقلم والمسطرة . ثم إن القصيدة الشعرية الجديرة بهذا الاسم تنطوي على شيء لا يمكن قياسه أو تحليله وتشريحه شيء ينبعث من انطباعها الإنساني العام في نفوسنا ، لأنه كالحياة ذاتها لا سبيل إلى قياسه أو تحديده . والمهم على كل حال أن نعرف أن المعلقات كانت الأثر الأدبي الذي استطاع أكثر من أي أثر آخر في الأدب العالمي أن يلفت انتباه شاعرنا إلى هذه التجربة الخالدة ، تجربة فراق الأحباب والبكاء عليهم ، وليس هذا بالشيء القليل . .

وهناك قصيدتان أخريان من قصائد الديوان الشرقي ، الأولى : هي قصيدة

«هجرة» التى يفتتح بها الديوان ، والثانية هى قصيدة «من أين لك هذا . وكيف جاء إليك» عن كتاب الضيق فى نفس الديوان . والقصيدة الأولى توحى بجو الشرق عامة وبالحياة البدوية بوجه خاص بكل ما فيها من طهر وصفاء وإباء . والثانية تستلهم جو الحياة العربية الأولى على عهد شعراء المعلقات بما فيها من شهامة وكرم وشجاعة ونزوع إلى الحرب والأخذ بالثأر . وكلتا القصيدتين تشير إلى الجو العربى الذى عاش فيه الشاعر فى أثناء تفكيره فيهما وكتابته لهما . وسأكتفى هنا بالقصيدة الأولى نظراً لضيق المقام . وأكرر ما ذكرته من أننى لا أحب أن أضل بالقراء فى متاهات البحث والمقارنة والتحليل التفصيلى لهذه القصيدة . فأنا من المؤمنين بأن الخلق الفنى – بعد كل تحليل ودراسة علمية مشروعة – ينبغى أن يحتفظ بسره المعجز ، ولو جردناه من هذا السر لفقد أغلى ما فيه ، ولذلك فسوف أكتفى بذكر الأثر العام الذى تركته الحياة البدوية والفطرية على هذه القصيدة لأعفى القراء من تفصيلات لا داعى لها . .

تقول قصيدة الهجرة (وهى من كتاب المغنى) .

والشمال والغرب والجنوب تتناثر وتنهار
العروش تثل ، والممالك تضطرب ،
فهاجر أنت إلى الشرق الطهور
لتستروح نسيم الآباء الأولين .
هنالك حيث الحب والشراب والغناء
سيرد عليك نبع الخضر ريعان صباك .
إلى هناك حيث النقاء والحق .
أريد أن أتغلغل بأجناس البشر

إلى أعماق الأصل البعيد
حيث كانوا يتلقون من الله
وحى السماء بلغات الأرض
ولم يحطموا رءوسهم بالتفكير ،
وحيث كانوا يجلون الآباء
ويأبون الخضوع للغرباء ،
هنالك أود أن أتملى من أفق الفطرة المحدود .
حيث الإيمان واسع ، والفكر قانع محدود
وحيث الكلمة ذات شأن كبير
لأنها كلمة منزلة تنطق بها الشفاه .
أريد أن أعاشر الرعاة
وأستروح فى ظلال الواحات
حين أرتحل مع القوافل
وأتاجر فى البن والمسك والشيلان .
أريد أن أسلك كل سبيل
من البوادى والقفار إلى المدن والحواضر
وبينا أصعد النجاد وأهبط الوهاد
تبعث أغانيك يا حافظ ، السلوى والعزاء .
وحين يترنم الحادى
من فوق ظهر دابته غناءه المسحور
يوقظ النجوم ويفزع اللصوص والأشقياء .

أريد أن أحيي ذكراك ، يا حافظ المقدس
فى الحمامات وفى الحانات
عندما ترفع المحبوبة الخمار
وتهزه فتفوح غدائلها برائحة العنبر.
أجل إن همسات الشاعر بنجوى الحب .
لتدفع الحوريات أنفسهن إلى العشق
إن أردتم أن تحسدوه على هذا النعيم
أو شئتم أن تعكروا عليه صفوه
فاعلموا أن كلمات الشاعر
تحوم دائماً حول أبواب الفردوس
تطرقها فى همس وهدوء
وتطلب حياة الخلود .

والنظرة العاجلة تبين لنا كيف تعبر هذه القصيدة عن تجربة دينية شاملة كونها جوته على مدى عمره الطويل ، وامتزجت فيها روح الديانات مع حكمة الحياة التى قضاها فى النشاط والعمل والإقبال على مباهج الدنيا وأسرار الكون . وعنوان القصيدة نفسه مكتوب بنطقه العربى ورسمه الفرنسى ، وفيه إشارة واضحة إلى هجرة النبى عليه السلام . كما أن الحنين الظاهر إلى الشرق ، وشوق الشاعر للارتحال مع القوافل إلى بلاد الآباء والرسل والهداة والحياة بعيداً عن اضطرابات القارة الأوربية وحروبها فى تلك الفترة العصيبة بين سنتى ١٨١٢ و١٨١٤ ليتملى من عادات الشرق وأحواله ويتنسم عطره وطهره وصفاءه – وليس ما يمنع أيضاً من أن يتاجر فى نفائسه وبضائعه ، ولو أدى الأمر أن يصبح واحداً من الرعاة والأعراب !

وتردد أسماء كالخضر صاحب موسى فى الروايات الإسلامية (التى تقول إنه كان قائد جيش ذى القرنين ووزيره ، والوحيد الذى أتيح له أن يشرب من عين الحياة فيكتب له الخلود) . ثم تردد كلمات الفردوس والقوافل والعنبر والجمال وخمار الحبيبة ، كل هذا يدل على تأثير الشرق بوجه عام . فهل توحى القصيدة مع هذا بتأثير الشعر الجاهلى ؟ إن النظر السريع يشير إلى شوق الشاعر إلى بلاد تعيش على الفطرة والطبيعة ، وتسير فيها قوافل البدو متنقلة بين الحضر والبادية ، أى يعيشون كما نقول اليوم فى عصر الحضارة الشفاهية لا الكتابية ، ويحيون حياة أبية ترفض الذل والخنوع للطغاة والغرباء . وهذا كله يوحى بتأثر الشاعر بما قرأه عن الحياة العربية فى الجاهلية ، وما عرفه من ترجمة المستشرق هارتمان للمعلقات ومن تعليقاته عليها ومقدمته الوافية لها ، ثم من مناقشاته اليومية الطويلة مع المستشرق «باولوس» فى أثناء زيارته لمدينة هيدلبرج (بين ٢٤ سبتمبر و٩ أكتوبر سنة ١٨١٤) عن الحياة العربية والأدب العربى .

لا مجال هنا للوقوف عند الرسائل والمذكرات اليومية وسجلات المكتبات التى استعار منها الشاعر هذا الكتاب أو ذاك . فلا شك فى تأثر جوته بعالم الشرق بوجه عام سواء فى ذلك شعر حافظ والجامى والسعدى أو قراءاته فى القرآن الكريم وسيرة الرسول . والشىء الذى أحب أن ألفت الانتباه إليه هو أن قصيدة الهجرة بالذات بالغة الدلالة على الديوان الشرقى كله ، بل إنها – على حد قول الشاعر نفسه – تعطينا على الفور فكرة كافية عن معنى الديوان وغايته . وهى إلى جانب هذا بالغة الدلالة على حنينه إلى حياة الفطرة والأصالة والطبيعة التى يتميز بها الشعر فى نشأته الأولى ، كما يتميز بها شعرنا العربى فى الجاهلية . ولقد تكلم الشراح كثيراً عن أوجه الشبه بين قصيدة الهجرة وبين قصيدة «دعونى أبكى» التى ذكرناها من قبل ،

وبخاصة أن الموقف فيهما واحد ، وهو موقف الشاعر الذى يرتحل مع القوافل ، ويجد نفسه سعيداً بين الرعاة والحداة فى الصحراء . ولعل المقطوعة الثالثة من قصيدة الهجرة أن تكون أقرب أجزائها إلى جو الحياة البدوية التى تعد المعلقات أوفى سجل لها ، كما هى أوضحها فى الثناء على حياة الفطرة المحدودة التى يتسع فيها الإيمان ويضيق الفكر ، وإبرار فضل الكلمة المنطوقة التى هى من وحى السماء على الكلمة المكتوبة أو المطبوعة التى تزهو بها حضارتنا اليوم أكثر مما ينبغى . .

أريد أن أبتهج بحدود الشباب
حيث الإيمان واسع والفكر ضيق قانع
وحيث الكلمة ذات خطر كبير
لأنها كانت كلمة تفوه بها الشفاه .

وقد يكون صحيحاً ما أثبته البحث التاريخى الذى قامت به السيدة كاترينا مومسن من تأثر جوته تأثراً مباشراً بالمقدمة التى كتبها المستشرق هارتمان لترجمته للمعلقات وأشار فيها إلى اتساع الإيمان وضيق الفكر عند الشعوب التى تعيش على حال الفطرة والطفولة ، ثم إشارته إلى أهمية الكلمة المنطوقة عند أصحاب هذه الحضارات الفطرة التى لم تتقدم تقدما ماديًّا ولا عقليًّا كبيراً . قد يكون هذا صحيحاً ، فالعمل الفنى الحق يحتمل تفسيرات كثيرة ، وهذا دليل خصوبته ونضجه وغناه .

ولكن لا مجال هنا للسير فى هذا الطريق الطويل ، ويكفى أن نعلم أن شاعرنا تأثر بجو الحياة العربية الجاهلية وبالمعلقات بوجه خاص . وإن أردنا مزيداً من الدقة فيما يتصل بهذه القصيدة فإن البيتين الثالث عشر والرابع عشر اللذين يقول فيهما :

هناك حيث كانوا يجلون الآباء
ويأبون على أنفسهم طاعة الغرباء

يتردد فيها صدى موضوع من أحب الموضوعات إلى شعراء الجاهلية وهو الإباء والكبرياء وعزة النفس التى ترفض الخضوع للطغاة والغرباء . وهو موضوع يتردد فى المعلقات وبالأخص فى معلقات لبيد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، ويكفينا أن نقرأ هذه الأبيات من معلقة عمرو بن كلثوم .

ألا لا يعلم الأقوام أنا
تضعضعنا وأنا قد ونينا
بأى مشيئة عمرو بن هند
تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وأوعدنا رويدا
متى كنا لأمك مقتوينا
فإن قناتنا ياعمرو أعيت
على الأعداء قبلك أن تلينا

ومن العبث أن نسترسل وراء النصوص التى تشيد بعزة العربى وإبائه وكرمه ، فذلك شىء ليس له آخر . ويكفى أن نذكر هذا البيت المشهور الذى تنتهى به المعلقة السابقة :

إذا بلغ الفطام لنا رضيعٌ
تخرّ له الجبابرُ ساجدينا

وحسبنا على كل حال أن الشاعر الكبير قد عبر عن حنينه إلى الشرق الطاهر الصافى ، حيث يتنسم ريح الآباء والأجداد والمرسلين والهداة ، ولا يكره أن

يوصف بأنه مسلم يسافر مع القوافل إلى حيث تسافر ، ويتاجر فى الشيلان والبن والمسك والعنبر . فالمهم أن قصيدة الهجرة توحى بجو المعلقات ، وأن ربطها بها ييسر لنا فهمها ويزيده عمقاً .

ولا نستطيع أن نترك هذا الموضوع قبل أن نذكر قصيدة تأبط شرًّا التى أعجب بها جوته أيما إعجاب عندما قرأها فى ترجمة لاتينية للمستشرق الألمانى فرايتاج ، ثم ترجمها بتصرف يليق بشاعر كبير مثله ، وضمها إلى تعليقاته وبحوثه التى ألحقها بالديوان الشرقى فى الفصل القصير الذى تكلم فيه عن العرب ، ومهد لها بكلمة موجزة عنها فوصفها بأنها قاتمة ، بل مشبوهة نهمة إلى الأخذ بالثأر والانتشاء به وقراءة النص الأصلى للقصيدة يحتاج إلى شرح كلماتها العسيرة ، فلنكتف بذكر هذين البيتين اللذين تبدأ بهما :

إن بالشعب الذى دون سلع
لقتيلا دمه ما يطل
خلف العبء علىَّ وولى
أنا بالعبء له مستقل

أقبل جوته على ترجمة القصيدة بحماس وحب لا نظير له ، وقسم ترجمته لكل بيت منها إلى مقطعات تقع كل منها فى أربعة أسطر ، تؤلف فى جملتها ثمانى وعشرين مقطوعة .

والمدهش حقًّا أن الشاعر فهم القصيدة فهماً تامًّا ، واستطاع أن يتمثل معانيها الغريبة عليه ، ويعبّر عنها بشعر سلس بسيط ، لا يكاد يترك معنى من معانى تأبط شرًّا دون أن يسجله . إنه يقول معبراً عن مدى إعجابه بالشاعر العربى وعن صدقه فى الانفعال بقصيدته : « يكفى القليل لفهم هذه القصيدة . فإن عظمة الخلق ،

والصرامة ، والقسوة المشروعة للفعل هى عصب هذا الشعر . والمقطوعتان الأوليان تقدمان العرض الواضح ، وفى الثالثة والرابعة يتكلم الميت ويلقى على قريبه عبء الثأر له . والخامسة والسادسة ترتبطان من حيث المعنى بالأولى ، وتقفان من الناحية الشعرية الغنائية فى غير موضعها ومن السابعة حتى الثالثة عشرة نجد تمجيدا للميت يهدف إلى الإحساس بفداحة الخسارة ومن الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة نجد وصفاً للغارة على الأعداء . والثامنة عشرة ترجع بنا القهقرى ، والتاسعة عشرة والعشرون كان من الممكن أن توضعا مباشرة بعد المقطوعة الأولى . والحادية والعشرون والثانية والعشرون يمكن أن توضعا بعد المقطوعة السابعة عشرة ، ثم تأتى نشوة الانتصار والمتعة فى مأدبة الاحتفال ، أما الخاتمة فنجد فيها اللذة المخيفة لرؤية الأعداء فرائس للضباع والنسور . وأروع مافى هذه القصيدة فى رأينا هو أن النثر الخالص الذى يصور الفعل يصير شعرياً بنقله مختلف الحوادث من مواضعها . ولهذا السبب ولأنها تكاد تخلو خلوًا تاماً من كل تزويق خارجى ، ويزداد جلال القصيدة ، ومن يقرؤها بإمعان لابد أن يرى الأحداث من البداية حتى النهاية وهى تنمو وتتشكل أمام خياله » . . .

* * *

ونتقل إلى ميدان آخر فنجد مجموعة من الحكم المنظومة التى كتبها جوته فى أواخر حياته وسجل فيها حكمة شيخوخته وسخطه على معاصريه من شعراء وعلماء وأدعياء ، فى حكم لاذعة ساخرة واسم هذه المجموعة هو Zahme Xenien أى الحكم الساخرة الأليفة ، تمييزاً لها عن مجموعة أخرى نظمها قبل ذلك بسنوات طويلة بالاشتراك مع صديقه شيلر . وتاريخ نشأة هذه الأشعار القصيرة يحوطه الغموض من كل ناحية . وإذا كنا نعلم اليوم أنه بدأ فى نشرها سنة ١٨٢٠ فإننا

لا نعلم على وجه التحديد متى بدأ فى كتابتها . ولكن الشواهد تدل على كل حال على أنه شغل بها ابتداء من سنة ١٨١٥ . فنحن نجد فى مذكراته اليومية (بتاريخ ٢٥ ديسمبر سنة ١٨١٦) هذه الملاحظة العجيبة «المعلقات . زهير» ، وبهذا يسجل للمرة الأولى بوضوح اسم أحد شعراء المعلقات . وقد ثبت للباحثين أنه كان مشغولاً فى تلك الفترة بقراءة المعلقات . والظاهر أن زهيراً بالذات كان قريباً من فكره وإحساسه فى ذلك الحين .

ومعلقة زهير تفيض بالأبيات التى تصور حكمته ، كما تعبر عن سأم الشيخوخة وزهدها وصرامتها وتأملاتها فى مصائر البشر والقدر والموت والحياة . وهذا الموضوع نفسه هو الذى يأتى فى المقام الأول فى حكم جوته اللاذعة . ولو قارنا بين بعض أبيات زهير وبين بعض هذه الحكم لوجدنا تقابلاً مذهلاً بينهما ، يسمح لنا أن نفترض وجود تأثر مباشر لا شك فيه .

فحين يقول زهير :

وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده
وإن الفتى بعـــد السفاهة يحلم

فإن جوته يتحدث عن أخطاء الشيخوخة التى لا تغتفر ويقول :

إذا كان الشاب أحمق سفيهاً
عانى من ذلك أشد عناء
والشيخ لا ينبغى أن يكون سفيهاً
لأن الحياة عنده أقصر من ذاك .

وكلا الشاعرين يردد كلمة الشيخ والشاب ، كما أنهما يوشكان أن يعبرا عن نفس الموضوع بنفس الكلمات . وجوته قد انشغل فى هذه الحكم كما قلت

بالشيخوخة وآلامها وأخطائها ، وكيف أن هذه الأخطاء لا تحتمل من شيخ ولا تليق به ـ فى حين أنها عند الشاب أمر يمكن تداركه فى المستقبل . ويكفى أن نقرأ هاتين الحكمتين لنتأكد من ذلك مرة أخرى :

كُفَّ عن التفاخر بالحكمة
فربما كان التواضع أخلق بالثناء
إنك لا تكاد تقترف أخطاء الشباب
حتى تراك مضطراً لاقتراف أخطاء الشيخوخة .

أو حين يقول :

إن الشباب يطول به العجب
إذا ما رأى الأخطاء تتسبب فى أذاه ،
هنالك يثوب إلى نفسه ، ويفكر فى الندم
أما فى الشيخوخة فلا يندهش المرء ولا يندم .

وإذا كان أحد أبيات معلقة طرفة يقول :

أرى الموت إعداد النفوس ولا أرى
بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد

وكان البيت الثانى عشر من معلقة عمرو بن كلثوم (فى شرح الزوزنى) يقول :

وإن غـــداً وإن اليوم رهن
وبعـــد غـــد بما لا تعلمينا

وإذا رأينا زهيراً يعبر عن هذه المعانى نفسها بصورة أوضح وأدل فى البيت القائل (وإن سفاه الشيخ . . .) ثم رأينا جوته يطرق هذه المعانى فى مجموعة من حكمه السابقة ، فلا يمكن أن يكون ذلك بمحض المصادفة بعد أن أثبت البحث

أنه كان مشغولا بالمعلقات عندما نظم تلك الحكم الأليفة اللاذعة ها هو ذا يقول في البيت الثاني والخمسين والأبيات التالية له من القسم الأول من حكمه ما يؤكد الشبه الشديد في اختيار الكلمات وفي الفكرة نفسها . بحيث لا يمكن كما قلت أن يكون هذا التشابه بينها وبين أبيات زهير وليد المصادفة :

دائماً ما يكون الشيخ هو الملك لير .
فما تعاون يداً في يد ، وما كافح
قد انقضى من زمن بعيد ،
وما أحب معك أو فيك وتعذب
قد تعلق بشيء آخر ،
الشباب هنا موجود لذاته
ومن الحمق أن أسألك فأقول :
تعالَ ، وشِخْ أنت معي .

وإذا كان زهير قد ضجر من طول العمر وسئم تكاليف الحياة بعد أن بلغ الثمانين :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

فيبدو أن هذا قد حفز جوته إلى معارضته . وتأكيد حبه واحترامه للحياة . ويكفي أن نقرأ معاً هذه الأبيات لنجد أنها تعيش في جو زهير ولبيد :

يحب أبناؤك أن يسألوك
نود لو طال بنا العمر ،
بأي درس تراك تنصحنا ؟

ليس من الفن أن تشيحا
فالفن فى الصبر والصمود .
أو حين يقول فى موضع آخر :
تركت نفسى عن طيب خاطر
أتعلم من الصالحين والحكماء
ولكننى كنت أريد الاختصار
فلست أطيق الأحاديث الطوال .
ما الذى يتوق إليه المرء فى آخر المطاف ؟
أن يعرف العالم ولا يحتقره .
أو حين يقول أخيراً فى هذا البيت :
إن كنت مثلى قد خبرت الحياة
حاول إذن مثلى حب الحياة

ويتوج هذا كله الرباعية الأخيرة من القسم الرابع من الحكم اللاذعة وهى التى تقول :

كلما كان إدراكك واضحاً وصريحاً
استطعت اليوم أن تقبل على العمل فى قوة وحرية
كما استطعت أن تأمل فى غد
لا يقل عنه سعادة وبهجة .

وهناك حكمة تكاد تلتقى التقاء تامًا مع إحدى حكم زهير عن الشيخوخة ، بحيث نستطيع أن نقول إن جوته لابد أن يكون قد فكر فيها كثيراً وهو يكتب أبياته.. وأعنى بها الحكمة التى يعبر عنها البيت المشهور لزهير :

وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله

ولكننى عن علم ما فى غد عم

وطبيعى أنّ الشاعر الحق لا يمكن أن ينقل من شاعر آخر أو يدور فى فلكه تماماً . فإذا كان جوته قد تأثر بزهير – لا فى المضمون وحده بل كذلك فى الكلمات – فقد عبر عن هذا التأثر تعبيراً يتفق مع أصالته وذاتيته . وإن جاز لنا أن نعجب للتقابل بين الحكمتين ، فلا يصح أن نفاجأ بالتعارض بينهما فى النهاية . تقول حكمة جوته ، وهى الحكمة قبل الأخيرة من القسم الرابع من مجموعة الحكم اللاذعة .

إن أسوأ ما نلقاه

نتعلمه من اليوم الذى نحياه

من رأى فى الأمس يومه

فلن يكون يومه شديد القرب منه

أما من رأى غده فى يومه

فذلك الذى ينشط ولا يهتم .

وتكرار كلمات كالأمس واليوم والغد موجود لدى الشاعرين ، بل إن الشاعر الألمانى يتفق مع الشاعر العربى اتفاقا حرفيا فى التعلم من اليوم أو العلم به ، حتى لنستطيع أن نقول إن جوته قد كتب الأبيات الأولى وهو يفكر تفكيراً واضحاً فى أبيات زهير . ولكن الشاعرين لا يلبثان أن يختلفا وتتفرق بهما السبل ، وهذا أمر طبيعى كما قلت .

فكلاهما يتعلم من الأمس واليوم ، وكلاهما يسأل عن الغد المجهول ، وكيف ينبغى أن يقف الإنسان منه والشاعر العربى يجهل كل شىء عن هذا الغد ، ويؤكد فى مرارة واستسلام أنه عن علم ما فى غد عم ، أما الشاعر الألمانى الذى عاش

حياته كلها يؤكد قيمة اللحظة الحاضرة ويمجد من يملئونها بالنشاط والعمل المثمر (وفاوست كلها تدور حول هذا المعنى) فلا يلبث أن يخالف صاحبه العربى ، فنراه يعبر من جديد عن حبه واحترامه للحياة وإيمانه بأن من ينصف الحاضر ويؤدى واجبه فيه فلن يظلمه الغد أبداً ولن يخزيه وهكذا ينتهى جوته نهاية تتفق مع تجربة حياته وروح أدبه فى حين انتهى زهير نهاية تتفق كذلك مع تجاربه وروح عصره المضطرب . . .

هنا أتوقف عن هذه الموازنة لأكرر ما سبق أن أكدته من إيمانى بسر الخلق والإبداع ، فالمقارنات والمقابلات قد تلقى الضوء على هذا الأثر الأدبى أو ذاك ، ولكنها لن تستطيع أن تكشف النقاب عن سره الدفين . وربما كانت قوة هذا السر وغموضه فى أنه يخاطبنا بوصفنا بشراً نتعذب نفس العذاب ونحس نفس المصير ، أعنى أنه يعلو فوق اختلاف القوميات واللغات وأشكال التعبير . ولو سأل سائل : ما الفائدة من المقارنات السابقة لأجبته : ليس القصد منها أن نتباهى بفضل أجدادنا على غيرنا ، فهذا شىء لا يلجأ إليه إلا المفلسون الذين ينقبون فى ماضيهم الخصيب عن شىء يبرر حاضرهم الجديب وأرجو ألا نكون قد وصلنا إلى هذا الحال . إنما القصد أن نجرب كيف تعيش الفكرة الواحدة فى ضميرين وعند شاعرين يختلف كل منهما فى ثقافته ومزاجه ولغته وجنسه . فربما نتعلم من هذا كيف ننظر إلى لحظات الخلق والإبداع نظرة الاحترام والإجلال ، كما نتعلم أن الفن الحقيقى هو الشىء الذى يستطيع أن يوحد بين البشر ، ويجمعهم على التفاهم والمحبة والإنصاف .

جوته والإسلام

وأخيراً نسأل : ما هي علاقة جوته بالإسلام ؟

والسؤال بديهي . فلا يمكن أنْ يكون الشاعر الألماني الأكبر قد عرف شيئاً عن هذا الأدب العربي دون أن يعرف شيئاً عن الإسلام أو يتخذ موقفاً منه . أضف إلى هذا أن اللغة العربية قد ،رفت بالإسلام الذي جعل منها لغة حضارية انتشرت في آفاق الأرض ، ونسخت غيرها من اللغات القديمة ، وفتحت لها ملايين العقول والأفئدة . ومستحيل أن يكون الشاعر قد اهتم بالأدب العربي دون أن يكون قد اهتم بالإسلام . وسوف أقصر كلامي هنا على جانب واحد هو مدى تأثير الدين الإسلامي في أدبه .

الحق أن صلة جوته بالإسلام ونبيه الكريم بدأت منذ شبابه المبكر وصاحبته في كهولته وشيخوخته . ونستطيع أن نقول بوجه عام إنه كان يشعر بتعاطف عميق مع

الإسلام دون سواه من الديانات غير المسيحية . فهو فى الثالثة والعشرين من عمره يؤلف أغنية تمجد الرسول وتصوره فى صورة نهر رائع متدفق ، وهو فى السبعين من عمره يعترف صراحة بأنه يفكر منذ زمن طويل أن يحتفى فى خشوع بتلك « الليلة المقدسة التى نزل فيها القرآن على النبى » وبين السنتين حياة طويلة خصبة أظهر فيها الشاعر احترامه وتقديره للإسلام بمختلف الطرق . وتجلى هذا كما قلت فى كتاب يُعد إلى جانب فاوست من أعذب وأنق أعماله ، هو الديوان الشرقى ، الذى لم يكن ممكناً أن يظهر إلى الوجود لولا صلته الحميمة بروح الإسلام التى تشيع فيه . ويكفى أن نتذكر العبارة التى كتبها فى إعلانه عن ظهور هذا الكتاب وقال فيها إنه لا يرفض أن يشاع عنه أنه مسلم . .

وليس مرجع هذه العلاقة الحميمة بالإسلام ونبيه الكريم أنه درس القرآن منذ شبابه دراسة وافية فى ترجماته اللاتينية والإنجليزية والألمانية ، بل حاول أن يتعلم اللغة العربية ويجرب الكتابة العربية . وليس مرجعه أنه تأثر بأفكار عصر التنوير وما دعت إليه من تسامح دينى ، بل لعل السبب الأكبر أنه وجد فى الإسلام من الآراء والأفكار ما يتفق مع عقيدته وفكره ومذهبه فى الحياة .

وأول ما يخطر على البال فى هذا الصدد أن اهتمامه فى شبابه بدراسة القرآن الكريم قد أوحى إليه بمشروع كتابة مأساة أو تراجيديا عن النبى . ولا شك أننا نأسف اليوم لأن هذه المأساة ظلت شذرة لم تكتمل ولم يبق منها إلا أغنية محمد التى كانت فاتحة الفصل الأول .

ومع ذلك يتضح من الأجزاء التى لدينا مدى إعجاب الشاعر بشخصية الرسول الذى رأى فيه نموذجاً للنبى الذى لم ينشر دعوته بالكلمة وحدها ، بل جاهد وتحمل الأذى فى سبيلها . ويتضح لنا هذا الحب والإعجاب بشخصية النبى

الكريم فى الأغنية المشهورة «أغنية محمد» التى كتبها وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، وكان يقصد بها فى البداية أن تكون حواراً بين على وفاطمة . وهو يصور النبي فى صورة النهر القوى المتدفق الذى يبدأ رفيقاً هادئاً ثم يصل إلى أقصى قوته وعنفوانه ويتسع ويتفرع حتى يصب أخيراً فى البحر المحيط (رمز الألوهية) . ولعل هذه الصورة — وبخاصة عند جوته الشاب المعتز بعبقريته ، المؤمن بأن له رسالة إلهية لا تقل شأناً عن رسالة الأنبياء — لعلها أن تكون تعبيراً عن الشاعر نفسه . وهذه هى الأبيات التى تتمثل فيها هذه الصورة .

ها هو ذا يجرى فى الوادى
متلألئاً بهيا ،
والأنهار الجارية فى الوهاد
والجداول الهابطة من الجبال
تهتف به صائحة : يا أخانا .
يا أخانا . خذ إخوتك معك
خذنا إلى أبيك الخالد ،
إلى المحيط الأزلى ،
الذى ينتظرنا
بذراعين مفتوحتين .
ثم تقول الأغنية بعد قليل :
خذ إخوتك من الوادى
خذ إخوتك من الجبال .
خذهم معك إلى أبيك .

إلى أن تنتهى بهذه الأبيات :

هكذا يضم إخوته

كنوزه أطفاله

إلى صدره الجياش بالفرح

ليسلمهم إلى الإله المنتظر .

هذه الصوره لا تعبر كما قلت عن شخصية النبي وحده ، بل تعبر كذلك عن شخصية الشاعر نفسه . فهو أيضاً قد عرف رسالته ، وآمن بأنه يهدى الناس على طريقته ، ويرق بإخوته من البشر إلى حياة أسمى وأرفع . والحق أن جوته لم يتخل عن هذه العقيدة طوال حياته ، فظلت شاعريته تحمل هذا الطابع الديني . أو إن شئت هذا الطابع التربوى والأخلاق ، كما ظل الملايين من الناس حتى يومنا هذا يعتبرونه معلماً وهاديا روحيا ، أعنى شاعراً بالمعنى الأرحب للكلمة . .

ولا تكشف «أغنية محمد» عن إعجاب شاعرنا بشخصية النبي فحسب ، بل تكشف كذلك عن إعجابه بركن أركان الإسلام ، وهو التوحيد . ويظهر هذا فى النشيد الذى يتغنى به محمد وحده فى بداية المسرحية ، تحت سماء ساجية متألقة بالكواكب والنجوم :

ليس فى مقدورى أن أفضى إليكم بهذا الإحساس

ليس فى مقدورى أن أشعركم بهذا الشعور .

من يصيخ السمع لضراعتى ؟

من ينظر للعين المبتهلة ؟

انظروا ها هو يسطع فى السماء ، المشترى النجم الصديق .

كن أنت سيدى . كن إلهى إنه يلوح لى فى حنان .

انتظر . انتظر . أتحول عينيك ؟
ماذا ؟ أيمكن أن أحب من يتخفى عنى ؟
مبارك أنت أيها القمر . ياهادى النجوم .
كن أنت سيدى ، كن إلهى . أنت تضىء الطريق
لا تتركى . لا تتركني فى الظلام .
أيتها الشمس ، أنت أيتها الشعلة المتوهجة التى يتبتل لها الفؤاد المشتعل .
كونى أنت إلهى . قودى خطاى . يا من تطلعين على كل شىء .
أو تأفلين أنت أيضاً ، أيتها الرائعة
إن الظلام العميق يخيم على
ارتفع أيها القلب العامر بالحب لخالقك .
كن أنت مولاى ، كن إلهى . أنت يا من تحب الخلق أجمعين
يا من خلقتنى وخلقت الشمس والقمر .
والنجوم والأرض والسماء .

هذه الأبيات تذكرنا بما جاء فى القرآن الكريم فى سورة الأنعام فى مناجاة إبراهيم لربه : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نُرِى إبراهيم مَلَكوت السمٰوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربّى فلما أفل قالَ لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربّى لأكونن من القوم الضَّالِّين . فلما رأى الشمس بازغة قال ، هذا ربى هذا أكبر ، فلما أَفَلَتْ قال ياقوم ِ إنى برىءٌ ممّا تُشرِكون . إنى وجَّهْتُ وَجْهِيَ للّذى فَطَرَ السَّمٰواتِ والأَرض حَنِيفاً وما أنا مِنَ المشركِين » . .

والغريب أن هذه السورة وجدت ضمن السور التى ترجمها جوته بنفسه عن ترجمة ماراتشى اللاتينية ، وتظهر فيها دقة الفهم وجمال الأداء وشاعريته . كما تتجلى فيها تقواه وإيمانه بالطبيعة كمظهر من مظاهر القدرة الإلهية . ولعل عقيدته التى صاحبته طوال حياته وتأثر فيها كما تعلم أبلغ التأثر بمذهب أسبينوزا فى وحدة الوجود – وهو المذهب الذى يتلخص فى هذه العبارة المشهورة « الله أو الطبيعة » – لعل هذه العقيدة هى التى قربته من الإسلام وجعلت له هذه المكانة فى قلبه . ولا يصح أن نتهمه بعد هذا بأنه خلط فى فهمه للإسلام بين وحدة الوجود – وهى شىء بعيد كل البعد عن روح الإسلام – وبين فكرة التوحيد . فربما يغفر له أنه وجد فى قراءاته للقرآن الكريم آيات كثيرة تؤيد إيمانه بأن الله يتجلى فى كل مخلوقاته على اختلاف مظاهرها . ويكفى أنه أنصف الإسلام وقدره فى وقت كان فيه المستشرقون يكادون يجمعون على الافتراء عليه ، ولم تكن الدراسات الإسلامية والعربية قد برئت بعد من التعصب ، ولا وصلت إلى درجة كافية من الحياد والإنصاف . ويكفى كذلك أن نعلم أن هذه الشذرة من مسرحيته التى لم تتم تختلف تمام الاختلاف عن مسرحية أخرى عن محمد كتبها فولتير وهاجم فيها الرسول أشد الهجوم . وإذا كان جوته قد ترجم هذه المسرحية الأخيرة وعرضها على مسرح « فيمار » فقد أثبت البحث الحديث أنه اضطر إلى ذلك تنفيذاً لرغبة صديقه وراعيه كارل أوجوست أمير فيمار .

ولعل أكثر ما أعجب جوته فى الإسلام وصادف هوى من نفسه هو هذا التسليم المطلق لمشيئة الله ، كما لاحظه فى القرآن الكريم وفى أخلاق المسلمين . وأغرب من هذا أنه عاش طوال حياته مؤمنا بهذه الروح الإسلامية التى أخطأ فهمها الغربيون ، فكانت عزاءه فى المحن والملمات . وما أكثر ما كان يقول حين تصيبه مصيبة فلا يجد

أمامها سوى الصبر والإذعان والتسليم : « ليس لدى ما أقوله سوى أننى ألجأ هنا أيضاً إلى الإسلام » . قال هذا عندما مرضت زوجة ابنه مرضاً خطيراً ، كما كتب أيضاً فى رسالة إلى إحدى صديقاته حين انتشر وباء الكوليرا من حوله فى سنة ١٨٣١ : لا يستطيع أحد أن يشير على أحد بشىء ، فليقرر كل امرئ بنفسه ما يشاء . نحن جميعاً نحيا فى الإسلام أيا كانت وسيلتنا فى التذرع بالصبر والشجاعة » .

كان من رأى جوته دائماً أن الاطمئنان والتسليم بمشيئة عالية هما الأساس المكين الذى يقوم عليه التدين الصحيح ، وهى مشيئة تدبر حياتنا وأقدارنا ، ولا نستطيع أن ندرك كنهها لأنها تسمو على أفهامنا ومداركنا . وقد تمثلت له هذه العقيدة فى الإسلام قبل أى دين آخر ، فكان هذا هو سر احترامه له واهتمامه الطويل به . ويظهر أن اقتناعه بفلسفة اسبينوزا منذ شبابه ، وإيمانه بمذهب الحتمية الذى قال به الفيلسوف الهولندى[1] ، ثم تصوره للتلاقى بين هذا المذهب وبين العقيدة الإسلامية فى هذا الصدد ، هو الذى دفعه إلى دراسة الشرق بوجه عام والإسلام بوجه خاص . ومن الطريف أن نذكر أنه أقبل على العمل فى ديوانه الشرقى على أثر مشاهدته لصلاة أقيمت فى إحدى المدارس فى مدينة فيمار . فقد مرت بالمدينة فى أوائل سنة ١٨١٤ فرقة من فرسان البشكير من رعايا الروس المسلمين كانت تتعقب جيوش نابليون المهزومة ، فأتيح له ولغيره من السكان أن يحيوهم ويشاهدوا صلاتهم عن كثب ويسمعوا آيات القرآن الكريم ترتل أمامهم وتصادف قبل ذلك بشهور معدودة أن رجع جماعة من الجنود الألمان إلى وطنهم « فيمار » بعد اشتراكهم

---

(١) انظر على سبيل المثال كتابه الأخلاق ، القسم الأول القضية ١٩ . والقسم الثانى القضية ٤٨ .

فى الحرب الإسبانية ، وكانوا يحملون معهم صفحة من مصحف مخطوط عليها سورة قل أعوذ برب الناس ، وهى آخر سورة فى القرآن . سُرَّ الشاعر أيما سرور بهذه الهدية ، وطلب من المستشرق « لورزباخ » الذى كان أستاذاً بجامعة فيينا أن يترجمها له ، بل ذهب إلى أبعد من هذا وحاول أن ينسخها بنفسه . .

كان هذا كله ، إلى جانب قراءاته المتصلة فى القرآن الكريم وعنايته بالاطلاع على سيرة الرسول مما أعانه على أن يعيش فى جو الإسلام ويألف عالمه الفكرى والروحى ، ونستطيع اليوم أن نقول إنه لولا هذه الصلة الحميمة بالإسلام ما قدر له أن يكتب ديوانه الشرقى ، ولا قدر له كذلك أن يتحرك فى هذا العالم الغريب عنه بحرية وصفاء فيجدد شاعريته وشبابه ، ويخلط الجد بالدعابة ، ويعبر عن إعجابه بحافظ الشيرازى وحنينه للشرق واحترامه للإسلام ، دون أن نسمع فى الديوان كله نغمة شاذة أو نقرأ كلمة واحدة تؤذى شعور المسلمين . ولابد أن إمعانه فى دراسة القرآن هو الذى ألهمه بعدد كبير من قصائده . ويكفى أن نقرأ هذه الأبيات الأربعة المعروفة :

لله المشرق
لله المغرب
الأرض شمالا
والأرض جنوبا
تسكن آمنة
ما بين يديه .

يكفى أن نقرأها لنتذكر هذه الآية الكريمة من سورة البقرة :

« ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثمَّ وجه الله ، إن الله واسع عليم » .

وثمة أبيات أخرى من كتاب « المغنى » من الديوان الشرقى تقوم على سورة الفاتحة ، ولعل الشاعر أن يكون قد كتبها وفى ذاكرته كذلك سورة الناس التى ذكرت وصتها :

ينازعنى الغىّ والضلال
لكنك تعرف كيف تهدينى
اهدنى أنت فى أفعالى
وفى أشعارى الصراط المستقيم

وهناك أبيات أخرى من نفس الديوان يبدو أن الشاعر قد تأثر فيها تأثراً مباشراً بهذه الآية الكريمة من سورة الأنعام أو بغيرها من الآيات المشابهة :

« وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » :

جعل لكم الكواكب والنجوم
لتهتدوا بها فى البر والبحر
لكى تنعموا بزينتها
وتنظروا دائما إلى السماء .

كل هذه القصائد تردد صوتاً واحداً . ألا وهو التسليم بالقدر الذى رسمته مشيئة الله . ولو أردنا أن نتتبع هذا الصوت فى ثنايا الديوان لطال بنا القول . ويكفى أن نشير إلى هذه الأبيات من كتاب الأمثال :

رب الخلق قد دبر كل شىء
تحدد نصيبك ، فاتبع السبيل ،
بدأ الطريق ، فأتمّ الرحلة .

أو إلى هذا البيت من كتاب التأملات على لسان جلال الدين الرومى .

إن أقمت فى العالم . فرّ كالحلم

وإن رحلت حدد القدر طريقك

فشيئة الله هى التى تحدد طريقنا وترسم حياتنا ولولا إيمان جوته بوجود قدرة عالية مدبرة للكون ولمصير الإنسان فيه . ولولا أنه وجد فى العقيدة الإسلامية ما زاد من اطمئنانه إلى هذا الإيمان وقواه فى نفسه ، لما كان من الممكن أن تشيع هذه الروح السمحة التقية فى قصائد الديوان الشرقى ويبدو أن الشاعر قد آمن أيضاً بأنه ليس من سبيل للإنسان أمام المشيئة الإلهية إلا التسليم بالقدر والاطمئنان لما يصيبه على يديه . والتذرع بالتسامح فى الفعل والقول والشعور . ولعل أروع ما قاله فى هذا الموضوع هو هذه الأبيات التى جاءت فى كتاب الأمثال (والترجمة للشاعر الكبير المرحوم الأستاذ عبد الرحمن صدقى) :

من حماقة الإنسان فى دنياه .

أن يتعصب كل منا لما يراه

وإذا الإسلام كان معناه أن لله التسليم

فإننا أجمعين . نحيا ونموت مسلمين .

ولا يجوز أن نحمل البيتين الأخيرين أكثر مما يحتملان . فالواجب يدعونا أن نفهمهما على ضوء ما سبق من الكلام عن إيمان الشاعر بمشيئة عالية ينبغى على الإنسان أن يسلم أمره إليها . وارتياحه إلى هذه العقيدة التى وافقت شخصيته وطبعه ، كما أكدت ماسبق أن اقتنع به من فلسفة أسبينوزا ، والمهم أن الشاعر الكبير قد بدا فى شيخوخته وكأنه يريد أن يغير حياته كلها ويستقبل شباباً جديداً وينفتح على عالم جديد . فها هو ذا يقتبس من القرآن الكريم ما يوافق مزاجه وشاعريته

هاهو ذا يترك هوميروس وبندار وراء ظهره ليفتح صدره لحافظ والجامى وجلال الدين الرومى وشعراء المعلقات . ويتخلى عن بروميثيوس وهيلينا وليفيجينيا لينعم بصحبة زليخا وحاتم والمجون والندامى والدراويش والمغنين ! وإذا كان من غير الجائز أن نبالغ فى هذا التحول إلى الشرق أو نفهم منه أنه يدل على تحول تام عن الغرب . فمن الواجب فى نفس الوقت أن نقرر أنه لم يسبق فى تاريخ الفكر الغربى أن وجدنا شاعرا مثل جوته يتجه بكل روحه إلى الشرق ويطلق خياله فيه بكل حريته تاركا وراءه ميراث ألفى سنة من التراث القديم والوسيط والحديث . ويزداد إعجابنا وإكبارنا لهذا الشاعر إذا عرفنا أنه لم يكن فى سن الشباب الجرىء المتهور بل فى سن الخامسة والستين عندما راح يتجول فى رحاب الشرق كأنما ولد من جديد. وخليق بنا نحن العرب أن نتذكر هذا الشاعر الجليل كما صور نفسه فى إحدى قصائد ديوانه وهو يقطع الصحارى الشاسعة فوق ظهر جواده وليس فوق رأسه إلا النجوم . ولا فى قلبه غير الحب والتسامح ، والاطمئنان والصفاء ، والإيمان برسالة الأدب فى توحيد بنى الإنسان على التآخى والسلام .

قصة الديوان الشرقى

كثيرة هى الكتب التى نقرؤها ونادرة هى الكتب التى نعيش معها . والديوان الشرقى هو أحد هذه الكتب التى تصحبنا فى رحلة العمر . نرجع إليه بين الحين والحين لنستمد منه العزاء والإيمان . ونتهل منه الحكمة والحب . ونجد فى أشعاره النقية وألحانه العذبة من الصفاء والمرح والجمال ما يرد إلينا الانسجام المفقود فى عالمنا اليومى المزدحم بالقبح والفوضى والأنانية والصغار[1] . ثم إنه – بجانب فاوست – أهم ما أبدع هذا الشاعر الحكيم وأصدقه تعبيراً عن قلبه الرقيق وفكره العميق

---

(١) فالشعر يستطيع دائماً أن ينقذنا وقد كان رأيى – ولا يزال – أنه يساعدنا على التغلب على الظلام والاضطراب فى أنفسنا وفى علاقتنا بالعالم . ليتنا نحيى أسواق الشعر العربى القديمة فى كل مدينة وقرية ، وليت الأمم المتحدة تحول بعض مؤتمراتها المملة إلى أعياد للشعر والفن تستعيد فيها البشرية – ولو لساعات ! – سلامها المفقود .

وتجربته الغنية بالحياة وربما كنا - نحن القراء في الشرق - أحق بهذا الديوان من قرائه الغربيين وأقدر منهم على تذوقه وإنصافه . والإحساس بصوره ورموزه وإشاراته . فكم من قصيدة تهب علينا منها أنفاس الصحراء العربية . أو تستوحي روح الإسلام وعالمه السمح . وكم من بيت يخفي وراءه آية قرآنية أو يوشك أن يكون تعبيراً أمينا عن معناها . وكم من حكاية أو نادرة مستوحاة من حياة النبي الكريم وأولياء الله الصالحين أو الشهداء المجاهدين في سبيله . وكم من اسم يتردد من شعراء العرب والفرس الذين نعرفهم أو على الأقل نسمع عنهم ونألف صورهم وأحيلتهم ولا حد منعه في التعاطف معهم والابتسام لدعاباتهم ومشاركتهم في حبهم وشوهم وعنائهم . لن نتصور هذا كله كما قد يتصوره القارئ الغربي - مجرد تلاعب ذكي بأقنعة شرقية يتوارى خلفها شاعر عجوز ليعكس علينا لواعج حبه المشبوب لفتاة في عمر أبنائه ! بل سيزداد عجبنا وإعجابنا بهذا الشاعر الذي يستقبل «النور الطالع من الشرق» . ويجدد شبابه وشاعريته فينطلق فوق جواده «ولا شيء فوقه إلا النجوم» ليسافر مع القوافل ويحضر مجالس الشراب في الحانات . ويخالط الندامى والعشاق والدراويش . ويغني بلسان حافظ والمجنون وهدهد سليمان وحوريات الفردوس . ويقيم جسراً من الحب والعرفان والتسامح بين الشرق والغرب الذي ظل شعراؤه قرونا طويلة يتغنون بآلهة الأوليمب ويلهثون في آثار هوميروس وبندار دون أن يحفلوا بروح الشرق أو يحاولوا طرق أبوابه الموصدة . .

لم يسبق لشاعر غربي قبل جوته أن فتح هذه الأبواب لينفذ إلى عالم الشرق الفسيح . ويتجول بين شعوبه وحضاراته المختلفة على مر العصور . ويسافر في بحاره ومدنه وصحاريه . ويفتح قلبه وعينيه على كتبه وأسراره ويدير في النهاية هذا الحوار

التنائق بين القارات والقرون والأديان والعادات . .

ومع ذلك – وهذه هي معجزة الاستلهام الأصيل ! – لم يضيع الشاعر نفسه في الغربة . ولم ينس ذاته في الفيافي ومضارب الخيام ! لقد سجل يوميات رحلته الشرقية شعراً في هذا الديوان . ولكنه بقي ديوان شاعر غربي تتغنى قصائده الخالدة بالمدن والحانات التي زارها . والخمور التي داقها . ونعمة الحب أو مرارة الهجر والجحود التي جربها . وكما تدل كلمة الديوان الفارسية الأصل على الجمع أو المجموع ، كذلك تؤلف أشعار الديوان بين الشرق والغرب ، والعام والخاص ، وأقدار الطغاة الجبابرة والشعوب والحضارات الغاربة ، كأنها مرايا تعكس هذا الحوار العابث الجاد في اثني عشر كتاباً أشبه باثني عشر وتراً تتوافق لعزف لحن واحد ينبعث من آلة واحدة[1] . ولهذا لم يخطئ بعض النقاد عندما وصفوا الديوان بأنه سيمفونية شعرية ترتبط فيها البداية بالنهاية ، ويظهر اللحن ليختفي ثم يتكرر ظهوره ، أو عندما شبهه الشاعر نفسه بسجادة فارسية تتشابك فيها القصائد كما تتشابك الخيوط . وتستغرق الأجزاء في الكل كما يشتمل الكل على الأجزاء . . .

* * *

ما هي قصة هذا الديوان ؟ متى بدأ جوته في كتابته ؟ ما الذي حرك قلبه ومد يده إلى أساطير الشرق وأغانيه وصوره وحكاياته للتعبير عن أشواقه وآلامه ؟ متى بدأت تجربة لقائه مع الشرق وما هي البحوث التي اعتمد عليها والترجمات التي قرأها واستوحاها ؟ ثم ما هي موضوعات هذا الديوان وكيف استقبله الناس ؟ لندر قليلا مع عجلة التاريخ قبل أن نتوقف معا عند القصائد التي اخترتها لك . .

(١) وهي على الترتيب كتب المغني ، وحافظ ، والعشق ، والتفكير ، والضيق ، والحكمة ، وتيمور ، وزليخا ، والساقي ، والأمثال ، والفرس القدماء ، والخلد .

أعلن جوته عن «الديوان الشرقى للمؤلف الغربى» لأول مرة فى «صحيفة الصباح» سنة ١٨١٦ ، وذلك لتعريف القراء بكتبه وموضوعاته . وكان العنوان الأصلى الذى وضعه له هو : «الديوان الغربى – الشرقى أو مجموعة قصائد ألمانية تتصل اتصالا مستمرًّا بالشرق» وكان قد اطلع قبل ذلك بسنتين على ديوان حافظ الشيرازى فى ترجمة المستشرق النمسوى «يوسف فون هامربور جشتال» ولا شك أن الأمر لم يكن مجرد «اطلاع» على مجموعة من الشعر الفارسى ، إنما كان لقاء حقيقياً بدأ مرحلة حاسمة فى حياته وإنتاجه تفتحت فى ظلها زهرات هذه القصائد النادرة التى تعد أخلد تعبير عن تجربة اللقاء بين الغرب والشرق . ولعلها لو تمت قبل ذلك أو بعده لما أثرت عليه كل هذا التأثير ، فقد صادفت فيه وجداناً متوهجاً بالشباب والحب وبهجة الخلق والإبداع ، وعقلا صافياً صقلته حكمة الشيخوخة وتجاربها ، وكياناً مهيأً لتقبل المزيج المدهش من العاطفة والعقل الذى وجده فى الشعر الشرقى .

لم يكن عالم الشرق فى يوم من الأيام غريباً عليه ، صحيح أن منابع التراث الإغريقى والرومانى ظلت دائماً مصدر وحيه وثقافته . ولكن جداول الشرق لم تنقطع أبداً عن جذب عينيه إلى بريقها وغموضها . ونحن نعرف أن هردر[1] وجهه إلى قراءة الكتاب المقدس بوصفه تاريخاً حضارياً للشرق القديم ، كما نبهه ونبه أمته بوجه عام إلى الآداب الشرقية وأغانيها الشعبية الأصيلة ، بفضل ترجماته العديدة عن الآداب الفارسية والهندية والصينية ، ورؤيته الحضارية الشاملة التى تضم مختلف العصور والشعوب ، وتصور تاريخ البشرية فى وحدة عضوية حية نامية .

---

(١) (١٧٤٤ – ١٨٠٣) ، وهو الأديب المفكر وفيلسوف التاريخ وباعث الحركة الأدبية التى تعرف بحركة العصف والدفع ومترجم الشعر الشرقى الذى دعى جوته وأثر عليه أكبر الأثر عندما التقى به سنة ١٧٧٠ وهو لا يزال يطلب العلم فى مدينة شتراسبورج .

وكان هردر يعرف حافظ الشيرازى . كما ترجم بعض قصائد سعدى ، وتابع أعمال المستشرقين واهتم بالأغنية الشعبية و « أصوات الشعوب فى أغانيها » وضم هذه العناصر كلها إلى الصورة الرحبة التى قدمها عن تاريخ البشرية فى كتابه المشهور « أفكار عن فلسفة تاريخ البشرية » وعكف جوته فى أثناء دراسته فى شترا سبورج على ترجمة أجزاء من نشيد الانشاد ، واهتم منذ سنة ١٧٧٣ بالحضارة العربية والاطلاع على ترجمات القرآن الكريم وسيرة الرسول لإعداد مسرحية عنه كانت تشغله فى ذلك الوقت كما أسلفنا القول . ولم يتمكن من إتمامها وقام سنة ١٧٨٣ بترجمة أبيات من الشعر الجاهلى استعان فيها - كما ذكرنا - بترجمات المستشرق الإنجليزى وليم جونز ، كما كتب فى سنة ١٧٩٧ بحثاً عن « إسرائيل فى الصحراء » ضمه بعد ذلك إلى تعليقاته على الديوان وحاول أن يثبت فيه أن رحلة بنى إسرائيل فى الصحراء بعد خروجهم من مصر لم تستغرق أكثر من سنتين وأن خرافة التيه لمدة أربعين سنة قد اخترعها اليهود فى وقت متأخر . وظل منذ شبابه يضع الشرق نصب عينيه ، فهو يقرأ مذكرات الرحالة بكل الشوق والإعجاب ، ويتابع جهود المستشرقين - الذين كان بعضهم من أعز أصدقائه - فى اللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية واللاتينية ، حتى استحق فى النهاية أن يستشار فى شغل كرسى الآداب الشرقية فى جامعة يينا ، وقد كانت كعبة الأدب والفلسفة فى ذلك الحين !

كان سعدى الشيرازى[1] مؤلف « جلستان » و « بستان » هو أول من عرفه الأدب الألمانى من شعراء الفرس العظام الذين ازدهروا من القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر فقد ترجم له آدم اولياريوس[2] كما نقل هردر بعض قصائده

(١) ولد حوالى سنة ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م وتوفى سنة ٦٩١ هـ - ١٢٩١ م .

(٢) من حوالى ١٥٩٩ إلى ١٦٧١ أديب من عصر الباروك ، عمل مع البعثة الدبلوماسية =

وأمثاله . ثم ظهرت ترجمة حافظ الشيرازي (توفي سنة ١٣٨٩م) التي أشرنا إليها سنة ١٨١٢ واطلع عليها جوته فأخذته الدهشة والإعجاب «بتوأم روحه» فها هو ذا يجد نفسه في شاعر قديم نشأ في ظل حضارة أخرى : نفس البهجة بالحياة ، والحب لهذا العالم ، واستغراق العين في صور الكون وألوانه وأشكاله ، ورؤية الأبدي الخالد منعكساً في كل ما هو أرضي ، والشوق الديني الغامر ، والحب الصوفي الذي ينبت أجنحة للمحدود فيسمو للامحدود ، وقصائد الحب والخمر ، والبلبل والوردة ، تشتعل بنار العاطفة وفي نفس الوقت تصفيها أنوار العقل ، لا بل تلعب معها وتداعبها . لا مادة هنا ولا دوافع مظلمة ، بل يتنفس عطر الروح . كم يشبهه هذا الصوفي المبتهج بأفراح العالم وأعاجيبه ، وكم سبح مثله في تيار حضارة غنية سعيدة ، وكم هاجمه المتشددون من رجال الدين فرد عليهم في حدة وترفع . ثم جاء عصر العسف والطغيان – مع جراد تيمورلنك ! – فغير العالم دون أن يغيره . أوجه شبه عدة : هنا الحياة الرخية في إمارة صغيرة في ظل الأمير كارل أوجست الذي أحبه كصديق وتوج جبينه بإكليل أرباب الأوليمب ، وهناك الحظوة والهناء في ظل أسرة مظفر . هنا المحنة العابرة تحت نير جيوش طاغية العصر الحديث نابليون ، وهناك المحنة الرهيبة تحت سنابك خيول تيمور ونيرانه ودماره ، ثم قبل كل شيء هذا التوافق في الرؤية والمضمون والمزج بين الموضوعية والرمز . وهنا وهناك قصائد تبدو في ظاهرها غزليات فاضحة تتعبد حسن زليخا أو مريانة في محراب الحب ، لكنها قد تكون كذلك صوراً للحب الإلهي . فالخمر هي الخمر ، وهي نشوة المتصوف بالمحبوب الأسمى . أهي هذا أم ذاك ؟ هي الأمران معاً : حس

= التي أرسلها أمير هولشتين - جوتورب إلى إيران من سنة ١٦٣٥ إلى سنة ١٦٣٩ واشتهر برحلته إلى الشرق وبترجمته لجلستان سعدي .

وروح ، أرض وسماء ، كون وإله ، جسد وتصوف . العالم ينكشف لنوز الروح . يعلن عن أعماقه . لكن عالمه يظل غريباً على الفريقين : على المتزمتين ذوى الأفق الضيق ، وعلى الغائبين فى المواجد والأشواق . .

أولا يصدق هذا أيضاً على شاعر الغرب ؟ ألم يكن العالم عنده سراً مقدساً مكشوفاً ، فالأبدى الواحد يتكشف له فى مختلف الأشكال . والشاعر الأرضى لم يوجد إلا لكى يندهش به ؟ ألم يكن العالم عنده «انعكاس اللامتناهى» رمزاً لله » ؟ ألم يقل مرة (فى بحثه عن نظرية الطقس والأنواء) إن الحق – وهو الألوهية نفسها – لا يمكننا من معرفته مباشرة ، وإنما نعاينه ونراه فى الانعكاس ، والمثل ، والرمز . ألم يكن مثله يملك القدرة على الرؤية الصوفية التى ترى المحدود بعين اللامحدود ، ويملك مع ذلك الوعى بحدوده البشرية التى تعبر عن نفسها فى حرية الدعابة والتهكم ؟ استمع إليه وهو يتحدث فى تعليقاته على ديوانه الشرقى [1] فيقول عن قصائد حافظ [2] : «لن نقول إلا القليل عن هذه الأشعار ، إذ لا بد أن يتذوقها القارئ ويتناغم معها . إن الحيوية المتدفقة المعتدلة تنساب منها . كان (حافظ) يعيش قانعاً راضياً مبتهج الطبع حكيماً ، يشارك بنصيبه فى خيرات العالم الوفيرة ، ويتطلع من بعيد إلى أسرار الألوهية ، منصرفاً فى نفس الوقت عن أداء الشعائر الدينية وعن لذات الحس . وإذا كان يبدو فى الظاهر أن هذا الفن الشعرى يعظ ويعلم ، فإنه يحتفظ بالضرورة بنوع من مرونة التشكك وحريته » .

وفى موضع آخر من تعليقاته يقول إن الطابع الأسمى للشعر الشرقى هو ما نسميه

(١) انظر تعليقات جوته وبحوثه الملحقة بالديوان الشرقى ، طبعة بويتلر ، ص ١٨٧ – ١٨٨ .

(٢) أى حافظ القرآن الكريم الذى قال عن نفسه . لقد حققت بالقرآن كل ما بلغت إليه .

نحن الألمان بالروح . ذلك المبدأ الذى يوجه الإنسان ويهديه وتنتمى الروح بوجه خاص للشيخوخة أو لعصر كونى تثقله أعباؤها . وأهم ما تتسم به هو النظرة المحيطة بالكون ، والدعابة والاستخدام الحر للمواهب ، وكلها خصائص مشتركة بين شعراء الشرق . ولا يصح أن نسيء فهم عبارة ما «نسميه نحن الألمان بالروح» — فالشاعر لا يقصد بها «الروح المطلق» بالمعنى الميتافيزيقى الذى أشاعته الفلسفة المثالية الألمانية وبخاصة عند هيجل ، وإنما يقصد ما يفهمه هو نفسه من الروح فهى تعبر عن شخصيته أتم تعبير حين تدل على الوعى الذى يجعله لا يفزع من شيء مخيف ، والمرح الذى يحركه للتعبير عن كل شيء فى صورة مبهجة . ثم إن الروح تصور مهمة الشاعر فى هذه العبارات «الكلاسيكية» التى تعبر عن رؤيته الفنية أفضل تعبير : «إن تفكير الشاعر يتعلق فى الحقيقة بالشكل . أما المادة فيعطيها له العالم فيجزل العطاء . وأما المضمون فيصدر صدوراً حراً عن ثروة وجدانه الباطن ، ويلتقى الاثنان لقاء غير واع ، بحيث لا يدرى الإنسان فى النهاية لمن يعود الفضل فى هذه الثروة . غير أن الشكل ، وإن كان يكمن فى العبقرية بوجه خاص ، يريد أن يُعرف ويُتأمل ، وهنا تظهر الحاجة إلى التدبر والتفكير لكى يتلاءم الشكل والمادة والمضمون ، وتتناغم مع بعضها ، وتنفذ بعضها فى بعض !

لا شك أن خصوبة شعراء الفرس وتنوعهم الذى يتدفق من رحابة العالم الخارجى وثروته التى لا حد لها هو الذى جذبه إلى قراءتهم والإعجاب بهم . فهو يشيد بعنايتهم بالتفاصيل ، ونظرتهم النافذة المحبة التى تستخلص من كل شيء أهم خصائصه ، وتصور الكائنات الطبيعية الساكنة فى صور شعرية يمكن أن توضع بجانب الصور واللوحات التى أبدعها الرسامون الهولنديون ، بل ربما تفوقت عليهما بسموها المعنوى . إنهم لايسأمون تكرار الموضوعات الأثيرة لديهم ، ولا يمل الواحد

منهم تصوير نور المصباح الباهر وضوء الشمعة الساكن ، حتى أن الأشياء الطبيعية تصبح عندهم بديلاً للأساطير ، كما تحتل الوردة والبلبل مكان أبوللو ودافنة عند الإغريق . وإذا تذكرنا أنهم لم يعرفوا المسرح ولا فن النحت ، فإن موهبتهم الشعرية لم تكن أقل من أية موهبة عرفها التاريخ ، وكل من يأنس عالمهم الخاص لابد أن يزداد إعجاباً بهم .

لم يكن غريبا على « هوميروس العصر الحديث » أن تلتقط عينه المبصرة – كعين النسر الإلهى – هذه السمات المميزة للشعر الشرقى . ولكن يبدو أن « المغنطيس » الحقيق الذى جذبه إليهم وهو على أعتاب الشيخوخة وهو صوفيتهم التى وصفها بأنها صوفية أرضية أو دنيوية . لقد كانت جديرة بأن تلمس وجدانه ، وأن يحس روحها الجادة العميقة ، ويشعر بقربها من تفكيره وإنتاجه بعد أن بلغ الخامسة والستين من عمره ووصفه للأسلوب الذى عبر به هؤلاء الشعراء عن روحهم الصوفية بحيث لايكلف الشاعر منهم شيئاً أن يحلق بنا إلى السماء ثم يهوى بنا إلى الأرض أو العكس ، وقيامه على التوحيد بالله والتسليم بمشيئته – وهذا فى رأيه هو القانون الأعلى الذى يحكم شئون السياسة والأخلاق والدين فى الشرق – كل هذا كان خليقاً أن يحركه إلى كتابة قصائد ديوانه وأن تدفعه بعد نشره فى سنة ١٨١٩ إلى كتابة قصائد أخرى تدور فى فلكه الروحى . ها هوذا يحدد فى رسالة إلى صديقه تسلتر[1] أوجه التلاقى بينه وبين شعراء الشرق فيقول : « إن الدين الإسلامى بما فيه من أساطير وأخلاق يتيح لى أن أكتب شعراً يوافق سنى . فالتسليم المطلق بإرادة الله الخافية علينا ، والنظرة المرحة المحيطة بالحياة الأرضية التى تبدأ وتعود على الدوام فى صورة دائرية يستخفها اللعب . والحب والميل اللذان يرفان بين عالمين ، والواقع

---

(١) فى الحادى عشر من شهر مايو سنة ١٨٢٠ .

الذى يصنَّى ويحل فى الرمز – ما الذى يريده الجد العجوز أكثر من هذا ؟ ! »

هذه العبارات التى يمتزج فيها الحد بالدعابة تذكرنا بأسلوب شعره فى الديوان . بالبعد عن الانفعال ، بالجدية العميقة التى يتخللها المرح المكشوف ، بالتهكم على النفس و «مرونة التشكك» ، «بالروح التى ذكرها بنفسه فى أثناء حديثه السابق عن شعراء الشرق ، أو التى عبر عنها فى إحدى قصائد الديوان من كتاب زليخا : «لأن الحياة هى الحب . وحياة الحياة هى الروح . » — لهذا أمكنه أن يقول عن قصائد ديوانه فى تعريف القراء بها إن بعضها لا يتنكر للنزعة الحسية ، ولكن بعضها الآخر يمكن أن يؤول تأويلا روحيًّا ، فالإنسان الغنى بالروح يتأمل كل ما يقدمه للحواس كنوع من التنكر الذى تختفى وراءه حياة روحية أسمى على نحو مضحك عجيب ، وذلك لكى يجذبنا إلى مناطق أكثر نبلا .

* * *

كيف استطاع هذا الشاعر الغربى أن يتذوق الشعر الشرقى ؟ ألم يجد فيه شيئا غريباً عليه أو منفراً له ؟ هل أمكنه أن يوفق بين صوره الغريبة واعتماده إلى حد كبير على القافية والإيقاع فى توليد هذه الصور وبين القيم المألوفة فى شعره ؟ هل افتقد فيه التجربة والوحدة والنظام الذى عرفه فى تراثه ؟ وما الذى أعجبه فيه أو صدمه منه ؟

كان الشعر عند المصريين القدماء وعند أول شاعرة غنائية فى التراث الغربى مثل « سافو » أو عند شاعر رومانى مثل «كاتول » ، بل عند الألمان أنفسهم منذ عهد جوته نفسه هو شعر التجربة . فالقلب يعترف للقلب . والشعر العربى والفارسى لا يخلوان بطبيعة الحال من التجربة ولكن الإيقاع والقافية التى تستدعى قافية أخرى ظلت تحددهما إلى حد كبير حتى حاول المجددون فى أيامنا أن يتحرروا من العمود ووحدة القافية بالإضافة إلى محاولات أقدم فى الشعر الشعبى والزجل والموشح

والتصورات والأفكار التي تضمنها في عهوده الأولى نشأت في دائرة الوجود الذى لم تعقده الثقافة العقلية ولهذا كان الإيمان رحباً واسعاً – كما تقول قصيدة الهجرة التي يبدأ بها الديوان – وكانت للكلمة أهميتها القصوى لأنها كانت كلمة فاهت بها الشفاه . ولعل هذا هو الذى جعل جوته يقول إن اللغة العربية كانت فى ذاتها ولذاتها لغة منتجة أو خلاقة ، فهى خطابية بليغة بقدر ما تستجيب للفكرة ، وهى شاعرية بقدر ما تلائم ملكة التخيل . ولابد أنه كان يفكر عندما قال هذا فى الصيغة السحرية التي نبع منها كل شعر ، كما تصور أن هذا السحر كان لا يزال يؤثر على الشاعر الشرقى بحيث أصبح نطق الكلمة نفسه فعلا من أفعال الخلق والوجود . ولهذا راح يؤكد أن لغته تعتمد على الجرس والإيقاع ، مما يضعف علاقتها بنظام الواقع أو يلغيها ، كما أن القافية تقوم بدور كبير فى بعث الصور وتسلسلها أو تضادها ، مما يحير القارئ الغربى ويخالف ذوقه ، وينفره فى بعض الأحيان من الصنعة والتكلف .

غير أنه إذا كان من الطبيعى أن يجد جوته فى الشعر الشرقى بعض الغرائب والمفارقات التي تخالف ذوقه وذوق قرائه ، فإننا نراه يبذل كل جهده للاعتذار عنه ومحاولة تجربته فى ظل الظروف والضرورات التاريخية التي نشأ فيها . ولم يكن من قبيل المصادفة أن يضع هذه الأبيات فى مقدمة تعليقاته على الديوان ، وكأنها شعار ينبئ عن تسامحه ونزاهة حكمه وسعة أفقه وبعده عن التعالى والغرور :

من أراد أن يفهم الشعر .
فليذهب إلى بلد الشعر .
من أراد أن يفهم الشاعر ،
فليذهب إلى بلد الشاعر .

ولم يقدر لجوته أن يذهب إلى شعراء الشرق فى بلادهم ، ولا أن يقرأهم فى لغتهم ، ولكنه التقى بهم فيما تيسر له من ترجمات فى لغته أو فى لغات أوربية أخرى ، على الرغم من استحالة ترجمة الشعر التى تقضى على روحه وجسده جميعا ولا تبقى منه - مهما تكن موهبة المترجم - إلا على ظل من ظل وانعكاس الانعكاس ! ها هو ذا يتحدث عن « أنورى » شاعر المديح الأكبر عند الفرس [1] فيقول إننا لن ننصفه إذا جعلنا من الظروف التى عاش فى ظلها وعبر فيها عن موهبته جريمة تحسب عليه . وهل كان ينبغى أن نطلب منه أن يتولى وظيفة عامل رصف للشوارع ، على ما فى هذه الوظيفة من نفع كبير ؟ ! كما يقول عن جلال الدين الرومى (توفى سنة ١٢٦٢ م) بعد عرض قصير لشعره الصوفى : لا يصح أن نأخذ على هذا الروح العظيم أنه اتجه إلى الإغراب والألغاز . أما عن حافظ فهو يفسر التناقض بين وظيفته الدينية وبين شعره المفعم بالبهجة بأن الشاعر فى الشرق كان يمكنه فى نفس الوقت أن يكون راوية للحكايات ، ولم يكن من الضرورى أن يفكر فى كل ما يعبر عنه ولا أن يحياه بنفسه ! .

مهما يكن من نفوره من الصنعة الشكلية فقد انجذب إلى شكل القصيدة الغزلية التى أسرف الشاعر المستشرق ركرت (١٧٨٨ - ١٨٦٦) والشاعر الرومانتيكى فون بلاتن (١٧٩٦ - ١٨٣٥) كما أسلفنا القول - فى محاكاتها وتقليد أوزانها وقوافيها ! فنحن نجد فى الديوان الشرقى غزليتين جميلتين ، تكرر إحداهما (وهى بعنوان الرضا الأسمى فى كتاب التفكير) كلمة يوجد فى آخر كل بيت وبيت ، كما تكرر الأخرى (وهى من كتاب الساقى) كلمة السكر . ومن يقرأ القصيدتين يحس بنبض التجربة الصادقة التى تطبع شعره ، إذ لم يكن مجرد مقلد لهذا الفن الشعرى

---

(١) توفى حوالى سنة ٥٨٥ - ٥٨٧ هـ . ١١٨٩ - ١١٩١ م .

كما فعل مواطناه السابقان .

وإذا كانت مثل هذه المحاولات أقرب إلى اللعب والتسلى بإظهار البراعة فى الشكل ، فالمؤكد أن مضمون شعر حافظ الشيرازى هو الذى أثر عليه أكبر الأثر . لقد وجد لديه نفس الموضوعات التى كانت تشغله ، واستوحى شعره على طريقة بعض شعراء العصر الوسيط الذين كان يحلو لهم أن يتناولوا قصائد الحب والقصائد الشعبية المعروفة فيبدلوا كلماتها « الدنيوية » بكلمات روحية أو صوفية مع الإبقاء على شكلها ووزنها . ولو قارنا بين بعض قصائد الديوان الشرقى وبين أشعار حافظ لوجدنا أوجه شبه مذهلة فى المعنى والصورة والرمز . وإن لم يمنعه هذا التقارب الشديد من المحافظة على شخصيته وأصالته فقصيدة «حنين مبارك» التى تُعدُّ من أهم قصائد الديوان بل من أهم قصائده على الإطلاق مستوحاة من قصيدة مشابهة وردت فى ديوان حافظ (فى حرف الصاد ، الغزلية الأولى) وتقول أبياتها التى أحاول أن أنقل إليك معناها : « روحى كالشمعة تحترق بنيران الحب . بالحس الطاهر ضحيت بجسمى . بنقاء القلب . وإذا لم تصبح كفراش يشتعل بنيران الوجد ، فمحال أن تنجو أبداً من هم الحب . . هل يدرى العامة ياحافظ ماثمن اللؤلو ؟ حاذر ياحافظ أن تعطى جوهرتك إلا لمريد »[1] .

ويكفى أن تقرأ قصيدة « الحنين المبارك » فى هذه المجموعة المختارة لترى أن القصيدتين متقاربتان ومتباعدتان فى آن واحد . . والواقع أن هذه القصيدة هى درة أشعار الديوان ومرآة مراياه ، فهى توحد بين الطريق إلى الحب – بالتضحية والفداء – والطريق إلى الله بالفناء فى ذاته فناء الفراشة فى نور الشمعة وهى كذلك

(١) هل يدرى العوام ما قيمة الدر الكريم ؟ كلا ، لا تعط الجواهر إلا للعالمين ! . بدوى ص ٩١ .

توجه أبصارنا – وكأنها واسطة العقد – إلى كتابي العشق وزليخا من ناحية ، وكتابي الفرس القدماء والخلد من ناحية أخرى ، ففي الحب تدين ، وفي التدين حب . .

ويمكن أن نقدم مثلا آخر على هذا الاستلهام الأصيل لشعراء الفرس فقد قرأ جوته في الجزء الثاني من كتاب المستشرق فون دييز (تذكارات أسيوية) هذه القصيدة للشاعر التركي نشاني [1] « عندما كنت مبتدئاً في فن الحب قرأت بعناية عدة فصول ، من كتاب مملوء بمتون الأحزان وفقرات الهجران ، وقد أوجز فصول الوفاق ، وأسهب في شرح هموم الفراق ، آه يا نظامي ! في النهاية هداك إلى الدرب الصحيح معلم الحب ، والأسئلة التي لا حل لها لن يجيب عليها إلا حبيب القلب » . .

ولو قرأت قصيدة « كتاب مطالعة » [2] من المجموعة التالية للاحظت القرب الشديد بينهما ، ولما غاب عنك أيضا أن الأخيرة شيء جديد مختلف الروح والإيقاع (ولو شاء حظك أن تقرأهما في لغتهما الأصلية لكانت الملاحظة أدق ، لكن لا حيلة لي أو لك في هذا !) ولسنا نقلل من تأثير النماذج العديدة التي اهتدى بها الشاعر ، وإنما نقصد أنها نبهت مادة الإحساس التي كانت راقدة في وجدانه دون أن تعثر على الشكل الملائم . وكأنما أزاحت السدود فتدفق التيار وشق مجراه وقد كانت اليد المباركة التي أزاحتها هي يد حافظ ، فاندفع شقيق روحه الغربي في طريقه دون حاجة إلى تقليد , ,

نشأ الديوان الشرقي أيام الكفاح في سبيل التحرر من قبضة نابليون وطغيانه

---

(١) وقد عاش في عهد سليمان الأول (١٥١٩ – ١٥٦٦ م) وخلط جوته في التعليقات وفي القصيدة نفسها بينه وبين الشاعر الفارسي نظامي .

(٢) وهي من كتاب المغني ، وتجدها تحت رقم ٧ في ترتيب القصائد المختارة (ص ٨٠) .

وكان جوته يعلم أن عدداً كبيراً من قرائه سيكون من الشباب الذين تطوعوا تحت لواء « فون لتسوف » وفى صفوف « فرسان فيار » لمطاردة جيوش نابليون الغازية (وقد انهزم هزيمة نهائية على يد الحلفاء الأوربيين فى معركة ليبزج سنة ١٨١٣) وعندما كان يجمع مادة تعليقاته وبحوثه عن الديوان – وكان ذلك سنة ١٨١٧ – كان هؤلاء الشبان يتظاهرون ويتصايحون حول قلعة فارتبورج المشهورة ويهتفون بسقوط الملوك والأمراء والنبلاء ! هل يمكن فى هذا الجو العاصف أن يحدثهم عن الساسانيين والخلفاء والبرامكة ؟ وكيف يستقبلون كلامه عن استبداد الحكام والسلاطين فى الشرق ونفاق المداحين من شعراء البلاط ؟ وهل يتورع أحد عندئذ عن اتهامه بالبعد عن الشعب والتعالى عليه كما حدث له بالفعل قبل ذلك وبعده ؟

إن هذا كله لم يمنعه من أن يفرد فقرة من « تعليقاته » عن استبداد الحكام فى الشرق وشعر المديح الذى يلازمه ولا ينفصل عنه . وهو فى هذه الفقرة يعرض الاتهام لكى يرد عليه بعد ذلك بدفاع مستفيض فالحاكم الشرقى مدع مغرور ، يضع نفسه على رأس الأدعياء . الجميع خاضعون له ، وهو سيد نفسه لا يقبل من أحد أمراً ، بل إن إرادته لتخلق بقية العالم ، بحيث يسعه أن يشبه نفسه بالشمس أو الكون كله . . والغريب أنه يختار شريكاً فى الحكم يشد أزره ويدعم عرشه . وليس هذا الشريك إلا شاعره الذى يرفعه شعره فوق جميع الفانين . ! وإذا اجتمع فى البلاط عدد آخر من أصحاب المواهب الشعرية عين عليهم « أمير الشعراء » وقربه إليه . وقد يشتد الغرور بهذا الأمير فيظن نفسه قرين الحاكم والسلطان ، وربما أطبق عليه جنون الغضب أو اليأس إذا خاب أمله وأخفق رجاؤه فى الحكام (كالفردوسى والمتنبى !) هذا الادعاء والتسلط يهبط من أعلى درجات العرش حتى يبلغ الدرويش المسكين القابع فى زاوية شارع حقير (وهى نفس

ملاحظة الكواكبي فى طبائع الاستبداد ، إذ يجرف الطغيان كل شيء من المستبد الأعلى حتى الشرطى فى الطريق !) ولعل هذا هو الذى جعل جوته (فى تقديمه لكتاب زليخا أحد كتب الديوان) يفضل لنفسه أن يكون درويشاً قانعا مكتفيا بنفسه ، لأن الشحاذ الحقيق ملك حر ، ولأنه لا يملك شيئاً ومع ذلك يمكنه بالفكر والخيال أن يوزع الممالك والكنوز ويسخر ممن كان يملكها حقًّا ثم ضيعها ! ولهذا نراه يتطوع بتقمص شخصية الدرويش الفقير فى هذا الكتاب لكى يظهر فى كبريائه أمام الحبيبة التى تبادله حبًّا بحب ! ولابد أن شاعرنا كتب هذه الفقرة عن الاستبداد الشرقى العريق وفى ضميره ذكرى رعب الإغريق من جيوش الفرس الجرارة التى كانت تدمر مدنهم ومعابدهم بلا رحمة ، وسخريتهم من طغيان حكامهم الذين يضعون أنفسهم فى مكان الآلهة ، وعبودية محكوميهم الذين ينافقونهم نفاق الكلاب . ولهذا كان الإغريقى يعتز بحريته فى وجه كل غريب غير إغريقى – أو بربرى كما كانوا يسمونه ! – مهما يكن شأنه (وقصة الحكماء اليونان السبعة وعلى رأسهم المشرع صولون مع قارون أوكرويزوس ملك الليديين أشهر من أن تروى – فقد أبى صولون حتى أن يصفه بأنه سعيد على الرغم من كنوزه التى جعلته أغنى أغنياء زمانه ، إذ كيف يمكن لغير الحر أن يكون سعيداً ؟ !) ولعله أيضاً كان يفكر فيما كتبه معاصره هيجل عن جدل السيد والعبد فى ظاهريات الروح أو فى محاضراته عن فلسفة التاريخ .

مهما يكن من شيء فإنه لا يلبث أن يرد على الاتهام بدفاع متسامح بليغ وهو يقدم هذا الدفاع على لسان « رجلين متزنين » . . أحدهما عالم إنجليزى والآخر ناقد ألمانى . . ولم يتوصل الباحثون إلى اليوم إلى معرفة شخصيتهما ، ولعل الأرجح أن يكونا قناعين وضعهما الشاعر نفسه كما يدل على ذلك أسلوبه وتفكيره . . إنه يبتعد

على كل حال عن التعميم الظالم ويحاول أن يلتمس العذر لبعض شعراء المديح الذين اضطرتهم الضرورات التاريخية إلى الخضوع لمشيئة السلطان ، واستطاعوا فى نفس الوقت أن يعبروا تعبيراً حرًّا عن مواهبهم – لم يكن جميع هؤلاء الشعراء منافقين ، ولم يمدحوا المستبدين دائماً عن خوف من جبروتهم أو عن جهل بقيمة الحرية ، وإنما صدروا فى ذلك عن تقدير لبعض هؤلاء الحكام الذين اعترفوا بالكرامة الإنسانية وتحمسوا للفن الذى سيخلد ذكرهم ويقلب جوته الطرف فى أشكال الحكم عبر التاريخ فيجد أن الحرية والعبودية تتمثل فيها جميعا فى تعارض يشبه تعارض القطبين المتضادين : فإن كانت السلطة فى يد شخص واحد ، كان الجمهور ميالاً للخضوع ، وإن كانت فى يد الجمهور ، كان ذلك فى غير صالح الفرد ويسرى هذا على كل المستويات حتى يتصادف أن يتم التوازن فى مكان ما ، وإن يكن ذلك لأمدٍ قصير. ثم يورد أمثلة من حياة الطغاة ليثبت أن الطبيعة الإنسانية لا تقهر أبداً ، وأنها على الدوام تواجه الأضطهاد وتصمد للضغط والإرهاب . فالإسكندر الأكبر أعمته نشوة الانتصار فتصور نفسه إلها وفرض على من حوله أن يعاملوه معاملة المعبود وعندما يحتدم النقاش ذات يوم بينه وبين كليتوس صديق طفولته وأخيه فى الرضاع ، يندفع فى غضبه كالمجنون فينتزع حربة من على الجدار ويغرزها فى صدره وعندما يكتشف أنه لن يجد بعد ذلك من يقول له « لا » يهيم وحيداً باكياً فى الصحراء كوحش يائس جريح . . والسفاح الطاغية الأكبر تيمورلنك ، ذو العين الواحدة والقدم العرجاء ، ينظر وجهه فى المرآة ويكتشف قبحه الفظيع فيجهش بالبكاء . ويقدم المرآة لأنيسه وجليسه « جحا » فيشاركه البكاء . ولكن السفاح يكف بعد لحظات عن بكائه وجحا لا ينقطع عن النشيج والبكاء . ويسأله السفاح لماذا يبكى، والمرآة لم تره وجها قبيحا كوجهه .

فيقول الساخر الأبدى : يا سيدى ! أنت رأيت وجهك مرة واحدة فبكيت ، فكيف بنا نحن المقضى علينا برؤية وجهك كل صباح ومساء ! ! ويرتفع صوت السفاح بالضحك دون أن يخطر بباله أن الدعابة من أقوى أسلحة التحدى والمقاومة .

هكذا تتمكن روح التحرر والعناد عند الأفراد من إحداث التوازن مع السلطان المطلق للسيد الأوحد . فهم عبيده ، ولكنهم غير خاضعين له . كذلك كان شعراء المديح عند الفرس والعرب خاضعين للسلطة العليا التى تتدفق منها كل إساءة أو إحسان ، ومع ذلك كانت لهم طبائع معتدلة ، ثابتة ، متماسكة ، واستطاعوا أن يعيشوا ويعملوا فى صدق معها ، ويستخدموا مواهبهم فى التعبير عنها بحرية ، بقدر ما تسمح به ضرورات البيئة والتاريخ . .

جاء الديوان فى أوانه . .

ففى صيف ١٨١٤ شعر جوته بأن ربيع الشباب يعود إليه ، وأن وجدانه يحن للخلق حنين الأرض العطشى للأمطار ، والنبع الغائض للفوران . كانت سنوات الحرب بثقلها وسوادها قد مرت وضجيج السلاح قد سكت . وها هو ذا يفرغ من القسم الثالث من سيرة حياته « شعرا وحقيقة » ، كما يعيد ترتيب قصائده لطبعة جديدة لأعماله الكاملة توشك على الظهور . وضاقت به الحياة فى « فيمار » المحدودة ، وسئم الملل اليومى والمهام الرسمية ونظرات الناس المثبتة عليه . وغالبه الشوق القديم إلى السفر ولمن يشتاق إلا إلى الوطن ، إلى مهد الطفولة الذى لم يره منذ سنوات طويلة ؟ شد الرحال وركب عربة السفر . وفى الطريق عرج على قرية بيركا الصغيرة بجوار فيمار للاستشفاء والاستجمام . ولبث فيها حتى أواخر يوليو : سكون الريف ، وموسيقى باخ وموزارت فى الأمسيات الهادئة ، هل من شىء آخر

يسمح للوجدان بأن يعتكف ويرتد إلى نفسه ، قبل أن ينطلق ويفيض ؟ وأقبل لأول مرة على قراءة حافظ . همست أسرار الشعر بداخله ، وامتلأ بأحلام الخلق كما يمتلئ كيان الأم بأسرار جنين . واجتذبه الراين : نسيمه ومروجه ، خمائله وكرومه ، خمره وخبزه ، مجموعة الكنوز الفنية من الفن الألمانى القديم عند صديقيه الأخوين سوليس وملكيور بواساريه . ثم الترحال من بلد إلى بلد ، حيث يحييه الناس ويكرمون فيه شاعرهم الأكبر . وحافظ رفيق سفره ، وديوانه لا يترك مكانه بجانبه ! وفجأة تتحرك المعجزة وتثب من الرحم المظلم . فيكتب عدة قصائد فى طريقه إلى بلدة « إيزيناخ » ، تصور التناقض بين سكون الطبيعة وضجيج الحرب ، وترتد إلى الماضى ثم تستبشر بالمستقبل . فهو فى إحداها – وهى قصيدة ظاهرة من كتاب المغنى – يخاطب نفسه بقوله : (أبعد عنك الحزن ، يا شيخى المرح الطيب ، إن كان الشَّعر كساه الشيب ، فقريبا سوف تحب !) وفى اليوم التالى ، فى طريقه إلى مدينة فولدا ، يعاوده طوفان الخلق فيصل عدد القصائد إلى تسعة ، ويلتقى وهج الشباب ووعى الشيخوخة والحنين إلى اللعب والإحساس الطاغى بالتفوق (تزدهر الوردة والزنبقة بأنداء الصبح ، بينا كوبيد يشدو فوق الناى على شط الجدول ، يهزم رعد الحرب وينفخ مارس فى بوقه – وكلاهما من كتاب المغنى) ويستمر تدفق النبع فى الأيام التالية . وعندما يبلغ مدينة فيسبادن فى التاسع والعشرين من يوليو يكون قد دون قصيدة « الحياة الكليلة » وبعدها بيومين لؤلؤة أشعار الديوان : « حنين مبارك » وتأتى أيام الصيف والخريف التى أمضاها على ضفاف الراين بما كانت نفسه تتمناه . فهو يشارك فى الاحتفال بعيد القديس روخوس فى « بنجن » ويملأ عينيه وقلبه بأفراح الشعب ، ويسافر إلى ضيعة أسرة برنتانو فى « فنكل » فيستمتع بالريف والخمر والأصدقاء ، ويزور سوق الخريف فى

فرانكفورت فيستسلم لدوامة المهرجان ، ويزور هيدلبرج زيارة قصيرة ويتحمس لمجموعة الرسوم الألمانية القديمة عند صديقه القديم « بواساريه » . وتتوالى قصائد كتاب الساقى واحدة بعد الأخرى ويرجع فى أكتوبر إلى فرانكفورت فيلتقى بصاحبه القديم رجل المال والأعمال يوهان ياكوب فيليمر وزوجته الثالثة التى لم تكد تتم الثلاثين ربيعاً — « ماريانه » الشاعرة الرقيقة التى خلد حبه لها فى الديوان فسماها زليخا ، وسمى نفسه « حاتم » الذى فتنته كما فتنت امرأة العزيز يوسف الصديق . . وفى مساء الثامن عشر من نفس الشهر يجتمع معهما فى بيتهما الريفى وسط خمائل الكروم على شاطئ نهر الماين ، ويشاهدون معا أنوار الاحتفال بذكرى مرور السنة الأولى على معركة ليبزج . ولابد أن يكون رب الحب قد جمع بينهما فى هذه الليلة بقيده الذهبى الساحر ، فكم احتفلا به بعد ذلك كل مع نفسه وذكرياته . ولابد أن تكون ربة اللحظة الأسطورية المواتية قد أسلمت لها خصلة من شعرها الذهبى وشفتيها الحلوتين . ولكن اللقاء لم يطل ، فلم يلبث أن رجع بعد يومين إلى فيمار

وازداد عدد القصائد التى يناجى فيها حافظ على غير ما كان يتوقع وشدد الشرق قبضته الساحرة عليه . وبدأ ينظم قراءاته لأعمال المستشرقين ومذكرات الرحالة إلى بلاد الشرق فهو يطالع كتب الأقدمين مثل أوليار يوس ، أو كتب المحدثين مثل جونز وديز ، كما يعكف على المجلدات الستة التى نشرها « هامر — بورجشتال » تحت عنوان « كنوز الشرق » ويعاوده الحنين إلى « بريق الغرب وإشراقه » فيستقل العربة فى الرابع والعشرين من شهر مايو . وتنبثق نافورة الشعر من جديد ويواصل الخيط الرقيق الذى كان قد انقطع فى الأيام الأخيرة من زيارته السابقة لفرانكفورت فيكتب عدداً من القصائد منها قصيدتاه المشهورتان : (أن

(١) كما قال فى رسالة له إلى صديقه نيقولاوس ماير فى ١٨١٥/١/١٨ .

زليخا سحرتها فتنة يوسف ، لم يك أمراً عجباً ، لما كنت الآن تسمين زليخا . فخليق بي أن أحمل اسمك) ثم يستجم عدة أسابيع فى مدينة الحمامات «فيزبادن» ويكتمل كتاب الساقى ، ويرتب جميع القصائد — التى كان يحرص على كتابة التاريخ والماكن تحتها ! — فى فهرس لا يزال محفوظا فى مكتبته . ويدعو صديقه «بواساريه» ليكون أنيسه وجليسه فيلبى دعوته ، ويحيا بجانبه من أوائل شهر أغسطس حتى أوائل أكتوبر ، ويسجل الصديق أحاديثه وذكرياته الغالية عن هذه الأسابيع القليلة فى سطور تفيض بالتواضع والذكاء والحياة . ثم تأتيه الدعوة التى كان يتشوق إليها من فلليمر ، فيستجيب لها من فوره ويقضى شهرا فى بيته الريفى على ضفاف الماين (وهو البيت الذى اشتهر فى تاريخ الأدب باسم الجربرميلة أو طاحونة الدباغين !) لا تقطعه إلا سفرة أيام قليلة إلى بيت صاحبه فى فرانكفورت ، لم ينس بطبيعة الحال أن يأخذ معه ديوان رفيق سفره حافظ إلى «الجربرميلة» . وكيف ينساه وهو الذى سيكون رسول الغرام بينه وبين «حوريته» الهاربة من الجنة ؟ ! قدمه لها هدية . وأقبلت عليه بعاطفة المحب وإحساس الفنان واكتشفت ببصيرتها سحر العالم الذى أثر عليه ، فلم تتوان عن مشاركة وحدته واهتزت أوتار قلبها على أنغام حافظ وصوره ورموزه — أو بالأحرى على ما بقى منها فى ترجمة هامر الذى لم يرحم شيئاً شرقياً من ترجمته ! — وراح الحبيبان فى هذه الأسابيع القليلة يقلبان فى صفحات ديوان حافظ ، ويختاران منه القصائد التى توافق حالها النفسية . ويبدو أنهما تقفا على هذه القصائد «الرياضية» فى رسائلهما التى سيتبادلانها بعد ذلك ، بحيث تتألف الرسالة من مجموعة من الأعداد التى تشير إلى رقم الصفحة والبيت المناسب فلا يستطيع «عذول» أن يحل أسرار الشفرة التى

(١) من ١٢ أغسطس إلى ١٨ سبتمبر ١٨١٥ .

لا يعرف مفتاحها !

ولابد أن تكون « ماريانة » الجميلة قد بعثت إليه بعدد كبير من هذه الرسائل السرية التي كان لها فضل اكتشافها . مما جعله يكتب عنها فى إحدى فقرات تعليقاته على الديوان . فقد بعثت إليه على سبيل المثال برسالة تتألف من هذه الأعداد :

٤٠٤ ، ١٩ — ٢٠

٢٠١ ، ٢٣ — ٢٤

وحل هذه الشفرة العاطفية هو هذه المقطوعة التى وردت فى ترجمة ديوان حافظ ، وكان من السهل على حبيب أن يجدها فى لحظات بعد أن عرف رقم الصفحة والأبيات على الترتيب !

من زمن لم يكتب لى صاحبى رسالة
من زمن لم يبعث لى بتحية
لم يذكرنى بلام أو برسالة
طوبى لمريض يبلغه نبأ من أحبابه

هكذا أصبح جوته يجد نفسه وحبيبته فى ديوان حافظ وأصبح هذا الديوان أشبه بلحن اشتركا فى عزفه . فلا يكاد أحدهما يسمعه بعد ذلك بسنوات حتى تعيش « الأنا » مع « الأنت » وتشعر أنها ليست وحدها فى وحشة العالم . . ولم تكتف الحبيبة بأن ترافق وحدته فى عالم الشرق ، بل وجدت نفسها — تحت لهيب أنفاسه — ترد على زفراته الشعرية بزفرات لا تقل عنها رقة ودفئاً ، بل ربما فاقتها فى بعض الأحيان صدقاً وعذوبة (ومنها قصيدتاها للريح الشرقية والريح الغربية اللتان

ضمها إلى ديوانه بعد أن أجرى عليها تعديلات أغضبت الحبيبة والنقاد جميعا !) .

وسافر الشاعر فى الثامن عشر من سبتمبر إلى هيدلبرج . وتبعه فيلليمر وماريانة بعدها بخمسة أيام . وتفتحت فى أيام اللقاء الثلاثة قصائد ثلاث (على فروع الأغصان الممتلئة ، لقاء ، الشعب والخادم والسلطان – وتجد الأخيرة ضمن المجموعة المختارة من كتاب زليخا) كما أوشك كتاب « زليخا » على التمام ، وكل قصائده تعبر عن نعمة الحب الكبرى التى غمرت فؤاده بسعادة لا توصف ، وفتحت فيه جراحاً عميقة لن تندمل . ورجع إلى مستقره فى « فيمار » فوصل إليها فى الحادى عشر من أكتوبر ، وبدأت سحب الشتاء ولياليه الطويلة وأمطاره فانهمرت معها ألحان الديوان الموجعة : صورة عالية ، وترجيع ، وكتاب مطالعة – وتجد الأخيرتين مع القصائد المختارة) –

وفجأة يغيض النبع وتنطفئ الشرارة . فما أبعده الآن عن بريق عينى الحبيبة التى كانت تدفئه ، عن أنفاسها التى كانت تحييه ! لم يبق إلا أن يزيد من عدد الحكم والأمثال التى لن يعجز عنها العقل ، وأن يفرغ لجمع مادة التعليقات والملاحظات التى لا تحتاج لدفء القلب ! ويرتب القصائد فى اثنى عشر كتاباً ، ولا تكاد عربة « هليوس » تبدأ سيرها فى طريق العام الجديد حتى يبدأ الطبع غير أن معجزات الشعر تأتى بغير أوان . فها هى ذى أطياف الذكرى تزوره فجأة ، تحمل معها زاد الحب ، وتقدم نعمة الأخذ والعطاء ، وترتفع به على جناحى الدين والتصوف . ويدون القصائد الثلاث : تأخذ منك السنوات – من كتاب التفكير – بهرامجور – كما قيل – اخترع القافية وكلاهما من كتاب زليخا ، وأعلى والأعلى – من كتاب الخلد – ولعل السطور التالية التى أحاول فيها أن أنقل إليك معنى القصيدة الأولى

أن تعطيك فكرة عابرة عن حسرته على الحب الضائع ، وحزنه الذى فاض وبلغ حد اليأس ، وتمسكه بصخرة الفكرة والذكرى حتى لا يغرقه الموج :

« أخذت منك السنوات ، كما قلت ، كثيراً :
متعة ألعاب الحس
وذكرى عبث الأمس ،
وحُرمت من التجوال طويلا
بين مغانى الأرض (ونور الشمس) ،
من شرف كان يزين الرأس
وثناء كان يسرّ النفس
جف معين الخلق وغاض النبع
فغامر ! (وانفض عنك غبار الرمس)
قل لى ماذا يبقى لك ؟ »
يبقى ما يكفينى — تبقى الفكرة والحب !

وظهر الديوان سنة ١٨١٩ . ولكن لحنه لم يكن قد توقف ، وشكله لم يكن قد تم . فلم يلبث النبع أن فاض مرة أخرى بخمس قصائد جديدة (تجد منها ثلاثا ضمن المختارات من كتاب الخلد ، وهى تذوق ، وسماح ، وحيوانات مرضى عنها) هى فى الحقيقة أصداء لألحان سابقة تعزف على وترى الحب والدين اللذين انبعثت منهما أنشودة الديوان كله . ولابد أن الشاعر تفكر طويلا فى السراب الذى فتن عينيه فى صحراء الشيخوخة ، فقرر أن يعيد بلبل القلب الطائش إلى قفصه ! تشهد على ذلك الرسالة السابقة الذكر التى كتبها إلى صديقه « تسلتر » وتحدث فيها عن التسليم المطلق بإرادة الله الخافية .

قلت إن الديوان أشبه بمجموعة من المرايا ، كل قصيدة فيها تعكس القصيدة الأخرى . وهو كذلك كالدائرة التي تستمد وحدتها وتجانسها من وحدة الشخصية المتزنة التي أبدعتها وسرت في كل نقطة فيها . ولهذا فهو يكاد يكون كوناً صغيراً ، دائرة روحية تمتد إلى كل مجالات العالم والنفس ، منطلقة من مركز تشغله « الأنا » الشاعرة التي احتوت العالم في داخلها ، وضمت تراث البشرية إلى صدرها ، وعاشت حياة جادة غنية خصبة متنوعة . هو دائرة شعرية رسمتها يد رجل مجرب حكيم ، لا يد شاب مهتاج ثائر ، بمداد يمتزج فيه نار القلب الذي نسي قانون الزمن (وكذلك قلب الفنان !) بنور العقل المتفوق الساخر . وقد سار الشاعر على هذا التكوين الدائري في ترتيب كتب الديوان ، وإن يكن قد التزم فيه بالترتيب الموضوعي ، لا بالترتيب الذاتي الذي يعكس ظروف حياته وكتابته . يؤكد هذا ما قاله بنفسه لصديقه تسلتر :[1] « إن كل جزء من أجزاء الديوان يتغلغل فيه معنى الكل . وهو في صميمه ذو طابع شرقي حميم ، ولابد أن يفهم معنى القصيدة عن طريق القصيدة المتقدمة عليها ، إذا أريد له أن يحدث أثره على الخيال أو الشعور . .

إنني أنا نفسي لم أكن أعرف أن كل عجيب صنعته منه » . .

هذا التكوين الدائري للديوان هو نفس التكوين الذي يميز إنتاج الشاعر المتأخر . ولا نقصد بهذا طابع الاتزان والوعي الواضح الذي يسري فيه فحسب ، بل نريد به كذلك طابع التضاد الذي ينتج عن تقابل قطبين أحدهما سالب والآخر موجب ، إذ لا يمكن أن يخلو أي نظام أو نسق (كما كشفت بحوث البنيويين أخيراً) من صراع أو توتر جدلي – وبالأحرى حواري ! – داخل هذا النسق . ولا أظن

---

(١) في رسالة كتبها له في أوائل مايو سنة ١٨٢٠ .

أحداً يختلف معنا فى أن العمل الفنى الخليق بهذا الاسم يمثل نسقا متكاملا . ولا أظن أيضا أنه يمكن أن ينكر صراع القوى الحى الذى لابد أن يدور بداخله وقد أكد الشاعر نفسه هذا التضاد القطبى فى طبيعة الوجود نفسه . وفى كل شكل من أشكال الحياة والفكر . ولهذا كان القبض والبسط ، والشهيق والزفير من التعبيرات التى يستخدمها باستمرار ويعبر عنها فى العديد من أعماله [1] ولكن هذا التضاد لم يمنعه من رؤية الكل السابق على صراع الأطراف والأجزاء – بل إن هذا الكل – كما أكد أرسطو ويؤكد المحدثون أيضاً – شىء أسبق من أجزائه وأشمل ، ولا يمكن أن يكون بمجرد حصيلة ناتجة عنها أو مجموع مؤلف منها . ولهذا كان الديوان كما قلنا دائرة كبرى تشتمل على دوائر صغرى عديدة ، وكان التضاد الذى يحركه ويبعث الحياة فيه هو التضاد بين قطبى الحب والدين ، اللذين يجتذبان عناصر أخرى تدخل كلها فى هذا « المجال » الشعرى المفعم بالسحر والحياة .

والكلمات التى يقولها الشاعر عن ديوان حافظ تصدق على أشعاره المتأخرة وبخاصة مجموعة شعره الفلسفى ، كما تصدق على ديوانه الشرقى . فهو يقول فى قصيدة جميلة من كتاب حافظ بعنوان « لا محدود » .

شعرك يا حافظ دار دورة السماء

البدء فيه دائما والمنتهى سواء . . (٢) .

فى داخل هذه « الدورة الكونية » يتصارع القطبان الأزليان : الحب والدين

---

(١) انظر مثلا قصيدته التى ستجدها بين هذه المختارات . فى التنفس نعمتان . . (من كتاب المغنى . ص ٧٧ من هذا الكتاب) .

(٢) تجد ترجمتها الكاملة فى كتاب المرحوم الأستاذ عبد الرحمن صدقى ص ١٢٤ – ١٢٥ وفى ترجمة الدكتور بدوى . ص ١٠٤ .

فالحنين الديني – أو الصوفي ! – يغلب بوجه خاص على «كتاب المغني» والكتب الثلاثة الأخيرة من الديوان ، وهي كتاب الأمثال والبارسيين (أي الفرس القدماء من المجوس عبدة الشمس والنار) والخلد ، كما يسري في سائر الكتب ، والحنين إلى الحب يغلب على كتب العشق وزليخا والساقي والخلد (على غير ما كنا نتوقع !) كما تتكرر تنويعاته المختلفة في الديوان كله ، سواء كان يعبر عن عاطفة شخصية ، أو تاريخية ، أو كونية ، أو عن غزل بين الشاعر والحورية في الفردوس ! ولهذا كانت قصيدتاه « تلاقي »[1] .

أمن الممكن يا نجم النجوم أن ألاقيك وللقلب أضمك
آه منها ليلة الهجر الأليم حفرت هاوية بيني وبينك

و « حنين مبارك » – وتجدها مع المختارات من أهم قصائد الديوان ، بل لعلها في رأي معظم النقاد من أروع شعره على الإطلاق وأكثره دلالة على شخصيته وفكره . ولا يقتصر موضوع الحب على هذه الكتب والقصائد وحدها ، بل يتغلغل أيضاً في قصائد الحكم والأمثال ، فما يعبر مرة عن القلب بصورة طبيعية مباشرة يعبر مرة أخرى عن الأشياء عن طريق التأمل العقلي المتزن . وفي كل الأحوال تتفتح شخصية الشاعر وتمتد في كل اتجاه كأنها قد أصبحت دائرة كبرى تضم وجوده كشاعر كما تضم نظرته إلى الكون (وبخاصة في الكتب الثلاثة الأولى من الديوان : المغني وحافظ والعشق) ، وتصوره في علاقته وصراعاته ، مع غيره من الناس ومن صغار الشعراء (من الكتاب الرابع إلى السادس أي كتب التفكير والضيق والحكم) ، سواء في صورتها السلبية وهو يقاوم ظواهر الطغيان (الكتاب السابع

(١) راجع ترجمة أستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوي لها وتعليقه الرائع عليها (ص ٢٥٣ – ٢٥٧ من ترجمته للديوان (تحت عنوان عودة اللقاء) .

عن تيمور والشتاء) أو فى صورتها الإيجابية وهو يتحقق بنعمة الحب والرضا والسعادة (من الكتاب الثامن إلى التاسع ، أى كتابى زليخا والساقى) . وتأتى الكتب الثلاثة الأخيرة فتكمل الملامح الدينية التى تكسو الديوان كله . فالعالم يرمز لله ، والله « حاضر فى جميع العناصر » ، وعبادة الطبيعة عند الفرس الأقدمين وعقيدة التوحيد عند المسلمين وإيمانهم بالآخرة ينطقان بلغة رمزية واحدة تعبر عن وحدة التجربة الدينية الأولى أو عن دين أصلى ينشر فروعه وأوراقه كتعريشة الكروم فوق بناء العالم . . وهكذا تتلاقى الأرض مع السماء ، والوثنية مع الأديان السماوية ، والإنسان مع العالم ، والحب والشباب المتجدد مع الدين ، والعقل والإحساس بالتفوق مع الميل إلى الدعابة الماكرة . . تجد هذه الموضوعات المتفرقة فى قصائد متفرقة ، وقد تجدها مجتمعة فى قصيدة بذاتها (مثل قصيدتى الهجرة والحنين المبارك اللتين ورد ذكرهما أكثر من مرة) ويصبح الديوان دائرة واحدة ووحدة دائرية ، تعكس كل قصيدة منها سائر القصائد على صفحة مرآتها ، « وتكشف للمنتبه عن المعنى الكامن للأشياء »[1] كأنها (مونادة) ليبنتز الوحيدة الحبيسة بين جدرانها ، ومع ذلك فهى أشبه بمرآة تعكس العالم كله من وجهة نظرها وبقدر وضوح إدراكها ، فلو عرفت مونادة واحدة — أى لو عرفت أى كائن فرد مستقل من بين جميع الكائنات الفردية المستقلة — لأمكنك أن تصل منها إلى معرفة كل بماضيه وحاضره ومستقبله ، ولو تذوقت قصيدة واحدة من قصائد الديوان لعرفت الديوان كله — ومن يدرى ؟ ربما أحسست بروح الكون كما جربه هذا الشاعر وحاول أن يكشف عن معناه وسره . .

(١) كما يقول الشاعر نفسه فى رسالة له إلى المستشرق « ايكن » فى السابع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٨٢٧ ، أى قبل وفاته بحوالى خمس سنوات .

لا شك أن الديوان الشرقى تعبير ذاتى عن جوته فى شيخوخته ، يكشف بمضمونه ولغته عن شخصية صاحبه وينفذ إلى صميم وجدانه ، ولكننا نخطئ خطأً كبيراً لو تصورنا بعد هذا التتبع التاريخى أنه مجرد سيرة ذاتية لحيات . فليس حاتم هو جوته ، ولا ماريانة هي زليخا . صحيح أنه يرتبط بمادته الشرقية ارتباطاً يوشك أن يكون فى بعض الأحيان حرفيًّا ، ويتأثر بشعر حافظ الشيرازى — توأم الروح — فى بعض المواضع إلى حد التقليد . ولكن الديوان عمل فنى قبل كل شئ ، يشكل عالمه الأسطورى بنفسه ، ويستخدم الموضوعات الشرقية لتكون بمثابة أقنعة يخفى الشاعر فيها نفسه كما يكشف عنها فى وقت واحد ، ويأخذ المضمون لكى يتصرف فيه بحريته الفنية وقدرته على التشكيل .

إن العنصر الشرقى يعبر عن عنصر عام يجمع بين الشرق والغرب ، والروح الشرقى يتجاوب مع منطقة روحية مماثلة فى باطن الشاعر نفسه . لقد وجد فى الشرق كنوزاً رأى أن من حقه استغلالها وراح يستخدمها ببساطة كأنها شئ بديهى أو جزء حى لا يتجزأ من كيانه الشعرى . ربما تعجب قارئه الغربى من الأسماء الشرقية وربما سأل نفسه من هو المتنبى أو المجنون ومن هى ليلى أو بثينة ومن هو شهاب الدين (السهروردى) الذى خلع ثيابه فى عرفات ليدخل الحرم[1] .

وغيرها وغيرها من الأسماء التى ربما لا يعرفها غير المختصين بالآداب الشرقية ، ولم يعرفها الشاعر نفسه إلا قبل العكوف على العمل فى ديوانه بزمن قصير . ولكنه سيفطن أثناء قراءته إلى أنه أمام شاعر غربى يتجول فى ربوع الشرق ويتقمص فى نفس الوقت شخصية شاعر شرقى . إنه يسهر فى خيمته مع الساقى فى ليلة صيف ،

---

(١) وردت الحكاية فى قصيدة « أكبر سرًّا » من كتاب العشق ، وتجدها فى ترجمة الديوان للدكتور عبد الرحمن بدوى من صفحة ١٣٤ — ١٣٦ .

ولكنه يتحدث عن هسبيروس (نجمة المساء) وأورورا (الفجر) ، ويذكر إحلال المسلمين للقرآن الكريم لكى ينحى باللائمة على صغار الأدباء فى عصره ممن فقدوا كل إحساس بالاحترام والتوقير . ويصف نعيم الخلد وحوريات الجنة لكى يتمنى أن يحدثهن بلغته الألمانية . . . إلخ فالمادة الشرقية مجرد مناسبة لا قيمة لها فى ذاتها ، والمهم هو الشكل الفنى الذى يعطيه لها ، واللعب الحر الذى يجعله يتصرف فيها . إن الشاعر يعرف أنه يلعب ، وهو يريد أيضا أن يستمتع بهذا اللعب ! .

ومن هنا كان الوعى والوضوح اللذان يغمران قصائد الديوان ، ويحدثان التوازن بين المادة والشكل ، بين مرح الشيخوخة ونزواتها الفاضحة ولوعة الحب وجراحه التى لم تعد تليق بمن فى سنه ! وفى مقابل هذا الوعى الناصع نجد النشوة التى تسرى فى جميع كتب الديوان ، فهى نشوة السكر ، والعشق ، والشعر ، والإيمان بالله . ولكنها نشوة لا تعمى الحس ، بل تضئ الرؤية . أضف إلى هذا كله المرح السامى والدعابة الساحرة – التى لا تبلغ أبداً حد التهكم الجارح – (حتى فى الفردوس تغالبه النكتة ! – راجع قصيدة سماح ضمن المختارات) والخفة التى يتناول بها أصعب مشكلات الحياة وأسمى أسرار الدين ، فيسلط عليها نور العقل وبسمة الحكمة .

أما العاطفة الجريحة والشكوى المرة من قدر الحب فتجدها فى قصائد قليلة (مثل عزاء سيئ و« ترجيع » بالإضافة إلى القصائد المنسوبة لحبيبته ماريانة) تخلو تماماً من المرح والتحرر الروحى اللذين يشيعان فى الديوان ، على نحو ما تخلو منها قصائد قليلة ترين عليها الجدية والقتامة (مثل « وصية الديانة الفارسية القديمة » و« حنين مبارك » و« تلاقى ») غير أن الرغبة فى اللعب الحر ، والميل إلى الخفة والمرح هما اللذان يسيطران على الروح العامة للديوان ، لأنه يكشف فى كل قصائده عن

« الاستقطاب » الكامن فى كل حياة ، عن جدل الحب الذى يقوم على الوجود وعدم الوجود ، وجدل العقل الذى يقوم على المعرفة والعلم بحدود هذه المعرفة ، وكأنما هى جميعاً أبعاد من قوس الأنا الشاعرة التى تحيط بكل شئ إحاطة قبة الفلك بالأرض وما عليها . . فالشاعر يتجلى فى شعره ، ولكنه فى نفس الوقت يرتفع فوقه ، ليرى نفسه وقصيدته فى نفس الوقت ! وقد كان من شأن هذا الوعى الواضح ، العابث ، المتكبر ، العميق فى آن واحد أن يحدد أسلوب الشعر وشكله وإيقاعه . فهو خفيف ، صاف ، متدفق ، يكاد يقتصر على مقطوعات قصيرة من أربعة أبيات ، تعرض لغة حافلة بالصور المتنوعة – كصندوق الدنيا ! – مستمدة من عصور أدبية مختلفة ، ومن لغة الشرق وتشبيهاته (حيات الشعر ، وجه القمر . . . إلخ) فى قصائد متعددة متنوعة الأغراض ، تجمع بين الحكم الموجزة والأنغام الفخمة ، والصور الزاهية الألوان ، والنوادر العجيبة ، والروح الصوفية العميقة . . ولهذا يحتاج الديوان ، كما يحتاج الشعر عموماً ، إلى مشاركة القارئ وصبره ، كما يتطلب تجربة روحية تعينه على الإحساس بتجربته .

إنه قبل كل شئ كتاب تعيش معه وتحياه ، وتردد ألحانه وتتناغم معها ، لأنه كتب للناضجين والمحبين . ومن أسف أن أى ترجمة فى أية لغة لن تعينك على هذا ، لأن أقصى ما يمكنها أن تعطيه هو الظل العابر والطيف الزائل . ولو استطاعت هذه القصائد المختارة أن تنقل إليك شيئاً من هذا الظل وهذا الطيف ، فستشعر بالحرية التى كانت وراء خلقه ، وستشعر أيضاً بعذاب الحب ومتعته – وستجد حبيبك فيه – إن كنت تحب !

* * *

قد تسألنى الآن : لم تكتب عن هذا الديوان؟ لم لم تنقله كله مادمت تؤكد

ضرورة قراءته كله ؟ ولماذا تقتصر على بعض القصائد القليلة دون بقية القصائد (وقد بلغ مجموعها ثلثمائة وخمسا وثلاثين لم تختر منها إلا نيفاً وخمسين !) ثم لماذا تنقل هذا الشعر بعد أن قلت أكثر من مرة إن الشعر لا يترجم ؟ .

وجوابى على هذا أننى وجدت نفسى أهيم فى رحلة مع هذا الديوان ، كما فعل صاحبه فى رحاب الشرق . امتدت يدى إليه فى أثناء البحث عن قارب النجاة وسط بحار الهموم التى تغرقنا ليل نهار ، وفى لحظات البحث عن الذات وسط عالم مزعج لايطاق ، عالم لاينجح إلا فى تنغيصنا وإبعادنا عن أنفسنا . عشت معه ليالى وحدة طويلة . ودون أن أشعر وجدت بعض قصائده تفرض نفسها علىّ فأكتبها شعراً بجانب الأصل (مع أنى طلقت الشعر وطلقنى منذ سنين !) وبعضها الآخر يلح على أن أنقله نثراً حتى يوحى بعبير الشرق وأنفاسه . وكنت منذ سنين – لاتقل عن عشر – قد شغلت باهتمام جوته بالأدب العربى وبالإسلام ، فأعدت النظر فيما كتبت وأضفت إليه . – أما فى السنوات الأخيرة فتشغلنى حالة الركود التى أصابت الأدب وقوة الإبداع عندنا ، كما تشغل كل المخلصين المشفقين عليه – بحيث خيل إلى فى ساعات الاكتئاب أنه يرقد مسجى على فراش السأم فى حين أن الأدباء ممددون حوله يعينونه على آلام الاحتضار . وفكرت – لنفسى دائما ولكى أطرد عنى الصورة الموحشة التى أرجو ألاتعدى أحداً غيرى ! – إنه قد يحتاج فيما يحتاج إليه إلى نبع ملهم . ورأيت أن الديوان الشرقى نموذج عالمى رائع على الاستلهام وتجديد شباب الخلق وربيع الإبداع . سألت نفسى – ومازلت أتابع هذه المناجاة التى لاتلزم أحداً غيرى ! – ماذا لوقدمت هذا النموذج وأغريت بعضا بالتجربة ؟ ألا يمكن أن يكون الانفتاح الحقيق على التراث العالمى علاجاً لبعض همومنا الأدبية كما نرجو الآن للانفتاح الاقتصادى والعلمى ؟ صحيح أن المحاولات السابقة كما قلت كثيرة ، وقد

نجح أقلها وأخفق أكثرها . ولكن يبدو أن مبدأ الاستلهام نفسه لاعيْبَ فيه . مادامت كل الآداب والشعوب قد أخذت به فى كل البلاد والعصور ، ومادام الأثر الفنى الخالد يُستقبل فى مختلف الآداب بطريقة مختلفة ، تحكمها ظروف العصر وهموم الأديب وصدقه مع نفسه وواقعه . ماذا لو أقبلنا على استغلال هذه الكنوز كما استغل شاعر الألمان الأكبر كنوز الشرق ، ولم يجد مايمنعه من أن « يركب براق محمد ويحلق فى السموات الفسيحة ، ويحتفل بتلك الليلة المقدسة التى أنزل فيها القرآن على النبى [1] » صحيح أن لهذه التجربة شروطاً تحتمها كل تجربة فنية : الضرورة التى تدفع الكاتب إلى تناول موضوع سبقه إليه غيره ، والصدق الذى يجعله أصيلا فى تناوله لامقلداً ، ومعبراً عن صميم ذاته لامزيفاً من هواة الاستعراض الذين ابتليت بهم حياتنا العربية فى كل مجال . إنها ليست دعوة للآخرين ، بقدر ماهى محاولة تقديم نموذج . ويبقى للأديب والفنان بعد ذلك حريته التى لايكون بغيرها أدب ولافن . فليس حتماً أن يبعد فى رحلته إلى الشرق كما فعل جوته ، ولاأن يمد عينه إلى الغرب أوالشمال أوالجنوب . ربما تكون الكنوز تحت قدميه ، فى تراثه الشعبى أو « الرسمى » ، فى تاريخه القديم أوالحديث ، وفى واقعه اليائس حوله . ألايمكن أن تحمل التجربة أملاً فى رىّ النبع الذى غاض ، وبعث الدماء فى الجسد المريض ، أو تخليصه على أقل تقدير من المسكنات الرخيصة :

ونأتى إلى سؤالك عن نقل الديوان فأقول : وماالداعى إلى هذا ؟ إن القلب ليتمزق وهو يحاول نقل الشعر من جسده الذى ولد فيه – أى من نظام اللغة والصور والإيقاع والنغم الحى – إلى جسد آخر غريب عنه . ولابد أن تكون لدى الإنسان قدرة إله أوساحر لينجح كل النجاح فى هذا ، وهو محال . ويكفى أن

---

(١) التعليقات على الديوان ، ص ٢٤١ من طبعة بويتلر .

يقتصر الجهد على إظهار القارئ على معنى هذا الشعر – أوحتى ظل المعنى – وإيقاظ حنينه إلى لقاء الأصل الأول إن استطاع . والأمر فى النهاية لايخرج عن أداء واجب ثقافى وإنسانى تقوم به كل الآداب فى كل العصور مهما تفاوتت حظوظها من التوفيق . أضف إلى هذا أن الديوان الشرقى قد نقل بالفعل إلى العربية . وقد تعهد بهذا العمل الشاق رائد كبير لايخشى المحال . فقد ظهرت ترجمته منذ سنوات بقلم أستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوى . ومع أن حب الحقيقة يضطرنى إلى القول بأنها مزدحمة بالأخطاء – التى لا أشك فى أنها جاءت نتيجة التسرع وعدم الرفق بالشعر ! – فإن حب الحقيقة أيضا يدفعنى إلى الإشادة بهذه المحاولة والإعجاب بما تنطوى عليه من جهد وصبر وطاقة فذة تجلت فى التعليقات الوافية والشروح المستفيضة التى لاغنى عن الرجوع إليها . وبجانب هذه الترجمة التى أعترف بفضلها أود أن أسجل واجب الشكر والعرفان للكتاب الممتع الذى أحبه القراء ومابرحوا يقبلون على قراءته منذ ظهوره قبل أكثر من عشر سنوات ، وهو كتاب « الشرق والإسلام فى أدب جوته » للمرحوم الشاعر الكبير عبد الرحمن صدقى الذى استحق عليه جائزة الدولة فى الأدب . وهو يقدم لوحة بديعة عن حياة جوته وشعره و« هجرته » إلى الشرق ، كما يتخلله عدد كبير من قصائد الديوان وغيرها من القصائد المعبرة عن الشاعر فى تجارب حبه المختلفة ، ترجمت جميعها ترجمة رصينة بليغة ، وإن كانت هذه البلاغة قد كلفت صاحبها البعد عن الأصل .

لقد كانت محاولتى أكثر تواضعاً . . فهى لم تخرج عن تقديم نموذج للاستلهام الأصيل وإثارة القضية نفسها أمام القراء وأصحاب المواهب الشابة . ولهذا اكتفيت بتقديم كل ماهو ضرورى للإلمام بهذه التجربة الفريدة التى عاشها جوته فى

لقائه مع أدب الشرق وروحه ، كما رويت قصة الديوان الشرقى نفسه التى لم تكن مجرد نهم إلى المعرفة والاطلاع على عالم غريب ، بل كانت بحثاً عن الذات وتجديداً لمنابع الخلْق والإبداع ، وشهادة على معجزة الحب التى مكنته من هذه « الهجرة الشرقية » إلى الكنوز الدفينة فى صدره . . وقد توخيت أن يكون هذا كله فى حدود كتاب صغير قصدت منه إلى الإمتاع وإثارة الفكر والخيال أكثر من سرد الحقائق والمعلومات . ولهذا عدلت عن التعليقات المستفيضة — التى يجدها القارئ فى طبعات الديوان المختلفة فى لغته الأصلية أو فى ترجماته العديدة ومن بينها الترجمة العربية ، واكتفيت ببعض الإشارات الموجزة التى أرجو أن تنجح فى وضع القصائد المختارة فى سياق تفكير الشاعر ورؤيته وسائر إنتاجه .

لو سألتنى بعد قراءة ماقدمت إليك من المختارات (فى حسرة لاأشك فيها !) : هل هذا هو جوته ؟ لأجبتك على الفور : بالطبع لا ! إنك لن تلقى هذا الشاعر أو أى شاعر آخر إلا فى لغته ، فالشعر لايستطاع أن يترجم[1] . والشعر كما قلت وزن وموسيقى ، وجرْس وإيقاع ، وصور ورموز مرتبطة بالألفاظ . إنما هو انفعال بالشعر الأصلى ، راعيت فيه الأمانة بقدر الإمكان — وكل زيادة من جانبى وضعتها بين قوسين — هو ظل شاحب من ظل ذلك الجسد الذهبى البراق ، وهو — إن شئت — نوع من الاستلهام .

هل هذا عذر مقبول ؟

الرأى أخيراً لك .

فلتمْض الآن إلى الأشعار . .

(١) وهى عبارة الجاحظ المعروفة : « ولا يجوز عليه النقل . ومتى حُوِّل تقطع نظمه ، وبطل وزنه وذهب حُسْنه ، وسقط موضع التعجب . . » الحيوان ج ١ ، ص ٧٥ .

مختارات من أشعار الديوان

من كتاب المغنى

١ – انطلاق

دعونى فوق صهوة جوادى
وابقوا فى أكواخكم وخيامكم !
وسأركض فرحاً فى آفاق الفضاء
لاتعلو فوق قلنسوتى إلا نجوم السماء
جعل لكم الكواكب والأفلاك
لتهتدوا بها فى البر والبحر
وتتملوا آياتها الحسان
متطلعين دائماً إلى السماء

* * *

٢ – تمائم

لله المشرق
لله المغرب
الأرض شمالاً
والأرض جنوباً
تسكن آمنة
مابين يديه

الله الحق
يبغى للناس الحق
من أسماء الله الحسنى
سبح هذا الاسم
آمين !

* * *

فى التنفس نعمتان
نعمة الشهيق ونعمة الزفير
تلك تضيق الصدر ، وهذه تنعشه
فما أعجب ماتمتزج الحياة
فاشكر ربك فى الضراء وعند العسر
واشكر ربك فى السراء وعند اليسر

* * *

٣ – نعم أربع
أنعم الله على الأعراب
بنعم أربع عجاب
كيما يجوبوا الفلوات فرحين
ويعيشوا فى رغد هانئين
وهبهم العمامة التى تزين
خيراً من تيجان القياصرة أجمعين
وخيمة إليها يأوون

فى أى مكان يريدون
وسيفاً يحميهم ويـ ون
أمنع من الصخور والحصون
وقصيدا يشجى ويفيد
تتصنت عليه الحسان الغيد

* * *

٤ – اعتراف

ما الذى يشق عليك أن تخفيه ؟ النار !
فقى النهار يشى بها الدخان
وفى الليل يفضحها اللهب وهو المارد الجبار
كذلك يصعب أن تخفى الحب الدفين
فمها طويته فى سكون
فسرعان مايطلّ من العيون
لكنْ أصعب شىء فى الإخفاء قصيد
إذ لايفلح أحد فى كتمان نشيد
فلايكاد الشاعر يبدأ فى الغناء
حتى تغمره النشوة وتسرى فى الأعضاء
ولايكاد يكتبه بخط منمق بديع
حتى يتمنىٰ لو أحبه الجميع
ويروح يقرؤه بصوت عال لكل إنسان
سواء عذبنا أوقوى فينا الإيمان

٥ — أغنية وصورة

ليجبل الإعريق من الصلصال
ماشاء من نموذج أوتمثال
وليفتتن ماوسعه الافتتان
بالمخلوق الذى سوته يداه الصناعتان
أما نحن فإن متعة الفؤاد
أن نغوص فى مياه الفرات
وأن نسبح هنا وهناك
فى هذا العنصر السيال
حتى إذا انطفأ لهيب الروح
تجاوبت الألحان بالرنين
وإذا الشاعر اغترفت كفه الطهور
(من هذا الفيض) تكور الماء كالبلّور

* * *

٦ — حنين مبارك

لاتقل هذا لغير الحُكماء
ربما يسخر منك الجهلاء
إننى أثنى على الحى الذى
حن للموت بأحضان اللهيب
فى ليالى الحب والشوق الرطيب

يصبح الوالد والمولود أنت
يحتوى قلبك إحساسٌ غريب
ومن الشمعة إطراق وصمت
تترك السجن الذى عشتَ به
غارقا فى عتمة الليل الكئيب
ينشر الشوق جناحيه إلى
وحدة أعلى وإنجاب عجيب
سوف تعروك من السحر ارتعاشة
ثم لاتحفل منْ بعد الطريق
وستأتى مثلما رفت فراشة
تعشق النور فتهوى فى الحريق
وإذا لم تصغ للصوت القديم
داعياً لك : مت كيما تكون
فستبقى دائماً ضيفاً يهيم
فى ظلام الأرض كالطيف الحزين

* * *

٧ — كتاب مطالعة

إن كتاب الحب
لأعجب الكتب ،
قرأت باهتمام
نظرت عن كثب

به من الأفراح
صحائف قليلة
والحزن والأتراح
ملازم طويلة
للهجر فيه باب
وللقاء فصل
نصوصه شحاح
مجلدات الهم
مسهبة الشروح
بالسهد والجراح
أواه يانِشانى (١) !
وجدت فى النهاية
طريقك الصحيح
اللغز من يحله ؟
أن تلتقى الأحباب

* * *

٨ – عزاء سيئ
فى أعماق الليل
بكيت ، نشجت ،

(١) هذه صحتها . وهو شاعر تركى كما سبق القول ، وقد خلط بينه وبين نظامى الشاعر الفارسى الذى ذكر اسمه فى هذه القصيدة وفى التعليقات على الديوان .

لأنى احتجت إليك
جاءت أشباح الليل
خجلت .
يا أشباح الليل !
هاأنت ترين
كم طفت علىّ
وأنا فى حضن النوم
إنى أفتقد الخير
كل الخير .
بربك إلا أقللت اللوم
وسوء الظن
من أضفيت عليه
ثوب الحكمة
حل عليه الكرب !
عبرت أشباح الليل
كالحة الوجه .
مرت لم تحفل بى
أحكيم أم مأفون ؟

من كتاب التفكير

٩ — خمسة أشياء

خمسة أشياء لاتنتج خمسة
فافتح أذنيك لهذى الحكمة :
لاتزدهر بصدر المغرورمودة ،
ورفاق السوء أراذل ،
والعظمة لايدركها شرير ،
والحاسد لايرحم عرياً ،
والكاذب يطمع عبثا فى ثقة الناس ،
فاحفظ هذا الدرس وأمنه بالحراس
حتى لاينهبه الأنجاس !

* * *

١٠ — إن مررت بحداد

إن مررت على صهوة جوادك بحداد ،
فلست تدرى متى يصلح كعب الجواد .
وإن رأيت كوخاً خالياً فى العراء ،
فلست تدرى إن كان يضم حبيبة الفؤاد ،

وإن لقيت فتى جميل الصورة وجسوراً ،
فربما غلبته غدا أوتكون المغلوب .
لكن عن الكرمة يمكنك أن تعرف الخبر اليقين
إنها ستحمل لك من الطيبات الكثير
بهذا يمكنك أن تهنأ فى الحياة ،
ومابقى بعد ذلك فليس بحاجة للتكرار .

* * *

١١ – من أين أتيت ؟

من أين أتيت ؟ ياله من سؤال .
فلست أدرى كيف سارت على هذا الطريق خطاى ،
أما اليوم هنا والآن ، وقد صفت السماء
فيلتقى الألم والسرور كأنهما أصدقاء .
ياللحظ الحلو إذا قدر أن يتحدا !
من تمنى أن يضحك وحده يبكى وحده ؟

* * *

١٢ – الفردوسى يقول :

« أيها العالم قبحت وما أفظع شرك
أنت تغذو وتربى ، وبنفس الوقت تهلك ! »

* * *

١٣ – زليخا تقول :

قالت المرآة إنى فاتنة !
نِلتُ آيات الجمال
قلتمو إن الليالى خائنة
سوف يطويك الزوال
كل شىء خالد فى عين ربى
فاعشقوه الآن فيا
هذه اللحظة حسبى !

من كتاب الضيق

١٤ - ماإن يشعر المرء بالسعادة والهناء
حتى يبادره الجار بالتنغيص والشقاء ،
وماعاش ذو الفضل يجاهد ويعمل
إلا كان هم الناس أن يرجموه .
فإذا وافاه الأجل المحتوم
طفقوا يجمعون المنح والهبات
ليقيموا له تمثالا يكرم ذكراه
ويشهد على مالاقاه من نكد فى الحياة
ولو أحسنت العامة التقدير والتدبير
لكان الأولى بهذا البائس المسكين
أن ينسوه إلى أبد الآبدين .

١٥ - من لم يستطع أن يقدم لنفسه الحساب
(عما تم من تطور) فى ثلاثة آلاف عام
فليبق جاهلا يتخبط فى الظلام
وليغش من يوم ليوم (وراء السراب والأوهام)

١٦ - عندما كان المسلمون يستشهدون بالقرآن الكريم
كانوا يذكرون السورة والآية .
وكان كل مسلم . بما ينبغي عليه من توقير .
يشعر بالاحترام والطمأنينة فى أعماق الضمير
أما الدراويش المحدثون فلايحسنون شيئاً من هذا ،
إنهم يثرثرون بالقديم ويلغون بالجديد .
وفى كل يوم يزداد الاضطراب والتشويش الشديد
أيها القرآن الكريم ! أيتها الطمأنينة الخالدة !

* * *

١٧ - النبي يقول :
إذا اغتاظ أحد من أن الله قد شاء
أن ينعم على محمد بالرعاية والهناء ،
فليثبت حبلا غليظا بأقوى عارضة فى قاعة بيته
وليربط نفسه فيه ! فسوف يحمله ويكفيه ،
ويشعر أن غيظه قد ذهب ولن يعود !

* * *

من كتاب الحكمة

١٨ – ماذا تريد أن تصنع بالعالم لقد تم صنعه ،
وربّ الخلق دبر كلى شىء
تحدد نصيبك ، فاتبع السبيل ،
بدأ الطريق ، فأتم الرحلة :
لن تغير منه الهموم والأحزان ،
بل ستظل تطيح بك بعيداً عن الاتزان

* * *

١٩ – إنْ شكا المظلوم يوماً للسماء
قد حُرِمت العونَ منهم والرجاء ،
فدواء الجرح إنْ عزَّ الدواء
كلمة طيبة فيها الشفاء .

* * *

٢٠ – ورثت جنة ، تزهو على الجنان
إن الزمان ثروتى ، وحقلى الزمان

* * *

٢١ – افعل الخير لأجل الخير وحده !
ثم سلّمه لنسل من دمك
فإذا لم يجن أولادك منه
فهو لن يخلف للأحفاد وعده . . .

* * *

٢٢ – اعترفوا بأن شعراء الشرق
أعظم منا شعراء الغرب
لكنا وإياهم سواء
فى الحقد على أمثالنا من الشعراء .

* * *

٢٣ – إن إراد الحسد أن يمزق نفسه
فدعوه يأكل جوعه .

* * *

٢٤ – إن كنت تحاذر أن ينهبك الناهب ويشينك
فاكتم ذهَبك وذَهابك ، واكتم دينَك

* * *

٢٥ – لماقتلت عنكبوتاً ذات يوم
فكرت هل كان صواباً مافعلت ؟
لقد أراد الله أن يصيبه
من هذه الأيام مثل ماأصبت .

* * *

٢٦ - إذا أردت حياة
بغير هم وفكر
فاجعل صديقيك دوماً
كأساً وديوان شعر .

* * *

٢٧ - رائع هو الشرف
الذى تجاوز البحر المتوسط
لن يفهم غناء كالديرون
إلامن أحب حافظاً وعرفه .

من كتاب تيمور

٢٨ – تيمور والشتاء

وهكذا أحاطهم الشتاء
بغضبة هائلة
وبينما راح ينثر بينهم
أنفاسه الثلجية ،
سلط عليهم الرياح المختلفة .
وأعطى عواصفه المسنونة بإبر الجليد
سلطانه الرهيب ،
انحدر إلى مجلس شورى تيمور
وصرخ فى وجهه مهدداً متوعداً :
مهلاً ، وترفق ، أيها الشقى !
تابع سيرك ياطاغية الظلم ،
إلى متى يقدَّر على القلوب
أن تحترق وتُصهَر فى نيرانك ؟
إنْ تَكُ أحدَ الأرواح الملعونة
حسن ! فاعلم أنى الروح الآخر .
أنت عجوز ، وأنا أيضاً

وكلانا يجمد الأرض كما يجمد الناس .
أنت المريخ ، وأنا زحل
وكلانا كوكب نحس
وإذا اخترنا حلَّ الكرب .
إن كنتَ تميت النفس وتبرد الهواء
فما زالت رياحى أقسى برداً مما تتصور .
وإن كانت جيوشك الوحشية
تسوم المؤمنين ألف عذاب ،
فليس لك هذا ، وليحدث فى أيامى .
وبعون الله ، ماهو أسوأ
وبحق الله ، لاتنتظرن هدية .
وليسمع عنى الله ويشهد ماسأقدم لك !
أجل والله ! لن يدفع الموت
عن شيخوختك لهيب الفحم من الموقد ،
ولاالنيران المتقدة فى ديسمبر .

* * *

من كتاب زليخا

٢٩ – دعوة :

يجب عليك ألا تهرب من اليوم .
لأن اليوم الذى ستبلغه
ليس أفضل من اليوم الحاضر ،
لكنك لو لبثت مسروراً
حيث أتجنب العالم
لكى أجذب العالم نحوى ،
فسوف تشعر مثلى بالأمان :
اليوم يوم وغداً هو الغد ،
وكل مايتلو وماقد عبر
لايأسر القلب ولايستمر
فلتبق أنت ياأعز الناس
فأنت من تعطى ومن تواسى

* * *

٣٠– لما كنت الآن تسمين زليخا
فالواجب يقضى أن أحمل اسماً .
ومادمت تطرين حبيبك «حاتم»

فليصبح حاتم اسمى .
ولكى يعرفنى الناس به
فلابد ألايشوبه ادعاء :
فمن يطلق على نفسه اسم فارس القديس جورج
لايحسب نفسه مثل القديس جورج .
وأنا لاأملك فى فقرى أن أدعى
حاتم الطائى أكرم الكرماء ،
لا ولاحاتم الطغرائى
أسخى الأسخياء من الشعراء الأحياء .
لكنى أسمح لنفسى أن أضعها نصب عينى
وليس فى هذا مايستحق الذم أوالملام
فأخذ هدايا السعادة أوبذلها
سيبقى على الدهر أسمى المتع ،
وحب الحبيبين فى نشوة
سيبقى نعيم الجنان .

* * *

٣١- ماخاب لصب مسعاه
مهما يشتد من الكرب
لوتبعث ليلى والمجنون
هديتهما درب الحب .

* * *

٣٢ - أمِنَ الممكنِ أن ترضى بقبلة
حلوةٍ أقطفها من شفتيك ؟
وصدى الصوت الإلهى له
هزة تجرفنى بين يديك ؟
إنما الوردة تبدو مستحيلة
وكذا البلبل لغز لايحل ،
(ذلك البلبل يشدو فوق أيك)

* * *

٣٣ - زليخا

الشعب والخادم والسلطان[١]
يؤكدون دائماً وكل حين
بأن أقصى بهجة الإنسان
شخصية واضحة الجبين
إن الحياة نعمة تكون
إذا بقيتَ دائما من أنت
فكل شيء ضائع يهون
إن أنت فيها النفس ماضَيعتْ[٢]

* * *

(١) حرفيا : القاهر والغالب .
(٢) غيرت قليلا فى الترتيب الأصلى لهذه الأبيات بما لا يخرج عن المعنى الأصلى .

٣٤ إن قدر الدهر يوماً
بالهجر عمن تحبْ
وصار بعدك عنه
مابين شرق وغرب
يهيم عبر الصحارى
فؤادك المشتاق
مامن رفيق سواه
إن عز فيها الرفاق
بغداد ليست بمنأى
عن أعين العشاق .

* * *

٣٥ – ترجيع [١]

لا تدعنى هكذا لليل وحدى ، للكدر
يا أعز الناس عندى ، أنت يا وجه القمر
انت يا بدر صباحى

---

(١) اكتفيت هنا بالمقطوعة الثالثة من هذه القصيدة . أما المقطوعتان الأوليان فتقولان مع بعض التصرف : كم يرن الصوت حلواً ، كلما شبه نفسه ، شاعر بالشمس مرة ، مرة أخرى بقيصر . غير أن الشاعر البائس يخفى وجهه الباكى إذا الليل استتر . زرقة الأفق التى كانت سماء صافية ، غرقت فى الليل والتفت حواليها السحب ، وخدودى أصبحت شاحبة ، ودموع القلب تهوى كاسفات كالشهب .

شمعتى أنت وشمسى
آه يا نور البصر!

* * *

٣٦ – فى إمكانك أن تتخفى فى آلاف الأشكال ،
لكن يا أغلى الناس ، سأعرفك على الفور .
قد تخفين محياك وراء الأقنعة السحرية ،
يا حاضرة فى كل الأشياء ، سأعرفك على الفور .
فى شجرة سرو رائعة ناضرة القد ،
يا فاتنة العود سأعرفك على الفور ،
فى وشوشة قناة صافية الموج ،
أيتها المتثنية سأعرفك على الفور .
وإذا ارتفعت نافورة ماء تتلوى ،
يا من تهوين اللعب سأعرفك على الفور .
وإذا أبصرت سحاباً يتشكل
يا من تتعدد أشكالك . أعرفك على الفور
فى سجاد المرج الأخضر تحت قناع الزهر ،
أعرف حسنك ، يا من زينتك ضياء البدر ،
وإذا اللبلابة مدت ألف ذراع
يا من عانقت الكل سأعرفك على الفور .
وإذا اشتعلت رأس الجبل بنار الفجر ،
يا واهبة النور أجيبك على الفور ،

ولو الفلك ترامت قبته فوق ،
لتنفستك . أنت سماء القلب .
إن كنت عرفت بحسي شيئا أو باللب
يا نبع العلم ، فعلمي منك .
أو سبحت بمائة من أسماء الله الحسنى ،
سيردد كل دعاء اسماً لك .

من كتاب الساقى

٣٧ – هل القرآن قديم ؟
شيء لا أسأل عنه !
هل هو مخلوق ؟
شئ لا أدريه !
أما أن القرآن كتاب الكتب
فهذا ما أعتقد
ويفرضه واجبى كمسلم .
أما أن الخمر قديم منذ الأزل
فأمر لا أتشكك فيه ،
ولعل القول بأن ملائكة الله
قد خلقته
ليس حديث خرافة .
إن الشارب ، مهما كان ،
يعاين وجه الله
بعين أكثر نضرة .

* * *

٣٨ – حق علينا أجمعين السكْر !
إن الصبا سُكْر بغير خمر .
إن جدَّد الشيخ صباه بالشراب ،
فهذه فضيلة ، وغاية الصواب .
حياتنا تكفلت بالغم والهموم
والهم لا تطرده ، إلا يد الكروم !
الآن لا شك ولا سؤال !
قد حرم الخمر بلا جدال .
فإنْ قضى بشربه المقدر ،
فاشرب إذاً من أجود الخمور :
ستستحق اللعن مرتين
إذا جعلت السُكْر بين بين !

* * *

من كتاب الأمثال

٤٠ – تحدرت قطرة خائفة من السماء
وسط أنواء البحار الثائرة فعصفت بها الأمواج
لكن الله كافأ شجاعة الإيمان
ووهب القطرة القوة والبقاء .
ضمتها المحارة الساكنة (بين الضلوع)
وهى الآن لؤلؤة تنعم بالتكريم والخلود
وتتألق فى تاج قيصرنا المجيد
بنظرة ساحرة سنية البهاء

* * *

٤١ – شدو البلبل فى الليل تصاعد وسط الأنواء
نفذ الصوت إلى عرش الله الوضاء .
كافأه الرب على شدوه
فى قفص ذهبى حبسه
والقفص ضلوع الإنسان
مازال البلبل مسجوناً
لكن الروح يردد نغماً حلو الأصداء
حين يفكر فى محنته كالعقلاء !

ودعت جوف محار لؤلوة .
زينة اللؤلؤ من أصل نبيل ،
هتفت بالصائغ الطيب أن
يصنع المعروف فيها والجميل
« إن ثقبتَ الرأسَ منى فلقد
ضعتُ وانهدَّ كيانى وانحطم
سأذوق المرَّ لو جمعنى
ورفاق السوء عقد منتظم ! »
— « لست أبغى الآن إلا مكسبى
ولهذا أطلب الغفران منك ،
كيف للعقد إذاً أن يزدهى
لو ترفقت ولم أقس عليك ! »

* * *

٤٢ — رأيت بدهشة وابتهاج
ريشة طاووس بين صفحات القرآن :
« مرحبا بك فى هذا المكان المقدس ،
أغلى كنز بين بدائع الأرض !
إن عظمة الله التى تتجلى فى أصغر الكائنات
نتعلمها منك ، كما نتعلمها من نجوم السموات ،
ونعرف أنه . وهو الذى يشمل الأكوان بنظرته .

قد طبع هنا آثار عينيه ،
وهكذا زين هذه الريشة الخفيفة
بحيث لم يفلح الملوك (فى يوم من الأيام)
فى محاكاة بهاء هذا الطائر (الفتان)
ابتهجى بتواضع بهذا المجد العظيم
تكونى جديرة بالمكان المقدس الكريم .

٤٣ – حسن

تحت ضوء القمر فى الفردوس
وجد « يهوا » آدم غارقاً فى نوم عميق
فوضع حواء صغيرة بجانبه فى هدوء
راحت هى الأخرى فى سبات مديد .
وهكذا رقدت فى قيود الأرض
أحب فكرتين من أفكار الله .
« حسن » ! هكذا هتف راضياً عن صنعه البديع ،
حتى لقد ابتعد عنهما وهو غير مستريح .
لا عجب إذاً أن تهزنا النشوة
عندما تنظر العين فى العين نظرة منعشة ،
وكأننا قد بلغنا من الأمر مداه
وأصبحنا بالقرب ممن فكر فينا وسوتنا يداه .
فإن دعانا إليه فسوف نرحب بدعاه !

بشرط أن نذهب إليه نحن الاثنان .
فلتحطك الآن أغلال ذراعيَّ بحب
أنت يا أحلى ويا أجمل ما صور ربى !

* * *

من كتاب الخلد

٤٤ – تذوق

المسلم الحق يتحدث عن الفردوس
وكأنه كان بنفسه هناك ،
ويؤمن بالقرآن وما وعد به
وعلى هذا تقوم العقيدة الطاهرة .
غير أن النبي الذى أُنزِل عليه ذلك الكتاب ،
يشفع لزلاتنا هناك فى الأعالى ،
ويرى ، على الرغم من رعود اللعنات ،
أن الشكوك غالباً ما تفسد علينا الإيمان .
لهذا يرسل إلينا من عليين
نموذجاً للشباب يجدد كل الأشياء ،
ترف إلى هنا وتكبل بغير إبطاء
رقبتى بألطف الحبال .
أضعها على حجرى ، وأضمها إلى الفؤاد
هذه المخلوقة السماوية ، ولا أتطلع للمزيد ،
وهكذا أومن إيماناً راسخاً بالفردوس
لأنى أحب أن أقبلها بحنان إلى أبد الآبدين .

٤٦ – صفوة النساء

لا ينبغى أن يضيع شىء على النساء ،
فالإخلاص الطاهر خليق بالأمل والرجاء ،
لكنا لا نعرف إلا أربعاً منهن
قد دخلن بالفعل من أبواب الجنان .
أما الأولى فهى زليخا ، شمس الأرض ،
التى هامت بيوسف وبرح بها الغرام ،
والآن وهى بهجة الفردوس
تسطع زينة للزهد والعفاف .
ثم المباركة من جميع الناس ،
التى ولدت المخلص للكافرين ،
فلما خُدِعَت رأت فى ألم مرير
ابنها الحبيب ضائعاً على الصليب .
وزوجة محمد التى أفاضت عليه الحنان
وأعانته على تحقيق أروع الأمجاد ،
وأوصت فى حياتها بألا يكون
إلا رب واحد وزوجة واحدة .
وبعدهن تأتى فاطمة الزهراء
الابنة الطاهرة والزوجة المصون ،
ذات الروح النقية كملائكة السماء
فى جسم من عسل ذهبى مكنون .

هؤلاء هن اللواتى تجدهن هناك ،
وكل من رفع من ذكر النساء
يستحق أن يطوف مع هؤلاء
هناك فى خالد الجنان .

الحورية

٤٧ - سماح :

اليوم أتولى الحراسة
أمام باب الفردوس ،
لا أدرى ماذا أصنع
فأنت تبدو لى مريباً !
هل تجمعك قرابة
بأصحابنا المسلمين ؟
هل أرسلك جهادك
أو فضلك للفردوس ؟
هل تعد نفسك من أولئك الأبطال ؟
أرنى جراحك
التى تشهد بأمجادك
وسأسمح لك بالدخول .

* * *

الشاعر

كُفِى عن هذا السخف !
واسمحى لى بالدخول :
فلقد عشت حياة إنسان
أى أنى كنت من المجاهدين .
ثبتى فىَّ نظراتك الحداد
وانفذى بها فى هذا الصدر ،
انظرى كيف مكرت بى جراح الحياة ،
وانظرى كيف أغوتنى جراح الحب .
مع هذا غنيت بصدق وإيمان :

كى تبقى حبيبتى على الوفاء
ويبقى العالم ، مهما يَدُرْ به المدار ،
غنيًّا بالحب والحمد والعرفان .

عملتُ مع الصفوة النابهين
حتى تحقق لى المأمول
وسطع اسمى كشعلات الحب
الذى تكنه أجمل القلوب

لا ! لن تختارى رجلا قليل الشأن !
أعطنى يدك ، حتى يمكننى مع الأيام
أن أحصى على أناملك الرقيقة
عدد الدهور والآباد .

* * *

٤٨ – حيوانات مرضى عنها

بُشِّرت كذلك أربع حيوانات
بدخول جنة الفردوس ،
هناك تعيش أبد السنين
مع الأولياء والصالحين .
يتقدمهم (فى الصف) حمار ،
يثب بخطوات نشطة
فقد ركب على ظهره يسوع
وهو يدخل مدينة الأنبياء .

ثم يأتى ذئب هياب
أمره محمد رسول الله :
« دع هذه الشاة للمسكين
وابحث عن أخرى عند أحد الأغنياء » .

ويهز ذيله فى مرح لطيف ،
كلب صغير مع صاحبه الأمين ،

شارك أهل الكهف السبعة
نومهم فى حب وإخلاص .

وها هى ذى هرّة أبى هريرة
تموء حول سيدها وتلاطفه :
إذ سيبقى حيواناً مقدساً على الدوام
ذلك الذى مسح عليه أفضل الأنام .

٤٩ – طابت ليلتكم !

نامى الآن ،
يا أشعار الديوان
على صدر الشعب !
ولينشر جبريل بفضله
سحابة مسك
فوق الجسد المكدود
حتى يمضى الشاعر وهو معافى
مرح – كالعهد به – وودود
فيشق الصخر
ويجوب سعيدا
جنات الخلد
فى رفقة كل الفرسان

من كل زمان
حيث الحسن المتجدد
يزكو في كل مكان .
فتسر الناس
ويحق لهذا الكلب ،
الكلب الطيب ،
أن يدخل مع سادته
جنات الخلد .

* * *

قصائد نشرت بعد وفاة جوته
وضمت للديوان

٥٠ – من يعرف نفسه
وكذلك غيره
فسيعرف أيضاً
أن الشرق وأن الغرب
لن يفترقا أو يبتعدا

سأظل أغنى
وأهدهد لحنى
ما بين الشرق وبين الغرب
وسيصبح سعيى
هو غاية مجدى !

* * *

٥١ – حافظ ، أأسوى نفسى بك
ياللوهم !

إنْ تمخر أمواج البحر سفينة
بشراع تنفخه الريح
فستسرى فيه جسوراً
فإذا حطمها الموج
سبحت فيه
قطعة خشب متهرئ .
فى أشعارك وأغانيك
ينساب اللحن العذب
يدفق سيل رطب
وتمور وتغلى أمواج حريق
فأحس كأنى
تبلعنى النار .
لكن غرورى زيّن لى
أنى مقدام وجسور :
قد زرتُ بلاد الشمس
وهناك عشت وأحببت !

* * *

٥٢ – مبعوث الشاهنشاه
طوفت بلادَ الله .
فتشت بكل مكان
وتمليت الأركان ،

ما من سنبلة خضرا
إلا أعطتني الخبرا ،
لكنى لم أر أبداً
بلداً تفضلكم بلداً
تحرسها عين الرب
ويفيض عليها الحب
فليهنأ شعب الروس
بملائكة الفردوس
وعروس بعد عروس !

* * *

٥٣ - رائع كالمسك أنت ،
حيثما كنت يفوح العطر منك
وتشى الأنفاس بك .

* * *

٥٤ - كم من عاشق
عُذِّب قبلى
هل كان هو المجنون
فى رقته ونحوله ؟
أم هو فرهاد الأقوى ؟
أم حب جميل بثينة

حب العفة والطهر ؟
أم هو أحد الآلاف
السعداء — التعساء ؟
قد كان يحب !
وأنا مثله
أعرف همه !
أما أنت زليخا فتنامين
فوق وسادة
ناعمة الريش
لك زَيَّنت
وكذلك تسرى الرعشة
مسرى الشهد بأعضائك
« هو حاتم يهتف بى »
أنا أيضا أهتف بك :
حاتم ! حاتم ! »

* * *

- قال الهدهد : « بنظرة واحدة
باحت بكل شىء
ولقد سعدت بسعدكم
كالعهد بى على الدوام .
أحبو إذاً !

انظروا فى ليالى الفراق
تروا النقش المرسوم على النجوم
حبكم يسطع مجده ويبقى
فى صحبة القوى الأبدية » .

* * *

٥٦ – أسألكم هل تعرفون يا ترى ما اسم الحبيب ؟
وأىَّ خمرٍ أنتشى ، بذكرها وأستطيب ؟

* * *

تعقيبات وإشارات للأشعار

١ – من الواضح أن المقطوعة الثانية تقوم على الآية الكريمة من سورة الأنعام : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » (٦ ، ٩٧) .

٢ – تعبر هذه القصيدة عن رؤية جوته الكونية التى امتزجت بالرؤية الشرقية : التسليم بقدرة عالية تفعل فعلها الأبدى على نول الزمان المدوى لتنسج ثوب الألوهية الحى (فاوست ، البيتان ٥٠٨ – ٥٠٩) ، والاستقطاب الذى تقوم عليه حياة الطبيعة والكون . وأبيات المقطوعتين الأوليين مستوحاة من الآيتين الكريمتين من سورة البقرة : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم » و « قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » (٢ ، ١١٥ – ١٤٢) .

٥ – تصور هذه القصيدة أسلوب جوته الشعرى فى مرحلة الشيخوخة بعد تحرره من النزعة الكلاسيكية ، بحيث تضع التجسيم الذى يميل إليه الشعر اليونانى فى مواجهة العنصر السيال الذى يميز الشعر الشرقى . والمقطوعة الثالثة تعبر عن ماهية الشاعر بوجه عام . فالرمز المستمد من الأساطير الهندية عن الموجة المتكورة يعبر عن الفن بوصفه إدراك ما لا يدرك ، والتعبير عما لا سبيل للتعبير عنه ، وتحقيق الحرية وسط القيود ، والارتفاع بالفانى إلى مستوى الخلود . والسطر التاسع يكرر فكرة

جوتة الأساسية عن الخلاص عن طريق الفن ، وهى الفكرة التى عبر عنها تعبيراً لا ينسى فى ختام مسرحية « تاسو » : وإذا ما أخرس الإنسان عذابه ، وهبنى الرب أن أعبر عن عذابى (الترجمة العربية ، الفصل الرابع ، المشهد الرابع) ولعل القصيدة كلها أن تكون وداعاً لجوتة الإغريقى الذى طالما تعبد الصورة والشكل والتمثال . وإعلانا عن بعث الحياة وتجددها فى جوته الشرقى الذى حنت روحه إلى الشرق حنين الفراشة للنور .

٧ ، ٨ – ‌هاتان القصيدتان ، بالإضافة إلى قصيدتيه « ترجيع » (٣٥ من المختارات) ودعونى أبكى (تقدم ذكرها عند الحديث عن موقف الشاعر من الأدب العربى) تعبران أصدق تعبير عن شعر التجربة عند جوتة . فالقصيدة الأولى التى قال عنها مترجمها فون ديز عن الشاعر التركى نشانى : « إن كل بيت فيها يدل على الحب الإلهى » تحولت على يد جوتة إلى قصيدة حب دنيوية . إن الأنا تتألم بتجربة الحب التى ذاق مرارتها فى بداية تعرفه على ماريانة . ومع ذلك فالقصيدتان لا تخلوان من نزعة التهكم على النفس التى تؤكد حرية الذات ولا تقلل من الألم . ولعلها تعبران عن اليأس الذى يشعر به رجل عُرِفَ بالحكمة التى لم تمنعه من الوقوع فى شباك الحب ، كما تمهد « لمرثية ما رينباد » التى بكى فيها حبه الأخير !

٩ – يضم هذا الكتاب مع الكتابين التاليين مجموعة من قصائد الحكم والأمثال التى استقى الشاعر بعضها من أصول فارسية وعربية وألمانية قديمة . ومعظمها يتألف من مقطعات قصيرة من بيتين أو أربعة أبيات أو أكثر . ولم يقتصر جوته على الشعر الغنائى الذى كان يتدفق من نبعه الفطرى غنيًّا بالتجربة المؤثرة ، إذ كان بطبيعة « المربى » المتأصلة فيه يميل كذلك إلى الشعر التعليمى وشعر الحكمة والتأمل . وقد غلب هذا اللون من الشعر على إنتاجه المتأخر بوجه خاص ، سواء فى الديوان أو فى

أشعاره الفلسفية أو فى رواية « سنوات التجوال » أو فى الحكم والتأملات . وقد أخذ كما رأينا من الشعر الفارسي والجاهلي واستفاد منه فى « الحكم الأليفة » التى تحدثنا عنها من قبل ، كما استلهمهما معا فى كتب التفكير والضيق والحكمة والأمثال من الديوان الشرقى .

١٤ – هذه القصيدة وغيرها فى هذا الكتاب تهاجم الأدعياء أصحاب البدع الجديدة في الأدب والدين . وربما كانت كذلك تعبيراً عن إيمان الشاعر « بالحاضر السرمدى » ودعوته للحياة فى اللحظة الحاضرة التى يتحد فيها الماضى والمستقبل وتقدير قيمتها وملئها بالعمل الخصب . وقد كان من الضرورى أن تجد نغمة السخط مكانها فى الديوان الذى يعبر عن شخصية الشاعر من جميع جوانبها . وقراء اليوم لا يتصورون مقدار ما عاناه جوته من حقد وما لقيه من صغار . فكم اتهمه أصحاب النفوس الصغيرة والألسن الطويلة – الذين لا ينجو منهم مكان ولا زمان ! – بالغرور والتكبر ، والتهتك فى حياته الخاصة ، والخضوع المهين للأشراف والأمراء ، والتعالى على عامة الشعب ، وضعف الإحساس بالوطنية ، وعقم البحوث العلمية ، بل وصل الأمر إلى حد اتهامه بركاكة الشعر ! وقد كان يقابلها فى معظم الأحوال بالصمت والعكوف على عمله ولكنه كان ينفجر بالسخط والغضب فى بعض أحاديثه وكتاباته . ومع أن السخط لايناسب الشعر الغنائى ، فقد استطاع أن يعبر عنه فى أنغام ساحرة . وقد شجعه أن توأم روحه حافظ الشيرازى قد تعرض مثله للسع الحشرات الطفيلية

١٧ – نظمها فى « فيمار » فى الثالث والعشرين من فبراير سنة ١٨١٥ وأشار تحتها إلى الآية الكريمة من سورة الحج ، آية ١٥ : « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما

يغيظ » وقد سر الشاعر بالآية ولم يجد خيراً منها للرد على أعدائه الصغار !

٢٠ – يؤكد هذان البيتان شعار جوته القديم : « الزمان ثورتى ، والزمان حقلى » ؛ كما يؤكدان فلسفته القائمة على الفعل : « فى البدء كان الفعل ! » ومادام الإنسان لا يملك إلا حقل اللحظة الحاضرة ، فما الذى يطلب منه إلا الإقبال على حرثه ورعايته بالعمل ؟ ! – تلك هى ذروة الجدية والمسئولية والوعى بقيمة الحياة التى يتهددها الفناء فى كل لحظة . لكن ما أبعد هذا عن وعى الإنسان ، خصوصا فى الشرق العربى الغارق فى غيبوبته . وقد أورد هذا الشعار بنصه اللاتينى [1] فى رسالة كتبها (فى ٢٦ / ٤ / ١٧٩٧) إلى فريتس فون شتاين ، كما وردت نفس الفكرة فى أكثر من حكمة من « حكمه وتأملاته » وفى سنوات تجوال فيلهلم ميستر (٣ ، ٢) حيث يقول بوضوح : لابد من عمل شىء فى كل لحظة ! » .

٢٧ – عرف الألمان الكاتب المسرحى الإسبانى كالديرون دى لاباركا (١٦٠٠ – ١٦٨١) بفضل ترجمات الرومانتيكيين – خصوصا أوجست فيلهلم شليجل – للأدب الإسبانى . ثم زادت معرفتهم به بفضل ترجمات يوهان دتيريش جريس (١٧٧٠ – ١٨٤٢) . وقد أحبه جوته وأثنى عليه ، فقال فى رسالة له إلى تسلتر (فى ٢٨ / ٤ / ١٨٢٩) : « إذا كانت الطبيعة والشعر يتحدان أوثق اتحاد عند شيكسبير ، فإن الشعر والثقافة الراقية يتصلان اتصالاً حميماً عند كالديرون » . ولعل تجربته مع الشرق الإسلامى والحضارة العربية التى ازدهرت فى الأندلس قد زادت من تقديره وإعجابه بكالديرون – يؤيد هذا قوله لجريس السابق الذكر (فى ٢٩ / ٥ / ١٨١٦) : « أود أن أضيف إلى هذا أن مقامى فى الشرق جعلنى أزداد تقديراً لكالديرون الذى لم ينكر ثقافته العربية » .

(1) Tempus divitiae meae, tempus ager meus.

٢٨ – يقول جوته فى إعلان عن هذا الكتاب سنة ١٨١٦ فى « صحيفة الصباح » . « يعكس كتاب تيمور أحداثاً عالمية كبرى فى مرآة نرى فيها ، لعزائنا أو لبلائنا ، انعكاس مصائرنا نحن . وتيمور – الذى يفاجئه الشتاء وهو يعد لحملته على الصين – يجسد القوى الشيطانية التى طالما تحدث عنها جوته وقال إنها تصطدم مع القانون الأخلاق فى العالم . وتيمور وأمثاله من الطغاة الجبابرة ليسوا بشراً عاديين . وإنما هم أشبه بالقوى الطبيعية المدمرة – فالطاغية كارثة . زلزال أو بركان أو طوفان . ولهذا لا يقهره إنسان مثله ، ولا تقوى على تحطيمه إلا كارثة أقوى منه . ولا تقهره إلا الطبيعة والكون نفسه – ووجه الشبه ظاهر مع نابليون وحملته الشتوية على روسيا وقد أعجب به جوته والتقى به لقاء لا ينسى قوله له : «هاكم رجلا ! » ثم روعته نهايته الفاجعة التى لم يتوقع أن تتم بمثل السرعة التى تمت بها . ولكن إعجابه به شىء ومسئولية الشعر عن مقاومة الطغيان شىء آخر . وقد عانى جوته ما عانى من احتلال جنود نابليون لمدينة فيمار ومزاحمته فى بيته . كما قاسى حافظ فى شيخوخته من طغيان تيمورلنك (١٣٥٦ – ١٤٠٥) وخيمت ظلاله السوداء على حياته التى وهبها للشعر ، وذلك قبل أن تموت الجرادة المغولية الكبرى فى سنة ١٣٩٠ – وقد تأثر الشاعر هنا بقصيدة وردت فى كتاب « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » لابن عربشاه . وقرأها فى ترجمة لاتينية للمستشرق الإنجليزى جونز .

٢٩ – يصور هذا الكتاب جدل الحب فى أجمل صورة : فنحن لا نجد فيه إلا الحبيبين . عذاب الحرمان الذى يفرق بينهما ، ونعمة اللقاء التى تسعدهما ، الإحساس بأن كلا منهما قد خُلق للآخر ، والشعور بأن الحب يتغلغل بهما فى الكون الشامل ، والحب يعيد كلا منهما إلى نفسه ، ويجعله يحس أنه واحد واثنان . ولهذا

كثرت الرموز الدنيوية (التى يشبه فيها حاتم نفسه بالقيصر وإن يكن أغنى منه . لأن القيصر لا يعرف الحب . والحب وحده هو الذى يهب القوة والغنى) بجانب الرموز الدينية التى تؤكد أن تجربة الحب فى ذاتها تجربة روحية ، وأنها إشعاع من النور الإلهى الذى يغمر الوجود (أنت يا شمسى ويا نور البصر !) . وعلى الرغم من العاطفة المشبوبة التى تشيع فى الكتاب فإنه لم يخل من التجربة الحكيمة والدعابة الحرة المرحة . ولا عجب فى ذلك . إذ كان حاتم فى الخامسة والستين وكانت زليخا فى الثلاثين !

٣٠ – استطاع الشاعر أن يدعو حبيبته باسم زليخا (زوجة بوتيفار التى روت التوراة قصتها . وامرأة العزيز التى هامت حبا بيوسف الصديق . وكانت قد رأته فى المنام قبل أن تفتن بجماله ثم هداها الله إلى الإيمان) ولكنه لم يستطع أن يسمى نفسه يوسف الذى كان يشبه أدونيس فى جماله وشبابه ، واختار اسم رجل أنضجته السن واشتهر بالبذل والسخاء . وقد عرف حاتم الطائى من بستان سعدى ، أما حاتم الطغرائى فيبدو أنه خلط اسمه سهواً باسم حسن الطغرائى الذى ذكره هيربيلو فى « المكتبة الشرقية » (جزء ٢ ، ٤٨٨) بوصفه شاعراً عربياً .

٣٢ – من أجمل قصائد جوته التى تجمع بين عمق المعنى وحلاوة النغم . وهى تتألف من أربعة أبيات (اضطرت الترجمة للأسف أن تضيف إليها بجانب جنايتها عليها !) وتعبر مثل قصيدة « فى إمكانك أن تتخفى فى آلاف الأشكال » التى سترد بعدها تحت رقم ٣٦ عن الطبيعة الكونية والدينية للحب . فنقاب الحب الأرضى – كما يقول الشاعر نفسه فى إعلانه السابق الذكر عن ديوانه الشرقى – يكشف عن علاقات أسمى . وتكرر القصيدة ما قاله عن السر المقدس المكشوف فى قصيدة مشهورة من قصائده الفلسفية المتأخرة بعنوان مشتق من مصطلحات الجوقة فى

الدراما الإغريقية (إبيريا) إن الوردة والبلبل والحبيبة كلها أشياء قريبة مباشرة متناهية ، لكنها تكشف عن اللامتناهي الذى لا سبيل إلى فهمه أو حل لغزه . ولهذا يفاجئنا قوله إن الوردة تبدو مستحيلة ، وإن البلبل غير مفهوم ، مع أنهما واقعيان ملموسان . والحقيقة أن جمالهمايعكس الجمال المطلق الذى لابد أن يشعر الإنسان حياله بالرهبة والعجز والخشوع .

٣٣ – كان إيمان جوته بالشخصية المتفردة المتكاملة قريباً من إيمان ليبنتز بالمونادة أو الجوهر الروحي الفرد . فالشخصية ، كما يقول هذا البيت المشهور ، وهى أسمى سعادة يمكن أن يبلغها أبناء الأرض . وكل شىء فى هذا العالم يمكن تصور فنائه ، اللهم إلا الشخصية المتكاملة (وهذا يذكرنا اليوم بما يقوله هسرل فيلسوف الظاهريات (١٨٥٩ – ١٩٣٨) عن الأنا أو الذات المتعالية الخالصة) بل إن إيمانه بالخلود بعد الموت قائم على إيمانه بأن الشخصية التى قضت حياتها على الأرض فى تثقيف نفسها واستيعاب كل ما يمكنها من معرفة وتحقيق أقصى ممكناتها لا يمكن أبداً أن يسرى عليها الفناء . وقد عبر الشاعر عن هذا لصديقه « يوهانس فالك » ليلة تشييع جنازة الأديب فيلاند (فى ٢٥ يناير عام ١٨١٣) كما عبر عنه فى كتابه « تاريخ نظرية الألوان » حيث يقول فى الفقرة التى يتحدث فيها عن شخصية نيوتن : « إن كل كائن يشعر بوحدته تتجه إرادته إلى التمسك بحالته التى هو عليها . هذه هبة أبدية وضرورية من هبات الطبيعة . ومن هنا يمكن القول بأن كل كائن فرد يحافظ على طبعه ، حتى الدودة التى تنكمش على نفسها إذا داستها الأقدام . بهذا المعنى يجوز لنا أن ننسب طبعاً للضعيف ، بل للجبان ، لأنه يتخلى عما يقدره سائر الناس فوق كل شىء ، أى عن الشرف والمجد ، فى سبيل المحافظة على شخصيته . . – غير أن الحالة مع الحب تختلف عن هذا . فالمحب – كالمتصوف –

لا يجد ذاته إلا إذا فقدها ، ولا يحس وجده شخصيته إلا إذا بدلها المحبوب . ولن يشعر بهذه المفارقة الجدلية إلا عاشق أو متصوف ! والقسم الثانى من القصيدة يؤكد هذا المعنى . فحاتم يرد على زليخا بقوله : « هذا جائز ! وهو كذلك رأى الناس . لكنى أتبع أثراً آخر . إذ لا أجد نعيم الأرض ، إلا فى حب زليخا . إن تَبذُلْ من أجلى النفس ، تكبر نفسى فى عينى . فإذا هجرتنى أو صدَّت ، ضيعتُ النفس على الفور ! » — ثم تستطرد المقطوعتان الأخيرتان فتؤكدان أنه سيغير مصيره إذا أحس أن « حاتم » قد راحت عليه ! عندئذ يتقمص روح العاشق الجميل الذى تغازله ، وربما اختار أن تحل روحه فى جسد الفردوسى أو المتنبى أو نجلى أسوأ الأحوال فى القيصر نفسه !

٣٥ — أى ترجيع للقصائد السابقة عليها . وهى فى الأصل أشجى قصائد الديوان وأقواها تأثيراً على النفس . إن الشاعر يهتف من هاوية اليأس : أنت ! أنت ! وبهذا النداء ينتصر على يأسه . لاحظ أيضا تكرار الصور التى تعبر عن النور . ومن الواضح أن « وجه القمر » صورة شرقية مألوفة ، وقد وجدها الشاعر عند حافظ الشيرازى ، أما « بدر صباحى » فهى فى الأصل فسفور ، والكلمة اليونانية الأصل تعنى حامل النور أو واهبه — والقصيدة تجمع بين لغة الأغنية الشعبية ولغة الصنعة الفنية ، بين اليأس والتهكم ، والعاطفة الحزينة الأسيانة واللعب اللطيف باللغة ، كما توحد بين ألوان من الاستقطاب ، والتوتر والتضاد الذى تقوم عليه الحياة فى الطبيعة وفى الفن والشعر جميعا .

٣٦ — تأتى هذه القصيدة ختاماً لكتاب زليخا ، وكأنها الحركة الأخيرة التى تختم بها السيمفونية أن الحب فى الديوان كله يرف بين الأرض وما فوق الأرض ، والطبيعة هى طريقه إلى الله . ولهذا تشبه القصيدة أن تكون مسبحة الشاعر الغربى

التى يردد عليها أسماء الحبيب فتنساب ضراعاته فى نغم دافئ عميق . وتنهال صور التبتل واستعاراته التى تمجد المعبود الحاضر فى كل شىء ، المتحد بكل موجود ، المتجلى فى كل مظاهر الطبيعة ، أشبه باللحن المتدفق فى تنويعات مختلفة . وكأن القصيدة تسير فى خط لولبى يبدأ من المنبع الإلهى ليعود إليه . وكأن المحبوبة صارت طبيعة ، أو كأن الطبيعة أصبحت هى المحبوبة الخالدة . .

٤٠ – معظم الأمثال فى هذا الكتاب ذات معنى دينى . وقد كان العنوان الأصلى الذى وضعه جوته فى المخطوطة هو « لؤلؤة مؤمنة » (كما كان العنوان الأصلى لقصيدة « حنين مبارك » التى تقدم ذكرها هو التضحية بالذات) إن القطرة لم تعد قطرة . لقد ماتت فأصبحت هى نفسها (كما قال أحد أبيات الحنين المبارك مت حتى تكون) والتضحية بالذات علو وارتفاع فى سلم الوجود . فالفراشة تحقق ذاتها بالفناء فى نار الشمعة . والقطرة تحقق ذاتها عندما تموت وتتحول إلى لؤلؤة . وكأن تحقيق الذات قهر للموت . وتلك هى عقيدة الشاعر عن الخلود . ولعل العمل الفنى – فى تحولاته المختلفة التى يمر بها حتى يصبح عملا كاملا – يشبه هذه القطرة التى وهبها الله القوة والبقاء . وكافأها على شجاعة الإيمان فصاغ منها لؤلؤة يزهو بها تاج القيصر المجيد . .

٤٢ – واضح من معنى القصيدة أن الفرد يتحتم عليه أن يضحى بنفسه لكى ينشأ كل أسمى منه وأرقى . ومع أن الفرد غاية فى ذاته ، فلا يجوز له أن ينسى أنه كذلك وسيلة إلى غاية أكمل منه وأشمل حتى اللؤلؤة النفيسة تعامل بقسوة وتجبر على السلوك فى عقد يضم أحجاراً غير نفيسة !

٤٣ – بداية القصيدة مستلهمة من جلستان سعدى . وإن كان الشاعر قد

أضفى عليها معنى يتفق ورؤيته الكونية التى تدرك عظمة الله فى أصغر الكائنات وأكبرها .

٤٤ – الأبيات الأخيرة تؤكد المعنى الدينى للقصيدة . وهل ينتظر المحبون تبريراً للحب أسمى من رضا الله على آدم وحواء النائمين حنباً إلى جنب فى جنة الفردوس ؟ وهل هناك ما يرضى الله أكثر من أن يقول كل منهما للآخر : « أنت يا أحلى ويا أجمل ماصور ربى ؟ » .

٤٥ – بهذا الكتاب تكتمل دائرة الديوان الشرقى . إنه أشبه بقبة سماوية تمتد فوق جميع الكتب وتعكس أضواءها كما تعكس ذات الشاعر وحياته . هنا نجد الحب النقى الصافى . حيث تضحى الأنا بنفسها لتتحد بالأنت . وهنا يلقى الشاعر كل أحبابه : زليخا الأرضية تبدو مثالا للجمال هبط من السماء (لعلها تصور مثال الجمال الأفلاطونى أو الفيض الأفلوطينى الصادر عن الواحد . وكلاهما أثر على رؤية الشاعر كما أثر على تفكيره العلمى فى الظاهرة الأولى والنبتة الأولى) كما تبدو الحورية أشبه بزليخا تتجلى فى نور الله . والكتاب دائرة سحرية غنية بألوان الشرق وأسرار الحب والحياة والخلود . وهو حوار دائم : نموذج الأنثى الخالدة يهبط إلى الأرض ، والمخلوقات الأرضية تصعد للسماء ، مجاهدون استشهدوا فى سبيل الله ، وصفوة النساء كما تراهن أعين المسلمين . حتى كلب أهل الكهف وقطة أبى هريرة لن يحرما من الجنة ! ويستمرالحوار بين الأرض والسماء واللعب والجد . بين زليخا المحبوبة فى الدنيا والحورية التى يناشدها الشاعر أن تسمح له بدخول الجنة . هناك الشوق إلى « الأنت » المحدودة ، وهنا الشوق إلى الأنت اللا محدودة ، ونغمة « الحنين المبارك » تتردد فى الحوار . ولكنها الآن نغمة مرحة حلوة الدعابة . كيف نفسر هذا كله ؟ - لابد أن يسأل كل منا قلبه . إذ لا يلمس القلب إلا ما يأتى من القلب .

وأخيراً يأتى الشاعر نفسه . ألم يحقق بشعره وحبه شروط الحور العين ؟ فليدخل عدن . ولتدخل معه ألحانه . . ولترتفع النفس الصغرى – فوق جناح الشوق – إلى نفس الكبرى . وليرتد الحب الأصغر للحب الأكبر . . تعب القلب . . فأنى يجد عزاء إلا فى النور ؟ ! . .

٤٩ – تتصل بالقصيدة السابقة عليها التى تروى قصة أهل الكهف ويتمنى الشاعر فى النهاية أن يبارك جبريل أعضاءه المجهدة كما بارك أهل الكهف فمد عليهم بساط النوم . وهو كذلك يتمنى أن يريحه من الحاضر ويرقى به إلى مملكة يحيا فيها فى صحبة الأبطال من كل زمان ، وينمو فيها الجمال ويتجدد (ولن تكون إلا مملكة الفن والأدب العالمى !) وهو يأمل أن يرافقه شعره إلى هذه المملكة . ولكنه لا يكتفى به ، بل يتمنى أيضا أن يصحبه قطمير الطيب فى رفقة كل الأبطال . .

٥٠ – كتبت هذه القصائد من وحى الجو الشعرى الذى نشأ فيه الديوان . ولكن جوته لم يضمها إلى الطبعتين اللتين نشرهما بنفسه فى سنتى ١٨١٩ ، ١٨٢٧ . وربما يرجع هذا إلى أنها تكرر موضوعات عبرت عنها القصائد الأخرى ، أو لأن لغتها وصورها لم ترضه كل الرضا . وقد نشر سكرتيره « ريمر » وصديقه الأمين « اكرمان » – صاحب الأحاديث المشهورة معه – قسما منها فى الطبعة المعروفة بطبعة الربع سنة ١٨٣٦ ، ثم نشر بقيتها كارل بورداخ – صاحب الفضل الأكبر على طبعة الديوان المعتمدة – فى المجلدين السادس (سنة ١٨٨٨) والثالث والخمسين (١٩١٤) من طبعة فيمار الكبرى لمؤلفات جوته . وقد اخترت لك بعضها لتعين على تكوين فكرة تقريبية عن الديوان ، كما قدمت إحداها (دعونى أبكى) فى سياق الحديث عن موقف الشاعر من الأدب العربى .

٥٢ – توشك هذه الأبيات أن تكون ترجمة حرفية لسطور كتبها السفير الإيرانى

ميرزا أبو الحسن خان (ولد سنة ١٧٧٦ فى شيراز) عندما زار مدينة بطرسبرج (لينينجراد) وطلبت إليه بعض الحسان أن يكتب شيئا بخط يده : « طوفت بالعالم كله ، وعاشرت أشخاصاً عديدين ، كل ركن قدم لى شيئاً نافعا ، وكل عود أخضر منحنى سنبلة ، ومع ذلك لم أر مكاناً يعدل هذه المدينة وحورياتها الجميلات . فلتحل عليها دائما بركة الله (انظر ص ١٩٦ من تعليقات جوته على الديوان ، طبعة أرنست بويتلر) .

أهم المصادر

١ – جوته ، يوهان فلفجانج – الديوان الشرقى للمؤلف الغربى ، نشره وشرحه أرنست بويتلر – بريمن ، مطبعة كارل شينمان ، ١٩٥٦ – (مسلسلة كتب ديتريش ، ١٢٥)

Goethe; West-östlicher Divan — Herausgegeben und erläutert von Ernst Beutler. — Bremen, Carl Schünemann Verlag, 1956 — (Sammlung Dietrich, Band 125).

٢ – جوته ، الديوان الشرقى ، طبعة هامبورج – المجلد الثانى ، عنى بنشره والتعليق عليه اريش ترونس ، الطبعة الخامسة ، ١٩٦٠ .

Goethes Werke, Hamburger Ausgabe, Band II — Textkritisch durchgesehen und mit Anmerkungen versehen von Erich Trunz.

٣ – كاتارينا مومسن ، جوته والإسلام .

٤ – كاتارينا مومسن ، جوته والمعلقات ، برلين ، مطبعة الأكاديمية . ١٩٦١ .

Mommsen, Katharina; Goethe und der Islam.

Mommsen, Katharina; Goethe und die Moallakat — Berlin, Akademie— Verlag, 1961.

٥ – جيته ، الديوان الشرقى للمؤلف الغربى – ترجمة عبد الرحمن بدوى . القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧ .

٦ – عبد الرحمن صدقى ، الشرق والإسلام فى أدب جوته – سلسلة كتاب الهلال ، العدد ١٩٥ – يونيو ١٩٦٧ – القاهرة ، دار الهلال .

٧ – يوهان فلفجانج فون جوته ، فى شواهد ووثائق مصورة . عرض بيتربورنر ، سلسلة روفولت ، هامبورج ١٩٦٦ .

Johann Wolfgang von Goethe-in Selbstzeugnissen und Bilddokumenten— Dargestellt von Peter Boerner— Hamburg, Rowohlt, 1966 (Rowohlts Monographien).

٨ – جيرو فون فيلبرت ، المعجم الموضوعى للأدب – شتوتجارت ، كرونر ، ١٩٦٤ .

Wilpert, Gero von; Sachwörterbuch der Literatur — Stuttgart, Kröner. 1964.

صفحة

كتب أخرى صدرت للمؤلف
عن دار المعارف

١ – ألبير كامى ، محاولة لدراسة فكره الفلسفى – مكتبة الدراسات الفلسفية ، ١٩٦٤ .

٢ – سافو ، شاعر الحب والجمال عند اليونان – ١٩٦٦ .

٣ – قصص من جوته (الأقصوصة والحكاية) – سلسلة اقرأ ٢٨٧ ، ١٩٦٦ .

٤ – ابن السلطان (قصص) – سلسلة اقرأ ٢٩٧ ، ١٩٦٧ .

٥ – هلدرلين – سلسلة نوابغ الفكر الغربى (٢١) – ١٩٧٤ .

٦ – المسرح الملحمى – سلسلة كتابك – العدد العاشر ، ١٩٧٧ .

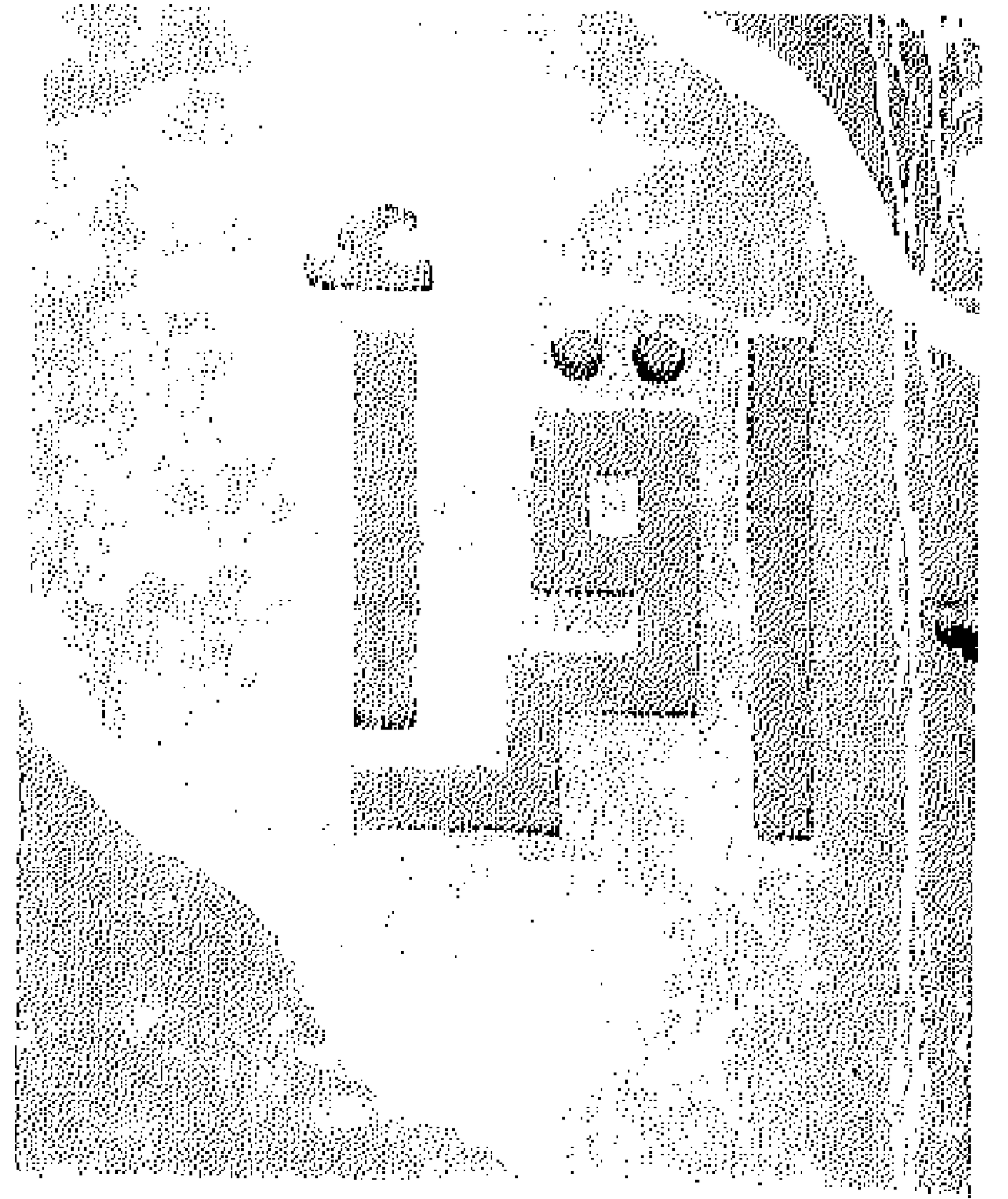
٧ – الحصان الأخضر يموت على شوارع الأسفلت (قصص) – تحت الطبع .

رقم الإيداع	١٩٧٩/١٨٩٦
الترقيم الدولى ٠ – ٦٢٩ – ٢٤٧ – ٩٧٧	ISBN

١/٧٨/٣٤٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)





راسم محمد الجمال

عباس العقاد ..

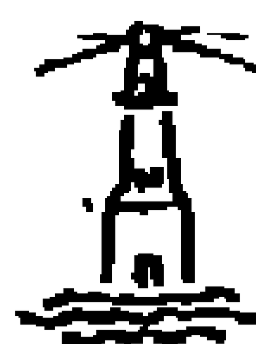
رجل الصحافة ، رجل السياسة

اقرأ
تصدر أول كل شهر
[٤٤٤] مارس – ١٩٧٩

راسم محمد الجمال

عباس العقاد

رجل الصحافة .. رجل السياسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

تقديم

بقلم د . عبد الملك عودة

عندما انتهيت من قراءة هذه المخطوطة قبل النشر – تذكرت قول الشاعر العربى :

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت فى مرادها الأجساد

قول قديم . ولكنه ما زال صحيحاً . . .

شاب عمره ٢٧ سنة فى عام ١٩٧٤ يقدم دراسة عن عباس محمود العقاد فى تاريخ الصحافة المصرية (١٩٠٧ – ١٩٦٤) .

ويقرر الشاب بعد طول الدرس والفحص أن العقاد كتب فيما يزيد على خمسين دورية ، وأنه كان أغزر الكتاب الصحفيين إنتاجاً . فضلاً عن مكانته الصحفية والأدبية والفكرية فى حياة مصر . الأمر الذى يجعلنا نقرر

بدون مبالغة أو محاباة – أن هذه دراسة فى تطور مصر الحديث منذ بداية القرن العشرين حتى ما بعد منتصفه .

لقد أقبل الشاب على قراءة كل هذا الإنتاج وعلى وضعه فى إطاره التاريخى والفكرى والاجتماعى . ثم استخدم أساليب المدارس الحديثة فى التحليل والتقويم . ورد الظواهر والأفكار إلى جذورها وإلى تطورات المراحل المتتالية فى حياة الشعب المصرى . وهذا ليس بالأمر الهين ؛ فهذه الفترة – من الفترات الخصبة فى حياة الكفاح السياسى المصرى سواء أكان هذا ضد الاحتلال البريطانى طلباً للتحرر منه تحت إعلام الفكر الليبرالى والممارسة الديمقراطية البرلمانية . أم كان هذا ضد حكم الإقطاع والرأسمالية والملكية الفاسدة طلباً للتغيير الاجتماعى تحت إعلام الفكر الاشتراكى والممارسة الثورية منذ عام ١٩٥٢ .

وعباس العقاد فى كل هذه المراحل – كان يكتب ويخاصم وينشر ويقود بالقلم وبالفكرة ومهما كان موقف الباحث وغيره من أبناء مصر تجاه فكر عباس محمود العقاد – فهو موجود وصاحب دور ومدرسة فى حياة المصريين وقراء العربية عامة . وعلينا أن نقرأه . وأن نصدر أحكاماً تجاه ما نقرأ .

لذلك أشهد أن (راسم محمد الجمال) قد كتب دراسة ممتازة . وبذل من الجهد الأكاديمى ما يوجب إزجاء التقدير لما بذل ولما قدم من بحث ومن علم ، وهذا يبشر بمستقبل أكاديمى فى ميدان الدراسات الإعلامية والفكرية عامة والصحفية بصفة خاصة .

ولقد عرفته خلال عملى أستاذاً بكلية الإعلام . ويسرنى أن أقدم اليوم لكتابه ، وأن أعبر عن تقديرى وشكرى له ، إذ أتاح لى فرصة قراءة هذه الدراسة قبل أن تصدر فى كتاب مطبوع .

مارس ١٩٧٦ .

د . عبد الملك عودة

عميد كلية الإعلام – جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يسرنى أن أقدم لقراء العربية هذا الكتاب الذى يتناول حياة العقاد الصحفية والسياسية حتى عام ١٩٣٠ ، والتى سجل خلالها صفحات رائعة من الكفاح من أجل تحقيق آمال مصر السياسية فى الاستقلال والحياة النيابية والدستورية السليمة .

وقد اتبعت فى الكتاب تقسيماً تاريخيا مطابقاً – فى رأينا – لتطور حياة العقاد الصحفية والسياسية ، واعتمدت فيه على كل ما كتبه العقاد فى الصحافة المصرية السياسية خلال تلك الفترة ، وعلى مؤلفاته ، وما كتب عنه ، إلى جانب الدراسات التى تناولت تاريخ مصر ، وتاريخ الصحافة المصرية على وجه العموم .

وقد ألجأتنى ظروف النشر إلى الإيجاز فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب . وأرجو ألا يؤثر هذا الإيجاز فى إدراك القارئ للصورة الكاملة لكفاح العقاد الصحفى والسياسى حتى عام ١٩٣٠ .

وإذا كنت قد ركزت هنا على حياة العقاد الصحفية والسياسية حتى عام ١٩٣٠ – فإنى أعد القارئ أن أقدم له فى القريب العاجل – إن شاء الله – دراسات أخرى نستكمل بها حياة العقاد حتى وفاته ، من جوانبها المتعددة .

وأخيراً ، أقدم شكرى وتقديرى للأستاذ الدكتور عبد الملك عودة الذى راجع أصول هذا الكتاب وقدم له ، وإلى الأستاذ الدكتور خليل صابات والأستاذ الدكتور مختار التهامى ؛ لمعاونتهما لى ولتوجيهاتهما القيمة فى أثناء إعداد هذا الكتاب .

والله ولى التوفيق

راسم محمد الجمال

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل الأول

عباس العقاد في الصحافة المصرية
قبل ثورة ١٩١٩

أولاً : عباس العقاد في الصحافة المصرية قبل الحرب العالمية الأولى :

التحق العقاد بأول عمل له في الصحافة في أواخر ١٩٠٧ . وكان في الثامنة عشرة من عمره ، وبالرغم من حداثة سنه بالنسبة للعمل الصحفي فإن هذا العمل لم يكن أول علاقة له بالصحافة . فقد نشرت له بعض الصحف قبل ذلك بعضاً من إنتاجه الشعري والأدبي . وكان أول ما نشر له في الصحافة قطعة شعرية من نظمه نشرتها له صحيفة «اللواء» ، كما نشرت له قطعة شعرية أخرى عام ١٩٠٧ بمناسبة ذكرى دنشواي ، ونشرت له صحيفة المؤيد تناءه على رد على يوسف على خطبة اللورد كرومر المعروفة بخطبة الوداع .

وكذلك نشرت له «الجريدة» مقالاً بعنوان «الاستخدام رق القرن العشرين» كتبه عندما كان على وشك الاستقالة من العمل الحكومي للعمل

بالصحافة . وفيه أبدى استياءه من العمل الحكومى الذى جعل الإنسان كالآلة فى الوقت الذى تفوقت فيه الآلة على الإنسان فى خصائصها . ونصح الشباب بألا يكونوا عبيداً للعمل الحكومى ، كما نشرت له صحيفة «الظاهر» .

ويذكر العقاد عن طبيعة علاقته بالصحافة فى ذلك الوقت (قبل التحاقه بالعمل فيها) أنها كانت علاقة «الكتاب من منازلهم» . وأنه كان يكتب لها «متطوعاً» .

وفى الحقيقة أن تعبيره الأول غير دقيق ، لأنه قد يعنى أنه كان مصاحفاً لتلك الصحف : أى أنه كان يكتب لها بصورة شبه منتظمة وإن لم يكن عضواً فى هيئة تحريرها . ولم تكن هذه حقيقة علاقته بتلك الصحف التى نشرت له .

كذلك فإن تعبيره الآخر غير دقيق إلى حد ما . لأنه قد يعنى أنه كان محرراً فى تلك الصحف بدون أجر . وهذا ما لم يكن . وعلى هذا يمكن القول بأن علاقته بالصحافة فى ذلك الوقت لم تكن أكثر من هواية بالصحافة ، حيث كانت تلك الصحف تنشر ما يبعثه إليها من قبيل التشجيع . وهذا ما كانت تفعله وتحرص عليه «الجريدة» على وجه الخصوص بالنسبة للنشء . وكذلك «اللواء» و «المؤيد» وإن جعلتا ما تنشرانه للناشئين مقصوراً على الناحية السياسية . وهذا هو الحال بالنسبة لما نشرتاه للعقاد .

وقد فكر العقاد – وهو فى سن السادسة عشرة من عمره – أى حوالى ١٩٠٥ – وإبان اشتغاله فى مدينة «الزقازيق» فى هجرة وظائف الحكومة . والانتقال إلى القاهرة . وإصدار مجلة أسبوعية باسم «رجع الصدى» . وقد دفعه إلى هذا التفكير ما لقيه من إعجاب وتشجيع من بعض أصدقائه المتأدبين ، بقصيدة شعرية نظمها وطبعها «بالزقازيق» . وقدر العقاد لهذه المجلة أن تصدر فى

ثمانى صفحات ، يقوم هو وحده بتحريرها وتمويلها . ورأى أن مرتب شهر واحد يكفى إصدارها . وكان راتبه فى ذلك الوقت خمسة جنيهات ! .

وقد دخلت الفكرة فى طور التنفيذ . فأخطر الحكومة وأعد تبويب المجلة وتقسيمها . كما أعد مادتها التحريرية . وقدم القاهرة لاستشارة أحد أصحاب المكتبات قبل الشروع فى الطبع . وقد جاءت النصيحة بعدم «ترك الميرى» . والعمل بصناعة «الصائعين الضائعين ! » .

على أن العقاد لم يأبه لهذه النصيحة وعزم على تنفيذ فكرته . ولكنه لم يلبث بعد لحظه أن تخلى عنها تماماً عندما شاهد موقفاً دل على مدى الإسفاف الذى تعيش فيه الصحافة الأسبوعية .

ثم خطر للعقاد أن يهجر العمل الحكومى ويعمل مترجماً فى «اللواء» عندما علم بحاجة إدارة «اللواء» إلى مترجمين عند الشروع فى إصدار اللواءين : الإنجليزى والفرنسى . بيد أنه تردد ثم أحجم عن الاستقالة لسببين :

الأول أنه لم يرد أن تكون هجرته للعمل الحكومى إلى الصحافة من أجل العمل فيها كمترجم . وفى ذلك يقول : «فإننى ما أحببت الصحافة لأنها مورد رزق أفضل من موارد الحكومة . ولكننى أحببتها لأنها مجال للكتابة أو صناعة القلم بغير وساطة من صناعة النقل أو الترجمة . . » .

والآخر – أن الصورة التى ارتسمت فى ذهنه من لقائه مع مصطفى كامل إبان عمله بالتدريس بالمدرسة الإسلامية بأسوان – لم تشجعه على مزاملته فى عمل دائم [1] .

---

(١) العقاد . حياة قلم ص ٦٣ – ٦٥ : فقد زار مصطفى كامل بصحبة مدام «جوليت آدام» وسيدة إنجليزية المدرسة الإسلامية «بأسوان» ودخلوا أحد الفصول التى كان العقاد يدرس =

على أن الفرصة ما لبثت أن أتيحت للعقاد للعمل بالصحافة عندما أعلن محمد فريد وجدى عن حاجته إلى من يعاونه فى تحرير صحيفة « الدستور » التى عزم على إصدارها . وعقابلته لفريد وجدى — اقتنع العقاد بالعمل معه :

« وخرجت وأنا أقول لنفسي : إن أكبر خلاف بيني وبين كاتب كهذا لن يعوقني عن العمل معه . لأنني عجبت لحرية فكره . مع اشتهاره بالتعصب والمحافظة » .

واستقال العقاد من وظيفته ليعمل فى « الدستور » براتب شهرى قدرة ستة جنيهات .

وعلى الرغم من أن عمل العقاد فى « الدستور » كان أول تجربة له فى العمل الصحفى . فإنه كان تجربة غنية وشاملة . ففيها مارس جميع نواحى العمل الصحفى المعروفة حين ذاك : من جلب للأخبار . إلى تحريرها . إلى مراجعة الرسائل الواردة إلى الصحيفة . إلى ترجمة برقياتها الخارجية الواردة باللغة الإنجليزية[1] . إلى العمل كمراس خاص . ولا شك أن هذا الغناء والشمول فى تجربة العقاد الصحفية راجع إلى أنه كان عضو هيئة التحرير الوحيد فى الصحيفة إلى جانب

=فيها . وكانت الحصة حصة محفوظات ولغة . وأملى مصطفى كامل على التلاميذ بيتا من الشعر عجزوا عن شرحه والتعليق عليه . وأراد العقاد أن يبين عجز الطلاب عن ذلك فتجهم مصطفى كامل وربى وجهه .

(١) المصدر نفسه : ص ٧٠ - ٧١ . وهنا يذكر العقاد أنه لم يكن موضع احترام وملائه محررى الصحف الأخرى الذين كانوا يرونه متطفلا على الصحافة . وفى هذا يقول : « وسمعت أحدهم يتكلم عن عمر منصور مندوب المؤيد . وعبد المؤمن الحكيم مندوب الأهرام . وسامى قصيرى مندوب المقطم وجورج طنوس مندوب الوطن . فإذا هو يشيعني بالإشارة الساخرة وهو يسب الزمن . لأنه قضى عليه بالعمل فى الصحافة مع أمثالى : « يخرق دين هاء البريس » Press ما عاد غير ها الزعران يسود ورقاتها ! » .

صاحبها . أما باقى محرريها فكانوا متطوعين من أصدقاء أحمد وجدى ، شقيق فريد وجدى .

ولم يكن شمول تجربة العقاد الصحفية مقصوراً على العمل الصحفى وحده . بل امتد إلى التحرير الصحفى ذاته ؛ فمارس جميع فنون التحرير الصحفى : فشن حملتين صحفيتين : إحداهما على الحكم العرفى فى السودان ، والأخرى على الأقباط إبان الأزمة الطائفية عام ١٩٠٨ ، وأجرى حديثين صحفيين : الأول مع أحمد مختار الغازى «قوميسير» الدولة العثمانية فى مصر، والآخر مع سعد زغلول ناظر المعارف حين ذاك .

والجدير بالتنويه أن ذاكرة العقاد خانته عندما ذكر أنه أجرى حديثه الأول مع سعد زغلول ، وأجرى غيره من الأحاديث مع الغازى أحمد مختار ؛ فالحقيقة أنه أجرى حديثه الأول مع الغازى أحمد مختار ، ثم أجرى الحديث الآخر مع سعد زغلول . ويفهم من قول العقاد : «وجرى غيره من الأحاديث مع الغازى أحمد مختار . .» — أنه أجرى معه أكثر من حديث . فى حين لم يجر معه سوى حديث واحد . وليس صحيحاً ما ذكره عبد الحى دياب من أن العقاد أجرى بعد حديثه مع سعد أحاديث أخرى مع شخصيات مصرية وأجنبية ؛ فلم يجر العقاد سوى الحديثين السابق الإشارة إليهما .

ويذكر العقاد أن هذين الحديثين اللذين أجراهما هما أول حديثين صحفيين يجريهما صحفى مصرى مع شخصيات مصرية أو شرقية كبيرة ، إلا أنه من الصعب إثبات ذلك أو نفيه ؛ لأن ذلك يحتاج إلى مسح تام لكل ما نشر فى الصحف المصرية قبل ذلك الوقت . وكل ما يمكن قوله فى هذا الموضع هو أنه كان من سياسة سعد زغلول الإدلاء بأحاديث إلى الصحف الإفرنجية التى تصدر فى مصر

يدافع فيها عن سياسته التعليمية ضد حملات صحف الحزب الوطني - كذلك كانت بعض الصحف تنشر أحاديث لبعض الأعيان المصريين يدلون فيها بآرائهم في أمور الساعة .

وإلى جانب الحملات والأحاديث الصحفية اشتمل ما كتبه العقاد في «الدستور» على ما اصطلح على تسميته «بفن الماجريات الصحفية» . وعلى تحقيق صحفي . وأخيراً تأتي المقالة بنوعيها : الصحفي والأدبي - لتكون السمة الغالبة على كتابات العقاد في «الدستور» .

أما اتجاهات العقاد في كتاباته في «الدستور» فيلاحظ أنها كانت متأثرة إلى حد كبير باتجاهات محمد فريد وجدي . وأحياناً كانت مطابقة لها . هذا بالرغم مما ذكره العقاد من أنه كان مستقلاً في كتاباته عن محمد فريد وجدي . وتبدو مظاهر هذا التأثر فيما يلي :

١ – شيوع الطابع الديني والأخلاقي على كتاباته الصحفية . ويكفي تقدير مدى تأثره بفريد وجدي في هذا الصدد – أنه كان يأتي من الزقازيق إلى القاهرة قبل اشتغاله في «الدستور» لمشاهدة عروض التمثيل . فلما عمل في «الدستور» وتأثر بأفكار فريد وجدي الدينية والأخلاقية إذا به يسخط على فن التمثيل . ويهاجمه قائلاً :

«يقولون : إن من دلائل نفعه أن سبقنا الغربيون إليه ، وأنه محترم عندهم ، وأن الممثلين معدودون من أصحاب المواهب في أوربا . ونقول : إن أوربا سبقتنا إلى ابتكار ضروب اللهو غير التمثيل . وسبقتنا إلى ابتكار أنواع الملاذ وجدائل التهتك . وإنها الآن في إبان تقدمها ومدنيتها تروج فيها الخلاعة والفسق والمجون أكثر مما تروج عندنا : فهل يستلزم ذلك أن ننقل عنها كل هذه الموبقات . لأنها

أوربا ونحن الشرقيون » . وكان ذلك تأثراً برأى فريد وجدى فى التمثيل الذى يقوم على تشجيعه مع معارضة ظهور النساء على المسرح منعاً للتهتك والابتذال . ويكفى تقدير مدى إعجابه بآراء فريد وجدى وصفه له بعد حوالى خمسين عاماً بقوله : إنه كان « فريد عصره غير مدافع . . » .

٢ - دفاعه عن مبادئ الحزب الوطنى على أساس أنها تقوم على الاعتدال السليم من أجل تحقيق استقلال البلاد . أما اعتدال حزب الأمة « فتقشقة وحذلقة تخجل المصريين من أن تجوز عليهم » . وهو رأى (فريد وجدى) نفسه الذى كان يرى أن (مصطفى كامل) هو « المعتدل الحقيقى » .

٣ - وقف العقاد موقف فريد وجدى نفسه من كل من الوزارتين الفهمية والبطرسية : فهاجم وزارة مصطفى فهمى لتساهلها فى حقوق المصريين :

« فما بال الحكومة المصرية وقاها الله ما يكره قد عصبت عينيها عن كل ضرر يحيق بأبنائها . فهى تتسامح مع جاليات الأمم الأخرى حتى فى استلابهم وتجريدهم عن أسلابهم كأن لاصلة بينهم وبينها ولا رابطة تربطهم بها . أرأيت فى رءوس الأمم رأساً لا يلتئم هو وحده إلا صور فى مثل هذا الجسد الضئيل ؟ » .

ولما قامت الوزارة البطرسية هاجمها من منطلق فريد وجدى نفسه إذ كتب يقول :

« نعم إننا لا نبالى أن يرمينا المعتمد البريطانى بالتعصب والوحشية فى تقاريره السنوية . فذلك دأبه ودأب كل من يحل محله . ولن نكلفه مئونة التكهن والاستنتاج . بل نقول له بصريح العبارة : إن من أهم دواعى انتقادنا للوزارة البطرسية أن رئيسها مسيحى . وأن فى مصر أحد عشر مليون مسلم لا يروق لهم أن يجلس هذا الرجل على أعلى كرسى بعد كرسى الخديوية فى هذه الديار . لأن ذلك

يحط من كرامتهم ويعد بمثابة اعتراف رسمي بأنهم قوم همل ليس فيهم رجل واحد يصلح لأن يتولى هذا المنصب على كون بلادهم إسلامية » .

٤ — بالرغم من أن العقاد ذكر أنه كان يناصر (سعد زغلول) إبان عمله فى الدستور ويدافع عن سياسته التعليمية التى كانت موضع حملات صحيفة « اللواء » ، وأنه كان يرسل إليه خطابات تتضمن ثناءه عليه وعلى جميع إخوانه المعروفين فى ذلك الوقت باسم حزب الإمام محمد عبده — فإنه يمكن القول بأن موقف العقاد من سياسة سعد زغلول التعليمية كان مشابها على وجه العموم لموقف محمد فريد وجدى .

صحيح أن العقاد ذكر فى مقدمة حديثه مع سعد الذى نشرته « الدستور » فى ٢٢ من مايو ١٩٠٨ — أنه يعتقد فيه الصدق والغيرة على مصلحة البلاد . ولكن ذلك ليس أكثر من تقديم شكلى لإعطاء أهمية للحديث ، وللشخص الذى يجرى معه الحديث ، وصحيح أيضاً أنه أعطى سعداً الفرصة لكى يدافع عن سياسته التعليمية ، إلا أن موقفه العام من سياسة سعد التعليمية كان موقفاً معادياً ، فقد هاجم بعنف هذه السياسة قبل حديثه مع سعد عندما كتب يقول بعد أن تحدث عن اهتمام الأغنياء بجمع المال وعدم إنفاقه على التعليم :

« . . . وكنت هممت أن أنادى الحكومة بأن تستعمل نفوذها فى محاربة هذا الميل بالطرق الأدبية لولا أنى وجدتها لا تقل عن أولئك فى محاربة التعليم . . . وهذه هى المدارس العليا والابتدائية يقبل عليها الطلاب إقبال الجياع على الجفان . وهى تصدهم عنها بحجة أن المدارس قد أخذت ما يكفيها وهى فى الوقت نفسه تشكو من قلة المتعلمين من الشكوى » .

واستمر العقاد فى هجومه على سياسة سعد التعليمية بعد حديثه معه : فمثلاً

عندما كتب معلقاً على كتاب «سر تقدم الإنجليز» الذى ترجمه «أحمد فتحى زغلول» قال :

«فقد تخطئ الحكومة متى تولت أمر التعليم . ولكنها لا تخرج عن مألوف الأمة لاشتراكهن فى الأميال والعادات . أما نحن فحكوماتنا التى بيدها أمرنا أجنبية عنا ! فهى تسيرنا فى درب لم تألف السير فيه من قبل معتمدة على أن نظاماتها صالحة لكل أمة موافقة لكل جيل» .

كما حذر من أن السياسة التعليمية العجيبة والقائمة على قصر التعليم ومن ثم الوظائف - على الأغنياء القادرين سوف تفسد نظام مصر الاجتماعى «ولا ريب أنهم سينقلون إلينا بهذا التصرف أفسد مذاهب الغرب وأضرها بالاجتماع ، فيكثر بيننا الاشتراكيون والذاهبون إلى ترك الناس فوضى لاسراة لهم وما أغنانا عن ذلك ونحن فى أول درجة من درج المدنية» .

ويمكن إرجاع حرص العقاد على تأكيد نصرته لسعد فى بدء حياته الصحفية إلى أنه اتهم من قبل خصومه بمعاداته لسعد فى ماضيه .

٥ - ولما كان محمد فريد وجدى يرى استمرار التحالف بين الحزب الوطنى والخديو - فإن العقاد لم يستطع أن يتخذ على صفحات «الدستور» موقفاً معادياً للخديو ؛ ومن ثم نشر هجومه على ما ادعاه من حرص على إصلاح الأزهر ، فى صحيفة «الأخبار» المعروفة بمعاداتها للخديو وفيه سفه ادعاءه وشرح محاربته لمحاولات محمد عبده إصلاح الأزهر ، وعلق على ذلك بقوله :

«فإنه يدعو إلى إصلاح كان يستنكره بالأمس ، ويغضب لمسعى كان يغضب على من ينتصر له ويدعو إليه من قبل هذا العهد . فسبحان مقلب الأحوال المتصرف بالقلوب والأميال» .

وكاد العقاد يحاكم على هذا المقال بتهمة العيب فى الذات الخديوية . لولا خشية السلطات من إثارة موضوع الإصلاح فى الأزهر فى أطوار التحقيق والمحاكمة وتعليقات الصحف .

على أن العقاد تراجع بعد ذلك عن رأيه فى موقف الخديو من الأزهر . واتخذ موقف محمد فريد وجدى نفسه منه . وراح – على سبيل المثال – يستصرخ الخديو ليرفع اعتداء الشرطة على طلاب الأزهر مادحاً موقفه من الأزهر . إذ قال :

« ونحن على ثقة من أن سمو الأمير يأبى أن يعرض رجال الدين لسنابك الخيل . ويعلم كيف يعامل رجال الكهنوت فى الممالك الأوربية حتى فى فرنسا الدهرية . فلا يسجل عصره أنه أول عصر رأى الناس فيه كيف يهان أعلام الإسلام فى الطريق المعرضة لأنظار الناس . وهو الذى سيحفظ عنه التاريخ أنه من أشد الأمراء عناية بالأزهر وطلابه . ذلك ما تستحقه الأيام » .

وإلى جانب ما سبق وما يتضح منه مدى تأثره بمحمد فريد وجدى – يلاحظ الآتى على كتابات العقاد الصحفية فى « الدستور » .

١ – إنه كان مؤمناً باعتماد المصريين على أنفسهم فى استخلاص حقوقهم . وتقدم بلادهم . وفى هذا كتب يقول :

« ليس على سطح الكرة الأرضية أمة مصرية غير هذه الأمة ولا فى الناس مصريون غيرنا فنحن وحدنا المكلفون بإسعاد أمتنا . ونحن وحدنا الذين تهمهم رفاهيتها ورقيها وما نراه من غيرنا من الإهتمام بشأننا لا يخلو من تصنع أو على الأقل من جهل بحقيقة أطوارنا وعوائدنا . فعلام لا نعمل بأيدينا ما ننتظر من غيرنا عمله لنا ؟ وعلام نحسب حساباً لارتياح الدولة المحتلة ورضائها . ولا نحسب ألف حساب لما فيه فائدتنا الأدبية والمادية بل حياتنا الحقيقية ؟ » .

وقد ارتبط هذا الإيمان لديه بإيمانه بفكرة «مصر للمصريين» ، فلا سيادة لأحد عليها حتى الدولة العثمانية : فعندما كتب معلقاً على توظيف قليلي الكفاية من الإنجليز وحرمان الكفاة من المصريين . قال : «كل هذا — وهو بعض من كل — ولا يزال بعضنا يتبجح بأن الإنجليز أنقذونا من جور الأتراك وأنشئونا نشأة أخرى عرفنا فيها نفوسنا وفقدنا حريتنا قدرها كأن لا شأن لنا في الوجود إلا أن ينبذنا جائر ، ويتولانا عادل وليس لنا نصيب بعد ذلك وبين هذا وذاك» .

٢ وبرغم استعادة السيادة العثمانية على مصر — فإنه تعاطف مع الدولة العثمانية ، ودافع عنها ضد مؤامرات الدول الأوربية . ولما اشتد الخلاف بينها وبين النمسا دعا المصريين إلى مقاطعة البضائع النمساوية ، والاستعاضة عنها بالبضائع التركية .

• وقد كان العقاد راضيا عن عمله في «الدستور» راغباً فيه حيث قال : «وجدت من اللحظة الأولى أنني أريد أن أفرغ فيه حصيلة المعرفة التي حصلتها من مطالعاتي الصحفية ، ومن مطالعاتي في الكتب والحياة» . ونال تقدير وثقة محمد فريد وجدي الذي وصفه بأنه «عمدنا الأمين وساعدنا الأمتن» فكان يعفيه من اطلاعه على ما يكتب قبل إرساله إلى المطبعة ، و «ربما مضى الأسبوع ولم ألقه إلا إذا طرأ من شئون الصحيفة ما يدعو إلى مشورته أو تبليغه عنه ليتصرف بما يراه» .

ودام عمل العقاد في صحيفة «الدستور» منذ صدورها إلى أن توقفت عن الصدور . ولم ينقطع عنها إلا لفترة قصيرة ، ذكر العقاد في كتابه «حياة قلم» أنها كانت لعدة أشهر . وذكر في كتابه «رجال عرفتهم» أنها كانت لبضعة أسابيع . ويرجع سبب انقطاعه إلى خلاف حدث بينه وبين أحمد وجدي شقيق صاحب الصحيفة ، حيث استكثر العقاد منه أن يعترض على آراء له في السياسة لم يكن

يعترض عليها شقيقه الأكبر . والجدير بالذكر أن بعض مقالات العقاد السياسية في «الدستور» كانت تنشر في «مصر الفتاة» .

ولم تلبث «الدستور» أن توقفت عن الصدور في أواخر عام ١٩٠٩ ؛ بسبب عجزها المالي وكساد توزيعها بعد الخلاف الذي شجر بين صاحبها والحزب الوطني ، ولم يكن لها قراء من أنصار الأحزاب الأخرى .

ولما توقفت عرض محمد فريد وجدي على العقاد فكرة مشاركته إياه في تحرير مجلة «الحياة» التي عزم على إعادة إصدارها بعد أن توقفت على أساس أنها أولى بمقالات العقاد الأدبية من الصحيفة اليومية . وعلى أن يشرعا في ذلك في غضون أسابيع قليلة بعد أن يكون فريد وجدي قد درس إمكان وفاء المجلة بتكاليف إصدارها والحصول منها على دخل يغني العقاد عن أي عمل آخر .

ومرت الأسابيع ولم يعلم العقاد شيئاً عن عزم فريد وجدي تنفيذ فكرته . ومن ناحية أخرى لم يصل العقاد من دراسة الفكرة إلى ما يدعوه إلى الثقة بنجاحها .

وبتوقف «الدستور» صار العقاد بلا عمل . وتطلع إلى العمل بالصحافة . أو ما يناسب الصحافة . إلا أن أحوال الصحف المصرية اليومية حين ذاك لم تكن لتتيح له فرصة للعمل بها : أما الصحف الأسبوعية فلم يأمل العقاد العمل بها ؛ لأنه «لم يكن فيها مجال لغير أصحابها . أو كتّاب المقالات – بالقطعة – على حسب الطلب ، وعلى كل لون وفي عرض الطريق» .

وهكذا انقطعت صلة العقاد بالصحافة السياسية . على أنه عاد يكتب من جديد في عام ١٩١٢ مقالات أدبية في مجلتي «البيان» و«الجريدة» .

وإذا كان العقاد لم يكتب شيئاً في السياسة في تلك الفترة بتوقيعه – فإن طبيعة عمله في ديوان الأوقاف قد أتاحت له معرفة الكثير عن سوء أحوال الديوان . وعن

تدخل الخديو فى عمليات استبدال الأوقاف ، مما دفعه فى بعض الأحيان إلى الكتابة - بدون توقيع فى بعض الصحف عن سوء الأحوال فى الديوان مشيراً إلى بعض المقترحات التى يراها لإصلاحه .

وقد دعاه السكرتير الشرقى لدار الوكالة البريطانية إلى لقائه عندما علم أنه كاتب هذه المقالات عن طريق صديق للعقاد يدعى «حسين روحى» ، كان يعمل مترجماً بدار الوكالة لبعض الوقت .

ودار الحديث فى هذا اللقاء عن الصحافة المصرية وخاصة «المؤيد» ، وعن ديوان الأوقاف . وحاول السكرتير الحصول من العقاد على معلومات عن صفقة من صفقات الأوقاف . وفى أثناء الحديث اعترض العقاد على ملحوظة أبداها السكرتير . أرجع فيها اختلال أمور ديوان الأوقاف إلى عدم خضوعه للرقابة الأجنبية . .

وتبدو أهمية هذا اللقاء مما ذكره العقاد : «وأراد الأستاذ روحى أن يصرف الموضوع . فقال : إن مسألة «المؤيد» كانت عندهم — (أى عند الإنجليز) — أهم من مسألة الأوقاف . ويلوح لى أنهم كانوا يودون لو توليت تحريره ، وكانوا يظنونك أكبر سنا من عشرة العشرين ، ولكنهم حسبوا عليك جريرة الشباب وقالوا : إنه لا يزال صغيرا ! » .

فعلى الرغم من أن تفكير الإنجليز فى إسناد رياسة تحرير «المؤيد» إلى العقاد كانت مجرد فكرة لاحت لصديق العقاد — كما يتضح من نص الرواية — فإن البعض قد استند إليها ليؤكد ثقة الإنجليز فى العقاد . ومن ذلك ما قاله فتحى رضوان :

«ولعلنا لسنا فى حاجة إلى أن نقول : إن الإنجليز لا يتجهون إلى ترشيح كاتب كالعقاد لشغل هذا المنصب السياسى الهام إلا وقد علموا سلفاً باتجاهاته السياسية

وبشعوره لهم . فقد كانت الغاية من إسناد المؤيد إليه أن يكون لساناً من ألسنتهم » .

وفى الحقيقة أنه من المستبعد أن يكون الإنجليز قد فكروا جديا فى إسناد رياسة تحرير «المؤيد» إلى العقاد . وأن يجعلوا من الصحيفة لساناً لهم ، وذلك لأن «المؤيد» وإدارته كانت فى أيدى الحاشية الخديوية ، فى هذه الفترة تولى سيد كامل رياسة تحرير «المؤيد» منذ أوائل نوفمبر عام ١٩١٣ . وهو – كما يذكر العقاد – مخلص لمولاه عباس حلمى الذى تولى تعليمه فى فرنسا على حسابه بتوصية من على يوسف ، وهو – أى الخديو – الذى رشحه للقيام على تحرير «المؤيد» بعد اعتزال على يوسف ثم خلفه فى رياسة التحرير أحمد حافظ عوض منذ أوائل أبريل عام ١٩١٤ بعد أن تخلى «عن وظيفته السامية فى معية الجناب العالى الخديو» ليتولى عمله الجديد فى الصحيفة بعد أن «وجدت من سمو مولاى الأمير المعظم أكبر تعضيد وأسمى تشجيع » وإذا أضيف إلى ماسبق ولاء « المقطم » لسلطات الاحتلال ، والجفاء الشديد الذى كان بين الخديو عباس حلمى وبين لورد «كتشنر» مما يجعل من المستبعد تخلى الحاشية الخديوية عن هيمنتها على «المؤيد» لسلطات الاحتلال – فكل ذلك يؤكد أن الغرض من مقابلة السكرتير الشرقى لدار الوكالة البريطانية للعقاد لم يكن من أجل اختبار مدى صلاحيته لتولى رياسة تحرير «المؤيد» ، بل كانت من أجل الحصول منه على معلومات عن صفقات الأوقاف وعن تدخل الخديو فيها ، وهو أمر كان يحاربه الإنجليز . وخاصة أن العقاد كان يكتب . ويتكلم عنها بلا تحفظ على حد تعبيره .

على أن الفرصة ما لبثت أن أتيحت للعقاد للعمل فى «المؤيد» عندما أرسل إليه سيد كامل بطاقة يخبره فيها أنه يتصدى لتحرير «المؤيد» ويود لو يستعين بالأقلام

الفنية فى تحديد حياة «شيخ الصحافة» وكان ذلك فى الفترة من ١٢ نوفمبر ١٩١٣ إلى ١٤ يناير ١٩١٤ ، لأنها الفترة التى تولى فيها سيد كامل رياسة تحرير «المؤيد» . ولم يستحب العقاد لهذه الفرصة لسبب غير معروف .

ثم ما لبث الدعوة أن تجددت للعقاد عندما طلب منه أحمد حافظ عوض الذى تولى رياسة تحرير «المؤيد» منذ أوائل أبريل ١٩١٤ - كما سبق القول - أن ينضم إلى أسرة تحرير المؤيد ، محررا للصفحة الأدبية ، ومشرفاً على ما ينشر فيها . ولم يتردد العقاد فى قبول الدعوة هذه المرة : «فإننى لم أكن أطمع وأنا فى الرابعة والعشرين إلى عمل أهم من هذا العمل فى الصحافة» .

وأتيح للعقاد أن يتولى أمور «المؤيد» فى أثناء مرافقة أحمد حافظ عوض للخديو فى رحلته التى طاف خلالها بالوجه البحرى فى أواخر أبريل ١٩١٤ وفى غياب أحمد حافظ عوض كتب العقاد مقاله السياسى الوحيد فى «المؤيد» ، ودار حول الرشوة وتفشيها فى مصر . وفيه غمز العقاد الخديو عباس حلمى حيث قال .

«إن إثبات الرشوة يعسر بقدر انتشار وسائلها ، لأن كثرة الراشين والمرتشين تداخل بين مصالح القوم مداخلة تحبب إليهم بقاءها ، فكأنهم قرناء فى الاتفاق أو شركاء فى الجريمة . وعلى قدر منعة المرتشى واطمئنانه فى مركزه تكون منعة الأخلاق والآداب واطمئنانها ، فإن البلد الذى يمد فيه الوالى يده ، لا يحسب للمعدد حسابا ولا يحترز من إشاعة لا يكون إلا بلداً طغى فيه الاستبداد واستفحل ، أو بلداً دستوريا ، ولكن أهله قد تواضعوا على فوضى الأخلاق وتبادل الذمم» .

على أن العقاد سرعان ما استقال من «المؤيد» عندما لم يتخذ أحمد حافظ

عوض موقفاً إيجابيا إزاء ما اكتشفه العقاد من ارتشاء أحد موظفى «المؤيد» باسمه من أحد الأعيان الذين يهمهم التنويه بذكرهم فى الكتاب الذى عزم أحمد حافظ عوض على إصداره . والذى يحوى البرقيات التى يرسلها إلى «المؤيد» فى وصف الرحلة ، وكان العقاد يقوم بمراجعتها قبل نشرها . ولأنه من ناحية أخرى عمد إلى التدخل فى مقالات العقاد الأدبية محلا بذلك باتفاقهما على أن يكون العقاد مستقلا فيما يكتب .

وقد رأى بعضٌ أن جذب العقاد من ديوان الأوقاف إلى الصحافة . ثم التخلص منه بعد ذلك إنما هو من تدبير الخاصة الخديوية التى كانت تعمل على التخلص من كل موظف داخل الديوان – صغيراً كان أو كبيراً – عرفت عنه المعارضة لنظام الأوقاف . وإذا كان العقاد لم يؤكد هذا القول ولم ينفه لأنه سبق له الاستقالة من الديوان – قبل استقالته الثانية للعمل «بالمؤيد» ورفضت هذه الاستقالة – ، فإن تسلسل الحوادث كما سبق ذكرها – يرجح هذا القول . وكان عمل العقاد فى «المؤيد» آخر علاقة له بالصحافة قبل الحرب العالمية الأولى .

ثانياً : عباس العقاد فى الصحافة المصرية خلال الحرب العالمية الأولى :

فى ظل الاستبداد الذى ساد أسوان فى ذلك الوقت فى ظل الأحكام العرفية – كتب العقاد مقالة بعنوان «نادى العجول» نسخها ثم نشرها فى إحدى الصحف . وكانت سبباً فى تحديد اقامته بأسوان بيد أنه استطاع الفرار متخفياً إلى القاهرة .

وفى القاهرة التحق العقاد بالعمل رقيباً على الصحف عن طريق جعفر والى وكيل وزارة الداخلية آن ذاك ، ويبرر قبوله لهذا العمل بقوله : «قلت : إنى أقبل العمل فى الرقابة ولا غضاضة مادامت الرقابة من المصالح العامة فى أيام

الحروب» . على أنه ما لبث أن استقال من هذا العمل بعد أسبوع واحد بسبب عجزه — على حد قوله — عن ممارسة الرقابة على النحو الذى تريده السلطات . .

وقد عرض على العقاد أن يعمل مراسلاً صحفيا عسكريا مع القوات الإنجليزية المحاربة فى سيناء . وروايات العقاد عن ذلك متناقضة : فقد ذكر فى كتابه «رجال عرفتهم» أن (يعقوب صروف) صاحب «المقتطف» لما علم باستقالته من المدرسة الإعدادية التى كان يعمل فيها مدرسا بعد استقالته من الرقابة على الصحف — وكان صروف مهتما بإيجاد عمل له يعول عليه فى معيشته — عرض عليه أن يعمل مراسلاً عسكريا مع القوات الإنجليزية عندما «علم أن القيادة العسكرية تبحث عن مندوبين صحفيين وتفضل أن يكونوا من المسلمين لأنها تنوى أن تندبهم من حين إلى حين للسفر إلى خطوط القتال وراء القناة . وعلى حدود سيناء . ولا تريد أن يكونوا متهمين فى رواياتهم عن مناعة تلك الخطوط إن كانوا على غير دين الترك المغيرين على البلاد» .

ولما رفض العقاد محتجا «بأن المسألة إن كانت من إحدى جهتيها غارة تركية على حدود مصر فهى فى الجهة الأخرى حرب بين الجيش التركى وجيش الاحتلال» ألحقه يعقوب صروف بالعمل مدرساً بمدرسة وادى النيل .

ومن ناحية أخرى . ذكر العقاد فى كتابه «حياة قلم» أن (يعقوب صروف) عرض عليه العمل مراسلاً عسكريا مع القوات الإنجليزية إبان عمله بمدرسة وادى النيل . وعندما كان يكتب عن المقارنة بين فلسفة «المعرى» وفلسفة «شوبنهور» .

ويستطرد العقاد قائلا : إن (صروف) قال له : «إنك تعلم قلق الناس فى هذه الأيام من جانب الحدود الشرقية . ولكنهم يظنون أن الهجمة قريبة على قناة السويس ثم على جميع البلاد المصرية . ومثلك خليق أن يعيد الطمأنينة إلى

نفوسهم بما تراه عياناً وما تطلع عليه من المعلومات المفصلة . وهى حاضرة عند المختصين بالمسألة ، وكل ما يطلب منك أن تطلع مها فى القاهرة على ما يلزمك وأن تهيئ نفسك بعدها للرحلة إلى الخطوط الأمامية فى صحراء سيناء . ثم تصفها بأسلوبك المعهود . لأن مجرد الوصف الصحفى الشائع لا يكفى الإقناع والتأثير . ولولا ذلك لكان فى محبرينا أو محبرى الصحف الأخرى من يغنى هذا الغناء» .

ولما رفض العقاد قائلاً : «إننى لا أكره أن أبث الطمأنينة فى قلوب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم إذا كان المصريون هم الذين يقومون بأعباء هذا الدفاع عن بلادهم ، أما وهو – كما يحدث الآن – من عمل الحماية . فليس من المعقول أن أرفض الحماية وأقبل دفاعها – مازحه صروف قائلاً : «إذن تعود إلى المعرى وشوبنهور» .

ويبدو التناقض من أنه يفهم من الرواية الأولى أن هذا العرض جاءه وهو متعطل بلا مورد للرزق . فى حين يفهم من الرواية الأخرى أنه تلقى العرض إبان عمله بمدرسة وادى النيل . ومن ثم يصعب تقدير قيمة رفض العقاد لهذا العرض بالنظر للظروف الموضوعية التى كان يحياها ، فثمة فارق بين عمل يرفضه وهو فى أشد الحاجة إليه ، وعمل يرفضه ، وهو فى غنى عنه .

ويبدو التناقض أيضاً فيما أشارت إليه الرواية الأولى من أن العرض كان قبيل بدء الهجوم التركى على سيناء ، والذى وقع فى أبريل ١٩١٦ . فى حين تشير الرواية الأخرى إلى أن العرض جاء بعد كتابة العقاد مقالاته فى «المقتطف» عن المقارنه بين فلسفة «المعرى» و«شوبنهور» ، وكان ذلك فى الفترة من سبتمبر إلى نوفمبر ١٩١٦ : أى بعد أن أخفق الهجوم التركى فى يوليو عام ١٩١٦ ، وتحول الجيش الإنجليزى من الدفاع عن مصر إلى الهجوم ، ومن ثم يصعب تحديد طبيعة تلك

المهمة التى عرضت على العقاد وتحديد الغرض منها . فثمة فارق بين أن يكون مراسلا مع الجيش الإنجليزى المدافع عن مصر بغرض بث الطمأنينة فى نفوس المصريين . وبين أن يكون مراسلا مع جيش إنجليزى يقوم بعمليات هجومية متجهة خارج مصر.

وانتقلت أحوال العقاد المعيشية من سيئ إلى أسوأ بعد ما استقال من عمله بالتدريس هو وصديقه المازنى . ويئس من العمل بالتدريس أو بالصحافة . وظل متعطلا إلى أن استدعاه عبد القادر حمزة إلى الإسكندرية للعمل معه فى صحيفة « الأهالى » وكان ذلك قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى . وليس بعد الحرب كما ذكر « سفران » .

وليست للعقاد كتابات فى « الأهالى » فى تلك الفترة بتوقيعه . إلا تعليقاً قصيرا وساخرا على قضية مهمة عرضت أمام القضاء . ومضمونها أن القضاء فرق بين أحد الشيوخ وزوجته . لأنه أنكر أن آدم كان رسولاً ! والأرجح أن عمله فى « الأهالى » كان قائما أساسا على ترجمة وتحرير البرقيات والتقارير الخارجية الخاصة بأخبار الحرب . لأن تلك المادة كانت المادة التحريرية الوحيدة تقريباً فى « الأهالى » . إلى جانب بعض المقالات القصيرة والقليلة جدا . وبقى العقاد فى « الأهالى » إلى أن انتهت الحرب . واشتعلت ثورة ١٩١٩ .

الفصل الثانى

عباس العقاد فى الصحافة المصرية
خلال ثورة ١٩١٩

شارك العقاد فى صحافة الثورة مشاركة قليلة نسبيا . ويمكن إرجاع ذلك إلى سببين :

السبب الأول : أن الترجمة الصحفية كانت هى العمل الأساسى له تقريبا فى الصحف التى عمل بها إبان الثورة ؛ وهذا يفسر قلة مقالاته الصحفية فى ذلك الوقت .

والسبب الآخر : مرضه ورحيله إلى أسوان فى أواخر عام ١٩٢٠ ؛ مما تسبب عنه انقطاع عمله بالصحافة .

قامت الثورة وكان العقاد لايزال يعمل بالترجمة «بالأهالى» ولا نعثر للعقاد على مقالات سياسية بتوقيعه فى «الأهالى» ، وإن كان العقاد ينسب لنفسه جميع التعليقات التى نشرتها «الأهالى» عن تأليف الوفد – فإنه من الصعب إثبات ذلك

أو نفيه ؛ لأن جميع تعليقات الصحيفة ومقالاتها السياسية كانت بدون توقيع . ومع هذا نشرت الصحيفة أربع عشرة صورة وصفية لرجال الوفد فى الفترة من منتصف أبريل حتى ١٩ يونية ١٩١٩ ، بتوقيع (ع . م) وذكر العقاد أنه صاحب تلك الصور الوصفية ، وليس فى «الأهالى» أية مقالات سياسية أخرى بذلك التوقيع المستعار . وكل ما كتبه بتوقيعه فى «الأهالى» لا يتعدى دعوة لمفتى مصر كى ينشر الفتوى التى أصدرها بنبذ وإنكار الشيوعية والتى لم تنشر فى مصر برغم نشرها فى لندن ، ولما نشرت الفتوى فى ١٨ أغسطس ١٩١٩ أحدثت ضجة فى الصحف المصرية .

ومالبث العقاد أن ترك العمل فى «الأهالى» ، وكان ذلك فى الفترة ما بين ٥ من سبتمبر و ١١ من سبتمبر ١٩١٩ ؛ وهى الفترة المحصورة بين آخر ما كتبه فى «الأهالى» وأول ما كتبه فى «الأهرام» . ويرجع العقاد سبب تركه للعمل فى «الأهالى» إلى موقفها غير المؤيد للوفد ، وإلى تضييقها على كتاباته المؤيدة له .

وبعد أيام من تركه العمل فى «الأهالى» ، التحق العقاد «بالأهرام» محررا ومترجما ، ولانعلم شيئا عن ظروف التحاقه «بالأهرام» ، سوى ماذكره صديقه محمد طاهر الجبلاوى من أن أصحاب «الأهرام» ، دعوه للعمل فى صحيفتهم . والأرجح أن عمله الرئيسى فى «الأهرام» كان فى الترجمة الصحفية وفى جمع الأخبار ؛ لأن مقالاته السياسية قليلة جدا ، ولكن بالرغم من قلتها فإنها تعطى صورة شبه كاملة لموقفه من أحداث الثورة . وكان أول ما نشر له فى الأهرام مقالا عن حركة العمال إبان الثورة ، أنكر فيه أن اعتصاب العمال المصريين كان مرجعه إلى المهيجين السياسيين ، وأكد أن مرجعه إلى سوء أحوالهم الاقتصادية والمعيشية .

وقد أشار العقاد إلى اختلاف الترجمة العربية عن النص الإنجليزى لبلاغ لورد

ملنر ، الذى نشر فى الجريدة الرسمية باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية فى ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩١٩ بغرض تهدئة النفوس النافرة من لهجته . واستجلابها ولو يسيرا على حد قول أحد شفيق [١] وجاءت إشارة العقاد هذه خلال مناقشته لبلاغ اللجنة فى اليوم التالى ، حيث قال : « والذى نلاحظه أن كلمة نظام « حكم ذاتى » كما وردت فى الإنجليزية تخالف الحكم الذاتى المطلق الذى تكون كل أمة حرة فى تقريره . والأمة المصرية التى تنادى بالاستقلال التام وتشكو من الاستبداد بأمرها : هل تطمع وتطمح إلى غير ذلك ؟ » ودعا أيضا فى مناقشته إلى أن يكون اتصال اللجنة بالوفد مباشرة بصفته وكيلا عن الأمة المصرية .

وفى الحقيقة أن المادة العلمية المتوفرة تشير إلى أن إشارة العقاد هذه كانت أول إشارة إلى اختلاف الترجمة العربية عن النص الإنجليزى على صفحات الصحف ؛ فقد خلا بيان لجنة الوفد المركزية ، وبيان الحزب الوطنى ، وتعليقات صحف : « مصر » « والنظام » - ! من أية إشارة إلى هذا الاختلاف ، وقد استغل أصدقاء العقاد هذا الأمر ليضفوا عليه ثوب البطولة ، على نحو مشوه للتاريخ والواقع :

من ذلك مثلا ما كتبه محمد خليفة التونسى فى كتاب « العقاد دراسة وتحية » :

« بتاريخ ١٤ من سبتمبر ١٩٢٠ :

بدأ العقاد ينشر مقالات عميقة حول لجنة ملنر تعرض فى إحداها لبيان ملنر ذاته

(١) أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية : التمهيد جـ ١ ص ٦٠٣ - ٦٠٥ والرافعى ثورة سنة ١٩١٩ جـ ١ ط ٢ ص ١٢٢ - ١٢٣ وقد قال النص الإنجليزى : « واللجنة ترغب / صادقة فى أن تكون العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر على اتفاق ودى يزيل أسباب الاحتكاك ، ويمكن الأمة المصرية من صرف كل مجهوداتها إلى ترقية شئون البلاد فى ظل أنظمة حكم ذاتى Under Self Governing Institutions وجاءت فى الترجمة العربية « تحت أنظمة دستورية » .

وصحح ترجمة الصحف فى ذلك الحين لهذه العبارة ؛ صححتها «أنظمة حكم ذاتى» فكان لهذا التصحيح أثره البعيد فى كشف حقيقة البيان ، بل كان محورا للخلاف بين خطة سعد بعد عودته من منفاه وخطة عدلى فى موقفها من اللجنة».

وواضح مدى اللبس والخلط بين بلاغ لجنة ملنر ومشروع ملنر الذى قدم للوفد فى نهاية مفاوضته معه وقدم للأمة لتستفتى فيه. ويزعم الدكتور شوقى ضيف أنه كان «لكتشف العقاد عن هذا التدليس فى الترجمة الرسمية دوى هائل فى المحافل الدولية !».

على أنه ينبغى القول بأن ما جاء فى الترجمة العربية كان صحيحا ، وأن المقصود كان «تحت نظم دستورية» ، وذلك ما أكده عدلى يكن لسعد زغلول فى خطابه إليه فى ٢٩ من يناير سنة ١٩٢٠ [١] . وما سلم به سعد فى خطابه إلى عدلى يكن فى ١١ فبراير سنة ١٩٢٠ [٢] .

---

(١) أحمد شفيق : المرجع السابق ص ٦٣٠ - ٦٣١ .

وقد جاء فى خطاب عدلى يكن : «وهذه النقطة هى ما فهمتموه من أن بلاغ اللجنة ضيق الغاية من المناقشة فجعلها وضع نظام حكومى فى حدود الحكم الذاتى مما جعلكم تعتقدون (أن مع هذا التحديد لا تنتقل المسألة المصرية من مركزها . فلا ترتفع الحماية بل تتأكد) والواقع أنه حصلت بيننا وبين اللورد ملنر مناقشة فى هذا الموضوع وأكد لنا أن النص الإنجليزى وهو Self Governing Institutions ليس معناه الحكم الذاتى الذى يعبر عنه و Self-Government بل معناه الحكومة الدستورية . وأن الغرض من ذكر هذه العبارة فى البلاغ بيان أن الحكومة الإنجليزية لا يصح أن ترتبط بمعاهدة مع حكومة لا تكون ذات نظام دستورى . وكذلك كانت الترجمة العربية الرسمية وفق هذا التفسير.

(٢) المرجع نفسه ص ٦٥٨ - ٦٦٠ .

وقد جاء فى خطاب سعد : «أما العودة إلى مصر فلم يعير فيها رأينا للأسباب =

ولا نعثر للعقاد على كتابات سياسية بعد ذلك ، حتى عرض مشروع ملنر على الأمة لابداء الرأى فيه خلال شهرى أغسطس وسبتمبر عام ١٩٢٠ ، حيث شارك العقاد فى معالجة الموضوع ، وكانت خلاصة رأيه :

« إن مشروع الاتفاق بين الوفد المصرى ولجنة اللورد ملنر كما بسطه للملأ أعضاء الوفد المندوبون لايقدمنا خطوة عما نحن فيه بل يمكن أن يرجع بنا خطوات ! نعم ، إنه لم يدعنا فى موضعنا ، ولكن الخطوة التى يخطوها بنا غير مضمونة ولا حاسمة ، ولا يؤمن فيها الالتواء والاحتكاك فى كل ساعة ، لأن مشروع الاتفاق لا يتضمن نقطة واحدة يمتنع فيها الشك ، وتتضح فيها الحدود » .

وأوضح أن التفكير فيما وراء رفض المشروع « لا يصح أن يكون سببا لاستحسان الاتفاق ؛ لأننا متى جعلنا هذه الفكرة محك انتقادنا فكأنَّنا قد عولنا على ألا نرفض شيئا ألبتة ولو كان الحماية أو ما هو أضيق منها دائرة وأقل شأنا » .

ويذكر البعض أن العقاد انضم فى أثناء الثورة إلى جماعة « اليد السوداء » ، واشترك فى وضع منشوراتها السرية .

ولم يستمر عمل العقاد فى « الأهرام » طويلا ، فقد مرض واضطر إلى الرحيل إلى أسوان ، والأرجح أن ذلك كان فى أواخر ١٩٢٠ .

ومما يدل على ذلك خطاب أرسله من أسوان فى ٢٤ من مارس ١٩٢٢ إلى « أحمد عبيد » مؤلف كتاب « مشاهير شعراء العصر فى الأقطار العربية الثلاثة : مصر وسوريا والعراق . وجاء فيه :

= التى بيناها لكم . نعم ، إن ترجمتكم عبارة Self Governing Institutions بالحكومة الدستورية هى الأصح ولكن صحة هذه الترجمة فى نفسها لا تحمل على تعديل قرارنا ، لأن هناك أسبابا أخرى غيرها ! » .

«من هذه البلدة أكتب إليك الآن . فقد قضى على بالمكث فيها شتاءين متواليين استشفاء من مرض أقعدنى عن العمل عاما ونصف العام» .

وقد روت صحيفة «عكاظ» أن نقابة الصحفيين كانت تصرف مساعدة مالية للعقاد لمرضه . وأرجعت ذلك إلى أن للعقاد «صلة بالأهرام جريدة النقيب» على أن العقاد عاد يتصل بالصحافة منذ فبراير ١٩٢٢ ، فنشرت له «المحروسة» التى كان عبد القادر حمزة قد استأجرها منذ ١٤ من يناير ١٩٢٢ . مقالين ساخرين عن عبد الخالق ثروت ، وشروطه لتولى الوزارة . فسخر فى المقال الأول من ادعاء مؤيدى ثروت أن شروطه التى اشترطها لتولى الوزارة كفيلة بتحقيق الاستقلال المنشود . ورأى أن معنى ذلك إحداث تغييرجوهرى فى السياسة الإنجليزية نحو مصر ، فى حين أن إعادة سعد زغلول وزملائه المنفيين لا يتطلب مثل هذا التغيير . وسخر فى المقال الآخر من ثروت لاستهزائه بالأمة وباتفاقه مع الإنجليز .

وثمة ما يشير إلى أن موقف العقاد من عبد الخالق ثروت فى ذلك الوقت قد حدده له عبد القادر حمزة . ولم يكن موقفا اتخذه من تلقاء نفسه : ويدل على ذلك ما جاء فى خطاب أرسله إلى عبد القادر حمزة بتاريخ ٢٠ فبراير من ١٩٢٢ ، قال فيه :

«ورد إلى خطابكم وفيه الحوالة التى تفضلتم فسميتموه . تبادل منفعة فشكرا لكم . وسأوالى الكتابة إلى «المحروسة» غير واقف عند الحد الذى عينتموه كلما وجدت من الفراغ والموضوعات ما يدعو إلى الكتابة . . . .»

أما عن علاقة العقاد «بالمحروسة» ، فقد روى عبد القادر حمزة أنه نشر مقالتى العقاد ومنحه أجرهما من قبيل المساعدة المادية له فى ظروفه المادية السيئة التى كان يحياها متعطلا فى أسوان .

وهكذا يتضح قلة مشاركة العقاد فى أحداث الثورة من الناحية الصحفية بسبب غلبة الترجمة الصحفية على عمله بها ، وبسبب مرضه من ناحية أخرى . وبرغم هذا شوه أصدقاء العقاد الواقع ، وأسندوا إليه دور البطولة ، فكتب محمد طاهر الجبلاوى يقول :

«كان لابد لهذه الثورة من المعين الذى يغذيها ، والمشعل الذى يقودها نحو النور والسلاح الذى يدرأ عنها ، فوجدت ذلك فى قلم العقاد ! » .

الفصل الثالث

عباس العقاد فى الصحافة المصرية
من عام ١٩٢٢ إلى وفاة سعد زغلول ١٩٢٧

أولا : هل كان العقاد كاتب الوفد الأول :

ذهب بعض إلى أن العقاد كان كاتب الوفد الأول ، بيد أن ذلك غير صحيح . فقد كان للوفد عدد من الكتاب يدافعون عن سياسته . ومواقفه إزاء تطور الأحداث السياسية ، على رأسهم : عبد القادر حمزة ، وأحمد حافظ عوض ، وعباس العقاد ، ومحمد توفيق دياب .

وكان عبد القادر حمزة ، أكثر هؤلاء تعبيرا عن سياسة الوفد ، وأكثرهم التصاقا بسعد زغلول لعدة أسباب :

١ – كان أسبقهم إلى التعرف بسعد زغلول ، والارتباط به من الناحية الصحفية .

٢ – إنه كان أسبقهم إلى إصدار صحف اتخذها الوفد لسانا له . كما يتضح

ذلك من دراسة صحف عبد القادر حمزة . ففى هذه الصحف وجد كبار رجال الوفد مجالاً للتعبير عن آرائهم ، والدفاع عن مواقف الوفد ، بما فيهم سعد زغلول الذى نزل بنفسه - إبان الانقلاب الدستورى الأول - ليقود المعركة الصحفية من على صفحات « البلاغ » ضد العناصر المناوئة للوفد فى ذلك الوقت .

٣ - إن عبد القادر حمزة كان الصحفى الوحيد الذى يقابل سعدا يوميا ؛ ليستقى منه موضوع مقال الغد ، وكان سعد زغلول يحرص على لقائه ولو كان مريضا أو معتكفا ؛ ولهذا كله كاد محمد إبراهيم الجزيرى سكرتير سعد زغلول - يجزم بأن عبد القادر حمزة لم يكتب فى عهد سعد مقالا قبل أن يتحدث إليه فى شأنه .

ولكل هذه الأسباب يمكن القول بأن عبد القادر حمزة كان كاتب الوفد الأول ، والأكثر تعبيرا عن سياسته ومواقفه فى عهد سعد زغلول ، بل بعده ، أيضاً ؛ فليس ثمة معلومات تشير إلى أنه فقد هذه المكانة ، أو تبوأها أحد غيره ، حتى انشق على الوفد مع الثمانية الذين انشقوا عام ١٩٣٢ .

ثم يأتى أحمد حافظ عوض ، وبرغم أنه لم يكن كثير التردد على بيت الأمة للقاء سعد - بسبب ظروفه الصحية - فإنه كان يدافع عن الوفد ومواقفه السياسية من داخل الإطار العام للمبادئ الوفدية .

أما العقاد فلم يكن مالكا لصحيفة ، بل كان محررا براتب شهرى فى الصحف الوفدية ، ولم تكن ثمة علاقة رسمية أو شبه رسمية تربطه بالوفد . اللهم إلا عندما صار عضوا بالهيئة الوفدية البرلمانية بعد نجاحه فى انتخابات ١٩٢٩ .

أما عبد القادر حمزة وأحمد حافظ عوض فكانا عضوين فى هذه الهيئة منذ عام ١٩٢٦ . وحتى عندما صار العقاد عضوا بالهيئة الوفدية البرلمانية ، وحدث الانقلاب الدستورى الثالث الذى أحدثه إسماعيل صدقى ، وسجن بتهمة العيب فى

الذات الملكية – صار أكثر ميلا إلى الاستقلال فى آرائه ومواقفه الصحفية . وأخيرا كان العقاد أصغر كبار الكتاب الصحفيين الوفديين سنا . وأقلهم مساهمة فى الصحافة السياسية قبل التحاقه بالصحافة الوفدية .

ولذلك يلاحظ أن (سعد زغلول) كان يوحى إلى عبد القادر حمزة بأفكار مقالاته . أو يوجهه صحفيا نحو الوجهة التى يريدها على النحو الذى جعل سكرتير سعد يكاد يجزم – كما سبق القول – بأن عبد القادر حمزة لم يكتب مقالا فى عهد سعد إلا بعد أن تحدث معه فى شأنه ، ولكن سعدا لم يطلب من العقاد ، أو يطلب من غيره أمامه أن يكتب رأيا معينا ومحدودا . وفى ذلك يقول العقاد :

«وقد لازمت سعدا سنوات ووافقته كثيرا ، وخالفته كثيرا كما يعلم القراء ، فلا أذكر أنه طلب منى أو طلب من غيرى أمامى أن نكتب فى رأى بغير مانراه وإنما كان أسلوبه فى هذه الحاله أن يفتح باب المناقشة فيما يريد الكتابة فيه : فإن خالفناه وأقنعناه لم يطلب منا كتابة ولم يلمح إلى طلبها أقل تلميح ، وإن وافقناه ورأينا رأيه قال : «حبذا لو وقف القراء على جلية هذا الموضوع ، وهذا غاية ما كنا نسمع من طلبه الكتابة فى موضوع من الموضوعات» .

وهذا دليل على أن (سعد زغلول) لم يكن يعتبر العقاد معبراً أدق تعبير عن آرائه واتجاهاته ، ولذا سمح له فى بعض الأحيان أن يخالفه فى الرأى .

وليس معنى ذلك أنه لم يكن ملتزما بمواقف الوفد السياسية ؛ إذ الواقع أنه كان ملتزما بها التزاما تاما باستثناء مواقف قليلة جدا وخصوصا فى هذه الفترة التى انتهت بسجنه عام ١٩٣٠ . وثمة مقالات له نعتقد أنها موعز بها من قبل سعد زغلول ، أو الوفد .

وقد تميز العقاد من بقية كتاب الوفد بغزارة إنتاجه الصحفى ، وبقوة مقالاته

وعنفها ، وهو ما كان متفقا مع عنف سعد زغلول ذاته . ولهذا قفزت مقالات العقاد الصحفية ؛ لتكون المقالات الرئيسية فى صدور الصفحات الأولى لجميع الصحف الوفدية التى كتب فيها ، ولتكون منبرا للدفاع عن الوفد وسياسته بقوة وعنف فى مواجهة خصومه ؛ كما تميز العقاد من غيره من كتاب الوفد باهتماماته الأدبية إلى جانب اهتماماته الصحفية العامة .

وكان سعد زغلول معجبا بالعقاد وبكتاباته الصحفية . ويذكر سكرتير سعد أنه « ما رآه شغوفاً بقراءة مقال كما كان مقبلاً على مقالات العقاد » .

وأما محمد توفيق دياب فكان آخر كتاب الوفد الكبار انضواء تحت لوائه . ولم يتخذ مكانته فى الصحافة الوفدية إلا عندما أصدر « الجهاد » فى ١٧ من سبتمبر ١٩٣١ ، وازدادت هذه المكانة بروزاً بعد انشقاق عبد القادر حمزة بصحيفته عن الوفد عام ١٩٣٢ كما سبق القول .

ثانياً : العقاد فى صحف عبد القادر حمزة :

قضت ظروف العقاد الصحية بالبقاء فى أسوان حتى أواخر صيف ١٩٢٢ . ونتيجة لذلك كانت علاقته بالصحافة - التى بدأت مع بداية العام - مقصورة على نشر إنتاجه الذى كان يرسله من أسوان إليها ، فكتب مقالين لصحيفة « الأخبار » والأرجح أنه لجأ إلى نشرهما فى « الأخبار » ؛ لأن صحيفة « المحروسة » التى كان يصدرها عبد القادر حمزة - والتى كان قد وعد بالكتابة إليها من أسوان - كانت قد عطلت . وجاءت هاتان المقالتان استكمالا للمقالتين السابقتين اللتين نشرتا فى « المحروسة » ، من حيث الطعن فى عبد الخالق ثروت ووزارته التى شكلها فى الأول من مارس ١٩٢٢ :

فاتهمها فى المقال الأول بالإذعان للإنجليز ، بتسليمها لهم بحق حماية الأجانب والحصول للموظفين منهم على تعويضات من الحكومة المصرية دون الاكتفاء بهذه التعويضات بالنسبة للموظفين الإنجليز فقط . واتهمها فى المقال الآخر بأنها وزارة مضللة ، لأنها فى الوقت الذى أعلنت فيه أنها لم تعد الإنجليز بشىء فى أثناء المفاوضات التى سبقت إعلان تصريح (٢٨ فبراير ١٩٢٢) ، وأنها ستترك كل أمر يتعلق بمصير البلاد للبرلمان القادم ليفصل فيه ، إذ هى - على حسب ما روت الصحف الإنجليزية - تتفق مع الإنجليز على إبعاد الدول الأجنبية عن البحث فى حق إنجلترا فى إبقاء حامية إنجليزية فى منطقة قناة السويس .

وفى صيف ١٩٢٢ عاد العقاد إلى القاهرة حينما استعاد من صحته ما يمكنه من العمل ، وبدأ يشارك عبد القادر حمزة فى تحرير صحيفته «الأفكار» .

ويذكر محمد طاهر الجبلاوى - صديق العقاد - أن العقاد عاد من أسوان فى خريف ١٩٢٢ ، «وأن الوزارة وقفت آن ذاك دون عودته للصحافة ، وأخذت تساومه وهى تعلم بمرضه وحاجته إلى المال ، ولكن العقاد لم يقبل هذه المساومة التى ذكر لى أمرها فيما بعد ، وقد بلغت ألفين من الجنيهات لا يملك منها العقاد إلا قروشاً لا تغنى فى مثل حالته» ، وفى رأينا أن ماذكره الجبلاوى لا يعدو أن يكون حلقة من سلسلة الحلقات التى يصنعها أصدقاء العقاد ، وصنعها العقاد بنفسه ليضعوه فى مقام البطولة ، فمن المستبعد تماما أن تسعى وزارة عبد الخالق ثروت للحيلولة دون عودة العقاد إلى الصحافة ، وأن تساومه على ذلك بمبلغ ألفين من الجنيهات ، لأن العقاد كان فى ذلك الوقت محرراً مغموراً فى عالم الصحافة السياسية ، ولم يكن له أى موقف معاد للوزارة إلا المقالات الأربع التى كتبها فى «المحروسة» و«الأخبار» ، ولأن الوزارة الثروتية كان لديها من إمكانات القهر مايغنيها عن

مساومة الكتاب المغمورين بآلاف الجنيهات .

ويعتبر التحاق العقاد «بالأفكار» الفرصة الذهبية التي أتيحت له للبروز فى عالم الصحافة ، وليأخذ مكانه كواحد من أكبر كتاب المقالة السياسية بعد ذلك فى مصر ، ولاشك أن هذه الفرصة التى أتاحها له عبد القادر حمزة كانت هى السبب فى المكانة التى حظى بها العقاد بعد ذلك عند سعد زغلول ، وعند الوفد ، وعند القراء على وجه العموم .

وكان العقاد كاتب المقال الرئيسى فى «الأفكار» ، وكان يكتبه يوميا إلا فى يوم واحد فى الأسبوع ، وهو فى الغالب يوم السبت الذى كان إجازته الأسبوعية ، وكان هذا المقال ينشر فى الصفحة الأولى إلى اليمين على مساحة تتراوح بين عمودين وثلاثة أعمدة ونصف العمود .

العقاد وتطور الحالة السياسية بعد تصريح (٢٨ فبراير) ١٩٢٢ .

١ - موقفه من الوزارات المصرية :

اتخذ العقاد من الوزارة الثروتية التى كانت فى الحكم عندما بدأ يكتب فى «الأفكار» موقفا غلب عليه العنف ، وقام على الطعن فيها ، والتشهير بها ، واتهامها بما يسىء إلى وطنيتها وإشاعة الكراهية لها لدى الرأى العام الذى لم يكن يثق فيها ويميل إليها أصلا . ونهج فى ذلك الخطة الآتية :

(ا) إنكار أى فضل لعبد الخالق ثروت فى الاستقلال الذى جاء به طبقا

لتصريح (٢٨ فبراير) ١٩٢٢ ، إذ أكد أن هذا الاستقلال «هو المنحة التى يعرضها الإنجليز طواعية من تلقاء أنفسهم ويبذلونها بذلا» ، وأن «الوزارة الثروتية قبلت بهذا الاستقلال المموه مالا تقبله وزارة أخرى» .

(ب) التأكيد على أن الوزارة لاسند لها من الأمة ، وأن سندها الوحيد هم الإنجليز الذين يعينونها على البقاء برغم الأزمات الكثيرة التى تمر بها ، وبرغم المساوئ التى جرتها على البلاد .

ومن ناحية أخرى : أكد أن الانجليز لايؤيدون الوزارة تأييدا صادقا ؛ لأنهم سيهتمون بوجود سند ديمقراطى يغنيهم عن التدخل فى الانتخابات القادمة بقوتهم وسطوتهم ، وأن الوزارة من أجل ذلك تسعى لمساعدة حزب الأحرار الدستوريين الذي سيولد عما قريب ، كي تستمد منه هذا السند الديمقراطى ، وأن الحزب من ناحيته لا يتقيد ببرنامج الوزارة ولا يحجم عن مخالفته ، ولا يمانع فى تولى الحكم منفردا ، وفى الوقت نفسه أكد أنه ليس ثمة اختلاف بين مبادئ وبرامج كل من الحزب والوزارة ، ولكنهم سواء ، والمجنى عليها فى كل الحالات هى الأمة .

(جـ) ترديد مارآه من مساوئ الوزارة على نحو مسيء لوطنيتها : فهاجم سعيها لإلغاء الأحكام العرفية بعد إدماج أحكامها فى قانون العقوبات ، بغرض التأثير على الانتخابات القادمة ، وتقصيرها فى حماية حقوق مصر فى السودان : «إننا لا نغالى إذا قلنا إنها لا تصنع فى السودان أكثر مما تصنعه وزارات السويد والأرجنتين ، وإنها لا يهمها منه ما يهم الجار من جاره ، ودع عنك ما يهم صاحب الملك فى عقر داره» .

وأرجع تفريطها إلى حرصها على البقاء فى الحكم ، وهاجم سعيها لتمثل هى مصر فى مؤتمر لوزان بعد أن طلب منها فى لهجة هادئة ترك هذه المهمة للوفد الذى

اعتبر تمثيله لمصر فى المؤتمر حقا له بصفته وكيلا عن الأمة .

ولم تكن العاطفة الوطنية وحدها هى التى تحرك العقاد تجاه الوزارة الثروتية ، فقد كان لغرامه بالأديبة «مىّ زيادة» أثره فى ذلك : كان يشتد على الوزارة بقصد إثارة غيرة «مى» أو إشفاقها عليه ، فتتصل به تلفونيا لتنصحه بالحيطة والتخفيف فى الهجوم فيذعن لها ، ثم يعود إلى الاشتداد فى الهجوم كلما أراد أن يستمع إلى صوتها وأن يحس اهتمامها به . وهكذا أخضع العقاد موقفه من الوزارة لعواطفه الخاصة ، واعترف العقاد نفسه بذلك : فقد روى وديع فلسطين أنه اقترح عليه أن يكتب مقالا بعنوان «موضوعى كيف أختاره؟» فأورد العقاد فيه فقرة عن «مى» كان قد أسر بها إليه من قبل ، ولكنها أغفلت عن النشر ، ونصها : «. . . ولا حرج من الاعتراف بأسلوب من أساليب الاختيار ، لم يخطر على بال أحد من قراء الصحافة السياسية فى ذلك الحين ؛ فقد كتبنا أعنف المقالات فى الحملة على بعض الطغاة المرهوبين (يقصد عبد الخالق ثروت) لأننا كنا على ثقة — بعد كل حملة — من دق الهاتف والاستماع إلى صوت إحدى الأديبات الناصحات بالتقية والتخفيف . . . فإذا طال العهد بالاستماع إلى ذلك الصوت فالمقالة الأولى على أشدها وأقصاها تصيب الطاغية الذى اشتهر بالنقمة العاجلة بين زمرته القابضين على زمام الأمور . . وقد يكون حقيقا بها وبما هو أشد منها ، ولكنه لا ينال حقه كله فى جميع الأوقات رعاية للنصيحة المشكورة على كره منا ، ثم نحين الفرصة فى كل لحظة نريدها لتوفية الرجل حقه وانتظار الهاتف الذى طال به عهد الانتظار» .

ومما يدعو إلى الوثوق بهذه الرواية تمام الثقة — أن النص السابق — بأسلوب العقاد المعهود فى مقالاته الصحفية . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يلاحظ بالفعل على مقالات العقاد تجاه الوزارة الثروتية أنها تتأرجح بين العنف

الشديد وبين الهدوء :

ومن أمثلة كتاباته الهادئة عن الوزارة – مطالبته إياها بإلغاء الأحكام العرفية ، وفك أسر المعتقلين فى ثكنة قصر النيل بأسلوب هادئ ومهذب ، إذ كتب يقول :

«وليس مما يسمح لنا على كل حال أن نطلب من السلطة العسكرية بيانا عن أعمالها ، ولكننا نسأل حكومتنا المسئولة عن رعاياها : لم سكتت عن هؤلاء المعتقلين؟ وهل هى تستطيع أن تستوثق من جريمتهم فيحاكموا ، أو من براءتهم فيفرج عنهم ، أو هى لا تستطيع ذلك؟ وسواء استطاعت حكومتنا المستقلة ذلك أو لم تستطعه فلا شك فى أنه حق ثابت من حقوقها ، ولو شاءت لاستعملته ولم تسكت عنه . ولكن هل تشاء»؟

وعندما استقالت الوزارة الثروتية فى ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢ رفض العقاد ما أشيع من أنها استقالت غيرة على النصوص الخاصة بالسودان فى الدستور ، وأرجع سبب استقالتها إلى «أنها باتت فى أحرج مركز وجدت فيه وزارة منذ سمعنا بالأزمات الوزارية : باتت مغضوبا عليها من الملك ، مسخوطا عليها من الأمة ، ميئوسا منها من الإنجليز . فلم يعد لها إلى البقاء سبيل» .

وقد اتهمت «الأفكار» بكتاباتها المهيجة ضد الوزارة ، والتى شارك فيها العقاد ، بأنها السبب فى إقدام الجناة على اغتيال اثنين من أقطاب الأحرار الدستوريين : إسماعيل زهدى ، وحسن عبد الرازق على باب «صحيفة السياسة» فى ١٦ من نوفمبر ١٩٢٢ وقد سعت الوزارة للبطش بصاحب «الأفكار» وبالعقاد وعبد القادر المازنى الذى كان يكتب مقالات فيها ضد الوزارة بتوقيع «مطلع» . واستدعت النيابة بالفعل عبد القادر حمزة للتحقيق معه فى هذا الشأن ، ولكن لحسن حظهم استقالت الوزارة فى نفس اليوم الذى بدأ فيه التحقيق ، ولم تنته

استقالتها حملات الصحف الوفدية عليها ، بل زادت هذه الحملات ، وصارت مزيجا من التشهير والشماتة ، وكذلك فعل العقاد .

واتبع العقاد موقف الوفد من الوزارة النسيمية التى خلفت الوزارة الثروتية فى الحكم ابتداء من ٣٠ من نوفمبر ١٩٢٢ . وكان موقف الوفد من الوزارة وديا فى البداية نتيجة لسعى رئيسها لإحداث تقارب بين الوفد والقصر ووعده بالسعى لإعادة المنفيين ، والإفراج عن المعتقلين ، ورضا سعد زغلول عن سياسة نسيم لا حباً فيه ولكن كراهية لثروت وفريقه ، وعلى هذا اتخذت الصحف الوفدية موقفاً ودياً من الوزارة عموماً .

وقد استقبل العقاد الوزارة النسيمية استقبالا طيبا ، فأثنى على كونها وزارة غير حزبية ، ورأى فى ذلك ضمانا لإجراء انتخابات نزيهة ، كما أثنى على رجالها الذين وصفهم بالأمانة والنزاهة . وعلى وجه العموم رأى العقاد أن الوزارة تعمل لتحقيق رغبات البلاد فى الحرية والاستقلال التام .

ولم يمنعه هذا الاستقبال الطيب من مطالبة الوزارة – بإلحاح – بإصدار بيان أو برنامج سياسى تشرح فيه خطتها لتقضى على الشكوك التى تدور بالرءوس ، وأكد أن الوزارة إذا لم تعلن برنامجها السياسى فإن الأمة سوف تحاسبها طبقا للبرنامج الذى أعلنه عبد الخالق ثروت عند تأليف وزارته المستقيلة ، «لأنها إذا لم تكن خيرا من سابقتها فلا معنى لأن تكون أقل منها ، فمن المفروض المسلم به أنها تعد الأمة مثل وعود ثروت باشا على الأقل» .

ويبدو أنه تجنب إحراج الوزارة ، فذهب يلتمس لها الأعذار لإحجامها عن إصدار البيان الذى سبق أن طالب به مرجعا ذلك إلى «شعورها بتناقض الموقف ، وصعوبة اهتدائها إلى التخلص منه وترددها بين القول والعمل ؛ لأنها مطالبة بأعمال

تناقضها أقوالها ، وليس لها من الحرية ما يمكنها من التوفيق بين الأعمال والأقوال » .

ثم ما لبث أن تغير موقف العقاد من الوزارة عندما تغير موقف الوفد منها وأصدر بيانا يهاجمها فيه ، لأنها لم تنفذ ما وعدت به من أعمال ، ولم تسع لعودة المنفيين والإفراج عن المعتقلين . وطفق العقاد يحمل عليها ؛ لأنها لم تفعل شيئا ، بالرغم من وعدها بأن تكون وزارة أعمال لاوزارة أقوال . ولتقصيرها فى السعى لتمثيل مصر فى مؤتمر لوزان ؛ لإنه كان فى وسعها — على حسب تقديره — «أن تفتح باب الكلام فى القضية المصرية فى المؤتمر ، فلا يكون ثمة بد من الاعتراف باستقلال مصر التام أو كشف الغطاء عن دسائس الإنجليز على مشهد من دول العالم» ؛ ودأب على مطالبتها بالسعى لإعادة الزعماء المنفيين والإفراج عن المعتقلين .

٢ — حزب الأحرار الدستوريين :

شارك العقاد فى حملات الصحف الوفدية فى الطعن والتشهير بحزب الأحرار الدستوريين ، والتنديد بالقائمين عليه من قبل أن يولد وبعد ميلاده . ودارت مقالاته فى هذا الصدد حول إثارة كراهية الجماهير للحزب باستغلال عاطفتها لسعد ورفاقه ، وتشويه صورة قيادات الحزب أمام الرأى العام والطعن فى وطنيتهم ، وتأكيد نمور الشعب من الحزب وقياداته .

وأهم ما يسترعى النظر فى حملات العقاد على الحزب الجديد حرصه على الطعن فى أحمد لطفى السيد بالذات والسخرية منه ، والحط من مكانته العلمية ، ومن ذلك ما كتبه :

« وليفتن الأغرار بالاستاطيقا والبوليطيقا والدبلوماطيقا ثم الديمكراطية

والديمكوجية ، وبكل مايخلوله مما يعرفه صبية الإفرنج ويبيعه هو علينا فى سوق الفلسفة » وربما كان الدافع على هذا الموقف من جانب العقاد إدراكه أن أحمد لطفى السيد هو العقل المفكر للحزب.

على أن هذا الموقف يدل على أن الصراع الحزبى بدأ يطغى عليه ، وبدأ يشكل لديه مواقف واتجاهات جديدة تتحكم فيها وتوجهها المهاترات الحزبية ، دون مراعاة لأى مبادئ أو رجال كانوا موضع احترام وتقدير من قبل ، ويجعلنا نتردد فى قبول ما قاله بأن ثقته بسعد زغلول مرجعها إلى إعجابه بأستاذه الإمام محمد عبده ؛ لأن أحمد لطفى السيد وغيره من رجال الحزب الجديد كانوا أيضا من أصدقاء الإمام محمد عبده وتلاميذه ؛ فليس المبدأ هو الذى يحكم العقاد فى مواقفه الصحفية ، وإنما الموقف الحزبى بما يكتنفه من صراع وملابسات تقضى بتأييد الوفد على طول الخط ، والطعن فى خصومه سواء كانوا على خطأ أو على صواب — كان الفيصل الوحيد .

٣ – الدستور :

هاجم العقاد بشدة اللجنة التى شكلتها الوزارة الثروتية لوضع الدستور ، مثلما هاجمتها الصحف الوفدية ، فاتهم أعضاءها بالقصور ، ووصف الدستور الذى يشتغلون بوضعه بأنه : «مأساة من أفجع ماشهدته مصر فى تاريخها الحديث» لأنه لن يخرج – فى رأيه – عن الحدود التى أرادها الإنجليز.

ولما تردد أن ثمة مساعى من جانب القصر لتعديل الدستور بادر بالمطالبة بضرورة استفتاء الأمة فى الدستور قبل عرضه على الملك ؛ لتقول فيه كلمتها على أساس أن الأمة مصدر السلطات . ولاشك أنه أراد تفويت فرصة تعديل الدستور على الملك

بجعل إصداره للدستور مجرد إجراء شكلي . ومن أجل هذا اتهم العقاد بسوء القصد . وكذلك ، هاجم العقاد تعديل النصين الخاصين بالسودان فى الدستور .

وبالنسبه لموقف الوزارة النسيمية من تعديل الدستور اقترح العقاد عليها إجراء الانتخابات بعد إلغاء جميع القيود المانعة لصحة التمثيل ، على أن ينظر البرلمان المنتخب – على شكل جمعية وطنية – فى تنقيح الدستور ، وتعديل مواد قانون الانتخاب . وهو نفس الرأى الذى ارتآه سعد زغلول فى ذلك الوقت . ولما أشيع أن الوزارة النسيمية فى صدد تعديل نصى السودان إذعانا للمطالب الإنجليزية – هاجمها العقاد – فى هدوء واتزان – لاتباعها سبيل الوزارة الثروتية فى هذا الشأن ، ورأى أن ثمة طريقاً شريفاً واحداً أمام الوزارة . وهو «أن تبدأ بالعمل فى تنفيذ الدستور الذى يحفظ حقوق الأمة ، وأن تدع الإنجليز وشأنهم يتعللون بما شاءوا من العلل لإبقاء الأحكام العرفية أو إلغائها أو وقفها . . وأن عليها أن تلزم الإنجليز جريرة الإصرار على رفض مطالب البلاد وأن تخيرهم بين شيئين : إما الموافقة على تمثيل البلاد تمثيلا صحيحا يمكنها من إعلان رأيها الصادق فى مصيرها ، أو الاعتراف على الرغم منهم بنياتهم الخفية ومطامعهم المموهة» .

واستغل العقاد أزمة تعديل الدستور للطعن فى وطنية الأحرار الدستوريين وتشويه موقفهم من تعديله : فعلى الرغم من أن الأحرار الدستوريين كانوا حريصين على ألا يمس مشروع الدستور بتغيير أو تعديل أو انتقاص من مواده – فقد اتهمهم العقاد بالتواطؤ مع الإنجليز على مسخه ، وأكد أنهم فى الوقت الذى يطالبون فيه بإصدار الدستور دون تعديله – يتفقون مع الإنجليز على التسويف فى إلغاء الأحكام العرفية ، وإقامة العراقيل فى وجه الدستور ؛ حتى تجد الوزارة نفسها بين شقى الرحى ، فتستقيل ، ويتولوا هم الحكم محلها . وقد أعجب سعد زغلول

بمنطق العقاد هذا فى تشويه غيرة الأحرار الدستوريين على الدستور ؛ إذ « دلنى ما اشتملت عليه أن فى البلاد يقظة والتفاتا لأعمال أولئك الذين يكيدون لها فى الخفاء ويتظاهرون بأنهم من أخلص أوليائها » .

وظل العقاد يكتب فى « الأفكار » على هذا النحو ، حتى منتصف يناير ١٩٢٣ ؛ حيث تخلى عبد القادر حمزة . عن إصدارها ، استعدادا لإصدار « البلاغ » الذى صدر فى ٢٨ من يناير ١٩٢٣ . ودارت كتابات العقاد فى « البلاغ » . فى البداية حول موضوعين رئيسين : **الأول : تعديل الدستور والآخر : الحالة السياسية بعد استقالة الوزارة النسيمية .**

١ – تعديل الدستور :

استكمل العقاد فى « البلاغ » كتاباته حول موضوع تعديل الدستور وبدا موقفه أكثر تشددا عن ذى قبل تجاه مسلك الوزارة النسيمية من تعديل الدستور ، فلام الوزارة لما يشاع عن عزمها تعديل مشروع الدستور ، بزيادة عدد الشيوخ المعينين إلى النصف . واعتبر الوزارة متهاونة فى حقوق البلاد ، لموقفها إزاء إصرار الإنجليز على تعديل نصى السودان فى الدستور ، ولكنه رفض فكرة استقالتها كحل للأزمة بينها وبين الإنجليز ، وظل متمسكا برأيه الأول فى عدم تنقيح الدستور ، أو تعديله ، إلا بوساطة جمعية وطنية ، أو الاكتفاء بإجراء الانتخابات ، على أن يكون البرلمان فى أول دور من أدوار انعقاده بمثابة جمعية وطنية تنظر فى تعديل الدستور.

ولم يقبل العقاد من الوزارة إقدامها على تعديل نصى السودان ، تحت ضغط الإنذار الإنجليزى الذى وجه إلى الملك . واعتبر إقدامها على هذا التعديل تحت ضغط الإنذار خسارة كبيرة ؛ لأن تهديد الإنجليز – فى اعتقاده – بإعادة النظر فى

بتصريح (٢٨ فبراير) لا يعادل بأى حال التفريط فى السودان ورأى أن طريق الخلاص الوحيد أمام الوزارة من هذا المأزق هو أن تطرح الدستور جانبا ، وأن تدعو جمعية وطنية لوضع دستور جديد ؛ «هذا أو يعترض الإنجليز على انتخابات الجمعية الوطنية . فتنكشف نياتهم ، ويظهر للعالم كله غرضهم الحقيقى من هذا التصريح» . .

وتعجب العقاد كثيرا لاستقالة الوزارة فى ٥ من فبراير ١٩٢٣ بعد إقدامها على تعديل نصى السودان ، واعتبر استقالتها لغزا سياسيا ، ولكنه عاد يقدم لها المعاذير لاستقالتها ، بأن الإنجليز كانوا سيسعون لإسقاطها حرصا منهم على إجراء الانتخابات القادمة فى ظل وزارة صديقة لهم من الأحرار الدستوريين الذين اعتبر معارضتهم لتعديل الدستور مجرد لهفة على الحكم ، وهو منطلق الصحف الوفدية ذاته فى التشهير بموقف الأحرار الدستوريين من مسخ الدستور فى ذلك الوقت .

ومن الغريب أن العقاد يسند إلى نفسه الفضل فيما أسماه بإحباط مساعى الوزارة النسيمية لتعديل الدستور ، فيقول : «تولى توفيق نسيم الوزارة مرتين لغرض واحد ، وهو تعديل الدستور وتضييق سلطة الأمة بموافقة الحزب الأكبر فى مصر ، وهو حزب الوفد أو حزب الكثرة الساحقة .

«وسنحت لى الفرصة فى المرتين لإحباط هذه المناورة ، فحبطت فى المرة الأولى وفى المرة الثانية بحمد الله» .

وبديهى أن ذلك مجرد ادعاء ، وسعى منه لوضع نفسه فى مقام البطل فى هذا الصدد ؛ فقد أقدمت الوزارة النسيمية بالفعل على مسخ الدستور ، وأدخلت على مشروعه من التعديلات الرجعية ما يعصف بروحه . وحتى – لو فرض جدلا – أن الوزارة النسيمية تراجعت عن مسخ الدستور – على هذا النحو – فلا شك أن ذلك

يرجع إلى أسباب سياسية موضوعية ، وليس إلى بضع مقالات صحفية كتبت فى صحيفة وفدية ؛ فقد شن الأحرار الدستوريون ، وصحيفتهم «السياسة» هجوما عنيفا على الوزارة لإقدامها على مسخ الدستور ، ولكن ذلك لم يمنعها من المضى قدما فيما شرعت فيه .

٢ – تطور الحالة السياسية بعد استقالة الوزارة النسيمية :

استقالت الوزارة النسيمية إذن بعد أن أقدمت على تعديل الدستور ، وتعديل نصى السودان به ، واستدعى الملك (عدلى يكن) لإسناد رياسة الوزارة إليه ، وهو ما كان فى مصلحة الدستور ؛ إذ لم يكن من المعقول أن يتوقع الملك من عدلى يكن أن يقبل إدخال أى تعديل على مشروع الدستور كما وضعته لجنة الثلاثين لتوسيع اختصاصاته ، ورد الوفد على ذلك بإصدار نداء فى ٢٠ من فبراير اعترض فيه بشدة على تدخل الإنجليز فى تشكيل الوزارة ، وعلى تأييدهم عودة عدلى يكن إلى الحكم .

واتبع العقاد فى كتاباته الصحفية سبيلا يخدم موقف الوفد من إسناد الوزارة إلى عدلى يكن ، فطفق يردد فى عنف ما جاء فى بيان الوفد بعد ما حوله إلى مطاعن عنيفة . فردد أن «العدليين» ليس لديهم أى حرص على الدستور ، وكل ماعندهم هو الحرص على الحكم الذى يتولونه برغبة ومساندة الإنجليز لخدمة سياستهم ، وإذلال المصريين . وشهر بالأحرار الدستوريين الذين وصفهم بأنهم رجال (تصريح ٢٨ فبراير) ، ومنفذو السياسة الإنجليزية فى البلاد ، وبأنهم المفرطون فى السودان ، ورجال الحماية فى الماضى .

ومن ناحية أخرى سفه العقاد شروط عدلى يكن لتولى الوزارة ، وكان عدلى

يكن قد اعتذر للملك عن قبول تأليف الوزارة بسبب حالة الانقسام التى فى البلاد ، ورفعت «السياسة» لواء الدعوة إلى الاتحاد ، فسفه العقاد شروط عدلى يكن ، ومزج فى كتاباته العنف بالسخرية فأكد أن شرط عدلى يكن عبارة عن دعوة صادرة من جانب الإنجليز ، «ونحن نحقق حين نلبى الدعوة مأربا من مآرب الإنجليز ، لا مأرباً من مآرب مصر ، والمطلوب منا الآن هو أن تتألف بيننا وزارة حائزة لثقة المندوب السامى حاصلة على تأييد الزغلوليين : أما ثقة المندوب السامى فمضمونة على ما يظهر فلم يبق إلا تأييد الزغلوليين ، وهذا الذى ينتظرونه من وراء الدعوة إلى الاتحاد» . أما غرض الإنجليز من هذه الدعوة فقد رآه فى حرصهم على تأليف وزارة يتمكنون بها من تنفيذ سياسة تصريح (٢٨ فبراير) ، وإيجاد برلمان صورى لا يمثل الأمة تعتمد على الوزارة فى إذلال الأمة ، وإخضاعها للسياسة الإنجليزية .

ثم ما لبث العقاد أن طالب الأحرار الدستوريين بالاتحاد — إن كانوا يريدونه — حول المبادئ الواردة فى البيان الذى أصدره الوفد ، وأعلن فيه أنه لا يضن بثقته على أحد ، ولا يثق فى أى وعد من وعود الإنجليز ورجالهم فى مصر قبل رفع الأحكام العرفية ، وعودة سعد ورفاقه ، والإفراج عن المعتقلين ، وأنه لا يؤيد وزارة ما ، حتى يكون من أهم أغراضها العمل على إصدار دستور وليد إرادة الأمة ، وأكد العقاد أن أى دعوة للاتحاد لا تقوم على هذا الأساس هدفها إضعاف الوفد .

وقد استنكر العقاد حوادث الاغتيالات السياسية التى ازدادت إبان الأزمة الوزارية التى أعقبت استقالة الوزارة النسيمية ، ونبه إلى أمر هام هو : «ألا يجوز أن تكون وراء هذه الحوادث يد أجنبية عن القضية المصرية ، ولتكن من أعداء

الإنجليز فى البلاد الخارجية ؟ والذى نود أن يراه ذوو الشأن أن ذلك على الأقل ليس بمستحيل » .

. وما لبثت كتاباته أن انقطعت فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ البلاد ، فقد عطلت « البلاغ » واعتقل صاحبها فى ٦ من مارس ، ولما أطلق سراحه أصدر صحيفة « الرشيد » ابتداء من ٢٠ من مايو ١٩٢٣ .

وكانت وزارة يحيى إبراهيم قد تولت الحكم منذ ١٥ من مارس ١٩٢٣ . وأصدرت الدستور فى ١٩ من أبريل ، بعد تعديل نصى السودان وأصدرت قانون الانتخاب فى ٣٠ من أبريل . ودارت كتابات العقاد فى « الرشيد » من ثم حول الانتخابات والأمور المتعلقة بها ، فكتب رأيه فى كيفية تقسيم الدوائر الثلاثينية ، وحث الناخبين على الحرص على حضور الانتخابات ، وتقديم الاعتبارات العامة على غيرها من الاعتبارات عند اختيار المرشحين ، . . . إلخ . .

وأهم ما كتبه فى الأمور المتعلقة بالانتخابات استنكاره ترشيح كبار الأغنياء وكبار الرأسماليين وأصحاب الضياع أنفسهم فى الدوائر التى يهيمنون فيها على الناخبين من الناحية المعيشية ، وطالب بتدخل الحكومة للحيلولة دون تأثير المرشحين على ناخبيهم فى هذه الدوائر ؛ ولكنه استبعد أن يكون ذلك بنص مكتوب ، وفضل أن يتم ذلك عن طريق المراقبة والإشراف وتشجيع الناخبين على حفظ حقوقهم بتقريب أسباب الطعن لهم ، وتسهيل إثباته عليهم .

ومن الموضوعات التى عالجها العقاد فى « الرشيد » : موضوع إقامة سفارات لمصر فى الخارج ، فاستنكر إنفاق مبالغ طائلة فى إقامتها فى الوقت الذى تحتاج فيه البلاد إلى هذه المبالغ ، وتساءل عن طبيعة علاقة سفير مصر فى لندن بالحكومة الإنجليزية وموضوع قانون الاجتماعات الذى أصدرته الحكومة فى ٣٠ من مايو

١٩٢٣ حيث هاجمه ، لأنه « لا حرية فى الحقيقة إلا للإدارة ، ولا حق للمصريين فى الاجتماع بغير رضاها » .

وكانت كتاباته فى « الرشيد » على الشكل الذى كانت عليه فى « الأفكار » « والبلاغ » ، فكان مقاله الرئيسى يأتى فى الصفحة الأولى ، فى حين دأب عبد القادر حمزة على كتابة مقاله فى الصفحة الثانية من صفحات « الرشيد » الأربع .

وعاد العقاد إلى الكتابة فى صحيفة « البلاغ » عندما عاد إلى الصدور فى ١٨ من يونية ١٩٢٣ . ويلاحظ أن موقفه فى « البلاغ » ازداد وضوحا تجاه الوزارة الإبراهيمية ، وأنه كان موقفا وديا نسبيا فى ذلك الوقت ، فكان يثنى على بعض أعمالها ، أو يوجه إليها اللوم ، أو يتشدد معها ؛ ولكنه لا يصل فى لومه أو تشدده إلى حد الهجوم أو الطعن .

فقد أثنى على إجراءات الوزارة لتقسيم الدوائر الثلاثينية ، وأكد أنه « إذا وقع من الوزارة تقصير بعد ذلك فهو غير مقصود ، ولا منظور فيه إلى غرض ينافى حسن النية على ما نعتقد » . وأبدى لها ملاحظاته — بطريقة ودية — على عملية الانتخابات . وأيدها فى مسعاها للإشراف على المدارس الأهلية ، وطالبها بتشديد الرقابة على مدارسها ، وإن داخله الشك من هذا الاهتمام بمراقبة التعليم كله وإفراغه فى القالب الحكومى . وشكر لها إصدارها لقانون شركات التعاون الزراعية .

ومن ناحية أخرى لم يتشدد مع الوزارة ، لإصدارها قانوناً ينظم الأحكام العرفية فى ٢٦ من يولية ١٩٢٣ بالرغم من أنه كان من القوانين الرجعية المنافية لروح الدستور ، والتى قوبلت بالاستياء والاستنكار خاصة أن الوزارة استأثرت بوضعه قبل اجتماع البرلمان . بل إنه رفع عنها المسئولية كاملة ، وألقاها على الإنجليز حيث قال :

«فالحكم العرفى البريطانى الذى يمنون بإلغائه ، ويبيعون علينا هذا الإلغاء غالياً من حريتنا واستقلالنا ، وحقوق بلادنا — لن يُلغى ولن يخرج من أيدى الإنجليز إلا ليقبضوا عليه باليد الأخرى ، وسيكون إعلان الأحكام العرفية معلقاً على مشيئة الإنجليز ، لأنهم حراس المواصلات وحماة الأجانب والأقليات» .

وتشدد العقاد مع الوزارة لموافقتها على إصدار قانون التضمينات الذى يقضى بإجازة كل ما قامت به السلطات العسكرية من إجراءات مدة فرض الأحكام العرفية (من نوفمبر ١٩١٤ إلى يونية ١٩٢٣) ، ولكنه لم يذهب فى تشدده معها إلى حد الخصومة ، واقتصر موقفه على إلقاء اللوم عليها ، إذ كتب يقول :

«ولماذا تجيبهم الوزارة المصرية إلى هذا الطلب ؟ أليس فى ذلك اعتراف صريح بأن الإنجليز مسئولون عن النظام فى مصر ، وأنهم لابد أن يحكموها مباشرة أو يقترحوا القوانين التى يُحكَم بها المصريون ؟» .

ولم يهاجم الوزارة لمنع السلطة العسكرية الاحتفال بعودة المنفيين ؛ إذ رأى أن السلطة العسكرية هى التى منعت الاحتفال ابتداء ، وأن رئيس الوزارة وافق بعد أن قضى الأمر .

واستنكر لجوء الوزارة إلى الإنجليز (للوساطة) بينها وبين حكومة الحجاز إبان أزمة المحمل التى وقعت فى يوليو ١٩٢٣ ، ورأى أن ذلك معناه الاعتراف للإنجليز بأن لهم حقا فى الحجاز . ولكنه لم يصل فى استنكاره إلى حد الهجوم أو التحامل .

وامتد موقفه الودى من الوزارة الإبراهيمية إلى الطعن فى الأحرار الدستوريين لمعارضتهم إياها ، فأكد أن هذه المعارضة ليس لها من دافع إلا السعى لإحراج الوزارة ، لكى تستقيل ، ويتولوا هم الحكم لكى يضمنوا لأنفسهم أغلبية فى

الانتخابات . كما أكد أن مسئوليتهم بالنسبة لقانون التصمينات أكبر من مسئولية الوزارة ، وسخر من اتهامهم لها بالمحسوبية ، ورد على ذلك بأن وزارة عبد الخالق ثروت كانت تفعل الشيء نفسه .

ويمكن القول بأن موقف العقاد الودى من الوزارة الإبراهيمية كان هو موقف الصحف الوفدية عمـوماً . لتجرد يحيى إبراهيم وأعضاء وزارته من أى صبغة سياسية فى ذلك الوقت . ولانقطاع الصلة بينه وبين الأحرار الدستوريين . وإلى جانب هذا ربما قصد العقاد عدم التورط مع الوزارة فى خصومة تدفعها إلى محاربته فى الانتخابات التى رشح فيها نفسه على مبادئ الوفد .

وانقطعت كتابات العقاد الصحفية فى «البلاغ» منذ ٢٤ من أغسطس ١٩٢٣ ، بسبب وجوده فى أسوان للقيام بحملته الانتخابية .

العقاد بين سعد زغلول وخصومه :

استأنف العقاد كتاباته الصحفية فى «البلاغ» فى ١٣ من مارس ١٩٢٤ ، وكانت وزارة سعد زغلول قد تولت الحكم منذ ٢٨ من يناير . وقد بدا واضحاً تجاهله لها ، حيث اتجه بكتاباته لمعالجة الموضوعات ذات الطابع الاجتماعى والأخلاقى ، والموضوعات المتعلقة بالبرلمان .

وقد تجنب العقاد فى بداية عهد الوزارة السعدية الخوض فى الصراع الحزبى . صحيح أنه رأى أن معارضة الأحرار الدستوريين للوزارة غير مفهومة ، إلا أنه رأى نبذ الصراع والمهاترات الحزبية تماماً ، والاهتمام بتقدم البلاد ، وفى ذلك كتب يقول :

« فلنعلم أننا لا ندرك بغيتنا من التقدم الذى نترنم به إلا بالأخصـاء فى العلوم

والصناعات ، وأن البعثات العلمية هى وسيلتنا إلى التكثير من (الإخصائيين) ورجال الفنون والمعارف ، فعلينا أن نهتم بها بعض اهتمامنا بالقصص السياسية والمناورات الحزبية التى نحن متهالكون عليها ، والتى كادت تنقلب معنا إلى حروب بيزنطية لانفرغ من واحدة حتى نعود إلى أخرى شبيهة بها ، وإلا فلنوطن أنفسنا على الفشل . نعم . الفشل المحقق لا أقل ولا أكثر» .

وقد تجلى مدى سعيه للاستقلال فى مواقفه من الوزارة السعدية فى انتقاده لبعض أعمالها ؛ مثل : تهكمه بوزير الداخلية بالنيابة الذى يضيع جلسات مجلس النواب فى أثناء ردوده على أعضائه ، وإصراره على أن يتولى القضاء أمر البت فى الطعون الانتخابية ، فى الوقت الذى رأى فيه سعد زغلول الاحتفاظ للبرلمان بهذا الحق .

كما تجلى استقلاله هذا فى عدم تعليقه على خطبة العرش الأولى التى ألقاها سعد فى يوم افتتاح البرلمان فى ١٥ من مارس ١٩٢٤ . ويروى العقاد أنه لقى سعداً بعد خطبة العرش ، «وكان حساس النفس من ناحية الخلاف عليها لأنه أول خلاف تعرض فيه نفوذه الشعبى للامتحان ، وكان الوفديون وغير الوفديين مختلفين فى شأنها ، يكتفى بعضهم بما قيل ، ويطلب بعضهم المزيد من الإيضاح ، وكان فى المجلس فتح الله بركات والأستاذ محمود فهمى النقراشى والأستاذ عبد القادر حمزة ، فسألنى دولته : ما رأيك فى خطبة العرش ؟

قلت : رأيى يا دولة الرئيس أنها كان يمكن أن تكون أوضح مما هى عليه . .

قال : أفلا ينطبق هذا على كل كلام ؟

قلت : بلى . ولكن إذا تساوى الوضوح وغيره فى جميع الاعتبارات فرأيى يا دولة الرئيس أن الوضوح أولى بالتفضيل .

فلبث رحمه الله نصف ساعة يناقشنى فى رأيى بلا ضجر ولا استياء ، ومضت فترة بعد ذلك ، وانتقل الكلام إلى شأن آخر ، فأصغى إلى أحسن إصغاء . ثم سألنى : ولماذا تحاسبنى أنا فى هذا ، ولست أنا المسئول عنه؟

قلت : لأن دولتك وكيل الأمة والمسئول عن عمل الآخرين .

فضحك رحمه الله طويلاً ، ثم قال : لو حاسبنى كل فرد فى الأمة حسابك يا فلان لعجزت عن أعباء هذه الوكالة .

قلت . وفى نفسى غضب «أغالبه» : ياباشا ، ولكن ليس كل فرد فى الأمة «عباس العقاد» ، فتبسم مؤمناً وقال : نعم ! ليس كل فرد فى الأمة «عباس العقاد» ، صدقت .

وتجدر ملاحظة أن سعداً ناقش العقاد رأيه فى خطبة العرش «بلا ضجر ولا استياء» أما قبوله قول العقاد بأن ليس كل فرد فى الأمة (عباس العقاد) فكان متعلقاً بأمر آخر ، وليس بخطبة العرش كما ذهب بعض أصدقاء العقاد .

وقد انتقد العقاد بعض تصرفات وزارة سعد ، فى الوقت الذى أيدها فى بعض أعمالها وإجراءاتها الأخرى مثل تقريرها علانية جلسات مجالس المديريات ، ومحاربتها للشيوعية ، وإصلاحها أوضاع البعثات العلمية ، ونشرها للفنون الجميلة .

وإلى جانب نزوح العقاد عن المهاترات الحزبية ، وسعيه للاستقلال فى مواقفه الصحفية عن الوزارة السعدية ؛ يلاحظ خلو كتاباته الصحفية فى ذلك الوقت من أى ثناء أو تمجيد للوفد وزعامته . وخلوها من أى طعن فى أشخاص خصوم سعد . وقد نشرت مجلة «الكشكول المصور» خطاباً بدون توقيع ، قالت : إنه لأحد أصدقاء العقاد ، جاء فيه :

إن العقاد روى له ولأصدقاء آخرين : «أن هذا الرجل (سعدا) يطلب منى أن أكتب لأرضيه بالطعن على خصومه ، وأنا لا أبيع ضميرى لرجل أضاع من مال الأمة ثمانية ملايين جنيه ، إذ قبل أن ينفذ تعويضات الموظفين البريطانيين».

ومما يدعو إلى قبول ما جاء فى هذا الخطاب أنه يتفق مع ما لوحظ من خلو كتابات العقاد فى تلك الفترة من أى طعن فى أشخاص خصوم سعد زغلول .

ومن ناحية أخرى هدد الصديق صاحب الخطاب بنشر حديث أفضى به العقاد إليه عن لقائه الأول بسعد زغلول بعد الانتخابات ؛ إذا لم يثب للحق . وصمت العقاد ولم يحاول الرد ، أو تفنيد ما نشرته «الكشكول» ، وإنما قدم بلاغاً إلى النيابة ضد صاحب المجلة بسبب هذا الخطاب لاحتوائه على أمور أخرى رآها قذفاً فيه»

ولاشك أن موقف العقاد من الوفد وسعد زغلول مرجعه إلى موقف الوفد منه فى الانتخابات ؛ فقد رشحه الوفد مع مرشح آخر يدعى (حنفى منصور) عن دائرة أسوان ، ولما لم يحصل أى منهما على الأغلبية المطلقة رشح الوفد (حنفى منصور) وحده فى انتخابات الإعادة ، ونتج عن ذلك سقوطها ، وفوز المرشح المستقل ويدعى الشيخ (حسين صالح خليفة) .

وعلى هذا سعى العقاد للاستقلال عن الوفد بالرغم من أنه ظل يوالى كتابة المقال الرئيسى فى صحيفة الوفد الأولى ، ولم يعد يجامل الوفد (وسعد زغلول) على النحو الذى كان يفعله قبل الانتخابات ؛ بل سعى للالتحاق بصحافة الحزب الوطنى التى كانت على عداء شديد للوفد ، ولسعد زغلول ووزارته .

فقد حدث أن سعى الحزب الوطنى فى أعقاب الانتخابات التى منى فيها بهزيمة كبيرة ، إلى تنظيم صحافته وتدعيمها ببعض الكتاب الكفاة لخوض معركة المعارضة

ضد الوزارة السعدية . وطلب عبد العزيز جاويش الذى كان يقوم فى ذلك الوقت برياسة تحرير «اللواء المصرى» من إبراهيم عبد القادر المازنى — صديق العقاد والذى كان يعمل محرراً فى صحيفة «الأخبار» فى ذلك الوقت — طلب منه البحث عن محرر كفء يجيد اللغة الإنجليزية والترجمة الصحفية إلى جانب كتابة المقالات السياسية . وعرض المازنى الأمر على العقاد فوافق ، واتصل بالفعل بالشيخ جاويش ، وكتب عدة مقالات على سبيل التمهيد لدخوله فى المبدأ الجديد والجماعة الجديدة حمل فيها على الوفد وعلى سعد ، ونشرت بدون توقيعه بناء على طلبه . ومن هذه المقالات مقال قصير بعنوان «حول قرار النواب» «نشر فى الأخبار فى» ٢٢ من مايو ١٩٢٤ بتوقيع «مستفهم» سعى فيه إلى إحراج الوزارة السعدية ، ومجلس النواب بمناسبة إصدار المجلس قراراً فى ١٧ من مايو ، بأن الرغبات التى يقررها ويبلغها الحكومة لا تكون ملزمة لها ، على ألا يخل ذلك بمبدأ مسئولية الوزارة .

وقال فى هذا المقال :

«سيدى مدير الأخبار :

هل تسمح بمناسبة الرغبات أن أوجه الأسئلة الآتية :

١ — هل الإصلاح فى النظام الديمقراطى هو فصل السلطات أو تعاونها ؟

٢ — هل درس حضرات النواب السعديين جميعاً النظم البرلمانية درساً تاما حتى اضطروا أمام هذا الحق الساطع الذى تجلى لهم أن يمنحوا الحكومة سلطة لم تطلبها ، ولم تدافع عنها ؟

٣ — هل لو كان الغرض الذى يرمى إليه القرار صحيحاً كانت الحكومة تبقى بمعزل عن المناقشة وتترك المجلس تتطاحن كثرته وقلته فى سبيل النزول عن حق من حقوق الأمة للحكومة ، ولا تقول كلمة ترجح بها إحدى الكفتين ؟

٤ – هل لم تستطع الحكومة رأى مستشاريها الملكيين فى الأمر توطئة لدخولها فى المناقشة ثم أحجمت عن ذلك حين رأت الكثرة تكفيها عناء المناضلة؟» .

وعلم سعد زغلول من مصادره الخاصة بأمر تفاوض الحزب الوطنى مع العقاد لينتقل إلى الكتابة فى «اللواء المصرى» ، فبادر باستدعاء عبد القادر حمزة إليه ليستفسر منه عن حقيقة الأمر . وبعد بضعة أيام – وكان ذلك فى آخر أيام أحد شهور ١٩٢٤ – أبلغ العقاد عبد القادر حمزة نيته على الانقطاع عن العمل فى «البلاغ» وأنه سيلتحق بالعمل فى «اللواء المصرى» . وهنا تأكد النبأ لصاحب البلاغ فبادر بنقله إلى سعد فى مساء اليوم نفسه .

وفى اليوم نفسه أقام بعض أعضاء الحزب الوطنى مأدبة غداء فى دار صحيفة «اللواء المصرى» ، حضرها عبد العزيز جاويش ، والمازنى ، وأحمد وفيق ، وإسماعيل العسيلى وعبد المقصود متولى عضو اللجنة الإدارية للحزب ثم جرت مفاوضات بين إسماعيل العسيلى وعبد المقصود متولى بصفة الأخير مديراً لصحيفة «اللواء المصرى» وبين العقاد للاتفاق على أجرة . وكان عبد المقصود متولى معارضا لانضمام العقاد إلى صحيفة الحزب ، ولا يرى الاطمئنان إليه «لأن الشخص الذى يتحول بهذه السهولة من مبدأ إلى مبدأ ومن صف إلى صف لا يؤمن جانبه ولا تفيد خدمته» . ولكنه اضطر إلى القبول تحت ضغط عبد العزيز جاويش . وفى هذه المفاوضات اقترح إسماعيل العسيلى وعبد المقصود متولى على العقاد مبلغ ٣٠ جنيهاً كراتب شهرى ، وطلب العقاد ٤٠ جنيهاً ، ثم نزل إلى ٣٥ جنيهاً ، وحدث خلاف بينهم حول تقدير المرتب (وكان مرتب العقاد فى ذلك الوقت من البلاغ ٢٥ جنيهاً) فاستغلّ عبد المقصود متولى هذا الخلاف فى إقناع الشيخ جاويش بالتخلى عن فكرة استخدام العقاد فى «اللواء المصرى» . وهكذا عاد العقاد إلى

مكانه فى «البلاغ» فى اليوم التالى .

وقد كشف عبد القادر حمزة هذه الملابسات عام ١٩٣٣ . أما العقاد فقد قابلها بالطعن فى صاحب «البلاغ» وأنكرها ، وطلب إظهار المقالات التى كتبها وفى الحقيقة أن تمسكه بإظهار هذه المقالات حجة واهية ، لأنه يستطيع إنكار أية مقالات يكون قد كتبها ، ونشرت بدون توقيع أو بتوقيع مستعار .

ومما يؤكد صدق رواية عبد القادر حمزة - أن إسماعيل العسيلى - الذى شهد هذه الملابسات ، وتولى مع عبد المقصود متولى الاتفاق مع العقاد على راتبه - تدخل ، وأكد صدق الوقائع ، وروى مزيدا من التفاصيل التى استعنا بها فى شرح ما سبق . وأكد الأمر أيضا إبراهيم رياض عضو اللجنة الإدارية للحزب الوطنى ، وقال : إن العقاد هو الذى سعى عن طريق المازنى للعمل «باللواء المصرى» ، أما عبد المقصود متولى فقد أيد ما رواه عبد القادر حمزة ، وما رواه زميلاه ، ولكنه طلب إعفاءه من الحديث فى هذا الموضوع .

وروى عبد القادر حمزة أيضا أن العقاد ظل على اتصاله بصحافة الحزب الوطنى بعد عودته إلى الكتابة فى «البلاغ» ، وأنه كتب فى ٢٧ من أكتوبر ١٩٢٤ مقالاً فى «الأخبار» بعنوان «أسلفة أوكالمعتاد» وقعه بتوقيع «ع» تهكم فيه بمسلك الوزارة السعدية . وقد جاء فى هذا المقال : «قالوا :

إن قطاراً خاصا سيقل اللورد اللنبى من محطة سيدى جابر للقاهرة كالمعتاد !

وإن ضابطا إنجليزيا برتبة البكباشى المصرى بدار المندوب السامى كسلفة .

وقد علمت اليوم أيضا من مصدر ثقة أن بعض جنود مصريين من (الكتيبة الأولى مشاة) يشتغلون بالمفوضية الإنجليزية بمصر كمراسلات ! .

فهل لدى معالى وزير الحربية علم بهم ؟ وهل هم هناك سلف أم كالمعتاد ؟ .

وهكذا يمكن القول بأن العقاد أخلى نفسه من تأييد الوفد وسعد زغلول بعد موقفه منه فى انتخابات الإعادة ، وإنه قبل الانتقال إلى الجانب المعارض لسعد زغلول . لكي يعطي نفسه الحرية الكاملة فى معارضته بدلا من الاستقلال المقيد فى صحيفة الوفد الأولى .

على أن (سعد زغلول) ما لبث أن قام بعملية « استقطاب » للعقاد بعد عودة الأخير إلى « البلاغ » ، بهدف ربطه بالوفد ، وبه شخصيا . ولتكون شبه ترضية له بعد فشله فى الانتخابات ، فقد روت « الكشكول » أن سعدا أراد أن يوظف العقاد فى عمل يزاد على أعمال موظفى البرلمان . واعترف العقاد نفسه بأن (سعد زغلول) عرض عليه وظيفة فى دار الكتب ، ولكنه رفضها بحجة كراهيته للوظائف . وإزاء رفض العقاد للوظيفة قرر سعد منحه راتبا شهريا مقداره خمسة وعشرون جنيها من المصروفات السرية على حد رواية « الكشكول » وقد ذكر عبد القادر حمزة عام ١٩٣٣ أن العقاد كان يحصل عن مدة عمله فى « البلاغ » على راتب شهرى آخر ، ولكنه لم يذكر مصدره وأكد مكرم عبيد هو الآخر عام ١٩٣٥ أن العقاد كان يحصل إبان وفديته على راتب شهرى من خزينة الوفد .

ولم يحاول العقاد إنكار حصوله على هذا الراتب « السرى » . ولكنه تحفظ فقال : إنه لم يحصل عليه إلا فى حالات توقفه عن الكتابة فى المرات التى عطلت فيها الحكومات المعادية للوفد الصحف التى كان يكتب فيها ، ولكن اتفاق روايات « الكشكول » وصاحب « البلاغ » وسكرتير الوفد تؤدى إلى الاعتقاد بأن العقاد كان يحصل على هذا المرتب « السرى » منذ عهد الحكومة السعدية ، حتى قبيل عام ١٩٣٥ .

ونتيجة لعملية « الاستقطاب » هذه التى قام بها سعد زغلول ، وكانت ترضية

كافية للعقاد ، ألقى الأخير بنفسه فى المعمعة الحزبية مع الأيام الأخيرة من شهر مايو ١٩٢٤ ، وعاد إلى تقديره لسعد وللوفد ، وإلى الطعن فى خصومهما طعنا عنيفا ساخرا ، وتخلى عن كتاباته الأدبية ليتفرغ للمعركة السياسية .

فى أواخر مايو ١٩٢٤ عاد العقاد إلى الطعن فى معارضة الأحرار الدستور بين للوزارة السعدية . وتولى الدفاع عنها ضد اتهامهم إياها بالدكتاتورية ، فأكد أنه ليس فى مصر دكتاتورية . «وإنما هناك حكومة شعبية قوية . وما الدكتاتورية إلا مايريده أصحاب هذا الرأى . وهو أن تحكم الأقلية البلاد وأن تَقْسر الشعب المصرى على قبول رأيها لمجرد أنه رأيها وأن تقف فى وجه الإجماع ، لتضطره إلى العدول عن خطته ومذهبه إلى خطتها ومذهبها» .

كما عاد إلى الطعن فى زعامات الأحرار الدستوريين ، وفى أعمالهم ، ونزاهتهم بأسلوب ساخر وعنيف .

وبلغ من تأييده لسعد أنه لما وقعت محاولة لاغتياله فى ١٢ من يوليو ١٩٢٤ . وذكر الجانى أنه ارتكب جريمته لوصف سعد الإنجليز بأنهم خصوم . «شرفاء معقولون» إذ بالعقاد يدافع عن قول سعد ، ويسوق له الحجج على أن الإنجليز خصوم شرفاء ، ومعقولون ، فقد كتب يقول :

«قال سعد : إن «الإنجليز خصوم شرفاء معقولون» فأى حرج فى ذلك ؟ أى جريمة فى هذا القول وأى خيانة فى تقرير هذه الحقيقة التى فاه بها الرئيس وأى إخلال فيها بواجب الوطنية وأمانة الزعامة ؟ نقول «الحقيقة» لأننا نعتقد كما يعتقد الرئيس أن الإنجليز شرفاء معقولون ، ولو أننا نمقت منهم الاعتداء على استقلالنا ونشكو منهم الجور على حريتنا ، وكيف لا يكون شريفا ومعقولا من يعمل لوطنه ، ويقدم على المخاطر فى سبيل أمته ؟ وكيف نجرد من الشرف والعقل من يقيم سلطان دولته فى

مشارق الأرض ومغاربها ، ويجود بنفسه حبا لبلاده وقياما بواجبها عليه ؟ إنما الخصم غير الشريف وغير المعقول ، هو الذى يناضلك بكل ما عنده من حول وحيلة ليصيب أمته فى شرفها ومصلحتها ، ويكون عونا لغاصبيها عليها وسلاحا فى أيديهم يصوبونه إلى صدرها . هذا هو الخصم الذى أراد سعد أن يبكته ويؤنبه ، ويلقى عليه درسا فى الخصومة التى يمليها الشرف ويحددها العقل » .

وهكذا حول العقاد الخصومة بين الأمة وغاصبيها إلى خصومة بين الوزارة ومعارضيها .

وقد أيد العقاد الوزارة السعدية فى أهم مسألتين واجهتها : **المسألة الأولى خاصة بأحداث السودان . والأخرى خاصة بالمفاوضات .**

١ - الحالة فى السودان :

كان رأى العقاد أنه ليس ثمة مغنم لمصر فى الحالة السياسية القائمة فى السودان ، وأن المغنم كله للإنجليز الذين لا يحرصون على الشركة المصرية الإنجليزية للسودان ، إلا من أجل تحمل مصر قسطا كبيرا من نفقاته . وبنى على هذا أن الإنجليز سيسعون للتخلص من هذه الشركة إذا رأوا الاستغناء عن المساعدات التى تقدمها مصر فى السودان . وذلك بتدبير ثورة سودانية ضد الوجود المصرى به ، ثم عاد فأكد رأيه هذا ، عندما جاءت أنباء العرائض التى يعدها الإنجليز ويسعون للحصول على توقيع السودانيين عليها ، والمتضمنة إعراب السوادنيين عن ولائهم ورضائهم عن الحكم الإنجليزى واغتباطهم بعدله ، ونقمتهم على المصريين .

وإزاء هذه الحركة التى ترمى إلى طرد المصريين من السودان ، وإنهاء الوجود المصرى به - دأب العقاد على تأكيد تمسك مصر بالسودان قال : « نعم السودان

قبل مصر ، لأنك بالسودان قد تستغنى عن مصر ، ولكنك لن تستطيع أن تستغنى بمصر عن السودان » .

وأهم ما يسترعى النظر فى كتابات العقاد عن أحداث السودان – أنه نظر إليها على أنها فى جوهرها مسألة اقتصادية ، فأرجع تدبير حركة طرد المصريين من السودان إلى شركات القطن الإنجليزية التى تعمل به ، ورأى أنها تهدف من وراء ذلك إلى زيادة الأراضى المزروعة قطنا فى السودان ، وأكد أن هذه الشركات هى العدو الحقيقى لمصر فى السودان ، وعلى هذا تفاءل العقاد كثيرا لوجود العمال أعداء احتكار رأس المال والاستعمار وأصحاب المذاهب الاجتماعية . على رأس الحكومة الإنجليزية ، ومن ثم دعا إلى استغلال هذه الفرصة الطيبة بتبصير الرأى العام الأوربى والأمريكى والإنجليزى على وجه الخصوص بحقيقة الحقوق المصرية فى السودان ، وبجور الحكم الإنجليزى فيه إلى جانب إرسال وفود مصرية إلى السودان لزيادة أواصر الإخلاص والمودة بين القطرين .

والأرجح أن تقدير العقاد لهذا التحرك الواجب تجاه أحداث السودان كان موحًى به ، لأنه عاد بعد ذلك وأكد أن سياسة الوزارة الشعبية تجاه السودان تقوم على العطف على السودانيين والتضامن مع حركتهم من ناحية ، ونشر الدعوة فى العالم المتمدين لإطلاعه على حقيقة الحالة ، والتشهير بمطامع الاستعمار فى السودان ، وإثبات حقوق مصر والسودان فى وحدة وادى النيل .

وبناء على تقديره أن المشكلة السودانية مشكلة اقتصادية – دعا العقاد إلى حلها على أساس أنها مشكلة « قطنية » إذ رأى أنه يمكن معالجتها على أساس التوفيق بين حقوق مصر والسودان ومصالح مصانع القطن الإنجليزية .

ودافع العقاد عن موقف الوزارة السعدية من أحداث السودان ، وحمل بشدة

على المعارضة التى تتهم موقف الوزارة بالضعف . وأكد أنه لو بدا مركز الوزارة ضعيفا إزاء أحداث السودان فذلك مرجعه إلى ضعف مصر ذاتها ، كما أكد أن المعارضة تعلم ذلك جيدا ، ولكنها تأبى الاعتراف به .

وقد أعجبت مقالات العقاد التى دافع فيها عن موقف الوزارة السعدية من أحداث السودان القراء ، فانهالت البرقيات والرسائل من القراء التى تحمل شكرهم وتهنئتهم له على « البلاغ » التى أخذت فى نشرها . ثم أمسكت عن النشر بعد أن شكر العقاد للقراء تعاطفهم معه ، وتقديرهم له .

٢ – المفاوضات :

دلت كتابات العقاد عن مسألة المفاوضات على مدى التحول الذى طرأ فى موقفه من سعد زغلول بعد استقطاب الأخير له . فقد كان من رأيه فى البداية أن تبادر مصر فورا إلى التفاوض مع الحكومة الإنجليزية ، لأن « الانصراف أولا إلى أمورنا الداخلية قبل التفرغ للمفاوضة مع الإنجليز خطأ كبير ، لأن الإنجليز يحصلون منا كل يوم على اعتراف بوضعهم فى مصر ، فلا يأتى يوم المفاوضة حتى تكون مصر قد اعترفت لهم بالتحفظات من حيث تدرى أو لا تدرى » . وعلى هذا رأى ضرورة أن يبادر البرلمان بإعلان رأيه البات فى حل القضية المصرية بعد الفراغ من وضع لائحته الداخلية .

أما موضوع المفاوضات فقد اعترف بالتحفظات التى اشتمل عليها تصريح (٢٨ فبراير) ١٩٢٢ كأساس تبنى عليه المفاوضات المقبلة بالرغم من أن (سعد زغلول) استنكر جعل هذه التحفظات أساسا للمفاوضات المقبلة . وناقش العقاد هذه التحفظات ، فرأى أن التحفظ الخاص بالدفاع عن مصر هو أصعب هذه

التحفظات من حيث إمكان الاتفاق عليه ، ورأى أن التحفظ الخاص بالسودان هو العقبة الحقيقية فى سبيل الاتفاق بين الحكومتين الإنجليزية والمصرية . وكان تقديره أن المفاوضات المقبلة ستكون أصرح المفاوضات التى جرت بين بريطانيا ومصر وأظهرها مزايا وعيوبا .

فلما عاد العقاد إلى ولائه لسعد زغلول صار بوقا من أبواق الدفاع عن موقف سعد من مسألة المفاوضات ، ونكص عن رأيه فى وجوب الإسراع إلى البدء فيها واتخاذ تحفظات (٢٨ فبراير) كأساس لها . . فلما أعلن سعد زغلول أنه سيدخل المفاوضات متى زالت العقبات التى قامت حديثا فى طريقها ، وكان معنى ذلك الانتظار حتى تتحسن الظروف وتأتى الفرصة التى يراها سعد مناسبة — أيده العقاد ، وطلب من الصحف التى تلح فى استعجال المفاوضات ألا تفسد على الحكومة سياستها تجاه هذه المسألة .

وكان من رأيه أنه متى زالت هذه العقبات فإنه ستكون هناك « حالة جديدة تستدعى تجربة جديدة فى المفاوضات من ناحية المصريين ومن ناحية الإنجليز على السواء » .

وهذه الحالة تتمثل فى وجود حكومة شعبية فى مصر ، وحكومة عمالية فى إنجلترا : « أى وزارة جديدة لرجالها آراء وأفعال فى القضية المصرية لا يسهل عليهم إنكارها والتنحى عنها إذا ذكرهم بها المفاوض المصرى ، وطالبهم بما تقتضيه من الوفاء والإنصاف » .

وطفق العقاد يدافع عن خطة سعد فى دخول المفاوضات طالما أنها لن تجعل مصر تخسر شيئا ، ولن تكسب أحدا عليها حقا . وتولى الدفاع عن هذه الخطة ضد حملات الصحف المعادية ، ولا سيما صحف الحزب الوطنى التى تمسكت بمبدأ

حزبها القائم على رفض مبدأ المفاوضة ، فأكد أن المفاوضات هى الوسيلة الوحيدة التى يمتلكها المصريون للحصول على حقوق بلادهم ، بيد أن إيمانه بضرورة المفاوضات للحصول على حقوق البلاد لم يمنعه من مطالبة الحكومة باتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية الموظفين المصريين فى السودان ، ردا على تحرش السلطات الإنجليزية بهم ، ولو أدى الأمر إلى تعكير جو المفاوضات .

وإزاء استمرار السياسة الإنجليزية فى طرد المصريين من السودان فقد العقاد أى أمل فى دخول سعد المفاوضات استنادا فى ذلك على خطته السابق الإشارة إليها . وزاد من إصراره على حفظ حقوق مصر فى السودان ، فرفض فكرة فصل السودان عن المفاوضات وإرجائها لمفاوضات أخرى تجرى مستقبلا .

على أنه ما لبث أن تخلى عن موقفه هذا عندما سافر سعد فى أواخر سبتمبر عام ١٩٢٤ إلى لندن لمفاوضة الحكومة الإنجليزية ، فأيده وساق له المبررات لدخوله فى المفاوضات على الرغم من جميع الإجراءات غير الودية التى يتخذها الإنجليز فى السودان ، واستند فى دفاعه على « أن شيئا واحدا لاشك فيه البتة وهو أن المقابلة أو المحادثة أو المفاوضة لن ترد مصر إلى حالة أسوأ من الحالة التى كانت فيها منذ أربعين سنة ونيف ، وأن ترك المقابلة أو المحادثة أو المفاوضة لن يطفر بمصر إلى الاستقلال التام فى يوم وليلة » .

ومع هذا لم يكن العقاد يتوقع للمفاوضات الجارية النجاح ، ولهذا سعى لتجنيب الرأى العام صدمة الفشل المحتمل ، ورفع عن سعد مسئولية الفشل المرتقب ، فأكد أن ضعف مركزه فى المفاوضات مرجعه إلى ضعف الأمة المصرية ذاتها ، ثم حرص على تهيئة الرأى العام للفشل القريب ، فراح يتحدث عن عدم تمكن حكومة العمال من اتخاذ الموقف الذى كان يطمع فيه المصريون بسبب

معارضة الأحزاب الإنجليزية المعارضة . وعلى الرغم من عدم توقع العقاد النجاح للمفاوضات فإنه بقى على تفاؤله الظاهر والحذر بها .

ولما فشلت المفاوضات ، وراحت الصحف المعارضة تشهر بالوزارة ورئيسها رد العقاد بأن مصر لم تخسر شيئا فى هذه المفاوضات وأنها كسبت ، « لأنها أظهرت للعالم أجمع استعدادها للوفاق وميلها للسلام » .

ثم دافع العقاد عن وجهة نظر سعد زغلول بعدم اليأس من المفاوضات كسبيل لحل القضية المصرية إذا جرت فى ظروف أصلح ، وهو الرأى المقابل للرأى الآخر الذى ارتآه بعض أعضاء الوفد من عدم جدوى المفاوضة ، وضرورة اللجوء إلى الجهاد لنيل المطالب القومية (رأى على الشمسى ومكرم عبيد) .

وازدادت كتابات العقاد عنفا إزاء المتاعب التى بدأت تتراكم حول الوزارة السعدية منذ عودة سعد من مفاوضاته ، إذ كانت المعارضة لا تتوانى عن الهجوم على الوزارة وخصوصا بعد تعديلها ، ودخول عنصر الشباب فيها ، وعلى خطبة العرش الثانية ، والقصر من ناحية يسعى لإسقاط الوزارة مستغلا طلاب الأزهر ، فضلا على ما بدا فى الأفق من متاعب بعد سقوط العمال وفوز المحافظين فى الانتخابات البريطانية التى جرت فى أواخر أكتوبر ١٩٢٤ .

وإزاء هذه المتاعب دافع العقاد بعنف بالغ عن الوزارة السعدية ، وحذر الأزهريين من الانصياع وراء الدسائس التى تدبر ضد الوزارة ، وطالب بقطع الأيدى التى تعمل فى الخفاء ، ولا شك أنه كان يقصد القصر . بيد أنه تراجع عن ذلك ، ونسب إلى الإنجليز تدبير تلك الدسائس وإن حرص على غمز القصر فى اتهامه لهم .

ولم يكتب العقاد شيئا عن الأحداث التى توالت سراعا منذ اغتيال سر دار

الجيش المصرى وحاكم السودان العام فى ١٩ من نوفبر ١٩٢٥ ، إلى استقالة وزارة سعد زغلول فى ٢٣ من نوفبر . فلم تنشر له « البلاغ » شيئا فى الفترة من ٢٠ إلى ٢٤ من نوفبر ١٩٢٤ وبدأ يتناول الأزمة غداة استقالة الوزارة ، فدافع عن اتهام المصريين بالتواطؤ فى مقتل السردار ، وهاجم الإنجليز الذين يستغلون الجريمة لأغراض سياسية ، محملاً إياهم مسئولية حدوث الجريمة على أساس أن المسئول عن الأمن فى العاصمة حكمدار إنجليزى .

ويبدو أن العقاد انتابته حالة من اليأس للنتيجة التى انتهت إليها الأزمة ، فقد دعا الأمة إلى ترك استقلالها المموه للإنجليز ليحملوا هم تبعاته ، إذ كتب يقول :

«فهل نحن مستقلون؟ من ذا الذى يجرؤ على أن يقول : نعم ! نحن غير مستقلين بلا مراء ولا جدال . فلا تكون لنا كل هموم الاستقلال وأعبائه ونحن لا نملك حقا واحدا من حقوقه ! ألا فلنرح أنفسنا من مظاهر الاستقلال ، ولندع للإنجليز استقلالهم ومساخر الاستقلال ! ولندع للإنجليز استقلالهم يحفظونه أو يضيعونه . ليحملوا هم جرائر أعمالهم وعواقب سياستهم ، فإنه من السخف والمهانة أن نحاسب نحن بنتائج أخطائهم وأن نكلف نحن الاعتذار عن مساويهم وذنوبهم هذا واجبنا منذ الساعة ، بل منذ وصلت المذكرة البريطانية الأولى ، فكل نكوص لا يعقبه إلا الندم والخيبة العاجلة» وربما أراد العقاد بهذا تبرير استقالة الوزارة السعدية إزاء تعنت المطالب الإنجليزية» .

بيد أنه عاد فى اليوم التالى ، فنفى ما قالته الصحف الإنجليزية من أن المصريين أصابهم الذهول أمام المطالب الإنجليزية ، وسخر من استعداد بريطانيا العسكرى لمواجهة الحالة ، كما سفه أقوال « التايمز » بأن المصريين صاروا ينظرون إلى سعد زغلول على أنه غير مخلص ، ويسير على سياسة خطرة .

العقاد والمعركة الدستورية الأولى :

اتخذ العقاد من الوزارة الزيورية التى تبوأت الحكم فى ٢٤ من نوفمبر عام ١٩٢٤ ، وهو ذات اليوم الذى قبلت فيه استقالة الوزارة السعدية ، اتخذ موقفا تابعاً لسعد زغلول الذى أعلن فى اليوم نفسه فى مجلس الشيوخ :

« إننى وزملائى مستعدون بكل إخلاص لأن نؤيد فى مجلس النواب الذى نحن أعضاء فيه كل وزارة تشتغل لمصلحة البلاد . ليس فينا عاطفة معارضة إلا فيما يختص بالمصلحة العامة ، فإننا نخدم هذه المصلحة ونؤيد من يؤيد المصلحة » .

ولهذا لم يندفع العقاد إلى الهجوم على الوزارة فى الأسبوع الأول لتوليها الحكم بالرغم من إذعانها للمطالب الإنجليزية الواردة فى الإنذارين الإنجليزيين اللذين وجها إلى الوزارة السعدية ، والتى فضل سعد الاستقالة على الإذعان لها . فاتخذ منها فى هذا الأسبوع موقفا معتدلا حيث ناقش ما تناقلته الصحف الإنجليزية والمصرية من أنباء وما يدور البحث فيه بين الورارة ودار المندوب السامى ، حول « معاهدة » تسلم الوزارة فيها بالمطالب الإنجليزية. وناقش المتناقضات التى أسماها « بالمطالب المستحيلة » التى تسعى الوزارة للتوفيق بينها ، حينما تسلم للإنجليز بحماية الأجانب ، مع بقاء الامتيازات الأجنبية وتمسك الدول بها ، وحين تسمح ببقاء المستشارين المالى والقضائى فى الوقت الذى يعطى الدستور المصرى البرلمان الحق فى الإشراف على الميزانية وسن القوانين والرقابة على السلطة التنفيذية . ورأى العقاد أنه لم يعد هناك قيمة للاستقلال بقبول الوزارة المطالب الإنجليزية .

وسرعان ما تخلى العقاد عن اعتداله عندما اتضحت خيوط المؤامرة التى تحاك

حول الوفد لهدمه من داخله ، وتطورت كتاباته الصحفية تبعا لتطور موقف الوفد من الانقلاب الدستورى على النحو الآتى :

١ - مؤامرة هدم الوفد :

تعرض الوفد - عقب خروجه من الحكم - لمؤامرة تهدف إلى هدمه ، والذهاب بمكانته الشعبية والسياسية ساهم فيها القصر ، والوزارة ، وأحزاب الأقلية ، وساهم فيها الإنجليز بصورة غير مباشرة . فقد برز القصر سافرا فى الميدان السياسى سعيا لهدم الوفد مستغلا إشاعة عدم ولائه للعرش ، وأنشأ حزبا يدين له بالولاء أسماه حزب « الاتحاد » وقصد به امتصاص العناصر الخارجة من الوفد فرارا من تهمة عدم الولاء للعرش ، وليكون قوة تعمل بوحيه فى السياسة المصرية . وفى الوقت نفسه مضت الوزارة - التى أقامها القصر - فى سلسلة من الإجراءات غير الدستورية ، كان القصد منها بلا شك هدم القوة السياسية للوفد ، والحيلولة بينه وبين العودة إلى الحكم ، أو التمتع بالأغلبية البرلمانية التى تمكنه من مقاومة الحكومة : فأقدمت الوزارة على حل مجلس النواب القائم ذى الأغلبية الوفدية فى ٢٤ من ديسمبر ١٩٢٤ تمهيدا لإجراء انتخابات جديدة ، ثم دأبت على محاربة الوفد ومرشحيه فى الوقت الذى عملت فيه جهدها لإنجاح مرشحيها . وكان لإسماعيل صدقى وزير الداخلية وأحد خصوم سعد الكبار الفضل فى هذا ، إلى جانب اتباعها وسائل القهر ضد الوفديين . وساهمت أحزاب الأقليات فى العمل ضد الوفد بحملاتها العنيفة عليه وعلى زعيمه سعد ، محملة إياه مسئولية الحالة التى آلت إليها البلاد ، ومرددة مساوئ حكمه التى جرت على البلاد هذه المحن .

أما الإنجليز ، فقد شاركوا فى تغذية الحملة على الوفد بمساعدة القصر بإطلاق

يده تماما فى مساعيه لهدم الوفد من ناحية ، ومحاولتهم إدانة الوفد كهيئة فى جريمة مقتل السردار من ناحية أخرى ، وما ترتب على ذلك من اعتقال عدد من الشخصيات الوفدية . . فضلا عن مساهمة الصحف الإنجليزية فى حملة الطعن فى ولاء الوفد للعرش .

وإزاء هذه الحالة التى تكالبت فيها جميع القوى السياسية على هدم الوفد من أساسه — اتخذ العقاد موقفا غاية فى العنف تجاه كل هذه القوى المتكالبة ، بما فيها العرش .

فبالنسبة للوزارة الزيورية ، اتخذ العقاد منها موقف الطعن والتشهير على طول الخط ، بقصد بث الكراهية لها فى نفوس القراء ، فظلّ يردد أنها صنيعة الإنجليز ، جاءوا بها إلى الحكم من أجل إجابة جميع مطالبهم التى رفضت الوزارة السعدية الاستجابة لها . وأن الوزارة عدوة للأمة لا تقيم اعتباراً لدستورها ، ولا لإرادتها . وهذا هو منطلق سعد زغلول فى هجومه على الوزارة .

ووجه العقاد الاتهامات نفسها إلى الأحرار الدستوريين ، وهدد بالطعن فى أعراضهم إذا لم ينتهوا عن حملاتهم على سعد زغلول : «حاشية إلى السبابين الأدنياء : إن كان يعجبكم هذا الكلام فهو كثير لا يتعب القائلين فيكم . وسترون : ماذا بقى من أعراضكم إذا تناولتها الألسنة والأقلام» .

وشملت حملات العقاد الحزب الوطنى وصحافته ، فأعلن أن معارضة الحزب الوطنى لسعد ليست حبا لمصر أو للمصلحة العامة ، وإنما هى حب فى مناوأة سعد ونصرة الإنجليز عليه : «إن هؤلاء الزعانف الذين انتحلوا التطرف رياء ولؤما لأحقر من أن يخدعوا الأمة طول هذا الزمن وهم يلحقون بها كل هذه الأضرار ، ويدعون نصرة القضية المصرية وما نراهم ينصرون غير الإنجليز» .

أما بالنسبة لاتهام الوفد بعدم الولاء للعرش ، وهو الاتهام الذى أثارته الصحف الإنجليزية ، ثم تلقفه خصوم الوفد ، وراحوا يرددونه -- فقد اتبع العقاد منطلق سعد زغلول نفسه فى دحض الاتهام : فحرص العقاد أولا على أن ينفى هذه التهمة عن الوفد تماما ، ثم حرص ثانيا على التشكيك فى علاقة كل خصم من خصوم الوفد بالقصر . وبدا واضحا أنه قصد إثبات عدم ولائهم للقصر ، فحمل على الوزارة لمخالفتها الدستور وتفريطها فى حقوق الملك بقبولها إنشاء جيش سودانى لا يدين بالولاء له . وحمل على الأحرار الدستوريين متعمدا إحراجهم مع القصر : « وسألهم كذلك : ما رأيهم فى كرامة الأمة وكرامة العرش وكرامة مجلس الشيوخ ؟ فقد قال رئيسهم : إن جعل تعيين رئيس الشيوخ من حق الملك وحده لا رأى فيه لهذا المجلس افتيات على حق المجلس لا يتفق مع مصلحة البلاد ولا كرامة المجلس ، بل كرامة العرش ، لأنه ليس من كرامة العرش فى القرن العشرين أن يلزم وجوه البلاد وكبراءها قبول رياسة رجل ربما لا يرضونه . والأحرار الدستوريون يعلمون أن تعيين رئيس مجلس الشيوخ لا رأى فيه الآن لهذا المجلس ، فما رأيهم إذن فى كرامة الأمة وكرامة العرش وكرامة الشيوخ ؟ » .

على أن حرص العقاد على نفى تهمة عدم ولاء الوفد للعرش ، وتأكيده لهذا الولاء لم يمنعه من مهاجمة الملك – فى جرأة وصراحة – لعبثه بالدستور وبالحياة النيابية ، وإقامته لحزب « الاتحاد » الذى يستطيع من خلاله التحكم فى إقامة الوزارات وإسقاطها ، فكتب يقول :

« إن الملك لا يباشر سلطته بنفسه ، وإنما يباشرها ممن حوله ، فإذا كان أحد من هذه الأحزاب الثلاثة متصلا بالحاشية التى حول الملك فماذا بقى من سلطة الأمة وحقوقها الدستورية ومسئولية الوزارة أمامها ؟

إن الذين يديرون هذا الحزب (حزب الاتحاد) يقيمون الوزارات ويسقطونها فى لمحة عين ، لأنهم يستطيعون أن يتحولوا فى كل وقت عن حزب الوزارة إلى حزب المعارضة فتسقط الوزارة القائمة وتخلفها الوزارة التى يؤيدونها . وهكذا تصبح المسئولية لغوا وعبثا وتتحكم الحاشية المحيطة بالملك فى الوزارات والموظفين والنواب ، وتنحصر السلطة كلها فى ناحية واحدة ، فيسقط الدستور ، ويرجع الأمر إلى شر ما يكون عليه فى عهود الأثرة والاستبداد » .

ومضى العقاد قدما فى تعريضه بالملك فؤاد ، وتدخله فى أمور الحكم : فهاجم تدخل الحاشية الملكية فى حق الإنعام بالرتب والنياشين ، وترقية ضباط الجيش ، والإشراف على المعاهد الدينية ، وتدخلها فى تعيين رجال السلك الدبلوماسى فى غيبة البرلمان .

وأعلن فى جرأة ، أن تدخل الملك فى أمور الحكم على هذا النحو دل على أن البلاد قد « تأخرت أجيالا كثيرة » وسادت فيها الميول الرجعية ، وأحاط بها الاستبداد من كل جانب ، وكأنما سعت البلاد هذا السعى ، وجاهدت هذا الجهاد . لتلق بثمرة سعيها وجهادها فى النهاية تحت أقدام المداورين من أعداء التقدم والنهوض » .

وكان ذلك بمثابة إعلان الحرب على ميول الملك فؤاد الأوتوقراطية ، وهى الحرب التى ظلت مستمرة من جانب العقاد بين الشدة والتهادن المؤقت — إلى أن انتهت بسجنه عام ١٩٣٠ .

٢ – المعركة الانتخابية :

ارتبطت مقالات العقاد الصحفية فى ذلك الوقت بالاستعداد للانتخابات التى تحدد لإجرائها يوم ١٢ من مارس ١٩٢٥ ، ولهذا دأب على دعوة القراء فى أثناء تشهيره بخصوم الوفد – إلى عدم انتخابهم ، وإلى انتخاب مرشحى الوفد ، فالأحرار الدستوريون فى رأيه غير جديرين بالانتخاب لأنهم لا يصلحون لقيادة الأمة ، ولأنهم صنائع الاحتلال ، ونسب إليهم أنهم يعملون لجلب « البلشفية إلى البلاد . كذلك لا يجدر بالأمة انتخاب مرشحى حزب الاتحاد ، « لأن انتخابهم يقوض أركان الدستور ويلغى مسئولية الوزارة ويفنى شخصية الأمة ويجعل سلطتها كلمة لا معنى لها ، أو يجعلها كلمة تحسب عليها ولا تحسب لها فى شىء من الأشياء » .

واستعرض أيضا برامج الأحزاب المناوئة للوفد ، وخلص من ذلك إلى أن مهمة الأمة فى اختيار نوابها مهمة سهلة ، فليس ثمة برنامج يرعى حقوق الأمة إلا برنامج الوفد .

٣ – ذروة المعركة :

اجتاز الوفد بنجاح المؤامرة التى دبرت ضده ، وخرج من المعركة الانتخابية منتصرا ، وفاز رئيسه سعد زغلول برياسة مجلس النواب الجديد ، الذى اجتمع فى ٢٣ من مارس ١٩٢٥ . بيد أن الملك الذى أدرك أن فوز الوفد بأغلبية فى المجلس الجديد ، وفوز رئيسه برياسة المجلس معناه استحالة استئثاره بالسلطة من خلال حكم الدستور – لجأ إلى محاولة الاستئثار بالسلطة من خلال العبث بالدستور ،

فأصدر فى اليوم نفسه الذى اجتمع فيه البرلمان – مرسوما ملكيا بحل مجلس النواب بحجة « أنه ظهر لأول وهلة ما يدل على إصراره (مجلس النواب) على تلك السياسة التى جرت على البلاد نكبات ومصائب ! » .

وكان معنى هذا أن القصر والوزارة والأحرار الدستوريين الذين دخلوا الوزارة قبل ذلك بأيام ، قد عقدوا العزم على المضى قدماً فى محاربة الوفد على حساب الدستور والحياة النيابية . وفى الطرف المقابل عقد الوفد العزم على مواصلة المعركة التى تحولت إلى معركة دستورية ضد خصومه . ونزل سعد زغلول ليقود المعركة الصحفية ضد خصومه من على صفحات « البلاغ » .

وفى ذروة هذه المعركة ازدادت مقالات العقاد عنفا ، ومالت فى كثير من الأحيان إلى التشهير وإثارة القراء على خصوم الوفد : فقداتهم الوزارة الزيورية بأن إقدامها على تغيير قانون الانتخابات إنما هو سعى إلى التفريق بين المصريين على نحو من شأنه إشاعة « البلشفية » فى البلاد .

واستغل حادثة « أخطاب » [1] ليثير شعور الأمة ضد الوزارة :

« فلينظر القارئ : هل هذا شعور وزارة ترى أن المصريين شعبها الذى تغار عليه وتحميه من شر المسيئين إليه : أو هو شعور وزارة ترى أن المصريين أعداؤها

---

(١) ملخص حادثه (أخطاب) أن ضابط البوليس بالقرية عمد إلى تعذيب أهلها وأهل القرى المجاورة بصورة وحشية وغير إنسانية لإكراههم على التخلى عن العمل مع بعض أنصار الوفد ممن ينتمون إلى هذه القرية . وقد قدم الضابط وعدد من رجال البوليس ممن اشتركوا فى الجريمة إلى محكمة جنايات المنصورة التى حكمت فى ٣ يناير عام ١٩٣٠ على الضابط بالأشغال الشاقة خمس سنوات . ثم عدل الحكم بالسجن إلى ثلاث سنوات ، كما حكم على رجال البوليس بأحكام أخف .

الذين تقتص منهم بكل ما استطاعت من ضروب القصاص ، وتحمى المسيئين إليهم بكل ما استطاعت من وسائل الحماية ؟ » .

واتهم الوزارة بالتأثير على القضاء بترقيتها القضاة فى «أسوأ الأوقات وأدعاها إلى الظن والاشتباه» وساق الأمثلة على ذلك

وبسبب هذا المقال حققت النيابة معه ومع عبد القادر حمزة بصفته رئيس تحرير « البلاغ » ورفعت عليهما قضية أحالتها إلى محكمة الجنايات لتعرض عليها فى دور انعقادها المقبل متهمة إياهما بالطعن فى حق موظفين عموميين (وهم القضاة الذين أورد العقاد أسماءهم فى معرض حديثه) وظلت القضية مقبورة حتى سحبتها النيابة ، لأنها مما يدخل تحت حكم قانون العفو الشامل الذى أصدرته وزارة عدلى يكن فى ١٠ سبتمبر ١٩٢٦ .

ولم يتراجع العقاد عن طعنه وتشهيره بالوزارة بالرغم من التحقيق معه ، وتوجيه الاتهام السابق الإشارة إليه له ، وبالرغم من التعديل الذى أدخلته الوزارة على قانون العقوبات فى المواد الخاصة بالنشر ، ووسعت فيه دائرة الاتهام فيما تنشره الصحف ، بالنص على عقاب كل من يعمل على تضليل الرأى العام فى أعمال السلطة العامة . إذ أنه أكد أنه لن يتراجع عن التشهير بالوزارة مهما يكن لديها من إمكانات الردع :

«أما والله لو اعتصمتم بألف تعديل وألف عقوبة ماحماكم ذلك أن تتجرعوا كلمة الحق تغص بها حلوقكم وتتزلزل بها أقدامكم وتعلمون بها أنكم لستم وحدكم فى هذه الأرض تفعلون بها ما تشاءون ! وأنكم تريدون أمرا وتريد البلاد غيره ، فيبطل ما تريدون ويكون ماتريد البلاد ! » وانطلق يشهر ويطعن – بعنف – فى الوزارة وأعمالها .

ولما ظهرت بوادر الشقاق بين الحزبين المشتركين فى الوزارة (الأحرار الدستوريين والاتحاد) عندما أدرك الأحرار الدستوريون أن حزب الاتحاد يكتسب قوة وأنصارا على حسابهم، وبدأت صحيفة «السياسة» تنتقد السياسة المالية للوزارة التى كانت آن ذاك فى يد رئيس حزب الاتحاد مباشرة. وتنتقد بعض أعمال أخرى للوزارة – طفقت صحف الوفد تسعى بالوقيعة بين الحزبين المؤتلفين، لتوسيع هوة الشقاق بينهما وشارك العقاد فى الوقيعة بين الحزبين، وراح يردد أن «الاتحاديين فى باطن الأمر يعملون الآن للتخلص من حلفائهم الأحرار الدستوريين أشد من عملهم للتخلص من الوفديين، لأنهم يتزاحمون فى ميدان واحد ويتقلدون سلاحا واحدا. أما الوفديون فإن خصومتهم للإنجليز تبعدهم من هذا الميدان، وتجردهم من هذا السلاح، فيخيل إلى الاتحاديين أن محاربتهم – ماداموا بعيدين عن الحكم – أسهل من محاربة أصحابهم المقربين من الإنجليز».

وازداد تشهير العقاد بالأحرار الدستوريين وخصوصا بعد اشتراكهم فى الوزارة الزيورية، ودأب على توجيه مطاعنه التقليدية لهم: «فهم من ناحية صنائع للإنجليز يعملون لتنفيذ سياستهم فى مصر، وهم من ناحية أخرى أعداء للأمة، يسعون للتفريق بين أبنائها».

وكثيراً ما شمل تشهيره بالأحرار الدستوريين أشخاص زعامات الحزب، مثال ذلك ماكتبه فى اتهامه لهم بالتفرقة بين طبقات الأمة من خلال تعديل قانون الانتخابات:

«وانظر أيها القارئ من هؤلاء الذين يفرقون بين الطبقات ويميزون بين الأغنياء والفقراء؟ فيحق لنا أن نعتبر الدعوة إلى تعديل قانون الانتخاب دعوة من قبل الأحرار الدستوريين، لأنها صدرت من جانبهم أول مرة، ونادى بها رئيسهم قبل

الانتخاب وبعده ، وجارتهم فيها الأحزاب الأخرى بعد أن عرفت أنها وسيلتها لإطالة أيام الوزارة وبقائهم فى مراكز الحكومة ! وهؤلاء هم وزراء الأحرار الدستوريين القائمون بتعديل القانون الآن . فهل تدرى أيها القارئ ما أصولهم التى نبتوا فيها ؟ وما طبقاتهم التى ينتمون إليها ؟

«فأما رئيسهم «عبد العزيز فهمى باشا» فابن الشيخ حجازى عمر المأذون الشرعى بكفر المصيلحة ! وأما «محمد على باشا» أو محمد على على علوبة كما يسميه أبناء بلده فأبوه كاتب عرائض للمجالس الملغاة . وأما «توفيق دوس باشا» فأبوه بائع كتب متجول جمع الثروة بالوسيلة التى يعرفها الأسيوطيون ! هؤلاء هم «نبلاء» آخر الزمان الذين يثيرون حرب الطبقات ، ويميزون فى نظام الدستور بين الأغنياء والفقراء . ولو جهلنا أصولهم لدلتنا عليهم أفعالهم ، فانظر إليهم وهم يتصرفون فى حقوق الناخبين فى خفية وتكتم كأنهم يتصرفون فى قطيع من الأغنام» .

وحمل أيضاً على الحزب الوطنى ورجاله وصحافته ، واتهمهم بما يسىء إلى وطنيتهم . .

أما حملات العقاد على حزب الاتحاد فى ذلك الوقت فقد تعمد فيها إحراج الملك وتحميله صراحة أمام الرأى العام مسئولية مساوىء الوزارة وحزب الاتحاد .

واتبع فى ذلك خطة ذكية : فقد راح أولاً يردد أن حزب الاتحاد يسىء إلى القصر بادعائه الانتماء إليه . وراح من ناحية ثانية يصور مدى التقهقر الذى أصاب البلاد بوجود حزب يدعى الانتماء إلى القصر ، ثم راح من ناحية ثالثة — وهى أهم — يردد أنه لا يجوز للقصر أن يسكت تجاه هذا الحزب الذى يسىء إلى البلاد ويسىء إليه ، ويدعى كذباً أنه ينتمى إليه . وهنا دعا القصر إلى إصدار بيان يكذب فيه ادعاء هذا الحزب المسىء الانتماء إليه . وهنا يكمن الحرج للقصر فإما

أن يصدر البيان المطلوب ، فيسقط من ثم السند الذى يستند إليه حزب الاتحاد أمام الرأى العام ، وإما أن يصمت القصر ، فيتحمل من ثم أمام الرأى العام مسئولية مساوىء الوزارة وحزب الاتحاد ، ومسئولية الانقلاب الدستورى كله . وقد صمت القصر .

وقد استمرت حملاته على الإدارة التى تجمع التوقيعات للحزب ، وعلى زعمائه الذين يدعون أن حزبهم قد وجد أنصاراً كثيرين فى أنحاء البلاد ، الأمر الذى عدوه دليلاً على أن حركة التضامن والعطف على حزبهم اختيارية تماماً .

وقد وقع العقاد فى تناقض واضح عندما ذهب إلى أن الانقلاب الواقع انقلاب إنجليزى فى الوقت الذى سعى فيه لتحميل الملك مسئولية هذا الانقلاب . فقد كتب يقول :

«إن السياسة التى تسود مصر الآن سياسة بريطانية مقصودة بلا أدنى شك ولا خلاف ، وكل ما يموه به الإنجليز من الدعاوى والمناورات لا يغير عقيدة الأمة فى هذه الحقيقة ، ولا يدفع بها إلى تلك الغاية التى يريدونها ويعملون لها ، وهى أن يعتقد المصريون أن الإنجليز هم منجؤهم الوحيد من ظلم المصريين ومن سوء الإدارة الفاشى الآن فى أنحاء البلاد . فإن هذه الأمة ليست من البلاهة بحيث تعتقد أن الحكم اليوم لها لا لغيرها وأن الوزارة الحاضرة إنما تقوم على إرادتها هى لا على إرادة الإنجليز» .

ولعل الذى أوقعه فى هذا التناقض هو حرصه على توجيه التهم عن مسئولية الحالة الحاضرة إلى جميع خصوم الوفد الذين كانوا بدورهم يلقون على سعد ووزارته السابقة مسئولية هذه الحالة التى آلت إليها البلاد ، ومن ناحية أخرى — ربما قصد الإيماء إلى جورج لويد المندوب السامى الجديد أن المصريين يعتبرون الإنجليز

مسئولين عن الحالة التي تعيشها البلاد ، وخصوصاً أن تحميل العقاد للإنجليز تبعة هذه الحالة – ازداد مع قرب مجيء المندوب السامي الجديد .

والجدير بالذكر في هذا الصدد أن العقاد حمل بعنف على «اللنبي» عندما أشيع أنه استقال ، وبعد استقالته ، ووصفه بالجبروت والفشل ، وطعن في كفايته السياسية ، في حين اتخذ من المندوب الجديد موقفاً ودياً من قبل مجيئه إلى مصر ، حيث أثنى على ما قاله «لويد» في بعض خطبه في لندن عن حبه للشرق ولمصر ، وإن أوجس خيفة من تجاهله ذكر استقلال مصر في هذه الخطب ، ومن قوله : إن أشكال أداة الحكم في مصر ليست بذات أهمية ، وإن المهم هو الروح التي تسيرها هذه الأداة .

٤ – قضية «الإسلام وأصول الحكم» :

وقف العقاد موقفاً مضادا لموقف سعد زغلول إزاء قضية «الإسلام وأصول الحكم» ، وهي أول مرة يختلف فيها موقف الاثنين منذ استقطاب سعد للعقاد على النحو الذي سبق ذكره :

فقد رأى سعد زغلول أن من حق هيئة كبار العلماء طرد الشيخ على عبد الرازق من زمرتها ، وأن المحاولة التي يبذلها أصدقاؤه لجعله ضحية لحرية الرأى في القرن العشرين ، إنما هي «مظاهرة مفتعلة يراد بها تضليل الجهود في حق تملكه الجامعة الأزهرية ، وتقرها عليه جميع الهيئات» .

أما العقاد فقد رأى أن الشيخ (على عبد الرازق) «صاحب رأى يباح له أن يعلنه كما يباح لغيره أن يرد عليه ويفنده . أما أن يحاكم أو يقسر على ترك رأيه ، لأنه خالف به بعض العلماء أو غير العلماء – فهذا ليس من روح الحرية التي تحمينا

جميعاً ، ويجب علينا أن نحميها جميعاً ، وليس من روح الدين الذى يغارون عليه ويشنون هذه الغارة باسمه» .

ولما تقررت محاكمة الشيخ على عبد الرازق أمام هيئة كبار العلماء – شارك العقاد فى الاجتماع الذى عقده عدد من رجال الأدب والصحافة والسياسة فى مصر ، فى ٣ من أغسطس بمكتب صالح جودت المحامى لتبادل الرأى فى الأمر. وتمخض الاجتماع عن تقديم عريضة إلى الملك وقع عليها العقاد ، تستنكر محاكمة الشيخ على عبد الرازق ! وقد تضمنت العريضة رأياً فى المحاكمة مطابقاً فى معناه للرأى الذى كتبه العقاد ، إذ قالت :

«إن محاكمة مؤلف عالم وهو فوق ذلك قاض لنشره بحثاً علميًّا حوى آراءه الخاصة – لهى مصادرة لحرية الفكر المكفولة بدستورنا المصرى والمقدسة لدى جميع الأمم المتمدينة ، ورجوع بمصر إلى عهد الظلمة وهى فى عصر العلم والنور . ثم إن محاكمته تأديبيًّا أمام لجنة تصطبغ بالصبغة الدينية أمر مناف للمبادئ الدستورية التى نسخت ما قبلها من الأوضاع المناقضة لها ومخالف للتقاليد التى جرت عليها حكومتنا المصرية حتى الآن ، ولا يتفق مع روح النظام الاجتماعى الحاضر ، ولا مع طرق التقدم العلمى القائمة على المناقشة والمناظرة لا على التأديب والمحاكمة ؛ ومن شأنه أن يحول دون الرقى والإصلاح بإرهاب رجال القلم والباحثين ، وأن يجعل السيطرة لطائفة من الأمة تتحكم فى الضمائر والعقول ، وهو ما تنزه عنه نظام الشرع الإسلامى المؤسس على الحرية والعلم . . » .

واختتمت العريضة بالتماس عدم محاكمة صاحب الكتاب صيانة للدستور .
وقد اتخذ أحمد حافظ عوض صاحب «كوكب الشرق» موقف العقاد ذاته .

ويكمن الاختلاف فى وجهة نظر كل من سعد والعقاد تجاه أزمة «الإسلام

وأصول الحكم» – فى أن الأول نظر إليها من زاوية سياسية ؛ «لأنه كان يقدر من ورائه شقاقاً بين حزب الاتحاد وحزب الأحرار الدستوريين القائمين بالوزارة ، فسقوطا للوزارة بعد ذلك ، فعودة إلى الدستور والحياة النيابية ، وفى انتظار هذه النتيجة كان رجاؤه فى تحقيقها أغلب على نفسه من نصرة مظلوم يرى أنه هو وحزبه ظالمون من غير هذا الطريق» ، ولهذا بدا فى موقف سعد حب الانتقام من الأحرار الدستوريين .

أما العقاد فقد نظر إلى الأزمة على أساس أنها امتحان عسير لحرية الرأى التى يجب أن يحميها الجميع ، ويجب عليـــه أن يتكاتف هو والآخرون لحمايتها ، ولو كانوا أعداء له فى المذهب السياسى . .

ولم يكتب العقاد شيئاً عن التطورات التى ترتبت على الأزمة ، وانتهت بخروج وزراء الأحرار الدستوريين من الوزارة ، حيث انقطعت كتاباته فى الفترة من ١٩ من أغسطس حتى ٢٦ من سبتمبر ١٩٢٥ ، لانشغاله بإجازته السنوية ، وبإجراء عملية جراحية فى أنفه .

٥– الائتلاف الحزبى :

استأنف العقاد كتاباته فى البلاغ منذ ٢٧ من سبتمبر ١٩٢٥ ، وكان الأحرار الدستوريون قد خرجوا من الوزارة الزيورية ، وتحولوا إلى موقف الهجوم عليها ، وصار الطريق مفتوحاً للتقارب بينهم وبين الوفد ، ومع هذا لم ير العقاد أن ثمة تغييراً قد طرأ على الحالة السياسية ، فقد كتب يقول :

«كانت فى مصر وزارة مؤتلفة من حزبين متحالفين ، فصارت الآن وزارة منفردة من حزب واحد . تغير ولا شك فى الصفات والأشخاص ، ولكن لا تغير

فى الموقف السياسى من الوجهة العامة على الإطلاق ، لأن هذا الموقف لن يتغير فى جوهره إلا بين حالتين اثنتين : أن تعمل الأمة فى سياستها بمحض إرادتها ، أو أن يعمل الإنجليز فى تلك السياسة على أيدى أذنابهم الظاهرين أو المحتجبين ؛ فإذا لم تكن الأمة هى صاحبة أمرها ومدبرة شئونها – فصاحب الأمر ومدبر الشئون إذن هم الإنجليز بلا مراء سواء أكانت الوزارة من الاتحاديين والأحرار الدستوريين أو من إحدى هاتين الفئتين دون الفئة الأخرى ، أو من طائفة ثالثة لا علاقة لها بهؤلاء ولا هؤلاء» .

وعلى هذا استمر فى تشهيره بالأحرار الدستوريين مظهراً شماتته فى تخلى الإنجليز عنهم .

ثم صمت فجأة عنهم وعن الحزب الوطنى منذ منتصف أكتوبر ١٩٢٥ ، ولم يعد يذكرهم بخير أو بسوء . ومرجع ذلك بلا شك إلى سعى الوفد للائتلاف مع هذين الحزبين ، بعد أن كان يرفض الدعوات التى توجه إليه للاتحاد ولم الصفوف ، وكان آخرها دعوة الأمير عمر طوسون فى ديسمبر ١٩٢٤ – بعد سقوط الوزارة السعدية – إلى عقد مؤتمر وطنى ليبحث فى تقريب وجهات النظر بين الأحزاب المصرية . وهى الدعوة التى قبلها الحزب الوطنى ، والأحرار الدستوريون ورفضها الوفد ، بسبب موقف هذين الحزبين منه بعد خروجه من الحكم ، وبحجة أنه عانى كثيراً فى نضاله من أجل الأمة ، «ولا يستطيع أن يمد يده إلى من ينعمون بشقاء بلادهم» .

وكان العقاد قد دافع فى ذلك الوقت عن وجهة نظر الوفد فى رفض دعوة الأمير عمر طوسون ، وأقام دفاعه على أن الحزبين الآخرين لا يريدان إلا النفاق ، وإحراج الوفد بهذه الدعوة .

ويضعنا صمت العقاد عن مساعي التوفيق ، والائتلاف ، دون تأييدها ، أمام أحد احتمالين : إما أن يكون قد ظل محتفظاً برأيه في عدم ائتلاف الوفد مع خصومه ، فآثر الصمت ، وإما أن يكون قد فضل الصمت بالرغم من تأييده لمساعي التوفيق ، حتى لا يبدو أمام القراء في موقف المذبذب في آرائه السياسية

ومهما يكن الأمر فإنه عاد شيئاً فشيئاً إلى تأييد الدعوة إلى الاتحاد : فعندما ظهرت فكرة عقد مؤتمر عام للنظر فيما يجب اتخاذه لإعادة الحياة النيابية دافع العقاد عن اتحاد الأمة للمطالبة باستئناف الحياة النيابية. ولما أصدرت الحكومة قانون الجمعيات السياسية في ٢٧ من أكتوبر ١٩٢٥ دعا جميع العاملين في السياسة المصرية إلى التقدم والتكاتف ، حتى «يعلم الإنجليز منا جميعاً في هذه الساعة العصيبة أننا لا نؤخذ كما تؤخذ الخراف ، يذبح منها كل يوم من يذبح ، ونحن ناظرون نترقب ما يصنع بنا غداً ، وما يصنع بنا غداً إلا ما قد صنع بالسابقين ! .

واستغل كتاب الأمراء إلى الملك في ٢٣ من نوفمبر ١٩٢٥ الذي رجوا فيه إعادة النظام الدستوري إلى البلاد ، لدعوة جميع الهيئات المهنية وغير المهنية للتكاتف ضد الوزارة من أجل عودة الحياة النيابية ، ووسع دعوته إلى الاتحاد ، فدعا أعضاء حزب الاتحاد الذين غرر بهم إلى الانسحاب منه والتكاتف مع الأمة.

وكان الأساس الذي بنى عليه العقاد تأييده للائتلاف أن الأمة لن تستطيع استرداد حياتها النيابية بالثورة أو بالاستسلام ، «وإنما عليها أن تعمل واجبها الذي لا محيد لها عنه ، وتتكاتف طبقاتها وطوائفها جميعاً على أداء هذا الواجب الذي لا يقبل الهوادة والإمهال» .

وتطورت دعوته إلى الاتحاد بعد ذلك ، فدعا إلى اتحاد الأحزاب في برامجها السياسية ، وفي مطالبها للوقوف صفاً واحداً ضد الرجعية والإنجليز.

وانطلق العقاد يؤيد المؤتلفين فى مسعاهم لعودة الحياة النيابية : فأيد فكرة اجتماع البرلمان فى الحادى والعشرين من شهر نوفمبر من تلقاء نفسه ، وأيد عقد المؤتمر الوطنى الذى قررت الأحزاب المؤتلفة عقده فى ١٩ من فبراير ١٩٢٦ لبحث الحالة الشاذة التى صارت إليها البلاد وتقرير ما يراه مناسباً للخروج منها . ودافع عما قرره المؤتمر من قبول الدخول فى انتخابات جديدة طبقاً لقانون الانتخاب المباشر الصادر فى عهد الوزارة السعدية ، بعد أن كانت الأحزاب المؤتلفة قد أعلنت مقاطعتها الانتخابات التى تجرى طبقاً لقانون الانتخابات الجديد الذى سنته الوزارة الزيورية ، وكان دفاعه عما قرره المؤتمر قائماً على أنه «إن كان المراد من الاعتراض على دخول الانتخابات بعد مقاطعتها – ولو تغيرت الظروف – هو أن كل ما يقرر فى يوم من الأيام لا يجوز الرجوع عنه بحال – فتلك صبيانية فى فهم السياسة لا تليق بمن يتصدرون لقيادة الأمم ومراقبة الحوادث ؛ لأن الغرض هو سلامة الدستور لا امتحان أنفسنا فى العناد والإصرار» . ودفعة تأييد ، لما قرره المؤتمر إلى الطعن فى أمين الرافعى الذى أوقف صحيفة «الأخبار» لمعارضته قرارات المؤتمر ، واتهمه بأن مسلكه هذا لا يرجع إلى ثباته على مبدئه ، وإنما إلى «رغبة كمينة فى إحباط كل عمل يتولاه سعد أو يكون فيه اعتراف له بحق أو مأثرة» .

وساند العقاد الأحزاب المؤتلفة فى معركتها الانتخابية ، فدارت معظم مقالاته فى الفترة من ٨ من مارس إلى ٢٠ من مايو حول القضايا المتعلقة بالانتخابات ، وبائتلاف الوفد مع حزبى الأحرار الدستوريين ، والوطنى لم يعد هناك من خصوم للوفد سوى الوزارة ، وحزب الاتحاد ؛ ومن ثم تركزت مقالات العقاد حول الطعن فى الوزارة ، فصوّرها فى صورة شرذمة لاسند لها من الأمة ولا من أى حزب سياسى ، وأكد أن مصيرها هو السقوط ، «ولو تضافرت على تدعيمها كل دعائم

الرجعية ، وتعاونت على إسنادها كل أركان الاستبداد » .

وظل يستعجل سقوطها من قبل إجراء الانتخابات ، وشهَّر بعجزها وبأعمالها التى رآها كلها سيئات ، ويمكن القول بأنه لم يرتح إلى عمل واحد أقدمت عليه الوزارة ، وندد بما رآه عبثاً بمرافق البلاد ، وإفشاء للفوضى وإخلالا بالنظام وإفساداً للأخلاق ، وتبذيراً لأموال البلاد ، وتفريطاً فى حقوقها . . إلخ . ورأى أنه يجب تقديم أعضاء الوزارة إلى المحاكمة بتهمة العبث بأمور البلاد على هذا النحو .

وقد خشى العقاد أن يستدل الإنجليز من تشهيره وتشهير صحف المعارضة بأعمال الوزارة على سوء الإدارة المصرية ، وعجز المصريين عن تولى إدارة بلادهم — فأكد أنه ينتقد هذه الأمور ، «ونفرق أبعد التفريق بين انتقاد بعض المصريين الذين وضعتهم الظروف فى مراكز الرياسة ، وبين انتقاد كفاية «المصرى» فى الحاضر والمستقبل من جهة عامة ، بل نحن نعتقد أن «الإدارات» المصرية التى حرمت رقابة الأمة لسوء نية الإنجليز وتدبير السياسة الإنجليزية ، فآلت إلى هؤلاء الوزراء الذين ما كانوا ليصلوا إلى مناصب الحكم لولا أن رفعتهم إليها القوة البريطانية وأنزلتهم فيها على الكره من الأمة . فكل انتقاد يوجه لدواوين الحكومة إنما هو فى الواقع انتقاد للسياسة الإنجليزية ولأذنابها الذين استبدوا بالسلطة وحالوا بين المصالح العامة والرقابة القومية » .

وامتد تشهير العقاد إلى الوزراء أنفسهم ، وكان منطلق تشهيره الذى بدا واضحاً أنه أراد به تهييج الرأى العام بأنهم أضاعوا ثمرة نضال مصر الذى ضحت بدمائها ثمناً لجنونهم بالمناصب . وكان أوفر الوزراء نصيباً من التشهير : أحمد زيور وعلى ماهر ، وحلمى عيسى . ومن أمثلة تشهيره ما كتبه عن على ماهر :

«ويا شقاء وزارة يكون خير من فيها (على ماهر باشا) فى نظر المندوب

الجديد ! فلو أن المندوب علم أن (على ماهر باشا) هو ذلك العلامة الذى سأل بعد زيارته لمتحف اللوفر : أيهما أسبق لويس الرابع عشر أو نابليون بونابرت ؟ لاستغنى عن سؤال أحد من هؤلاء الوزراء ؛ وعلم أن أحذقهم فى السمعة وأخيبهم – على حد سواء» .

أما تشهيره بحزب الاتحاد فى ذلك الوقت ، فكان مرتبطاً أشد الارتباط بتشهيره بالوزارة الزيورية . حيث وجه إليه الاتهامات التى وجهها نفسها إلى الوزارة . ولما ظهرت نتائج الانتخابات التى لم يفز فيها حزب الاتحاد بسوى خمسة مقاعد ، أظهر العقاد شماتته فى الحزب ، وفى الملكَ الذى أقام الحزب ، واعتبر أن الناخبين قد فصلوا فى القضية القائمة بين الأحزاب المؤتلفة من ناحية ، وبين الملك من ناحية أخرى ، فنصروا الأحزاب على الملك . وحمّل الديوان الملكى والحكومة مسئولية الوضع الحرج الذى أضحى الملك فيه ، لأنهما لم يصدرا البيان الذى سبق أن طالب به ، والخاص بنفى علاقة الملك بالحزب .

٦– تطور سياسة الوفد مع الإنجليز :

سبق القول بأن العقاد اتخذ من جورج لويد موقفاً ودياً فى البداية من قبل مجيئه إلى مصر ، حيث أشاد بنظرته إلى مصر والشرق ، وإن داخله شىء من الشك من تجاهل لويد ذكر استقلال مصر فى خطبه ، ومن قوله : «إن أشكال أداة الحكم فى مصر ليست بذات أهمية ، وإن المهم هو الروح التى تسير بها هذه الأداة» وكان هذا الموقف الودى من المندوب الجديد نابعاً من سياسة الوفد الذى سعى إلى خطب ود المندوب الجديد ، وتحسين العلاقة معه طمعاً فى أن يؤدى ذلك إلى سكوت الإنجليز عن الصراع ضد القصر ، أو تدخلهم وترجيح كفة الديمقراطية .

على أنه عندما لم يأت هذا المسعى من جانب الوفد بثمراته المرجوة نتيجة لصلف لويد واتباعه سياسة شبيهة بسياسة لوردكرومر – انقلب العقاد يهاجمه فى عنف ، ويهاجم السياسة التى يجرى عليها محملاً إياه مسئولية الحالة القائمة فى البلاد ، ومؤكداً أن هذه السياسة هى التى تعمل من وراء الوزارة للعبث بدستور البلاد واستقلالها ، وبلغت حملاته على سياسة لوردلويد ذروتها فى أثناء طواف الأخير بأقاليم مصر ، إذ طالب السياسة الإنجليزية بأن تسفر عن وجهها وأن تحمل نصيبها من مسئولية الحالة القائمة فى البلاد ، أو أن تكف عن التدخل فى أمور البلاد الداخلية . وتحولت حملات العقاد الصحفية على السياسة الإنجليزية فى كثير من الأحيان إلى تشهير واستهزاء باللوردلويد ، وإدخال الشك فى كفايته السياسية .

٧– مسألة الخلافة الإسلامية :

عارض العقاد فكرة إحياء الخلافة الإسلامية ، وجعل مصر مقرها ، وهو الأمر الذى كان يطمح إليه الملك فؤاد ، ويبذل له المساعى الحثيثة على يد حسن نشأت – وكيل الديوان الملكى – لكى يتبوأ هو مقام الخليفة ؛ وكانت حجج العقاد فى رفضه فكرة جعل مصر مقر الخلافة هى :

(١) أن مصر لا تريد أن تتورط فى اتخاذ أى قرار تنبنى عليه «مسئوليات سياسية» دون أن يشترك فى اتخاذ ذلك القرار ساستها الذين يثق بهم نواب الأمة ، ويرضى عنهم شعبها . وكان معنى ذلك اشتراط سقوط النظام القائم وعودة الحياة النيابية ، ليكون للبرلمان القادم – والذى ستكون أغلبيته وفدية – البت فى مسألة الخلافة . ولما كان سعد رافضاً لفكرة جعل مصر مقراً للخلافة الإسلامية فمعنى ذلك أن الفكرة مقضى عليها .

(ب) إنه لا مصلحة لمصر فى التعرض لعداوات الدول والإمارات الإسلامية التى يطمع أصحابها فى الإمامة الدينية باستحقاق يخولهم هذا الطمع أو بغير استحقاق .

(جـ) إن مصر لا تحب أن تجعل سياستها الخارجية عرضة لمصادمة الدول الاستعمارية أو الدسائس الأجنبية ، مع عجزها عن درء تلك الأخطار بالقوة وحاجتها إلى الجهد والمال اللذين تبذلهما فى هذا السبيل .

(د) إن مصر تخشى أن تكون الخلافة الإسلامية ربقة جديدة فى رقبتها تجتذبها منها السياسة الإنجليزية إلى إذلالها ، وإذلال غيرها من شعوب المسلمين .

وكان هذا الرأى هو رأى سعد زغلول نفسه ؛ إذ كان سعد يرى أنها عبء ثقيل، ولا خير لمصر فى حمله لتنوء به بعد قليل . وإن خشى الجهر بهذا الرأى ، حتى لا يستخدمه خصومه ضده ؛ ومن ثم يمكن القول بأنه من الجائز أن سعداً تجنب إعلان رأيه فى المسألة صراحة ، وحرص فى الوقت ذاته على إعلانه بأقلام كتاب الوفد من أمثال العقاد .

ومع أن الكتابات الحزبية غلبت على اهتمامات العقاد الصحفية إبان المعركة الدستورية الأولى – فإنه كان يتناول أحياناً بعض الأمور الداخلية على فترات متقطعة ، فكتب عن مشكلات التعليم ، وعن إصلاح دار الكتب ، وعن المعرض الزراعى الصناعى الذى أقيم فى مارس ١٩٢٦ ، وعن غير ذلك من المسائل الداخلية .

وهكذا يتضح بجلاء أن العقاد كان بوقاً من أبواق الوفد الصحفية إبان المعركة الدستورية الأولى ، وأنه كان تابعاً تبعية تامة له ولزعيمه سعد زغلول ، وهى التبعية التى لم يشذ عنها إلا إزاء أزمة (الإسلام وأصول الحكم) .

وأكثر من ذلك يتضح بجلاء توجيه سعد للعقاد فى بعض كتاباته ، مثال ذلك ما كتبه ردا على اتهام الأحرار الدستوريين لسعد زغلول إبان المعركة الانتخابية ١٩٢٥ – بأنه كان ينفق من مال الوفد على شئونه الخاصة ؛ إذ كتب يقول :

« أتعرف الكذاب الذى زعم أن الرئيس الجليل كان يقترض الأموال من صندوق الوفد لينفقها فى شئونه ، ثم ظهر بعد ذلك أن الأمر على عكسه وأن الرئيس الجليل هو الذى كان يقرض الوفد من ماله ؟ أتعرف الكذاب الذى افترى تلك الفرية وهو الذى كتب وصل المبلغ الذى تسلمه الوفد من الرئيس وهذا نصه :

استلمت من حضرة صاحب المعالى سعد زغلول باشا تحويلا على بنك الكريدى ليونيه بباريس بتاريخ ١٧ فبراير ١٩٢٠ نمرة ٨٥٣١٥ بمبلغ ١٨٨٩٥ فرنكا وهو قيمة مبلغ الخمسة آلاف جنيه الذى كان قد طلبه معاليه من ماله الخاص من البنك الأهلى بمصر لذمة الوفد المصرى تحويلا على بنك الكريدى ليونيه » . وغنى عن البيان أن لا أحد غير سعد هو الذى أمد العقاد بنص الإيصال الوارد ذكره فى المقال .

وإلى جانب هذا كان العقاد يستخدم أحيانا تعبيرات سعد التى يطلقها فى مجالسه الخاصة على خصومه : ومثال ذلك ما كتبه عن حلمى عيسى :

« آمنت بحكمة الحكيم ! صدق والله من قال : إن كلام هذا الرجل كالمخاط يعلق بالثوب ، تمسحه فتشمئز منه ، وتتركه فتشمئز منه ! ! وكان الله فى عون البائسين الذين يلقى عليهم « مخاطباته » فى كل مقام » . وقد روى العقاد فى كتابه عن سعد زغلول : إنه سمعه يلقى هذا التعبير على أحد خصومه ، ولعله حلمى عيسى !

ولاشك أنه كان لكتاب الائتلاف بعض الفضل فيما انتهت إليه المعركة الدستورية من عودة الحياة النيابية ، وتقهقرحزب الاتحاد ، وسقوط الوزارة الزيورية . وهم الكتاب الذين كان العقاد واحداً من أبرزهم ، وأكثرهم عنفا .

العقاد والوزارات الائتلافية :

هدأ الجو السياسى فى البلاد بتولى الوزارة العدلية الحكم بعد عودة الحياة النيابية . وانعكس هذا الهدوء على الصحافة فاختفت المهاترات الصحفية تماما ، واعتدلت «السياسة» فى لهجتها ـ مثلما فعلت صحف الوفد . وحرص سعد زغلول من ناحيته على تهيئة المناخ الصحفى المناسب للائتلاف ، وللمرحلة الجديدة التى تعيشها الأحزاب المصرية ، فكان يغضب مما تكتبه الصحف ويكون من شأنه تعكير جو الائتلاف ، كما ذهب فى مجاملة صحف الأحزاب المؤتلفة مع الوفد إلى حد بعيد .

ولما كان الائتلاف هو محور الحالة السياسية الجديدة – فقد ظل العقاد يدافع عنه ، ويعارض بشدة ماتكتبه الصحف من ملاحظات أوتعليقات حول البرلمان ، ويفهم منها معنى الفرقة ، كما حرص على الوفاق بين البرلمان والحكومة ، فتصدى لتفنيد مايقال عن انعدام المعارضة داخل البرلمان ، وكتب يقول :

« قد تصيب هذه السخائف التى تلوكها ألسنة السوء سمعا من هذه الأغرار فيصدقون مايقال من أن المعارضة مفقودة فى البرلمان وأن مناوأة الحكومة فى كل شىء مطلوبة فى مجالس النواب . والحقيقة أن المعارضة لاغنى عنها ، ولكن لتحفظ التوازن بين قوى الحكومة والأمة لا لتوقع الحرب بين جميع الأحزاب العاملة فى سياسة البلاد . والتوازن فى مجلسنا مكفول بحمد الله كما لم نره مكفولا فى مجلس من مجالس العالم أعرقها وأحدثها على السواء . ومن ذا الذى يريد أن يسود

الاختلاف بين ذوى الآراء المختلفة تنابذا يشل حركة الجميع ويحفز كل قوة من قوى الأمة إلى إحباط عمل الأخرى لمحض المشاكسة والعداء ؟ وذلك مالا يريده الاعدو لبلاده كاره للإصلاح والوفاق » .

وأيد العقاد الوزارات الائتلافية ، فأثنى على تشكيل وزارة عدلى يكن ودافع عنها ضد بعض الانتقادات التى وجهتها إليها الصحف الأجنبية .

وظل يعاضدها إلى أن استقالت فى ١٩ أبريل ١٩٢٧ . بسبب رفض مجلس النواب اقتراحا بشكرها على ماقدمته من تعضيد لبنك مصر منذ ولايتها الحكم ، على أمل أن يستمر هذا التعضيد مستقبلا برغم تأكيد المجلس أنه لايقصد عدم الثقة بها .

وأيد العقاد وجهة نظر مجلس النواب ، واعتبر استقالة الوزارة على هذا النحو قد أحدث حالة يجب على الأحزاب الاستعداد لها . ففند تعليقات الصحف الإنجليزية المؤيدة لموقف الوزارة . وحمل على من أسماهم بالرجعيين من مصريين وإنجليز الذين خلقت الأزمة فى أذهانهم حلها بحل البرلمان ، وتعطيل الدستور ، من طريق توقع مصادمة عاجلة ، أو آجلة بين الوفد والإنجليز .

وكان موقف العقاد من استقالة الوزارة العدلية متفقا مع رأى سعد زغلول الذى رضى عن الأزمة ، لأنه لم يستحسن من عدلى يكن التهديد بالاستقالة إذا تعرض مجلس النواب لتصرفه فى مسألة كتاب الشعر الجاهلى « لطه حسين » ، ولم يكل إليه الرأى كله فى هذا التصرف .

وقد ترتب على الحرص على الائتلاف موقفان :

١ – العداء الشديد لميول الملك فؤاد الأوتوقراطية .

٢ – الالتزام بقدر الإمكان بسياسة حسن التفاهم التى سار عليها البرلمان

والوزارة العدلية ، ولم يكن ذلك عن اقتناع أو ا[illegible] ى هذه السيا[illegible]ة أوفائدتها بالنسبة لمستقبل القضية الوطنية ؛ إنما كان تحت [illegible] الائتلاف الذى اقتضت حمايته مهادنة السياسة الإنجليزية .

١ - محاربة ميول الملك فؤاد الأتوقراطية :

وبالنسبة لعداء العقاد لميول الملك فؤاد الأتوقراطية - يمكن القول بأنه اعتقد أن ائتلاف الأحزاب المصرية جعل الملك منعزلا ، ولاسند له فى السياسة إلاحزب الاتحاد الذى قضت الأمة عليه فى الانتخابات الأخيرة . وهذاالاعتقاد أدّى بدوره إلى اعتقاد آخر ، وهو استحالة تآمر القصر مع أى حزب من الأحزاب المؤتلفة ضد الوفد . صحيح أن هذا هو ماحدث فى الانقلاب الدستورى الثانى ، ولكن العقاد ظل طوال عهد الوزارات الائتلافية يستبعد ذلك . حتى إذا ماتم الانقلاب بتدبير القصر ، اعتقد العقاد فى البداية أنه من تدبير السياسة الإنجليزية ثم عاد فقال باشتراك الرجعية « القصر » فيه . ومن هذا الفهم لوضع الملك إبان حكم الوزارات الائتلافية - ذهب العقاد إلى أن الملك صار وحيدا فى ميدان معاداة الحياة النيابية ، ووجب من ثم فضحه والتشهير به ، والطعن فى مكانته وإخلاصه كلما بدت بادرة أوحتى إشاعة تدل على تحفزه أوتحركه ضد الحياة النيابية والدستور . ومن هذا المنطلق دارت جميع كتابات العقاد حول الملك فؤاد طوال عهد وزارتى عدلى يكن وعبد الخالق ثروت الائتلافيتين .

فقد نبه العقاد الملك فى البداية - بمناسبة عيد جلوسه على العرش - إلى أن مجده وكرامته إنما هما تمثيل لمجد وكرامة الأمة التى أقسم يمين الولاء لدستورها . وكان معنى ذلك أن احتفاظ الملك بمجده وكرامته يقتضى دوام الولاء للدستور . ولما

أشيع أن هناك مساعيَ من جانب الدوائر الملكية للوقوف أمام تنفيذ الدستور – بادر العقاد بمطالبة البرلمان باتخاذ إجراء حاسم ضد الرجعية التى تعادى الأمة فى دستورها بالرغم من أن الأمة تمد لها يد المجاملة والولاء «ولا يطالب البرلمان بكثير. فحسبه أن يقف عند حرف الدستور، وأن يُلجئ أعداءه الثائرين عليه إلى الوقوف كذلك عند حرفه، ولئن فعل ليكونن فيه وازع للرجعية يميل إلى شيء من الحكمة والتؤدة، أويلقى عليها أول درس فيما تستطيعه الأمة من عداء من لايبالون أن يجهروا لها بالعداوة وهى تمد إليهم الأيدى بالمجاملة والولاء».

وظل يشهر بعداء الرجعية للدستور مطالبا بحمايته، وبوضع حد لتدخل الحاشية الملكية فى تعيين السفراء والوزراء المفوضين، بما يعارض مبدأ المسئولية الوزارية.

ولم يكتف بهذا، بل دعا البرلمان إلى فضح عداء الملك للدستور علنا: «ونود كذلك ألايبقى أمر تلك العقبات الرجعية سرا مكتوما عن الناس إذا كان يخشى من قيامها فى الطريق بعد الآن» ولاشك أنه أراد بذلك عزل الملك جماهيريا، ووضعه فى مكانه الصحيح على أساس موقفه من الدستور.

وعندما عارض الأزهريون مسعى الوزارة العدلية لوضع نظام جديد للمعاهد الدينية، وشكوا إلى دار المندوب السامى – اعتبر العقاد ذلك تحركا من الملك ضد الوزارة الدستورية، فتصدى له مباشرة متهما إياه بتدبير هذه الاضطرابات، وإن لم يذكر اسم الملك صراحة مستخدما لفظ الرجعية، فقد كان واضحا أنه يقصد الملك. بيد أنه أكد أن الأزهريين خارجون بمسلكهم هذا عن إرادة الملك، ولعله قصد بذلك إلى حرمانهم أمام الرأى العام من أى سند يستندون إليه.

وظل يؤكد أن الرجعية «الملك» وراء الأزهريين مطالبا الحكومة بأخذهم بالشدة، ورفض القول بأن قضية الأزهريين صراع بين القديم والجديد، وبين

السلطة الدينية والسلطة الزمنية ؛ إذ رأى أنها لاتعدو أن تكون قضية الطمع فى الوظائف التى توهموا أن النظام الجديد سيحرمهم إياها .

واستمر العقاد يشهر بحزب الاتحاد ، مؤكدا أن ادعاءه الانتماء إلى القصر بعد سقوط الانقلاب الدستورى وعودة الحياة النيابية – معناه أن الأمة فى واد ، والقصر فى واد آخـــر ولم يعترف لصحيفة « الاتحاد » بأى حق فى الحديث باسم الديوانين الملكيين « الديوان الملكى وديوان الخاصة الملكية » ، وأشار بصورة غير مباشرة إلى أن تبنى القصر لصحيفة « الاتحاد » – معناه أنه مازال على عدائه للدستور ، وللوزارة الدستورية ، وللحياة النيابية . وطالب بحرمان الصحيفة من حقها فى حرية الرأى ، بحجة أن ماتنشره من آراء (وهى بحكم انتمائها للقصر تعبر عن مواقفه) – جرائم تستحق عليها العقاب .

ويلاحظ أن العقاد تخلى فجأة عن عدائه للملك فى أثناء أزمة الجيش سنة ١٩٢٧ ، وانقلب موقفه منه إلى موقف ثناء وتمجيد له ؛ ولاشك أنه تجنب المحاربة فى جبهتين قد تتحدان ضد الحياة النيابية ، فآثر أن ينافق الملك مؤقتا إلى أن تمر الأزمة بسلام : فعندما أدلى الملك فؤاد بحديث إلى محمد كرد على ونشرته مجلة « المقتبس » التى كان يصدرها الأخير ، وأعرب الملك فيه عن اهتمامه بالعلوم والآداب فى مصر – أثنى العقاد كثيرا على الملك ، ورأى « أن صاحب الجلالة قد أعطانا من حكمته وصراحته فى هذا الحديث خير مايعطيه شعبه ، الذى يعرف لجلالته تلك الحكمة وتلك الصراحة » .

ثم مالبث أن عاد بعد انتهاء الأزمة إلى معاداة الملك ، ورأى أن زيارته لأوربا ولإنجلترا التى قام بها فى ٢٤ يونية ١٩٢٧ قد حققت نجاحا كبيرا فى نشر الدعوة لمصر ، ولكنه حمل بعنف على وجود حسن نشأت أحد رجال الملك ، ووكيل

الديوان الملكى سابقا ، فى لندن فى أثناء مفاوضات عبد الخالق ثروت فيها ، وأكد أن المقصود بذلك إحراج ثروت فى مفاوضاته . وطالب بعدم التساهل مع الرجعيين أمثاله الذين يعيشون فى ظل الحكم الدستورى .

ولم يكتف العقاد بالتشهير بعداء الملك للدستور ، بل اعتبره حجر عثرة فى سبيل تقدم البلاد ، فاستغل مانشرته إحدى الصحف الفرنسية عن نهوض الملك بمصر ، وسيره بها فى طريق التقدم ، بالرغم من أمية الشعب المصرى ، ليشير إلى عدائه لنهضة البلاد ، ووقوفه حجر عثرة فى سبيل نهضتها ، إذ علق على ماكتبته الصحيفة الفرنسية بقوله : « وهذا كلام أرادته الصحيفة ثناء على جلالة الملك ، ولكنه هو الثناء الذى يغضب من يوجه إليه ، ولايوافق رأى صاحب الجلالة ولاميوله ، وهو مع هذا لايستند إلى شىء من الحقائق التى يعلمها المصريون والأجانب المقيمون فى هذه البلاد . فما علم هؤلاء ولاهؤلاء أن جلالة الملك أراد أن يغير زى الشيوخ فى الأزهر أوفى دار العلوم فعارضه الشيوخ فى تنفيذ هذه الإرادة . ولأنه شجع بعض الكتاب على حرية التفكير ونشر الآراء فخالفه الشعب فى هذا التشجيع ، أوأنه أبطل التقاليد الموروثة فوجد من الشعب من يحن إلى تلك التقاليد . ولاأنه حارب الرجعية فى مظهر من المظاهر فلم يجد نصيرا من التقدميين والمستنيرين » وختم تعليقه بقوله :

« إن خير تمجيد يناله الملك هو التمجيد الذى يناله باسم أمته وحضارة وطنه ، فإن الذين يحسبون كلام الليبرتيه الفرنسية ثناء على جلالة الملك فؤاد ليجهلون الملك فؤاد ويجهلون المصريين ، ولايعلمون كيف يكون الثناء على الملوك الراشدين » .

٢ - الالتزام بسياسة حسن التفاهم :

شايع العقاد سياسة حسن التفاهم مع الإنجليز ، التى سار عليها البرلمان والوزارة العدلية ، ولم تكن مشايعته لها قائمة على الاقتناع بفائدتها وجدواها بالنسبة للقضية الوطنية ، وإنما شايعها تحت ضغط الظرف السياسى القائم على البلاد ، والذى اقتضى مهادنة السياسة الإنجليزية حرصا على الحياة النيابية . ولهذا كثيراً ماأبدى تشككه فى جدوى التمسك بها ، وكثيرا ماخرج عليها داعيا إلى نبذها . بيد أنه كان سريعا مايعود إلى الالتزام بها ، تحت ضغط الظرف السياسى القائم ، وربما تحت ضغط زعامة الوفد الحريصة على هذه السياسة .

فما إن عادت الحياة النيابية ، وبدأ الجو السياسى فى الهدوء — حتى أثنى العقاد كثيرا على لورد لويد ، وعلى موقفه من الدستور والبرلمان خلال الدورة البرلمانية الأولى : « فقد سبر المندوب البريطانى غور الحالة ، ورسم منها طريقه ، وأطال التفرس فى الجانبين : جانب الأمة وجانب المستبدين ، فجنح إلى الجانب الأول ، ورأى أن مشايعة الدستور خير من مشايعة المطامع الرجعية والمقاصد الفردية . . » .

ودفعه موقف لويد هذا إلى التفاؤل بمستقبل الحياة النيابية فى مصر : « فليس من المعقول أن يبدأ المندوب فى سنة سياسية بمشايعة الدستور ، ثم يبدأ السنة التى تليها بخذلان الدستور وتأييد الرجعية . وليست المسألة تخميناً فحسب ، ولكنها كذلك مسألة وقائع يمكن أن تراقب فى عالم المحسوس » .

ولم تمنعه مشايعته لسياسة حسن التفاهم من الهجوم على مراسل « التايمز » فى مصر بسبب حملاته على الوفد والبرلمان لانتخاب أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى عضوين بمجلس النواب ، ولم تمنعه أيضا من اتهام الدوائر السياسية

الإنجليزية — بصورة غير مباشرة — بالإيعاز بحملات مراسل « التايمز » ودفعه هذا إلى تأكيد أن الصحفيين المصريين لن يحرصوا على سياسة حسن التفاهم مادام الصحفيون الإنجليز لايحرصون عليها . وربما كان قد قصد أن الوفد لن يحرص عليها ، مادام الإنجليز لايحرصون هم أيضا عليها . على أنه عاد سريعا إلى التمسك بهذه السياسة ، وأكد أن المراسل يخدم الرجعية بكتاباته ، وطالب بضرورة نفيه من مصر .

وكان العقاد يرجو بتأييده لسياسة حسن التفاهم — أن يظهر الانجليز حسن نيتهم ، واستعدادهم للتفاهم كما أظهره المصريون ، وذلك « بأن يجتنبوا كل الاجتناب التعرض لحكومتنا فيما يتعلق بالشئون الوطنية ، وأن يترك للمصريين ماهو من حق المصريين ، فلايعتدوا على سلطتهم فى هذه الشئون بأى ذريعة من الذرائع وفى أى ظرف من الظروف » . وهذا يدل على أن الحرص على استقرار الحكم الدستورى والحياة النيابية كان هو الغرض من سياسة حسن التفاهم .

وأبدى العقاد أسفه لأن الإنجليز يفهمون من اتباع المصريين لسياسة حسن التفاهم معنى الاستسلام والخنوع ، وأرجع ذلك إلى استعداد الرجعية لقبول كل اقتراح والرضا بكل حال ، وعلمهم أن المصريين حريصون على الدستور والحياة النيابية أن تعصف بها مساومة بينهم وبين الملك .

وعلى هذا رأى العقاد ضرورة صيانة الدستور من مثل هذه المساومة التى قد تقع مستقبلا : « فهل دستورنا الآن بهذه المكانة من الثقة والأمان ؟ وهل هو الآن بعيد عن كل خطر منزه عن كل مساومة ؟ إن كان كذلك فقد آن أن يضرب على أيدى خصومه العابثين ضربة الواثق القدير ، وإن لم يكن بهذا القدر من الثقة والأمان فيجب أن يكون مرة واحدة والإفليس هو بالدستور الذى نحرص عليه وإن بقاءه

على هذا وضياعه لسواء » .

ويدأ العقاد يتحلل من الارتباط بسياسة حسن التفاهم إزاء الانتقادات التي وجهتها الصحف الإنجليزية إلى الوفد في أعقاب استقالة الوزارة العدلية في أبريل ١٩٢٧ ، فكتب ردا على مازعمته مجلة « الإيكونوميست » من أن الصعوبة الحقيقية في الموقف السياسي في مصر تكمن في سيطرة الوفد على الشئون السياسية وعدم استعداده للاتفاق مع إنجلترا على المسائل الأربع المتبقية ، فرد على ذلك بأن الصعوبة الحقيقية آتية من التناقض بين دعاوى الإنجليز وأعمالهم . « ذلك التناقض فوضى لاحد له ، ولاضابط لغرائبه ونزواته فهو شيء لاتبنى عليه سياسة واضحة ، ولا يطمأن إليه بأى حال من الأحوال » .

وكتب يفند مازعمته « التايمز » من أن فساد الإدارة المصرية مرجعه إلى أن هناك عنصرا سياسيا (تقصد الوفد) يعمل لهدم سلطة الإدارة . فقال : « إن الذين عملوا ويعملون لهدم سلطة الإدارة أفراد وأحزاب تدخلت في أعمال الإدارة في العهد الذى عطل فيه الدستور . ولم يحظ ذلك العمل حينذاك باستياء الصحف الإنجليزية » .

وجاءت زيارة جورج لويد للمنيا في مايو ١٩٢٧ لتجعل العقاد يضرب بسياسة حسن التفاهم عرض الحائط ، فلما خطب اللورد في المحتفلين به ، وذكر لهم اهتمام حكومته برفاهية الفلاحين المصريين وسعادتهم — عد العقاد ذلك تدخلا في أمور البلاد لايليق بمثل دولة أجنبية . وأكد أن مثل هذا التدخل يرجع بالبلاد إلى عهد شبيه بعهد كرومر والحماية الإنجليزية . واتخذ من هذه التصريحات دليلا على أن « للصداقة معنى في السياسة الإنجليزية أضر علينا من معنى العداوة والجفاء » . وطالب الحكومة بإلحاح بأن « توجه نظر المندوب البريطاني توجيها جديا إلى أن

رفاهية الفلاحين شيء لا يعنيه . وأن حكومة بريطانيا العظمى لا تعرف . ولا ينبغي أن تعرف أفراد الشعب المصري بغير واسطة الحكومة الوطنية » .

ولما كان استقرار الحكم الدستوري والحياة النيابية هو الغرض من سياسة حسن التفاهم . ولما كان مسلك لورد لويد هذا امتهانا للحكومة الدستورية وسيادتها – فقد وجد العقاد في ذلك مبررا للقول بنبذ سياسة حسن التفاهم . «لأن مسلك لويد لايدل على رغبة في صداقة المصريين . ولا على احترام للحكومة النيابية . ولا على حسن سياسة من جانب الإنجليز ، ولأنه يدفع المصريين جميعا إلى سوء الظن بتلك السياسة والإيمان الجازم بخطأ كل رجاء في التفاهم مع هؤلاء القوم ووجوب التعويل على خطة واحدة هي خطة العداء الصريح ، وإنكار كل ملاينة أومسالمة فيما بيننا وبينهم من العلاقات . ونحن نعرف الشعب ونسمع مايقول ونلمس مايجرى بينه من تيارات الأفكار الخفية والصريحة ، فلانقرر إلا الحقيقة حين نقول : إن سوء الظن قد بلغ حده . وإن الأعذار التي كانت تجدى بالأمس توشك أن تصم عنها الآذان ويهزأ بها من كانوا يرحبون بها قبل عام ، وليس لهذا كله من سبب إلا ذلك المسلك الشاذ الغريب الذي يسلكه الإنجليز في معاملة الحكومة النيابية والإلحاح المتوالي عليها بالمشاكل والمحرجات » .

ومما زاده اقتناعا بأن مسلك لورد لويد هذا مظاهرة على الدستور والحياة النيابية أن الذين دعوه لزيارة المنيا ويدعونه لزيارة بلادهم – هم من الفاشلين في الانتخابات . وظل يلح على الحكومة الثروتية أن توجه نظر لويد للإقلاع عن هذه التصرفات مهما يكن في ذلك من حرج لها ، لأنه رأى في سكوتها تغاضيا عن الشعور بالاستياء لدى الشعب الذي سيميل إلى الاستهزاء بالحكم النيابي القائم « الذي لايقوى على حفظ كرامته مع الإنجليز ، ولامع الرجعيين ، ولايخطو خطوة إلا متعثرا

فى المعاذير محتميا بالضعف ، وما كان الضعف قط بالنصير المأمون » .

ومن الناحية الأخرى طالب الإنجليز بإظهار ميولهم الودية نحو المصريين « بالفعل الثابت لا بالكلام المنقوض » .

وتطورت حملات العقاد على السياسة الإنجليزية إلى نوع من التحدى عندما علقت « التايمز » على مناقشات مجلس النواب حول زيارة لويد للمنيا بقولها :

« إن الدوائر السياسية الأجنبية ترى أن الجو السائد فى البرلمان لا يختلف كثيرا والجو الذى كان سائدا فيه أواخر عام ١٩٢٤ » . إذ اعتبر العقاد ذلك تهديدا إنجليزيا يجعل مصير البرلمان القائم كمصير برلمان عام ١٩٢٤ ، وأكد أن المصريين لا يأبهون لمثل هذا التهديد إذعانا للسياسة الإنجليزية ، ورد على التهديد بقوله :

« فهل يريد منا مكاتب التايمس والموعزون إليه أن يسمعوا جواب مصر على هذا التهديد ؟ جوابها : ليكن ! ليذهب الدستور إلى حيث شاء به الإنجليز إن كانوا لا يريدون من بقائه إلا أن يحكموا هم علانية وسرا ويحمل هو التبعية كلها أمام البلاد وأمام الدول الأجنبية » . وأكد أن جميع المشاكل والأزمات التى تعترض طريق البلاد مصدرها تدخل المندوب السامى فى أمورها الداخلية .

وكانت حملات العقاد على زيارة لورد لويد للمنيا جزءا من حملات الصحف المصرية عموما على الزيارة ، باستثناء « المقطم » ، وعلى رأسها صحيفة « البلاغ » كما شارك مجلس النواب فى استنكار هذه الزيارة .

وقد اتهم سعد زغلول بأنه محرض الصحافة ومجلس النواب على هذه الحملة . فقد روى العقاد أنه دخل عليه ذات مرة بعد انتهاء الأزمة بعد أسابيع ، فقال له سعد : « أتدرى ماذا صنعتم لنا يافلان ؟ إن اللورد جورج لويد يتهمنا بأننا كنا الموعزين بحملة الصحافة وحملة مجلس النواب على زياراته للأقاليم . أما أنا فأقول

له : « إنها تهمة لاأدفعها أوشرف لاأدعيه » .

وكانت صحيفة « النيرايست » قد اتهمت الصحف الزغلولية ، ولاسيما « البلاغ » « بأنها تكتب مقالات شائنة جداً عن زيارة المندوب السامى للمنيا ، لاتتفق مع الميول الودية التى طالما أعرب الوفد عنها . . » وقد فند العقاد هذا الاتهام بأن الصحف « الزغلولية » ليست وحدها التى تستنكر هذه الزيارات ، بل تستنكرها جميع صحف الائتلاف . وفندته « البلاغ » بقولها : « إن القراء يعرفون أن « البلاغ » صديق لسياسة الوفد لاقتناعه بصحتها ، ولكنه فيما ينشره لاينطق إلابلسانه ولايعبر إلاعن رأيه فهو يحمل وحده مسئولية ما يكتبه » .

وبالرغم من أن جميع صحف الأحزاب المؤتلفة قد حملت على زيارة « لويد » للمنيا وللأقاليم ، وبالرغم من أن (سعد زغلول) قد اتُّهِم بالإيعاز إلى الصحافة ومجلس النواب بهذه الحملات – فإن العقاد حرص على أن يبرز نفسه فى موقف البطل بسبب حملاته على « لويد » ، فزعم أن « لويد » طلب من سعد إيقاف حملاته هو بالذات ، وزعم أن « لويد » استدعى الأساطيل للإرهاب والتهديد من أجل إجابة هذا الطلب . فقد روى أن : « اللورد لويد – المندوب السامى فى ذلك الحين طلب إليه (إلى سعد) أن يكفنا عن الحملة عليه ، وأرسل إليه من يبلغه أنه يحسبه موعزا بها ، فمازاد على أن قال قولته المشهورة : « هذا شرف لاأدعيه ، أوتهمة لا أدفعها » ولم يفض إلينا بماحدث إلابعد انقضاء الأزمة ، وقد سيرت فيها الأساطيل للإنذار والإرهاب أوللتهويل والتمثيل . .

« إننا نحمد الله على مافرق به بين الأدب والسياسة . فلولا ذلك ماطلبنا أنفسنا اقتراحا فى الكتابة الأدبية ، ورفضنا الاقتراح فى السياسة وأنكرناه وإن تحركت له الأساطيل » .

وغنى عن الذكر أن رواية العقاد هذه قد تضمنت – فوق كونها محرفة لإظهاره في مظهر البطل – تحريفا واضحا ؛ فإن استدعاء بعض القطع البحرية الإنجليزية إلى الإسكندرية لم يكن بسبب حملات الصحف على المندوب الإنجليزى ، وإنما كان للضغط على الحكومة المصرية فى أثناء أزمة الجيش التى حدثت بعد ذلك.

ثم جاءت أزمة الجيش [1] لتدفع العقاد إلى الدعوة إلى هدم سياسة حسن التفاهم من أساسها . وإلى الجهاد من جديد ضد الاحتلال والسياسة البريطانية. فأكد العقاد أن تحريك الأسطول الإنجليزى إلى المياه المصرية للضغط على المصريين لقبول المطالب الإنجليزية لايصح أن يلزم مصر قبول كل مايطلبه الإنجليز فى كل مرة يريدون فيها فرض مطالبهم . وطالب بضرورة تحديد سياسة يواجه بها هذا التعنت الإنجليزى : «فينبغى أن نعرف أقصى ماتهددنا به تلك البوارج والأساطيل التى وراءها وأن نقول مرة واحدة : هل نقبل هذه الطريقة فى إلقاء الأوامر علينا بغير مناقشة ولامراجعة ، أونرفضها ولانبالى بعواقبها أيا كانت ؟ ثم يجب أن نسأل :

هل تكون العواقب شراً من إلغاء الدستور الذى لانصيب لنا منه إلا التبعة الثقيلة وإساءة ظن الأمة بالحكومة الوطنية ومنع الحركة القومية أن تتجه إلى وجهتها المستقيمة ؟» وأجاب عن هذه التساؤلات بأنه يجب طرح الدستور ، وإسقاطه من

---

(١) وملخص هذه الأزمة اعتراض الإنجليز على تقرير قدمته اللجنة الفرعية التى شكلتها اللجنة الحربية بمجلس النواب لإبداء رأيها فى ميزانية الجيش لعام ١٩٢٧ – ١٩٢٨ وقد تضمن تقريرها بعض المقترحات لإصلاح الجيش من نواح مختلفة . اعترض عليها الإنجليز وفرضوا مطالب تخضع الجيش لإشرافهم ورقابتهم التامة ، وتحول دون تقدمه وإصلاحه وقد اضطرت وزارة عبد الخالق ثروت إلى قبول معظم هذه المطالب تحت ضغط الموقف . ولاسيا بعد استدعاء ثلاث قطع بحرية إنجليزية من مالطة إلى الإسكندرية وبورسعيد للضغط عليها .

الاعتبار . والعودة إلى الجهاد بالتعاون مع المستعمرات الإنجليزية الأخرى التى تناضل من أجل استقلالها : «فإن كان هذا سر مايهددوننا به فليذهب الدستور إذن ولتجر الحركة فى مجراها بمعزل عن الحكومة الأجنبية ولنعرف سبيلنا نحن مع الأمم الشرقية التى تجاهد مثل جهادنا وتحس من وطأة الدولة البريطانية مثل مانحس منها ، ولنترك الحكم لمن يحكمون الآن غير عابئين ولامتسترين ! إن المندوب البريطانى يلقى علينا درسه الأخير فهل نقبله ونفهمه منه كما يريد ؟ إن قبلناه فقد قبلنا الاستعمار الصريح ، وأضعنا الدستور والاستقلال فعلا ونحن نؤدى منها للإنجليز ثمن الدستور الكامل والاستقلال الصريح » .

على أن أهم مافى رأى العقاد هذا هو تأكيده أنه رأى موحى به ، ولكن ذلك غير صحيح بشهادته فيما كتب بعد ذلك ، إذ روى أن سعدا رد عليه عندما أبدى له رأيه السابق بقوله : « هذا كلام لانقوله إلا إذا يئسنا كل اليأس من الاحتفاظ بالدستور » . كما ذكر فى كتابه عن سعد زغلول ، أنه رد عليه عندما أبدى له الرأى نفسه بقوله : « ليذهب الدستور حيث يذهب ! هذا حسن ، ولكن يجب أن نذكر أن الإنجليز قادرون على تضييع جهودنا كلها فى طلب الدستور ، وأنهم لولا رغبتهم فيه لضاع علينا ماسلف من جهود » .

وقد شملت حملاته – إبان أزمة الجيش – الصحف الإنجليزية ، ففند مزاعمها حول تطورات الأزمة مؤكدا أن وقوف إنجلترا دون تقوية الجيش المصرى ، مصدره خوفها من أن يوجه ضدها . وأيد حق البرلمان – من الوجهة الدستورية – فى رفض المذكرة التى قدمها لورد لويد إلى عبد الخالق ثروت رئيس الوزارة فى ٣١ مايو ١٩٢٧ ، والمتضمنة المطالب الإنجليزية التى قصد بها تشديد

هيمنة السلطات الإنجليزية على الجيش . وقد خرج العقاد من هذه الأزمة بنتيجة هامة ، وهى أنه لاأمل مطلقا فى سياسة حسن التفاهم مع الإنجليز ، ولاأمل فى دولية القضية المصرية بعد أن شهرت إيطاليا وفرنسا بموقف المصريين فى الأزمة ، وأن الأمل الوحيد فى اعتماد المصريين على أنفسهم .

الفصل الرابع

عباس العقاد فى الصحافة المصرية
من وفاة سعد زغلول إلى سجنه ١٩٣٠

أولا : العقاد فى صحف عبد القادر حمزة بعد وفاة سعد زغلول :

لم يطرأ أى تغيير على مواقف العقاد الصحفية ، والتزامه بسياسة الوفد بعد وفاة سعد زغلول ، وحتى ١٩٣٠ عندما سجن بتهمة العيب فى الذات الملكية ، بل يلاحظ أن كتاباته فى هذه الفترة ازدادات عنفا ، وصارت مزيجا من العنف والعصبية إزاء المشاكل التى قابلها الوفد ؛ كما ظل يحتفظ فى الوفد وصحافته بالمكانة التى كان يشغلها ذاتها فى عهد سعد زغلول ، وصار يربطه بالوفد منذ عام ١٩٣٠ علاقة رسمية حيث رشحه الوفد فى انتخابات ١٩٢٩ ، وصار عضوا فى الهيئة الوفدية البرلمانية .

وقد سارت كتاباته الصحفية منذ وفاة سعد زغلول حتى حدوث الانقلاب الدستورى الثانى على النحو الآتى :

١ - اختيار خليفة سعد زغلول :

فجع العقاد - كما فجع جميع الوفديين - بوفاة زعيمهم سعد زغلول فى الثالث والعشرين من أغسطس ١٩٢٧ ، وقد تجلت فجيعته فيه فى المقال الذى رثاه به ؛ إذ كتب يقول :

«لغير هذا النبأ أعدت الأسماع ، وبغير هذه الصيحة جرت الألسنة فى الأفواه ، بالحياة اقترن اسم سعد فما سمعناه إلا والحياة له لزام والدعاء له صلاة وقيام ، وما عرفنا سعداً إلا حيا تسرى منه حياة إلى النفوس ، وتخفق به قوة فى القلوب ، فما سبق فى الخواطر هذا اليوم الأسود إن يوما ينعاه فيه النعاة ، وتفجع فيه المهجات ، وأن يقال «مات سعد» ويتنادى السامعون مات سعد فى هذا الجو الذى ملأته أنفاس الداعين لسعد بالحياة» .

ولما كانت وفاة سعد زغلول من شأنها أن تثير حالة من اليأس والقنوط فى نفوس الجماهير المتعلقة بالزعيم الراحل - فقد بادر العقاد إلى تأكيد أن وفاة سعد زغلول لن تؤثر فى مستقبل الأمة . «أيًا كانت الخطة التى تجرى عليها السياسة الإنجليزية . . . والشىء الذى يخشى منه هو النكوص والجمود . وهو الشىء الذى لن يكون ولن يخطر لعاقل على بال ، فإن الأمم لا تقضى خمسين سنة فى الجهاد حتى يؤذن جهادها بالنجاح لتركن بعد ذلك إلى الجهود والاستسلام» .

وكان أهم ما اهتم به العقاد بعد وفاة سعد زغلول هو تماسك الوفد ، ووحدة صفوفه ، فحض على ضرورة احترام رأى الأكثرية ، والقضاء على من يخالفها ، وفى ذلك كتب يقول :

«لما اجتمع الوفد المصرى أمس للمرة الأولى بعد وفاة سعد رحمه الله - لم

أمالك أن أذكر اجتماعا ليس يشبهه من جميع الوجوه ، ولكنه يماثله فى خطر عواقبه ، وصرامة الظروف التى انعقد فيها . ورهبة الوازع المعلق فوق رأسه من اتباع الصحابة بوصية عمر بن الخطاب وانتخاب الخليفة بعده ، قال ذلك الخليفة العادل الأمين : متى اجتمعت الكثرة على انتخاب صاحبها فذاك هو الإمام المتبع ، ومن خالف قتل قبل أن يبرح مكانه . كانت هذه الوصية مثالا للحزم العُمرى يخالطه عدل السيف وهو أمضى العادلين فى ذلك المقام .

«إن حكم الحوادث اليوم لهو أصرم وأحزم من عمر ، وإن من يخالف الكثرة فى هذا الموقف ليقضى على نفسه بذلك الجزاء الذى قضى به عمر بن الخطاب على المخالفين ، ولكنه الموت السياسى لا موت الجوارح والأجسام ، وإن رجال الوفد المصرى ليعلمون فردا فردا خطر التبعة وجلالة الموقف وقضاء الحوادث على من يستحق قضاءها الرهيب ، وإنهم لهم القدوة التى تحمل الأمانة ، وتدين بالحق وتغنى عن التذكير والتحذير» .

أما بالنسبة لمسألة قيادة الوفد بعد سعد زغلول — فقد استحسن العقاد ما قرره الوفد من تفضيل فكرة اختيار رئيس له على فكرة اختيار لجنة تنفيذية لإدارة أعماله .

وبنى ذلك على أن «فكرة الرئاسة لا يمكن اجتنابها فى هذه اللجنة التى تنتقى من بين أعضاء الوفد ، فتشطره شطرين ، وإذا أمكن ذلك فهى مما لا يجتنب فى مجلس النواب ؛ فالضرورة العملية تدعو إلى انتخاب رئيس أو رجل يعمل فى الوفد عمل الرئيس ، وإذا خيف النزاع فترك الوفد بغير رياسة مقررة أدعى إلى تضارب الآراء ووقوع النزاع من حيث لا يحتسبون» .

ولم يرشح العقاد أيا من الرجلين المرشحين لرياسة الوفد (محمد فتح الله بركات

ومصطفى النحاس) كما فعلت مجلة «روز اليوسف» عندما رشحت مصطفى النحاس. وأخذ يتولى الرد على الصحف الإنجليزية التي قسمت الوفديين إلى معتدلين ومتطرفين، وطالبت باختيار عنصر معتدل لزعامة الوفد لتسهيل التفاهم مع إنجلترا. واستنكر تدخل الإنجليز في اختيار الأمة لزعامتها!

ولما قرر الوفد بالإجماع — في ٢٣ من سبتمبر ١٩٢٧ — اختيار مصطفى النحاس رئيسا له، طفق العقاد يساهم في بناء صورة الزعيم الجديد أمام الرأي العام، وإظهار جدارته في خلافة سعد زغلول. وراح يثنى على نزاهة مصطفى النحاس وذكائه. ودقة أحكامه أيام كان قاضيا. وأكد جدارته بالزعامة «ولو لم يكن جديرا بالزعامة ما ارتضاه سعد في جميع أدوار الجهاد. ولا وثق به هذه الثقة وقربه هذا التقريب».

ورد على اتهام الصحف الإنجليزية للنحاس بالتطرف، بأنه «إن كان معنى التطرف والشدة في رأى الصحافة البريطانية أن يحرص المرء على حقوق وطنه ويأبى التفريط في مصالحه وآماله — فقد أصابت الوصف ووجب أن تعده من غلاة المتطرفين المتشددين الذين لا يسلمون في كثير ولا قليل».

وظل يعدد كفايات النحاس العلمية والقانونية والخطابية. وخلص إلى «أن البداهة التي جمعت الآراء على اختياره لهي آية أخرى من الآيات التي دلت بها مصر في ساعاتها المشهودة على سلامة البصيرة واستقامة العريزة القومية. ووضع الأمور في مواضعها باتفاق عجيب في الخواطر والميول كأنما هو ضرب من الوحي والإلهام».

٢ - الحرص على الائتلاف :

لما كانت وفاة سعد زغلول من شأنها أن تؤثر على الائتلاف القائم بصورة ما فقد بادر العقاد إلى تأكيد حرص الوفد على الائتلاف ؛ لأن الأمة «وقد عرفت خطتها الموفقة لا تحيد عنها - عرفت أن الاتفاق هو سلاحها» وظل يؤكد هذا الحرص مع بقية صحف الأحزاب المؤتلفة .

وأيد العقاد وزارة عبد الخالق ثروت الائتلافية . ولكنه اصطدم هو وعبد الخالق ثروت والأحرار الدستوريون فى خلال الأزمة التى أعقبت رفض الوفد لمشروع ثروت مع تشمبرلن . وهى الأزمة التى أثرت تأثيرا خطيرا على صحف الأحزاب المؤتلفة ؛ إذ أكدت «السياسة» أن بعض ما جاء فى المشروع قد قبله الوفد فى مفاوضاته مع لجنة ملنر ، وردت «البلاغ» على هذا التحرش بنشر مشروع الوفد فى مفاوضاته مع ملنر ، وقارنت بينه وبين مشروع ثروت - تشمبرلن ، وكان موقف العقاد من هذا التوتر معتدلا فى البداية ، حيث رأى أن الائتلاف المرغوب فيه إنما هو ائتلاف «صداقة لا سيادة» ، وأكد أن ما نشرته «البلاغ» ليس فيه خروج على واجب المؤتلفين .

ولكن إصرار «السياسة» على موقفها ، وتأكيدها أن مشروع ثروت تشمبرلن قد عرض على سعد قبل وفاته ، ووافق عليه ، ووصفها «البلاغ» بالدناءة - جعل العقاد يضرب بالائتلاف عرض الحائط : فهاجم «السياسة» هجوما عنيفا ، وامتد هجومه إلى عبد الخالق ثروت ، واتهمه بأنه وصف الوفد بأنه مثير للاشمئزاز ، وبأنه لم يشترك فى الاكتتاب لتخليد ذكرى سعد زغلول .

على أنه ما لبث أن عاد إلى التمسك بالائتلاف ، والحرص عليه من جديد .

عندما قررت اللجنة الإدارية لحزب الأحرار الدستوريين وهيئته البرلمانية – قبول دعوة الوفد للحزب للاشتراك فى وزارة النحاس الأولى ، فأثنى كثيرا على هذا القرار . ولما تألفت الوزارة فى ١٧ من مارس ١٩٢٨ التى ضمت وزراء من حزب الأحرار الدستوريين أثنى العقاد عليها ، وعلى جميع أعضائها ، وأيد مبدأ تولى زعيم الأغلبية رياستها ، وأشاد بنبوغ مكرم عبيد الذى دخل الوزارة لأول مرة .

٣- ازدياد عدائه للملك :

ظل العقاد يشهر بعداء الملك فؤاد للحياة النيابية وللدستور بعد وفاة سعد زغلول : فكتب عما أسماه بالدسيسة الجديدة التى تبذلها الرجعية فى لندن (وكان الملك لايزال فى زيارته لها) لتعطيل الدستور عن طريق كسب ثقة الإنجليز ، وتقويض صرح الائتلاف اعتقادا منها بأن الإنجليز لا يثقون فيها إلا إذا حالفها فريق من الأمة ، وهنا أكد العقاد أن المحافظة على الدستور إنما هى فى المحافظة على الائتلاف .

ثم تطور موقفه من الملك إلى تهديده بالثورة من أجل حماية الدستور ، وذلك عندما نشرت صحيفة «التايمز» نبأ عن احتمال تعيين حسن نشأت مديرا للخاصة الملكية ؛ إذ رأى العقاد أن إقدام الملك على مثل هذا الإجراء معناه الازدراء بشعور الأمة ، وتأكيد كل ما يشاع عن عدائه للدستور ومكافأته للعاملين على تقويضه ، ونبأ الملك إلى أن الدوائر الخاصة لا يجوز أن تكون ملجأ من غضب الأمة . وهدده بالثورة ؛ لأن تعيينه (حسن نشأت) فى هذا المنصب «ليس معناه أن الأمة تعجز عن مقابلة هذه الدلالة بمثلها ، وأن تجازف فى هذا السبيل بكل ما كانت تحرص عليه إلى الآن ؛ لأن عملا كهذا من شأنه أن يزيدها اقتناعا بضرر الأوقاف

الأهليه ، ووجوب الإسراع بإلغائها أو تعديل شروطها ، وبأن المجاذبة بين الدستور الذى أقسم الجميع له يمين الولاء وبين الرجعية المنبوذة الكريهة - قد دخلت فى دور عاجل يجب أن يعلم فيه كل إنسان أن الدستور شيء يصان ويهاب . ويجب أن يحسب له حساب».

وطفق العقاد يطالب وزارة عبد الخالق ثروت بأخذ أذناب الرجعية بالشده دون مراعاة لأى اعتبار ، وكان يقصد بذلك أخذهم دون مراعاة لمقام الملك ، وعلى هذا هاجم الوزارة بشدة عندما تساهلت مع حسن نشأت ومنحته إجازة مرضية لمدة عام . إذ رأى عملها هذا من شأنه أن يزعزع أساس الدستور ويلقى فى روع أعدائه أن الاعتداء عليه أمر مأمون العاقبة . وألح عليها لتفصله . حرصا على هيبتها . وهيبة الدستور .

ووصل به حرصه على الدستور إلى التصريح علانية بأن الأمة قد تلجأ إلى التخلص من الملك حرصا على دستورها . ومحافظة عليه «لأن الأمة إذا تقرر عندها أن الدستور فى خطر عظيم جمعت عزيمتها على إنقاذه وحصرت همها الأول فى سد هذا المنفذ ، فلم يتعذر عليها أن تصل إلى بغيتها ، وإذا قالت الأمة : إما هذا أو ذاك ، وعولت على أن تستريح أبدا من خطر يضايقها - فالنتيجة معلومة لا تخفى على أجهل الناس» .

ثم تحول عداؤه للملك فؤاد إلى غضب ، فسب فيه وفى حاشيته لسعيها للاحتفال بعيد جلوسه الذى وافق اقتراب الاحتفال بذكرى الأربعين لوفاة سعد زغلول ، حيث كتب يقول :

«ليست هذه أمة عبيد يداس شعورها وترغم أنوفها ولا تتكلف هيئاتها شيئا قل أوكثر لتقدير عظمائها ومجاملة أبنائها . ومن ظن ذلك فليكن خاسئا منبوذا . فإنه من

الغفلة المطلقة والغباء الكثيف بمنزلة هى إلى بلادة حيوانية أقرب منها إلى بلادة الجهل والجنون ، وإن مصر لتكونن مضغة فى أفواه العالم إذا وقعت فيها هذه المهزلة وخرج الناس من مأتم زعيمها ليمرحوا ويطربوا بين النيران الزاهية والألحان الصادحة بالبهجة والحبور » .

ودعا الوزارة إلى عدم التورط فى هذا الأمر كما دعا الدوائر الملكية إلى مراعاة ذكرى الفقيد الذى قاد الحركة الوطنية التى جعلت من فؤاد ملكا بعد أن كان سلطانا فى محمية تابعة لإنجلترا . ثم هاجم تلك الدوائر لإقامتها الزينات على الدور الحكومية احتفالا بعيد الجلوس الملكى . واتهم (حسن نشأت) الذى عاد قبل الملك من لندن بالسعى لتدبير مظاهرة لاستقبال الملك عند عودته بغرض إقناع الإنجليز بأنه لم يعد فى البلاد [illegible] سعد زغلول ، وأن الرجعية صارت من بعده القوة التى تستطيع إنجلترا التفاهم معها .

ولما عاد الملك إلى البلاد تخابث العقاد ، فأثنى عليه ثناء عظيما ، ولكنه غمزه للفشل الذى منى به فى رحلته إلى لندن ، إذ قال : « تذكر مصر هذا وتذكر معه أى الآمال كانت تنوطها هى ، وأى آمال كان ينوطها الرجعيون بالخاصة الملكية ، ثم تذكر أى مصير أراده الله لهذه الآمال الخاسئة وتلك الآمال الغالية ؟ فأما مصر فلن يخيب رجاؤها ولن يضل فى الحق جهادها ودعاؤها . وأما الرجعية فالخيبة مبدؤها ومنتهاها ، والضلال حمأتها ومثواها ، وصاحب الجلالة أعلم بالحقيقة من غيره ، وأقدر على وزن الأمور من غيره ممن لم يسمع بأذنه ولم يبصر بعينه »

على أنه ما لبث أن صمت تماما عن الملك منذ تولى الوزارة النحاسية الأولى الحكم ، ولا شك أنه قصد بهذا إلى مهادنته تمهيدا لبدء مرحلة جديدة من العلاقات المشوبة بالمودة معه حرصا على استمرار حكم الوفد ، حتى إذا ما وقع

الانقلاب الدستورى الثانى ، اعتبره العقاد من تدبير الإنجليز ، ولم يشر مطلقا إلى الملك كمدبر لهذا الانقلاب ، وكان هذا رأيه إلى أن اتضحت حقيقة الانقلاب فأشركه كطرف فى تدبيره .

٤ – سياسة حسن التفاهم :

ازداد العقاد اقتناعا بالنتيجة التى كان قد توصل إليها من قبل وهى أنه لا أمل مطلقا فى سياسة حسن التفاهم عندما نشبت أزمة قانون الاجتماعات . إذ آمن أن السياسة الإنجليزية تعمدت إحداث هذه الأزمة لإذلال المصريين لرفضهم مشروع ثروت – تشمبرلن . واستغل هذه الأزمة لتجديد دعوتها إلى عدم التمادى فى سياسة حسن التفاهم ، وأيد الوزارة النحاسية فى موقفها لحل الأزمة . ويلاحظ أن كتاباته عن الأزمة قد اصطبغت بروح التحدى للسياسة الإنجليزية [1] !

بيد أن انتهاء الأزمة على النحو الذى انتهت إليه من تأجيل نظر مجلس الشيوخ فى القانون إلى الدورة البرلمانية التالية وتقبل الحكومة الإنجليزية لهذا الحل ، جعله يعود من جديد إلى الحديث عن سياسة حسن التفاهم ، وإظهار ارتياحه لقبول الحكومة

---

(١) ملخص هذه الأزمة أن السياسة الإنجليزية اعترضت على مشروع قانون الاجتماعات الذى كان معروضا وقت ذلك على مجلس الشيوخ ، بحجة أنه يعرض الأجانب للخطر . وأصرت على موقفها أمام رفض الحكومة النحاسية لحججها ، ووجهت إلى الحكومة فى ٢٩ أبريل ١٩٢٨ ، بأنه إذا لم يسحب مشروع القانون من مجلس الشيوخ فإن الحكومة الإنجليزية ستكون حرة فى اتخاذ أى تدبير ترى أن الحالة تقتضيه وأمام هذا الإصرار اضطر النحاس إلى أن يطلب من مجلس الشيوخ إرجاء نظر المشروع إلى دور انعقاده المقبل ، فوافق المجلس ، وارتضت الحكومة الإنجليزية هذا الحل .

الإنجليزية لهذا الحل بروح الود . وإن لم ينس أن ينبه الساسة الإنجليز إلى أن الخطط التي يسيرون عليها فى مصر من أجل الوصول إلى تسوية تكسب بريطانيا الصفة الشرعية فيها – إنما هى خطط معكوسة لن تأتى بالغاية منها . وأكد أن تجاهل السياسة الإنجليزية لحكم البرلمان فى الأزمة من شأنه أن يعطى الشيوعيين الحجة عن عجز الديمقراطية فى مصر ، ومن هنا رأى أن «الاستعمار البريطانى هو رسول الشيوعية ومزودها بالدعاوى والأسانيد فى البلاد الشرقية» .

٥ – محادثات ثروت – تشمبرلن :

كانت كتابات العقاد عن محادثات ثروت – تشمبرلن قليلة فى البداية لم تتعد مناقشة ما تكتبه الصحف الإنجليزية حول هذه المحادثات . ولم يكن العقاد متفائلا من كتابات هذه الصحف ، فأيد من ناحية ما نشرته إحدى هذه الصحف من أن المحادثات لن تفضى إلى عقد محالفة إبان زيارة ثروت للندن . ولكنه من ناحية أخرى وضع مسئولية ذلك على الجانب الإنجليزى ورأى أن ما تشير إليه الصحف الإنجليزية من وجود خلافات داخل الوزارة المصرية ، وبينها وبين الأحزاب المؤتلفة – الغرض منه إشعار الرأى العام الإنجليزى بأن الطرف المصرى هو السبب فى تعثر المحادثات . وخلص من مناقشة كتابات الصحف الإنجليزية عن المحادثات إلى أنها «لا تدل على تقدير للروح المصرية ولا احترام لحقوق المصريين ، بل هى تدل على أكثر من ذلك ، تدل على أنهم لا يفهمون روح الزمان ، ولا يزالون يسوسون الدنيا اليوم كما كانوا يسوسونها قبل مائة عام» .

ثم ازداد اهتمامه بأمر المحادثات عندما أعلن الوفد رفضه للمشروع الذى انتهى إليه ، وخلص من مناقشته إلى أنه يرجع بمصر إلى الوراء ولا يتقدم بها إلى الأمام .

واعتبر دعوة سير أوستن تشمبرلن لثروت إلى الاتفاق مع إنجلترا ، وعدم ترك العلاقات المصرية الإنجليزية تحت رحمة الحوادث الطارئة التى قد تضطر إنجلترا إلى استخدام القوة – معناها أن الإنجليز قد منحوا مصر الدستور ليتخذوه وسيلة للضغط عليها لإرغامها على قبول الاتفاق الذى يريدونه .

وعاد من جديد يناقش أهمية الدستور فى القضية الوطنية . وانتهى إلى رأيه الذى كرره مرارا من قبل ، فقال :

«إن الإنجليز هم طلاب الاتفاق ، وهم الذين عليهم أن يبذلوا ثمنه ، هذا الذى نؤمن به ولا نتزحزح عنه ، فإن كان الدستور يخرجهم من موقفهم هذا الطبيعى إلى موقف من نرجو منه أن يحتل بلادنا وتغتصب حقوقنا مخافة من «الحوادث الطارئة» بين حين وآخر فقد وجب أن ننتهى من هذه المهزلة . وأن نفهمهم دفعة واحدة أننا لن ننقلهم من موقفهم الطبيعى خائفين ولا آملين ، وأن الدستور عزيز علينا ولكن الاستقلال – بل حقنا فى المطالبة بالاستقلال – أعز علينا من الدستور» .

وكان رأيه فى التمسك باستقلال البلاد التام ، وحقوقها القومية فى محادثات ثروت – تشمبرلن ، مستمداً من رأى أبداه سعد زغلول له قبل وفاته من ضرورة هذا التمسك بحجة أنه «لا قوة لنا نأخذ بها حقنا ، ولكن لأجل ألا نفرط فى حقنا لا تلزمنا قوة ، فإذا أرادوا منا أن نسلم فى استقلالنا ونعترف بدعواهم قلنا : لا ولا نزال نقولها حتى لا نترك لمن بعدنا قيدا نقيدهم به نحن باعترافنا» .

وقد يبدو غريبا أن يستميت العقاد فى الدفاع عن الدستور ضد ميول الملك الأتوقراطية ، فى الوقت الذى يدعو فيه إلى طرح الدستور جانبا من أجل الوصول إلى استقلال البلاد التام ، وعدم التخلى عن المطالب القومية فى مواجهة الإنجليز.

على أنه يمكن إرجاع ذلك إلى إيمانه بأن المحافظة على الدستور هى غاية الجهاد ضد ميول الملك الأتوقراطية ، وعدائه لأماني الشعب فى الحكم الدستورى السليم ، لأن الدستور هو الرباط المحدد لعلاقة كل من الأمة والقصر بالآخر باعتباره الفيصل فى تحديد السلطات ، ومن ثم وجب على الملك احترامه ، كما يحترمه الشعب . أما والملك لا يحترم الدستور الذى أقسم له يمين الولاء - فإنه وجب من ثم ألا يحترم الشعب الولاء للملك ، ويجب محاربته والتشهير به وتحذيره مغبة ذلك ، فإن ظل على عبثه بالدستور وجبت فى النهاية الثورة عليه والإطاحة به . وهذا ما فعله العقاد فى محاربته ميول الملك الأتوقراطية والتى وصلت عام ١٩٣٠ إلى تأكيد أنه لولا وجود جيش الاحتلال فى مصر لثارت الأمة ، وبطشت بالملك وبأسرة محمد على كلها من أجل الدستور .

هذا ، فى حين كان الاستقلال التام هو الغاية الكبرى للحركة الوطنية الموجهة ضد الاحتلال ، أما والسياسة الإنجليزية لا تحترم الدستور المصرى ، ولا تزال تنتحل الأسباب لامتهانه والتدخل فى شئون الحكم الداخلية باسم التحفظات المحتفظ بها فى تصريح (٢٨ فبراير) ١٩٢٢ فقد وجب فى اعتقاد العقاد - أن يقفل هذا الباب تماما بطرح الدستور جانبا ، والعودة إلى الجهاد من أجل استخلاص حقوق البلاد كاملة .

على أن هذا الاعتقاد ينطوى على خطر كبير يكمن فى التزول عن حقوق البلاد الدستورية أمام مطامع الملك الأتوقراطية ، وذلك فى حالة طرح الدستور والتوجه إلى الجهاد من جديد فى مواجهة السياسة الإنجليزية . وهو ما يعنى التزول عن مكسب كبير حصلت عليه الأمة من ثورتها .

هذا إلى جانب ما فى هذا الاعتقاد من إيمان مشكوك فيه فى حقيقة مقدرة

الأمة على الثورة من جديد وتكرار حوادث ثورة ١٩١٩ ، وفى قدرتها على تحقيق المطالب القومية فى ثورتها الجديدة — فى حالة حدوثها — تلك المطالب التى عجزت عن تحقيقها أو الوصول إليها بثورتها عام ١٩١٩ . وعلى كل حال ، فقد ظل العقاد متمسكا بهذا الاعتقاد فى ضرورة الجهاد ضد الإنجليز ، حتى عام ١٩٣٥ ، وإن تخلى عن الجهاد ضد ميول الملك الأوتوقراطية منذ خروجه من السجن عام ١٩٣١ ؛ وهو ما سيظهر بجلاء فى هذا الفصل ، وفى الفصول التالية .

العقاد والمعركة الدستورية الثانية

١ - انهيار مظاهر الائتلاف فى الصحافة الحزبية :

إذا كانت أزمة قانون الاجتماعات قد مرت بسلام مع الإنجليز - فإنها فتحت الباب لهدم الائتلاف . والعودة إلى المهاترات الحزبية والصحفية : فى نفس المقال الذى عاد العقاد فيه إلى الحديث عن سياسة حسن التفاهم بين الحكومتين المصرية والإنجليزية ، وأثنى فيه على تقبل رجال السياسة الإنجليزية لموقف الحكومة المصرية فى حل الأزمة - هاجم فيه هؤلاء الذين يصفون موقف الحكومة المصرية بالضعف والتخاذل ، وكان يقصد الأحرار الدستوريين .[(١)]

وأعقب ذلك حدوث معركة صحفية عنيفة كانت بمثابة الشرارة الأولى لهدم مظاهر الائتلاف على صفحات الصحف الحزبية عندما زعمت «السياسة» أن هناك وثيقة أرسلها مصطفى النحاس إلى السير تشمبرلن ، يشكره فيها على روح التفاهم التى أبداها فى حل الأزمة ، وطالبت النحاس بنشر هذه الوثيقة ، «ليطمئن الجمهور إلى أن الحكومة لاتزال متمسكة بوجهة نظرها التى أعلنتها فى أثناء الأزمة» . وقابلت صحف الوفد هذا الزعم بنفى وجود مثل هذه الوثيقة ، وبالطعن فى «السياسة» متهمة إياها بالسعى لتعكير جو الائتلاف . وشارك العقاد فى تفنيد زعم «السياسة» .

---

(١) قدم محمد محمود استقالته الأولى من الوزارة النحاسية فى ٣ من مايو ، بسبب الطريقة التى حل بها مصطفى النحاس الأزمة . إذ رأى أنه كان يتعين عليه أن يترك مشروع القانون يأخذ مجراه فى مجلس الشيوخ برغم الإنذار الإنجليزى . أو يرفض الإنذار ويرفع استقالة الوزارة إلى الملك .

ثم ما لبث الخلاف بين « السياسة » وصحف الوفد أن تحول إلى معركة صحفية عنيفة تحولت إلى مهاترات شخصية غير مهذبة ، بدا فيها واضحا سعى « السياسة » لتعكير جو الائتلاف فى الوقت الذى حرص العقاد فيه على حصرها فى النطاق الشخصى بينه وبين محمد حسين هيكل رئيس تحرير « السياسة » ، دون مد نطاقها إلى الأحزاب المؤتلفة .

وبدأت هذه المعركة الصحفية عندما كذبت « السياسة » البلاغ الرسمى الذى أصدرته الوزارة النحاسية ، ونفت فيه وجود الوثيقة التى طالبت « السياسة » بنشرها ، واعتبر العقاد هذا التكذيب من جانب « السياسة » « هذيان » وقابلت « السياسة » هجوم صحف الوفد عليها بإقحام الأحزاب المؤتلفة فى معركتها مع صحف الوفد فكتبت تقول :

« هؤلاء هم الأحرار الدستوريون ، وذلك تاريخهم إن كنتم نسيتموه . فاذكروا موقفكم فى أيام ماضية حين كان السباب كل ما تملكون ، واذكروا نعمة الأحرار الدستوريين عليكم » الأمر الذى قابله العقاد يتحدى الأحرار الدستوريين متوعدا إياهم بالطعن – بصورة غير مباشرة – إذا برزوا فى المعركة الصحفية :
« فحبا وكرامة ، نحن نذكر بحمد الله نعم الأحرار الدستوريين علينا ، ولا نسأل الله إلا أن يذكرنا إياها ويزيدنا منها . . وللمستورين المكشوفين بعد هذا أن يموتوا بغيظهم وأن يتطاولوا بوجوههم إلى صفعة واحدة تنزل عليهم بردا وسلاما فلن يظفروا بتلك الصفعة المرموقة إلا يوم يبرزون » .

وأراد محمد حسين هيكل أن يقحم الائتلاف فى معركته مع العقاد ، فطالب الوفد بأن يعلن حرصه على الائتلاف بكف أقلام كتاب « البلاغ » (العقاد) عن هجو زعماء الأحرار الدستوريين ، ولكن العقاد فوت عليه هذه النية ، فاستبعد

الأحزاب المؤتلفة تماما من المعركة الصحفية ، وحولها إلى معركة شخصية بينه وبين هيكل ، ورد على طلبه السابق بقوله :

« هذا كلام أطفال يا ولد . . فتكلم كلام الرجال وإلا فاسكت ! تكلم واعرف عاقبة كلامك ولا تستصرخ الوفد ولا الأحرار الدستوريين ؛ فقد تركناك تلغو بما تشاء فيما تستجره من شأن هؤلاء وهؤلاء ولكننا لن نتركك حتى تعلم أن هذا التزق الذى تتماجن به على الناس شئ يسقط على أم رأسك ولو اعتصمت بأسباب السموات ، وإنك إن لم تزن كلامك وزناك أنت وكلامك معا ، وأريناك وأرينا من له عينان أنك كاتب بلا كتابة ، ومحام بلا محاماة ، وأنك سمج ثقيل لا يحمد منه التجنى على الصديق والقريب فضلا عن الغريب والبعيد » .

وبالرغم من هذا الحرص على عدم إقحام الائتلاف فى المعركة الصحفية أكد العقاد أن الوفد قوى لا تهزه صغائر محرر « السياسة » ولا الدستوريين وراءه .

ولكن (هيكل) أبى إلا أن يعكر صفاء الائتلاف ، فهاجم الوفد متهما إياه بالجبن والعجز عن الدفاع عن مسلكه فيما نسبت إليه السياسة ، وبالاحتماء وراء العقاد ؛ إذ كتب :

« هربوا من الميدان هروب الجبان ، وصدروا سفيههم ينضح من وعائه القذر من نتن وأوساخ ! وما كانت « السياسة » لتنازل السفهاء الأدنياء ؛ فقد كانت تناقش تصرفاً عجز أصحابه عن الدفاع عنه بعد أن أجمع الناس على خطئه وبعده البعد كله عن أن يكون فيه مصلحة البلاد ، ودفعهم ذلك العجز إلى الاحتماء وراء السفيه الذى نصبوه فى صحيفتهم كالعود القذر يمسح به كل ماش ما علق بيده أو رجله من أقذار .

« أما وقد هربوا وقد أصبح هذا شأنهم وصار هذا السفيه دريئتهم وحامل

لوائحهم – فإننا ننزه أقلامنا عن أن نذكر مخلوقا عاش عمره مأجور القلم والضمير لكل جبان يعجز أن يبرز بنفسه فى الميدان ، شأن كل من نبت فى مثل منبته فى كل زمان »

ولم يغير هذا الطعن من حرص العقاد على تجنب المساس بالائتلاف القائم أو الطعن فى الأحرار الدستوريين كما فعل هيكل ، وظل حريصا على جعل معركته معه معركة شخصية ، ورد عليه قائلا :

« أما نحن فكل ما نجيب به هذا الولد المسطول على هذه « التحفة » هو أن نقول له : غير الصنف أو غير الجرعة ! زدها شمعة أو انقصها شمعة ! فمن المؤكد أن الجرعة المعلومة من هذا الصنف وبهذا المقدار لا تسعفك ولا تصلح « للتجلى » فى الرقاعة ! . وإلا فأى ضير على الإنسان أن يكون عمودا يعلو على الحضيض ؟ وأى ضرر على العمود أن يحتك به الماشون أمثالك ليمسحوا أقذارهم وهو برىء من الأقذار ؟ وأى قذى على الإنسان أن يكون من منبت غير منبتك الذى تدل عليه أيها الولد المسكين .

« غير الصنف ، أو غير الجرعة ! أو تغير أنت إن كان فى وسعك أن تكون من بنى الإنسان ! » .

ويمكن القول بأن حرص العقاد على عدم المساس بالائتلاف ، أو الطعن فى الأحرار الدستوريين ، كان مرجعه إلى حرص الوفد على الائتلاف وقد ذكر العقاد أنه كان يتعرض لبعض اللوم من جانب الوفد كلما عنى بالرد على تحرش « السياسة » به أو بالوفد .

وكان العقاد حريصا أيضا على الائتلاف فى كتاباته التى تناول فيها سعى النواب الوطنيين فى مجلس النواب لإحراج حكومة النحاس بسبب ما تضمنه بلاغها –

الذى كذبت فيه ما نشرته « السياسة » عن وجود رسالة شكرت فيها الحكومة للحكومة الإنجليزية موقفها الودى من حل الأزمة ، وعن طلب النحاس من المندوب السامى إبلاغ حكومته امتنانه لما أعربت عنه من تفهم حقيق لرغبة الحكومة المصرية فى المسالة والصداقة مع احتفاظها بوجهة نظرها فى حقوق البلاد ؛ إذ رأى العقاد أن تعنت هؤلاء النواب مع النحاس ، وإخلالهم بالنظام داخل المجلس — قد دل على رغبتهم فى التحكم فيه . وسخر من الاستجوابات التى يتقدمون بها إلى الحكومة فى أمور واضحة فى بياناتها ، ولما عارضوا تعديل اللائحة الداخلية لمجلس النواب ، وانسحبوا مع نواب الأحرار الدستوريين من المجلس ؛ لكيلا يتحملوا مسئولية التعديل — رأى العقاد أن هذا المسلك لا يسوغه الائتلاف ، ولا المصلحة الوطنية ولكنه مع هذا بقى لا يكتب شيئا مضرا بالائتلاف .

٢ – مقدمات الانقلاب الدستورى الثانى :

فى السابع عشر من يونية ١٩٢٨ – وهو اليوم الذى استقال فيه محمد محمود من الوزارة النحاسية — كتب العقاد عن وجود « أزمة فى الجو » يراد بها هدم الحياة النيابية ، وليس مجرد إسقاط الوزارة النحاسية . إذ « لو كان المراد إسقاط الوزارة لتحل محلها وزارة أخرى على القواعد الدستورية التى تقضى بتأليف الوزارة من كثرة النواب لكان التدبير غير معقول ، وغير جدير بالرجة التى تحدث من أجله ، ولكن الذين يحركون خيوط المؤامرة قد وقع فى حسابهم أن إسقاط وزارة لم يمض غير أيام على إعلان الثقة الإجماعية بها (ماعدا صوتا واحدا) فى مجلس الشيوخ ، ولم يتحول مجلس النواب عن الثقة بها فى ظرف من الظروف — ليس بالأمر الذى يجوز الإقدام عليه فى عهد الدستور فى حدود الحكومة النيابية .

ويمكن القول بأن هذا الذى كتبه العقاد عن الانقلاب الدستورى المقبل كان هو تقدير الدوائر الوفدية ذاته لتطور الحالة السياسية فى البلاد ، وهذا ما يفهم من قوله .

« فإذا قلنا : إن المؤمرة التى نلمح أهدابها وحواشيها هنا وهناك إنما هى مؤامرة على الحياة النيابية – فذلك هو وصفها المطابق للحقيقة والذى نعلم عنه فوق ما يقال فى هذه الأيام » .

واعتبر العقاد استقالة محمد محمود حلقة من سلسلة الحلقات التى تدبر ضد الحياة النيابية والدستور ، وأدلى برأى الوفد فيها :

«وقد قرأنا فى الصحف أن صاحبها مصر عليها وأنه عقد النية على أن يتشبث بها ولا يرجع عنها . فإذا كانت هذه نيته فالذى رأيناه من الدوائر الوفدية التى حدثناها أنها لا تريد غير ذلك وأنها لا تنظر إلى تلك الاستقالة المخجلة إلا بهذه النظرة . ولو أنها رأت فيها رأيا آخر ما وسعها الإغضاء عن استياء الأمة وتذمر العقلاء»

وقد نبه العقاد القراء بمناسبة الاستقالة – إلى أن الوفد كان دائما الأحرص على الائتلاف منذ وفاة سعد زغلول . ويبدأ العقاد يشرح للقراء المؤامرة التى ينسج الأحرار الدستوريون خيوطها ضد الحياة النيابية من أجل الوصول إلى الحكم ، فذكر أن وزيرا منهم قد تقدم إلى جهة عالية بعريضة يقر فيها بإلغاء الحياة النيابية ويحمل على عاتقه كل تبعة تترتب على هذا الأمر الجسيم . وكان يقصد (إسماعيل صدقى) .

ثم مالبث أن دخل مع « السياسة » فى معركة صحفية عنيفة غلبت عليها المهاترات ، وتركزت حول إسماعيل صدقى الذى بات متوقعا أن يعهد الملك إليه بتأليف الوزارة التى ستحل محل الوزارة النحاسية . فشهر العقاد بعلاقته

بالشركات التي يستفيد منها على حساب البلاد . وتناول تشهيره أيضاً (محمد محمود).

وازداد هجومه عنفا . ومال إلى إثارة القراء عندما تكشفت خيوط المؤامرة ، ودعت صحيفة « السياسة » إلى حل مجلس النواب ، وإجراء انتخابات جديدة ، إذ بادر إلى إثارة الرأى العام ضد الأحرار الدستوريين بلهجة عصبية . ومن ذلك ما قاله :

« أهذا جهد ما يجب أن تشتغل به مصر ، وهذا غاية ما تنتهى إليه كلما خرجت من صراع أليم تفنى فيه القوى وتتبدد فيه الأواصر والجهود ؟ على رءوسكم الباغية أيها المجرمون ، فلتسقط الجريرة الطامة التي ما ارتفع إليها رأس إلا كان أولى به الذل . وعلى ضمائركم – إن كانت لكم ضمائر – ورر هذا البلاء الذى ما كان أغنى الأمة عنه لولا أنكم من أبنائها . . وأسفاه» .

وقد حمّل العقاد الإنجليز مسئولية التآمر على الحياة النيابية ، مؤكدا أنهم وراء الأحرار الدستوريين فى مسعاهم لإحداث الانقلاب المرتقب ، ولكنه لم يحمل الملك – محدث الانقلاب – أية مسئولية ، والأكثر من ذلك أنه دعاه فى ذات اليوم الذى أقال فيه الوزارة النحاسية . وبمناسبة نشر وثائق قضية الأمير سيف الدين [1] إلى التدخل لإنقاذ الحياة النيابية مما يدبره ضدها الأحرار الدستوريون .

---

(١) نشرت الصحف المعارضة فى ٢٢ يونية ١٩٢٨ وثيقة محرفة لاتفاق كان قد عقده النحاس وويصا واصف وجعفر فخرى فى فبراير ١٩٢٧ بخصوص الدفاع عن الأمير سيف الدين – الذى أطلق النار على الملك فؤاد حينما كان لا يزال أميرا فى مايو ١٨٩٨ – لاتخاذ الإجراءات القانونية لرفع الحجر عنه . وإعادة جميع أملاكه إليه ، التى كانت موضع تصرفات شكوك فى نزاهتها وتقدر بعدة ملايين من الجنيهات .

وبالرغم من أن النحاس نزل عن توكيله فى القضية بعد أن ولى رياسة الوزارة فإن الصحف المعارضة نشرت صورة محرفة للاتفاق على أتعاب القضية الذى عقده النحاس وزميلاه . واستغلتها للطعن فيه . وفى نزاهته طعنا عنيفاً مبتذلاً !

وكان إخلاء الملك من أية مسئولية تجاه الانقلاب الدستورى الثانى . وإلصاقها بالإنجليز — هو تقدير الوفد ذاته فى البداية .

على أن العقاد سرعان ما أدرك دور الملك فى الانقلاب من الطريقة التى أقيلت بها الوزارة . وبالرغم من أنه لم يصرح بذلك فإن ما كتبه فى تعليقه على هذه الإقالة يفهم منه إدراكه لهذا الدور . إذ كتب يقول :

« أقيلت الوزارة للسبب الذى يراه القراء فى غير هذا المكان ، وتسجلت فى تاريخ البلاد سابقة كانت غريبة قبل عهد الدستور ، بل قبل عهد جيل فى تاريخ هذه البلاد ، فإذا تذكرنا أن مجلس النواب يحل مثنى وثلاث ورباع وأن الوزارات التى يثق فيها البرلمان تقال على هذا المنوال — فقد أصبح فى الإمكان أن يفسر الدستور المصرى تفسيرا لا ندرى ما الفرق بينه وبين ما كنا عليه قبل عهد الدستور ، وقد أصبحت ثقة البرلمان برئيس الوزارة لا تضمن له من الثبات ما كان مضمونا لنزيور باشا يوم انتكث ائتلافه . وخلت فى عهده أربع وزارات » .

٣ — معركة العقاد مع حكومة محمد محمود :

إن وصف كتابات العقاد الصحفية ضد وزارة محمد محمود بالمعركة ليس من قبيل الأوصاف الإنشائية الخالية من الدقة ؛ ففى الحقيقة ، ليس ثمة وصف أدق منه يمكن إطلاقه على كتاباته فى تلك الفترة التى بلغ فيها ذروة عنفه وعصبيته الممزوجة بروح التحدى وزاد من أهمية كتاباته هذه كثرة قرائه وعناية الناس بكتاباته حتى أصبحوا — على حد تعبير المؤرخ أحمد شفيق — ينتظرون مقاله ليستبينوا فيه وجهة نظر الوفد ، واتجاه تياره السياسى [١]

(١) لم يكتف العقاد بمقالاته الصحفية فى معركته مع نظام محمد محمود ، بل وضع فى =

وقد دارت كتاباته تجاه وزارة محمد محمود حول الأفكار الرئيسية .

١ - إن الوزارة « عقد محالفة » بين القوة الغاصبة (الإنجليز) والقوة الرجعية (القصر) فى هذه البلاد ، ظاهر من تلفيق الوزارة على الوجه الذى روعيت فيه ميول الفريقين ، وأما شروط هذه المخالفة فهى بطبيعة الحال تحقيق مايرومه الفريقان من إمضاء المعاهدة الثروتية والقضاء على الحياة النيابية ، وجميع ذلك يتحقق عندهم بشىء واحد هو مسخ الدستور والإتيان بنواب يشار إليهم فيطيعون » .

ولكن بالرغم من أن تأليف وزارة محمد محمود جعل العقاد أكثر إدراكا لدور القصر فى الانقلاب فإنه لم يهاجمه ، ولاذ إزاءه بالصمت فى الوقت الذى ظل يحمل على الإنجليز مؤكدا مسئوليتهم الكبرى فى إحداث الانقلاب ، وقيام الوزارة .

٢ - إن التجربة الدستورية فى مصر لم يكن فيها ما يستدعى إحداث ذلك الانقلاب ؛ لأن « التجربة البرلمانية الأولى بمصر لأصلح من كل تجربة برلمانية عرفناها فى الأمم الدستورية القديمة والحديثة ، حتى ليجوز لنا أن نقول : إن كل عيب فى تطبيق الدستور إنما جاء من نقص الحقوق الدستورية لا من زيادتها واتساعها » .

٣ - إن الغرض من إقامة وزارة محمد محمود هو هدم الوفد . وانطلاقا من

=عام ١٩٢٨ كتابين : أولها « اليد القوية فى مصر » ولم نعثر عليه ، « ويدل عنوانه على أنه موجه ضد وزارة محمد محمود . والآخر « الحكم المطلق فى القرن العشرين » ، وفيه دافع عن الديمقراطية والحرية الإنسانية وهاجم الدكتاتورية وقدم بعض صور لأنظمتها فى أوربا .

هذا الاعتقاد حرص العقاد على جذب الأمة للالتفاف حول الوفد فى معركته مع النظام الجديد ، وذلك بجعلها جوهر الصراع بين الوفد وخصومه . فأكد أنه ليس ثمة ذنب للوفد عند خصومه إلا حرصه على دستور الأمة واستقلالها .

وظل يكرر أن قوة الأمة التى تمنحها الوفد هى القوة التى يكافح بها خصومه ؛ « فقوة الوفد هى قوة الأمة ، وأزمة اليوم هى أزمة الكفاح بين الإنجليز والرجعية وبين القوة التى من أجلها لا يتم للإنجليز والرجعيين ما يبتغون »

وفى ذات الوقت الذى كان العقاد يستجمع فيه الأمة حول الوفد ، مشيدا بقوته المستمدة من قوة الأمة – دأب على تمجيد زعامة مصطفى النحاس له ، بعد أن تعرض لأفظع عملية تشهير تعرض لها سياسى مصرى ، بسبب وثائق قضية الأمير سيف الدين ، فحرص العقاد على تأكيد استحقاق النحاس لمكانة سعد ، ومن ذلك ما كتبه :

« لقد سمعنا خطبة النحاس فسمعنا قضاء مبرما على الأدعياء والدساسين ، وسمعنا سعدا فى بلاغته ، وسعدا فى جلالته ، وسعدا فى تهكمه ، وسعدا فى إصغاء السامعين إليه وتأمينهم عليه ، وسمعنا كلمة من كلمات النهضة الوطنية المعدودات فى القوة والمضاء والأثر البعيد » .

كما حرص على أن يرفع من مقام مصطفى النحاس بالنسبة لمحمد محمود رئيس الوزارة : مثال ذلك ما كتبه ردا على قول محمد محمود أنه أحد زملاء سعد الأنداد . وإن النحاس ليس إلا تابعا لسعد ، إذ قال :

« . . وتقول : إن الذين يعملون اليوم باسم سعد هم أتباع سعد وإنك أنت الزعيم النديد لا تكون لسعد من الأتباع فمن هؤلاء الأتباع يا صاحب الدولة ؟ أليس منهم رئيسك مصطفى النحاس الذى وقفت منه موقف المطيع من المطاع

والتابع من المتبوع ولم يكن هو مرءوسا لك ، ولا تابعا لك فى يوم من الأيام؟ أليس هو الذى أهويت على يديه تريد أن تقبلها وأقسمت له أن تظل فى خدمته قبل الوزارة وبعدها وهممت أن تترك الأحرار الدستوريين حين خذلوك وهزءوا بك لتنضوى إلى زعامته فى الوفد بعد انضوائك إلى زعامته فى الوزارة ؟» .

٤ - الطعن فى الأحرار الدستوريين :

وفى الوزارة وأعضائها ، ورئيسها . كان واضحا أنه يسعى بطعنه فى الأحرار الدستوريين إلى إثارة كراهية الرأى العام ، ويدل على ذلك الأفكار التى دأب على ترديدها فى مقالاته ، فهم : خدام السياسة الإنجليزية وأعداء للأمة . وهم يفرقون بين فئات الأمة ، وهم وزارة هزيلة مفككة ، تحمل فى داخلها جميع عوامل الفناء . وطعن فى أعضاء الوزارة بعنف ، الذين رآهم سيئى الخلق ، ومنعدمى الكفاءة .

أما كتاباته عن محمد محمود رئيس الوزارة فقد تركزت على شخصه ، وكانت مزيجا من العنف والسخرية والتشهير . ومن أمثلة عنفه مع محمد محمود ما كتبه : «يا ابن محمود سليمان ! والله لأنت أعجز من أن تتصرف فى أهلك وماشيتك هذا التصرف الذى تسومه خمسة عشر مليونا . لم يولدوا ولم ينهضوا ويسفكوا الدم ويبذلوا المال لتكون أنت صاحب دولة يفرح بك أبوك فى أيام الحياة . فقل لمصر ما شئت إن دستورك وحريتك فداء منصبى وادعائى تقل لك وهى أصدق قيلا وأدرى بما تقول : بل أنت وحدك ومنصبك إدعاؤك وكل من لك ومالك فداء دستورى وحريتى . وأنه لفداء زهيد» .

ومن أمثلة سخريته منه ما كتبه :

« خطيب بلا هوادة . . ومن هو الخطيب ؟ هو محمد محمود العى الألكن المنكر الصوت المسلوخ . كأنه عجائز الجوارى ينشدن فى محافل الزار ! هذا هو خطيب الوفود ورب الجنود والضارب على الدنيا فى غير هوادة . . بلسان من قصدير ويد من . . حديد » .

ومن أمثلة تشهيره به قوله :

« أبذكاء الفكر وقوة العارضة تشبه سعداً . وأنت — اسم الله عليك — لم تحصل على الشهادة الابتدائية إلا بالمعجزة التى تعلمها ، ولم تسافر الى بلاد الإنجليز إلا هربا من الشهادة الثانوية التى ما كنت لتنالها ولو بقيت فى المدارس إلى يومك هذا ولم تكن إلا الأخير فى كل ترتيب وفى جميع الفصول ، فهذه سجلات « نظارة المعارف » شهود عدول ، وهؤلاء زملاؤك أحياء يشهدون إن ذهبت من مخازن « النظارة » تلك السجلات . وامتد تشهيره به إلى الطعن فى نزاهته » ويروى لويس عوض أن حملات « البلاغ » على محمد محمود التى كان يقودها العقاد كانت سببا فى رواجها لدرجة نفاد أعدادها ، كما كانت سببا فى بعض الأحايين فى اشتعال مظاهرات الطلبة مطالبين بالدستور وبسقوط الحكم القائم .

وفى ١٥ سبتمبر ١٩٢٨ عطلت «البلاغ» لمدة أربعة أشهر ولم يكتب العقاد خلال هذه الفترة سوى أربع مقالات سياسية . كتبها فى الصحف الأسبوعية الأربع التى استأجرها عبد القادر حمزة ، لإصدارها بدلا من « البلاغ » وهى : « الساعة » و « الوجدان » و « النجمة الزهراء » و « الابتسام » .

وفى « الساعة » أكد العقاد أن « ساعة الخلاص من هذه الغاشية ستأتى لا

محالة : كما أتت قبلها ساعات الخلاص من غواشى هذه الأمة » ، وحمل بعنف على محمد محمود : « دكتاتور الأمة ، ونازع دستورها ومضيع استقلالها ، والطامع منها فى أن تلين لحكم الاستبداد بعد أن جاهدته جيلين من عهد اسماعيل » ويلاحظ أنه ازداد عنفا فى هجومه على محمد محمود بعد تعطيل « البلاغ » .

وفى مقاله الثانى الذى كتبه فى « الوجدان » عمد العقاد إلى إثارة القضاء على الوزارة التى أحالت عددا من المستشارين إلى المعاش قبل بلوغهم السن القانونية ، وحرض القضاة ضد إجراء الوزارة هذا ، الذى اعتبره إهانة لهم ، وزاد فى مقاله الذى كتبه فى « النجمة الزهراء » من تجسيم هذا الإجراء ، فأكد أن (محمد محمود) كان قد مد سن التقاعد لمستشارى محكمة الاستئناف الأهلية إلى سن الخامسة والستين ، أسوة بالمستشارين الأجانب ، ثم إذا به يفصلهم اليوم لغير سبب الا رغبة منه فى إخلاء أماكنهم لبعض المقربين إليه .

أما مقاله فى صحيفة « الابتسام » ، فقد حمل فيه بعنف على فصل الوزارة للطلبة الوفديين الذين يشتغلون بالسياسة ، فى الوقت الذى تسمح فيه بذلك للطلبة الذين ينتمون لحزب الأحرار الدستوريين .

وعاد « البلاغ » إلى الصدور فى ١٦ يناير ١٩٢٩ – بعد انقضاء مدة تعطيلها – تحمل فى صدر صفحاتها الأولى مقالات العقاد ، كما كانت تفعل قبل تعطيلها . واستأنف العقاد حملاته العنيفة على الوزارة ذاكرا مساوئها ومطالبا إياها بالاستقالة : «لأن سبعة أشهر قضيتموها فى الحكم وادعين آمنين من الأزمات الأجنبية . ولم تقض الوزارة النحاسية غير ثلاثة أشهر فى أشد المشاكل والأزمات ثم ها هو ذا حسابكم لم يسفر عن عمل واحد نافع ، ولا عن وعد واحد محقق» .

وما لبث العقاد أن ترك الكتابة فى « البلاغ » منذ ٢٣ فبراير ١٩٢٩ . وروى

أسباب خروجه من « البلاغ » فى خطاب أرسله إلى صديقه محمد طاهر الجبلاوى فى ذلك الوقت ، فقال :

« إنى تركت « البلاغ » أو لجئت إلى تركه الجاد . ولكن الوفد يستمهلنى إعلان ذلك إلى حين .

« وخلاصة المسألة أن صاحب البلاغ قد عاد بعد استئناف العمل وهو شديد الخوف على جريدته ، ولم تمض أيام حتى صارحنى بالرغبة فى الإقلال من الكتابة خوفا على الجريدة .

« فكنت أكتب يوما بعد يوم وكان فى بعض الأيام التى يقع علىّ فيها دور الكتابة يخاطبنى بالتليفون ليقول لى : إنه سيكتب فلا لزوم لإتعاب نفسى « ثم عمد إلى بعض الصبيانات التى يعلم أنها لا تطاق فخرجت يوم السبت ٢٣ فبراير ١٩٢٩ مغضبا ومضت أربعة أيام بعد ذلك لم يحاول فيها أقل محاولة لإزالة هذا الغضب ، ثم أرسل إلى كتبى وأوراقى دون أن أطلبها ، فكانت نحو نيته الحقيقية التى لاخفاء بها الآن ، وكل ما آسف له أن اضطر للسكوت فى وقت لا أوثر فيه السكوت ، ولكن لابد لكل ذلك من تغيير» .

وروى العقاد بعد ذلك بأكثر من أربع سنوات ، رواية أخرى مشابهة لهذه الرواية ، وأضاف إليها أن الباعث الذى دفع عبد القادر حمزة إلى إخراجه من « البلاغ » هو رغبته فى موالاة الحكومة حرصاً على بقاء صحيفته . وأقام الدليل على ذلك بأن « البلاغ » أمنت بعد خروجه منها بطش الحكومة ، فلم تعطل بعد ذلك .

ويضيف العقاد « أن هنالك محررا يعمل حتى الساعة فى صحيفة البلاغ قد زارنى عقب الخلاف بينى وبين صاحبه ، وعرض على بلسان أناس لا يجهلهم صاحب البلاغ أن أدع الكتابة ولى فى كل شهر مبلغ كبير من المال يصل إلى منزلى مادمت

ألتزم السكوت ، وكان مما قيل فى ذلك الحين إن كل صحيفة أكتب فيها ستغلق أو ينال صاحبها السوء ولو كانت أدبية أو كانت كتابتى فيها لا تخوض فى السياسة . فأنا مضطر إلى السكوت على كل حال . . ومن الحزم أن أقبل المال الذى لا ضير فيه» . وأكد أنه رفض قبول هذا العرض .

وقد أعاد العقاد رواية هذه الملابسات عام ١٩٦٣ بعد تحريفها تمجيداً فى نفسه . فقال : «أما الموقف الآخر فهو الموقف الذى توالى فيه تعطيل البلاغ بعد صدوره فى عشرة أيام بنحو عشرة أسماء . ثم عاد البلاغ إلى الصدور بعد إخراجى وإخراجى منه . وبقى منتظماً فى صدوره عدة أشهر» . فغنىّ عن البيان أن «البلاغ» لم تصدر بأسماء مختلفة إلا أربع مرات فقط ، كما سبق القول . كما أن «البلاغ» كانت قد عادت إلى الصدور قبل خروج العقاد منها بأكثر من شهر . وليس بعد خروجه كما ذكر فى روايته .

وقد ردد عدد من الكتاب هذه الرواية الأخيرة . ولاسيما أصدقاء العقاد الذين حرصوا على استغلالها تمجيداً لصاحبهم . فكتب محمد خليفة التونسى يقول :

«ومن الأمثلة على أن قلم العقاد وحده كان القلم المرهوب المقصود بالمصادرة والإسكات — ما لقيه من وزارة «اليد الحديدية» فى سنة ١٩٢٨ ، فقد أغلقت جريدة البلاغ اليومية التى كان العقاد يوجه منها حملاته ضد هذه الحكومة جزاء عدوانها على حرية الأمة . ولم يجد صاحب البلاغ أمام هذا التعسف غير إصدار سبع مجلات أسبوعية تتداول الظهور أيام الأسبوع ؛ كل منها فى يوم . فأغلقت الحكومة المجلات السبع بجرة قلم واحدة ، فلما ترك العقاد التحرير فى «البلاغ» لم تغلقها حتى نهاية عهدها يوماً واحداً مع توالى حملات «البلاغ» عليها» .

وكتب محمد طاهر الجبلاوى ، يقول : «وقد أصبح لمقالات العقاد السياسية

قوة يحسب حسابها فى انتصار الوفد وهزيمة خصومه وإسقاط وزارتهم ، فلجئوا إلى إغلاق الصحف التى يكتب فيها ، وقد أغلقت لصاحب «البلاغ» خمس صحف فى أيام متوالية . . وعاد «البلاغ» إلى الظهور وعاد العقاد إلى الكتابة فيه ، ولكن صاحبه طلب إليه تخفيف الحملة على الوزارة ، ثم طلب منه أن يكتب يوماً بعد يوم ، ثم تنحى العقاد أخيراً عن الكتابة وبذلك كتب للصحيفة البقاء ! »

أما عبد القادر حمزة فله رواية أخرى عن الملابسات التى انتهت بخروج العقاد من «البلاغ» وهى :

«إن الأستاذ العقاد كان يتناول مرتباً شهرياً ٤٠ جنيهاً . . وكنا فى شهر فبراير وكان البلاغ قد عطل قبل ذلك أربعة أشهر انتهت فى ١٥ يناير ، فكان كل الزمن الذى مضى على صدور البلاغ بعد تعطيله لا يزيد على شهر واحد ، وكنت تحملت فى التعطيل خسائر ، فكان واجباً على أن ألتزم شيئاً من الدقة فى المصروفات . وحينئذ لاحظت أن الأستاذ العقاد سحب من صندوق الجريدة كل مرتبه عن شهر فبراير مع أننا كنا لا نزال فى ١٥ فبراير . فاسترعيت نظره إلى ذلك بلطف فيما بينى وبينه دون أن أصدر أمراً بشأنه إلى الصندوق .

«وبعد ثلاثة أيام إذا بالأستاذ العقاد يطلب من الصندوق نقوداً فسألنى الصراف ، فأمرت له بما أراده ، ثم كلمته مرة ثانية فيما بينى وبينه وأظهرت له الصعوبات المالية التى أنا فيها بعد خروجى من التعطيل ، فأقر ملاحظاتى كلها وأعذارى كلها ، ووعدنى ألا يطلب أكثر من مرتبه ، ولكن لم يمض يومان على هذا الوعد حتى عاد يطلب نقوداً . وفى ذلك اليوم كانت وزارة الداخلية طلبتنى بشأن من الشئون لا أتذكر الآن ما هو ، ولكنى أتذكر جيداً أننى عدت منه مهموماً حانقاً ثائر النفس . وما كدت أدخل مكتبى حتى جاء صراف الجريدة يخبرنى خبر

النقود التى يطلبها الأستاذ العقاد ، فدهشت وقلت للصراف : اعتذر للأستاذ العقاد ، لأننى لا أستطيع أن أصرف له كل ما يريده بغير حساب . فلما وصل هذا الجواب إلى الأستاذ العقاد إذا به يثور ، ثم يخرج فى ردهة المكتب ويتفوه فى صوت عال بألفاظ شتم موجهة إلىّ أمام الموظفين الذين كانوا مجتمعين ، ثم إذا به يخرج بعد ذلك منصرفاً إلى داره .

«ولم تبلغنى ألفاظ الشتم فى بادئ الأمر ، بل بلغنى فقط أن الأستاذ العقاد خرج غاضباً ، فأرسلت إليه فى مساء اليوم نفسه زميلاً من زملائه المحررين قابله فى داره ، ودعاه من قبلى إلى العودة إلى عمله فى اليوم التالى ووعده بتسوية مسألة النقود التى يطلبها على الوجه المرضى ، فرفض الأستاذ العقاد وقال له إن له مطالب أخرى لابد من إجابتها أيضاً .

«وفى اليوم التالى لم يحضر الأستاذ العقاد وبلغتنى كلمات الشتم التى وجهها إلى علناً فى مكتبى ، وعلى مسمع من الموظفين ، فرأيت أن أبلغه أن عودته إلىّ «البلاغ» صارت مستحيلة ، وأمرت ، فحمل أحد الخدم إليه كل الكتب والأوراق التى كانت له فى مكتبه .

«وعلى إثر ذلك سعى الساعون فى الإصلاح وألحوا ، فشرحت لهم ما وقع وقلت : أكتفى من الأستاذ العقاد بأن يعتذر عما صدر منه ، فقالوا : إنه منكر ألفاظ الشتم ، فقلت : إذن أكتفى بأن يقول هذا الإنكار أمام الموظفين ؛ فلم يقبل ، ولم أقبل أيضاً أن يشتغل معى من يعرف الموظفون أنه شتمنى وأنه لم يعتذر إلىّ وانقطع الحبل بهذا .

«تلك هى قصة خروج الأستاذ العقاد من «البلاغ» فهل يرى أحد أنى أحرجته حتى أكرهته على الخروج ، أو يرون بالعكس أننى فتحت الباب أمامه للعودة إلى

عمله ؛ وأنه ليس فى الدنيا صاحب عمل له كرامة فى نفسه يقبل أن يشاركه فى عمله من يشتمه أمام موظفيه ثم لا يعتذر ؟» .

وكان من بين الذين سعوا لإصلاح الخلاف بين عبد القادر حمزة والعقاد من أجل عودة الأخير إلى عمله فى «البلاغ» كل من : مصطفى النحاس ، ومكرم عبيد ، ومحمود فهمى النقراشى ، وواصف غالى ، ومحمد نجيب الغرابلى . ودل تدخل كل هؤلاء على حرص الوفد على تجنب أى تصدع فى قوة صحيفته الأولى التى يحارب على صفحاتها النظام القائم .

ولم يكذب العقاد رواية عبد القادر حمزة ، ورد عليها بالهجو فيه مؤكداً أنه صاحب الفضل فى المال الذى حاول عبد القادر حمزة منعه عنه ؛ إذ قال :

«وكم ألفٍ من الجنيهات دخلت فى صندوقه من موارد تلك المدة؟ بماذا أستحقها إن لم يكن بالمقال الواحد الذى كان يكتبه كاتب هذه السطور ؟» .

وليس ثمة خلاف جوهرى بين الروايتين اللتين رواهما العقاد وحمزة إلا ما هو متعلق باعتقاد العقاد بأن عبد القادر حمزة يقصد إخراجه من «البلاغ» لكى يمالئ الحكومة حرصاً على صحيفته ؛ فما لا شك فيه أن عبد القادر حمزة كان حريصاً على اجتناب تعريض صحيفته للتعطيل مرة أخرى ، والتعرض لخسائر مالية بعد الخسائر التى لحقته بسبب تعطيلها . وخصوصاً أن الوزارة أصدرت فى ٢٩ يناير ١٩٢٩ بلاغاً رسمياً هددت فيه الصحف التى تحقرها أو تطعن فيها أو تشهر بها بالتعطيل تعطيلاً نهائياً قابله العقاد بالتحدى : «إننا لا نعلم ما هو الانتقاد الجائز لنا ؟ ولكننا أخذنا على أنفسنا أن ننتقد كل ما لا يجوز فى رأينا ، ننتقد كل

ما لا يجوز فى رأينا نحن لا فى رأى الوزارة ، فإذا جاء اليوم الذى لا نقول فيه إلا ماتراه الوزارة فقد سقط عنا واجب القول ، وأصبح تحطيم هذا القلم وإطلاقه على حد سواء» .

كما قابله بالاستمرار فى التشهير بالوزارة ، وعلى هذا طالبه عبد القادر حمزة بالإقلال من الكتابة . ولعله طالبه أيضاً بالإقلال من عنفه فى لهجته .

ومما لاشك فيه أيضاً أن عبد القادر حمزة كان حريصاً على ضبط مالية الصحيفة ونفقاتها بعد الخسائر المالية الكبيرة التى لحقته بسبب تعطيلها ؛ مما جعله يمتنع عن صرف أى مبلغ للعقاد الذى كان حتى ٢٢ فبراير ١٩٢٩ - وهو اليوم السابق على خروجه من البلاغ - قد حصل على كل مرتبه عن شهر فبراير إلى جانب مبلغ ١٥ جنيهاً من مرتبه عن شهر مارس ! وهو الأمر الذى عده العقاد تصرفات صبيانية المقصود بها إحراجه ودفعه إلى ترك الصحيفة ، فقابلها بشتم عبد القادر حمزة الذى اضطر إلى تسوية الأمر بما يرضى العقاد من الناحية المالية قبل أن يعلم بأمر الشتم ، فلما علم به أبى السماح له بالعودة إلى عمله فى «البلاغ» إلا إذا اعتذر . وأنكر العقاد الشتم ، ورفض الاعتذار . ورفض أن ينكره أمام من تم أمامهم . وذهبت محاولات قيادة الوفد للتوفيق بينهما سدى إزاء إصرار كل منهما على موقفه .

على أنه يجب القول بأن اعتقاد العقاد أن عبد القادر حمزة تعمد إخراجه من «البلاغ» بقصد ممالأة الحكومة اعتقاد لا أساس له من الصحة ؛ لأن «البلاغ» استمرت على خطتها المعادية للحكومة باعتراف مصطفى النحاس زعيم الوفد الذى قال فى خطبته التى ألقاها فى الذكرى الثانية لوفاة سعد زغلول :

«. . . وقد أرادوا إحراج «البلاغ» ، ولكن الأستاذ عبد القادر حمزة كان أبياً ، وكان وطنياً وفياً . وقد بدأت المساومة على خمسة آلاف جنيه ، فاحتقر

العرض ورفضه بإباء . ولم يكن الغرض من شرائه أن يطعن فى الوفد . بل ان يخرج على خطة الأمة ويؤيد المقترحات ، وهو وشأنه فى الثناء على الوفد بما يريد » .

وهكذا انتهى عمل العقاد فى صحف عبد القادرة حمزة الذى دام من سبتمبر ١٩٢٢ إلى فبراير ١٩٢٩ ، وكان يكتب طوال هذه الفترة مقالاً سياسياً يومياً ، باستثناء يوم واحد فى الأسبوع ، إلى جانب مقال أدبى أسبوعى صار يكتبه فى « البلاغ » الأسبوعى منذ صدوره فى ٢٦ نوفمبر ١٩٢٦ ، وحتى خلافه مع عبد القادر حمزة ، ودارت هذه المقالات حول نقد المؤلفات الحديثة ، والتعليق عليها . وهى ذات المقالات التى ضمنها كتابه « ساعات بين الكتب » .

أما عن طبيعة العمل الذى كان يمارسه فى صحف عبد القادر حمزة - وخصوصاً البلاغ - إلى جانب كتابة مقالاته - فقد أكد العقاد أنه كان يقوم على إدارتها ، ولا يستريح ، ولا يتخلف إلا لضرورة قاهرة فى الوقت الذى كان عبد القادر حمزة مشغولاً فيه بشئونه الخاصة . فى حين أكد عبد القادر حمزة أن عمل العقاد فى « البلاغ » لم يتجاوز كتابة مقاله اليومى .

ويمكن القول بأن العقاد كان يقوم ببعض الأعمال الصحفية فى « البلاغ » إلى جانب كتابة مقالاته : ومن أمثلة ذلك سفره فى صيف ١٩٢٥ إلى الإسكندرية لإنجاز بعض الأعمال الخاصة « بالبلاغ » وتوليه رياسة تحريرها فى أثناء سفر عبد القادر حمزة إلى ألمانيا فى ربيع ١٩٢٨ لحضور مؤتمر الصحافة الدولى وعلى هذا يمكن القول بأن العقاد كان الرجل الثانى فى « البلاغ » بعد صاحبها على الأقل من الناحية التحريرية .

ثم ما لبث العقاد بعد تركه « البلاغ » أن التحق بالعمل فى « كوكب الشرق » ، وكان ذلك فى الأسبوع الثانى من شهر مارس ١٩٢٩ ، ولم يكتب فيها سوى ثلاث

مقالات ، ثم عطلتها الحكومة فى ١٧ مارس ، وليس ثمة معلومات عن ظروف التحاق العقاد بالكتابة فيها ، وإن كان من المرجح أن قيادة الوفد التى أخفقت فى محاولاتها لإعادته إلى «البلاغ» هى التى ألحقته «بكوكب الشرق» للاستفادة من طاقته الصحفية ، وعدم تعطيلها إبان المعركة التى كان الوفد يخوضها ضد نظام الحكم القائم .

وقد حاول العقاد أن يوحى بأن الحكومة عطلت «كوكب الشرق» بسبب كتاباته ضدها وسعيها منها لاضطهاده ، وردد النغمة ذاتها عدد من الكتاب ، بيد أن ذلك غير صحيح ، فقد عطلت «كوكب الشرق» ؛ لأنها نشرت تفاصيل اعتداء رجال الأمن على النواب والشيوخ الوفديين الذين ذهبوا إلى قصر عابدين فى ١٥ من مارس ١٩٢٩ - عيد الدستور- ليطلبوا من الملك إعادة الحياة النيابية ، وكان هذا النشر خرقا لتعليمات إدارة المطبوعات بعدم نشر أى شىء عن هذا الموضوع ، وجاء فى قرار تعطيلها : «إنها ما زالت تدأب على نشر الأكاذيب بطريقة مثيرة للخواطر ومخلة بالنظام العام» .

ثانياً : العقاد فى صحف محمد توفيق دياب :

بقى العقاد دون عمل فى الصحافة السياسية ، منذ تعطيل «كوكب الشرق» حتى أوائل أغسطس ١٩٢٩ ، عندما التحق بصحف محمد توفيق دياب التى أصدرها فى الإسكندرية .

ففى صحيفة «النديم» كتب العقاد أربع مقالات سياسية دارت حول إقالة لورد لويد من منصبه كمندوب سام لبلاده فى مصر ، واستخلص العقاد من هذه الإقالة عدة دلالات :

الأولى – أنها دليل على فشل السياسة التى جرى عليها لويد فى مصر .

والثانية – أن الحكومة الإنجليزية لم تخدم مصر بعزل اللورد لويد ، ولكنها خدمت نفسها ، وخدمت السياسة البريطانية على وجه العموم بعد أن أساء لويد إلى علاقتها بالدول الأجنبية .

والثالثة – أن هذه الإقالة قد كشفت النقاب عن حق المصريين فى جميع المشاكل التى وقع الخلاف عليها بينهم وبين لويد .

وبنى على هذه الإقالة وجوب استقالة وزارة محمد محمود التى تنفذ سياسة لويد الفاشلة ، ورأى أن عليها أن تبحث عن وسيلة لتبرير استقالتها بما تسميه بمشروع المعاهدة التى لن تستطيع إبرامها : «فإن عرضوا على هذا الوطن المكلوم المهان ما يسمونه اتفاقاً أو مشروعاً للاتفاق فلن يدور البحث على المعاهدة : هل هى مقبولة أو مرفوضة ؟ ولكنه يدور على صفة الوزارة فى إجراء هذه المحادثات : هل هى مما ترضاه الأمة أو لا ترضاه ؟ والنتيجة لا يختلف عليها عاقلان» .

وسفه العقاد دعوة محمد محمود إلى الائتلاف ولم الصفوف بعد عودته من مفاوضاته مع مستر هندرسون ، ورأى أن الوزارة تريد بهذه الدعوة «استغفال» الأمة برضاها ، وطعن فيها وفى الأحرار الدستوريين ، وأكد أن من الخير لهم أن يتركوا القضية المصرية «التى لن تنقص على أيدى غيرهم ولن تزيد على أيديهم» .

ثم كتب العقاد عدة مقالات فى صحيفة «المهذب» التى أصدرها محمد توفيق دياب بعد صحيفة «النديم» والأرجح أن هذه المقالات دارت حول الموضوعات التى دارت عليها مقالاته فى «النديم» .

وقد روى العقاد أنه كتب فى صحيفتى «النديم» و«المهذب» بياناً مجملاً عن

المصروفات السرية التى أنفقتها وزارة محمد محمود ، وأنه طالب الوزارة بالرد على بيانه ، فأوعز محمد محمود إلى «بعض المأجورين» أن يلوحوا له بالتحقيق والمحاكمة ، ولكنه لم يحفل بهذا التلويح ومضى فى تحديه لمحمد محمود ، وكتب أنه لايزال فى انتظار رد الوزارة على بيانه الذى نشره ، ولكن «الطاغية المضحك فى تجبره وضعفه ذهب يقول بلسان مأجوريه : إنه سامحنا ولا يذهب بنا إلى النيابة إشفاقاً على وحدة الأمة لا على نفسه ، ورغبة فى الوئام ، لا رغبة فى ستر هذه الفضائح المخزيات» .

والأرجح أن العقاد كتب بيانه السالف ذكره فى صحيفة «المهذب» لأنه لم يرد ضمن كتاباته فى «النديم» .

ثالثاً : العقاد فى صحف أحمد حافظ عوض :

ومنذ ٣ من أكتوبر ١٩٢٩ ، بدأ العقاد يكتب المقال الرئيسى فى صحيفة «مصر» التى شارك أحمد حافظ عوض بهيئة تحرير صحيفته «كوكب الشرق» فى تحريرها منذ ٣٠ من سبتمبر ١٩٢٩ ، وكان مقاله يأتى فى الصفحة الأولى إلى اليمين ، كما كانت الحال فى صحف عبد القادر حمزة وصحف محمد توفيق دياب ، ولقبته «مصر» بالأستاذ الكبير.

وفى «مصر» طفق العقاد يطعن ويشهر بمحمد محمود ووزارته التى كانت قد استقالت فى ٢ من أكتوبر ١٩٢٩ ، ومن ذلك قوله :

«هذا كثير عليه بل هذا أكثر من الكثير ، وإن أفضى جميعه إلى الزوال ، وإن «محمد محمود» لفائز بأوفى ما يفوز به من حظ فى هذه الدنيا إذا قيل يوماً واحداً إنه كان رئيس وزارة ، وكان حاكماً بأمره ، وكان اسماً مسموعاً فى وقت من

الأوقات . ولو قيل مع ذلك : إنه كان أشأم رئيس وزارة وأهزل حاكم بأمره ، وإنه كان مسموعا بأشنع ما سمعه الأولون والآخرون . فقل فيه ماشئت . واحكم عليه بما حكمت ، فهو صاحب الصفقة الكاسبة ولو هوى بك النقد إلى أسفل سافلين . إن « محمد محمود » لأهون من أن يحسب له حساب بعد ما أصابه من التنويه وإن قضى بقية حياته فى قوارع الطرقات أو غيابات السجون . وإن « محمد محمود » لفائز وإن شيعته اللعنة إلى منتهاه لأنه أصغر من أن يلعن فى التاريخ » .

كما طعن فى الوزارة المستقيلة ، ورأى أن إصلاح مساويها مسألة وطنية وليست حزبية . وفى أعضائها ولا سيما أحمد لطفى السيد الذى وصفه بالمتحذلق الذى لا يفهم شيئاً على حقيقته البسيطة ولا على استقامته الطبيعية . وفى الأحرار الدستوريين وخصوصاً عندما اعترضوا على إجراء الوزارة العدلية الانتخابات لمجلس النواب دون مجلس الشيوخ .

وبسقوط وزارة محمد محمود حدث تغيير هام فى كتابات العقاد الصحفية تجاه كل من الملك والإنجليز : فبالنسبة للملك — أظهر العقاد غيرة شديدة على مقامه الذى رأى أن الوزارة لم تحترمه فى كتاب استقالتها الذى ذكرت فيه أنها تولت الحكم إجابة لرغبته ، وأن برنامجها السياسى كان محل قبوله وهو ما رآه العقاد إلقاء لمسئولية أعمالها السياسية والإدارية على الملك . وربما قصد العقاد — بغيرته الشديدة هذه — غمز الملك ، وإظهار شماتته فيه لسقوط الوزارة التى أقامها فى الحكم بدون سند شعبى ، ورضى عن برنامجها السياسى الذى ألغى الحياة النيابية ، وعطل الدستور .

وبالنسبة للإنجليز — أظهر العقاد حرصاً شديداً على مودة حكومة العمال القائمة فى الحكم ، فأثنى كثيراً على سعيها لحل المشاكل الدولية طبقاً لمبادئ الديمقراطية.

والسلام ، وأظهر تعجبه لما تردده بعض الصحف الإنجليزية من أن رفض المقترحات الإنجليزية سيعد فشلاً لحكومة العمال من شأنه أن يثير عليها خصومها فى بلادها . وتساءل . «كيف يفوتها (الصحف الإنجليزية) أن أمة كالأمة المصرية هى آخر من يود تعريض حكومة العمال للصدمات وتمكين المستعمرين من الانتصار ؟ فإذا هى استطاعت بعمل واحد — هو الاتفاق الشريف على القضية الوطنية — أن تحفظ حقوقها وأن تقدم لأنصار الديمقراطية فى إنجلترا غصنا يضعونه فى إكليل الفوز الذى يؤيدون به سياستهم ، ويثبتون به مبادئ حزبهم — فلا خسارة عليها فى ذلك بل لها فيه كل الكسب وكل الانتصار» . . وفضلاً عن ذلك عاد العقاد يتحدث عن حسن التفاهم بين مصر وإنجلترا .

* * *

وانتقل العقاد إلى «كوكب الشرق» عندما أعاد أحمد حافظ عوض إصدارها فى ٣ من نوفمبر ١٩٢٩ . وصار يكتب مقالها الرئيسى الذى كان ينشر فى الصفحة الأولى على اليمين . وكانت كتاباته امتداداً لكتاباته فى «مصر» حيث دارت حول الأمور الآتية :

١ — التشهير بالأحرار الدستوريين :

استأنف العقاد تشهيره وطعنه فى الأحرار الدستوريين ووزارتهم المستقيلة ، فأكد أن «محمد محمود» لم يكسب مصر شيئاً من سياسة المسالمة للشعوب الشرقية التى تسير عليها حكومة العمال ؛ لأنه ذهب إلى لندن وفى نيته تأخير الكلام فى القضية المصرية ، ويدل بذلك على غبائه وجهله بأطوار السياسة ؛ واستغل جميع المناسبات للطعن والتشهير العنيف بشخص محمد محمود ، وأعضاء وزارته المستقيلة .

٢ - التقارب مع الحكومة الإنجليزية :

واستأنف العقاد أيضاً فى «كوكب الشرق» كتاباته المشوبة بروح الود عن حكومة العمال ، وبدا واضحاً أنه يعمد إلى استقطاب الرأى العام إلى الثقة بها وبقوتها وعطفها على حقوق الشعوب الشرقية . ولا شك أن موقف العقاد من حكومة العمال قد أملاه إدراكه لدورها فى تغيير الحالة السياسية فى البلاد ، وإيمانه بأن البلاد مقبلة على عهد جديد ، يجب فيه تهيئة الجو الصالح للتفاهم بين الوفد الذى بات منتظراً أن يتولى مقاليد الحكم ، وبين هذه الوزارة .

٣ - انتخابات عام ١٩٢٩ .

وقد طغت الأمور المتعلقة بالانتخابات على اهتمام العقاد منذ صدور المرسوم الملكى بإجرائها فى الثانى من نوفمبر ١٩٢٩ ، حتى إجرائها فى الحادى والعشرين من الشهر نفسه ، وحرص العقاد فى كتاباته على تمجيد الوفد وحكمته وإصلاحاته التى قدمها للبلاد فى فترات حكمه السابقة . وعلى الطعن بشدة فى الأحزاب المنافسة ، كما عالج بعض القضايا المتعلقة بعملية الانتخابات ، وناقش الدروس المستفادة من نتيجة الانتخابات والتى رأى أن أظهرها وضوحاً هو أن مبدأ الوفد هو مبدأ الأمة كلها .

والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن العقاد فاز بالترشيح (بالتزكية) فى هذه الانتخابات عن دائرة بولاق ، وكان واحدا من ١٠٥ مرشحين فازوا بالترشيح فى هذه الانتخابات . وكان تعليقه على ذلك : «القول فى نتيجة الانتخابات بالترشيح غنى عن إطالة التعليق : ثقة تامة بالوفد المصرى وخذلان تام لخصومه ، وليس هذا

بجديد ولا هو بالأمر الذى كان فيه شك عند أحد من الأنصار والخصوم ؛ فالوفد بالإيجاز هو الأمة ، والبرلمان المصرى بالإيجاز هو الهيئة الوفدية ما عدا أفراداً قلائل هنا وهناك هم الشذوذ فى هذه القاعدة ، ولابد فى كل قاعدة من شذوذ » .

٤ – العقاد يستقبل الحياة النيابية :

ويلاحظ أن سقوط الانقلاب الدستورى الثانى ، وعودة الحياة النيابية – قد جعل العقاد أكثر حرصاً على الدستور ، وأكثر تحفزاً لمقاومة محاولات الرجعية للعبث به ، فقد هددها بالثورة إذا هى أقدمت على تكرار عبثها به ، وذلك فى رده على ما كتبه توفيق دوس تعليقاً على ما كتبه مستر « بارتلت » فى إحدى الصحف الإنجليزية ، من أن هناك نية منطوية على إلغاء الدستور بعد إبرام المعاهدة ، وحديثه عن هذه النية كأنها أمر مقرر قريب الوقوع ؛ إذ رأى العقاد أن الاتحاديين لا يطمعون إلا فى المناصب التى يعلمون أنهم لن يصلوا إليها مع وجود الدستور ، ولذلك فهم يطمعون فى حدوث صدام بين الإنجليز وبين البرلمان المقبل ينجم عنه تعطيل الحياة النيابية ، وقيام وزارة رجعية فى الحكم .

وتوقع أنهم قد يقدمون على إلغاء الدستور بعد إبرام المعاهدة ، وخروج الإنجليز من ميدان الصراع السياسى الداخلى ، وقابل العقاد هذه الاحتمالات بالتهديد بالبطش ، وبالثورة على من يقدم على العبث بالدستور ، ولاشك أنه قصد الملك ، وإن لم يشر إليه ؛ لأنه الوحيد الذى يستطيع الإقدام على هذا العمل ؛ إذ كتب يقول :

« فهل تريدونها كلمة موجزة تغنيكم عن الإسهاب ؟ إذن فاعلموا أن دون هدم الدستور قطع الرقاب . وأن هذه الأمة – إن أطالت صبرها على العابثين

بالدستور — فإنما كانت تصبر إشفاقاً على قضية البلاد . فإذا تبين لها أن الراحة من قضية لاتريحها من عبث الرجعيين فهناك اليأس الجامح . وهناك الغضب الجهنمى ، غضب من يرى أمامه جرثومة الشر لا أمان معها بحال ولا راحة من نكايتها إلا بالقضاء عليها . والقضاء عليها ليس بالأمر العسير على أمة مدفوعة إلى اليأس بعد صبر ضاقت به الصدور » .

وكان العقاد قد سفه قبل ذلك هؤلاء الذين لاموا الأمة المصرية ، لأنها لم تثر على انقلاب محمد محمود ، وبنى ذلك على « أن الأمم لا تثور حتى تيئس ، فمن ظن أن الحوادث التى منيت بها مصر فى الأزمات الدستورية حوادث ميئسة فهو الملوم فى ظنه القاصر ؛ لأنه لا يفقه طبيعة اليأس ولا طبائع الأشياء ولا الظروف التى علمت هذا الشعب المصرى أن يرجو فى موضع الرجاء وييئس فى موضع اليأس ، ولا يستعد لشىء بأكثر مما يلزمه من العدة الكافية ، وذلك ما قد فعله الشعب المصرى فى كل أزمة من أزمات الدستور » .

وبقى العقاد مؤمناً بوجوب البطش بالملك إذا أقدم على العبث بالدستور ، حتى إذا قامت الأزمة التى دفعت بالوزارة النحاسية إلى الاستقالة — ثار فى مجلس النواب مهدداً « بسحق أكبر رأس فى البلاد » ، وهو ما سيرد الحديث عنه بالتفصيل بعد .

٥ — الوزارة النحاسية الثانية :

وبتولى الوزارة النحاسية الحكم فى الأول من يناير ١٩٣٠ صار العقاد بوقاً من أبواقها الصحفية ، وكان أولُ ما كتبه فى عهدها شكراً وثناءً على عدلى يكن ووزارته المستقيلة التى « كان قيامها قضاء على » « الدكتاتورية » واعتزالها احتراماً

للدستور خير قدوة للوزارات التى تتولى الحكم لأنه خدمة قومية ، لا ، لأنه زهو ومظهر ، ولا لأنه كسب ومتجر» . وإيضاحاً لمغزى تولى الوفد الحكم بعد عودة الحياة النيابية ، حيث رأى أن الحكم حق للوفد .

«بل الحكم واجب على الوفد» .

«لأن تخلى الوفد عن الحكم معناه التخلى عن تكاليف الدستور ، معناه إلغاء وجود البرلمان ، معناه تسليم البلاد إلى نوع من الحكم الناشز الذى نبتلى به كلما تعطلت الحكومة النيابية ، وصار الأمر إلى دعاة الرجعية والاستبداد ، وخدام المنفعة والاستعمار ، معناه تعريض كل فرد للأذى بغير حماية من القانون ولا من العرف المأثور ، معناه كم الأفواه وتحريم المباح وإغلاق الصحف وتهديد الأبرياء وإفساد نظام المصالح والدواوين واستئثار منصر المجرمين بخيرات البلاد وتوزيعها جزافاً على الصنائع والأذناب وخدام الشهوات» .

ثم طفق العقاد يرسم للوزارة صورة على عكس الصورة التى رسمها فى مقالاته لوزارة محمد محمود ، فأبرز الأساس الشعبى للوزارة النحاسية : «بضاعة الوفد ردت إليه ، بل بضاعة الأمة ردت إليها ، فاليوم تنال الأمة حقها ؛ لأنها مصدر السلطات ؛ وتؤدى الوزارة الدستورية واجبها ؛ لأنها وزارة مطالبة بالحقوق والقيام بالواجبات» .

وأثنى كثيراً على أعضائها ، وعقد مقارنة بينهم وبين أعضاء وزارة محمد محمود الذين ذمهم وحط من مقامهم . ووصف الوزارة النحاسية بأنها : «حكومة العمل المتواصل والعقيدة التى صحت على الإصلاح والإنجاز» .

ولما ألقى رئيسها خطبة العرش أمام البرلمان — وصف العقاد هذه الخطبة بأنها : «لم تكن هى الوعد الأول كما جرت العادة فى خطب العروش ، بل كانت هى

الدليل الأول على صدق العقيدة أو النموذج الأول لما تستطيعه الحكومة من الإصلاح الكثير والإنجاز المحقق إذا تقدمت خطواتها فى هذا المنهاج».

ورأى أن هذه الخطبة «رد صادق على أولئك الذين كانوا يزعمون أن الوفد هيئة بغير برنامج معروف؛ فإن الخطبة وحدها برنامج شامل للعظائم والصغائر والخارجيات والداخليات والسياسة وإصلاح المرافق فى جوانب الحياة الوطنية على الإجمال والتفصيل. فإن لم يكن هذا برنامجاً تحاسب به الوزارة وتقاس به درجات تقدمها فليس لكلمة البرنامج إذن معنى مفهوم».

ومن هذا المنطلق ظل العقاد يعاضد الوزارة فى جميع أعمالها التى كان أهمها ثلاث مسائل أساسية هى :

المسألة الأولى : سعى الوزارة لحماية الدستور، وهو السعى الذى تمخض عنه مشروع قانون محاكمة الوزراء الذين يقدمون على قلب الدستور أو العبث به.

وقد أيد العقاد هذا المسعى من جانب الوزارة، وأيدها فى اتصالها بالإنجليز لتحقيق هذا الهدف، لأنها «لا تتعدى المعقول ولا يكون عملها منافياً لروح الاستقلال؛ فقد عرفنا أن الدستور لم يعطل قط إلا باعتداء على حدود استقلالنا، فلا حرج علينا أن نطلب الكف عن ذلك الاعتداء، أو نطلب الضمان لنا من تكراره وإقامة الحدود بيننا وبين من يُخْشَى اعتداؤهم فى المستقبل».

المسألة الثانية : هى المتعلقة بإجراءات الوزارة الخاصة بفصل المديرين وكبار الموظفين والعمد المتهمين بتأييد وممالأة نظام محمد محمود، وهى الإجراءات التى قوبلت بالاستياء، والقلق من جانب الموظفين وغير الموظفين.

وأيدتها الصحف الوفدية، وعارضتها الصحف المعارضة. وقد أيد العقاد الوزارة فى جميع إجراءاتها هذه التى رأى أن الغرض منها جعل الموظفين عوناً على

صيانة الدستور ، وحمل على المعارضة التي تناوئ الوزارة ، وتشهر بإجراءاتها هذه ، ودافع عن اتهام الوزارة بالحزبية في إجراءاتها ضد الموظفين والعمد .

المسألة الثالثة : هي مسألة المفاوضات . وقد أكد العقاد منذ البداية حرص الوفد على الوصول إلى تسوية شريفة مع الحكومة الإنجليزية . فكتب رداً على ما كتبه مراسل «المانشستر جارديان» في حديث له مع النحاس من أن إرجاء الرد المصري على المقترحات البريطانية قد يؤدي إلى أن يتصور المرء أن مستر هندرسون قد مد يده ، وطال امتدادها في الفضاء : رأى العقاد أن المراسل لم يوفق إلى الصورة المجازية الصحيحة ؛ لأن «اليد التي بسطها مستر هندرسون للسلام قد صوفحت في حينها ، وقوبلت رغبة الحكومة البريطانية في الوفاق برغبة مثلها لا تزال تتردد في كل مناسبة وعلى ألسنة الزعماء المسئولين ، ولا يعقل إلا أن يكون الأمر كذلك ومصر ترغب في السلام ، وتعرف معنى التحية التي حيتها بها الحكومة البريطانية» .

وأكد أن الحكومتين الإنجليزية والمصرية ترغبان في الوفاق الذي لا يرضاه إلا من ينظر إلى الأمور السياسية من وجهة نظر شخصية كالأحرار الدستوريين وأذنابهم في السياسة المصرية . واللورد لويد وأذنابه في السياسة الإنجليزية .

ولما تقرر إجراء المفاوضات تفاءل العقاد ، وكان تفاؤله مستمدا من «أن الرغبة في الاتفاق قوية بين البلدين والقائمين بالمفاوضة أهل لكل ما تنتظره الأمة من أمثالهم في هذا العمل الخطير ، والظروف تبدو لنا مهيأة للوصول إلى الوفاق الشريف الوطيد» ، ومن إجرائها مع حكومة عمالية : «مشهود لرجالها بالحكمة وسعة الصدر ، قد سلكوا في القضية المصرية مسلكاً يدل على بعد النظر وحسن التدبير حتى في الوقت الذي بدا فيه على حسب الظواهر أنهم تنكبوا الجادة ، وأخلفوا ظن

الذين اعتقدوا فيهم حب الحرية وكراهة العسف والجبروت ! » ، ومن وجود سير برسي لورين فى مكان المندوب السامى الذى سيكون له «رأى فى المفاوضات يساعد به على تعريف حكومته بمعلوماته التى استفادها من مصر ، ودلت أعماله المشبعة بالرصانة وروح المودة ؛ فإن الأشهر التى قضاها فخامته فى هذه البلاد قد أكسبته مكانة شخصية جليلة فضلاً عن مكانته الرسمية بين جميع الذين عرفوه وعاملوه ، وهو بما طبع عليه من دماثة الخلق وسعة الصدر خير من يساعد على تسهيل المفاوضة وجلاء الغوامض وتقريب الآراء» .

وتصدى العقاد للرد والتشهير بخصوم المفاوضات فى كل من مصر وإنجلترا ، فحمل بعنف على الأحرار الدستوريين الذين طالبوا النحاس بإعلان برنامجه فى المفاوضات ، والذين يتصلون على حسب ما روته «كوكب الشرق» — ببعض الدوائر الإنجليزية الحزبية والصحفية للعمل على تعكير جو المفاوضات ، كما حمل على الصحف الإنجليزية ، متهما إياها بالعمل على إدخال الشك فى نية الوفد فى الصداقة والوفاق مع الإنجليز .

وسفه أقوال الذين يسعون لإدخال الشك حول إمكان الوصول إلى تسوية للمسألة المصرية فى هذه المفاوضات بالحديث عن ضعف مركز حكومة العمال فى بلادها ، وعن قرب سقوطها ، وإجراء انتخابات جديدة بغرض تصويرها فى صورة الحكومة العاجزة عن الوصول إلى الاتفاق الذى يبغيه المصريون .

ويلاحظ أن كتابات العقاد عن سير المفاوضات كانت قليلة ، فرأى أنها بدأت فى «جو صالح من الثقة المتبادلة والتصريحات الودية من الجانبين» .

ولما ترددت الأنباء عن تعثر المفاوضات سعى لتهيئة الرأى العام لتقبل صدمة الفشل المحتمل ، فأثنى على تمسك الوفد بموقفه فى المفاوضات ، ورآه تضحية

بالمنصب فى سبيل القضية المصرية ومستقبل البلاد .

ولما قطعت المفاوضات فى الثامن من مايو عام ١٩٣٠ بسبب الخلاف بين الطرفين حول مسألة السودان – أيد العقاد موقف الوفد الذى وصفه بأنه «لم يخط خطوة إلا سوغتها الخطوة التى قبلها والخطوة التى بعدها على السواء ، ولم يعمل شيئاً إلا الذى يجب أن يعمل فى كل مقام» .

وطفق يشيد بموقف الأمة المؤيد للوفد فى موقفه فى المفاوضات ، ويهاجم أولئك الذين ينتقدون موقف الوفد فى كل من مصر وإنجلترا .

واتبع العقاد موقف الوفد من الحكومة الإنجليزية بعد فشل المفاوضات ، فأكد حرص الأمة المصرية على العلاقات الودية مع الإنجليز ، وحرصها على الوصول إلى اتفاق معها مستقبلاً .

واتخذ العقاد من معارضة الأحرار الدستوريين للوزارة موقفاً عنيفاً ، فدأب على التشهير بهم بما يسىء إلى نزاهتهم ، وهدفهم من المعارضة . وقد تحول تشهيره فى بعض الأحيان إلى «رص» ألفاظ الشتم والسب ، ومن ذلك ما كتبه عن محمد محمود :

«الحقيقة أن مصر مسكينة ، ولو لم تكن مسكينة ما قامت فيها هذه الضجة حول مخلوق كمحمد محمود ، لو بيع فى السوق كما يباع الذين شفاههم مثل شفتيه وأنوفهم مثل أنفه وجباههم مثل جبهته ورءوسهم مثل رأسه – ما زاد فى السعر عن خمسة ريالات» .

وما كتبه عن محمد على علوبة : «الحق على ضغط التصفيق ، لا عليك يا ميمون ! والحق علينا لو ناقشناك وناقشنا أمثالك كما يُناقش الآدميون ، فارقص

يا محبوب الشبان الأحرار ، وكن محبوباً لهم أبد الآبدين ، تحية الله عليك وعليهم أجمعين !

وكقوله فى أحمد لطفى السيد : «وبعد فالوفد غير صالح للحكومة ولا للإشراف على قضية البلاد . . !

ومن الذى يقول ذلك ؟

يقوله أحمد لطفى السيد المعتوه بشهادة الطب والأطباء ، لطفى السيد الذى دب السوس فى دماغه فاستأصله مبضع الجراح . لطفى السيد الذى لو سئل اليوم عن وزارة المعارف أو عن الجامعة المصرية أو عن دار الكتب ما عرف من أمورها شيئاً ، وهو الذى كان يشغل مناصبها السنوات بعد السنوات . لطفى السيد الذى لا يفقه كلاماً على استقامته من رأى قديم أو حديث» .

ورفض العقاد الدعوة التى رددتها بعض الصحف للوفاق بين الوفد والأحرار الدستوريين ، إذ رأى أن المقصود بها خداع الأمة والتغرير بها ، وأنها فى حقيقتها دعوة للاتفاق مع اللصوص وقطاع الطرق . كما رفض الدعوة التى وجهها أحد الساسة المصريين اتخذ لنفسه اسم (عظيم) — من على صفحات «المقطم» إلى الصحف الحزبية للكف عن الخوض فى الأشخاص والأعراض .

وكان رفضه لها قائماً على أنه كيف يستجيز «عظيم» لنفسه أن يدعو الوفديين إلى مصافحة أناس نزلوا بالخصومات السياسية إلى حضيض من الخيبة واللؤم ليس دونه حضيض ؟ أفى الدنيا أحزاب سياسية تتجر بالفضائح الملفقة كما تتجر به عصابة الأنذال من ذباب المجتمع والعائشين على مثالب الأعراض ؟ أفى الدنيا أحد يصدق أن هؤلاء الزعانف يغارون على الفضيلة ويتقززون حنقاً على الشرف ، وما فيهم — اللهم اكفنا السوء — إلا ملوث العرض ، يعلم الناس من عرضه ما يعلم . . . وأن

ما يعلمه من ذاك لفوق الكثير .

«ألمثل هؤلاء توجه الدعوات الحزبية ، ولقد – والله – كرهنا السياسة وأوشكنا أن نكره القضية المصرية من أجل هذه النذالة التي يعي بها الوصف ويضيق عنها الكلام ؟» .

العقاد والمعركة الدستورية الثالثة

١ – مقدمات الانقلاب :

لم يتوقع العقاد حدوث أي تغيير في الحالة السياسية القائمة في البلاد بعد انقطاع المفاوضات الإنجليزية المصرية . وأرجع ذلك إلى أنه ليس ثمة ما يدعو الأمة أو الوزارة أو الإنجليز إلى إحداث هذا التغيير . «أما جلالة الملك فمن حق هذا المقام الرفيع أن نكتفي هنا بأن نقول : إن جلالته ليعلم من مساعي أعداء الدستور وأعداء العرش فوق ما يعلم الناس في مصر والخارج . فجلالته لا يريد تغييراً يصيب الحياة النيابية ويفتح الأبواب لمساعي أعداء العرش والدستور» .

وكان ذلك دليلاً على الرغبة في الاحتفاظ بالعلاقة الودية مع القصر ، والتي بدأت منذ عودة الحياة النيابية باستثناء تهديده له – تحت اسم الرجعية – بالثورة إذا أقدم على العبث بالدستور . وتلميحاً إلى أن الخطر على الدستور هو في الوقت نفسه خطر على العرش وللجالس عليه .

وذهب العقاد في إظهار المودة للملك إلى حد التملق ، فأشاد بإيمانه بالحياة النيابية . وبالرقابة البرلمانية : فعندما تناول مشروع القانون الذي أعدته الوزارة

لمحاكمة الوزراء الذين يقدمون على قلب الدستور ، أو تعديل حكم من أحكامه بغير الطريقة التي رسمها الدستور – كتب يؤكد أن حماية الدستور «رغبة للملك التي أعرب عنها للكاتب الألماني «إميل لودفيج» وترجمتها الصحف المصرية قبل بضعة أسابيع : فجلالته يعتقد أن هذه الأمة لا يمكن أن تحكم بغير الرقابة البرلمانية ، ويبدى ارتياحه لخلاص مصر من ذلك الشيء الذى كان يسمى بالدكتاتورية ، وهى رغبة سامية يعبر عنها القانون المسنون لحماية الدستور أحسن تعبير» .

على أنه يجوز القول بأن العقاد لم يقصد قلب الحقائق والثناء على إيمان الملك بالحياة النيابية ، وإنما قصد إلى تذكيره بما سبق أن قاله للكاتب الألمانى فى هذا الصدد ، وإظهار ترقب الصحف والرأى العام لموقفه الحقيقى من حماية الدستور .

ومهما يكن قصده الذى سعى إليه – فإنه تخلى عن موقفه من الملك إزاء العقبات التي وضعها أمام الوزارة بالنسبة لموضوع القانون السابق الإشارة إليه ، فهدده – بصورة غير مباشرة – لموقفه هذا ، وكتب يقول :

«وستبين الأيام لمن يجهلون أن هذه البلاد لا تطيق العبث بكرامتها ولا تقبل على شرفها وسمعتها ومصلحتها أن تظل ألعوبة تتقاذفها كل من حدثته نفسه باللعب وآمن عاقبة هذا اللعب الوبيل» .

وبادر باستقطاب الرأى العام نحو الوفد ، فى موقفه المتأزم ، فأبدى أسفه لهذه العقبات التي توضع فى طريق الوزارة فى الوقت الذى تحتاج فيه إلى كل وقتها لمعالجة الأزمات الاقتصادية . ثم شرح أهمية القانون فى الحفاظ على حقوق الأمة والبرلمان والملك ، والأخطار التي تتعرض لها البلاد من جراء إهمال حماية الدستور . وأكد

بإلحاح أن القانون الذى توضع فى طريقه العقبات هو ضمان مصلحة الأمة ، والحريات القومية والفردية .

ولم يكن هذا التهديد للملك إلا بداية الجولة الأخيرة فى محاربته له ، والتى بلغ فيها ذروة ثوريته فى محاربته أتوقراطية الملك ، وبلغ فيها قمة عنفه وعصبيته وانتهت به إلى قضاء تسعة أشهر فى السجن :

ففى اليوم الذى نشر فيه هذا المقال – فى ١٧ من يونية ١٩٣٠ – وقف العقاد فى وسط الجو الحماسى الذى ساد مجلس النواب عقب إعلان مصطفى النحاس استقالة وزارته بطريقة مؤثرة ، ليصبح : «لقد كان فى مصر وزارة طاغية (وزارة محمد محمود) وقد طلبت إلى صاحب الأمر إيقاف الحياة النيابية وتعطيل الدستور وحماية حكمها فأجيبت إلى طلبها ، واليوم فى البلاد حكومة دستورية تطلب صيانة الدستور فتوضع فى طريقها العراقيل والعقبات والحشرات التى لا تعيش إلا من دماء الأمة فما تنتظر بعد هذا ؟ هل هناك شك فى أنه من الواجب أن يصان الدستور ؟

«ألا فليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس فى البلاد فى صيانة الدستور وحمايته» . وقد قوبل هذا التهديد من العقاد للملك من جانب النواب بتصفيق حاد متواصل ، جعل أحمد ماهر رئيس المجلس يدرك خطورة الأمر ، فاعترض مضطرباً : ما هذا يا أستاذ عباس ! أنا لا أسمح بمثل هذا الكلام ! ولكن العقاد أصر على موقفه ، وأضاف قائلاً :

«أنا أقول ومازلت أكرر أننا جميعاً مستعدون للتضحية فى المحافظة على الدستور ومقاومة كل من يعبث به . إن البلاد جميعها على أتم استعداد للتضحية ولا نريد أن تعترضنا الألاعيب والصغائر فى كل خطوة من خطواتنا ، وليس

الدستور هو الذى يلعب به ؛ لأن الأمة قد جاهدت فى سبيل الحصول عليه ستين عاماً ، وضحت فى هذا السبيل بالأرواح الغالية والأموال الطائلة فليس من اللائق بنا أن نظل فى كل آن عرضة للكائدين . وإذا كان هناك دليل على أن الوزارة محقة فى عملها فهو أن تستقيل هذه الوزارة ، وهى حاصلة على ثقة المجلس الثقة الإجماعية ، وفى هذا كفاية لتأييدها وإعلان الأسف الشديد على الحالة التى دعتها لتقديم هذه الاستقالة» وقد قوبل هذا الاستطراء بالتصفيق من جانب النواب :

وقد نشرت «السياسة» نص تهديد العقاد للملك من دون «الأهرام» والصحف الوفدية الصباحية ، وأكدته «المقطم» فى عددها الصادر فى اليوم التالى . وحذفت «كوكب الشرق» نص تهديد العقاد ، وإصراره عليه فى روايتها لما جرى فى هذه الجلسة التاريخية ، وأحلت محله عبارة :

«إن البلاد جميعها على استعداد لمواجهة جميع الظروف وملاقاة الصعاب ! »

وقد عدت «السياسة» هذا التهديد معبراً عن نفسية الوفد ونوابه :

«ولولا هذا ما صفق النواب ، ولولا هذا لرأينا الوفد يعلن فصل هذا النائب من حزبه ، ولرأينا مجلس النواب يعلن فصله من عضويته على حسب نص الدستور» .

وثمة سؤال هام يثور فى هذا الصدد : هل كان تهديد العقاد للملك فؤاد على هذا النحو ، وقبول النواب الوفديين له بالتصفيق الحاد المتواصل الذى تم على مشهد من كبار رجال الدولة — سبباً فى إقدام الملك على تعطيل الحياة النيابية ، وإلغاء دستور ١٩٢٣ ، كتحد لمجلس النواب الوفدى والدستور الذى يصارع الملك عليه ؟ فقد روت صحيفة «الشعب» بعد ذلك أن تهديد العقاد كان سبباً لما تبعه من كوارث على الوفد ، كما روى عبد القادر حمزة ، هو الآخر أن الواقفين على

بواطن الأمور يعرفون أن تهديد العقاد هو الذى أطاح بمجلس النواب وبالحياة النيابية ، وبدستور ١٩٢٣ ، وليس ثمة معلومات متوافرة للإجابة عن هذا السؤال .

ومهما يكن الأمر فإن صمت الوفد إزاء هذا التهديد وانطلاق العقاد فى الطعن فى الملك ، وحاشيته إلى الحد الذى جعله يحرض على كراهيته والثورة عليه — قد أعطى الفرصة للجميع للاعتقاد بأن هذا التهديد ، والمقالات العنيفة التى أعقبته معبرة تمام التعبير عن رأى الوفد . ولا ينفى ذلك سعى العقاد لكى يدخل فى روع قارئه أنه قال : «إن البلاد مستعدة — ويجب أن تكون مستعدة — لأن تسحق كل رأس يخون الدستور ، وليس «أكبر رأس» واتهامه «المقطم» لتأكيدها صدور التهديد منه ، بتعمد الوشاية به ، لحقدها عليه .

وفى اليوم التالى لما حدث فى مجلس النواب — بدأ العقاد حملة عنيفة على الملك وحاشيته فأكد أن قبوله استقالة الوزارة النحاسية برغم تمتعها بالتأييد الشعبى والبرلمانى ، وبرغم أن خلافها مع القصر قائم حول مشروع قانون نص عليه الدستور ، وورد ذكره فى خطبة العرش — سيكون دليلاً على الأحوال المعكوسة فى مصر ، ودليلاً على أن الوفديين رجال أعمال ومبادئ ، لا رجال أقوال وتمسك بالمناصب . ورأى أن الأزمة السياسية الجديدة حلقة من سلسلة أعمال الرجعية التى دأبت منذ إنشائها لحزب الاتحاد على العبث بالدستور وبالحياة النيابية وكرامة الأمة ، وعاد يهدد الملك :

«إن الرجعية لن تنجو بآثامها كل يوم على حساب الأمة المنكوبة التى هى أحوج إلى وقتها لتدبر شئونها وتصلح مفاسدها لا لتقضى اللبانات الصغيرة التى لم تفارق رءوس الرجعيين» .

ولما قبلت استقالة الوزارة ، علق العقاد على المرسوم الملكى الصادر بقبول الاستقالة ، والمتضمن شكر الوزارة على الأعمال التى أنجزتها ، متهما الملك بأنه عدو للأمة ، عامل على جمودها ، إذكتب يقول :

«إن أبناء هذه البلاد يعرفون رجالهم كثيراً ، ويعرفون أكثر من ذلك لماذا يبغضهم أنصار الرجعية والاستعمار . فالذى يشهد لرجال الأمة لا أعداؤها الذين يضربون عليها الحجْر ويريدون لها الجمود . وقد شهدت الأمة شهادتها وقالت كلمتها فالمسألة مسألتها ، وليست هى بالناظر المتفرج ، وسنرى عما قريب إلى أى مصير تصير الأمور؟» .

٢ - المعركة ضد الملك .

ولم يكن لدى العقاد أدنى شك فى أن الملك - لا الإنجليز - هو مدبر الانقلاب الدستورى الثالث انطلاقاً من أن الرجعية كانت وراء كل انقلاب يهدف إلى تعطيل حكم الدستور وإقامة حكمها المطلق . وشرح مسئولية الملك فى هذا الانقلاب ، فقال إن الرجعية سعت من قبل المفاوضات إلى التمهيد للانقلاب بإشاعة الكثير من الأراجيف عن استحالة أو صعوبة الوصول إلى اتفاق بين الحكومة الإنجليزية وبين الحكومة المصرية الدستورية ، بقصد الإيحاء إلى الإنجليز بأنه لا مناص من الوصول إلى هذا الاتفاق وأننا نقبل ما لم تقبله الحكومة الدستورية . وإنه لما جرت المفاوضات فى مجراها السليم ، حرصت أبواق الرجعية - وعلى رأسها صحيفة «المقطم» التى سعت الرجعية بعد ذلك إلى مكافأة صاحبها فارس نمر ، بتعيينه عضواً بمجلس الشيوخ - على إشاعة الأراجيف حول صعوبة الاتفاق على مسألة السودان بقصد الايحاء بأن زعماء الوفد تساهلوا فى حل هذه المسألة ، وأن الأمة

أكثر تشدداً منهم تجاه هذه المسألة .

وأكد أن الغرض من كل هذه الأراجيف هو إيهام الإنجليز بأن الوصول إلى اتفاق نهائى مع الحكومة الدستورية مستحيل ، وأن الحرص على بقائها لا يفيد الإنجليز بالتالى . وأن عليهم أن يعطوا الرجعية الضوء الأخضر لكى تقدم على الإطاحة بالحكومة الدستورية على النحو الذى تمت به بعد ذلك .

أما مسئولية الإنجليز فى رأى العقاد فهى مسئولية غير مباشرة مرجعها إلى سلبيتهم فى مواجهة تآمر الرجعية بالدستور وبالحياة النيابية ، فالرجعية ما كانت لتستطيع أن تواجه الأمة منفردة إلا لموقف الإنجليز السلبى إزاء تحركاتها للعبث بالدستور . وأرجع العقاد سلبية الإنجليز هذه إلى ما تأمله السياسة الإنجليزية من الاستفادة بالموقف الجديد .

ويمكننا أن نقرر أن العقاد كان يعبر هنا عن رأى الوفد فى مسئولية الملك فى إحداث الانقلاب : فقد ذكر مصطفى النحاس فى خطبته التى ألقاها مساء ٢٣ من أغسطس ١٩٣٠ على ضريح سعد زغلول فى ذكرى وفاته ما قاله العقاد ؛ إذ قال :

« ولقد قطعنا فى هذا السبيل شوطاً مهماً مع الحكومة البريطانية ، وقد كنا على وشك أن نتم معها معاهدة شريفة صادقة وطيدة الأحكام ، وإذا بالرجعية تدبر المكايد من وراء ظهورنا ، وإذا بها تعمل فى الظلام لعرقلة مساعينا ؛ لأنها لا تقر عينها إلا بأن تعيش قابضة على ناصية الأمور تسوقها سوق الأنعام لا تعرف لها حرية ، ولا لحقوقها حرمة ، تدبر المكايد حتى تحول بين البلاد وبين الوصول إلى الغاية العظمى التى تعيش فيها الأمة عيشة العز والكرامة » .

وانطلاقاً من هذا الفهم لمسئولية الملك فى الانقلاب الجديد – طفق العقاد

يهاجمه ويطعن فيه — تحت اسم الرجعة — في جرأة متناهية ، وعصبية شديدة فاقت جميع ما كتب عن الملك من قبل ، إذ تناولت شخص الملك ومسلكه تجاه الأمة وحقوقها : ومن أمثلة طعنه في الملك قوله :

« وهكذا وهكذا وهكذا وهكذا ، حتى مل الناس وضجروا وكرهوا العيش في هذا الصلف الأعمى الذي لا يعقل أن أبناء آدم قد خلقوا في هذه الدنيا لغرض آخر غير الإرضاء والإغضاب والتوسل والاعتذار ، فلا ينقضي يوم واحد حتى نسمع أن هذا مغضوب عليه . وهذا مصدوف عنه . وهذا مشكوك فيه ، وهذا مسجل في الصحيفة السوداء . وهذا مطموح في العفو عنه . وهذا قريب من الصفح والقبول . فلو أن الناس سمحوا أن يجعلوا شرفهم وكفايتهم وقفاً على امرأة ملول رعناء يسترضونها ويتحرون مواقع نفورها وإقبالها وطوارئ بغضها وحبها — لكان ذلك أقل إرهاقاً لهم من تلك السماجة التي تفرضها الرجعية على المصريين وتؤيدها عليهم تأييداً لا منفعة فيه ، ولا أمل في الخلاص منه حتى يشاءوا وهيهات أنَ يشاءوا إلا ماهم مصرون عليه صامدون فيه » .

وقوله : «راضون أو غاضبون ! ماشاء الله ! فما يضار الناس بأن «يطفح الدم» «من يغضب ملء نفسه من الغضب إذا كان الناس أبراراً بأوطانهم ، حريصين على فرائضهم ، عاملين في خاصة أمورهم وعامتهم ما يمليه عليهم القانون ويرضاه لهم الضمير ؟ أفما آن لهذه الرءوس العوجاء أن تعتدل وأن تفهم فيم يخلق الناس ؟ وفيم يعقلون وفيم يعملون ويكرهون ؟ أفما آن لهذه العقول البلهاء أن تدرك كرامة الحياة الإنسانية وقداسة الأمل الذي لا يحده ولا ينبغي أن يحده طغيان ولا جمود ؟

« بلى لقد آن كل الأوان ، ومن لم يعلم فسيعلم ، ومن أبى إلا الجهالة فعليه وزر عمله . وما على الأمة من وزر إذا هي سئمت وضجرت وأراد منها أعداء الحرية

والدستور والإنسانية أن تمسخ نفسها بيدها فأبت على نفسها المسخ ، وأقسمت لتكونن من الآدميين ، ولتعملن فى الذود عن الحرية والقانون ما يجب على الآدميين أن يعملوه » .

ومن ذلك أيضاً ماكتبه عن كراهية الملك للوزارات الدستورية :

«فكل مايثبت من فضائل الوزارات الدستورية ومقدرتها المشهود بها فى الإدارة والسياسة لا ينفعها عند الرجعيين ، ولا يحسب له حساب فى ميزان هؤلاء اللئام المجبولين على اللؤم والكنود ، وليس من الواجب على الوزارة أن تخلص لمبدأ معين تدين به ، أو تعتمد على ثقة من الأمة والبرلمان ، أو تسهر الليل وتدأب النهار على أعمال الإصلاح أو تصون حرية الأفراد وحرية البلد من عبث العابثين وطغيان الجانين .

«كلا ! ليس هذا من الواجب على الوزارات ، بل ربما كان هو ذنبها الأكبر وخطيئتها الكريهة فى عرف الرجعيين . وإنما يجب على الوزارة شيء واحد لا واجب قبله ولابعده . وهو أن تسهر بالليل والنهار عند أقدام الرجعية ، ثم تحمد الله بعد ذلك على ابتسامة الرضا التى تنالها من أطراف الشفاه . ويا فرحتاه بهذه الابتسامة التى لا مطمع وراءها ، ولا حظوة للخلق الفانين أكبر منها فى سموات عليين .

«ولو خلقهم الله مع ذلك خلقة سواء ! ولكنهم «حلاليف» لا أكثر ولا أقل . . . وهؤلاء «الحلاليف» هم الذين يفرضون على المصريين ما لم يفرضه الله على خلقه من الذل والضراعة والابتهال » .

ومن أمثلة طعنه فى الحاشية الملكية – ماكتبه فى معرض الدفاع عن معارضة الوزارة النحاسية المستقيلة لتعيين بعض مرشحى القصر من أعداء الدستور فى مجلس الشيوخ : «كثير هذا . . فلموها قليلاً أيها الناس : أفليس لمصرى أن يتبوأ وظيفة

أو عملاً ينفع به بلاده إلا إذا كان من الحاشية أو حاشية الحاشية، أو كان من النكرات التي لا أثر لها إلا في إتقان التزلف وتبليغ الوشايات؟ أتتجرد مصر كلها من الناس لأنكم أنتم أديتم واجبكم من هذه الناحية، فلم يبق للناس في هذه البلاد إلا أن يخروا لكم ساجدين؟».

ويلاحظ أن العقاد ربط هجومه على الملك وحاشيته بإبراز حسنات الوزارة الوفدية المستقيلة وإنجازاتها، وتأكيد إخلاص الوفد للنظام الملكي مسفهاً ما قالته صحيفة «الديلي ميل» من أن الوفد يسعى إلى إقامة الجمهورية في مصر، تمهيداً للتخلص من السيطرة البريطانية. ولا شك أنه قصد إلى إبراز مدى الجرم الذي ارتكبه الملك في حق الوفد المخلص له، وصاحب كل هذه الإنجازات التي عددها.

٣- وزارة إسماعيل صدقي:

هاجم العقاد الوزارة الصدقية منذ توليها الحكم مثلما هاجمتها الصحف الوفدية، وكان منطلق هجومه عليها أنها تولت الحكم لتحقيق أغراض غير الأغراض التي تريدها البلاد في حاضرها ومستقبلها، وهي أغراض الرجعية والاستعمار في العبث بالدستور وبالحياة النيابية. وقدر العقاد أنها ستلجأ في سبيل تحقيق هذه الأغراض إلى محاولة شق الوفد، أو شق البرلمان لكي يكون لها أعوان فيه مستغلة في ذلك كل ما تملك من وسائل الترهيب والترغيب. «فإذا نجحوا فقل إذن على الحكومة النيابية السلام؛ لأنها سواء بقيت على صورتها الحاضرة وهو بعيد أو بقيت على صورة أخرى – وهو المقصود – فلن يبلغ من شأنها أن تنقض أو تبرم أو تعوق تنفيذ مطلب شخصي أو عمومي، كبيراً كان أو صغيراً.

«وإذا عجزوا فخير لنا أن يعجزوا من الآن وأن يظهروا من الآن وأن يضطروا من الآن إلى نبذ الأساليب التى يخدعون بها الناس عن حقيقة ما يبتغون» .

وقد سعى العقاد لإحراج الملك لتولى إسماعيل صدقى رياسة الوزارة ، فتساءل عن أسباب إسناده رياسة الوزارة إلى إسماعيل صدقى ، بعد أن كان رافضاً منذ عامين تعيينه رئيساً لديوان المحاسبة . وأضاف أنه إذا كان سبب الرفض فى الماضى راجعاً إلى قلة كفاية إسماعيل صدقى الاقتصادية فلا يصح أن يتولى رياسة الوزارة فى وقت تعانى فيه البلاد من أزمة أقتصادية ، أما إن كان راجعاً إلى أسباب مزاجية «فالشيء الذى لا نفهمه إذن هو أن تكون الأسباب «المزاجية» حكماً فى المناصب الحكومية ، ومصالح الأمة فى هذا الزمان ، إلا أن تناط مقادير الشعوب بعوارض الأمزجة وسوانح الإقبال والإعراض» .

كما اعترض على أهلية صدقى لتولى رياسة الوزارة لعلاقته بعدد من الشركات ، وسعى لإدخال الشك فى كفايته الاقتصادية والإدارية ، مستنداً فى ذلك على عدم تعيين هذه الشركات خلفاً له ، كدليل على عدم حاجتها أصلاً إليه . ثم سعى إلى تهييج الرأى العام ضد وزارته باتهامه لها بالتواطؤ فى محاولة اغتيال مصطفى النحاس التى تعرض لها فى المنصورة ، فى ٨ من يوليو ١٩٣٠ !

وفى ١٥ يوليو ١٩٣٠ عطلت «كوكب الشرق» تعطيلاً نهائياً لنشرها أموراً رأت الوزارة أنها تعرض النظام الاجتماعى فى مصر للخطر الشديد ، فاضطر أحمد حافظ عوض إلى إصدار «المؤيد الجديد» ، ابتداء من ٢٤ أغسطس ١٩٣٠ ، وكان واضحاً أنها «كوكب الشرق» ذاتها ، ولكن تحت اسم جديد .

وفى «المؤيد الجديد» كتب العقاد المقال الرئيسى ؛ كما كانت الحال فى «كوكب الشرق» ؛ ودارت معظم مقالاته حول الطعن والتشهير بالوزارة الصدقية ،

وبأعضائها ورئيسها . فلم يترك العقاد - كعهده مع الوزارات المعادية للوفد - تهمة إلا ألصقها بالوزارة : فهي تضطهد الصحافة المعارضة ، وتتدخل في أعمال القضاء ، وتعبث بالموظفين والمعلمين ، وتشيع الاضطراب والفوضى في "" وتسيء إدارة الجهاز الحكومي ، وتشوه سمعة الحكم المصرى ، وتزيد حالة الفلا- سوءاً ، فضلاً عن كونها وزارة ضعيفة ومريضة .

وازداد تشهير العقاد بالوزارة عندما أسيع أنها تنوى إجراء انتخابات تتعرف بها على رأى الأمة ، إذ رأى أن رأى الأمة قد عرف من خلال أربعة انتخابات سابقة ، و«أما إجراء انتخابات لتلفيق مجلس ترضى به الوزارة فقد يكون غرضاً معقولاً لهذه الوزارة ، ولكنه لن يكون غرضاً معقولاً للأمة تقره وتساعد عليه» .

ثم رأى أن الوزارة لن تستطيع الاقدام على تعديل قانون الانتخابات بحيث تحرم الأميين ومن لا يملكون حق الانتخاب . لأن أغلبية الأمة من المسلمين ، أتباع نبي أمي ، ولأن مؤسس الأسرة المالكة في مصر ، أمي هو الآخر . ولأن حرمانها من لا يملكون من حق الانتخاب سوف يستتبعه حرمان معظم الاتحاديين والأحرار الدستوريين الذين لا يملكون شيئاً في الحقيقة ، أو أضاعوا ما يملكون . فضلاً عن أن تعديل قانون الانتخاب على هذا النحو من شأنه أن يثير العصبية بين الطبقات ، ويفتح الباب على مصراعيه أمام الدعاية الشيوعية ، وليست هي بالدعاية الغافلة عن مصر .

وعلى هذا رأى العقاد أن هدف الوزارة هو العمل على «طبخ» الانتخابات ، وليس تعديل قانون الانتخاب ، لأنها تعلم أن الوفديين لديهم جميع الإمكانات الحزبية التي تتيح لهم الفوز في أى انتخابات .

ومع هذا هاجم العقاد هذه التعديلات التي يراد إدخالها على قانون

الانتخابات ، وهاجم الوزارة بشدة لاشتغالها بهذا التعديل فى الوقت الذى تتقاعس فيه عن العمل لحل مشاكل البلاد المتردية فى السوء .

وكثيراً ما امتد طعن العقاد إلى الأحرار الدستوريين ، الذين تناولهم فى بعض الأحيان بأسلوب مبتذل ، ولم يقتنع بالمعارضة التى أبدوها منذ أواخر سبتمبر ١٩٣٠ للوزارة الصدقية ، واعتبرها مجرد مناوشة لها طمعاً فى بعض مناصبها ، كما امتد طعنه إلى الصحف المؤيدة للوزارة الصدقية ، وعلى رأسها «الأهرام» و «المقطم» .

وفى الوقت الذى انطلق فيه العقاد يطعن فى الوزارة وأعضائها ، وفى حزب الأحرار الدستوريين — دأب على تمجيد الوفد مشيداً بتمسكه بحقوق البلاد ، وبالتفاف الأمة حوله مسفهاً ما يشاع عن استعداده لتوقيع مشروع معاهدة ١٩٣٠ ، بما فيها المادة الخاصة بالسودان إذا عاد إلى الحكم .

الفصل الخامس

محاكمة العقاد
بتهمة العيب فى الذات الملكية

لم يقدم العقاد إلى المحاكمة بتهمة العيب فى الذات الملكية بسبب المقالات التى كتبها فى «كوكب الشرق» وملأها طعناً فى الملك فؤاد وحاشيته ، محملاً إياه مسئولية الانقلاب الجديد ، ويمكن إرجاع ذلك إلى تمتعه بالحصانة البرلمانية أو إلى رغبة السلطات فى تفويت الفرصة انتظاراً لفرصة أخرى ، ومالبث العقاد أن أعطى السلطات الفرصة ؛ لكى تسوقه إلى المحاكمة عندما عاد يطعن فى الملك وأسرة محمد على محملاً إياها مسئولية تأخر البلاد على نحو من شأنه بث الكراهية لها فى نفوس القراء ، والتحريض على الثورة عليها .

وقد حرصت السلطات من ناحيتها على استغلال هذه الفرصة إلى أبعد حد ، فلم تحاول تعطيل «المؤيد الجديد» أو إنذارها . أو أن تحظر عليها الاستمرار فى نشر مقالات العقاد بالرغم من أنها حظرت عليها نشر أنباء سياسة عدم التعاون مع

الوزارة التي أعلنها الوفد . ومضت تراجع مقالات العقاد بدقة ؛ لكي تستجمع منها الأدلة الكافية لتقديمه إلى المحاكمة بتهمة العيب في الذات الملكية .

* * *

أولاً : المقالات التي حوكم العقاد من أجلها :

وفى الحقيقة أن المقالات التى كتبها العقاد وسيق من أجلها إلى المحاكمة ، لم تتضمن فقط عيباً فى الملك ، وإنما تضمنت فوق ذلك تحريضا على الثورة وقلب نظام الحكم والتخلص من أسرة محمد على كلها . وقد بلغ العقاد فيها قمة ثوريته فى دفاعه عن الدستور وعن استقلال البلاد ، وكانت بمثابة الجولة الأخيرة فى نضاله ضد أتوقراطية الملك فؤاد .

وكانت حجة العقاد فى العودة إلى الحديث عن مسئولية الملك فى الانقلاب الجديد— هى أن يعرف الناس إلى أى مدى تصير الأمور فى البلاد إذا تم «للمستبدين ما يشتهون من السطوة والطغيان وأن يدركوا أن الاستبداد لا يقف عند حدود ولا يعرف القيود والحرمات . فإذا طمع اليوم فى شىء فإنه يطمع غدا فيما هو أكبر ، وإذا قلت اليوم إنك ترضيه بالطاعة فى هذا وذاك من الأمور فلن تنقضى أيام حتى تعلم أن الطاعة فى هذا أو ذاك من الأمور لا ترضيه ولا تكفيه ، وأنه ينتظر منك المزيد بعد المزيد حتى لا تعلم الفارق بين الرضا والغضب والتمليق والتنفير» .

ومن ناحية أخرى حرص العقاد على تأكيد مسئولية الملك فى الانقلاب الجديد ؛ « لأننا رأينا أن الفكرة القديمة التى شاعت عن إلقاء كل تبعة على الإنجليز وحدهم دون سواهم قد أصبحت خطراً كبيراً فى السياسة المصرية ؛ لأنها قضت

بالبراءة لكل من عداهم ، فأصبح فى وسع الآخرين من رجعيين وغير رجعيين أن يقترفوا جرائمهم ويعيثوا فى مفاسدهم ولا وزر عليهم ولا ملام» وقصد بهذا التأكيد تبصير الأمة بحقيقة الانقلاب ، لكى تبنى سياستها تجاه الانقلاب ومدبريه على أساس متين ، وتقدير سليم .

وبدأت مقالات العقاد هذه فى التاسع من سبتمبر ١٩٣٠ حينما كتب تحت عنوان : «الوزارة البريطانية والأزمة المصرية الحاضرة» يفند ما جاء فى مقال نشرته «المؤيد الجديد» فى السابع من سبتمبر تحت عنوان : «الوزارة الإنجليزية تعبث بالمصريين وهى آلة فى يد المستعمرين» لكاتب اتخذ لنفسه اسم «أبو فصادة» . فقد عارض ما جاء فى هذا المقال عن مسئولية الوزارة الإنجليزية من الانقلاب الجديد ، وأعلن أنه يعتقد «أن هذه الأزمة هى أزمة الرجعية قبل كل شىء ، والرجعيون أعداء الدستور ، كانوا يتهيئون من زمن بعيد لإلغاء الحياة النيابية أو لإبقائها ناقصة مشلولة تمكنهم من الحكم كما كان الطغاة المستبدون يحكمون فى القرون الوسطى . وأنا أعلم أنهم كانوا ينتظرون نتيجة المفاوضات ليثيروا الشغب حول الوفد أيا كانت النتيجة . فإذا تشدد الوفد قالوا : أساء السياسة وضيع الفرصة . وإذا تساهل الوفد قالوا : أضاع حقوق البلاد .

«وكانوا يتوهمون أنهم قادرون على تأليف وزارة وفدية تتقدم إلى البرلمان فتشطره شطرين : فإن نالت الأكثرية بقيت ضعيفة معتمدة على تأييدهم – أى تأييد الرجعيين – وأصبح هؤلاء الرجعيون هم حكام البلاد المستبدين وراء ستار من الدستور ، وإن نالت الأقلية حلت المجلس ، وتقدمت إلى الانتخابات ، فكان لها مرشحون ، وكان للوفد مرشحون آخرون ، وهذا هو القضاء المبرم على الدستور لأن

كثرة الأحزاب فى المجلس النيابى تنزع السلطة من المجلس وتضعها فى أيدى الرجعيين» .

«ولو تم لهم هذا التدبير لاستغنوا به عن مسخ الدستور ، ولكنه لم يتم ، فهم يلجئون إلى الخطة الأخرى التى يحاولون تنفيذها الآن ، أما الإنجليز فأنا أعتقد أنهم ينتفعون بالأزمة ، ولكنهم لم يدبروها» .

ورأى العقاد فى ذات المقال أن الذى شجع الرجعية على الإقدام على إحداث الانقلاب علمها بأن المعاهدة بين الحكومتين المصرية والإنجليزية مكروهة من حزب المحافظين ، وغير محبوبة عند حزب الأحرار ، واعتقادها أن أجل الوزارة البريطانية القائمة قصير . هذا فضلاً عن اعتقادها بأن حزب العمال ينكر طريقة التدخل المسلح فى شئون الدول الأخرى ؛ لأنه الحزب الذى يواصل العمل لنشر مبدأ التحكيم ومنع الحروب . إلى جانب اعتقادها بتأييد الإنجليز المحليين لها لكراهيتهم تمتع مصر بالحياة النيابية وعدم موافقتهم على سياسة بلادهم تجاه الأوضاع السياسية فى مصر ، وتوقعها أن تغض الحكومة الإنجليزية نظرها عن الأزمة باعتبارها فرصة لإجبار الأمة المصرية على قبول ما لم تقبله فى مسألة السودان .

على أن استبعاد العقاد لتدخل الإنجليز المباشر فى إحداث الانقلاب لم يعن إعفاءهم تماماً من أية مسئولية تجاهه ؛ إذ رأى أنهم - من ناحية - لا يأبون انتهاز الفرصة التى مهدتها لهم الرجعية للحصول على مطالبهم .

ومن ناحية أخرى تقع عليهم مسئولية جسيمة بالنسبة لكل اعتداء يقع على الدستور أو على الحياة النيابية ، لأن المصريين ليسوا أحراراً فى الدفاع عن الدستور والحياة النيابية مع وجود جيش الاحتلال ، وادعائه حق التدخل بلا قيد ولا شرط فى كل حركة مصرية يقال : إنها تمس مصالح الأجانب ؛ «ولولا الجيش

الإنجليزى فى مصر ما اجترأت الرجعية على مواجهة الأمة ، ولا كان الدستور فى خطر من اعتداء هذه القوة الهزيلة التى لا يخفى عليها ما صنعته مصر منذ خمسين سنة لإحراز الدستور» :

ومعنى ذلك أنه لولا وجود جيش الاحتلال – فى رأيه – لثارت الأمة المصرية من أجل دستورها ؛ كما ثارت من قبل ثورتها التى عرفت بالثورة العرابية .

وغنى عن البيان أن ذلك تأكيد من العقاد لما قاله فى مجلس النواب فى يونية ١٩٣٠ من أن المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس فى البلاد فى صيانة الدستور وحمايته» .

وفى اليوم التالى ، كتب العقاد تحت عنوان : «الاستقلال لحرية مصر وسعادتها لا لاستعباد مصر وتعذيبها» يطعن طعناً صريحاً فى الملك فؤاد ، ومن سبقه فى الحكم من أفراد أسرة محمد على متهماً إياهم بخدمة الاحتلال على حساب الأمة ، ومتهماً الملك بأنه لم يحرك ساكناً من أجل البلاد عندما نشبت ثورة ١٩١٩ . بل تحرك ضد الثورة ، وبأنه بذل كل ما فى وسعه لتأخير الاستقلال وإبقاء الحماية . وبأنه مد كل معونته الضئيلة لأعداء الأمة فى وجه مطالبها ، وبأنه الموعز بنفى زعماء الثورة ، وسجن فريق آخر منهم ، وبتشتيت الحركة الوطنية بكل ما يملك من وسائل الإيعاز والإغراء . واستخلص من ذلك أنه «إذا كان للرجعيين لسان يستطيع أن يلفظ بكلمة الاستقلال ويقول – هذا من شأنى وهذا ليس من شأنك – فليذكر هؤلاء الرجعيون أن الاستقلال لمصر لا لهم ، وأن الدول لم تعترف لمصر باستقلالها ؛ لأن الرجعيين أرادوا ذلك وسعوا إليه ، وجاهدوا فيه ، ولكنها اعترفت بهذا الاستقلال ؛ لأن الأمة هى التى أرادته ، وهى التى سعت إليه ، وهى التى جاهدت فيه ، وأن الأمة حين فعلت ذلك لم يكن رجاؤها الأكبر أن تستقل لتهان

ونسام سوم العبيد ، وتصبح متاعاً لمن يتعجرفون عليها ، ويهتضمون حقوقها ، وإنما كان رجاؤها الأكبر أن تستقل ؛ لتستقل وتنال حريتها ، وتملك حقوقها ، وتنهض نهضتها لتتقدم إلى الأمام ، لا لترجع مئات السنين إلى الوراء» .

وفى ١٤ سبتمبر كتب العقاد مقاله الثالث بعنوان : «الرجعيون والإنجليز المحليون» وفيه تعمد أكثر من ذى قبل أن يثير كراهية الرأى العام للملك المقصود بكلمة «الرجعيون» ؛ إذ أكد فى هذا المقال أن الملك آثم «إثماً لا شك فيه ولا ينبغى أن يظل خافياً على أحد من المصريين» . وأكد أيضاً أن إثمه فى السعى لمسخ الدستور أكبر من إثمه فى إحداث الانقلاب ؛ لأنه فى مسعاه لمسخ الدستور يحتضن أعداء الأمة من أذنابه ، «الذين لا يستحقون فى شريعة الوطنية والإنسانية والأخلاق إلا النبذ والإهمال والتحقير ، فتجنى (الرجعية) بذلك على ضمير الأمة جناية شديدة الفتك بعيدة القرار : »

ثم طفق فى هذا المقال يستعرض هؤلاء الذين أسماهم بأذناب الرجعية التى تحتضنهم لمسخ الدستور : «هذا الرجل المعتوه الذى لا أصالة عنده ولا رجاء فى رأيه يكره الدستور ويركب رأسه فى كراهته وكراهة الوفد بغير وعى ولا خجل ولا تورع . هذا الرجل إذن من حقه أن يُحتقر لضعف رأيه ووهن خلقه ، وأن يضاف إلى ذلك جرم آخر من حقده على الدستور وسعيه لهدمه ، ذلك ما يجب أن يصيب هذا الرجل فى ميزان الحق والوطنية والأخلاق ، ولكن الواقع أنه لا يصيبه شىء من ذلك ولا يلقى من الرجعية نبذاً ولا تحقيراً ولا سماحاً بالنبذ والتحقير وإنما يلقى الحفاوة والإكبار والتمكين . وتُنسى له حقارته ؛ لأنه لطخها بحقارة أخرى من كراهة الدستور .

«وهذا الرجل المشهر العرض ، المهتوك السيرة ، الساقط المروءة ، الفاسد

الطوية – يكره الدستور أيضاً ، ويشعر برقابته على أمثاله ، فلا يطيقه ولا يطيق حكومته ولا القائمين بتلك الحكومة ، هذا الرجل إذن من حقه أن يهان ويستقصى لقبح سيرته وقبح سريرته ، وأن يضاف إلى ذلك جرم آخر من حقده على الدستور وسعيه لهدمه ، ذلك ما يجب أن يصيب هذا الرجل فى ميزان الحق والوطنية والأخلاق ، ولكن الواقع أنه لا يصيبه شيء من ذلك ، ولا يلقى عند الرجعية إلا كل تشجيع واستزادة ! يسمح له أن يشفى ضغينته الدنيئة من شرفاء الموظفين ، فيمعن فيهم نقلاً وعزلاً وتنزيلاً وتكديراً ، ولا يسمح للعدل أن يناله ولا للأخلاق أن تستريح بإقصائه إلى حيث يستحق أن يكون ! .

«وهذا الخامل النكرة ، وذلك المجرم المحكوم عليه بجرمه ، وذلك السارق المفضوح فى وطنه ، أولئك الأوغاد الذين لا شرف عندهم ، ولا عقيدة فى شرفهم – كلهم أهل لأن يهانوا وينبذوا ؛ لأنهم خاملون أو لأنهم مجرمون ، أو لأنهم لصوص أو أوغاد مرذولون . . كلهم أهل لأن يهانوا وينبذوا من أجل هذا ، ومن أجل حقدهم على الدستور ، وجحودهم الآثم على شعور الأمة ، وشعور العطف على هذه الأمة الشقية ، ولكنهم مع هذا يكافئون بمقدار ما يجب أن يعاقبوا ، ويدخر العقاب والكيد للشرفاء الأمناء الذين يستحقون كل تكريم وتشجيع» .

واتهم العقاد الملك فى المقال ذاته بتبادل المنفعة مع الإنجليز المحليين على حساب الأمة ، ولكنه لم يشر إلى مايقصده من «تبادل المنفعة» ، «ولو شئنا لفصلنا الآن ، ولكننا نظن أن الأمر فى غنى عن التفصيل ؛ لأن الذين يعنون به يعلمونه أو يجب أن يعلموه» .

وكتب العقاد مقاله الرابع فى ٢١ سبتمبر – تحت عنوان : «سيعدل الدستور

ولكن كيف؟» تناول فيه سعي الوزارة لتعديل الدستور ، فتعرض لما أسماه بتربص الوزارة الصدقية بحكومة العمال البريطانية ؛ عسى أن تخلفها فى الحكم وزارة محافظين ، وعسى أن يكون المحافظون عند ظنها فيهم ، فيطلقوا يدها فى مسخ الدستور . وفى هذا الصدد نبه العقاد إلى «ما قاله المحافظون يوم أبطأ صدور الدستور وقيل : إن الأيدى امتدت إليه بالعبث ، وتهم الآن أن تمتد إليه بما هو أشد من ذلك وأشنع ، فقد قال المحافظون يومئذ : إن الدستور معطى للشعب المصرى لا لغيره ، وإن الدستور الذى هو حق ذلك الشعب دون سواه لا يمس ولا يسمح بمسه» . ولاشك أن العقاد سعي بذلك إلى التشكيك فى مقدرة الوزارة على الحصول على موافقة المحافظين على مسخ الدستور .

وطالب العقاد فى هذا المقال– بأن يكون تعديل الدستور على يد الأمة ولمصلحتها ولتوكيد حقها ، ولكنه عاد بعد قليل ، وفى المقال ذاته . إلى تأكيد أن الأمة لا تريد تعديل الدستور أن الإنجليز لايريدونه أيضاً . وبنى ذلك على أنهم لوكانوا يريدون تعديله ؛ ليصلوا من ورائه إلى اتفاق بين الأمتين الإنجليزية والمصرية فى الظاهر لا فى الحقيقة– ما انتظروا طوال هذه السنين . ولوكانوا يريدون تعديله اليوم لاستطاعت الوزارة أن تعلن هذا التعديل منذ قيامها . واستخلص العقاد من ذلك أن الوزارة فى موقف «من يريد إرغام الأمة على ماترفض ، وإرغام الإنجليز على تسخير قوتهم فى هذا البلد فى خدمة مطامع الرجعية» . وحذر الإنجليز من أن أى مسخ للدستور سوف يعده المصريون من عملهم هم . وربما أراد بذلك دعوتهم إلى التدخل للحيلولة دون مسخ الدستور .

وفى ٢٤ سبتمبر– كتب العقاد أخطر مقالاته عن الأزمة القائمة ، وأشدها طعناً فى الملك ، وفى أسرة محمد على ، وبنى مقاله على أن الواجب يقتضى أن تنكشف

التبعية فى الأزمة الحاضرة للأمة بياناً للحقيقة ، وإظهاراً لأعداء النهضة فى مظهرهم الصحيح ، حتى تُبنى كل حركة على أساس متين وتقدير سليم .

وكانت الحقيقة التى أراد إعلانها للأمة فى هذا المقال الذى جعل عنوانه : «الرجعية هى العدو الأكبر فى الأزمة الدستورية الحاضرة» ، هى : «أن مصيبة الرجعية على هذا البلد أكبر من مصيبة الاحتلال . وأنها هى التى مهدت له ، واستعانت به وأوقعت البلد فى البلاء الذى أدى إليه ، فلولا كراهة الدستور القديم فى نفوس هؤلاء الرجعيين ، ولولا التكبر فى الاعتراف للفلاحين «العبيد» بالحرية والحكومة العصرية ما حدثت فى مصر تلك الأحداث التى نعانى جرائرها إلى اليوم . «فالرجعية هى السوس الناخر فى أبدان هذه الأمة من قديم الزمان . والرجعية هى أصل المصائب وسبب الاحتلال ، وهى العدو الأكبر الذى يجب أن يبرز على حقيقته ؛ ليكون الجميع على بينة من أمره . وكذب من قال : إن مصيبة الرجعية فى هذا البلد أهون من مصيبة الاحتلال ؛ فإن الذين يتتبعون التاريخ ليعلمون علم اليقين أنه لولا الرجعية وكراهة «الفلاحين» ما كان الاحتلال ولا حدث شىء مما أوقع البلاد فيه» .

وأشار العقاد فى المقال ذاته إلى سعى الملك إلى العبث بالدستور قبل صدوره ، لولا تدخل الإنجليز للحيلولة دون ذلك .

وواضح فى المقال حرص العقاد على إثارة كراهة الرأى العالم للملك ، ولأسرة محمد على كلها ، واعتبارهم العدو الأول للأمة المصرية .

ولما صدر المرسوم الذى ينص على أن الموظفين المعينين بمرسوم ملكى لا يعزلون إلا بمرسوم ملكى ، اتهم العقاد الملك بأنه أعاد البلاد عشرين عاماً إلى الوراء واعتبر صدور هذا المرسوم محاولة جديدة من جانب الملك لهدم مبدأ «المسئولية

الوزارية» ، ومبدأ «الأمة مصدر السلطات» ، وهما ذات المبدأين اللذين سعى إلى هدمهما من قبل صدور الدستور إذ قال :

«فكأنما هذا المرسوم الأخير طريق مختصر إلى تحقيق ما لم يتيسر تحقيقه قبل سبع سنوات عند وضع الدستور وتقرير سلطة الأمة ومسئولية الوزارة ، فلا سلطة للأمة إذن ولا مسئولية على الوزارة ، ولا معنى لوجود البرلمان ، وهذا هو قصارى ما تنتهي إليه الأمة بعد طول الصبر وطول الجهاد ، وهذه هي الثمرة التي تجنيها الأمة من استقلال طلبته هي ، ولم يطلبه لها ولا لأنفسهم أولئك الذين يجردونها اليوم من حقوق ذلك الاستقلال ، بل الذين يجردونها اليوم مما كان لمجلس النظار قبل عشرين سنة في صميم عهد الاحتلال» ، ورأى العقاد أن الملك فضح نفسه بمحاولته إلغاء هذين المبدأين الهامين : «ولقد فضحتهم الحوادث ، زادهم الله فضيحة ! فعفاء عن كل ما قالوه وما زعموه ، فلم يبق الآن إلا هذه الحقيقة التي لا يسمع فيها جدال ولا محال ، وسيعلم الجاهلون لمن تكون العاقبة حين لا ينفعهم ما يعلمون» .

وقد تطرق العقاد أحياناً من الطعن في الملك ، إلى الطعن في حاشيته ورجال القصر أمثال : توفيق نسيم ، وزكي الإبراشي ، ومحمود شوقي .

ومما لا شك فيه أن إلقاء مسئولية إحداث الانقلاب الجديد ومسخ الدستور على كاهل الملك — لم يكن رأياً خاصاً بالعقاد ، بل كان رأي الوفد ذاته الذي أعلنه صراحة ؛ فقد أدلى مصطفى النحاس زعيم الوفد بحديث صحفي إلى صحيفة «تاخيد روموس» اليونانية ، صرح فيه «أننا نحتم أن يكون الدستور محترماً مهما يكن الأمر ، ولا نحجم قط عن أية تضحية في سبيل حمايته ، إن الحكومة الحالية تمثل الرجعية ضد إرادة الأمة السامية وسندافع عن الدستور إلى النهاية ، إذ أن الحق معنا»

وأدلى مكرم عبيد سكرتير الوفد بحديث صحفى إلى إحدى الصحف الإنجليزية قال فيه :

«وأدهى من هذا أن الرجعية فى مصر لم تعد تحفل بإخفاء أغراضها لأن الفضيحة من طبيعة هذه الأغراض ، والرجعيون يرمون من وراء تعديل قانون الانتخابات إلى «طبخ» الكشوف والسيطرة على البرلمان ، وانتهاك قداسة الدستور بحيث تتوارى سنة ١٩٣٠ جميع الحريات التى تمتعت بها البلاد فى خلال الخمسين سنة . ومنذ سنة ١٩٢٣ . هذه هى لعبة الرجعية المعينة ، ولكن المصريين جاءوا أصفى ذهناً وأسد رأياً وأكثر ذكاء فأدركوا الحيلة فأماطوا عنها وعرفوها» .

كذلك نشرت «المؤيد الجديد» مقالاً لمن أسمته «بالكاتب الضليع» فى ١٣ من سبتمبر ١٩٣٠ عنوانه : «رأى فى الأزمة الحاضرة» وقعه بتوقيع «ص» وجاء فى مقدمته :

«عزيزى الأستاذ العقاد .

«أعجبت شديد الإعجاب بمقالتك البديعة التى حليت بها صدر المؤيد عن سياسة الحكومة الإنجليزية بإزاء الأزمة الحالية ، ولست أعدو حد الحق إذا قررت أنها لم تتضمن فقط وجهة نظر شائعة فى تصوير الحالة كما شاء لك التواضع أن تذكر ، بل تضمنت وجهة نظر الأغلبية الكبيرة ، وعبرت أحسن تعبير عن إحساس الرأى العام» .

وأيد كاتب المقال ما ذهب إليه العقاد من أن الأزمة من تدبير الرجعية .

ثانياً : التحقيق مع العقاد ومحاكمته :

انتهى العقاد من كتاباته التى تناولت الأزمة ومسئولية الملك تجاهها ، فى التاسع

والعشرين من سبتمبر ١٩٣٠ ، ولكن النيابة لم تستدعه للتحقيق معه إلا فى الرابع عشر من أكتوبر ١٩٣٠ أى قبل حوالى أسبوع من حل البرلمان فى ٢٢ أكتوبر وسقوط الحصانة البرلمانية عنه ، وفى ذلك دليل على أن السلطات أرادت أن تعطيه الفرصة كاملة ليمضى قدماً فى طعنه فى الملك وكتابة ما قد تجد فيه ما يؤكد اتهامه بالعيب فى الذات الملكية . وفى الوقت ذاته بات العقاد يتوقع إلقاء القبض عليه ، ولو على سبيل الحجز الذى ينتهى بإفراج سريع . وتوالت عليه الأنباء تؤكد هذا التوقع من جهات عدة . ثم جاءه النبأ اليقين من صديقه «سينوت حنا» الذى أبلغه أن مقالاته تراجع فى بعض الدوائر مراجعة خاصة انتظاراً ليوم ربما كتب فيه ما يساعد على تأييد التهمة التى يقدمونه على أساسها إلى المحاكمة . وربما كان هذا التحذير من جانب «سينوت حنا» هو الذى دفع العقاد إلى التوقف عن التشهير بموقف الملك من الأزمة ، منذ ٢٩ سبتمبر ، حتى استدعائه للتحقيق معه فى ١٤ أكتوبر ١٩٣٠ .

وما لبثت النيابة أن استدعته للتحقيق معه فى الرابع عشر من أكتوبر ١٩٣٠ ، وحضر التحقيق معه عدد من كبار الوفديين القانونيين ، أمثال : محمد نجيب الغرابلى ، ومحمد صبرى أبو علم ، ومحمود سليمان غنام . وبعد انتهاء التحقيق أمرت النيابة باعتقاله بعد أن وجهت إليه تهمة العيب فى الذات الملكية ، استناداً إلى نص المادتين : ١٥٦ و١٥٦ مكررة من قانون العقوبات .

وقد تعنتت الحكومة معه ، فاعتقل فى سجن مصر بالرغم من أنه كان ثمة اتفاق بين نقابة الصحفيين قبل حلها ، وبين كل من وزارتى الحقانية والداخلية ، على عدم اعتقال الصحفى قبل محاكمته . لأن مبدأ اعتقال المتهم قبل محاكمته ، المقصود به منعه من تغيير معالم جريمته ، وليس من المعقول بداهة أن يستطيع

الصحفى تغيير معالم جريمته ؛ لأنها كلام مسطور ومنشور ؛ كذلك كان ثمة اتفاق آخر بين النقابة والوزارتين على أن يراعى أن يكون اعتقال الصحفيين فى مصر كاعتقال زملائهم فى أوربا . بأن يكون الاعتقال فى سجن تتوافر فيه الراحة والمطالعة . . إلخ . وهوالأمر غير المتوافر فى سجن مصر . وقد طالبت الأهرام الحكومة بمعاملة العقاد طبقاً لهذين الاتفاقين .

وانتهت النيابة من التحقيق فى القضية فى السادس عشر من أكتوبر وأحالتها فى اليوم نفسه إلى محكمة مصر الأهلية لقيدها وإعلان قرار الاتهام فيها .

وقد تضمن قرار الاتهام : «وأن (محمد فهمى الخضرى) (صاحب المؤيد الجديد ومديرها) قد عاب علناً بصفته مديراً لجريدة المؤيد فى حق الذات الملكية بأن نشر مقالات فيها فى الأعداد : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٦ الصادرة فى سبتمبر ١٩٣٠ تشتمل على عبارات العيب فى الذات المذكورة . وأن (عباس محمود العقاد) بصفته شريكاً للمتهم فى الجريمة الآنفة الذكر– اتفق معه على ارتكابها وساعده على علمه بها فى الأعمال المسهلة والمتممة لها بأن ألف المقالات المشار إليها ، وسلمها إليه لنشرها فوقعت الجريمة بناء على ذلك .

«وعلى هذا يكون المتهم الأول قد ارتكب الجريمة المنصوص عليها فى المادتين ٤٨ و١٥٦ من قانون العقوبات ، (والثانى) للجريمة المنصوص عليها فى المادة ٤٠ فقرة ثانية وثالثة والمواد ٤١ و٤٨ و١٥٦ من قانون العقوبات» .

وقد قرر قاضى الإحالة بمحكمة مصر الأهلية نظر هذه القضية التى عرفت باسم «قضية المؤيد الجديد» فى ٢٧ أكتوبر ١٩٣٠ . وفى ذلك اليوم ، حضر جمهور من رجال الوفد ، والمحامين ، ورجال الصحافة إلى المحكمة لحضور نظر القضية ؛ كما احتشد الجمهور داخل قاعة الجلسة وخارجها ، وخشيت الحكومة أن يحدث

مايعكر النظام ، ويخل بالأمن فى المحكمة ، فاحتاطت للأمر بإيفاد قوة من رجال بلوك الخفر ، بقيادة عدد من الضباط للمحافظة على النظام .

وقد دار البحث أمام قاضي الإحالة فى هذه الجلسة حول المقصود بكلمة «الرجعية » إذ تمسكت النيابة بأن المقصود بها الملك ، وبنت على ذلك أن مقالات العقاد تحوى جريمة العيب فى الذات الملكية . فى حين أكد العقاد أنه لم يقصد بالرجعية الملك ، وأنه إنما قصد بها الاستعانة فى الحكم بمن لا ضمائر لهم ، والذين لهم ماض غير شريف وضرب أمثلة ببعضهم ، وتحدى النيابة أن تأتى بكلمة واحدة من مقالاته عن الرجعية تكون منصرفة إلى الملك ، واتهم النيابة بأنها تقيم اتهامها له على مجرد ظنها بأنه قصد بالرجعية الملك ، ودلل على أنه لا يقصد بالرجعية الملك– أنه كتب ذات مرة ينعى على الرجعية إسقاطها للوزارات . وكان يقصد بذلك أن كثيراً من الموظفين يحرجون الوزارات فيسقطونها ، كما فعل قتلة السردار بإسقاطهم الوزارة الشعبية بجريمتهم . وأنه كتب يتهم الرجعية بالميل إلى مسخ الدستور ، وها هو ذا رئيس الوزراء يصرح بأنه كان يميل إلى ذلك منذ عام ١٩٢٨ . ورجا العقاد من المحكمة فى حالة ثبوت إدانته أن تفرج عنه ولو بكفالة .

أما محمد نجيب الغرابلى الذى تولى الدفاع عن العقاد فى هذا الدور من أدوار المحاكمة فقد بنى دفاعه على أن الوزارة الصدقية تزج بالعرش فى منازعاتها الحزبية وتحتمى به فى عبثها بالدستور . ولما كان الدستور ينص على مسئولية الوزارة ، وأن أوامر الملك إليها لا تخليها من هذه المسئولية– فمن حق كل مصرى من ثم أن يدافع عن الدستور ضد عبث الوزارة الصدقية به ، وأن يطعن فى كل عدو للدستور يحتمى بالذات الملكية. ويدعى أنه مخلص لها ، وغيره غير مخلص .

ومن هذا المنطلق– أكد الغرابلى أن العقاد لم يفعل سوى أن قام بواجبه وأن

مقالاته من ثم لاتحوى جريمة العيب فى الذات الملكية .

وفى ٣٠ أكتوبر قرر قاضي الإحالة إحالة القضية إلى محكمة الجنايات لدور ديسمبر ١٩٣٠ لنظرها بالتهمة المنصوص عليها فى قرار الاتهام– السابق ذكره– مع استمرار حبس العقاد .

وقد أساءت الحكومة معاملة العقاد فى سجنه ، فأودعته حجرة غير صحية ، مما جعل صحيفة « السياسة » بالرغم من طعن العقاد الدائم فيها وفى حزبها – تبدى تعاطفاً عليه وتطلب الاهتمام به . وقد اهتمت « الأهرام » لذلك أشد الاهتمام ، وذهب مندوب خاص منها للاستفسار من النائب العام عن صدق ماروت « السياسة » . وقد كلف النائب العام رئيس نيابة مصر ، التحقيق فى هذا الأمر وتقديم تقرير عن حالة العقاد فى السجن ، واستطاعت « الأهرام » أن تحصل على صورة من ذلك التقرير الذى ورد فيه أنه يتمتع بأكبر قسط من الراحة التى تسمح بها لائحة السجون ، وعلى الأخص الناحية الصحية . وذكر التقرير أن العقاد ذاته أكد ذلك لرئيس النيابة فى حين أن ماجاء فى التقرير غير صحيح ، فقد شكا العقاد للمحكمة بعد ذلك سوء حالته الصحية ، وعدم الاهتمام به فى سجنه .

وبدأت محاكمة العقاد أمام محكمة جنايات مصر منذ الثامن من ديسمبر ١٩٣٠ . وقد اهتم الجمهور بتطور المحاكمة أشد الاهتمام : فدأبت « الأهرام » طوال نقلها لما يجرى فى المحاكمة على الإشارة إلى اهتمام الجمهور بها ، وإلى اكتظاظه داخل قاعة المحكمة وخارجها ، وعجز قوات الأمن الكبيرة عن حفظ النظام بين الجمهور فى كثير من الأحيان .

وفى هذه الجلسة الأولى من جلسات المحاكمة طلب مكرم عبيد الذى تولى الدفاع عن العقاد يعاونه محمود سليمان غنام تأجيل القضية ؛ حتى يتسنى له الاطلاع

عليها ، وليتسنى للعقاد من ناحية أخرى مراجعة المقالات موضوع القضية ، ليتذكر المناسبات التى كتبت فيها .

واستجابت المحكمة لطلب الدفاع ، وقررت تأجيل نظر القضية إلى جلسة ٢١ ديسمبر ١٩٣٠ ، على ألا تؤجل إلى غير هذا اليوم مع استمرار حبس العقاد ، ولكن المحكمة عادت فى ٢١ من ديسمبر إلى تأجيل نظر القضية إلى ٢٥ من ديسمبر نظراً لمرض أحد المستشارين من أعضاء هيئتها . وفى هذه الجلسة طلب مكرم عبيد من المحكمة ضرورة مراعاة صحة العقاد فى سجنه ، لأن آلام الصدر التى يشكو منها جعلته يفقد شجاعته ، والتمس العقاد من المحكمة مراعاة أحواله الصحية حيث يقيم فى حجرة غير صحية فى السجن فى الوقت الذى يعانى فيه من أمراض : الصدر والأعصاب واحتقان الزور والسعال والزكام .

وبدأت النيابة مرافعتها فى الجلسة التى عقدت فى ٢٥ ديسمبر ١٩٣٠ ، ويلاحظ على مرافعتها مايلى :

١ – أنها اتهمت الوفد بأنه وراء مقالات العقاد موضوع القضية ، إذ ادعت النيابة :

«أن مقالة الكاتب «أبو فصادة» من تحذير المصريين من الإنجليز لم تقابل بالارتياح من بعض الأوساط ، فأثارت حملة شعواء بسلسلة مقالات كتبت على صفحات المؤيد الجديد ابتدأها المتهم الثانى عباس العقاد أفندى» .

٢ – ورأت أن غرض العقاد من هذه المقالات المحرض عليها : «بث فكرة خطرة فى البلاد ، تلك الفكرة هى أن جلالة الملك يناهض الأمة فى أمانيها ، ويريد استذلالها واستعبادها ومعاملتها معاملة السائمة ، وقد تخلل هذه المقالات عبارات وألفاظ كلها عيب فى الذات الملكية وطعن فى صاحب العرش» .

٣ — ثم بذلت النيابة جهدها لتثبت — فى استعراضها لمقالات العقاد — أنه يقصد الملك صراحة «ولئن لم يذكر المتهم فى مقالاته اسم جلالة الملك ، بل استعمل فى بيان غرضه وتحديد مقصده عبارة الرجعية ، فإن ما ذكره من الأقوال والعبارات يدل دلالة واضحة ويحدد تحديداً دقيقا المعنى الذى يقصده الكاتب بالرجعية» .

٤ — نسبت النيابة إلى العقاد كتابة المقال الذى كتبه «الكاتب الضليع» تحت عنوان : «رأى فى الأزمة الحاضرة» ، المنشور «بالمؤيد الجديد» فى ١٣ من سبتمبر ١٩٣٠ والذى سبقت الإشارة إليه . ولكنها لم تشر مطلقاً إلى المقالين اللذين كتبهما العقاد فى ٢٨ و٢٩ سبتمبر ، واللذين حمل فيهما على الملك ، لإصداره مرسوماً ينص على عدم عزل الموظفين المعينين بمرسوم ملكى إلا بمرسوم ملكى ، بالرغم من أن هذين المقالين من أصرح المقالات دلالة على أن المقصود هو الملك . وربما خشيت النيابة من إثارة المقالين— أن تثير من ثم دستورية المرسوم داخل المحكمة ، ففضلت تجاهلهما .

أما محمود فهمى الخضرى فقد عدته النيابة مسئولاً بصفته المدير المسئول للصحيفة طبقاً لنصوص الدستور ، والمفروض فيه أنه اطلع على المقالات موضوع المحاكمة ، وأذن بنشرها .

وقد بنى مكرم عبيد دفاعه عن العقاد من ذات المنطلق الذى دافع به محمد نجيب الغرابلى من قبل أمام قاضى الإحالة . واستغل القضية للطعن بقوة فى الرجعية ، وأعلن فى بداية دفاعه أن قضية العقاد هذه تمثل «مأساة أمة تمثلت فى مأساة فرد» إذ الواقع أن هذه القضية التى تبدو فى الظاهر بين النيابة والأستاذ العقاد إنما هى فى الحقيقة بين الرجعية والدستور ، أوهى بالأحرى بين مبدأ التأخر

ومبدأ التقدم أياً كان الشكل الذى قد يتخذه كل من هذين المبدأين ، أو الاسم الذى يتسمى به فى مختلف الأزمنة والظروف . وما العقاد إلا خصم للرجعية عنيد انهال عليها بضربات قتالة رأت أن لا قبل لها بها ، فاعتزمت أن تنكل به قبل أن ينكل بها ، ولما لم تقو على مجابهته وجهاً لوجه فرت إلى السدة الملكية ، تتعلق بركابها ، وتتمسح بأعتابها ، ولم تستح أن تتخذ منها ستاراً لعيوبها ، فأسندت العيب للذات الملكية ، والعيب كل العيب فيها» .

ونفى مكرم فى دفاعه أن يكون المقصود بالرجعية هو الملك ، واستمد ذلك من نصوص الدستور ؛ إذ قال : «ولكن ما الرجعية التى عناها العقاد؟ هى كل فكرة أو هيئة أوشخص مسئول عن العبث بالدستور أو بحريات البلاد فى أى زمن من الأزمان . وبما أن نص الدستور الذى استمات العقاد فى الدفاع عنه يقضى بأن الملك غير مسئول ، وأن ذاته مصونة– فلا يمكن أن ينصرف لفظ الرجعية إلى الذات الملكية ، لا موضوعاً ولا قانوناً» وعلى ذلك رأى مكرم أن العقاد لم يكن يقصد بالرجعية سوى الأحزاب المعادية للوفد والدستور .

ولام مكرم النيابة ، لأنها رفعت القضية على العقاد الذى لم يصرح مطلقاً فى مقالاته باسم الملك بالرغم من أن المادة ١٥٦ من قانون العقوبات التى طلبت النيابة تطبيقها على العقاد– يفهم منها أنه يجب أن يكون العيب صريحاً ومباشراً . وموجهاً إلى ذات الملك لا غمزاً ، ولا بطريق غير مباشر .

وفى الجلسة الثانية من جلسات المحاكمة والتى عقدت فى ٢٧ ديسمبر ١٩٣٠ أكد مكرم عبيد فى دفاعه أن العقاد لا يتهرب من مسئولية ما كتب : «بل هو وأنا معه نصرح بأننا قصدنا ولا نزال نقصد الرجعية ونطعن عليها كل الطعن ، والرجعية هى الوزارة الحالية وأنصارها وأذنابها ؛ كما ذكرت فى مرافعتى ، وإذا كانت هناك

مسئولية على العقاد فى ذلك فإنى أشاركه فى هذه المسئولية ولترفع النيابة الدعوى عليه وعلى ، أما أن يقال : إن الرجعية هى الذات الملكية فهذا ما لم يعنه هو ولم يقصد إليه أحد بل هو «وهم» فى ذهن النيابة ، ومن يحركون النيابة» .

وقد حاولت النيابة أن تؤكد أن العقاد قصد بالرجعية الملك بحديث صحفى كان قد أدلى به العقاد إلى صحيفة «الأحرار» البيروتية . ونشرته الصحيفة فى ١٢ أغسطس ، تحت عنوان : «الرجل الذى هدد بسحق أكبر رأس فى البلاد» ، وذكر فيه العقاد رأيه الذى كرره فى المقالات موضوع القضية ، وهو أن الرجعية هى المسئولة عن الأزمة الجديدة وليس الإنجليز ، وختم الحديث برواية ما جرى فى مجلس النواب من تهديد العقاد للملك.

ولكن (مكرم عبيد) استطاع فى الجلسة الرابعة المنعقدة فى ٢٨ ديسمبر أن يحصل من مراسل الصحيفة أمام المحكمة على اعتراف بأن صحيفته هى التى نشرت عنوان الحديث ورواية ما جرى فى البرلمان من عندها ، وأنه لم يسمعه من العقاد فى أثناء إجراء الحديث معه . وأكد الشاهد أن العقاد ذكر له بعد نشر الحديث أنه قال فى مجلس النواب : إنه مستعد لسحق كل رأس تعتدى على الدستور ، ولم يقل أكبر رأس كما وردت فى صحيفته نقلاً عن «المقطم» . ونفى الشاهد أمام المحكمة أنه فهم من حواره مع العقاد أن يقصد بالرجعية الملك . وقد ارتابت النيابة فى نية الشاهد لصداقته للعقاد . ولارتباكه فى أثناء الإدلاء بشهادته . ولكن مكرم عبيد استطاع أن يقدم للمحكمة فى الجلسة الخامسة التى عقدت فى ٣٠ من ديسمبر برقيات وردت إليه من إدارة صحيفة «الأحرار» تؤكد أن الصحيفة وضعت عنوان الحديث ورواية «المقطم» من عندها ، وأنه ورد إليها تكذيب من

مراسلها ، لما نشرته نقلاً عن « المقطم » ، ولكنها لم تنشره بسبب منعها من دخول مصر .

واستند مكرم عبيد إلى هذه البرقيات . وإلى مقال نشرته صحيفة « الاتحاد » سنة ١٩٢٧ من أن المقصود بالرجعية هو حزب الاتحاد ، وإلى عدم تعطيل الحكومة « للمؤيد الجديد » طوال نشر المقالات موضوع القضية ، وعدم رفعها الدعوى على العقاد فى أثناء كتابته لها كأساس لإسقاط التهمة ، وطلب البراءة .

والجدير بالذكر ، أن « المقطم » حاولت التأثير على المحكمة فى أثناء محاكمة العقاد ، فنشرت فى ٢٨ ديسمبر هجوماً شديداً على العقاد ساخرة من اتهامه لها بأنها صحيفة « رجعية للرجعيين » . وقد استرعى مكرم عبيد نظر المحكمة إلى هذه المحاولة من جانب « المقطم » ، فبادرت المحكمة إلى لفت نظر الصحف إلى عدم تناول أى شىء يمس القضية سوى ما يقال فيها علناً ، وإلا نظرت إلى ما ينشر بعين الاحتقار .

وأكد الدفاع عن محمود فهمى الخضرى عدم مسئوليته استناداً إلى أنه كان ستاراً للوفد الذى منحه رخصة صحيفة لا حاجة إليها إبان حكم الوزارة النحاسية ، لكى تُستغل عندما تتعرض صحفه لطوارئ الأزمات السياسية التى تمر بها البلاد ، وإلى أنه ظل ثمانى سنوات يعمل فى « كوكب الشرق » لم يحاول فى أثنائها كتابة شىء ، وأنه لم يكن فى يوم من الأيام صاحب رأى سياسى أو قلم يعبر عن أغراضه ؛ كما أكد الدفاع أن (محمود فهمى الخضرى) كان مريضاً ويجرى عملية جراحية فى الوقت الذى كانت « المؤيد الجديد » تنشر فيه مقالات العقاد موضوع القضية .

واستند الدفاع فى طلبه البراءة لمحمود فهمى الخضرى إلى ما سبق للقضاء أن

أثبته فى عدد من جرائم النشر ، من حيث عدم مسئولية صاحب الصحيفة ، طالما كان هناك شخص مسئول عن الصحيفة غيره .

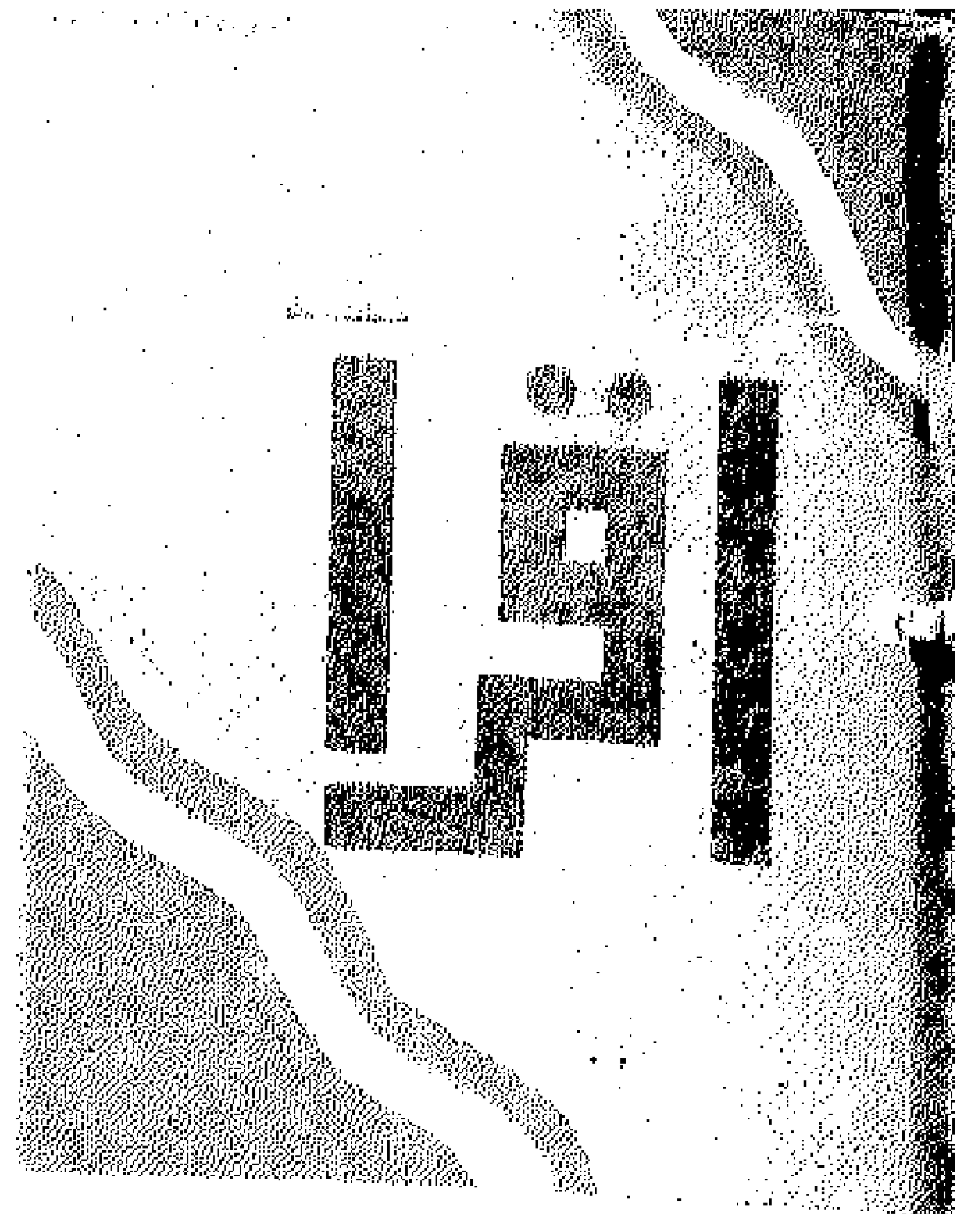
وفى الجلسة السادسة والأخيرة من جلسات المحاكمة ، والمنعقدة فى ٣١ ديسمبر ١٩٣٠ أصدرت المحكمة حكمها على المتهم الأول محمود فهمى الخضرى بالحبس لمدة ستة أشهر حبساً بسيطاً ، وبحبس المتهم الثانى عباس العقاد مدة تسعة أشهر حبساً بسيطاً ، وأمرت المحكمة بطبع الحكم فى ثلاث جرائد يومية بمصروفات على نفقة المحكوم عليهما .

وقد قوبل الحكم من الجمهور المحتشد داخل قاعة الجلسة وخارج المحكمة بالصمت التام ، وانصرف الجميع فى سكون وهدوء .

رقم الإيداع	١٩٧٩/٢٠٣١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٦٤٤ – ٤

١/٧٨/١٧٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



د . ابراهيم عبد المعطى

الطبيب البيطرى في خدمة المجتمع

اقرأ

تصدر أول كل شهر

[٤٤٥] إبريل – ١٩٧٩

د . إبراهيم عبد المعطى

الطبيب البيطرى فى خدمة المجتمع



دار المعارف

تصميم الغلاف : أحمد أبو عمر

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حفاظاً على صحتك وصحة اولادك

رغبة فى إيضاح أشياء تخفى عليك

إرشاداً لك لتوفر على نفسك الكثير.

وربما لا تسمع عن بعض الأمراض أو الحقائق فى يومك العادى ولكنها تكون مسببة لكثير من متاعبك بدون أن تتبينها .

من أجل كل ذلك راودتنى دائماً فكرة أن أكتب لك عن جانب هام جداً تغفل عنه أو هو غير واضح تماماً فى ذهنك .

ومن أجل أن يكون كتاباً لكل أفراد الشعب راعيت تبسيط الأسلوب العلمى وعرض الفكرة والاختصار التام واكتفيت بإبراز أهم الحقائق حتى تكون استفادتك سريعة .

وفقنا الله لما فيه خير البشرية .

د . إبراهيم عبد المعطى

أستاذ الأمراض الباطنية والمعدية

كلية الطب البيطرى – جامعة القاهرة

المحتويات

صفحة

صفحة

١ – الدور الذى تقوم به مختلف الحيوانات والطيور فى نقل الأمراض إلى الإنسان

(ا) الحصان (الفصيلة الخيلية) :

الحصان حيوان ذكي وسهل المعاشرة ومنذ مئات السنين تمكن الإنسان من تطويره للاستفادة منه .

مرض التهاب الدماغ والنخاع الشوكى فى الإنسان مرض فيروسى تتسبب الحشرات ماصة الدم فى نقله ، والحصان يلعب دوراً وسطاً كحامل للمرض ولو أنه ليس العائل الحقيقى للفيروس مسبب المرض .

يصاب الحصان أيضاً بداء الكلب (السعار) وبالتالى يمكن أن يتسبب فى إصابة الإنسان . مرض الحمى الفحمية يصيب الحصان أو بمعنى أصح الفصيلة الخيلية ويمكن أن ينتقل المرض إلى الإنسان من شعر حيوان مصاب عندما يستعمل هذا الشعر فى صناعة فرش الحلاقة أو من الملامسة لجلد حيوان بعد سلخه .

مرض البروسيلا - هذا المرض الخطير يصيب الفصيلة الخيلية ولو أن حيوانات أخرى تعتبر المسبب لهذا المرض فى الإنسان .

الرعام مرض مميت يصيب الفصيلة الخيلية وتتخذ السلطات المسئولة عن الطب البيطرى كافة الوسائل للقضاء التام على هذا المرض .

يوجد مسبب مرض التيتانوس فى أمعاء الخيول بدون أن تظهر على الحيوان أعراضه .

الحصان يلعب دوراً فى نقل أمراض اللولبيات والبريميات للإنسان ويلعب الحصان أيضاً دوراً فى نقل حوالى اثنى عشر مرضاً فطرياً للإنسان .

يصاب الحصان أيضاً بعدد معين من الطفيليات التى تصيب الإنسان – كذلك من الأمراض الجلدية مرض الجرب فقد تحمل الخيل هذا المرض الذى ينتقل إلى الإنسان .

(ب) الأبقار والجاموس :

البقر والجاموس حيوانات لها أهمية كبرى فى حياتنا فمنها نأكل اللحم ونأخذ اللبن وهى تتكاثر فيزداد عددها . يتعامل معها الفلاح أو الفلاحة بطريق مباشر ويتعامل معها أهل المدينة بطريقة غير مباشرة عن طريق إنتاجها فى غالبية الأحيان .

من الأمراض التى تلعب الأبقار والجاموس دوراً فى نقلها مرض الجدرى . ومن أخطر الأمراض الجرثومية التى يصاب بها الإنسان من الأبقار مرض البروسيلا وهو مرض غالباً ما يتسبب فى النهاية بالوفاة بعد معاناة شديدة وآثار رهيبة فى الجسم .

كذلك مرض السل والسالمونيلا .

وكذلك مرض الحمى الفحمية يصيب الإنسان عندما يلامس جلد الحيوانات المصابة أو إفرازاتها وكثير من الأمراض الأخرى تصيب الإنسان وسنشرحها بإيجاز . مثل الدفتريا – الحمى القرمزية – التسمم الدموى النزفى – اللسيتريا – الالتهاب المعوى المعدى – التسمم البوتيوليني – أمراض البريميات واللولبيات .

كثير من الأمراض الفطرية تصيب الإنسان كنتيجة لملامسته الحيوانات المريضة . وكثير من الطفيليات الداخلية التى تصيب الأبقار والجاموس تسبب متاعب مختلفة فى الإنسان . على رأس هذه المجموعة الديدان الشريطية وديدان هيداتيد .

كذلك يوجد نوع من الديدان الكبدية التى تصيب الأبقار والجاموس وتصيب الإنسان أيضاً .

من الحشرات التى تصيب الأبقار والجاموس نوعان يسببان متاعب فى الإنسان وهما طفيل الجرب ونغف البقر الذى تضع بعض الحشرات يرقاته على جلد الإنسان .

كذلك بعض الكيماويات التى تتناولها الأبقار تبقى فى أنسجة جسم الحيوان (طاردات الديدان – المضادات الحيوية) ويتناولها الإنسان عندما يستهلك لحمها .

(حـ) الخنزير :

يربى بعض الأشخاص الخنزير بغرض التجارة وكذلك من أجل التجارة فى لحمه ومنتجاته المختلفة . ويوجد حوالى اثنى عشر مرضاً جرثوميا تتعلق بالخنازير ولها أهمية بالنسبة للإنسان . من تلك الأمراض الحمى الفحمية – البروسيلا – السل الكاذب – السالمونيلا – السل – الليبتوسبيرا (البريميات) .

كذلك يتسبب الخنزير فى إصابة الإنسان بعدد من الأمراض الفطرية ويصاب

الخنزير بعدد من أمراض الأوليات مثل الأميبا (الدوسنتريا) — التريبانوسوما .

كذلك من أهم وأخطر الأمراض ذلك المرض الذى يحدث نتيجة وجود طور من أطوار الديدان الأسطوانية يسمى (التريكينيلا) ويسبب مرض التريكينوزس .

وعند إصابة الخنازير بالدودة الشريطية الوحيدة تصبح مصدراً لإصابة الإنسان بهذه الدودة العنيدة والخطيرة على صحته .

ويراعى فى المجازر التأكد من سلامة اللحم وخلوه من حويصلات هذه الدودة .

كذلك وجود بعض الطفيليات الداخلية التى تصيب الخنازير وتصيب الإنسان أيضاً .

أحياناً يعطى الخنزير بعض المضادات الحيوية أو طاردات الديدان ويختزنها فى جسمه ويتسبب ذلك فى الإضرار بالإنسان نتيجة استهلاكه للحم .

(د) الأغنام والماعز :

يربى الإنسان الأغنام للحومها وصوفها وجلدها وينتفع من الماعز بلبنها أساساً وجلودها أيضا . وفى بعض البلاد العربية يربى الإنسان الأغنام بأعداد كبيرة جداً للاستفادة من لبنها أيضا . والحقيقة أن الأغنام والماعز تلعب دوراً بسيطاً متصلا بصحة الإنسان إذا قورنت بغيرها من الحيوانات .

تلعب الأغنام دوراً خطيراً متعلقاً بمرض حمى الدنج ولو أن القوارض البرية هى العائل الأساسى لها .

تلعب الأغنام دوراً خطيراً متعلقاً بمرض حمى الرفت فالى ولو أن القوارض البرية هى العائل الأساسى لها .

كذلك يوجد عدد من الأمراض الجرثومية مثل البروسيلا والليستريا والسل

والطاعون والغنغرينا الغازية والليبتوسيرا فتقوم الأغنام بنقلها .

كذلك تتسبب الأغنام فى نقل عدوى بعض الأمراض الفطرية مثل القراع .

ومن الطفيليات التى تصيب الإنسان نتيجة استهلاكه للحوم الأغنام أكياس هيداتيد . وهى طور فى حياة دودة توجد فى بعض الأحشاء الداخلية للأغنام وهو عبارة عن كيس شفاف مملوء سائلا وبه رأس الدودة .

كذلك تتأثر لحوم الأغنام بتناولها المبيدات والمضادات الحيوية وطاردات الديدان وتحتفظ بها فى جسمها وينعكس ذلك بالإضرار بصحة الإنسان عند استهلاكه لتلك اللحوم .

(و) الجمال :

الجمال فى بعض المناطق تعتبر المصدر الأساسى للحصول على اللحوم واللبن والجلود والصوف .

وتصاب الجمال بدودة معينة توجد أطوارها فى الأحشاء الداخلية وهى أكياس هيداتيد وقد سبق شرحها .

كذلك تتسبب الجمال فى إصابة الإنسان بالقراع والجرب .

(هـ) الكلاب :

الحقيقة أن الكلاب من فصيلة آكلة اللحوم وهى تقريباً الوحيدة المستأنسة منها . والكلاب تلامس الإنسان فى حياته أكثر من أى حيوان آخر .

الكلاب حيوانات لطيفة مادامت غير مريضة فالأطفال يحاولون فى المنازل مداعبتها بطرق مختلفة ولكن بعضها يتقبل هذه المداعبة وبعضها يرفضها معبراً عن ذلك بالإيذاء بأية صورة بأن يعض أو يهجم أو يخدش ، وهذا مستساغ إذا كان

غير مريض بمرض مثل داء الكلب مثلا (السعار) ولكن إذا كان مريضاً بذلك المرض ، فالأمر مختلف ولا مجال لأخذ الأمر ببساطة ، فالمسألة مسألة حياة أو موت . كذلك يعتبر الكلب العائل الأساسى للأمراض الناجمة عن الركيتسيا وما تسببه من حميات منها : التيفود ، وتلعب الكلاب دوراً هاماً جداً فى وبائية مرض الليبتوسيرا .

وتتسبب فى نقل أمراض البروسيلا والليستريا والسالمونيلا والسل والطاعون للإنسان .

كذلك تلعب الكلاب دوراً فى نقل المرض من الإنسان إلى الإنسان وبخاصة مرض الحصبة والغدة النكفية . لذلك يجب ألا يقترب الكلاب من الإنسان فى حالة إصابته بهذه الأمراض .

وكذلك الحال بالنسبة لمرض الدفتريا والسل والحمى القرمزية وتلعب الكلاب دوراً هاماً فى نقل الأمراض الفطرية للإنسان مثل القراع وغيره وهى كذلك العائل الأساسى لمرض هام يسمى الليشمانيا وهو يتميز بنوعين من الأعراض نوع جلدى ونوع يصيب الأحشاء الداخلية .

كذلك تتسبب الكلاب فى نقل الأميبا مسببة الدوسنتاريا والتريبانوسوما ، وتعتبر الكلاب عائلا أساسياً ليرقات بعض الديدان الأسطوانية ، كذلك يصاب الإنسان بالدودة الشريطية الخاصة بالكلاب نتيجة ابتلاعه عائل العدوى وهو البرغوث فى غذائه ، ويصاب الكلب بنوع من طفيل الجرب وتنتقل هذه العدوى إلى الإنسان مسببة التهاباً جلدياً .

(ك) القطط :

القطط تلامس الإنسان فى حياته بصورة كبيرة ويوجد عدد كبير من القطط

هائم فى الشوارع . تصاب القطط بداء الكلب (السعار) وتنقله إلى الإنسان . كذلك تصاب بطفيل الجرب الذى تنتقل عدواه إلى الإنسان .

القطط تقاوم نسبياً عدداً كبيراً من الأمراض الجرثومية . وتصاب القطط بالبروسيلا وداء البريميات (الليبتوسيرا) الذى تنتقل عدواها للإنسان . وتصاب القطط أيضاً بالأمراض الفطرية التى تنتقل عدواها للأطفال (القراع) ومن أخطر الطفيليات الداخلية إحدى الديدان الأسطوانية المسببة مرضاً فى الإنسان .

ويصاب الإنسان بالديدان الشريطية الخاصة بالقطط عندما يلتهم ضمن بعض أغذيته أحد البراغيث التى توجد على جلد هذه الحيوانات .

ويوجد كذلك طفيل الجرب على جلد القطط ويتسبب فى إحداث التهاب جلدى فى الإنسان .

(م) الفئران :

يمكن القول إن الفأر هو أعظم الحيوانات مقدرة على عدم النفع بالنسبة للإنسان إذ لا يوجد ما يقال فى صالحه .

وتنقل الفئران أمراضاً لا تعد ولا تحصى وأخطرها الطاعون .

تلعب الفئران دورحامل المرض أو العائل لمسببى الأمراض لذلك كان التخلص منها أساسيا للقضاء على أمراض كثيرة .

(ز) الدجاج والطيور الأخرى :

الدواجن تمثل النسبة الكبرى فيما بين حيوانات وطيور المزارع . وأمراض الدواجن عديدة وبعضها يؤذى الإنسان .

بعض الفيروسات مسببات أمراض الدماغ التى تنتقل بواسطة الحشرات تجد فى

الدواجن والطيور الأخرى عائلا طبيعياً لها .

النيوكاسيل والأورنيثوزس من الأمراض التى تصيب نوعيات مختلفة من الدواجن والطيور ويصاب الإنسان بها كذلك .

الدواجن تحمل عدداً كبيراً من الأمراض الجرثومية مثل البروسيلا والليستريا والباستيريلا والسالمونيللا وكذلك السل ومن حسن الحظ أن الإنسان ليست عنده قابلية للإصابة بهذا النوع من السل الطيرى .

الدجاجة تعتبر حاملا لمسببات الدفتريا وكذلك تلعب الدجاجة دوراً كبيراً فى نقل بعض الأمراض الفطرية وأيضاً يحدث طفيل الجرب الذى يصيب الدجاج مسبباً التهاباً مصحوباً بحكة جلدية فى الإنسان .

٢-شرح مبسط للأمراض التى تنتقل من الحيوانات إلى الإنسان

السل

مرض خطير تسببه جرثومة محاطة بطبقة شمعية . وأنواعه : (بشرى - بقرى - طيرى) .

طرق نقل العدوى : عن طريق الجهاز الهضمى أكثر من أى طريق آخر تنفسى أو جلدى) .

الأطفال - وبخاصة أقل من ٥ سنوات - أكثر قابلية للإصابة بالمرض من الكبار ، كذلك العاملون بالمجازر أكثر تعرضاً للإصابة من غيرهم ، وتحدث العدوى نتيجة لتناول الألبان غير المعقمة أو غير المغلية غلياً جيداً أو اللحوم غير

المفحوصة بالمجازر .

السل فى الأبقار من أكثر الأمراض التى تصيبها وأهمية وكيفية حدوث العدوى وضراوة المسبب وقدرته على إصابة أكثر من عائل تجعل التغلب عليه والتحكم فيه من المسائل الصعبة .

المرض يصيب الكلاب من سن ١ – ٥ سنوات .

ويلاحظ عليها فقدان الوزن – كحة – تضخم – الغدد – فى الرأس والعنق والرئة والكبد والكليتان ويحدث المرض نتيجة لإصابة صاحبها أو نتيجة لتغذيتها بلبن ملوث .

المرض فى القطط غير منتشر فعندها مناعة للسل البشرى والطيرى ولكنها معرضة للإصابة بالسل البقرى .

السل فى القطط نادراً ما ينقل إلى الإنسان والأطفال أكثر قابلية للإصابة به .

الخنازير تصاب بأنواعه الثلاثة .

الخيول تصاب بصورة معتدلة بالنوع البقرى .

الحصان عندما يصاب بالسل الرئوى أو الكلوى عندئذ يصبح خطراً على الصحة العامة للإنسان .

القرود فى حدائق الحيوان أو فى بعض المنازل تصاب بالسل ، وأهم الأجزاء التى تصاب ، الجهاز التنفسى ولذلك يخشى منها على صحة الإنسان .

الغنم والماعز نادراً ما تصاب بالسل .

الطيور تصاب أساساً فى أثناء تغذيتها أحياناً بنسبة ضئيلة ، وتضع الطيور المصابة بالسل البيض وبه جراثيم السل (البيض البرشت) أو نصف المسلوق لا تقتل فيه جراثيم السل .

إصابة الحيوانات الكبيرة تحدث عن طريق الرئة ، أما العجول الرضيعة

فتصاب عن طريق القناة الهضمية .

من أخطر الأماكن التي تصاب بالسل ولها علاقة مباشرة بالإنسان الضرع . ونتيجة لذلك تنزل جراثيمه في اللبن .

لا يشترط نزول جراثيم السل من الضرع أن يكون الضرع به درنات واضحة يمكن جسها باليد أو بالمجهر .

ولجراثيم السل البقرى قدرة كبيرة على إتلاف الأنسجة بما يفتحه من قنوات تتصل بخارج الحيوان وهذا يلعب دوراً هاماً فى نشر العدوى للحيوانات الأخرى .

وكذلك لإصابة الإنسان ، فمثلا رئة الحيوان المصاب تتقرح وتفتح على القصبة الهوائية وتنتشر جراثيم السل فى هواء الزفير للحيوان المصاب مسببة العدوى للغير .

وربما تخرج مع البلغم فيبتلعها الحيوان وتنزل مع البراز . وإن إصابة الكلية بالسل ينتج عنه نزول الجراثيم فى البول وإصابة الجهاز التناسلى للأبقار ينتج عنه نزول جراثيم السل فى إفرازات المهبل وتتوقف عدوى الإنسان على كمية اللبن المأخوذ مباشرة من البقر أو الجاموس للاستهلاك المباشر بدون غليه وكذلك على استهلاك الكريمة ، ويتعرض القصابون وفاحصو اللحوم للإصابة بالسل عن طريق الجلد (النوع الجلدى) .

الحمى الفحمية

هذا المرض جرثومى يصيب الحيوانات فى المرتبة الأولى ويصاب الإنسان بصورة مباشرة وغير مباشرة كنتيجة لإصابة الحيوان .

الماشية : الخيول : البغال : الأغنام : الماعز : آكلات العشب : تصاب بشدة

الإنسان — الخنازير عندهما مناعة طبيعية .

الطيور عندها مقاومة عظيمة ضد هذا المرض .

ويصاب الإنسان عادة من خلال الجلد نتيجة لوجود جرح فى جسمه ثم ملامسته لإفرازات أو أنسجة مريضة .

ونادراً ما يصاب عن طريق الجهاز التنفسى . المرض مميت إلا إذا عولج سريعاً وحتى بعد العلاج يترك آثاراً رهيبة .

العدوى بهذا المرض تحدث أيضاً كنتيجة لعضة حشرة سبق أن امتصت دم حيوان مريض أو لاستخدام فرشة حلاقة مصنوعة من شعر حيوان مصاب .

علاج هذا المرض بواسطة المصل المناعى ومركبات الزرنيخ والسلفا والمضادات الحيوية .

البروسيلا

مرض منتشر عالميًّا – لها ثلاثة أنواع – كلها تسبب المرض فى الإنسان والحيوان .

أساساً هذا المرض حيوانى يتميز بحمى (الحمى المتموجة) . حالات الإصابة بالمرض تحدث بكثرة فى الصيف وتصاب الذكور بنسبة أكبر من الإناث .

تعقيم اللبن هو أهم وسائل منع المرض .

تشخيص المرض فى الإنسان : عند ظهور علامات (صداع – ضعف شديد ارتعاشة – حمى – عرق نساء) أعراض تستمر من ٤ – ١٦ أسبوعاً والعلامات الأولى تشبه حالات إصابة الجهاز التنفسى وهذا فى صورته الحادة .

فى الصورة المزمنة يستمر المرض بصورة متقطعة أو مستمرة مع حمى بسيطة تستمر أسابيع أو شهوراً أو سنوات . فى حالات أخرى تصاب المفاصل والجهاز التنفسى .

تشخيص المرض : معملياً .

والنوع المزمن من الصعب تشخصيه أكلينيكيًّا .

مرض الضامات

مرض جرثومى

ومصدر العدوى اللبن ويتميز هذا المرض بالتهاب المشيمة والإجهاض مع الحمى وهى العلامات المميزة له . كذلك يحدث التهاب رئوى مع كحة – التهاب شغاف القلب – وتتكون جلطات .

الحمى تستمر لمدة طويلة أسابيع أو شهور مع فقدان الوزن وشلل .

مسبب المرض فيروسى :

الإنسان يصاب من خلال جروح الجلد عند ملامسته أو غذائه على لحم خنزير مصاب أو سمك مصاب ونادراً ما تكون الإصابة عن طريق الفم .

والوقاية من هذا المرض باتخاذ الوسائل اللازمة لعدم ملامسة الخنازير أو عند وجود جرح باليد وملامسة الجثث بعد الذبح .

أعراضه : محددة معتدلة – جلدية ربما تكون مصحوبة بالتهاب بسيط فى المفاصل – تسمم دموى جرثومى مع التهاب السطح الداخلى للقلب ، التهاب سحائى . ومدة الحضانة للمرض من١٠ – ٣ أيام وأول علامته ألم فى مكان الجرح مع انتفاخ أو احمرار يميل للون القرمزى . وتتحدد فى منطقة مرتفعة نسبيًّا .

العدوى بالسالمونيللا

المرض عدوى وليس تسمماً

يعتبر من أهم الأمراض التى يتعرض لها الإنسان ويوجد أكثر من ٦٥٠ نوعاً

مختلفاً منها .

مدة حضانة المرض تتراوح بين ٧ - ٧٢ ساعة ، في بعض الحالات تقل مدد الحضانة إلى ٤ ساعات وتصل إلى حوالى سبعة أيام ، ويتميز المرض بحدوث التهاب بالمعدة والمصارين تساعد على وصول الجراثيم إلى مجرى الدم وفى هذه الحالة تصل الجراثيم إلى أعضاء أو أجزاء مختلفة من الجسم حيث يتمركز وجودها فيها .

كمية الجراثيم أو بمعنى أصح كمية الغذاء التالف تعتبر عاملا هاماً يحدد درجة الإصابة .

أحيانا كمية الجراثيم البسيطة تحدث أعراضاً ولكن يترتب عليها اعتبار الحيوان حامل المرض أى ينقل المرض للآخرين ولا تظهر عليه الأعراض .

الدجاج يلعب دوراً هاماً جداً كمخزن للجراثيم وكذلك الخنازير والأبقار والفئران والأغنام .

الذباب يقوم بدور حامل المرض الميكانيكى .

الوقاية من هذا المرض تتوقف على طهى الطعام وكذلك على كفاءة عمليات التبريد للحوم أو البيض ووقايتها من الذباب والفئران .

جراثيم المرض تنتقل من الدجاج والأوز إلى البيض - قشر البيض يمكن أن يحتوى على الجراثيم .

براز الفئران يستمر حامل العدوى لمدة تصل إلى ١٤٨ يوما .

الكلاب كذلك تقوم بدور حامل المرض .

الخنازير والماشية والأغنام المصابة يجب ألا تستعمل كغذاء .

الذين يحتفظون بالكلاب والقطط فى منازلهم يجب عليهم غسل أيديهم جيداً قبل الأكل أو فى أثنائه أو إعداده .

الليستريا

مرض جرثومي يصيب أساساً الجهاز العصبي للإنسان مسبباً التهابا سحائيا بالمخ ، ويسبب بعض حالات الإجهاض للسيدات . والتأخير للنمو العقلي فى الأطفال .

ولاتوجد طريقة عالمية مؤثرة لمنع حدوث هذا المرض .

طريقة انتقاله للإنسان غير مؤكدة .

الرعام

مرض جرثومي خاص بالخيول والبغال .

ويتميز بنزول صديد من إحدى فتحتي الأنف ويحدث المرض فى الإنسان نتيجة للملامسة المباشرة بالحيوانات المريضة ومدة الحضانة تتراوح بين ١ – ٥ أيام .

التخلص من المرض يعتمد أساساً على التخلص من المرض فى الخيول والبغال بعد دخول الجراثيم مع الطعام الملوث أو ماء الشرب ، تنتقل العدوى بواسطة الجهاز الدورى من الأغشية المخاطية البلعومية والمعدية إلى الرئتين وتتحدد الإصابة بها .

الأورنيثوزيس

مرض فيروسى – الإنسان عنده قابلية كبيرة للإصابة بهذا المرض . مدة الحضانة فيه يصعب تقديرها وإن كانت تتراوح بين ٧ – ١٥ يوما من بدء الملامسة مع الطيور المريضة وقد تصل إلى ٣٩ يوماً .

بداية المرض – ربما تكون فجائية أو تدريجية .

الأعراض : تشبه أعراض الإنفلونزا من صداع – أرق – ارتعاشة – فقدان للشهية – نعاس – كحة – إمساك – أحياناً إسهال – تمدد فى جدار البطن – نزول دم من فتحة الأنف فى حوالى ٢٥٪ من الحالات . تلاحظ نقط حمراء على الجلد الشاحب الأصفر – ارتفاع فى درجة الحرارة خلال الأسبوع الثانى والثالث مع بطء فى النبض – الحالات المميتة يصبح النبض سريعاً ولكنه يكون ضعيفاً ، ويحدث التهاب فى الأوعية الدموية ، وتتكون جلطات وهذا من المضاعفات ، وتصاب الرئتان فى كل حالة ما عدا الحالات الخفيفة الالتهاب الرئوى يتميز بأنه يحدث بدون تكون للبلغم . أحيانا تحدث مضاعفات للالتهاب الرئوى وتصلب الشعب الهوائية ويفرز بلغم صديدى ، كذلك من المضاعفات التهاب الكبد والتهاب عضلات القلب .

النقاهة فى هذا المرض بطيئة

ولو تعامل الإنسان مع الطيور متفهماً إمكانية انتقال العدوى منها إليه لأمكن التغلب على المرض .

ملحوظة :

الرومى والدجاج يلعبان دوراً فى انتقال العدوى وكذلك الحمام وتحدث إصابة الإنسان عن طريق الهواء باستنشاق غبار ملوث بالمادة المعدية ونادراً ما تحدث العدوى بالملامسة المباشرة .

التهاب الفم البثرى المعدى

مسبب هذا المرض فيروسى

ويصاب الإنسان فى بعض الأحيان وتكون إصابته معتدلة فى صورة التهاب أغشية الفم مع وجود حويصلات على اللثة واللسان والشدقين (الخدود) – والشفتين .

ويلاحظ وجود تضخم الغدد الليفية المجاورة للأماكن المصابة ويحدث هذا المرض نتيجة ملامسة الأشخاص للأغنام المصابة به .

النيوكاسيل

مرض فيروسى منتشر عالمياً

يصيب الطيور والحيوانات والإنسان ، يتخذ المرض صورتين فى الطيور فيحدث التهاب رئوى أو أعراض عصبية .

فى الإنسان نلاحظ حدوث حمى وارتعاش وصداع ويظهر على الجسم اعتلال عام مع التهاب فى الأذن ونزف تحت الجلد واستسقاء تحت الجلد. مصادر العدوى :

١ – الإفرازات التنفسية من الكتاكيت فى فترة حضانة المرض .

٢ – فى أماكن تحضير اللقاح وتشخيص المرض .

يحدث أيضاً نزف تحت الملتحمة بالعين ، واحتقان الأوعية الدموية بأجزاء العين المختلفة ، ونزول إفرازات مخاطية قيحية وإفرازات أنفية .

المرض يستمر حوالى أسبوعين والشفاء يحدث من تلقاء نفسه .

العلاج لا يجدى فى هذا المرض بخلاف بعض الأدوية التى تخفف من حدة الأعراض الموجودة .

مرض الفم والقدم (الحمى القلاعية)

يصيب هذا المرض أساساً الماشية ومسببه فيروس .

الإصابة تحدث للإنسان بصورة ثانوية .

والأعراض : حمى – آلام فى البلع – ظهور حويصلات على الغشاء المخاطى للفم وتحدث له مضاعفات .

ينتشر المرض بنسبة أكبر بين من يقومون برعاية الحيوان وينتقل إلى الإنسان عن طريق استهلاك اللبن أو منتجاته أو عن طريق ملامسته للعاب الحيوانات المريضة .

ملحوظة :

لبن الحيوانات المصابة يجب ألا يستخدم مباشرة فى غذاء الإنسان ولكن يجب غليه جيداً أو تعقيمه ويستحسن أن يستخدم فى عمل منتجات الألبان .

الجدرى

هذا المرض أصلا مرض إنسانى ينتقل من الإنسان إلى الإنسان .

المرض فى الإنسان يتصل اتصالا وثيقاً بأمراض الجدرى للحيوانات المختلفة .

ينتقل المرض إلى الحيوان وبعد ذلك عندما يصاب به الإنسان يتخذ صورة معتدلة محددة .

أعراض هذا المرض عبارة عن حويصلات تتحول إلى بثرات قيحية تتميز بانخفاض فى وسطها .

الغليان للبن لدرجة ١٠٠ درجة مئوية لمدة ثلاث دقائق يقتل مسبب المرض .

من حسن الحظ أن التطعيم أساسى لحماية الإنسان ولتتكون عنده مناعة ضد هذا المرض .

مرض العقد فى الحلابين

مسبب المرض شبيه بفيروس الجدرى ، مكان الإصابة : الأيدى والأذرع .

القابلية للعدوى : بين الذين يتعرضون للإصابة بهذا المرض تظهر الأعراض على أيديهم وأذرعهم مما يحبذ انتقال العدوى إليهم نتيجة الملامسة المباشرة للآثار المرضية على الحيوانات المصابة .

وتتخذ الأعراض شكلين أحدهما له نفس طبيعة ما يحدث بالنسبة للجدرى تاركة أثراً جلديًّا ، والثانى يلاحظ فيه حدوث حويصلات محاطة بمساحة حمراء تستمر من خمسة إلى سبعة أيام ، وهى علامات تتسع لتتحول إلى ندبات صلبة مطاطية الطبيعة لونها أحمر يميل إلى الأزرقاق وقطرها من ١ - ٢ سم ولا تتحول أبداً إلى بثرات وهى عادة غير مؤلمة ولكنها غالباً ما تسبب ميلا إلى الهرش .

أحياناً تتضخم الغدد اللمفية الموجودة داخل الإبط .

بالتدريج تلتئم هذه العلامة ويحدث الشفاء تاركاً علامة بها انخفاض فى مركزها ويتم الشفاء الكامل فى حوالى شهر ونصف .

داء الكلب (السعار)

مرض فيروسى مميت - لم يحدث أن نجا إنسان من الموت بعد أن ظهرت عليه الأعراض .

مدة حضانة هذا المرض فى الإنسان تختلف اختلافاً كبيراً وتتراوح ما بين ١٤ ١٥٠ يوماً منذ بدء تعرض الإنسان لعضة أو لعاب حيوان حتى ظهور أعراض

المرض عليه .

كافة الحيوانات تصاب بهذا المرض .

أعراضه · صداع – اختلال – حمى بسيطة – عصبية فى التصرفات – قلق – ألم – حرقان حول مكان العضة – هذا ما يحدث فى الفترات الأولى من المرض يزداد القلق والعصبية مع زيادة الحساسية والتهيج مع رغبة فى الحركة الدائمة . ومن علاماته المميزة الخوف من الماء وهذا يرجع إلى ألم فى عضلات البلعوم والمعاناة عند البلع فيتجنب الحيوان الماء وبعد ذلك تظهر مرحلة الشلل .

القطة المسعورة : عندما تعض شخصاً ما لا تترك الإنسان حتى تموت .

كلما قرب مكان العضة من رأس المصاب كان ظهور الأعراض أسرع .

كلما كانت العضة غائرة كان احتمال الإصابة مؤكداً وسرعة حدوث الأعراض أكبر .

لعاب الحيوان المريض كاف لكى ينقل المرض من خلال جرح بسيط فى الجسم . تعرض الأطفال أو أصحاب الحالات للحس الحيوانات فى المنزل له أهمية كبيرة فى حدوث المرض .

عند تعرض إنسان لعضة كلب مسعور أو مشكوك فى إصابته بداء الكلب يجب غسل الجرح غسلا جيداً بأسرع ما يمكن بمحلول مطهر تنظيف .

فى الجروح العميقة : الضيقة (الوخزية) ربما يلزم معالجتها سريعاً بأحماض معدنية قوية مثل حامض النيتريك .

لا يجب خياطة الجروح نتيجة العضة .

الجروح على الأيدى أو الوجه خطيرة جداً .

التهام الفيروس لا يسبب المرض مالم يوجد جرح فى الفم أو الزور وهذا صعب التأكد منه . العصارة المعدية تقتل الفيروس .

ولعلاج هذا المرض عند حدوث عضة يجب الذهاب فورا إلى مراكز الصحة لأخذ اللقاح الخاص بهذا المرض وهو يتكون من $\frac{1}{2}$ سم لكل كيلو جرام من وزن الجسم فوراً فى خلال ٧٢ ساعة من الإصابة يعقبها ١٤ حقنة لقاح ثم بالإضافة إلى ذلك بعد ١٥ عشر يوماً من الحقنة الأولى يجب إعطاء حقنة ثانية ثم بعد خمسة أيام حقنة أخرى.

يمكن علاج المرضى أيضاً بالمصل الوقائى ولكن يجب عمل اختبار جلدى للحساسية وهذا يعتبر هاما جداً.

والحساسية تظهر فى خلال ٨ – ١٠ أيام من بدء العلاج بالمصل المناعى عالى القيمة.

كما يلزم إعطاء مضادات الحساسية.

التهاب الفم الحويصلى

مرض فيروسى:

يشبه مرض الإنفلونزا ويتميز بارتفاع فى درجة الحرارة مع اعتلال عام ووجود آلام عضلية. لم تعرف الوسائل التى تحمى الإنسان من هذا المرض.

سبب العدوى: ملامسة حيوان مصاب بنفس المرض.

تحدث ارتعاشات جسدية قرب المساء مع نزول عرق واحمرار فى الملتحمة بالعين وتضخم اللوزتين وغدد الرقبة اللمفوية.

الشفاء يتم بدون مضاعفات خلال أسبوع

كذلك نلاحظ تكون حويصلات على الأغشية المخاطية للفم الموجودة على اللثة السفلى تتحول إلى قرحة قطرها يصل إلى ٢ ملليمتر مع وجود الاحمرار حولها.

المرض الناجم عن خدشة القطط

مرض فيروسى :

القطط لها الدور الهام فى إحداث المرض الذى ينتج عن الملامسة المباشرة معها ، والعدوى تصل إلى الجسم من خلال الجروح الموجودة على الجلد أو نتيجة خربشة أو عضة القطط .

فتحدث ارتشاحات وتضخم الغدد الللمفاوية القريبة من مكان الإصابة ، وتصبح حساسة ومؤلمة ، ويستمر التضخم لمدة قد تصل إلى عدة أسابيع أو شهور ، وأحياناً تتقيح الأماكن المصابة ونلاحظ حدوث حمى مع ارتعاشة واعتلال عام وفقدان للشهية مع ألم عام فى الجسم وميل للقىء ، وكذلك تحدث آلام فى المعدة ، ونلاحظ وجود طفح جلدى مع شحوب الحالة .

الاعتلال نتيجة شرب اللبن

يصاب الإنسان بهذا المرض نتيجة لشربه للبن من حيوانات أكلت نباتاً ساماً أو من استهلاكه لمنتجات الألبان من الماشية التى أكلت هذه النباتات .

الحقيقة أن اللبن فى السوق يكون نسبياً لا خطر منه كنتيجة لتخفيفه بألبان أخرى من حيوانات أخرى فى أماكن تجميع اللبن . هذه السموم تسبب ضعفاً وإجهاداً وآلاما فى البطن مع ميل للقىء والإمساك وشعور بالعطش ، ونلاحظ فقدان الشهية وضعف النبض ، كذلك نلاحظ معاناة فى التنفس ويحدث انخفاض فى درجات الحرارة ، ويمكن ملاحظة رائحة الأسيتون فى هواء الزفير وربما يحدث

سلل فى الزور والأمعاء وينتهى بالوفاة . والمريض لا يتحمل الأغذية الثقيلة ولكن يجب تغذيته على غذاء خفيف ونسبة الوفيات ٢٥٪ .

الكيماويات فى المنتجات الحيوانية :

الكيماويات التى يستخدمها الإنسان للقضاء على الحشرات والأمراض المختلفة خلقت مشكلة لما يتبقى منها فى الأغذية التى من أصل حيوانى (لبن – لحمة) فوجود هذه البقايا فى هذه الأطعمة يتمثل فى إحدى صوره فى الحساسية الموجودة عند الإنسان لبعض المضادات الحيوية .

فمثلا هذه المواد عند استخدامها كعلاج للحيوان ينتقل بعضها إلى اللبن الذى يتغذى به صغيرها ويحتفظ بها فى جسمه إلى حد ما حتى يستهلك كمورد لغذاء الإنسان .

والحقيقة من الصعب اكتشاف هذه الكيماويات فى حياتنا اليومية ، فالفلاح الذى يعالج حيوانه المريض بدواء معين لا يقصد إيذاء الإنسان ، ولكن التحكم فى نوعية تلك الأمراض يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقوانين العامة التى تحكم استخدام الدواء .

٣ – طفيليات الحيوان تنقل أمراضها للإنسان

مشكلة إصابة الإنسان بطفيليات الحيوان مشكلة خطيرة جداً . طفيليات الإنسان تتصل اتصالا وثيقاً بتلك التى تتطفل على الحيوانات بل أحيانا تتشابه معها.

طرق تعرض الإنسان للإصابة بطفيليات الحيوان هى كما يلى :

١ – عن طريق تلوث غذاء الإنسان بأطوار مختلفة من حياة الطفيليات التى

تخرج مع براز حامل المرض . وتلوث الغذاء أو الماء أو الأيدى كما يحدث فى حالة بعض ديدان الكلاب أو الأغنام أو الماعز أو الماشية .

٢ – عندما يتناول الإنسان طعاماً به يرقات الطفيل كما يحدث فى لحم الخنزير (مرض تريكينوزس) ، أو فى بعض الأسماك أو عند تناول لحم بقرى أو جاموسى به حويصلات .

٣ – عندما يدخل العائل الوسيط للمرض (براغيث الكلاب والفئران) مصادفة إلى الجهاز الهضمى للإنسان .

٤ – بالاختراق المباشر للجلد .

(ا) من التربة الرطبة يرقات سترونجلس

(ب) شيشتوسوما .

(حـ) عندما يضع حامل المرض (الحشرات) مسبب المرض بطريقة مباشرة على سطح جلد الإنسان (فيلاريا – تريبانوسوما)

(د) عن طريق ثقب جلد الإنسان كما فى البعوض والذباب .

٥ – بالملامسة المباشرة كما فى حالة الجرب .

٦ – وضع بيض أو يرقات بواسطة نوع من الذباب كما فى حالة نغف الغنم والبقر .

الطفيليات الأولية

١ – انتاميبا هيستوليتكا (مسببة الدوسنتاريا) يوجد الطفيل طبيعياً فى القوارض وأحياناً فى الكلاب أو الفئران .

٢ – بالانتيديم كولى الموجود فى براز القرود والخنازير وهو طفيل خطير للإنسان ويسبب نوعاً من الدوسنتاريا الخطيرة وينتقل إلى الإنسان بواسطة الحشرات ماصة الدماء .

وهو أخطر من السابقة إذ يسبب آثاراً مرضية خطيرة فى الأمعاء الغليظة فيخترق جدرانها بصورة أفظع من النوع السابق وهذه العدوى تنشأ من تلوث غذاء الإنسان بنفايات الخنازير ، وهى تحدث بنسبة أكبر بين من يتعاملون معهم .

٣ – الليشمانيا وتعيش فى الدم وتسبب آثاراً جلدية سيئة وداخلية أيضاً وتنتقل بواسطة الكلاب التى تعتبر وعاء لها ، تأخذه منها ذبابة معينة وتنقله إلى الإنسان .

٤ – التريبانوسوما وتسبب مرض النوم وخلافه من أمراض حسب نوعياتها المختلفة . الكلاب والقطط والخفاش والقرود والقوارض تلعب دور حامل المرض .

الطفيليات الداخلية (الديدان)

وتسبب فى الإنسان الإصابة التالية :

١ – تريكينوزس وهو مرض طفيلى خطير ينتقل إلى الإنسان عند أكله لحم الخنازير المصابة به والموجود بها الطور المتحوصل سواء كان اللحم غير مطهى جيداً أو فى صورة نيئة .

وتنقسم عدواها إلى ثلاثة مراحل :

(ا) مرحلة الهجوم فى جدار الأمعاء مع حدوث أعراض تشابه أعراض التسمم الغذائى .

(ب) مرحلة هجرة اليرقات مع حدوث التهاب عضلى شديد قاس واستسقاء

(حـ) مرحلة التسمم وهى المرحلة التى يخرج فيها الطفيل من حويصلته .

٢ – الإنكلستوما الموجودة فى أمعاء الكلاب والقطط (فى المناطق الحارة) .

٣ – الإسكارس من الكلاب وتتسبب فى إصابة الأحشاء الداخلية للإنسان .

٤ – ديدان ترايكوسترونجيلس وتصيب الإنسان من آكلات الأعشاب .

٥ – ديدان هيمونكس وتحدث من الأغنام والماشية .

٦- ديدان ميتاسترنجليس فى الجهاز التنفسى للأغنام والخنازير والماشية .

٧- سينسجاموس : توجد فى الجزء العلوى من الجهاز التنفسى للأبقار والجاموس والماعز .

٨- سترونجيلس (ديدان خيطية) موجودة فى الكلاب ، وبعض يرقات تلك الديدان تهاجر إلى الأماكن الحساسة فى الإنسان مثل المخ والعين والكبد وتسبب إتلافاً خطيراً فى هذه الأجزاء الحيوية .

٩- ديدان شريطية وهى كثيراً ما تصيب الإنسان وتحدث الإصابة بأنواع منها نتيجة التهام الإنسان للعائل الوسيط ضمن غذائه (براغيث الكلاب) .

١٠- عند تناول الإنسان بعض الأسماك التى تعتبر عائلا لها .

١١- حويصلات الديدان الشريطية الموجودة بين ألياف عضلات لحوم الأبقار والجاموس .

١٢- حويصلات الديدان الشريطية الموجودة بين ألياف عضلات لحوم الخنازير .

١٣- الأكياس المائية (أكياس هيداتيد) .

١٤- الديدان الكبدية .

١٥- تقوم بعض الحشرات (البراغيث - طفيل الجرب والقراد) بدور حامل المرض (الطاعون / التيفوس / الجرب / الحمى المترددة والتولاريميا)

١٦- كذلك يسبب طفيل الجرب الذى يصيب الخيول والكلاب وحتى الطيور فى إحداث التهاب فى أدمة الجلد فى الإنسان .

الامراض الفطرية

وتنقسم هذه إلى نوعين :

نوع يسبب آثاراً مرضية فى الأنسجة المختلفة للجسم ذاته كمرض الشعاعيات الذى يصيب عظام الفك أو اللسان ونوع يصيب أدمة الجلد كمرض القراع .

مرض الشعاعيات

هذا المرض مزمن ينتقل من حيوان إلى آخر ومن إنسان إلى آخر أو من حيوان إلى إنسان ، وطريقة انتقال العدوى غير مؤكدة ، وفى العادة الفلاحون أو من يقومون برعاية الماشية هم الأشخاص الذين يتعرضون لهذا النوع من الإصابة .

يحدث فى هذا المرض تضخمات التهابية فى عظام الفك مع نزول نوع من القيح لونه مثل لون العسل الأبيض وبه حبيبات بيضاء تميل إلى الاصفرار تنزل من فتحات فى سطح الجلد مثل فتحة الناصور .

أحياناً تصاب الرئة أو الأمعاء بهذه العدوى نتيجة ابتلاع الإفرازات أو دخولها بطريق الخطأ إليها .

مرض القراع

وهذا النوع تظهر آثاره المرضية على سطح جلد الحيوان ، وهى عبارة عن أماكن مستديرة خالية من الشعر يميل لونها إلى اللون الأبيض المائل إلى الرمادى توجد بها مسببات المرض .

النوكارديا

تصاب الماشية والماعز والقطط والحصان والكلاب والحيوانات الأخرى بهذا المرض ، وإصابة الإنسان تحدث كنتيجة لملامسة الحيوانات المريضة ، هذا المرض مزمن قيحي .

أحياناً عند إصابة أحد الأطراف تتكون ندبة غير مؤلمة صغيرة . تنفجر وتنزل منها إفرازات قيحية مصلية وتبدأ نفس الأعراض فى الظهور فى أنسجة أخرى على التوالى ، وتتكون بها فتحات مثل فتحة الناصور . يصل تأثير هذا المرض حتى العظام ويستمر المرض عدة شهور أو سنوات . ولكنه يتحدد فى مكانه ، وأحياناً ينتشر إلى الرئتين وباق أجهزة الجسم .

وتتكون خراريج عديدة فى الجلد .

كريبتوكوزيس

مرض مزمن واسع الانتشار عالمياً ويسبب التهاباً مزمناً فى سحايا المخ وأحيانا تصاب الرئة ، ويستمر هذا المرض مدة طويلة جداً قبل أن ينتهى بالوفاة .

طريقة انتقال العدوى فى هذا المرض غير مؤكدة ويعتقد أنها تحدث بواسطة الاستنشاق أو من خلال شرب اللبن غير المعقم .

كوكسيد يوميكوزيس

مرض يصيب الماشية والكلاب أساساً ويصيب الإنسان عن طريق الاستنشاق ومن خلال الجروح ، ويحدث فى صورة نوعين : أولها : التهاب رئوى حاد عادة ما يكون محدداً وفى بعض حالاته يشبه الإنفلونزا .

والثانى : يحدث بصورة عدوى عامة مزمنة تؤثر فى الجلد والأحشاء الداخلية والصدر والخصيتين وسحايا المخ والعظام والمفاصل ، وهذا النوع يقاوم العلاج المضاد .

بلاستو ميكوزيس

هذا مرض يصيب الكلاب وطريقة إصابة الإنسان بهذا المرض غير واضحة ويعتقد أنها من خلال الاستنشاق . وتحدث نوعيات هذا المرض فى ثلاث صور .

(ا) نوع جلدى يوجد على الأجزاء المعرضة من الجسم فى صورة حويصلة تتقرح وتتقيح ، ويعقبها التهاب جلدى حول القرحات .

(ب) نوع رئوى ويتشابه مع أعراض السل والسرطان .

(حـ) نوع عام يعتقد أنه ينشأ عن طريق الإصابة الجلدية أو الرئوية .

اسبيرجيللوزيس

مرض هام يصيب الطيور والدواجن .

يصاب الإنسان عن طريق الاستنشاق ويحدث المرض بين من يعملون فى تحضير أعلاف الحيوان وبخاصة التى تتكون من الحبوب وبخاصة عندما تكون متعفنة بالفطريات أو فى أثناء تنظيف فرشة الحيوان التى ينام عليها والتى تتكون عادة من قش الأرز أو غيره . . . .

ويحدث هذا المرض فى ثلاث صور :

الأولى : تتأثر فيها الرئتان .

الثانية : تتأثر فيها سحايا المخ .

الثالثة : يحدث بها التهاب بالعين .

هيستوبلازموس

يحدث فى الكلاب بصورة أساسية .

وفى القطط والخيول والأبقار والأغنام بصورة أقل .

ويصاب الإنسان عن طريق استنشاق الغبار الملوث بسبب المرض ، ويتميز هذا المرض بوجود تقرحات على اللسان والفم والبلعوم . ربما يمتد تأثير المرض إلى الأحشاء الداخلية مع تضخم الغدد الليمفيه والطحال والكبد ويتميز المرض بحمى غير منتظمة الارتفاع وفقر دم وهزال .

السعفة

تصاب الدواجن بهذا المرض الذى يظهر فى شكل بقع بيضاء على العرف والدلّايات وهو مرض مزمن نسبيًّا وينتقل هذا المرض إلى الإنسان .

أديا سبيروميكوزس

مرض يصيب الأرانب وآكلات اللحوم وآكلات الحشرات . الإصابة بهذا المرض تحدث بالملامسة المباشرة مع الحيوانات المريضة .

التهاب الأوعية الليمفاوية

مرض يصيب الخيول والبغال والحمير .

ويحدث هذا المرض فى الإنسان نتيجة الملامسة المباشرة مع الحيوانات المريضة أو من خلال جرح جلدى أو بواسطة بعض الحشرات التى تحمل المرض على جسمها .

٤ – انتقال أمراض القوارض والحيوانات البرية للإنسان

ليتو سبيروزوس (داء البريميات)

هذا المرض منتشر عالميًّا وتحدث الإصابة به من خلال الأغشية المخاطية (الملتحمة – الأنف – الفم – المهبل) وكذلك من خلال الجروح الجلدية.

الأعراض تعتمد اعتماداً مباشراً على أماكن تواجد مسبب المرض. ففى الأيام الأولى من العدوى تتمركز فى الطحال والكبد والكلاوى.

وتحدث هذه العدوى الإجهاض للحوامل وتلف الكلية ومضاعفات سيئة للعين كذلك تسبب التهاباً فى الدماغ أو التهاب فى سحايا المخ.

ويتأثر الكبد مع حدوث أنيميا نزفية.

الوقاية من هذا المرض ليس مشكلة سهلة ولكنها ذات نواحٍ متعددة وتعتمد على التالى:

١ – التخلص من الفئران كحامل وعائل لهذا المرض.

٢ – التخلص من الكلاب الضالة.

٣ – استخدام التطعيم الواقى من هذا المرض.

الطاعون

مرض يصيب القوارض أساساً

يحدث فى هذا المرض نوعان هامان الأول: وهو الذى يتميز بإصابة الغدد الليمفية وتضخمها وحساسياتها.

الثانى: وهو الذى يتميز بالالتهاب الرئوى.

القضاء على المرض يتحدد فى :

(أ) الإجراءات الصحية للتخلص من القوارض حاملة المرض وبالتالى التخلص من المرض ذاته .

(ب) منح المناعة للأشخاص

(حـ) العلاج بكميات كبيرة من المضادات الحيوية .

ملحوظة :

القضاء على البراغيث والفئران من أهم المقومات للتخلص من هذا المرض :

الحمى الراجعة المتوطنة

يسبب هذا المرض نوع من اللولبيات . حامل هذا المرض القراد والقمل . الحيوانات التى لها قابلية لإصابة هذا المرض الخيول ، الماشية ، الخفاش ، الفئران .

يتميز هذا المرض فى الإنسان بحمى متغيرة أى حمى تتخللها فترة تزول فيها الحمى وتختفى أعراضها . ويتميز المرض ببداية فجائية مع صداع وارتعاشه ونزول عرق غزير مع آلام رهيبة فى الظهر والأطراف والمفاصل . . ثم يسترجع المريض حالته الطبيعية لمدة أسبوع ثم تتكرر تلك الحالة ثانية . . وهكذا . . أحيانا تحدث أعراض عصبية وسمعية مع التهاب أعصاب طرفى .

التولاريميا

هذا المرض يصيب الحيوانات البرية والطيور . ويصاب الإنسان بأكثر من عشرين طريقة بهذا المرض .

ينتقل بالحشرات أساساً وبطرق أخرى متعددة منها ملامسة الحيــوانات المريضة أو الحشرات المصابة أو الماء الملوث أو الطعام الملوث أو اللحم المصاب غير المطهى جيداً. وكذلك تحدث الإصابة من خلال الاستنشاق.

جميع الأعمار معرضة للإصابة بهذا المرض.

مدة حضانة هذا المرض حوالى ثلاثة أيام (١ - ٩ - أيام).

يتميز هذا المرض بحدوث صداع - رعشة - قيىء - حمى - آلام فى مختلف الأماكن - عرق - فقدان الوزن - هزال.

تستمر مدة المرض من ثلاثة إلى أربعة أسابيع.

النقاهة فى هذا المرض بطيئة من ٢ - ٣ أشهر.

يحدث هذا المرض أيضاً قرحات جلدية مع تضخم الغدد الليمفية فى المنطقة - التهاب ملتحمة العين - ربما يحدث التهاب رئوى وقد يأخذ شكلا مشابهاً لمرض التيفود وأحياناً يحدث التهاب فى سحايا المخ بالإضافة إلى التهاب الفم والبلعوم.

الوقاية من هذا المرض تتوقف على تجنب العدوى والتطعيم.

التهاب الدماغ والنخاع الشوكى

الطيور سواء منها البرية أو الداجنة تعول عدداً كبيراً من مسببات هذا المرض وهى فيروسات خاصة.

الحشرات الماصة مثل البعوض تحمل هذه الفيروسات من الطيور والحيوانات - وتنقلها إلى الإنسان مسببة للمرض به.

نسبة الوفيات للإنسان فى هذا المرض كبيرة.

حمى الوادى المتصدع (الرفت فالى)

مرض غالباً ما يصيب الأغنام والأبقار.

ينتقل بواسطة الباعوض.

مسبب المرض فيروسى وكان يعتقد أنه يسبب حمى الدنج ولكن ثبت خلافه مدة المرض قصيرة ولكنها قاسية وأحيانا مميتة فى الأغنام والماشية والنعاج والأبقار الحامل تجهض عند الإصابة بهذا المرض.

الإنسان يصاب بملامسة الحيوانات المريضة ومدة الحضانة فى الإنسان من ٣ – ٦ أيام. الأعراض : يتميز هذا المرض ببداية فجائية – تصلب مؤلم فى الأرجل، آلام فى الظهر، صداع، تأثر بالضوء، ميل للقىء أو قىء مع آلام بطنية. الحمى تستمر أسبوعاً (وهى ذات طورين)

المرض نادراً ما يسبب الوفاة للإنسان.

تحتقن العيون ويلاحظ على الوجه الاحمرار.

السل الكاذب

المسبب لهذا المرض جرثومى.

وله القدرة على إحداث عدوى تختلف فى درجة شدتها فى الإنسان وهو يصيب الكبد والطحال والغدة الليمفية للبريتون. والنوع البسيط لهذا المرض يصيب الأطفال وتحدث فيه آلام فى البطن واشتباه فى الإصابة بالمصران الأعور.

حمى الريكيتسيا

مسبب هذا المرض ريكتسيا

ويوجد فى القراد أو برازه . حامل المرض · الماشية – الأغنام – الماعز – القوارض – وينتقل هذا المرض باستنشاق مسبب العدوى ويتميز هذا المرض ببداية فجائية حادة – ارتعاشة – ضعف – حمى – صداع – آلام فى الرقبة – حرقان بالعين مع آلام فى الأرجل والمفاصل – كحة – التهاب رئوى . يستمر المرض من يومين إلى ثلاثة أسابيع .

٥– الحيوانات تنقل المرض من إنسان لإنسان

أمراض الإنسان يمكن أن تنتقل إلى الحيوان ثم تنتقل إلى الإنسان مرة ثانية . وتقوم الحيوانات بدور ناقل المرض أى أن المرض لا ينتقل من إنسان إلى إنسان بصورة مباشرة لكن يحدث ذلك بصورة غير مباشرة .

من الأمراض ذات الأهمية القصوى على الصحة العامة :

١ – السل البشرى (بواسطة الكلاب والخنازير) .

٢ – الدوسنتاريا الأميبية (الفأر – الكلب – القط –القرد)

٣ – الليشمانيا الجلدية (الكلب – القط)

٤ – الليشمانيا الحشوية (الكلب – القط) .

٥ – شستوسوما (الكلب – الخنزير – البقرة – الحصان – الجاموس – الفأر)

٦ – الجدرى

الدفتريا

مرض حاد يتميز بحمى مع إصابة الزور واللوز .

القطط – والدجاج لها القدرة على نقل المرض للإنسان .

الدفتريا ربما تصيب الأبقار والكلاب والقطط .

يمكن انتشار المرض عن طريق اللبن الملوث .

مصادر العدوى : إفرازات الأغشية المخاطية للأنف والبلعوم للأشخاص المصابين ومدة حضانة هذا المرض ٢ – ٥ أيام وأحيانا أكثر من ذلك

التهاب الزور التقرحي

العدوى بهذا المرض تصل إلى اللبن من الإنسان ويتلوث اللبن من مصادر بشرية ويصبح ناقلا للعدوى . أي أن اللبن يحمل العدوى من الإنسان إلى الإنسان حتى الأبقار التي تقوم بدور حامل المرض تصاب عن طريق الإنسان وللتخلص من هذا المرض يلزم تعقيم اللبن .

الحمى القرمزية

مرض جرثومي – تحدث العدوى فيه نتيجة الملامسة المباشرة للجروح والتسلخات أو بتناول اللبن الملوث .

هذا المرض يتميز ببداية فجائية مع حمى والتهاب في الزور وظهور بقع جلدية لها لون قرمزي .

يجب ألا يلامس إنسان مصاب بهذا المرض الأبقار الحلوب كذلك يلزم تعقيم اللبن .

مرض الغدة النكفية

مرض فيروسى يعتبر الإنسان الوعاء الأساسى له – القطط والكلاب تلعب دوراً هاماً فى نقل هذا المرض بل إن الكلاب تصاب بنفس المرض . ويوجد الفيروس مسبب المرض فى لعاب الحيوان المريض .

الجدرى

مرض عالمى يصيب الأطفال .

انتقال المرض يحدث من خلال إفرازات الجهاز التنفسى لمريض إلى إنسان سليم . واعتبر الإنسان المريض لزمن طويل هو العائل الوحيد لهذا المرض . ولكن وجد أن القرود يمكن أن تعول هذا المرض وتنقله إلى الأطفال .

الحصبة

مرض فيروسى سريع الانتشار والإنسان هو الوعاء الأساسى لهذه العدوى وينتشر المرض عن طريق الرذاذ الخارج من الأنف أو الزور بشخص مصاب ويعتقد أنه يوجد تشابه بين الحصبة التى تحدث فى الإنسان ومرض الديستمبر الذى يصيب الكلاب .

شلل الأطفال

البقرة والخنزير يمكن أن يلعب دوراً وعائياً لمسبب شلل الأطفال – وقد ثبت أن لبن الأبقار ينقل مسبب المرض ولكن ثبت أيضاً أن الأبقار ليس لها أى علاقة بتلوث اللبن .

٦ - الحيوانات حاملة لمسببات الأمراض للإنسان

ربما تحمل الحيوانات فى أمعائها بعض مسببات الأمراض بدون أن تسبب لنفسها أى أذى ظاهر مثل الكزاز - التيتانوس - والغنغرينا والتسمم .

التيتانوس

المكان الطبيعى لتواجد هذه الجراثيم هو أمعاء الحيوانات آكلات العشب وإلى درجة بسيطة أمعاء الإنسان . مرض التيتانوس فى الإنسان أوالحيوان هو مرض ينتج عن تلوث جرح ويحتاج إلى إصابة جلدية لتتواجد فيها الجراثيم المسببة . من خلال الفم لاالجراثيم ولاسمومها تضر الإنسان أوالحيوان - الجروح النافذة نتيجة مسمار أوخلافه تهيئ ظروفاً جيدة لتكاثر الجراثيم وبالتالى لحدوث المرض .

هذا المرض من أهم الأمراض التى يحتاط لها الأطباء فى أثناء العمليات الجراحية والتى يجب أيضاً أن يتنبه لها الأشخاص عند إصابتهم بجرح ولاسيما إذا كان فى القدم .

الغنغرينا الغازية

وتحدث نتيجة تلوث الجروح بجراثيم توجد فى أمعاء الحيوانات السليمة (الماشية - الأغنام - الخنازير - الكلاب والقطط - الأرانب - الدواجن - الإنسان) وإن عمق الجرح ووجود ميكروبات أخرى يؤثر على درجة استسقاء المكان المصاب .

البوتيوليزم

هذا المرض عبارة عن تسمم دموى جرثومى حاد منتشر انتشاراً عالميا.

السموم تهضم من خلال تناول أطعمة تكاترت ونمت فيها هذه الجراثيم. الأطوار المتحوصلة لهذه الجراثيم لاتتأثر بدرجات الحرارة العالية ولمدد طويلة جدا. وهذا له اعتبار هام جداً فى تصنيع الأغذية المحفوظة. أى أن غليان أوتسخين الأغذية المحتوية على هذه السموم لايفقد فاعلية هذه السموم.

ملحوظة : حوصلة الطيور المصابة تعتبر مثل الحاضنة لهذه الجراثيم.

٧- الأمراض التى تنتقل من طيور الزينة إلى الإنسان

كثير من الطيور البرية تستخدم أو يحتفظ بها فى المنازل للزينة.

وأحياناً تحمل فى جسمها علات وأمراضا مزمنة تنتقل إلى الإنسان. الحقيقة أن الملامسة المباشرة ربما لايلزم أن تتوفر للإصابة بأمراضها حيث إن القراد مثلا يقوم بدور الناشر لهذه الأمراض. من هذه الأمراض (النيوكاسل- توكسوبلازموزيس - هيتروفياسز - التهاب الدماغ - التولاريميا - سيتاكوزس) السل الكاذب. حتى الحمام الذى يوجد بالشوارع وينتقل من سطح منزل إلى آخر يحسن اعتباره بريا فإلى جانب مرض الأورنوثوزس والسالمو نيللوس والنيوكاسل فهو ينقل مرض كريبتوكوكو زليس.

٨ – ملخص شامل لأهم الأمراض التى تنقلها الحيوانات والطيور للإنسان

المرض	العائل	طرق انتقال العدوى
الشعاعيات	البقرة – الحصان – الخنزير وخلافهم من الحيوانات المستأنسة	عير مؤكدة
الأميبيا	الكلب – القط – القرد – الفأر	الشراب والطعام الملوث
أنكلستوما الكلاب والقطط	الكلب – القط – آكلات اللحوم المفترسة	من خلال الجلد
الحمى الفحمية	البقرة – الحصان – الغنم – الماعز – الخنزير الكلب – القط – الدجاج	ملامسة شعر أوصوف أوالجلد المسلوح – قرصة الحشرات والطعام الملوث .
المرض الناجم عن استخدام المضادات الحيوية (الكيماويات) وطاردات الديدان	البقرة – الماعز – الأغنام – الخنزير الدجاج	تناول اللبن أواللحم من حيوانات عولجت بها

المرض	العائل	طرق انتقال العدوى
الإصابة بالإسكارس	الخنزير	الطعام والشراب الملوث
الإسبيريجيللوزس	الدجاج- الحصان- البقرة- الحملان- القط الخنزير	باستنشاق حويصلات المرض
بالإنتدياسز	القرد- الكلب	الطعام والشراب الملوث ببراز الحيوان
بلاستوميكوزس	الكلب- الحصان	الاستنشاق- الإصابة بالجروح
التسمم البرتيوليني	الطيور- الخنازير- البقر	الطعام (منزلى أومعلب)
البروسيللا	البقر- الغنم- الماعز- الخنزير- الحصان- البغل الكلب- الجاموس- البغل- الأرنب الدجاج- الرومى	من خلال شرب اللبن الملوث أو الملامسة أوالاستنشاق أوالجرح
التهاب الدماغ والنخاع الشوكى	الحصان- البقرة- الأرنب	الباعوض
المرض الناجم عن خدشة القط	القط	خدشة أوعضة القط أوتلوث الجروح بها
كوكسيديوميكوزس	الكلب- البقرة- الخنزير- الحصان الغنم- القرد القوارض	الاستنشاق والجروح
التهاب الفم البثرى المعدى	الماعز- الأغنام	الملامسة أومن خلال الجروح الجلدية
الجدرى	البقر	الجروح الجلدية أوالملامس

كريبتوكوكوزس	البقر- الحصان- الخنزير- الماعز والحيوانات الأخرى والطيور	غير مؤكدة أومن خلال الاستنشاق أوشرب اللبن
الدفتريا	البقر- الكلب- القط- الدجاج	شرب اللبن الملوث- الملامسة
الإصابة بمرض اكينوكوكوزس	الكلب- البقرة- الغنم- الخنزير- الجمل	تلوث الأغذية والماء وابتلاع بيض الطفيل الموجود فى براز الكلب نتيجة الملامسة باليد أوخلافه
الحمى الراجعة المتوطنة	القوارض البرية- الطيور	عضة القراد
التهاب الأوعية الليمفاوية	الحصان- البغل- الحمار	الملامسة
الأنيميا المعدية الخيلية	الحصان- البغل- الحمار	قرصة الذباب- الملامسة
الإصابة بالديدان الكبدية	الغنم- البقر- آكلات العشب	أكل الخضروات الملوثة غير المطهى وغير المغسولة جيدا
التهاب أدمة الجلد الناجم	عن الدجاج	الملامسة
جرب الدجاج		
الغنغرينا الغازية	البقر- الغنم- الماعز- الخنزير- الكلب- القط	من خلال الجروح
جيارديا مسز	الشينشيلا	تلوث الغذاء والشراب

المرض	العائل	طرق انتقال العدوى
الرعام (جلاندرز)	الحصان- البغل- الحمار	الملامسة
هيتروفيدياسز	الكلب- القط- الطيور	أكل الأسماك المملحة غير المستكملة للمدة الكافية للتمليح
هيستو بلازموزس	الكلب- القط- البقر- الحصان- الدجاج- الماعز- الحيوانات البرية	باستنشاق الغبار وأحيانا من خلال الغذاء
ليشمانياسز (الجلد)	الكلب- القوارض البرية	قرصة ذبابة الرمل
ليشمانياسز (الأحشاء)	الكلب- القوارض البرية	قرصة ذبابة الرمل
البريميات (ليبتو سبيروزس)	الكلب- البقرة- القط- الخنزير- الحصان- الغنم- الماعز	الملامسة- المضم- التعرض المباشر
التهاب الجلدالناجم عن الجرب	الحصان- البقرة- الغنم	الملامسة
ليستيريا	البقر- الأغنام- الدجاج- الماعز- الخنزير- الحصان- الطيور	غير مؤكدة
الغدة النكفية	الكلب- القرد- القط	الملامسة
الحصبة	الكلب- القرد	الملامسة
النيوكاسل	الدجاج- الرومى- كافة الطيور الأخرى	الملامسة

نوكارديازس	البقرة– الماعز– الكلب– القط الحصان الخنزير– الحيوانات البرية	الملامسة
التهاب الملتحمة الناجم عن الإصابة بنغف الغنم	الغنم والماعز	الذباب يضع البيض على الجلد
الأرنوتوزس	الببغاء– الكناريا– الدجاج– الحمام– البط	الملامسة
الطاعون	الفئران– القوارض	قرصة البرغوث والاستنشاق
السل الكاذب	الغنم– الخنزير– القط– القرد	غير مؤكدة
حمى داء الكلب	البقر– الغنم– الماعز– الكلب– الذئب– كافة الحيوانات	قرصة القراد الاستنشاق– اللبن– عضة الحيوانات أومن خلال الجروح
حمى الدنج	الغنم– البقر– القوارض البرية	البعوض
القراع (الجلدى)	الحيوانات البرية والمستأنسة	بالملامسة
القراع (الرأسى)	الكلب– القط– الحصان– القرد– والحيوانات الأخرى	بالملامسة
سالمونيللوزس	البقر– الغنم– الخنزير– الحصان– الكلب– الأرنب	الطعام الملوث بنفايات الفئران أواللحم المصاب

المرض	العائل	طرق انتقال العدوى
شيستوسوما الماشية	البقر- الغنم	من خلال الجلد
شيستوسوما	الكلب- القط- الفأر- البقر- الحصان	من خلال الجلد
الديدان الخيطية للأغنام	الغنم- البقر- الماعز	شرب الماء الملوث
سبوروتريكوزس	الفأر- الحصان- البغل- الكلب وحيوانات أخرى	من خلال الجلد
سترونجيليدياسز	الكلب- الشامبانزى	الجلد
سينجاموزس	البقر- الماعز	من خلال الفم
الديدان الشريطية للخنزير	اللحم المصاب غير المطهى جيداً	الخنزير
التيتانوس	الحصان- البقر- الأرنب وخلافهم	من خلال جروح الجلد
توكسوبلازموسز	القوارض- الطيور- البقر- الخنزير- الأغنام- الماعز- الكلاب- القطط	غير مؤكدة
تريكينوزس	الخنزير- الكلب- القط	غير مؤكدة
ترايكوسترونجيلوزس	الأبقار- الأغنام- الماعز	الغذاء والماء
تريبانوسو مياسز	الأبقار- الأغنام- الحصان	ذبابة تسى تسى
السل الطيرى	الدجاج والطيور الأخرى	الغذاء- الاستنشاق (نادر فى الإنسان)

السل البقرى	الأبقار- الخنزير- الماعز- الكلاب- القطط- الحصان	الغذاء -الاستنشاق
السل البشرى	الكلب- القرد- الخنزير	الغذاء الاتستنشاق
التولاريميا	الأبقار- الأغنام- الكلب- القطط- الحصان- الأرنب- والطيور	التغذية- عضة الحشرات- الملامسة اليدوية
فيبريوزس	البقر- الغنم	الملامسة وطرق أخرى غير مؤكدة
الحمى الصفراء	القرد	القوارض والبعوض

٩ – كيفية التأكد من سلامة الأغذية المختلفة

(أ) ما يجب معرفته عند شراء الأسماك .

يعمد كثير من باعة السمك إلى غسل السمك عندما يلاحظون تلفه ويضعون عليه الثلج حتى يكتسب صلابة .

الخياشيم عادة لونها وردي ولايغطيها أى مخاط ويتحول لونها عندما يتلف السمك إلى قرمزى فاتح ثم إلى أصفر رمادى وتصبح مغطاة بمخاط سميك .

لاحظ عند شراء السمك أن جسم السمك يتميز بصلابة نسبية أى لاتنثنى عند الإمساك بها فى وضع عمودى .

قشر السمك الطازج لايسهل انتزاعه .

رائحة السمك بالطبع يجب ألاّ تكون منفرة – يجب ملاحظة أن الرائحة بمفردها ليست دليلا كاملا على أن السمك جيد حيث إن السمك المحفوظ فى الثلج له رائحة مقبولة ولكنها تتغير بسرعة بعد ذوبان الثلج بوقت قصير .

إذا ضغطت على جسم السمكة الطازجة بين الإبهام والسبابة لاينفصل جلدها عن اللحم .

السمك غير الطازج له ملمس ناعم (طرى)

السمك غير الطازج تجد عيونه غائرة فى محاجرها بعكس السمك الطازج فتجد عيونه مملوءة – ظاهرة – بؤبؤ العين أسود واضح .

السمك الطازج يكون لامعاً ويكون جسمه مغطى بطبقة مخاطية رقيقة جداً شفافة مثل الماء ناعمة غير متعكرة .

عندما تتلف السمكة وتصبح متعفنة فإن سطحها الخارجى يفقد لمعانه ويصبح

مغطى بطبقة تزداد سمكاً من المخاط اللزج ثم يصبح لونها أصفر قذراً ثم يتحول إلى اللون البنى .

السمكة التالفة تطفو على سطح الماء ، والسمكة الجيدة تنزل إلى قاع الإناء وهى كذلك تطفو إذا كانت متعفنة وبها غازات .

(ب) ما يجب معرفته عن اللحوم :

ظاهرة إدماع اللحم :

كثيراً ماتعمد ربة المنزل إلى وضع اللحم فى (فريزر الثلاجة) لحفظه لحين الحاجة إليه عندئذ تأخذه مجمداً وتتركه فى إناء حتى يلين أوتضعه تحت صنبور الماء للمساعدة على إزالة التجمد ، والحقيقة أن مايحدث عند وضع اللحم فى (الفريزر) أن أليافه تتجمد ثم بعد إخراجه منه وتركه حتى يلين أى تزول صلابة التبريد تنهتك ألياقه وتخرج محتوياتها الهامة فى صورة سائل أحمر اللون وعادة لاتستخدمه ربة البيت أوربما تغسل اللحم للتخلص منه مع أن فيه معظم الفائدة المطلوبة وتسمى تلك الظاهرة (ادماع اللحم) لذلك ننصح قبل وضع اللحم فى (فريزر الثلاجة) غسله جيدا وتقطيعه بالصورة التى سيطهى عليها ، وعند الحاجة إليه يوضع مباشرة فى الوعاء الذى سيطهى به حتى إذا خرجت محتوياته فإنها ستكون ضمن الطعام .

الهزال (اللحوم الهزيلة) :

اللحم الهزيل فى العادة يعدم فى المجازر « السلخانة » ولكن كثيراً من القصابين غير الأمناء يقومون بذبح الحيوانات الهزيلة وعرضها للبيع بدون الكشف الطبى

عليها ، والإنسان معرض بالإصابة . لانخفاض القيمة الغذائية لهذه اللحوم . لما كانت تعانى منه هذه الحيوانات من أمراض قبل الذبح مثل السل وخلافه .

ما يجب معرفته عند شراء اللحوم المختلفة :

الجنين (السقط) :

يلجأ بعض القصابين غير الأمناء إلى بيع لحوم الأجنة على أنها لحوم يتلو والحقيقة يصعب أكتشاف هذا الغش ولاسيما عندما يستخدمون هذا النوع من اللحوم فى عمل السجق والكفته . فيلجأ الجزارون إلى ذبح السقط ، ونلاحظ علامات الذبح غير الحيوى أى الذى لايتخلل فيه الدم الأنسجة مثل مايحدث عند الذبح الطبيعى كذلك نلاحظ أن لحم الجنين كأنه مشبع بالماء ، هذا النوع من اللحوم يجب أن يعدم لأنه ليست له قيمة غذائية ويسبب الإسهال .

الدهن :

دهن الأبقار (أصفر) دهن الأغنام (أبيض) دهن الجاموس (أبيض) . والحقيقة أن للغذاء ونوعياته المختلفة تأثيراً على لون الدهن ويتضح ذلك عندما تتغذى العجول على كسب القطن . يلزم إعدام الدهن الأصفر اللون إذا كانت الأغشية المخاطية للحيوان ، أى التى تغطى فراغات الجسم وفتحاته الخارجية صفراء ، فهذا يدل على الإصابة بمرض الصفراء وفى هذه الحالة لايصح استهلاك هذه اللحوم .

لحم الحيوانات النافقة :

عادة عندما يذبح حيوان حى تتخلل الدماء الأنسجة مكان السكين ولكن فى

حالة ذبح الحيوانات الميتة نلاحظ التالى :

١ – نرى علامات الجرح غير الحيوى أى الذى لاتتخلل الدماء أنسجته مكان السكين .

٢ – نلاحظ كذلك امتلاء الأوعية الدموية الموجودة تحت الجلد بالدماء .

٣ – نلاحظ كذلك امتلاء أنسجة الجسم والأعضاء الداخلية وبخاصة الكبد والرئتين بالدماء .

مايجب ملاحظته عند شرائك قلب الحيوانات :

يجب ألا يكون محتقناً بلون أحمر ، كذلك يجب عمل عدة قطوع بالسكين فى نسيج القلب كله ، أى أن تضع القلب على يدك اليسرى وبسكين حادة تمررها طوليا فى أنسجته ويستحسن ألايزيد سمك الشريحة عن نصف ستيمتر وفحص هذه الشرائح جيدا بحثا عن حويصلات الديدان الشريطية (أكياس صغيرة بيضاء) .

مايجب ملاحظته عند شرائك الرئتين (الفشة)

يجب أن تجس الرئتان باليدين ويستحسن عمل شق طولى بهما بحثاً عن أى درنات (السل) متجبنة أولوجود ديدان أوفراغات صديدية أوشيء غريب .

اللحم المحموم :

وفيه تصبح اللحوم صابونية الملمس ولونها أحمر داكن لقلة نزف الدماء بعد ذبح الحيوان ونجد بها نقطا نزفية . فى العادة يجب إعدام الذبيحة كلها إذا كانت الأعضاء الداخلية غير موجودة ، كذلك يتوقف إعدام اللحم على درجة تغير اللون وعلى المسبب الأصلى لهذه الحمى ، ويجب علينا أن نفرق بين الالتهاب الموضعى والالتهاب العام فى كل أنسجة الجسم .

مايجب ملاحظته عند شرائك الكبد :

عادة ماتعدم جميع الكبد المصابة بالديدان الكبدية فى المجازر ، أما إذا كانت الإصابة بسيطة ولايوجد تليف فى الكبد فتنزع القنوات الصفراوية المحتوية على هذه الديدان لإعدامها . والدودة الكبدية هى دودة فى شكل ورقة الشجر مفلطحة مستطيلة توجد فى القنوات الصفراوية للكبد . ويجب جس نسيج الكبد بالأصابع وعمل قطع أوأكثر به لتتأكد من عدم وجود أى درنات أوخراريج .

ملحوظة :

لاننصح بالاحتفاظ بالكبد لمدة طويلة فى فريزر الثلاجة لأكثر من أسبوعين .

لاننصح بالاحتفاظ بالمخ فى فريزر الثلاجة لمدة طويلة أسبوع على الأكثر حيث إنه أسرع الأنسجة قابلية للتحلل .

مايجب ملاحظته عند شرائك الطحال :

يجب أن تجس الطحال بالأصابع وأن تقوم بعمل قطع أوأكثر بالسكين فيه لكى تتأكد من أنه خال من أى عقد أودرنات أو أورام ، يوجد بالطحال درنات إذاكان الحيوان مصاباً بالسل وهى توجد على سطحه أوبمعنى أصح بالقرب منه ، ويتضخم الطحال أيضا فى حالات الإصابة بمرض الحمى الفحمية .

مايجب ملاحظته عند شرائك الرأس للحيوانات :

يجب أن تفحص الرأس جيداً لعدم وجود أى تضخمات وبخاصة العظمية ، كذلك يجب أن تفحص اللسان جيداً لعدم وجود صلابة زائدة به أوتقرحات ،

ويستحسن عمل شق (قطع) بالسكين أوأكثر فى عضلات الخد واللسان بحثاً عن وجود حويصلات بيضاء فى حجم يتراوح بين حبة العدس والحمص وهى حويصلات للديدان الشريطية وفى هذه الحالة يجب إعدام كل الرأس .

الأورام :

وجود أورام على أجزاء الجسم المختلفة غير مقبول ، والأورام نوعان : حميد وخبيث ، الأورام الحميدة يكتفى بإزالتها من العضو المصاب أويعدم العضو ذاته أوجزء منه ، أما الأورام الخبيثة وإن لم يثبت إمكان انتقال عدواها إلى الجسم فى الإنسان فإنه يستحسن إعدام العضو كله ويحسن إعدام الذبيحة كلها إذا كانت الأورام منتشرة .

ورم الغدد اللمفاوية أى تضخمها فى حالة السل يظهر فى حالة متجبنة أومتكيزة أومتكلسة ، أما فى حالة الأورام الخبيثة فهى تتجبن فقط .

تلون الأغشية المخاطية :

تتلون الأغشية المخاطية والنسيج الضام (النسيج الذى تحت الجلد) باللون الأصفر وكذلك الحال بالنسبة للدهن وذلك نتيجة مرض يصيب الكبد أوالحوصلة الصفراوية (المرارة) فى الغالب ويحسن إعدام اللحوم إذا كان التلون واضحاً

مايجب ملاحظته عند شرائك الكلاوى

تصاب الكلى بالأورام الحميدة والخبيثة ، وكذلك تصاب بالسل ، ويستحسن عمل شق يقسم الكلية إلى نصفين بالطول ويمكن ببساطة وبالعين المجردة تمييز وجود أى شىء غريب عندئذ يلزم التخلص منها . كذلك توجد أحياناً الخراريج بالكلاوى وأحيانا يوجد صديد فى حوض الكلية .

مايجب ملاحظته عند شرائك الحلويات (الغدد)

بما أن الغدد (الحلويات) هى بمثابة محطات المراقبة بالجسم للأجزاء والأعضاء المختلفة لأنها تقوم بدور الحماية والدفاع لأجزاء الجسم المختلفة لذلك كانت هى المكان الذى يتضح فيه الصراع بين القوى الدفاعية للجسم ضد المهاجم (الجراثيم والفيروسات وغيرها) والتغير فيها يدل على هجوم جرثومى أوفيروسى على ذلك الجسم – لذلك فهى تتضخم وأحياناً تتجبن وأحياناً تتكلس أى يصبح بداخلها جسم متحجر فيلزم عمل شق طولى بها بالسكين للتأكد من سلامتها وعدم وجود أى شىء غريب بها ، فيجب فى هذه الحالة التخلص منها لعدم صلاحيتها للاستهلاك الآدمى .

حويصلات الديدان الشريطية :

تعدم لحوم الخنزير بأكملها عندما تثبت إصابتها بحويصلات الديدان الشريطية الخنزيرية حتى لو كانت الإصابة بسيطة .

عندما يأكل الإنسان لحماً محتوياً عليها ، يخرج من هذه الحويصلة رأس صغيرة وتثبت نفسها فى الأمعاء وتبدأ فى النمو حتى تصل إلى عدة أمتار وتبدأ فى إحداث أضرار رهيبة فى جسم الإنسان . وجود هذه الحويصلات فى اللحم لايسمح به الطبيب بل يأمر بإعدامه .

ملحوظة :

اللحوم التى تباع مذبوحة بمعرفة الجزارين لايراعى فيها الفحص أوخلوها من هذه الحويصلات .

علامات تلف اللحوم المصنعة :

البسطرمة :

تختلف جودة البسطرمة باختلاف مايستخدم فى صناعتها من أنواع اللحوم — أجود أنواع اللحوم التى تصنع منها البسطرمة هو (الفلتو — الأفخاذ) ويليها فى الجودة باقى الأجزاء .

غش البسطرمة عملية سهلة وتحدث فى صور مختلفة :

١ — إذا عرضت للبيع قبل أن تجف تماماً .

٢ — زيادة التوابل والمواد الأخرى كالدقيق حيث لايجب أن تزيد نسبة ذلك عن ٢٠٪ .

٣ — أن تصنع من اللحوم الكبيرة أومن لحم الجمال أو أى لحم آخر غير جيد .

ملحوظة :

مقطع البسطرمة عرضياً يظهر فيه لون اللحم وهو يكون غامقاً بالنسبة للحم البقرى كما أن اللون يتحول إلى غامق داكن بسرعة أكثر فى البسطرمة المصنوعة من اللحم البقرى .

ملحوظة عامة :

يعمد كثير من غير الأمناء إلى استخدام أنواع رخيصة وغير جيدة فى عمل اللحم المفروم وبيعه مباشرة للمستهلك ، فكل مايبقى من الذبيحة يفرم بل أحيانا يوضع بها السقط (الجنين) هذا بخلاف وضع نسبة عالية من الدهن فيها ويصعب التأكد من سلامة اللحم المفروم الجاهز المعد للبيع لدى القصابين ولذلك ننصح بأن يقوم المستهلك بطلب فرم مايود شراءه من لحم أمامه .

(جدول لبيان نوعية الأختام المستخدمة)
حسب السن والنوع

أختام اللحوم	مثلث الشكل ▲ (كبير فى السن)	مستطيل الشكل ■ (صغير فى السن)
البقرى – الجاموس – الأغنام – الجمال .	أحمر اللون أزرق اللون	أحمر اللون أزرق اللون

	لحم الخيل	لحم الجمال	لحم العجول	لحم البقر
اللون	أحمر داكن	الصغير أحمر وردى	باهت (صغير) أحمر فاتح (كبير)	أحمر فاتح نوعاً
القوام	كثرة النسيج الضام	طرى لين يسهل إدخال الأصبع به	ثابت ولين	صلب وفيه ليونة
الرائحة	غير مقبولة	رائحة اللبن المتخمر	مقبولة	نسبيًّا يلاحظ رائحة روث الماشية
الدهن	غير مختلط بالعضلات	لايوجد دهن (خفيف)	قليل .	الكمية حسب السن

	لحم الجاموس	لحم الكلاب	لحم الماعز	لحم الغنم	لحم الخنزير
اللون	أحمر قاتم	أحمر داكن	أحمر قاتم	أحمر فاتح	(الصغير) أحمر باهت
القوام	ألياقه غليظة •	صلب	صمغى	أكثر صلابة	(الكبيرة) داكن صلب
الرائحة	المسك الخفيف	غير مقبولة	مقبولة	الصغير– (النشادر)	مميزة دهنية
الدهن	الكمية حسب السن	موزع بالجسم	قليلة تحت الجلد	واضح تحت الجلد	مشبع بالدهن

(جـ) اللبن ومنتجاته :

الطريقة الصحيحة لغلى اللبن :

غلى اللبن فقط غير كاف لقتل كل مايحتويه من جراثيم بل يلزم الغليان مع التقليب المستمر لتكسير رغوة اللبن حيث إن درجة حرارتها أقل من حرارة اللبن وبالتقليب المستمر نستطيع القضاء على ماتحتويه من جراثيم وبخاصة جراثيم السل ويستحسن تبريده بسرعة بوضع وعاء اللبن فى وعاء به ماء بارد .

الطرق المختلفة لغش اللبن

١ – إضافة الماء .

٢ – إضافة فرز اللبن .

٣ – إضافة النشادر لزيادة اللزوجة .

٤ – إضافة الفورمالدهيد إلى اللبن الذى يستخدم فى عمل الجبن فهذا يساعد على تحلل البروتينات ونعومة الإنتاج .

الجبن :

كثير من الميكروبات المرضية مثل جراثيم السل والتيفويد تستطيع أن تنمو وتتكاثر فى الجبن لذلك يلزم بسترة اللبن الذى يصنع منه .

القشدة :

إذا تأخرت بسترة القشدة يحدث تحلل فى تكوينها الدهنى فتزيد الحموضة وينتج عن ذلك مرارة فى الطعم مع التزنخ .

عيوب اللبن المكثف المحلى

١ – لاحظ عدم وجود غازات (انتفاخ أوانبعاج) فى العلب فهذا يحدث نتيجة لعدم العناية بتنظيف وتطهير الأجهزة والأدوات المستخدمة فى التصنيع .

٢ – تحدث أحياناً غلظة فى قوام اللبن وهذا يرجع إلى عوامل طبيعية وحيوية ومعظمها يرجع إلى التصنيع وقد يكون المسبب لذلك جرثومياً أولسوء التخزين .

علامات سلامة الأغذية المحفوظة :

١ – لاحظ عدم وجود أى تشويه فى شكل العلبة (أى ضغط خارجى) .

٢ – لاحظ عدم تآكل أوصدأ جدران العلبة .

٣ – لاحظ عدم انتفاخ العلبة أى تغيرشكلها وارتفاع سطحها ويتضح ذلك بالضغط عليها بالأصابع ، فالعلبة السليمة لايصدر عنها أى صوت (فرقعة) أما العلبة التالفة فيصدر عنها ذلك .

٤ – عند فتح العلبة لاحظ عدم تغير رائحتها إلى رائحة غير مقبولة .

٥ – لاحظ عدم وجود تآكل على السطح الداخلى للعلبة .

التعبئة فى أكياس نايلون أوبلاستيك وأضرارها :

حظرت الأمم المتحدة من استخدام الأكياس والمغلفات المصنوعة من مادة البولى – إيثيلين فى وضع المواد الغذائية بها حيث إن هذه الأشياء تحتوى على غبار ضار نتيجة التصنيع ، وقد وجد أنه من مسببات السرطان .

١٠ - إرشادات لملاحظة الأعراض المرضية على الحيوانات

لاحظ الأعراض التالية :

١ - الامتناع عن الأكل .

٢ - عدم التبول .

٣ - الإمساك .

٤ - الإسهال .

٥ - القيء .

٦ - الكحة .

٧ - الهدوء غير العادى .

٨ - اختباء الحيوان وانطواؤه لمدد طويلة .

٩ - تصلب حركات الحيوان .

١٠ - نزول اللعاب بكثرة .

١١ - التصرفات العصبية والميل للمهاجمة .

١٢ - الضعف أوعدم القدرة على الحركة .

١٣ - الشلل الحركى وفقدان القدرة على استخدام القوائم .

١٤ - الغيبوبة .

١٥ - التغير فى شكل شعر أوصوف الحيوان .

١٦ - سقوط الشعر أوسهولة انتزاعه .

١٧ - وجود حكة جلدية .

١٨ - ظهور علامات جلدية مرضية .

١٩ – تغير لون البول .

٢٠ – تغير فى طبيعة شكل البراز (لين – مدمم) .

٢١ – معاناة فى التبرز .

٢٢ – سرعة فى التنفس .

٢٣ – تغير فى رائحة زفير الحيوان .

٢٤ – انتفاخ البطن .

٢٥ – الهزال .

٢٦ – الانعزال عن باقى الحيوانات .

كيفية قياس درجات الحرارة والنبض

١ – درجة الحرارة :

(ا) بواسطة إدخال الترمومتر ويستحسن أن يكون حول الجزء الزئبقى للترمومتر قليل من الفازلين أوالبرافين .

(ب) يجب ترك الترمومتر داخل شرج الحيوان ضعف المدة المكتوبة عليه (دقيقتان) .

(حـ) بعد ذلك أخرج الترمومتر وامسحه بقطنة واقرأه .

(د) نظف الترمومتر ثم هزه بشدة حتى ينزل الزئبق إلى ماتحت الصفر وضعه فى علبته .

٢ – النبض :

(ا) فى الحيوانات الصغيرة توضع أصابع اليد اليسرى مع الضغط البسيط على السطح الداخلى للفخذ (الشريان الفخذى) .

جدول يبين درجات الحرارة وسرعة النبض وعدد التنفس
فى كل دقيقة (فى الحيوانات السليمة المستريحة)

أنواع الحيوانات		درجة الحرارة	النبض	التنفس
الحصان	Horse	٣٧,٥ – ٣٨,٥	٢٨ – ٤٠	٩ – ١٠
المهر	Foal	٣٧,٥ – ٣٩,٣	٤٠ – ٨٠	١٤ – ١٥
الحمار	Ass	٣٧,٥ – ٣٨,٥	٤٥ – ٦٠	١٠ – ١٥
البغل	Mule	٣٨,٨ – ٣٩,٠	٤٥ – ٦٠	١٢ – ١٥
البقرة	Cow	٣٧,٥ – ٣٩,٠	٤٠ – ٦٠	١٢ – ١٦
الجاموس	Buffalo	٣٧,٥ – ٣٩,٠	٤٠ – ٧٠	١٢ – ١٨
الجمل	Camel	٣٥,٠ – ٣٨,٦	٣٠ – ٥٠	٥ – ١٢
الغنم	Sheep	٣٨,٥ – ٤٠,٠	٧٠ – ٩٥	٩ – ١٥
الحملان	Lambs	٣٨,٥ – ٠٠,٥	١١٥	١٥ – ١٨
الماعز	Goat	٣٨,٥ – ٤١,٠	٤٠ – ١٠٠	١٢ – ٢٠
الكلب	Dog	٣٧,٥ – ٣٩,٠	٨٠ – ١٢٠	١٤ – ٢٢
القط	Cat	٣٨,٠ – ٣٩,٥	١٠٠ – ١٤٠	٢٠ – ٣٠

(ب) فى الخيول بالضغط بأطراف الأصابع على السطح الداخلى لعظام الفك السفلى (الشريان الفكى) .

(حـ) فى الماشية بالضغط برفق بأطراف الأصابع أمام عضلات الشدق (الخد) حيث يوجد (الشريان الوجهى) أوعلى السطح السفلى لقاعدة الذيل (الشريان العصعصى) .

٣ – التنفس :

هو عملية تشترك فيها الضلوع والعضلات الصدرية مع عضلات البطن هذا بالإضافة إلى الحجاب الحاجز والضغط السلبى داخل فراغ الصدر – ولكى نلاحظ تنفس الحيوان يمكن أن نراقبه وهو هادئ بدون أى إثارة ونلاحظ حركة القفص الصدرى متبوعة بحركة جدار البطن مع كل شهيق وزفير .

١١ – أنواع غذاء الحيوانات

الشعير

١ – يعطى مخلوطاً بالتبن الناعم والنخالة ليسهل مضغه وهضمه .
٢ – يعطى الشعير المغلى جيدا فى الماء للخيل الناقهة من المرض .
٣ – يساعد على تحسين الصحة .
٤ – يعطى مجروشاً .
٥ – يستحسن أن يضاف له النخالة (الردة) وملح الطعام .

الفول :

١ – غذاء بروتيني .

٢ – يستعمل علفاً للمواشي والبغال والحمير والأغنام والماعز والجمال والحمام .

٣ – يجب إعطاؤه مخلوطاً بالذرة والتبن أوالنخالة .

٤ – تطعم به الخيل إلا إذا كانت تعمل عملا شاقا ويجب أن يكون مخلوطا بالذرة والشعير .

الذرة البلدى :

١ – مفيدة للخيل الكبيرة فى السن مع قليل من الفول أوالشعير والتبن وملح الطعام .

٢ – لايفيد الحيوانات الصغيرة لصعوبة هضمه .

٣ – يمكن أن تقدم للمواشى (الجاموس والبقر) مخلوطة بالكسب أوالفول .

النخالة أو الردة :

١ – تغذى الحيوانات المسنة .

٢ – تساعد الحيوان على مضغ الحبوب .

٣ – تنبه الغشاء المخاطى للقناة الهضمية فيساعدها على الهضم والامتصاص .

٤ – تفيد المواشى الحلوب مخلوطة بالعسل الأسود .

بذر الكتان :

يعطى كمرطب فى زمن الحر الشديد بأن يغلى ربع كيلو جرام فى صفيحة ماء (٢٠ لتر ماء) ويترك ليبرد ويصفى وتسقى به الحيوانات .

الكسب :

١ - غذاء جيد للماشية - يحسن طعم اللحم .

٢ - مفيد للخيول المسنة والهزيلة .

٣ - الكسب الردىء يضر المواشى ويسبب اضطراباً معديًّا معويًّا ويقلل اللبن إذا تناولته الحيوانات لمدد طويلة .

البرسيم :

١ - المسقاوى أوالمندى : يضر بصحة الحيوان .

٢ - لايوضع فى أكوام حتى لايتخمر ويتلف .

٣ - مفيد للمواشى الحلوب والخيل والغنم والماعز والجمال .

٤ - عدم السماح ببقاء الحيوانات فى الشمس مدة طويلة .

فى الخريف :

بما أنه تبدأ زيادة الأعمال الزراعية وبالتالى تضعف المواشى ويزداد الندى والرطوبة ويسهل الإصابة بالأمراض التنفسية لذلك ينبغى شدة العناية بالمواشى والخيل والجمال .

العناية بالأظلاف :

يلزم العناية بالأظلاف وتقليمها حتى لا تتشقق وتتلف وتتعفن .

إطعام الحيوانات الصغيرة :

يلزم مراعاة أن ينال الحيوان الصغير السرسوب وهو السائل الموجود فى ضرع الأم بعد الولادة مباشرة لاحتوائه على أهم عناصر المقاومة للأمراض المختلفة ، ويجب إعطاء لبن الأم لمدة أسبوع حسب حرية المولود ، ثم بعد ذلك يؤخذ نصف اللبن تقريبا ويترك للمولود النصف الآخر ، ويسمح له بأكل قليل من البرسيم حتى يعتاده ويستمر ذلك لمدة حوالى ثلاثة أشهر ، ويجب عدم إعطاء علف جاف فى هذه الفترة لأنه يسبب عسراً فى الهضم .

تغذية الغنم والماعز الحلوب :

فى زمن البرسيم يمكن إطعامها بالبرسيم نهاراً مع قليل من الحبوب والنخالة ليلا أى يمكن إعطاؤها مابين ١٢ إلى ٢٠ رطل برسيم يومياً ، فى غير زمن البرسيم يمكن إطعامها بعليقة مكونة من الفول المدشوش والذرة والنخالة مع قليل من الحشائش الخضراء . يمكن كذلك إعطاء الحيوانات : رطل كسر عدس ، ٣ أرطال قشر عدس ، وهذا يعتبر غذاء جيداً للتسمين أوللماعز الحلوب .

ملحوظة :

النعاج لايجب تسمينها لأن هذا يتعارض مع الحمل .

علف الماشية لتسمينها :

١ - يشترط فى إطعام المواشى المراد تسمينها أن تكون فى حالة جيدة من بدء حياتها حتى تسمن فى أقصر وقت ممكن .

٢ – تسمين المواشى يلزم أن يكون فى مكان جاف معتدل الحرارة .

٣ – يجب ألا يعطى الحيوان علفاً كثيراً دفعة واحدة بغرض تسمينه فهذا يسبب مشاكل هضمية .

٤ – فى زمن البرسيم يجب ألاترعى المواشى مع الأغنام فى حقل واحد لأن الأغنام تأكل الأطراف وتترك الجذور للمواشى .

٥ – تربية الأغنام مع الماشية فى مكان واحد يضر الماشية لوجود احتمال انتقال عدوى من الأغنام للماشية لأن الأغنام تلعب دور حامل المرض لبعض الأمراض المعدية .

تغذية الحيوانات فى غير زمن البرسيم (بالرطل)

الأبقار :

، ١٦ تبن – ٨ فول مدشوش – ٣ ذرة بلدى . يقسم ذلك على ثلاثة أجزاء وبالنسبة للجاموس تزاد الكمية بنسبة الثلث لزيادة حجم الكرش .

الجمال :

١٤ تبن ، ٨ فول مدشوش أوذرة بلدى أوشامى .

الخيول :

٦ شعير ، ٦ تبن ، ١٦ دريس .

البغال :

٨ شعير ، ٦ تبن

في زمن البرسيم

ملحوظة :

البرسيم يعطى فى النهار ولايعطى فى الليل :

البقرة : من ١٠٠ رطل إلى ١٥٠ رطل + تبن

الجاموسة : من ١٠٠ رطل إلى ٢٠٠ رطل + تبن .

ملحوظة :

يجب الإقلال من البرسيم أول حشة (المسقاوى) .

ليلا : يجب إعطاء الحيوانات السابقة ٣ أرطال تبن ٣ أرطال ذرة ٢ رطل فول مع قليل من الكسب (بذر الكتان) .

الخيول والبغال : قنطار برسيم يومياً .

الحمار : ٦٠ رطلا يومياً .

ملحوظة :

يراعى عند استبدال الغذاء الجاف بغذاء أخضر ألايحدث ذلك دفعة واحدة حتى لاتحدث متاعب هضمية ولذلك يلزم عمل ذلك بالتدريج .

العناية بالحيوانات على مدار السنة

فى الشتاء :

١ – عدم تعريض الحيوانات للبرد الشديد لأنه يضعفها.ويضرها ويجب فى تلك الحالة تغطيتها بما يناسب .

٢ – عدم إطعام المواشى والأغنام والماعز البرسيم والحشائش المبتلة بالندى لأنه يسبب النفاخ .

٣ – عدم ترك المواشى تأكل بدون تحكم وبخاصة فى زمن البرسيم .

فى الربيع :

١ – يحدث رغبة جنسية وميل لأن تطلب الأنثى الذكر .

٢ – يحسن قص الشعر أوالصوف الغزير فى أول الربيع .

فى الصيف :

١ – يلزم الإقلال من الطعام فى فصل الصيف الحار .

٢ – يلزم أن يكون الماء حلواً نظيفاً ويقدم من ثلاث لأربع مرات فى اليوم .

٣ – يجب ألايسقى الحيوان عندما يكون عرقان أوبعد إجهاد أوبعد الأكل مباشرة .

تغذية الماشية الحلوب

تتوقف تغذيتها لإدرار اللبن على نوعها أولا .

يجب توفير الدفء للماشية الحلوب وكذلك يلزم أن يكون جو المنطقة التى تعيش بها جافًا .

تغذية الماشية الحلوب لايقصد منه تسمينها لأنها متى سمنت قل إدرار اللبن منها .

النباتات الخضراء (البرسيم – الدراوة – النجيل – الحشائش الأخرى) مفيدة لإدرار اللبن ولكن لايعتمد عليها كلية بل يلزم تقديم عليقة مسائية للماشية الحلوب كنوع من الدعم لقدرتها وتتكون تلك العليقة من (فول مدشوش – كسب – بذر

كتان مجروش – نخالة – تبن ناعم).

يستحسن إضافة قليل من العسل الأسود مع النخالة لأن هذا يساعد على إدرار اللبن.

يجب مراعاة عدم إعطاء الماشية الحلوب أوراق الكرنب أواللفت حتي لايتلف طعم اللبن.

نماذج لأنواع مختلفة من التغذية :

فى زمن البرسيم نهاراً قنطار برسيم وليلا ٤ أرطال فول مدشوش – ٥ تبن أونصف قنطار من البرسيم و ٣,٥ أرطال شعير – ٥ كسب ١٢ تبن.

فى شهر أغسطس وسبتمبر يمكن إعطاء الماشية الحلوب ٦٠ رطلا من الذرة الخضراء ٤ أرطال فول أوكسب ٣ نخالة و ١٠ تبن ناعم.

ويمكن استبدال الفول بكسر العدس نصف كيلو وكذلك يمكن استبدال النخالة والتبن بقشر العدس ٢ كيلو.

فى غير زمن البرسيم يمكن إعطاء الماشية الحلوب ٦ أرطال فول مدشوش ٣ أرطال كسب ٣ أرطال نخالة ١٤ رطل تبن ناعم.

يجب مراعاة زيادة الكميات بنسبة الثلث فى حالة الجاموس.

القواعد المتبعة عند سقى الحيوانات

١ – يسمح بشرب الخيل قبل الطعام بنصف ساعة على الأقل مع مراعاة عرض الماء على الخيل ثلاث مرات يومياً.

٢ – المواشى تشرب مرتين يومياً فى الضحى والعصر قبل الطعام. المواشى الحلوب تشرب الماء طيلة اليوم.

٣ – الأغنام كما تشاء .
٤ – الجمال كل ثلاثة أيام يمكن تقديم الماء لها مرة واحدة أوكما تتعود .

ملحوظة :

١ – يجب ألايعمل الحيوان بعد الشرب مباشرة بل يجب تقديم الماء له قبل العمل بساعة أوساعتين على الأقل .

٢ – لايعطى الحيوان العطشان الماء دفعة واحدة بل على مرات متعددة .

٣ – شرب الماء بعد تناول العليقة مباشرة يدفع الغذاء من المعدة إلى الأمعاء قبل إتمام هضمه فى المعدة ، فيختمر الغذاء ويسبب للحيوان مغصاً ونفاخاً .

ملحوظة عامة :

قلة الماء : تسبب ضعف الحيوان .

الماء الردىء : يسبب عسر الهضم – أمراض الكلى – النفاخ – خشونة الجلد – سقوط الشعر .

الماء الراكد : يكون عادة مليئاً بالطفيليات والمواد العضوية المتحللة والجراثيم .

علامات العطش البسيط :

١ – مضغ الطعام ببطء .
٢ – اللعاب يصبح لزجاً مثل العسل .
٣ – الامتناع عن الأكل .
٤ – القلق وعدم الراحة .
٥ – الحيوان ينظر حوله طلباً للماء .

علامات العطش الشديد :

١ – الحمى .

٢ – احمرار الأغشية المخاطية .

٣ – جفاف اللسان .

٤ – اضطراب الجهاز الهضمى .

١٢ – أهم الأمراض التى تصيب الحيوانات

سأذكر هنا بصورة مبسطة بعض الأمراض الشائعة التى تصيب الحيوانات عموماً مستخدماً فى كتابتى ملاحظات وشكاوى أصحاب الحالات المرضية عن الأعراض المختلفة التى تعانى منها الحيوانات أى أننى سأتناول هذه الأعراض من وجهة نظر صاحب الحالة والطبيب معاً .

كيف يصاب ضرع (ثدى) أنثى الحيوانات ؟ :

يحدث هذا :

إما من داخل الجسم ذاته نتيجة مرض فى الحيوان ذاته . أو من خارج الضرع عن طريق فتحات الحلمات فتدخل مسببات العدوى وتصعد إلى داخل أنسجة الضرع ذاته .

أو عن طريق جرح فى جدار الضرع (من عنف الرضاعة – أوعدم خبرة الحلاب) سوء استعمال آلات الحليب (فى الأبقار والجاموس) . عدم انتظام عملية

الحليب (فى الأبقار والجاموس) .

أو ترك بعض اللبن داخل الضرع .

بعد عملية الحلب أوالرضاعة يحدث ارتخاء عضلى فى حلمات الحيوان وتصبح فتحات الحلمات غير منقبضة جيدًا نتيجة للإنهاك عقب عملية الرضاعة أوالحلب وبذلك يسهل دخول مسببات الأمراض ولاسيما إذا توافرت قذارة الضرع وقذارة المكان الذى يوجد به الحيوان .

لذلك يلزم المحافظة على نظافة الضرع فيلزم غسل الضرع وتجفيفه قبل وبعد عملية الرضاعة أوالحلب .

ماالذى يدعوك للشك فى مرض الضرع؟

بلاشك سيكون أحد الأسباب التالية :

١ – قلة مايدره الحيوان من لبن .

٢ – تغير فى شكل الضرع الخارجى .

٣ – تغير فى قوام الضرع ذاته .

٤ – تغير شكل اللبن ووجود محتويات غريبة به .

٥ – تغير فى قوام اللبن أولونه .

٦ – رفض الحيوان إرضاع صغيره أوالسماح بأداء عملية الحلب .

التهاب الضرع :

عندما يلتهب الضرع يتغير لون الجلد عليه ويتغير شكله وحجمه فإذا التهبت كل أجزائه تضخم ، وإذا التهب جزء منه تجد التضخم فى هذا الجزء فقط مع سلامة باقى أجزاء الضرع ، كذلك تجد احمراراً فى جدار الضرع الخارجى أوتغير لونه إلى

لون يميل إلى الازرقاق أواللون الأسود ، وهذا حسب درجة ونوعية الإصابة لأن نوعية كبيرة من الجراثيم تؤثر على إصابة الضرع وحسب نوعية كل مسبب يتغيرشكل الضرع . أحياناً نلاحظ برودة غير عادية عند جس الضرع أوسخونة ملحوظة . بفحص نسيج الضرع بالضغط عليه إما بين راحتى اليد (فى الأبقار والجاموس) أوبالأصابع فى الحيوانات الصغيرة مثل الكلاب والقطط والماعز والنعاج ونجد أن التهاب الضرع يؤثر على الحالة العامة للحيوان .

تشقق الحلمات

تتشقق حلمات الضرع وتلتهب وتتورم وتتضخم (تحتقن) ثم تحدث بها تشققات ينزل منها إفرازات مصلية وتتكون قشرة على هذه الشقوق ، وإن عملية الحلب تلهب الحلمات أكثر ، ومسببات ذلك عديدة منها المص الشديد والعنيف للمولود من ضرع أمه ولاسيما بعد الولادة الأولى . كذلك سوء وعنف عملية الحلب ووجود القاذورات على الحلمات وعدم العناية بتنظيفها بعد عملية الحلب يلعب دوراً هاما كمسبب لهذا العرض المرضى ، وننصح بدهان الحلمات بالجلسرين ويضاف إليه قليل من الفينول أودهان الحلمات بمرهم اكتيول .

الرعاف (نزيف الأنف)

ومسببات هذه الحالة إما أن تكون وراثية أوتحدث نتيجة إدخال جسم غريب إلى داخل المسالك الهوائية العليا أونتيجة ضربة على الرأس أوعقب بذل جهد عنيف ، ويمكن علاج هذه الحالة بوضع ماء بارد على الرأس مع الراحة وعدم الإجهاد ، وكذلك استخدام مجلطات الدم (بالحقن) أوبإدخال شريط شاش مبلل بمحلول الأدرينالين إلى داخل فتحة الأنف .

الزكام

وهو يحدث إذا تعرض أى حيوان للبرد ، أو إذا قلت مقاومة الحيوان نتيجة ضعف عام ، أو إذا كان المكان الذى يحتفظ فيه بالحيوان غير صحى ، كذلك إذا عرق الحيوان نتيجة أى جهد وتعرض بعد ذلك لتيار هوائى .

ويظهر هذا العرض المرضى فى صورة ارتشاحات أنفية كما فى الإنسان ، وربما تتغير طبيعة شكل هذه الارشاحات تبعاً لشدة الإصابة ، وكذلك تبعاً للحالة العامة للحيوان .

فيلزم توفير الراحة حتى لاتحدث مضاعفات أخرى مع مراعاة توفير الدفء للحيوان وعدم تعريضه للتيارات الهوائية مع تقديم الغذاء الجيد والماء النظيف . ويمكن بالنسبة للحيوانات الصغيرة إعطاء بعض الفيتامينات (نقط) عن طريق الفم وبالنسبة للحيوانات الكبيرة يلزم أن يكون الغذاء جيداً .

الكحة فى الحيوانات (النزلة الشعبية والالتهاب الرئوى)

الكحة تحدث نتيجة حدوث التهاب فى الجهاز التنفسى ابتداء من الحنجرة والشعب الهوائية والرئة . وتحدث نتيجة نزلة برد بأن يستحم الحيوان وجسمه عرقان نتيجة العمل أوالإجهاد ، وكذلك عند تناول ماء بارد وجسمه مجهد عقب عمل شاق ، وكذلك تحدث نتيجة عدوى جرثومية أوفيروسية كذلك ، ووجود الطفيليات فى الرئة يسبب إصابتها مما ينتج عنها كحة ذات طابع خاص ، وأيضا إذا أعطى الدواء بطريق الفم بصورة خاطئة ينجم عنه إصابة الرئة بالالتهاب الرئوى .

ويلزم فى هذه الحالات عرض الحالة على الطبيب مع توفير الراحة وتقديم الغذاء الجيد والماء النظيف ومايلزم من مضادات حيوية مع توفير الدفء . إذا

تعذرت تغذية الحيوانات عن طريق الفم يمكن إعطاؤها (الغذاء) فى صورة حقن عن طريق الوريد .

الديدان الرئوية

وتتسبب هذه فى إيذاء الحيوان واعتلاله وفى إصابته بالكحة مع معاناة شديدة وخاصة فى أثناء الكحة التى تتميز بطبيعة خاصة ، بأن يمد الحيوان رأسه وعنقه ويستمر فى الكحة محاولا إخراج البلغم ويستمر ذلك لفترة طويلة نسبياً . أحيانا نلاحظ وجود الديدان فى البلغم ، والإصابة بهذه الديدان تسىء إلى الصحة العامة للحيوان فيصاب بالاعتلال العام ويفقد حيويته .

مرض السنط

توجد بعض الأورام الحميدة (زوائد حلمية) على جلد الحيوان وأحياناً تكون منفردة وأحياناً متجمعة .

ينتقل هذا المرض بالملامسة المباشرة بين الحيوانات ومن خلال الجروح ، ويعتقد أن هذا المرض من أصل فيروسى .

الجدرى

هذا المرض يصيب الإنسان والحيوان وتظهر أعراضه على الحيوانات على حلمات الضرع (الثدى) فى صورة بقع ملتهبة حمراء ، تتحول فى خلال يوم أو اثنين إلى فقاعات تنفجر وتترك بثرات ، تجف تاركة قشوراً وتسقط تلك القشور .

المرض عاقبته سليمة فى الأبقار ويتسبب فى نفوق الأغنام .

المرض الأسود فى الأغنام

هو مرض يسبب موت الأغنام فجأة ويحدث المرض بخاصة فى الأغنام التى تصاب بالديدان الكبدية . الغنم تنفق عادة صباحاً أو فى الليل ولاتوجد علامات تدل على إصابة الحالة .

لذلك يلزم التأكد دورياً من خلو الأغنام من الديدان الكبدية وذلك بفحص عينات البراز .

دوسنتاريا الحملان

قد يطرأ على ذهن البعض أن المرض يسببه طفيليات الأميبا . ولكن المسبب هنا جرثومى خطير ، وتحدث الوفاة الفجائية فى الحملان الصغيرة وبذلك تضر بالإنتاج الحيوانى ، لذلك يلزم تحصين الأمهات باللقاح فى آخر مدة الحمل قبل الوضع .

ذبابة أنف الغنم (نغف الغنم)

تضع هذه الذبابة يرقاتها على أنف الغنم وتزحف اليرقات إلى داخل فراغات الأنف والجيوب وتتغذى على الإفرازات المخاطية لمدة تتراوح بين أسبوعين وتسعة أشهر . ويحدث نتيجة ذلك تهيج فى الأغشية المخاطية التى ترتشح نتيجة لذلك ، وتصاب الأغنام بالعطس وتحاول التخلص من هذه اليرقات بأن تهز رأسها بشدة فى العادة ، ونلاحظ وجود هذه اليرقات عند شراء رأس الأغنام فيحاول القصاب خبط الرأس فى الأرض للتخلص من وجود هذه اليرقات داخل الرأس .

التخمة فى الحيوانات

هى امتلاء المعدة بالغذاء بصورة كبيرة فتعجز عضلات المعدة أوالكرش عن ممارسة الوظيفة الهضمية فيحدث شبه شلل فى جدران المعدة أوالكرش ، وتعجز عن الانقباض ، ويحدث تحلل للأغذية الموجودة وينتج عنها سموم ومواد مؤذية بنسب عالية ويؤثر ذلك على جدران المعدة أوالكرش مسببة التهابا نسبيًّا ، فتضعف جدران المعدة وتمتص نسبة كبيرة من الماء الموجود فى الدم فيزداد تركيزه وتقل درجة حركته ، وتنفذ السموم من جدران المعدة أو الكرش وتدخل إلى الدورة الدموية . وتؤثر على أجزاء الجسم الحيوية مما يؤدى فى النهاية إلى حدوث غيبوبة ووفاة . ووفاة .

لذلك يلزم الانتباه فلايترك الغذاء بكميات ضخمة أمام الحيوانات تأكل منه كما تشاء ، كذلك يلزم العناية بنوعية الغذاء فلايكون ناعماً جداً ، ويجب أن يكون كذلك متوازناً .

السل الكاذب

مرض جرثومى يصيب الأغنام من خلال أى جرح على سطح الجسم ، ويتسبب فى إصابة الغدد الليمفية بخراجات تكبر تدريجياً ، وتظهر فى صورة أورام منتشرة على أجزاء الجسم المختلفة وبخاصة الرأس وأمام الكتف والفخذ . يصاب الجسم أيضاً من الداخل بتلك الخراريج ، لذلك يجب تطهير الجروح وكذلك جروح الولادة وبعد العمليات الجراحية .

السل

مرض جرثومى معد يصيب الإنسان والحيوان ويتميز بحدوث سعال وسرعة فى التنفس ، ومع تقدم الحالة تصاب الأجسام بالهزال ويفقد الشعر أوالصوف لمعانه وتغور العينان وتبهت الأغشية المخاطية وأحياناً يصاب الحيوان بالإسهال .

كذلك يصاب الضرع بالسل مما يسبب إساءة مباشرة تنعكس على صحة الإنسان وكذلك الرضيع من الحيوانات .

الحمى الفحمية

مرض جرثومى معد مميت فى خلال بضع ساعات ، وفى صورته الحادة لاتظهر أعراض على الحيوان بل ينفق سريعاً وتنتفخ جثته بسرعة . وحيث إن مسبب المرض ينتشر بسرعة رهيبة ويظل موجوداً فى المكان لمدد طويلة جدا ، بل لسنوات ، لذلك لاينصح بفتح جثة الحيوان الذى ينفق فجأة بل يجب إبلاغ الطبيب . فى العادة يمكن ملاحظة تغير لون البول إلى اللون الأحمر وتخرج من فتحات الجثة سوائل دموية فى لون القطران . دم الحيوانات النافقة لايتجلط بل يظل سائلا .وللوقاية من هذا المرض يوجد لقاح خاص يجب تطعيم الحيوانات به .

التتانوس (الكزاز)

مرض يصيب الإنسان والحيوان ويحدث عادة نتيجة تلوث الجروح وعقب العمليات الجراحية ، يجب مراعاة نظافة الأدوات الجراحية وتطهير الجروح جيداً .

أعراض هذا المرض عبارة عن تصلب عضلى شامل مبتدئاً بالرأس ويمتد إلى باقى الأجزاء من الجسم مع حدوث شلل فى المثانة والأمعاء والمستقيم وعضلات

الصدر . فلا يستطيع الحيوان التبول أو التبرز ويموت نتيجة للاختناق .

وإذا لم يسعف الحيوان أو الإنسان يموت .

لذلك يلزم إعطاء الحيوان حقنة وقائية عند إصابة الحيوان بجرح أوعقب العمليات الجراحية .

طاعون الخيل

مرض فيروسى يصيب الفصيلة الخيلية وتظهر أعراضه على الحيوان فى إحدى الصور التالية :

١ – أمراض تنفسية .

٢ – انتفاخات استسقائية فى الرأس .

تنتقل عدوى هذا المرض بواسطة الباعوض .

الوقاية من هذا المرض باستخدام التعطيم باللقاح الواقى .

تعفن الظلف فى المواشى والأغنام

مرض جرثومى يتسبب فى حدوث العرج فى الحيوانات ، ويحدث فى صورة احمرار الجلد بين الظلفين ثم يمتد الالتهاب إلى باقى أجزاء الظلف والكعب فتتنكرز الأنسجة الموجودة وتصدر عنها رائحة كريهة ويعرج الحيوان .

يمكن غمس الأقدام فى محلول كبريتات نحاس ٣٠٪ ومعالجة الحيوان بالمضادات الحيوية ، يلزم مراعاة نظافة المكان الذى يقف به الحيوان .

تسمم الحمل فى الأغنام

تصاب النعاج فى الأسابيع الأخيرة للحمل نتيجة لاضطراب عمليات الهضم

وللحمل ذاته بحالة مرضية تظهر فى صورة رقاد الحيوان وفقدانه القدرة على الرؤية مع فقدان الشهية والتسمم العام ، لذلك يجب العناية التامة بغذاء النعاج فى الأسابيع الأخيرة للحمل ، كذلك يجب مراعاة ملاحظة النعاج فترة الولادة ، فإذا تعسرت يستحسن فتح الرحم لاستخراج الجنين .

كذلك يلزم إعطاء كميات من الجلوكوز فى الوريد فى الأسابيع الأخيرة من الحمل .

التهاب المفاصل والحبل السرى فى المواليد الرضيعة :

تتعرض المواليد فى أوائل أيام حياتها لعدوى عادة عن طريق تلوث الحبل السرى بجراثيم معينة . هذه الجراثيم توجد فى الحظائر القذرة وكذلك نتيجة تلوث فراش الحيوان بالبول والروث (هذه الجراثيم تسبب حدوث الصديد) ، فيلتهب الحبل السرى وتنتقل العدوى إلى المفاصل فتتورم وتصبح مؤلمة ، والحيوان نتيجة لذلك لايستطيع السير ويعرج . حقيقة من الصعب علاج بعض الحالات التسممية ولكن لامانع من محاولة استخدام المضادات الحيوية ، وإذا لزم الأمر يجب التدخل الجراحى ويجب علينا أن نراعى نظافة مكان الولادة وأن نغمس جيداً بقايا الحبل السرى فى محلول يود ٥٪ بمجرد الولادة .

مرض الغش فى الأغنام

هذا المرض ينجم عن إصابة الأغنام بالديدان الكبدية المفلطحة ، ولطبيعة هذه الدودة فى الغذاء نجدها تستولى على كثير من بروتينات الدم والمعادن فتحدث نتيجة لذلك ارتشاحات تتركز عادة فيما بين جانبى الفك السفلى فى صورة تواجد سائل ارتشاحى فى هذه المنطقة ، ونلاحظ كذلك سهولة انتزاع الصوف من منطقة

الظهر مع شحوب شديد أواصفرار للأغشية المخاطية وبخاصة فى العين.

بفحص براز هذه الحيوانات مجهرياً نجد بيض هذه الديدان فيلزم علاج الحالة قبل أن تصل إلى درجة ميئوس الشفاء منها.

التهاب الفم :

عادة يمتنع الحيوان عن الأكل أو حتى الشرب عند إصابة الفم بالتهاب. حقيقة أن الامتناع عن الأكل أو الشرب ظاهرة واحدة يشترك فى إحداثها كثير من الأمراض ويلزم استبيانها جيداً.

وربما تكون راجعة إلى التهاب أغشية الفم نتيجة تناول شيء ساخن أو غريب أو حاد أو نتيجة تناول بعض المواد الكاوية ، وتسبب إصابة اللثة وباقى الأغشية المخاطية التى تغطى الفراغ الفمى. كذلك ربما ترجع هذه الحالة إلى وجود جسم غريب (غذاء مدبب الأطراف أو شوك الأسماك أو بعض أجزاء حادة من العظام فى غذاء الحيوان) كذلك ربما ترجع إلى تناول الحيوان لبعض المطهرات أو المبيدات بطريق الخطأ. لذلك عندما يشكو صاحب الحيوان من أن حيوانه امتنع عن الطعام يلزم حينئذ فحص فم الحيوان أولا ليستبين وجود أى شيء غريب مع سؤال صاحب الحيوان عن تاريخ الحالة المرضية ، إذا كان الأمر راجعاً إلى التهاب محدد فى الفم أمكن بواسطة المطهرات البسيطة عمل غسل مع وضع الماء النظيف أمام الحيوان دائماً ، كذلك يجب ألا يعطى الحيوان غذاء جافا خلال فترة الإصابة.

التهاب الفم البثرى المعدى :

هذا مرض فيروسى يصيب الأغنام (الحملان) فى الشهور الأولى بعد ولادتها ويصيب الماعز كذلك ، وتظهر الإصابة على الشفاه والوجه وتصاب حلمات الضرع

فى النعاج نتيجة رضاعة الصغار المصابين .

ومدة الحضانة فى هذا المرض ما بين ٨ – ١٠ أيام وتستمر مدة المرض من أسبوع إلى أربعة أسابيع ، وأول علامات هذا المرض عبارة عن بقع حمراء صغيرة على زوايا الفم تتحول إلى حبيبات ثم إلى فقاعات تنفجر ، وتتكون بثرات تجف عليها الإفرازات المعدية مكونة قشوراً كثيفة ، وقد يتجمع عدد كبير من هذه الآثار المرضية ، وقد تصاب الشفة العليا والسفلى وكذلك المنطقة حول فتحات الأنف والجفون ، وبعد مضى أسبوع تقريباً تسقط القشور وربما تسوء الحالة نتيجة وجود جراثيم أخرى ويصاب الإنسان بهذا المرض فى الذراعين واليدين .

فى نهاية هذا المرض تصاب الأغنام بالهزال وتعتل صحتها وتنفق .

للوقاية من هذا المرض يلزم تحصين الأغنام باللقاح المناسب ، ويجب دهان الآثار المرضية بمرهم مناسب وأيضاً بصبغة اليود .

الإسهال :

هذا العرض المرضى من شكاوى أصحاب الحالات ويحدث نتيجة لمسببات كثيرة مثل :

١ – تناول غذاء تالف

٢ – عدوى جرثومية

٣ – عدوى فيروسية

٤ – عدوى فطرية

٥ – إصابة بالطفيليات الداخلية

٦ – مرض المعدة والأمعاء .

لذلك فإن علاج الإسهال بأى دواء لايتم حيث يلزم أن نتبين جيداً السبب

الأصلى للإسهال وإعطاء ما يناسب الحالة من دواء وهذه مهمة الطبيب .

من نتائج الإسهال فقدان كمية كبيرة من السوائل من الجسم لذلك يلزم الحقن بمحاليل ملحية لتعويضها وأحياناً يكون الإسهال مصحوباً بقىء وهذا يلزمه معاملة أخرى .

الإمساك :

يلاحظ صاحب الحيوان المريض أن الحيوان لايتبرز وهذا يكون راجعاً لأسباب متعددة

١ – نوعية الطعام

٢ – قلة الماء

٣ – خمول أو ضعف المعدة والأمعاء

٤ – حمى (نتيجة الإصابة بمرض معين) .

حقيقة أن لكل طعام مدة معينة يقضيها داخل الجسم حتى تطرد نفاياته إلى الخارج ، وبقاء هذه الفضلات مدة أطول من اللازم يترتب عليها تحللها فيمتص الجسم منها سموماً كثيرة تتسبب فى ظهور أعراض معينة تسممية وخمول على الحيوان ، لذلك فإن استمرار الإمساك لفترة طويلة غير مقبول صحيًّا ويجب أن نتبين مسبباته ونتلافاها .

أحياناً يصاب الحيوان بانسداد معوى يترتب عليه عدم التبرز مع نزول مخاط مدمم فقط من فتحة الشرج وهذا أمر خطير لذلك يمكن إعطاء الحيوان الكبير كمية تصل إلى لتر زيت برافين وللحيوان الصغير (كلب – أو قطة) زيت زيتون (ملعقة كبيرة) عن طريق الفم كذلك يجب عمل حقنة شرجية للحيوانات التى تعانى من الإمساك .

المغص :

المغص ألم باطنى يصاب به الحيوان فيتألم ، وتختلف أعراضه حسب نوعية الحيوان ، فنها من يتحمل نسبياً ومنها من يتقلب على الأرض ، ومنها من يئن أو يعوى أو يتخذ وضعاً خاصاً يفهمه الطبيب .

المغص عرض أو تعبير عما يحسه الحيوان من ألم ومسبباته عديدة : ربما يكون مصدره المعدة أو الأمعاء وأحياناً يكون ناجماً عن الكبد أو الكلية ، أو نتيجة لاحتباس البول ، ووجود الطفيليات الداخلية فى الأمعاء والمعدة يسبب المغص الذى ربما يكون قاتلا . كذلك فإن نوعية الغذاء تلعب دوراً هاماً وكذلك الحال بالنسبة للتسمم .

الخيول حساسة جداً للمغص وتعبر عنه بشدة وأحياناً يترتب على شدتها إحداث الأذى بأجزاء الجسم المختلفة .

المغص إما أن يكون تشنجياً أو نتيجة للنفاخ ، أو انسدادياً أو طفيلياً ، لذلك يلزم عرض الأمر على الطبيب حتى لاتحدث مضاعفات تسىء إلى الحالة ، وحتى يصل إلى تشخيص للمسبب الحقيقى للحالة .

نفاخ المواشى والأغنام :

ينتفخ الكرش فى المواشى والأغنام عادة كنتيجة لتناول البرسيم (المسقاوى) أو الذى يوجد عليه الندى فينتفخ الكرش كنتيجة لضعف الحيوان أو ضعف عضلات الكرش ذاته .

حقيقة توجد مسببات أخرى يعنى بها الطبيب فى أثناء فحص الحالة .

يترتب على النفاخ الشديد الضغط على الحجاب الحاجز وبالتالى الضغط على

الرئتين فيصعب التنفس ، وإذا أهملت الحالة تنفق نتيجة الاختناق . لذلك يلزم الاستعانة بالطبيب فوراً حيث إن هذه الحالة تحتاج إلى معالجة خاصة .

الجرب :

كلنا نعرف أن الجرب مرض جلدى وهو معد بدرجة شديدة ، ومسبب المرض طفيليات خارجية تصل إلى الحيوان نتيجة ملامسة حيوان آخر مصاب ، أو نتيجة لاستخدام أدوات أو مكان حيوان مصاب بالجرب وهو يصيب كل الحيوانات .

ويظهر الجرب فى صورة التهابات جلدية لها طابع مميز مع حدوث حكة جلدية وميل الحيوان أن يحك نفسه فى أى شىء ثابت وسقوط الصوف فى الأغنام ، يلزم عزل الحيوان المصاب فوراً .

حقيقة أن مسبب المرض له نوعيات مختلفة وبالتأكد من نوعية المرض يحتاج الأمر إلى فحص معملى وطبى ، وبناء على تشخيص الطبيب تحدد خطوات العلاج .

يجب أن يقص الشعر أو الصوف تماماً من المنطقة المصابة وأن يحك مكان الإصابة جيداً بفرشة صلبة حتى يحمر الجلد ، ثم نضع الدواء المناسب أو نرشه . يلزم التخلص من كل بقايا وأدوات العلاج بالحرق .

القراد :

حشرة القراد معروفة وتعيش على امتصاص دم الحيوان وتلعب دوراً هاماً كناقلة لبعض الطفيليات الدموية التى تهلك الحيوان ، هذا بالإضافة لما تحصل عليه من دم الحيوان ذاته بصورة شرهة مسببة هزالا وفقدانا لقدرته . وهى تلتصق بالجسم عن طريق فمها الحاد وتوجد أيضاً داخل أذن الحيوانات وبخاصة الكلاب .

وكذلك على الضرع وعلى السطح الداخلى للأفخاذ ، وتعيش كذلك فى الشقوق الأرضية وفى شقوق الجدران فيجب مراعاة نظافة المكان والقضاء عليها .

كذلك يمكن جمعها من على جسم الحيوان باليد إذا كانت الإصابة بسيطة ، أما إذا كانت الإصابة شديدة وعدد الحيوانات كبيراً فيمكن التخلص من تلك الحشرات بالرش أو بالتغطيس فى محاليل المبيدات الخاصة .

الطفيليات الداخلية (الديدان) :

هى طفيليات تشارك الحيوان غذاءه فتحرمه من الفائدة المطلوبة من تربيته وتسيء إلى الحيوان ذاته فتؤثر على مظهره الخارجى .

وجود هذه الطفيليات داخل جسم الحيوان يسيء إلى الصحة العامة للحيوان وبخاصة إذا كانت أعدادها كبيرة ، فقد يحدث أن ينجم عن ذلك انسداد للأمعاء وأن حركتها تسبب مغصاً وآلاما بطنية ، كذلك تفرز سموماً تؤثر على الحالة العامة للحيوان وقد تقضى عليه ، وتهاجر بعض أطوار الديدان إلى داخل أجهزة الجسم المختلفة وبخاصة الجهاز التنفسى مسببة تهتكاً به والتهاباً رئوياً أو نزلة شعبية .

وجود بعض أطوار الطفيليات على بعض الأعضاء أو داخل ممراتها مثل الكبد . فقد تصل إلى المخ وتضغط عليه مسببة أعراضاً عصبية قاتلة ، كذلك قد توجد بعض أطوارها فى جدران الأوعية الدموية مسببة آلاماً بطنية ومغصاً قاتلا .

وجود الطفيليات داخل الجهاز الهضمى للحيوان يسبب تهيجاً فى الأمعاء والمعدة ويصاب الحيوان بالقيء وتسوء حالته العامة .

لذلك يلزم فحص البراز لتقدير درجة الإصابة ولتحديد النوعية وبناء عليه يقدر العلاج وتحدد طريقة تعاطيه .

البول المدمم :

البول هو السائل الذى يمر من مصفاة الجسم وهى الكلية حاملا معه مالا يحتاج إليه الجسم ومالا يجب أن يوجد به .

بما أن البول ينتج عن مرور الدم داخل أنسجة الكلية فبالتالى فإن المتغيرات التى تظهر فى البول تعكس حصيلة التغييرات فى الدم نتيجة عمليات أجهزة الجسم المختلفة وكذلك ما يطرأ عليه من تغيرات فى الجهاز البولى ذاته فى حالة إصابته .

طفيليات الدم تفتك بكرياته الحمراء فتنفجر وتخرج محتوياتها فى مجرى الدم وبالتالى تظهر فى البول .

وكذلك فإن بعض السموم تلعب نفس الدور ، لذلك فإن البول المدمم يحتاج إلى فحص دقيق لمعرفة المسبب له وبالتالى يلزم استشارة الطبيب .

الوفاة الفجائية فى الحيوانات :

ومن بعض مسبباتها الأمراض التالية :

١ – التسمم ٢ – النفاخ ٣ – هبوط القلب ٤ – عضة الثعبان أو لدغة العقرب ٥ – بعض الأمراض الجرثومية ٦ – بعض الأمراض الفيروسية ٧ – التلبك المعدى ٨ – تلبك الكرش ٩ – إصابة القلب جرحياً بالأجسام الحادة ١٠ – الطفيليات الداخلية ١١ – الحمى الفحمية ١٢ – التسمم الغذائى ١٣ – الإصابة بجراثيم الكوليستريديا المختلفة .

القراع :

مرض يتميز بأعراض جلدية عبارة عن دوائر يصل أكبر مساحة فيها إلى ما يماثل

قطر العملة المعدنية (عشرة قروش) وهى محددة الاستدارة وخالية من الشعر ونلاحظ وجود مسحوق أبيض بها .

ما يحدث فى هذا المرض هو أن مسبباته الفطرية تصيب سطح الجلد نتيجة ملامسة حيوان مصاب أو كنتيجة لاستخدام أدوات حيوان آخر مصاب فتتكاثر حول الشعر أو الصوف فتتسبب فى تقصفه تاركة وراءها بقايا وجودها وما هلك من خلايا وهو ما يظهر فى صورة مسحوق أبيض مائل إلى الرمادى .

الحيوانات الصغيرة لها قابلية للإصابة أكثر من الحيوانات الكبيرة .

يلزم فوراً عزل الحيوان المصاب وكذلك يلزم إزالة كل الشعر أو الصوف الذى يغطيه حتى تتضح جميع الأماكن المصابة . مع مراعاة حرق هذا الشعر والصوف وكذلك تطهير الأدوات المستخدمة فى إزالة الشعر .

يجب دهان الأماكن المصابة بصبغة اليود تركيز ٣ إلى ٥٪ ثم دهان الأماكن المصابة بالمراهم الخاصة المضادة للفطريات . ويوجد حالياً علاج شاف لهذا المرض يعطى الحيوان عن طريق الفم والجرعة تقدر حسب الوزن (جريز يوفالفين) كذلك يوجد الكثير من الأدوية التى تستخدم بالرش على الأماكن المصابة .

أهم مسببات زيادة إفراز اللعاب فى الحيوانات المختلفة

١ – التهاب الفم

٢ – التهاب الغدد اللعابية

٣ – الاضطرابات الهضمية

٤ – التهاب البلعوم مع عدم استطاعته للبلع

٥ – انسداد المرىء

٦ – الإصابة بالسعار (داء الكلب)

٧ – تلف الأسنان

٨ – وجود أورام فى الفم .

وجود الأجسام الحادة فى معدة الأبقار والجاموس :

نتيجة لطبيعة المواشى فى تناول غذائها فإنها تلتهم الغذاء بدون مضغ حتى يمتلئ كرشها ثم يبقى هذا الغذاء فترة فى الكرش يرجع بعدها إلى فم الحيوان لمضغه وخلطه باللعاب وبعد ذلك يرجع ثانية إلى الكرش .

نتيجة لهذه المادة فالحيوان يلتهم الغذاء بما يحتويه من أجسام غريبة (مسمار – سلك – عملة معدنية – إبرة) هذه الأجسام لاترجع إلى فم الحيوان ثانية لإعادة مضغها بل تسقط فى الشبكية (المعدة الثانية) حيث إن للمجترات (الأبقار والجاموس) معدة مركبة من أربعة أجزاء (الكرش – الشبكية – الورقية – المنفحة) وجود هذا الجسم الغريب فى المعدة الثانية يترتب عليه اختراقه لجدار المعدة الثانية وعادة يتجه إلى القلب مسبباً أعراضاً تنتهى بالوفاة .

لذلك يجب مراعاة وإعادة فحص الغذاء الذى يقدم للأبقار والجاموس للتأكد من خلوه من الأجسام الغريبة .

أمراض الفترة الأخيرة من الحمل وبعد الولادة

يحدث أحياناً أن تتعرض الأبقار والجاموس عالية الإدرار لأعراض مختلفة فى الفترة الأخيرة من الحمل أو فى أثناء الولادة أو بعد الولادة مباشرة أو فى خلال الشهر التالى للولادة . من هذه الأعراض :

(ا) حمى اللبن :

وهى حالة تنجم أساسا عن نقص معدن الكالسيوم والماغنسيوم والجلوكوز فى الدم فإذا حدثت قبل الولادة ترتب على ذلك رقاد الحيوان وإصابته بغيبوبة ربما يترتب عليها إيذاء عام لصحته بالإضافة للإضرار بعملية الولادة ذاتها ، فإذا حدثت تلك الحالة فى أثناء الولادة ترتب على ذلك عسر بها ، وإذا حدثت بعد الولادة ربما تسىء للأم ويترتب عليها الوفاة إذا لم تسعف مباشرة لذلك ينصح بإعطاء بوروجلوكونات الكالسيوم فى فترة الحمل الأخيرة حتى تساعد على وقاية الحيوان من التعرض لهذا العرض المرضى .

ملاحظة : يمكن أن تصاب النعاج أوأنثى الكلب بهذا المرض .

(ب) عسر الهضم بعد الولادة :

هذه الحالة ينجم عنها ارتباك فى عمليات التمثيل الغذائى للنشويات وينجم عن نقص النشويات والمعادن النادرة فى الدم . هذه الحالة تحدث فى صورتين أولها ينتج عنها هزال شديد للحيوان والثانية ينجم عنها أعراض عصبية شديدة وتنتهى بالعمى والوفاة .

لذلك يجب مراعاة نوعية الغذاء الذى يقدم للأم فى هذه الفترة ويمكن إعطاؤها الجلوكوز بالوريد بالإضافة إلى ما ينصح به الطبيب .

(جـ) البول المدمم بعد الولادة :

تحدث هذه الحالة فى الجاموس والأبقار بعد الولادة ويعتقد أن المسبب الأساسى لها هو نقص الفوسفور فى الجسم مما يساعد على سهولة تكسير كريات الدم

الحمراء التى تخرج محتوياتها فى البول .

هذه الحالة يلزم أن تعرض على الطبيب لتقدير مدى الإصابة وتقرير نوعية العلاج . وينصح بتقديم خليط من المعادن مع الغذاء وكذلك إضافة مسحوق العظم إلى الغذاء .

١٣ – نصائح للعناية بالمواليد

١ – نادراً ما تحتاج الولادة الطبيعية إلى مساعدة وقت الوضع بل يجب مراقبتها فقط لتقديم العون إذا احتاج الأمر .

٢ – عندما تلد الأنثى ربما ينقطع الحبل السرى ويحدث هذا أحياناً وبخاصة عندما تلد وهى واقفة .

وتحدث هذه الحالة خاصة فى الأبقار والأفراس ولذلك يلزم الانتباه بمجرد خروج الجنين .

٣ – بمجرد نزول المولود تقوم الأم بلحسه كله وتنظيفه من المواد المخاطية العالقة به وبخاصة فمه وأنفه وأذنيه ، وهذا يعتبر نوعاً من التدليك والتنبيه الهام لأجهزة الجسم المختلفة .

٤ – يمكن مساعدة الأنثى بأن تنظف المولود بقطعة قماش نظيفة وهذا ضرورى وبخاصة إذا لم تقم الأم بهذه المهمة .

٥ – إذا نزل المولود بدون حراك نتيجة للإنهاك أو الضغط عليه فيحسن فوراً مساعدة تنفسه بالضغط الرقيق على ضلوعه بكلتا اليدين بصورة متقطعة حتى يبدأ فى التنفس ، ويمكن مس الوجه بالماء أو تشميمه بصلة مقطوعة .

٦ – يلزم مساعدة المولود ليعرف مكان الضرع والحلمات ليأخذ أهم ما يناله فى

حياته ، وهو السرسوب وهو السائل المصلى الموجود فى الضرع بعد الولادة .

٧ - يلزم وضع المولود بعد ذلك فى مكان جاف دافىء نظيف مفروش جيداً بقش الأرز .

٨ - يلزم عدم تعريض المولود لأية تيارات هوائية

٩ - يلزم أن تغير الفرشة بين الحين والآخر بأخرى جديدة

١٠ - يلزم دهان مكان السرة بصبغة اليود

العناية الصحية بالحيوانات المريضة

١ - الحيوان المريض يحتاج إلى رعاية خاصة مضاعفة حتى يتحقق ما تصبو إليه من شفائه .

٢ - المكان الصحى - الغذاء المناسب - النظافة - الهواء - الماء النظيف - الدفء أهم أساسيات العلاج السليم .

٣ - يجب معاملة الحيوان المريض بشفقه زائدة

٤ - يجب إعطاء الدواء بالصورة السليمة فى الميعاد المحدد

٥ - مساعدة الحيوانات المريضة فى تناول الدواء والغذاء وتشجيعها .

كيفية إعطاء الدواء للحيوانات المختلفة

الأدوية أنواع مختلفة تعطى للحيوان :

١ - عن طريق الفم ٢ - عن طريق الجلد (حقن - دهان - رش) ٣ - عن طريق العضل ٤ - عن طريق الوريد ٥ - عن طريق الاستنشاق .

عن طريق الفم : يمكن إعطاء الدواء ضمن الطعام أو بملعقة أو زجاجة أو فى صورة أقراص أو بلابيع أو غسيل أو دهان ويجب ملاحظة أن يتمكن الحيوان من

البلع حتى لايدخل الدواء بطريق الخطأ إلى الجهاز التنفسى مسبباً التهاباً رئوياً سيئاً

أو عن طريق الجلد إما فى صورة مرهم أو دهان ويلزم لتأكيد فعالية الدواء أن يدهن به الجلد لمدة تصل إلى عشر دقائق حتى نتأكد من امتصاص المادة المطلوب تأثيرها .

أو فى صورة رش وفى هذه الحالة يجب أن يقترب اندفاع السائل نحو الجسم بمسافة لاتزيد عن ٢٠ سم لنتأكد القدرة على النفاذ .

أو فى صوره حقن تحت الجلد ويلزم التأكد من بقاء الإبرة فى أنسجة ماتحت الجلد .

أو عن طريق العضل ويلزم أن يكون اتجاه الإبرة عموديا ويلزم أن نسحب ذراع الحقنة من المكان حتى نتأكد أن الإبرة لم تدخل فى شريان أو وريد .

أو عن طريق الوريد ويلزم التأكد أيضاً من أن الحقنة بالوريد بأن نسحب ذراع الحقنة قليلا فنجد الدم دخل إلى جسم الحقنة واختلط بمحتوياتها .

ملحوظة :

عند الحقن بالوريد يلزم أن نتأكد من خلو جسم الحقنة من فراغ هوائى بأن نطرد الهواء بالضغط برفق على ذراع الحقنة نحو سن الابرة ويلزم مراعاة البطء التام بإعطاء الحقن فى الوريد حتى لايتأثر القلب تأثيراً مباشراً ضاراً — يتضح فى صور المواقع الخاصة بالحقن الأماكن التى يمكن إعطاء مختلف الأدوية بها .

الجرعات

الحصان :

جرعة كاملة (ثلاث سنوات فأكثر) . نصف جرعة (من سنة ونصف إلى ثلاث سنوات) . ربع جرعة (من تسعة أشهر إلى ثمانية عشر شهراً) ثمن جرعة

(من أربعة أشهر ونصف إلى تسعة أشهر) ١٦/١ جرعة (من شهر إلى أربعة أشهر ونصف) .

البقرة :

جرعة كاملة (من سنتين فأكثر) . نصف جرعة (من سنة إلى سنتين) . ربع جرعة (ستة أشهر إلى سنة) . ثمن جرعة (من ٣ أشهر إلى ستة أشهر) . ١٦/١ جرعة (من شهر إلى ثلاثة أشهر) .

الغنم والماعز

جرعة كاملة (من سنتين فأكثر) . نصف جرعة (من سنة إلى سنتين) . ربع جرعة (من نصف سنة إلى سنة) . ثمن جرعة (من ثلاثة أشهر إلى ستة أشهر) ، ١٦/١ جرعة (من شهر إلى ثلاثة أشهر) .

الخنزير :

جرعة كاملة (من سنة ونصف فأكثر) . نصف جرعة (من تسعة أشهر إلى ١٨ شهراً) . ربع جرعة (من أربعة شهور ونصف إلى تسعة أشهر) . ثمن جرعة (من شهرين ونصف إلى أربعة شهور ونصف) ١٦/١ جرعة (من شهر إلى شهرين ونصف) .

الكلب :

(من شهر إلى شهرين ونصف) (من ستة أشهر إلى سنة) نصف جرعة ، (من ثلاثة أشهر إلى ستة أشهر) ربع جرعة ، (من شهر ونصف إلى ثلاثة أشهر) ثمن

جرعة . (من ٢٠ يوماً إلى ٢٥ يوماً) ١/١٦ جرعة (من عشرة إلى عشرين يوماً)

ملحوظة :

البقرة تأخذ مثل الحصان (مرة ونصف) الغنم والماعز تأخذ جرعة تعادل خمس ما يأخذه الحصان

الخنازير :

تأخذ جرعة تعادل ثمن ما يأخذه الحصان

الكلب :

يأخذ جرعة تعادل ١/١٦ جرعة مما يأخذ الحصان وجرعة الكلب تعادل ما يأخذه الإنسان .

القطة :

تأخذ جرعة تعادل ١/٣٢ مما يأخذه الحصان .

١ - يجب أن يراعى أن الجرعة الكاملة لاتعطى إلا الحيوان الكامل النمو بالنسبة لعمره

٢ - عندما يكون الحيوان هزيلا يجب مراعاة الإقلال من كمية الجرعة

٣ - يجب أن يراعى عدم إعطاء الأدوية الطاردة الشديدة وطاردات الديدان القوية الأنثى الحامل أو الحيوان الضعيف .

١٤ - صورة عامة عن المرض والاعتلال فى الكلاب

الحقيقة أن الخبرة أحسن معلم وحتى يبلغ الإنسان هذا المستوى من العلم يجب عليه ألا يتجاهل مساعدة الآخرين ممن لديهم خبرة سابقة أو تخصص .

لكى تعرف الكثير عن مرض واعتلال الكلاب يجب أولا أن تعرف المواصفات المميزة للحيوان السليم الذى يتمتع بصحة وبحالة طبيعية .

الكلب عندما يكون سليماً تجده منتبهاً ومهتمًّا بكل ما يدور حوله – عيناه لامعتان وتجده غير خائف بل هو على العكس نشط وسعيد . فى لحظة ما يظهر عليه الخمول وعدم الاكتراث عندئذ يوجد شيء يضر بصحته .

الكلب السليم تجده نظيفاً ، عيناه صافيتان ، رائحة فمه وأنفه مقبولة عادية ، الأغشية المخاطية التى تغطى العين والفم تجدها حمراء اللون وردية لاملتهبة ولامائية ، كذلك فتحات الأنف تجدها ناعمة ، لينة ونظيفة غير جافة ولا توجد عليها قشور أو إفرازات مغطاة بطبقة مائية أو مخاطية شفافة ، أو توجد عليها قطرات مائية نتيجة التنفس الشديد الناجم عن نشاط الحيوان والجرى . شعر الكلب أو فروته تجدها لامعة نظيفة وفى حالة إصابة الحيوان جافة قشرية – حرارة الحيوان عادة ما تكون حوالى ٣٩ درجة مئوية ويتبرز الحيوان السليم عادة بدون أى ألم أو تألم وينزل البراز ناعماً لونه مائلا إلى اللون البنى ، نبض الحيوان العادى يصل إلى ٧٨ فى الدقيقة (٧٠ – ٩٠) وكلما زاد نشاطه أو حركته ازداد النبض كذلك الحال بالنسبة لسرعة التنفس ، ويجب فيها ملاحظة أن تؤخذ والحيوان راقدا ، الكلب السليم يتنفس بارتفاع وهبوط جدار البطن بدون أى معاناة فى أنف الحيوان مع ملاحظة التفرقة بين سرعة التنفس الذى يحدث فى حالة احتقان الرئة أو التهابها فعندئذ يكون التنفس أجوف سريعاً ويشعر الكلب فى هذه الحالة بعدم الراحة ويغير وضعه كثيراً .

أماكن (مواقع) الحقن فى الحيوانات المختلفة

الحيوان	فى الوريد	فى العضل	تحت الجلد	فى الجلد
الخيل	الوريد الوداجى	الأرباع الخلفية (الفخذ) الصدر	جانب الرقبة	جانب الرقبة
الجمل- الماشية	وريد الأذن	الصدر	جانب الرقبة	فوق جفن العين
الجاموس	الوريد الفخذى	الأرباع الخلفية	تحت حافة المخد	جانب الرقبة
		عضلات الكفل (الأرداف)	خلف الأذن	فوق جفن العين
الخنزير	الوريد الصافن	الأرباع الخلفية		جانب الرقبة
الكلاب والقطط	الوريد الشعاعى	عضلات الكفل	جانب الرقبة	فوق جفن العين
الدجاج	وريد الجناح	الأرباع الخلفية	أى جزء من الجسم	جانب الرقبة
الأرنب	وريد الأذن	الفخذ - الصدر	الفخذ- الصدر	وسادة القدم

ملخص لأهم علامات داء الكلب فى الحيوانات المختلفة

لأهمية هذا المرض يجب أن نعرف تماماً أن داء الكلب (السعار) مرض يصيب حيوانات كثيرة وليست الكلاب وحدها وهذا المرض مميت للإنسان والحيوان.

أول الأعراض التى تظهر على الحيوان تغير بسيط فى السلوك العام له لايلتفت له أحد. ثم يعقبه تصرفات عصبية مع فقدان الشهية واحتقان جفون العين مع ارتفاع فى درجة الحرارة واتساع حدقة العين والخوف من الماء

فى الكلاب يتخذ المرض شكلين :

(ا) النوع الشرس وفيه ينطلق الحيوان شارداً على غير هدى مهاجماً كل شىء يتحرك أمامه فاتحاً فمه لعابه يتدلى من فمه سائراً لمسافات طويلة فى خطوط مستقيمة.

(ب) النوع الخامل وفيه يجلس الحيوان هادئاً عيناه نصف مغلقتين ولعابه متدلى من فمه مع فقدان الشهية، ويفضل الحيوان الاعتكاف والاختباء تحت أى قطعة أثاث فى المنزل أو خلافه.

الكلاب الصغيرة المصابة تحاول الاقتراب من الأشخاص ولكن بمجرد ملاطفتها فإنها تعض ناقلة المرض.

القطط تكون فى الصورة السابقة نفسها وإذا هاجمت القطة المسعورة فلا يمكن أن تترك من تعضه حتى تموت أى من الصعب فتح فكها فى مكان العضة.

فى الأبقار يتميز النوع المعتدل بالشلل ويحدث انثناء للقوائم الخلفية عند مفصل المشط وتتحرك مؤخرة الحيوان يميناً وشمالاً عند سيره، وربما يرتخى الذيل لناحية واحدة ويتحزق الحيوان ونلاحظ على الحيوان حركات تثاؤب هى فى الحقيقة حركات صوتية أى أن الحيوان يصدر صوتاً دون أن نسمعه يتبع ذلك شلل ثم يرقد

الحيوان ويموت .

النوع الشرس وفيه يهاجم الحيوان الأشياء المتحركة ونجد أنه يحاول تثبيت عينيه على شيء معين بشكل تشعر فيه أن الحيوان يود أن يهاجم ونلاحظ أن حدقة العين واسعة ونجده منتصب الآذان مع هياج جنسى وإقبال على الجماع مرات متكررة .

فى الخيول والحمير نلاحظ وجود تصرفات عصبية ، حركات دائمة تنم عن التهيج ، أكلان فى الجسم يتركز فى الأعضاء التناسلية للذكر وثدى الأنثى ونلاحظ أن الحيوان يعض تلك الأماكن حتى ينزل منها الدم ويستمر فى ذلك كأنه يأكلها .

فى الأغنام : فى العادة تظهر الإصابة بهذا المرض فى أكثر من حيوان وفى وقت واحد حيث يسهل عليه أن يعضها كلب مسعور أو ثعلب وهى تهاجم الإنسان ، وهذا غير مألوف عن الأغنام وما يحدث فيها يشبه ما يحدث فى الأبقار والجاموس مع ملاحظة أنها تحاول انتزاع الصوف من على جسمها بشراسة ويسقط الحيوان أخيراً على الأرض وينفق .

الإنفلونزا (الديستمبر)

مرض فيروسى وبائى خطير يصيب كافة الأعمار .

وأعراضه العامة عبارة عن نزلة برد مع دمع فى العينين ورشح فى الأنف ، كذلك نلاحظ وجود كحة – فقدان الشهية – خمول – إسهال – حمى .

أنواعه :

(ا) النوع الرئوى (التهاب الأغشية المخاطية للرأس)

(ب) النوع المعوى (إسهال – آلام معوية – هزال)

(حـ) النوع المعدى (عسر هضم – رائحة الفم سيئة حمضية)

(د) النوع العصبي (وفيه تظهر أعراض عصبية أو يحدث شلل فى الأطراف)

جميع أنواع هذا المرض خطيرة ويلزم الرعاية والعناية التامة بالحيوان ويجب عزله وأن تستخدم له أدوات خاصة حتى بالنسبة للترمومتر الذى يستخدم لأخذ درجات الحرارة .

مدة المرض : من أسبوعين إلى ستة أسابيع .

العلاج : بما أن هذا المرض فيروسى فما يحدث حقيقة هو أننا يجب أن نعالج الأعراض الموجودة ونحاول أن نمنع المضاعفات غير المرغوب فيها ، فيجب تركيز الانتباه نحو رعاية العينين والأذنين وممرات الأنف والأمعاء والحمى والأعصاب .

عندما يشفى الحيوان من المرض يجب تطهير وغسل المكان جيداً وتعريضه للشمس.

ويجب علينا ألا نعرض الحيوان لتيارات الهواء وأن نوفر له المكان الدافئ ويجب ملاحظة أن الحيوان فى أعقاب مرض الديستمبر تكون أمعاؤه ومعدته حساسة جداً لذلك يجب مراعاة عدم إرهاقها بالأغذية الثقيلة أو بأية كمية كبيرة ، بل يجب أختيار غذاء خفيف مع الإقلال من حجم الوجبة

علاج الاختلاجات التشنجية :

تظهر أحياناً أعراض عصبية على الحيوان فى نهاية مرض الديستمبر وتنتج من إجهاد الجهاز العصبي ، وهذه الأعراض عبارة عن ارتعاشات أو اهتزازات لبعض أجزاء الجسم (الأذن – العين – الأرجل – الشفاه – جانب الوجه) . إذا أصيب بها الحيوان من الصعب أن يعالج ولو أنه يشفى بمرور الزمن ، ومن تأثير العلاج بمركبات الزرنيخ والفيتامينات ، ويجب مراعاة توفير الراحة والهدوء وعدم الإجهاد عقب المرض وكذلك الاحتياط من التعرض لنوبة برد لأن هذا ينتهى بالوفاة . عادة المرض البسيط ينتهى بأعراض عصبية والمرض القاسى ينتهى بسلامة .

العناية بالفم والعينين :

يجب ملاحظة الفم والعين فى أثناء هذا المرض ولفترة بعد انقضائه إذا لم تتنبه لنظافة الفم تتلون الأسنان باللون الأصفر الذى يستمر مدى الحياة . وتنظيف الفم يكون بقطعة ناعمة من القماش ملفوفة حول الإصبع ومبللة بلبن المانيزيا أو حتى ملح الطعام .

العين تتأثر تأثراً مباشراً نتيجة لهذا المرض بسبب كمية الصديد المتجمع تحت الجفون وكذلك نتيجة لإجهاد جهاز الدمع مما يترتب عليه عدم كفاءة أدائه ويلزم غسل العين يوميا بمحلول بوريك دافئ ثم وضع نقطة من محلول لبنى للأرجيرول من ٥ – ١٠٪ فى كل عين مساء ثم مس العين بالفازلين لأن هذه القطرة تجفف العين ، ويجب مراعاة الإقلال من الضوء فى مكان حفظ الكلب وأيضاً يجب أن نراعى مسح العين بقطنة معقمة قبل غسلها بمحلول البوريك .

العناية بالأذن :

الأذن وبخاصة الجزء السفلى منها يعتبر أكثر الأجزاء حساسية ، وهى المكان المختار للبراغيث والقمل مما يسبب إزعاجا للحيوان نتيجة تهيجها فيهرشها حتى الإدماء كذلك نزلة البرد والحمى والتجمعات الشمعية وتيارات الهواء تسبب التهاب الأجزاء الداخلية للأذن ، وإذا لم تعالج يمتد الالتهاب إلى أجزاء أخرى داخلية ويتجمع الصديد بها ، ولذلك يجب تنظيف هذه الأجزاء بواسطة كحول أحمر (٣ إلى ٤ نقط) بواسطة قضيب زجاجى غير مدبب ملفوف حوله قطعة قطن معقم .

النوبات العصبية :

النوبة العصبية ليست مرضاً ولكنها تعبير عن وجود مرض ، فمثلا هى تحدث نتيجة للإمساك أو نتيجة لوجود الديدان (التى تفرز بعض السموم) وهذه تؤثر على الأعصاب لدرجة أن الحيوان يسقط فى نوبة عصبية ، وتحدث أيضاً فى فترة التسنين (من ٤ إلى ٥ شهور) مسببة آلاماً عصبية ، وكذلك تحدث فى أعقاب المرض المعروف بالديستمبر .

يمكن إيقاف تلك الأعراض إذا كان المسبب فى متناول العلاج ولكن إذا كانت هذه النوبات هى التى تحدث قبل الوفاة فلا فائدة من العلاج .

يجب عدم الانتظار حتى تنتهى النوبة العصبية بل يجب تقديم ما يلزم من إسعاف فورى ، ويكون بتغطيس الحيوان فى حوض به ماء أو بوضع بعض الكلوروفورم على منديل وتقريبه من أنف الحيوان حتى يستطيع أن يشمه فهذا يساعد على إحداث ارتخاء عضلى ، وفى كل حالة يجب استشارة الطبيب للبحث عن سبب هذه الحالة .

التشنج فى أثناء الولادة أو بعدها :

تحدث هذه الحالة التى تصيب الأم فتتشنج وتسقط فجأة ونلاحظ أن تنفسها سريع جداً وتحاول أن تقوم ولكن جسمها يتصلب وتسقط ثانية فى شبه شلل تام . إذا لمست جسمها باليد فإن عضلاتها تتشنج وتفتح فمها ويتدلى لسانها ويمتلئ الفم باللعاب الذى يتجمع مسبباً عائقاً لعمليات التنفس ويظل الحيوان نصف منتبه .

إذا لم تسعف الحالة فوراً فإنها تموت فى خلال ٢٤ إلى ٤٨ ساعة ولاتستطيع أن تسترجع أرجلها .

علاج مثل هذه الحالات بالكلوروفورم أو المورفين ويجب العناية بالأم خلال فترة الحمل مع تعريضها للهواء الطلق والشمس .

التهاب المعدة :

وتظهر هذه الحالة فى صورة قيء لأى طعام أو ماء يشربه الحيوان مع عطش شديد ودرجات مختلفة من التألم وحساسية شديدة فى منطقة المعدة يضطر الحيوان معها أن يتقوس ظهره .

يجب منع الأكل تماماً عن الحيوان والاكتفاء بالغذاء السائل (شوربة) وعندما يتماثل الحيوان للشفاء يجب إعطاؤه الطعام تدريجياً .

يجب البحث عن المسبب الأصلى لمثل هذه الحالة وإزالته .

الانسدادات المعوية

كثيرة الحدوث فى الصغار نتيجة ميلها لابتلاع أى شيء صغير تلعب به كذلك نتيجة للحس الفروة فيتجمع كثير من الشعر داخل الأمعاء على صورة كرات صغيرة تسبب انسدادات معوية وتحدث آلاماً بطنية شديدة وقيئاً ولايتبرز الحيوان لأيام متتالية ، وإذا تبرز تنزل كمية بسيطة من البراز أغلبها مخاط مدمم . الحقيقة أنه إذا أمكننا تقديم بعض الحشائش للكلاب فى هذه الحالة فإنها تساعد معدة الحيوان على طرد الأجسام الغريبة المتجمعة فى المعدة بالإضافة إلى تأثيرها الملين ، وإذا لم يأكل الحيوان هذه الحشائش يمكن إضافة قليل من الماء إلى بعض الدقيق وتقليبه حتى يصير فى قوام العسل ثم صب هذا المحلول فى فم الحيوان ، هذا الخليط سيغلف الجسم الغريب ويساعد الحيوان على أن يقيئه . كذلك يمكن عمل حقنة شرجية (١٠ أجزاء ماء + ١ جزء جلسرين) أو من الماء والصابون أومن الزيت المعدنى فقط (برافين) .

الإسهال :

ومسبباته عادة ماتكون مشاكل هضمية – الشجار – التصرفات العصبية – التدفئة الزائدة – تهيج الأمعاء – الغذاء التالف – الخبز العفن – اللحم التالف – الديدان..

من الواجب إزالة المسبب أولا وبالتالى يسهل العلاج . مع أن زيت الخروع علاج غير مستساغ ولكن لامانع من استخدامه فى حدود ملعقة شاى على الأكثر.

أحسن غذاء خلال فترة حدوث الإسهال هو تحميص الدقيق حتى يصير لونه بنياً ثم عمله فى صورة عجينة يضاف لها قطعة لحم .

الإمساك :

ومسبباته غذاء مركز جدا – قلة التريض – نقص كمية الماء – إذا كان الغذاء مكوناً من اللحم فقط .

ملحوظة :

يجب أن يتبرز الحيوان مرة كل ٢٤ ساعة بسهولة وبدون جهد – يلزم إضافة بعض الخضروات لطعام الكلب وأن يتعود ذلك من الصغر . فى الحالات الشديدة يمكن عمل حقنة شرجية من الماء والصابون أومن الماء وزيت البرافين . كذلك يمكن إعطاء ملعقة شاى لبن مانيزيا .

التهاب الأكياس الموجودة حول فتحة الشرج :

توجد بعض الأكياس الصغيرة حول فتحة الشرج تفرز مادة معينة ، ويحدث

كثيراً أن تلتهب تلك الأكياس وتتضخم أوتحتقن أوتوجد بعض العوائق فى قنواتها مما يمنع نزول تلك الإفرازات ، وهذا يتسبب فى تضخم شديد يحدث صعوبة التبرز أوربما ينتج عنه عدم التبرز كلية ، ويضطر الحيوان إلى أن يحك فتحة الشرج على حافة أى شىء (سجادة- رصيف) ويلزم تدليك هذه الغدة بأصبعى السبابة والإبهام حتى تلين وتنزل تلك الإفرازات .

إذا كان المسبب طفيليات يلزم إعطاء الدواء المناسب .

تغير حالة البول :

البول هو انعكاس لحالة أجهزة كثيرة فى الجسم فعندما يتغير مظهره يجب أن نضع ذلك فى الاعتبار ، ويجب علينا البحث عن المسبب الحقيقى وراء هذه التغير لأهمية ذلك . أحياناً يتغير لونه - كميته - رائحته - كثافته ، وقد تحدث تغيرات أخرى كثيرة لاتظهر للعين المجردة بل تحتاج إلى اختبارات معملية لايؤديها إلاالطبيب ، فإذا لاحظت على الحيوان تألما أومعاناة فى أثناء عملية التبول أوعند جس منطقة الكلية أوتغيراً فى لون وطبيعة البول فيجب أن تلجأ إلى الطبيب فورا .

الإصابات الجلدية :

الجلد هو المرآة الحقيقية لحالة الجسم .

مسببات تغير حالة الجلد : التغذية غير الصحيحة - الطفيليات - الاضطرابات الداخلية فى الجسم - بعض الأمراض - المعدية - قلة التريض العلاج يعتمد أساساً على إزالة المسبب الحقيقى .

الإمساك أحياناً يتسبب فى تأثر الجلد ولذلك إذا كان هو السبب يجب إعطاء ملينات . الإكزيما من الإصابات الكثيرة الحدوث بين الكلاب وتعتمد أساساً فى

حدوثها على الإضطرابات الغذائية فيفقد الحيوان حيويته ويهزل نتيجة للتهيج الذى يحدث بالجلد ، كذلك ربما يتسبب نوع الصابون أوالمطهر الذى يستخدم لتنظيف الحيوان فى تهيج الجلد . ويجب علينا ألا ننسى الأمراض الفطرية والطفيليات الخارجية وماتسببه من تهيج فى أنسجة الجلد .

الأكزيما :

الأكزيما مرض كثير الحدوث يصيب الجلد وهى ذات أسباب متعددة ، ربما تحدث الأكزيما نتيجة سوء التغذية أوالإفراط فيها ، ربما لزيادة نوع معين من الغذاء أولوجود مرض فى الجهاز البولى ، أونتيجة للإهمال فى نظافة الحيوان أومسكنه ، وتظهر الأكزيما فى صور مختلفة ، فنها الجاف ومنها الرطب وكلاهما يسىء إلى المظهر العام للحيوان ويدل على معاناة واعتلال فى جسمه ، والأفضل الرجوع إلى الطبيب لتحديد نوعية مسبب المرض ووصف الدواء المناسب .

الجرب :

مرض طفيلى ينجم عن ملامسة حيوان مريض أواستخدام أدوات حيوان مصاب بالمرض نفسه أونتيجة للوجود فى مكان حيوان مصاب بهذا النوع من الطفيليات .

وهو مرض جلدى ذو أنواع متعددة ، فنها مايسهل علاجه ومنها الصعب .

أول الأضرار التى يسببها هذا المرض هو فقدان الشعر أوالصوف ، والحيوان يهرش جسمه بصورة متكررة تجعله غير مستطيع أن يلتفت إلى غذائه أوأن تتحقق الفائدة المطلوبة منه ، ويتجعد الجلد وتظهر عليه علامات التهابية مع إفرازات مثيرة تسبب حكًّا شديداً فى الجلد . وتوجد نوعيات من هذا الطفيل تهاجم الأذن وأجزاء

داخلية بها مسببة آثارا سيئة .

لذلك يجب أن نراعى قواعد النظافة العامة ، وأساس علاج الحالة يعتمد على إزالة كل الشعر من على أجزاء الجسم المختلفة حتى تظهر بوضوح كافة الأجزاء المصابة ثم يحك الجلد حكًا شديداً حتى يصبح لونه أحمر ، ثم نقوم بدهن الأجزاء المصابة بدواء خاص بالجرب مع ملاحظة عدم تمكين الحيوان أن يلحس جسمه حتى لايتأثر بمحتويات الدواء التى قد تكون سامة . ويكرر العلاج حسب التعليمات الخاصة به ولكن يجب مراعاة عزل الحالة تماما وتنظيف وتطهير مكان معيشتها ، كذلك يجب تطهير كافة الأدوات التى تستخدم فى نظافتها .

القراع :

مرض جلدى تسببه بعض الفطريات ويتميز هذا المرض بعلامات خاصة يسهل تشخيصها فهى أماكن مستديرة قطرها يتراوح مابين نصف سنتيمتر وتزداد اتساعاً إلى حوالى سنتيمترين بقطر دائرتها . وتنتشر وتزداد انتشاراً كلما أهمل العلاج ويصبح الحيوان ناقلا للمرض . وبما أن هذا المرض ينتقل بالملامسة المباشرة لذلك يجب عزل الحالة ، وأنصح أولا إما بالتخلص من كافة الأدوات التى كانت تستخدم فى نظافة الحيوان أوتطهيرها بصورة جيدة جداً ، ثم حلق شعر أوصوف الحيوان تماماً وحرقه ثم دهان كل الجسم بصبغة اليود ٣ إلى ٥ ٪ ، ثم وضع مرهم مضاد أو أى دواء خاص بعلاج القراع على سطح الجسم ، ويكرر هذا العلاج كما يتضح فى تعليمات الدواء المستعمل ، وتوجد أدوية أخرى تؤخذ عن طريق الفم (جريزيوفالفين) ، ويعطى الحيوان هذا الدواء حسب الوزن ولكن يجب العلم أن هذا لايغنى عن العلاج الخارجى الذى يؤكد ملاحقة المرض بكافة الوسائل خارجية وداخلية .

الطفيليات الداخلية :

معظم الكلاب مصابة بالديدان وهذا ناتج من سهولة تحقيق الإصابة نتيجة تعرضها المستمر ، فنجد بعض الديدان متعلقاً بالفروة أوعلى الأرض . ومن علامات وجود الطفيليات الداخلية (الكحة – التحزيق – الإسهال – الانتفاخ – الهزال – شهية غير جيدة – قيء – حكة حول فتحة الشرج – سقوط الشعر أوتشوهه) أحياناً نلاحظ أجزاء من الديدان أوالديدان ذاتها فى البراز .

يجب ألايعطى أى دواء طارد للديدان على معدة ممتلئة أوفى حالة الإمساك بل يستحسن أن يكون الحيوان صائماً لمدة ٢٤ ساعة ، كذلك يلزم إعطاء ملعقة لبن مانيزيا صباحاً ومساء لمدة يومين قبل إعطاء الدواء المناسب لنوعية الديدان .

١٥ – ما يجب عمله عنه التعرض لعضة أو للعاب حيوان مسعور

الكلب يعض ، القط يعض .

البقر والغنم لاتعض ، وإذا أصيبت بداء الكلب تعض .

الخيول والجمال أحياناً تعض وإذا أصيبت بداء الكلب تعض دائماً .

مما سبق يختلط علينا الأمر هل عضة الحيوان مؤذية مميتة أو لا ؟ هل العضة فقط هى المؤذية أواللعاب أيضاً ؟

لهذا يجب علينا أن نعرف أن عضة الحيوان مؤذية وتسبب الوفاة ، ولعاب الحيوان المسعور مؤذٍ ولاسيما إذا وجد جرح ولو بسيط لاتراه بالعين المجردة وتلوث ذلك الجرح بلعاب حيوان مسعور .

ملحوظة :

كلما كان مكان العضة أوالجرح قريباً من الرأس أوالأجزاء العلوية من الجسم كان التأثير أسرع .

كلما كانت العضة غائرة فى الجسم كانت مؤذية .

بما أنه تختلف مدة الحضانة لهذا المرض (أى المدة اللازمة لظهور الأعراض المرضية) تبعاً لطبيعة العضة ومكانها فيلزم فوراً غسل المكان جيداً ، ثم غسله مرة أخرى بمطهر أومنظف ، ثم تطهير مكان الجرح بصبغة اليود تركيز عال نسبياً ٥ إلى ٦٪ .

فى حالة الإصابة المؤكدة يضطر الطبيب إذا كان الجرح غائراً إلى استخدام فورى لحامض النيتريك فى مس المكان المصاب ، بعض الناس يستخدمون طريقة الكى .

يلزم أيضا الذهاب فورا إلى أقرب مستشفى لأخذ مايشير به الطبيب .

الإجراءات الواجب اتخاذها تجاه الحيوان عند الشك فى إصابته بالسعار :

١ – عزل الحيوان تماماً (إذا كان خاصا بك)

٢ – وضعه تحت الملاحظة التامة .

٣ – عدم الاقتراب من مكان حفظه .

٤ – تقديم الطعام والشراب له بصورة آمنة .

٥ – ملاحظة أعراض المرض عليه ورغبته فى شرب الماء من عدمه .

٦ – ملاحظة طبيعة الحيوان والتغيرات التى تطرأ عليها .

٧ – عدم اقتراب الصغار له أومداعبته .

٨ - إذا حدثت الوفاة فى خلال مدة ١٤ يوما فهناك احتمال كبير لإصابة الحيوان بالمرض ويلزم أخذ العلاج الفورى ويلزم تسليم الجثة إلى المستشفى لإجراء الاختبار التأكيدى اللازم عليها .

إذا كنت لاتمتلك الحيوان وحدثت الإصابة :

١ - إذا كنت تعرف صاحبه أبلغ الشرطة للتحفظ على الحيوان .

٢ - إذا كنت لاتعرف صاحبه يلزم الذهاب إلى أقرب مكان لأخذ العلاج اللازم فوراً .

١٦ - إرشادات عند شراء خروف العيد

١ - عدم وجود تضخمات فى سطح الجسم الخارجى (تحت الفك - أمام الكتف - أمام الفخذ) فهذا يدل على إصابة الحيوان بالسل الكاذب .

٢ - نظافة وشكل الصوف .

٣ - عدم سهولة انتزاع الصوف وهذا يختبر بشد بعض الصوف بأصابع اليد من على ظهر الحيوان فإذا حدث ذلك فهذا يدل فى معظم الأحيان على إصابة الحيوان بالديدان الكبدية .

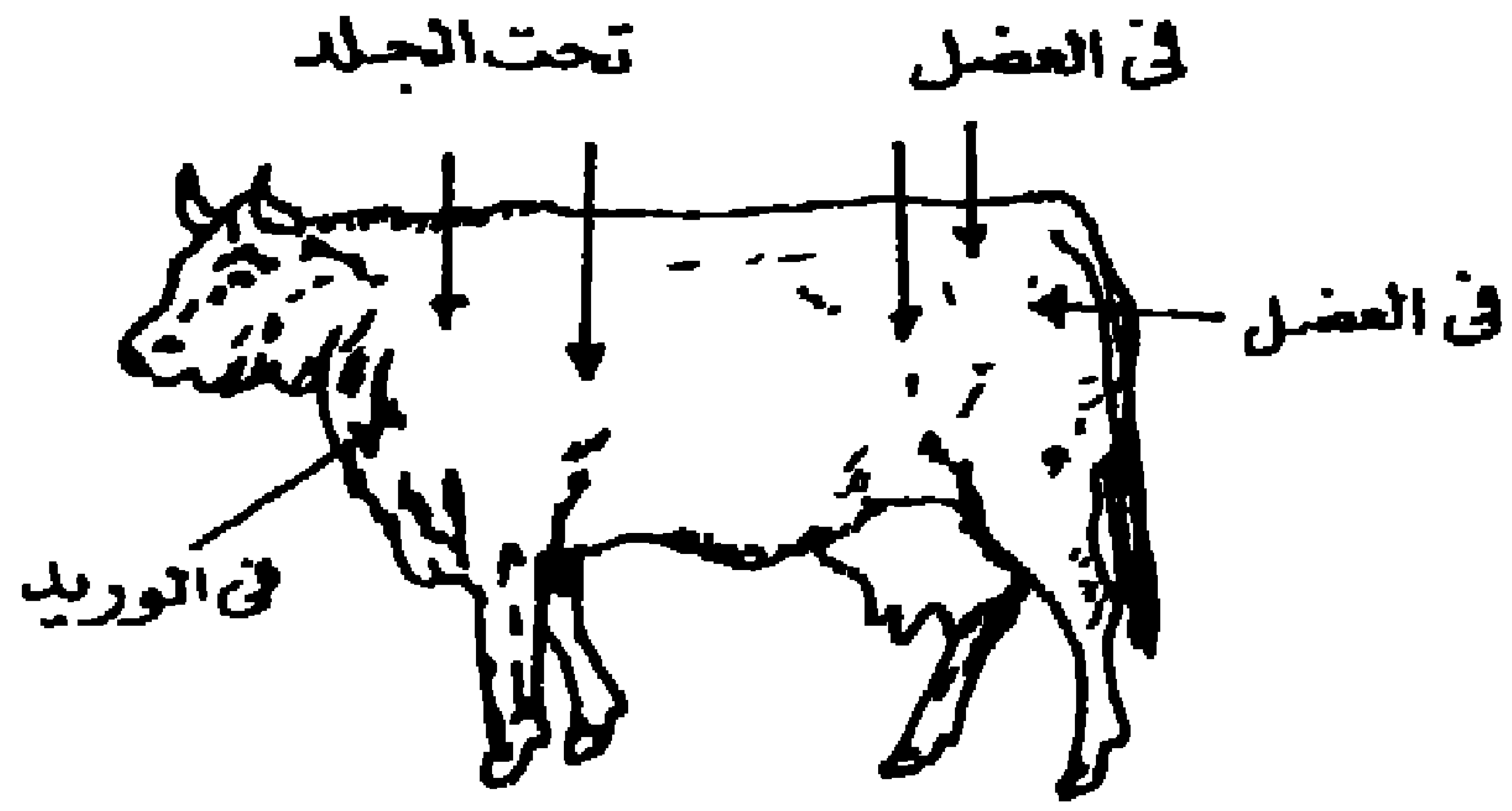
٤ - عدم انتفاخ الجانب الأيسر .

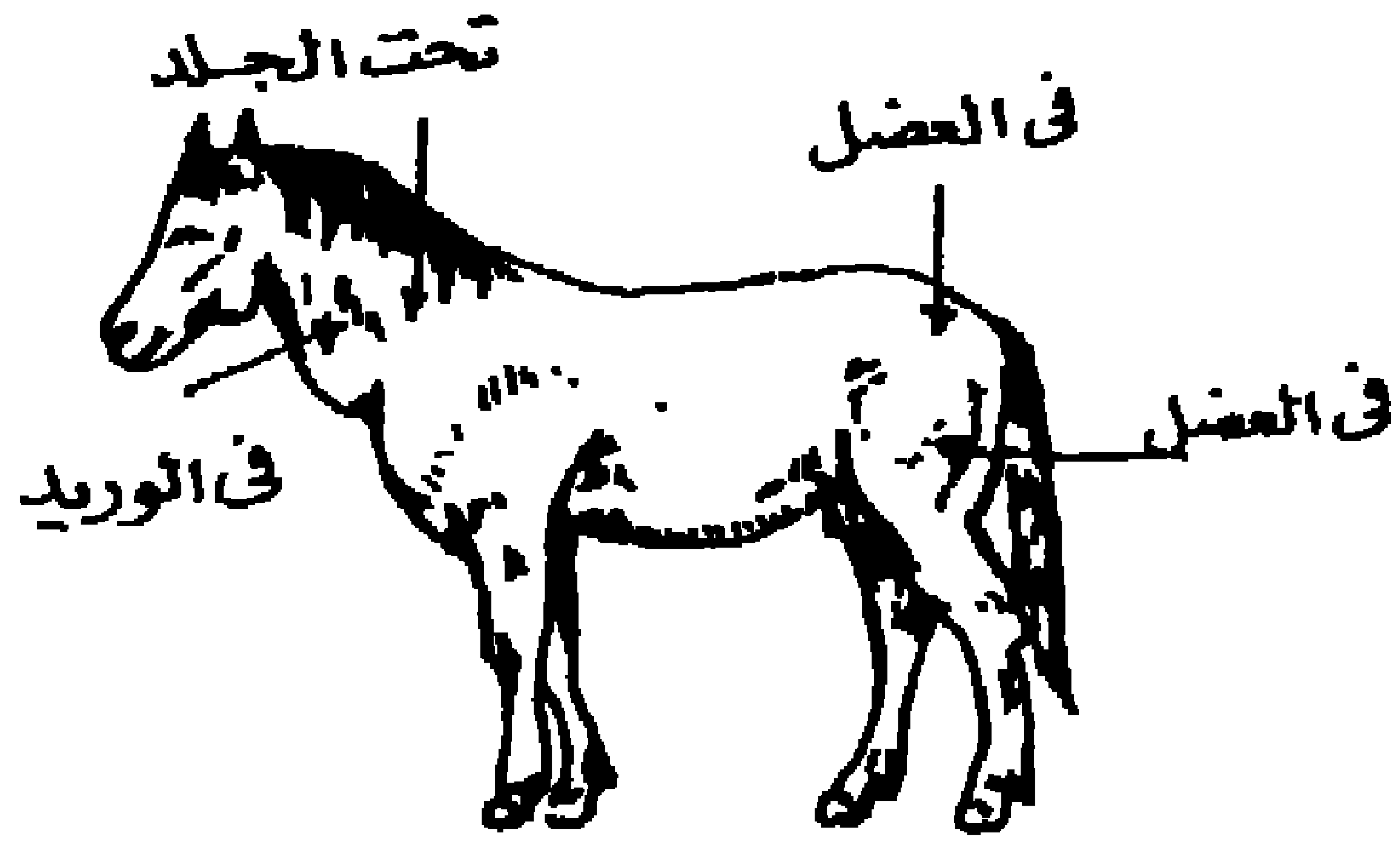
٥ - عدم وجود أجزاء خالية من الصوف مع وجود التهابات جلدية .

٦ - عدم وجود أوبئة أو أى مرض جلدى على أجزاء الفم .

٧ - نزول ارتشاحات أنفية شىء متوقع ولكن بشرط عدم تغير لونها إلى الصديدى .

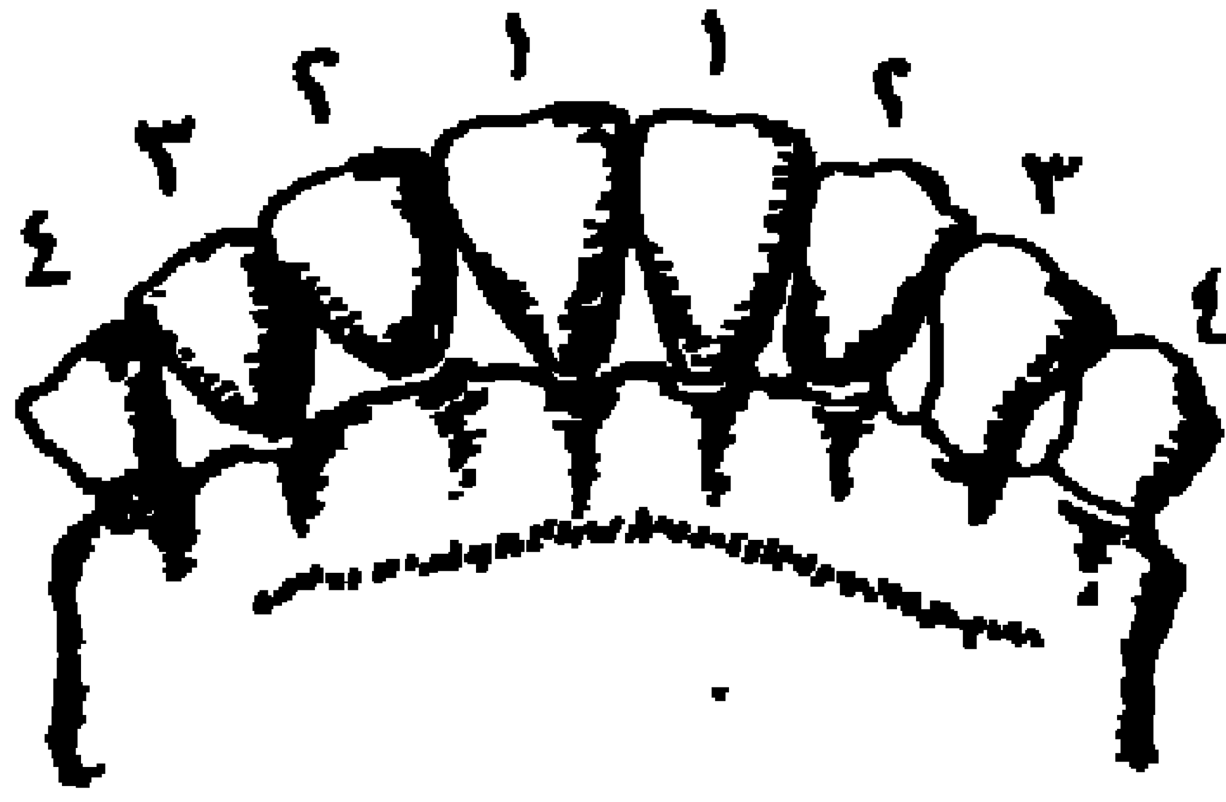
٨ - الكحة الشديدة مع مد الرقبة إلى الأمام لفترة طويلة يدل على الإصابة







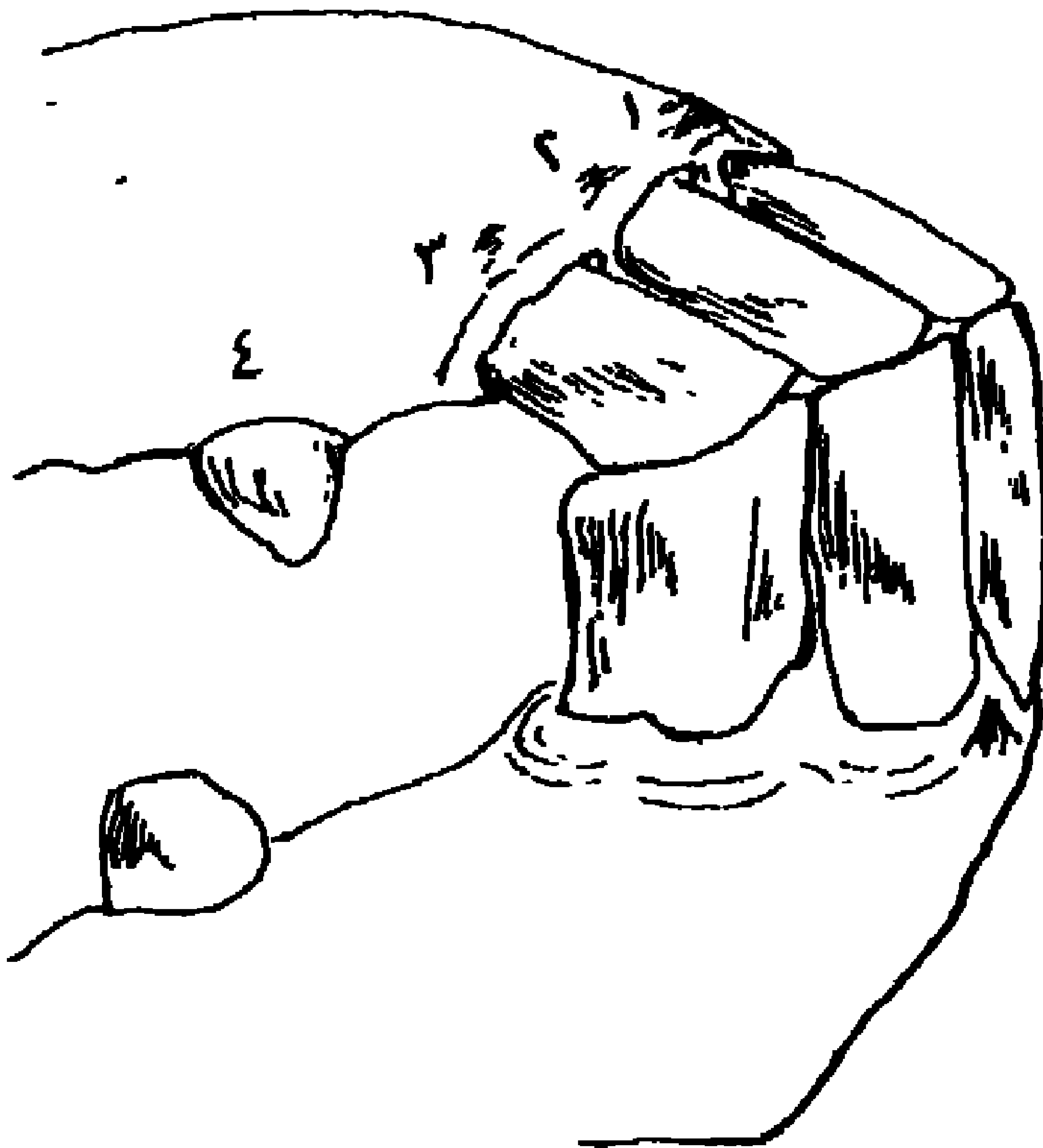
«الأماكن المختلفة لإعطاء الحقن»



١ – ثنايا
٢ – سديسان
٣ – رباعيان
٤ – قارحان

نموذج لأسنان الفك السفلى (قواطع) فى الماشية

ملحوظة : الفك العلوى للماشية والأغنام لا يوجد به قواطع بل يوجد به وسادة صلبة .



١ – ثنايا
٢ – رباعيان
٣ – قارحان
٤ – الأنياب

نموذج لأسنان الخيول (قواطع)

بالديدان الرئوية .

٩ - عدم وجود تضخم استسقائى تحت الفك السفلى فهذا يدل على إصابة الحيوان بالطفيليات الداخلية .

إرشادات للعناية بخروف العيد

حيث إن هذا الحيوان سيحتفظ به لمدة قصيرة قبل العيد كما هى العادة . لذلك يجب عدم التسبب فى تعريضه لمتاعب قد تودى بحياته :

١ - الغذاء : يجب عدم تقديم كسر الخبز بكميات كبيرة لأنه يحدث اضطرابات هضمية (تلبك أوإسهال) ويستحسن أن يكون الطعام مغذياً حتى يضيف إلى جسمه بعض الكيلوجرامات وكذلك لمحاولة جعل طعم اللحم مقبولا .

فى زمن البرسيم يمكن إعطاء الأغنام من ١٢ إلى ٢٠ رطلا يوميا نهاراً وخليطا من الذرة والنخالة وكسر العدس وقشر العدس ليلا وفى غير زمن البرسيم يمكن إعطاؤها خليطاً من الفول غير المجروش والنخالة والذرة وبعض الحشائش الخضراء .

٢ - الماء : يجب أن يقدم الماء النظيف مرتين (فى الضحى والعصر) ويستحسن أن يسمح بشرب الماء قبل الطعام بنصف ساعة على الأقل .

٣ - يجب عدم ترك الأغنام تبيت فى الهواء الطلق بل يجب أن يكون مكان المبيت دافئاً نسبيا .

٤ - عدم الإنهاك : يجب عدم ترك الأغنام للأطفال تلهو بها تشبيها بالكلاب لأن الحيوان فى هذه الحالة ينهك ويفقد كمية كبيرة من وزنه .

١٧ – التسنين فى الحيوانات المختلفة

تسنين الخيل :

ميعاد الإنبات	القواطع	الأنياب	الضروس
من الولادة وحتى أسبوع	٢ لبنى (الثنايا)	–	–
من ٢ إلى ٤ أسابيع	٢ لبنى (الرباعيان)	–	١–٢–٣ لبنى
من ٧ إلى ٩ شهور	٢ لبنى (القارحان)	–	٤ دائم
من سنة إلى $1\frac{1}{2}$ سنة	–	–	٥ دائم
سنتان ونصف	٢ دائم (الثنايا)	–	١/ ٢ دائم
ثلاث سنوات ونصف	٢ دائم (الرباعيان)	–	٣ دائم
أربع سنوات	–	كل الأنياب	٦ دائم
أربع سنوات ونصف	٢ دائم (القارحان)	–	–

التسنين فى الأغنام :

فى الأغنام يوجد ثمانية قواطع فى الفك السفلى ولا يوجد شىء فى الفك العلوى (قواطع). ويوجد ١٢ ضرسا فى كل فك.

ميعاد الظهور (الإنبات)	القواطع	الضروس
من الولادة إلى سن شهر	جميع اللبنية	جميع اللبنية
ثلاثة شهور	–	الرابع الدائم
تسعة شهور	–	الخامس الدائم

ميعاد الإنبات	القواطع	الضروس
من سنة إلى سنة وثلاثة شهور	الزوج الأول الدائم	—
من سنة وستة شهور	—	السادس الدائم
من سنة وتسعة شهور	الزوج الثانى الدائم	الأول والثانى دائم
ستان	—	الثالث الدائم
ستان وثلاثة شهور		الثالث الدائم
ستان وتسعة شهور إلى ثلاث سنوات		الرابع الدائم

التسنين فى الأبقار :

القواطع توجد فقط فى الفك السفلى ، الفك العلوى خال من القواطع (لبنية ودائمة) الضروس فى الفك السفلى والعلوى لبنية ودائمة .

ميعاد الإنبات	القواطع	الضروس
من الولادة إلى سن شهر	كل الأسنان اللبنية فى الفك السفلى	كل الضروس اللبنية
من ستة شهور إلى سنة	—	الرابع الدائم
من سنة إلى سنة وثلاثة شهور	—	الخامس الدائم
من سنة وتسعة شهور	الزوج الأول الدائم	السادس الدائم

الضروس	القواطع	ميعاد الإنبات
الأول والثانى الدائم	—	سنتان
—	الزوج الثانى الدائم	سنتان وثلاثة شهور
الثالث الدائم	الزوج الثالث الدائم	سنتان وتسعة شهور
—	الزوج الرابع الدائم	ثلاث سنوات وثلاثة شهور

التسنين عند القطط :

(الرباعيات – الثنايا – القارحان – الأنياب) من أربعة إلى خمسة أسابيع يكتمل ظهور القواطع اللبنية فى الأسبوع الثانى .

الاستبدال للقواطع – بعد الأسبوع الخامس والسادس .

تكتمل كل الأسنان من سن ٧ إلى ٩ شهور

التسنين فى الكلاب :

تبعاً لاختلاف الحجم وسرعة النمو واختلاف طرق التغذية فإن نمو الأسنان لايمكن أن يستخدم لتحديد التسنين بدقة .

عند الولادة لاتوجد أسنان فى الفك . ويبدأ ظهور الأسنان اللبنية فى مدى ٣ – ٥ أسابيع وتتبدل الأسنان اللبنية للفك العلوى والسفلى فى مدى ٤ – ٩ شهور وعددها ١٢ قاطعاً – ٤ أنياب – ٢٢ ضرسا .

الأسنان البدلية للفك العلوى والسفلى عددها ١٢ قاطعا – أربعة أنياب – ٢٨ ضرساً .

ونجد أن قواطع الكلب تشبه زهرة اللوتس فى شكلها ومن طريقة التآكل يمكننا تقدير السن على وجه التقريب.

في السنة الأولى — تآكل قليل ويظل شكل زهرة اللوتس.

في السنة الثانية — يتآكل البروز الأوسط ويتساوى على الجانبين وتفقد ثنايا الفك الأسفل شكل الزهرة.

في السنة الثالثة — يتغير شكل رباعيات الفك الأسفل كما سبق ذكره.

في السنة الرابعة — يتغير شكل ثنايا الفك الأعلى.

في السنة الخامسة — يتغير شكل رباعيات الفك الأعلى.

وبعد الخامسة تصبح القواطع ذات شكل مستو تقريباً من التآكل وكلما تقدم العمر بالكلب تصبح القواطع كأنها جذور وربما تبقى أوتسقط وتنفرطح البروزات التى عليها.

التسنين فى الجمال

الأسنان اللبنية للفك العلوى عددها (٢ قواطع ، ٢ أنياب ، ٦ ضروس) وللفك السفلى عددها (٦ قواطع ، ٢ أنياب ، ٤ ضروس)

الأسنان البدلية للفك العلوى عددها (٢ قواطع ، ٢ أنياب ، ١٢ ضرسا)

الأسنان البدلية للفك السفلى عددها (٦ قواطع ، ٢ أنياب ، ١٠ ضروس)

١٨ – إجراءات سريعة عند إصابة الحيوان بجرح

بما أن الحيوانات بطبيعة حياتها أكثر تعرضا للتلوث لذلك عندما يصاب الحيوان بجرح يلزم فوراً تطهير الجرح ودهانه بأى قاتل للجراثيم مثل صبغة اليود أو

الميركركروم وربطه جيدا برباط شاش معقم والغيار عليه بين الحين والآخر لأن الغيار سرهان مايتلوث .

الحيوانات معرضة للإصابة بأمراض عديدة نتيجة وجود جرح على جسمها وأهم هذه الأمراض مرض التيتانوس (الكزاز) مرض الشعاعيات – مرض السل الكاذب – مرض الغنغارينا الغازية . هذا بخلاف الأمراض الأخرى التى تطرقنا للحديث عنها فى أماكنها المختلفة كمهيئات للإصابة بأمراض معينة .

توجد بعض الحالات التى يتعرض فيها الحيوان لنوعية معينة من الجروح وهذه تحدث فى أثناء الولادة أوبعد الخصى ، لذلك يجب دهان صرة الحيوان أومكان عمليةالخصى بصبغة اليود بمجرد انتهاء الولادة مباشرة حيث إنها تعتبر مدخلا لكثير من أنواع العدوى الخطيرة على الرضيع .

كذلك جروح الضرع يجب مراعاتها جيداً محافظة على نسيج الضرع .

١٩ – طرق انتشار الأمراض المعدية بين الطيور

١ – إضافة دجاج مريض إلى الدجاج الموجود فى المزرعة .

٢ – مرض عدد من الدجاج وانتقال الإصابة إلى الأخريات .

٣ – تلوث المياه .

٤ – إلقاء جثث الطيور النافقة نتيجة الإصابة بأمراض معينة فى أى مكان وعدم التخلص منها كما يجب بالحرق .

٥ – عن طريق الغذاء فربما يكون ملوثاً أوتالفاً .

٦ – نتيجة أكل الطيور لبقايا الطيور المذبوحة .

٧ – إضافة طيور من أماكن مختلفة إلى بعض .

٨ – نقل الطيور من مكان إلى آخر عبر المواصلات العامة .

٩ – عن طريق الأدوات والأوانى وعمال الحظائر وبخاصة عندما يكون أحد العمال يشرف على طيور مريضة معزولة ، وكذلك يرعى باقى الطيور بالمزرعة وكذلك تحدث العدوى من خلال ملابسه وجسمه .

١٠ – بعض الطيور تشفى ظاهريا من المرض وتظل حاملة لمسبب المرض وتنقله بسهولة إلى باقى طيور المزرعة .

١١ – عن طريق البيض .

١٢ – الازدحام .

١٣ – القمل – البعوض – القراد – القوارض – الطيور البرية (الحمام والعصافير) تلعب دوراً هاماً جداً من نقل الأمراض المختلفة من مكان إلى آخر .

٢٠ – طرق الوقاية من الأمراض المعدية فى الطيور

١ – حظائر صحية تدخلها أشعة الشمس وكذلك الهواء .

٢ – تطهير الحظائر بصورة دورية بالمطهرات والمبيدات الحشرية .

٣ – يجب عدم السماح بإضافة دجاج مشترى حديثاً قبل عزله لمدة حوالى أسبوعين على الأقل .

٤ – يجب أن يكون الغذاء من مصدر معروف بسلامة نوعياته وأن تكون الأغذية مجففة جيداً .

٥ – تطهير المفرخات والحضانات بالتبخير (بإضافة الفورمالين إلى برمنجنات البوتاسيوم) .

٦ – القضاء على الفاش والقراد وكافة الطفيليات الخارجية .

٧ – يجب حماية الطيور من الطيور البرية والفئران والحشرات فهى تنقل كثيراً من الأمراض .

٨ – العناية بتغذية الطيور تغذية صحية محتوية على جميع العناصر الغذائية اللازمة للجسم وملائمة لجميع مراحل النمو والغرض من التغذية .

٩ – القضاء الدورى على كل الطفيليات الداخلية .

١٠ – يحس فرز الدجاج بين الحين والآخر واستبعاد مايظهر عليه من الأمراض أومالايصلح للتربية .

١١ – يجب عدم تربية نوعيات مختلفة من الطيور معاً حيث إن هذا يترتب عليه حدوث انتقال المرض من أحدهما إلى الآخر ، وكما نعرف أن بعض الطيور تكون حاملة لبعض الأمراض ولاتظهر عليها الأعراض ولكنها تنقلها إلى غيرها فتسىء إليه .

١٢ – تحصين الطيور باللقاحات المختلفة .

١٣ – الاختبار الدورى لمرض الإسهال الأبيض واستبعاد الإيجابى له وذبحه .

١٤ – الازدحام أكثر مايسىء إلى تربية الدجاج .

١٥ – عند ظهور أعراض أى مرض يلزم إخطار السلطات المسئولة لاتخاذ مايلزم نحو القضاء عليه .

١٦ – كذلك يحسن تربية كل نوع من الفراخ فى مكان مستقل (فيومى ، بلدى ، هولندى ، رود إيلاند) .

١٧ – حرق النافق من الطيور وكذلك بقاياه الداخلية بعد الذبح – وكذلك الفضلات والفرشة فى مكان منعزل عن المزرعة .

٢١ – كيف نستدل بصورة عامة على مرض الطيور؟

الطيور السليمة عادة تكون نشيطة سريعة الحركة لامعة الريش وتقبل على الأكل أوالشرب . أما الطيور المريضة فهى تكون ساكنة هادئة ولاتتحرك إلا إذا أجبرت على ذلك . وتفضل الانزواء وتنكمش رقبتها فى جسمها ونلاحظ أنها مغمضة العينين كأنها نائمة – كذلك نلاحظ انتصاب الريش وتفرقه بعضه عن بعض .

عندئذ يجب أن نحاول فحص الحالة فننظر إلى العرف أوالدلايات وعادة مايكون لونهما أحمر قانياً فنجد لونها أصبح باهتاً شاحباً أومائلا للازرقاق أومتضخمة وبها استسقاء أومائلا للاصفرار أومغطى بطبقة بيضاء أوعليها بثرات مختلفة الأحجام لونها بنى داكن . كل ذلك حالات مرضية لها استدلال على إصابة معينة سنتطرق لها . كذلك ربما نجد العينين مغمضتين ومنتفختين ولايستطيع الطير أن يفتحها أوتنزل منها إفرازات مختلفة .

ويحدث أن نجد انتفاخاً حول فتحتى الأنف أعلى المنقار وهذا يدل على إصابة الجيوب الأنفية .

أحياناً نلاحظ نزول إفرازات من الفم أو وجود بثرات على جانبى المنقار .

فى بعض الأمراض نجد سرعة فى التنفس مع اضطراب به مما يدل أحياناً على إصابة الرئة أو وجود ديدان رئوية .

نجد أحياناً تضخماً فى المفاصل مع تورم ؛ كذلك ربما نجد تضخماً وانتفاخاً فى قدم الطير مما يتسبب فى العرج .

كذلك ربما نلاحظ ضعفاً وهزالا وهذا يبين فى العادة وجود طفيليات داخلية

أو إصابة بطفيليات الدم أو السل أو توجد طفيليات خارجية (فاش) .

فتحة المجمع ربما تلتهب نتيجة الإسهال أو العدوى الجرثومية أو خلافه .

٢٢ – تشخيص أمراض الطيور بسهولة

إذا تواجدت علامات مرضية تنفسية (إفرازات أنفية وعينية – كحة – فتح الفم – وأحياناً رواسب متجبنة فى الفم – الزور والعينان فإن المرض ربما يكون أحد الأمراض التنفسية التالية) :

١ – الزكام :

عطس – كحة – إفرازات عينية وأنفية – ودمة فى أنسجة الوجه .

٢ – التهاب الحنجرة والقصبة الهوائية المعدى :

التهاب القصبة الهوائية – مخاط مدمم فى الحالات الحادة – رواسب متجبنة فى العين والأنف والزور فى الحالات المزمنة – كحة – أصوات غرغرة – نسبة النفوق ١٠ – ٥٠٪ .

مدة سير المرض يستمر ١٠ - ١٤ يوماً .

٣ – المرض التنفسى المزمن :

الكحة – أصوات غرغرة – التهاب القصبة الهوائية – مخاط .

٤ – البولينا .

فى المراحل المبكرة يلاحظ حدوث عطس يتبعه أعراض مميزة فى الكبد مع وفيات – نقص فى إنتاج البيض – تشوه شكل البيض وتصبح القشرة خشنة .

٥ – نقص فيتامين ا .

توجد بثرات بيضاء على المرىء والحوصلة . توجد مادة متجبنة على جسم فابريكاس – تضخم وشحوب الكلية . وجود تاريخ عن نقص فيتامين ا .

٦ – جدرى الدجاج :

تواجد ثؤلولات على العرف والدلايات ، تواجد مادة متجبنة على الأغشية المخاطية للفم .

٧ – الكوليرا :

إفراز أنفى – إفرازات رشحية فى القصبة الهوائية والأنف – تأثر العين وذمة محددة – التهاب معوى – التهاب بريتونى – إسهال – تأثر الكبد .

٨ – الإسبرجيلوزس أوالعدوى الفطرية :

أحياناً تشبه الأمراض التنفسية المزمنة ، توجد مادة بيضاء تحت جفون العين ، توجد رواسب صفراء أورواسب فطرية على الأغشية المبطنة للأكياس الهوائية . توجد فطريات عند عمل مسحات للفحص المخبرى ، لاتوجد أصوات غرغرة كما فى التهاب الحنجرة والقصبة الهوائية ، المعدى ، والمرض التنفسى المزمن .

٩ – مرض النيوكاسيل وطاعون الدجاج :

أعراض عصبية ، لعاب ، نقط نزفية ، مد الرأس مع فتح الفم .

١٠ – التهاب القصبات المعدى :

صوت غرغرة ، كحة ، تشوه شكل البيض .

١١ – العدوى بالتريكوموناس :

تشبه الأعراض تلك الخاصة بنقص فيتامين ا .

١٢ – مرض مارك :

شلل – لايوجد التهاب للقصبة الهوائية لاتوجد أصوات غرغرة .

إذا وجدت إفرازات نزفية من القصبة الهوائية والتهاب نزفى فى القصبة الهوائية فإن المرض ربما يكون أحد الأمراض التالية :

١ – التهاب الحنجرة والقصبة الهوائية المعدى :

هذه العلامات مميزة لهذا المرض وتكون مصحوبة بباقى الأعراض المميزة .

٢ – العدوى الحادة بالمكورات السبحية :

إفرازات دموية فى القصبة الهوائية آتية من الرئة .

٣ – الأمراض التنفسية :

ربما توجد التهابات فى القصبة الهوائية ولكن لايوجد إطلاقاً نزف دموى .

إذا حدثت وفيات فى الكتاكيت من سن يوم واحد إلى ثلاثة أسابيع فإن المرض ربما يكون أحد الأمراض التالية :

١ - التعرض للبرد :

سبب شائع - نجد ان الكتاكيت متجمعة فى الصباح ونجد احتقان الرئتين وذمة للرئتين - تاريخ تعرض للبرد .

٢ - البللورم :

وفيات فجائية - أحياناً بدون أعراض مرضية - فتحة المجمع ملوثة - إسهال خراريج فى الكبد والرئتين - عضلات القلب .

٣ - الباراتيفويد :

_ يشبه البللورم - يحدث فى بعض الأحيان - يمكن استنبات مسببات المرض (سالمونيلا) .

٤ - العدوى بالفطريات بالإسبرجيلوزس :

نادر - تواجد خراريج فى الرئة - رواسب لونها أخضر مائل للاصفرار فى الأكياس الهوائية - وجود الفطريات بالفحص المجهرى .

٥ - الكوكسيديا :

نادر فى هذه السن - بوجود دم فى البراز - دم فى الأعور - رواسب متجبنة فى الأعور - إسهال - فقر دم - التعرض للبرد .

فى العادة تحدث فى كتاكيت أكبر سنا عن هذه الفترة المشار إليها .

٦ - التهاب الدماغ والنخاع الشوكى :

عند إمساك الطير فى قبضة اليد نلاحظ ارتجافات سريعة - ضعف الأرجل - شلل - بالفحص النسيجى تؤكد المرض .

٧ - الكساح :

نادر وعلاماته مميزة

٨ - نقص فيتامين أ :

نادر أو يحدث فقط عندما يكون البيض ناتجا عن فراخ تعانى من نقص فيتامين أ .

٩ - نقص فيتامين هـ :

نادر ويحدث فى طيور أكبر سنًّا .

١٠ - جدرى الدجاج :

وجود ثؤلولات حول المنقار - أحياناً فى أماكن أخرى بالجسم .

١١ - الأمراض التنفسية :

١٢ - المرض التنفسى المزمن :

البيض من فراخ مصابة بهذا المرض ربما تنتج عنها كتاكيت صغيرة تجد فى أكياسها الهوائية إفرازات .

١٣ – إصابات فى أثناء الجماع :

تحدث الوفاة فى اليوم الأول والثانى – بوجود دليل على إصابة آلية – نزف تاريخ جماع عنيف فى سن مبكرة

١٤ – التهاب الحنجرة والقصبة الهوائية المعدى :

كحة – عطس – إفرازات عينية – غرغرة – وفيات – بعض الطيور تظهر علامات تنفسية مزمنة – التهاب تقرحى فى القصبات الهوائية

١٥ – التسمم :

أعراض متغيرة – استسقاء – التهاب معدى معوى – تختلف الأعراض حسب نوعية التسمم

١٦ – ظاهرة الافتراس :

نلاحظ الإدماء فى الأماكن التى نقرتها الطيور

١٧ – تيفود :

الوفيات فى الكتاكيت تشبه مايحدث فى مرض البللورم – التمييز يكون بعمل مزرعة – يحدث هذا المرض فى جميع الأعمار حتى فى الطيور تامة النمو .

١٨ – نقص المنجنيز وتخوخ العظام :

الموت داخل البيضة فى حوالى اليوم العشرين والواحد وعشرين من الحضانة

تأخر فى النمو – تشوه فى المنقار (منقار البيغاء) – استسقاء فى جسم الجنين – تصبح البيضة مستديرة – ضمور فى عظام الكتاكيت الصغيرة .

١٩ – نقص الريبوفلافين :

نادر ويحدث فى سن ٤ – ٨ أسابيع – مع تواجد تاريخ نقص فى المقدرة على فقس البيض – تشوه الجنين داخل البيض – انثناء الأصابع – الاستجابة للعلاج بالريبوفلافين .

٢٠ – نقص حامض البانتوثينيك :

نادر الحدوث عادة – وفاة الجنين فى اليومين الأخيرين من الحضانة داخل البيض – الكتاكيت التى تفقس تموت فى الأسبوع الأول .

٢١ – الإصابة بالعصيات القولونية :

الكتاكيت تنفر – التهاب بريتون – التهاب تامور – التهاب معوى – خراريج فى الكبد – وفيات – وجود العصيات القولونية فى المزارع البكتيرية المزروعة من أعضاء الطيور الحية .

٢٢ – البولينا :

نادر الحدوث فى الكتاكيت سن ثلاثة أسابيع ولكن ربما يحدث شحوب وتضخم كلوى – امتلاء الأنابيب الكلوية بحامض البوليك – وجود رواسب حامض البوليك منتشرة على التامور والبريتون – جفاف – يصبح لون اللحم والجلد داكنا .

إذا حدثت وفيات فى الكتاكيت سن ٣ – ١٢ أسبوعا فربما يكون المرض أحد الأمراض التالية :

١ – الكوكسيديا (الأعورية) :

البرا – الدم فى الأعور – وجود رواسب متجبنة فى الأعور – فقر الدم – هبوط – حدوث وفيات .

٢ – الكوكسيديا (المعوية) :

تصيب الدجاج مباشرة قبل أو فى أثناء فترة وضع البيض .

٣ – التعرض للبرد :

غير شائع فى سن أكبر من ثلاثة أسابيع – احتقان الرئتين – التعرض للعدوى الثانوية مع وجود الآثار المرضية التابعة لها .

٤ – الأمراض التنفسية

٥ – الكوليرا :

نادر الحدوث فى الطيور الصغيرة – تغيرات فى الكبد – كحة وإفرازات أنفية – إصابة القصبة الهوائية – يلزم الالتجاء إلى الفحص المخبرى لتواجد الجراثيم المسببة .

٦ – الكساح :

ضعف الأرجل – شلل – انثناء العظام بدلا من انكسارها – تمزق المنقار تاريخ حالة عن نقص فيتامين د فى الغذاء أوعدم التعرض للشمس .

٧ - تخوخ العظام :

نادر الحدوث - تمزق فى مفصل العرقوب مع تضخم جانبى - خطوات السير غريبة الطيور تنط وهى منثنية .

٨ - الجدرى :

وجود ثؤلولات على الوجه والعرف والدلايات - وجود رواسب متجبنة على الأغشية المخاطية للفم والأنف - اعتلال .

٩ - نقص فيتامين أ :

وجود بثرات فى المرىء - وجود رواسب متجبنة على الأغشية المخاطية والقصبة الهوائية - تضخم وشحوب الكلية - رواسب متجبنة على جسم فابريكاس

١٠ - زهرى الدجاج :

وجود القراد فى مكان تربية الدجاج - الصفراء - الشلل - تغييرات فى الكبد والطحال التأكد بعمل مسحات من الدم وصباغتها وفحصها - تاريخ القطيع يبين أنه سبق له الإصابة بالمرض

١١ - العدوى بالباراتيفويد :

غير عادى لأنه مثل هذه الطيور يكون قد سبق لها المرور بهذه الإصابة فى سن ثلاثة أسابيع - علامات تسمم دموى جرثومى والتهاب معوى إيجابية للزرع البكتريولوجى .

١٢ – التهاب الدماغ والنخاع الشوكي :

ارتعاش – ضعف فى الأرجل بشلل – يحدث أساساً فى سن أكبر من ثلاثة أسابيع

١٣ – نقص فيتامين هـ :

تصرفات عصبية – عدم وجود ترابط حركى بشلل – تشنجات – تاريخ زيادة زيت أودهون بالعليقة وبخاصة إذا كان متزنخا أوموت الجنين قبل الفقس .

١٤ – تلبك الحوصلة أو تواجد أجسام غريبة :

وجود مواد متليفة فى الحوصلة أوالقانصة – وجود أجسام حادة نافذة فى القونصة مثل المسامير أوالسلك .

١٥ – العدوى بالطفيليات الداخلية :

وجود ديدان فى الأمعاء – إسهال

١٦ – المونيلياسز :

آثار مرضية فى الأمعاء – قرحات بيضاء قذرة – بالفحص المجهرى لمسحاب نجد الفطريات .

١٧ – التيفود :

وخاصة فى الكتاكيت تشبه البللورم – التفرقة فى التشخيص يكون بالزرع

الجرتومى . هذا المرض يحدث فى كل الكتاكيت والكبار أيضاً ولذلك فهو يختلف عن البللورم بهذه الصفة .

١٨ – البولينا .

شائع – إسهال أبيض – جفاف فى الكتاكيت – يصبح لون الأنسجة والجلد داكناً – تضخم الكلى بأملاح اليوريتس .

١٩ – التهاب المعدة الغددية :

التهاب – تقرح – نزف المعدة الفردية – يصبح جدارها سميكاً نتيجة استسقاء – هزال – فقدان التنهيه .

٢٠ – ظاهرة الافتراس :

وجود الإصابة فى أى جزء من الجسم

٢١ – التسمم النقانق .

شلل ارتخائى – تاريخ تناول غذاء ملوث

٢٢ – الالتهاب البريتونى :

التهاب البريتونى – وجود رواسب فى الفراغ البطنى – وجود العصيات القولونية – كوليرا – تسمم بوليبى دموى

٢٣ – نقص الريبلافلافين :

نادر مايحدث فيما بين الأسبوع الرابع والخامس – شحوب الكبد .

٢٤ – الاسبرجيلوزس :

تحدث فى أى سن ولكن فى الأسابيع الثلاثة الأولى – عقد صفراء فى الرئة أو على الأكياس الهوائية أوفى الأحشاء . يمكن أخذ عينات وبالفحص المجهرى نجد الفطريات .

٢٥ – العدوى بالعصيات القولونية :

تناولتها بالبحث تحت عنوان الأمراض التنفسية .

٢٦ – نقص النياسين :

تضخم العرقوب – انثناء الساق كما فى تخوخ العظام – سوء تكون الريش إسهال – التهابات فى الفم – تصرفات عصبية .

إذا حدثت وفيات فجائية فى الطيور التامة النمو (أكثر من ١٢ أسبوعاً) فربما يكون المرض أحد الأمراض التالية وابحث عن العلامات المميزة لكل منها :

١ – مرض ابيضاض الدم ·

تضخم الكبد – الطحال – سرطانات – تغيرات دموية – فقدان اللون .

٢ – زهرى الدجاج :

وجود قراد – إسهال – تضخم الطحال والكبد – وجود بقع متنكرزة شلل – صفراء .

٣ – الكوليرا :

نزف فى كل الجسم – كل الأعضاء الكبيرة – التهاب معدى معوى .

٤ – ظاهرة الافتراس :

وجود دليل على إصابة آليه مع ريش تاريخ وجود هذه العادة فى القطيع

٥ – الأمراض التنفسية :

٦ – التهاب الحنجرة والقصبة الهوائية المعدى :

التهاب حنجرة وقصبة هوائية معدٍ دموى فى الزور فوق الحاد – ربما تظهر الأعراض فقط قبل أن يرقد الطائر على الأرض .

٧ – التيفود :

إسهال – حرارة مرتفعة – شحوب العرف والداليتين وميل اللون إلى الداكن – تضخم الكبد والطحال – نقط تنكرزية رمادية داكنة – التهاب معوى – التهاب عضلات – تورم الكلية يحدث فى جميع أعمار الطيور .

٨ – البللورم (التسمم الدموى الجرثومى) :

نادر – تضخم كبد مع نقط تنكرزية – أحياناً يتضخم الطحال – نقط متنكرزة – وهن عضلات القلب – وفيات فجائية – يمكن إثبات وجود السالمونيلا بالبلورم مخبريا .

٩ – الليستريا :

نقط متنكرزة فى عضلات القلب والكبد – زيادة فى كميات سائل كيس التامور – نقط تنكرزية فى الطحال – التهاب بريتونى – التهاب معدٍ – قرحات فى الأمعاء الدقيقة والأعور – التهاب الأكياس الهوائية – تحدث أحيانا أعراض عصبية – سير الطائر على شكل دائرى – ارتعاش العضلات – يمكن إثبات وجود المسببات فى دم مأخوذ من القلب أومن الأعضاء الباطنية .

١٠ – الكوكسيديا المعوية :

عادة تصيب الطيور قبل الرقاد مباشرة .

١١ – الباراتيفويد :

نادر الحدوث (يؤثر فى الكتاكيت الصغيرة) .

ربما يحدث تضخم أوتغير فى لون الكبد والطحال – يمكن إثبات وجود مسببات المرض مخبريا .

١٢ - المرض الأسود (الالتهاب المعوى الكبدى) :

وجود خراريج فى الكبد - تقرح الأعور - وجود الهيستوموناس بالفحص الميكروسوبى لمسحات .

١٣ - الإصابة بالعصيات القولونية :

الأعراض تشبه أعراض الكوليرا - الالتهاب المعوى - تسمم دموى جرثومى مادة فيبرينية فى البريتون - التهاب التامور - وجود الايشيريشيا القولونية - الزرع الجرثومى .

١٤ - عدوى الأجزاء التناسلية :

التهاب المبيض - يمكن استنبات الجراثيم المسببة بالعزل البكتريولوجى .

١٥ - التسمم النقانقى :

شلل ارتخائى .

١٦ - العدوى بالطفيليات الداخلية :

وجود الطفيليات بالأمعاء - وجود التهاب معوى نتيجة لوجودها .

إذا حدث شلل أوعرج

فربما يكون المرض أحد الأمراض التالية :

١ – مرض مارك :

شلل الأرجل أوالأجنحة تضخم العصب – إسهال – تغير فى العين – تغير فى العظام – سرطانات .

٢ – زهرى الدجاج :

وجود القراد – شلل – علامات مرضية فى الكبد والطحال – الصفراء – وجود الطفيل فى مسحات الدم .

٣ – الكساح فى الطيور الصغيرة :

ضعف الأرجل – انثناء العظام – تشوه المنقار – وجود تضخمات بالضلوع – تأخر فى النمو .

٤ – تخوخ العظام :

تمزق مفصل العرقوب فى الطيور الصغيرة مع انزلاق الوتر – تضخم مفصل العرقوب

٥ – نقص المانجنيز :

الكتاكيت التى تفقس من بيض دجاج (يعيش على عليقة بها نقص مانجنيز) تظهر عليها أعراض عصبية – ربما ينثنى الرأس تحت الجسم أوإلى الخلف – تخوخ العظام – عدم قدرة الأجنحة على الفقس .

٦ - العدوى بالطفيليات الداخلية :

وجود طفيليات داخلية فى الجهاز الهضمى .

٧ - التهاب المفاصل :

وجود علامات مرضية التهابية فى المفاصل .

٨ - نقص الريبوفلافين :

انثناء الأصابع إلى الداخل - عدم القدرة على الفقس وموت الجنين داخل البيضة .

٩ - نقص فيتامين ا :

شلل فى الكتاكيت الصغيرة والأوز الصغير - الطيور الكبيرة تظهر عليها بثرات على البلعوم - تضخم كلوى - رواسب فى العين مع تواجد تاريخ نقص الغذاء بفيتامين ا .

١٠ - التهاب الدماغ والنخاع الشوكى :

١١ - نقص الزنك :

ضعف الأرجل - خطوات مقيدة - تغير فى الريش - قشور على الجلد - تضخم مفصل العرقوب - تصبح عظام الأرجل قصيرة وغليظة - عدم القدرة على الفقس .

١٢ – نقص فيتامين ب ١٢ :

تخوخ عظام – وجود نقص غذائى آخر مثل الكولين – ميثيونين – حامض بانتوثينيك .

١٣ – نقص فيتامين د (فى الدجاج الكبير) :

يحدث شلل على فترات وتشفى بعد وضع البيضة . ويبيض الدجاج بيضاً ذا قشرة رقيقة لينة .

١٤ – السل :

درنات فى (الكبد – الطحال – البريتون – الأمعاء)

١٥ – الإصابة بالديدان الشريطية :

نقص الوزن – أعراض عصبية – إسهال – وجود ديدان شريطية فى القناة الهضمية عند إجراء الصفة التشريحية .

١٦ – مرض النيوكاسل (النوع الحاد) ومرض الطاعون :

حركات تنفسية شهيقية – لعاب – إسهال عفن – أعراض عصبية – شلل إحدى أوكلتا الرجلين – انثناء الرقبة – حركات دائرية للرأس – نزف فى المعدة الفردية – الأمعاء – الحوصلة – المرىء – فراغ البطن .

١٧ – التهاب البريتون الناتج عن البيض :

مواد فيبريسية فى فراغ البطن – شلل فى بعض الحالات

١٨ – التيفود :

إسهال – ارتفاع فى درجة الحرارة – شحوب العرف والداليتين – ويميل اللون إلى الداكن – تصحم الكبد والطحال – التهاب معوى – انتفاخ كلوىّ مميت فى جميع الأعمار .

١٩ – التهاب مفصلى :

تورم المفاصل نتيجة العدوى بالمكورات العنقودية

٢٠ – الكسور :

عظام مكسورة – تاريخ عن حدوث حركات عنيفة

٢١ – تلوث بطن القدم بالجراثيم

ابحث فى بطن القدم عن جرح أوعدوى أووجود خراج (مكورات عنقودية)

٢٢ – نقص النياسين :

تضخم مفصل العرقوب – انثناء الأقدام (مثل تخوخ العظام) انزلاق الوتر إسهال – علامات التهابية فى الفم .

إذا حدث إسهال فالمرض ربما يكون :

١ - الكوكسيديا :

٢ - البللورم

ونراه فقط فى الكتاكيت الصغيرة - يمكن وجود خراريج فى الرئة والكبد .

٣ - البللورم فى الدجاج الكبير :

النوع الجرثومى نادر الحدوث - إسهال أبيض - تغيرات ملحوظة فى الكبد - تغيرات فى المبيض وجود أعراض تسمم دموى .

٤ - ابيضاض الدم :

إسهال - وفاة فى الدجاج الناضج - تضخم وتغير فى لون الكبد والطحال - سرطانات تغير فى شكل العين - شلل .

٥ - زهرى الدجاج :

وجود القراد - شلل - صفراء - تغيرات فى الكبد والطحال وجود اللولبيات فى مسحات الدم .

٦ - الكوليرا :

نقط نزفية فى كل الجسم - التهاب معوى - علامات مرضية فى الكبد والطحال أحياناً التهابات وعلامات رشح فى القصبة الهوائية - إفرازات من

الأنف – كحة – يمكن إثبات وجود مسبب المرض بالزرع البكتيرى – وجود مواد فيبرينية فى الفراغ البريتونى .

٧ – **الإصابة بالهستوموناس :**

نجد العلامات المرضية فى الكبد والأعور – ونجد الهستوموناس فى المسحات المباشرة المأخوذة من التقرحات الكبدية والأعورية بعد إضافة محلول ملحى .

٨ – **التسمم :**

عموما التهاب معدى معوى – تتوقف نوعية الآثار المرضية على نوعية التسمم – إيجاد تاريخ حالة تسمم .

٩ – **العدوى بالفطريات :**

إسهال – نمو فطرى فى الأكياس الهوائية – الرئة – الحوصلة وبعض الأعضاء الموجودة بالجسم – وجود الفطر عند فحص مسحات .

١٠ – **الموتيليازس :**

رواسب فى الحوصلة – بالفحص المجهرى نتأكد من وجود المسبب .

١١ – **الإصابة الشديدة بالديدان :**

إسكارس – كابيلاريا – شريطية

الأعراض حسب نوعية كل إصابة .

١٢ – التهاب فتحة المجمع

رائحة المكان المصاب مميزة – وجود إفرازات طباشيرية حول المكان المصاب .

١٣ – السل :

درنات فى الكبد – الطحال – البريتون – الأمعاء – إسهال – فقدان للوزن .

١٤ – التسمم النقانقى :

شلل ارتخائى – نعاس – سهولة انتزاع الريش .

١٥ – التيفود

إسهال – حرارة عالية – شحوب العرف والداليتين وميل لونهما إلى الداكن – تضخم الكبد – الطحال – التهاب معوى – أحياناً نقط متنكرزة على القلب – انتفاخ الكلى – أحياناً التهاب رئوى فيبرينى – علامات مرضية مشابهة للكوليرا .

١٦ – التهاب الأمعاء :

درجات مختلفة من الالتهاب المعوى – ربما يكون المسبب بكتيرياً أو وجود طفيل الكوكسيديا أوالهيستوموناد .

١٧ – نقص فيتامين أ :

برار ناعم مع باقى الأعراض المميزة .

١٨ - الإصابة بالترايكوموناس :

عقد بيضاء رمادية أوبثرات فى المرىء والحوصلة يمكننا رؤية المسبب عند عمل مسحات - إسهال .

١٩ - التهاب الحنجرة والقصبة الهوائية المعدى :

عادة لايحدث إسهال فى هذا المرض - وجود الأعراض المميزة مثل الكحة - اللهاث - غرغرة - وجود رواسب متجبنة فى الفم والزور وحول العيون .

٢٠ - النيوكاسل والطاعون :

فى الطور الحاد نجد إسهالا عفناً أبيض مائلاً للاصفرار أوللاخضرار ربما يكون مدمما - حركات دائرية - انثناء العنق - وذمة فى الزور والعنق .

٢١ - نقص النياسين :

تضخم مفصل العرقوب - انثناء الأرجل - انزلاق الوتر فى هذا المفصل - سوء تكوين الريش - علامات التهابية فى الفم - أعراض عصبية .

إذا حدثت تورمات أو انتفاخات فى الرأس ، فربما يكون المرض :

١ - الجدرى :

ثؤلولات على العرف والداليتين والوجه وتقرحات فى الفم .

٢ – استسقاء الدلايات :

فى النوع المزمن للكوليرا – بعمل مسحات يمكننا تبيان جراثيم الباستيريلا .

٣ – الزكام :

انتفاخ عجينى دائرى لأنسجة الرأس وحول العينين – عطس مع إثبات وجود الهيموفيلس جاللينيرم مخبريا .

٤ – التهاب الحنجرة والقصبة الهوائية المزمن :

تاريخ الإصابة بهذا الالتهاب فى القطيع – نجد بعض الطيور تشهق والبعض يلهث والآخر يكح وربما ينزل سائل مدمم فى أثناء الكحة فى الحالات المزمنة نجد رواسب متجبنة حول العينين .

٥ – المرض التنفسى المزمن :

انتفاخ الجيوب تحت العينية بمادة مخاطية – التهاب مخاطى للقصبة الهوائية – تكدر الأكياس الهوائية – هزال .

٦ – مرض النيوكاسل وطاعون الدجاج :

وذمة فى منطقة الرأس والعنق مع وجود إفرازات صفراوية فى الأنسجة لكلا المرضين .

إذا ظهرت على الطيور إصابة مزمنة واعتلال ، فالمرض ربما يكون :

١ – مرض ابيضاض الدم :

سرطانات – تغيير فى الأعضاء المسئولة عن تكوين الدم – فقر الدم – تضخم الكبد والطحال والكلى .

٢ – السل :

درنات فى الكبد والطحال والبريتون والأمعاء – إيجابى لاختبار السلين .

٣ – الإصابة بالطفيليات الداخلية :

ديدان أسطوانية ، ديدان شريطية – إصابة مزمنة بالكوكسيديا وينتج عن ذلك الهزال .

٤ – المرض التنفسى المزمن :

عطس – إفرازات أنفية وعينية – غرغرة – التهاب مخاطى للقصبة الهوائية .

٥ – الجدرى :

وجود ثؤلالات مميزة – معمليا يمكن إثبات وجود الفيروس المسبب .

٦ – الإصابة بالعصيات القولونية :

يختلط علينا الأمر أحياناً مع مرض الكوليرا – التهاب البريتون – التهاب

التامور – علامات إصابة كبدية – التهاب معوى – رواسب فيبرينية فى الفراغ البريتونى إصابة المبيض .

٧ – الكوكسيديا :

رواسب متجبنة فى الأعور – بالفحص المجهرى نجد أطوار الطفيل سبب المرض – إسهال – فقدان الوزن .

٨ – الالتهاب البريتونى بواسطة البيض :

نجد البيض فى الفراغ البطنى .

٩ – تلبك الحوصلة أو تلبك القانصة :

عند إجراء الصفة الشريحية نجد الحوصلة وربما القانصة متلبكة بالطعام .

١٠ – الطفيليات الخارجية :

وجود القمل أو الفاش (الجرب الأحمر) على جسم الطائر .

إذا وجدت متاعب فى العين ، فربما يكون المرض :

١ – التهاب الحنجرة والقصبة الهوائية :

إفرازات من العيون تكون دائماً مخاطية ثم تزداد سمكا متحولة إلى رواسب تقرحية مصحوبة بتغيرات التهابية فى القصبة الهوائية – كحة – الطيور تلهث – قأقأة .

٢ – المرض التنفسى المزمن :

افرازات مخاطية من العين – قأقأة – كحة – الطيور تلهث .

٣ – الزكام :

انتفاخ الأنسجة حول العين – إفرازات عينية .

٤ – العدوى بالفطريات :

إفرازات عينية مصحوبة بعلامات مرضية رشحية – كحة – علامات مرضية فى الأكياس الهوائية – وجود قرحة مركزية فى قرنية العين أحياناً .

٥ – نقص فيتامين أ :

رواسب قشرية داخل جفون العين – بثرات فى المرئ – امتلاء وتمدد الأنابيب البولية بحامض البوليك – مادة متجبنة فى جسم فابريكاس .

٦ – التهاب الدماغ والنخاع الشوكى :

تضخم كرة العين – شلل – ارتعاش – عدم ترابط حركى .

٧ – مرض ابيضاض الدم :

تغير فى عدسة العين وارتشاحها بالكريات البيضاء – شلل – إسهال وخلافه من الأعراض المميزة لهذا المرض السرطانى .

إذا وجدت خراريج أو تنكرز أو اضطراب فى الكبد ، فالمرض ربما يكون :

١ – مرض الرأس الأسود أو الإصابة بالهستوموناس :

شائع الحدوث فى صغار السن – تقرحات فى الأعور مع وجود تجمعات مترسبة فى الأعور .

٢ – زهرى الدجاج :

صفراء – إسهال – شلل – وجود الحشرات حاملة المرض (القراد) .

٣ – الكوليرا :

أعراض مرضية وعلامات مرضية خاصة بالتسمم الدموى الجرثومى – التهاب معوى – التهاب القصبة الهوائية – التهاب أنف – كحة – التهاب بريتونى – نزف كبدى وطحالى .

٤ – الباراتيفود :

مشابه لمرض البللورم .

٥ – مرض ابيضاض الدم :

تضخم الكبد والطحال والكلى – تغيرات دموية – وجود سرطانات .

٦ – التيفود :

إسهال – حرارة مرتفعة – شحوب العرف والداليتين – تضخم الكبد والطحال – التهاب معوى – تضخم كلى – أعراض مرضية تماثل تلك الخاصة بالكوليرا .

٧ – الليستريوزس :

مساحات متنكرزة فى عضلات القلب – فى الكبد – زيادة فى إفراز وسائل التامور مساحات متنكرزة فى الطحال – قرحات فى الأمعاء الدقيقة والأعور – يسير الطائر بشكل دائرى – ارتعاشات عضلية – يمكن إثبات وجود المسبب للمرض فى الدم المأخوذ من القلب أومن الأعضاء البطنية .

٨ – السل :

فى الكبد والطحال – هزال – إسهال – إيجابى لاختبار السلين (تيوبركلين) .

٩ – نقص حامض البانتوثينيك :

تضخم الكبد وميل لونه نحو الاصفرار – إفرازات رمادية فى المعدة الغدية مادة شبه قيحية فى الفم – تأثر شكل الريش – تشقق الأصابع والقدم تكون قشور على جانبى الفم والعين .

إذا حدث التهاب فى الأمعاء الدقيقة – فربما يكون المرض :

١ – الكوكسيديا المعوية :

وجود الطفيل عند عمل مسحات البراز

٢ – الباراتيفود :

فى العادة تصاب الكتاكيت الصغيرة – ويمكن إثبات وجود مسببات المرض بالفحص المجهرى .

٣ – الكوليرا :

إسهال – التهاب فى الأمعاء – تسمم دموى جرثومى – التهاب بريتونى .

٤ – التيفود :

الإسهال – الحرارة المرتفعة – شحوب العرف والداليتين وميل اللون إلى الداكن – تضخم الكبد والطحال .

٥ – الإصابة بالطفيليات الداخلية :

وجود مساحات ملتهبة فى الأمعاء الدقيقة عند الإصابة الشديدة بالطفيليات مع وجود الطفيليات ذاتها عند إجراء الصفة التشريحية .

٦ – زهرى الدجاج :

التهاب معوى – الإصابة بالصفراء – شلل – تضخم الطحال – إسهال مائل للاخضرار – فحص مسحات دموية يثبت وجود اللولبيات .

إذا حدثت إصابة فى الأعور – فالمرض ربما يكون :

١ – الكوكسيديا الأعورية :

دم فى الأعور – وجود رواسب انسدادية متجبنة فى الحالات المزمنة – إيجابى عند فحص المسحات .

٢ – الإصابة بالهستوموناس :

تحدث فى سن أكبر من أربعة أسابيع – وجود دم فى الأعور (فى الصورة الحادة) علامات مرضية فى الكبد – يمكن رؤية مسببات المرض بالفحص المجهرى .

٣ – البللورم :

وجود انسدادات متجبنة فى الأعور – عقد فى القلب – الرئة – الكبد – الأمعاء – ويمكن تأكيد المرض بالفحص البكتيرى .

٤ – الباراتيفويد (سالمونيلا) :

تحدث فى سن ٣ – ٢٠ يوماً يتشابه فى العلامات المرضية مع البللورم يلزم التأكيد المخبرى الجرثومى .

٥ – الإصابة بالعصيات القولونية :

وجود انسدادات متجبنة فى الأعور – يلزم إثبات وجود الايشريشيا فى الزرع الجرثومى .

٦ – مرض مارك :

٢ – ٨ شهور – ربما تحدث سرطانات فى الأعور وأيضاً فى أجزاء أخرى من الجسم – شلل .

٧ – السل :

يحدث فى طيور أكبر سنا – عقد درنية فى الكبد – الأمعاء والأعور أحياناً .

إذا وجدت اضطرابات كلوية – فربما يكون المرض :

١ – مرض البولينا :

تحدث أساساً للطيور سن أسبوعين أو أكثر – تمدد القنوات البولية بحامض البوليك – ربما تظهر الكلى بيضاء طباشيرية فى ضعف حجمها الطبيعى – لون الأنسجة فى الجسم يصبح داكناً وبخاصة عضلات الصدر – يمكن إثبات وجود الفيروس الخاص بالتهاب الشعب الهوائية المعدى .

٢ – نقص فيتامين أ :

بثرات على البلعوم – رواسب متجبنة على جسم فابريكاس – تأثر العينين – مواد متجبنة فى القصبة الهوائية – يميل لون الكلى إلى الابيضاض – تاريخ نقص غذائى لفيتامين أ .

٣ – البللورم :

كتاكيت صغيرة ١ – ٢١ يوما – امتلاء القنوات البولية بحامض البوليك – وفاة فجائية للكتاكيت – يمكن إثبات وجود مسبب المرض بالفحص الجرثومى .

٤ – الباراتيفود :

كما فى مرض البللورم .

٥ – الكوليرا :

تضخم الكلى – الوفيات فى الطيور الناضجة – إسهال – إثبات وجود مسبب المرض مخبريا .

٦ – التيفود :

تحدث فى الطيور الكبيرة السن وفى كل الأعمار – حرارة عالية – شحوب العرف والداليتين ويصبح لونهما داكناً – تضخم الكبد والطحال – التهاب معوى .

٧ – مرض جامبورو :

تضخم جسم فابريكاس ويصيب الأعمار ٣ – ٦ أسابيع .

إذا حدث تغير فى لون الجسم — فالمرض ربما يكون :

١ – الجدرى :

ثؤلولات مميزة .

٢ – البولينا :

عضلات الجسم تصبح داكنة اللون – تمدد الكلى نتيجة لامتلائها بحامض البوليك – وجود رواسب حامض البوليك على التامور – البريتون والأعضاء الأخرى فى الحالات السيئة .

٣ – التيفود :

لون الجسم يصبح داكناً – إسهال – حرارة مرتفعة – العرف والداليتين يصبحان شاحبين وداكنى اللون – أشد أعراضه الالتهاب المعوى فى الاثنى عشر – الأعراض تشبه تلك الأمراض الخاصة بالكوليرا .

٤ – الزهرى :

الصفراء تضخم الكبد والطحال – مساحات متنكرزة فى الطحال – وجود القراد .

إذا حدثت وذمة فى الأنسجة — فالمرض ربما يكون :

١ – التسمم بالملح :

وجود سوائل ارتشاحية فى الأنسجة – تاريخ إضافة ملح العليقة .

٢ – الوذمة :

ثانوية لالتهاب التامور – متاعب فى القلب نتيجة لعدوى ثانوية بالعصيات القولونية للعوامل السمية أوللعدوى القيحية .

٣ - الباراتيفود :

وذمة فى الرئتين واستسقاء فى أنسجة الجسم - التهاب معوى - وجود جراثيم السالمونيلا بالزرع الجرثومى .

٤ - نقص المانجنيز :

وذمة فى أنسجة الجنين الذى لايستطيع الفقس من البيضة - يصبح منقار الكتاكيت بشكل منقار الببغاء - الكتاكيت التى تفقس تصاب بأعراض عصبية .

إذا وجد نزف منتشر فى أنسجة الجسم - فالمرض ربما يكون :

١ - نقص فيتامين ب ١٢ :

نقص فى القدرة على الفقس مع وفاة الجنين فى حوالى اليوم السابع عشر نزف خلال الأنسجة المختلفة - ضمور عضلات القدم .

٢ - عدوى فطرية :

وجد أن سموم هذه الفطريات تسبب أعراضاً نزفية فى أنسجة الجسم .

٣ - تتوح نتاجى :

وجود سائل بكمية زائدة فى الفراغ البريتونى وفى أنسجة الجسم أحياناً يكون مصحوباً بتزيف خلال الأنسجة (تاريخ حدوث الحالة ربما يكون مصاحبا لتناول مادة سامة فى الطعام) .

إذا حدث نقص فى درجة الفقس – فالمرض ربما يكون :

١ – نقص الريبوفلافين :

موت الجنين فى البيضة فى الأيام الأخيرة قبل الفقس – تشوه المنقار – انثناء الأصابع الشللى .

٢ – نقص فيتامين أ :

تاريخ نقص فيتامين أ فى الغذاء – بثرات بيضاء فى المرىء – قشور تحت جفن العين – تضخم امتلائى للقنوات البولية باليوريتس – وجود قرحات فى المسالك الهوائية (كل هذه العلامات تكون موجودة فى الدجاج التام النمو) .

٣ – نقص فيتامين هـ :

نقص فى القدرة على الفقس – يموت الكتكوت فى اليوم الرابع للحضانة . تاريخ تقديم طعام متزنخ – ضمور عضلى – تحلل فى خصية الذكور .

٤ – البللورم :

موت الجنين فيما بين اليوم التاسع عشر واليوم الواحد والعشرين – الزرع الجرثومى من الجنين يظهر وجود السالمونيلا – تنفق نسبة كبيرة من الكتاكيت الفاقسة حديثاً .

٥ – المرض التنفسى المزمن :

موت الجنين فيما بين اليوم الثامن عشر واليوم الواحد والعشرين – توجد

إفرازات فى المسالك الهوائية للجنين – وذمة – تشوه – خراريج فى المفاصل – تنكرز كبدى – التهاب التامور – تضخم الكبد والطحال – أعراض المرض التنفسى المزمن فى الكبار – وجود الميكو بلازما عند الزرع الجرثومى من الأنسجة الجنينية أومن كيس المح .

٦ – البولينا :

زيادة فى نسبة الوفيات إلى ٣٠٪ فى أثناء الأسبوعين الأولين من العدوى – وجود مادة شبه محية فى الفراغ البطنى .

٧ – الباراتيفود :

مشابهة لمرض البللورم .

٨ – أخطاء فى الحضانة :

ابحث عن الأخطاء فى عمل الحضانات .

٩ – العصيات القولونية :

ايشريشيا القولونية – بروتيس – سالمونيلا – كلوستريديا – مكورات سبحية تريكوموناس – إصابة المبيض .

١٠ – الإصابة بالطفيليات :

وجود إصابة شديدة بالطفيليات فى الكبار

١١ – نقص فيتامين ب ١٢ :

نقص فى المقدرة على الفقس – موت الجنين فى حوالى اليوم السابع عشر ضمور عضلات الأرجل – نزف نسجى .

١٢ – نقص البانتوثينيك :

نقص المقدرة على الفقس – تشوه جنينى – تشوه الريش – اصفرار الكبد علامات مرضية فى الأقدام – وجود قشور فى زوايا الفم .

١٣ – نقص البيوتين :

صعب التمييز عن أعراض نقص البانتوثينيك فى الجنين – موت الجنين فى خلال اليومين الأخيرين من الحضانة – أعراض مرضية فى القدم .

١٤ – نقص الكولين :

يساعد على عدم انزلاق الأوتار – تخوخ العظام – نقص فى القدرة على الفقس .

١٥ – التيفود :

مشابه لتشريح حالة الإصابة بالبللورم خلال الحضانة .

١٦ – التهاب قناة المبيض :

عدوى جرثومية – التهابات فى المبيض

١٧ – عدوى بفيروس الالتهاب القصبي المعدى :

تشوه فى شكل المبيض – تكون قشرة البيضة متعرجة خشنة – رقيقة الجدار .

١٨ – نقص حامض الفوليك :

يحدث فقط عند تقديم عليقة غير متوازنة – يموت الجنين فى وقت الفقس – عدم تكون الريش – تأخر فى النمو .

عندما يحدث اضطراب فى تكوين الريش – فالمرض ربما يكون :

١ – عادة الافتراس :

تحاول الكتاكيت انتزاع ريش بعضها وتصبح بدون ريش .

٢ – نقص الزنك :

تكسر الريش – تواجد القشور على الجلد – تضخم مفصل العرقوب ضعف الأرجل – قصر وغلظ العظام الطويلة .

٣ – نقص حامض البانتوثينيك :

نقص القدرة على الفقس – وفيات فى الثلاثة الأيام الأخيرة من التحضين التهاب جلدى – وجود قشور في زوايا الفم .

٤ – نقص البيوتين :

التهاب جلدى – قصور فى تكوين الريش – تخوخ العظام فى الصغار – نقص فى القدرة على الفقس – موت الجنين فى الثلاثة الأيام الأخيرة من التحضين .

٥ – نقص النياسين :

قصور فى تكوين الريش – تضخم فى مفصل العرقوب – انثناء السيقان – التهاب الفم والإسهال – أعراض عصبية .

٦ – نقص حامض الفوليك :

وجود ريش محل الريش الذى يجب أن يكون ملوناً تبعاً لما هو معتاد فى فصيلة معينة .

إذا وجد البيض (المح) فى فراغ البطن – فالمرض ربما يكون :

١ – البولينا :

انفجار المح فى الفراغ البريتونى – تضخم الكلى – علامات مرضية فى الكبد والطحال والكلى – التهاب معوى – نزف فى كل أجزاء الجسم – وجود الباسترلا ملتوسيدا فى مزارع الإنبات

٢ – الكوليرا :

وجود مادة فيبرينية أو محية الشكل صعب تمييزها – التهاب بريتونى – وجود رواسب فيبرينية فى الفراغ البريتونى – التأكيد المخبرى لوجود الجرثومة المسببة .

٣ - العدوى بالعصيات القولونية :

صعب التمييز مع الكوليرا - التهاب بريتونى - التهاب تامور - إسهال - علامات مرضية فى المبيض - اختلاف العلامات المرضية تبعاً لنوعية الجرثومة المسببة .

٤ - نقص الكولين :

إجهاض المح فى الفراغ البطنى - تخوخ فى الكتاكيت

٥ - زهرى الدجاج :

انفجار المح شىء عادى جدا فى الفراخ العادة المصابة بزهرى الدواجن .

٦ - مرض النيوكاسل :

يوجد مح البيض فى فراغ البطن فى الطيور .

٧ - السل :

درنات فى الكبد والطحال والبريتون وجدار الأمعاء - انفجار أوتشوه البيض - إيجابى لاختبار السلين .

٨ - البللورم :

تحلل - تشوه شكل البيض - إيجابى لاختبار تثبيت المتممة - يمكن إثبات وجود السالمونيلا مخبريا من عينات مأخوذة من الحالات المرضية .

٩ – التيفود :

تحلل بيض موجود مع البيض فى الفراغ البريتونى – أعراض مرضية وتاريخ حالة مشابهة للبللورم .

إذا لاحظنا إرتعاشا أو ارتجافا أو أعراضا عصبية – فالمرض ربما يكون :

١ – التهاب الدماغ والنخاع الشوكى :

وباء مرضى عصبى – ارتعاش – شلل – تأكيد العدوى بالاختبار المعملى .

٢ – نقص الماغنسيوم :

فى الكتاكيت تأخر النمو – أعراض عصبية – تشنجات – تلهث الطيور – نقص الماغنسيوم فى العليقة .

٣ – الليستريا :

حدوث ارتجافات عضلية وأعراض عصبية أخرى . مساحات متكررة فى الكبد والقلب يمكن إثبات وجود المسبب مخبريا .

٤ – مرض ابيضاض الدم :

أعراض عصبية ربما ينشأ عنها ارتعاشات .

٥ – مرض النيوكاسل :

ارتعاشات . ارتجافات فى الطور المعتدل والطور الحاد .

٦ - الكوليرا :

حركات غير متحكم فيها - وجود الباستير فى العينات المأخوذة من الطيور المصابة .

٧ - نقص النياسين :

تضخم المفصل العرقوبى - انثناء السيقان - قصور فى تكوين الريش - التهابات فى الفم - أعراض عصبية .

إذا لاحظنا أعراض مرض تسمم دموى جرثومى - فالمرض ربما يكون :

١ - كوليرا :

وجود الباستيرلا مالتوسيدا بالفحص البكتريولوجى - التهاب معوى - تغيرات فى الكبد - تغيرات فى الطحال - التهابات فى المبيض - التهابات فى البريتون مع وجود رواسب فيبرينية .

٢ - العدوى بالباستيريلا :

العدوى بالباستيريلا المختلفة الأنواع والقوة المرضية بسبب انحراف مشابه لمرض الكوليرا .

٣ - زهرى الدجاج :

وجود القراد (الفاش) - تغيرات فى الكبد والطحال - الصفراء - الشلل إسهال مع اخضرار البراز - وجود اللولبيات فى مسحات الدم .

٤ – التهاب البريتون نتيجة البيض :

وجود مادة فيبرينية أومح بيض فى الفراغ البريتونى – التهاب تامور – نزف فى كل أجزاء الجسم .

٥ – مرض البللورم (نوع التسمم الدموى الجرثومى) فى الكبار :

إثبات وجود جراثيم السالمونيلا مخبريًّا بالزرع – تغير فى لون الكبد تغيرات فى المبيض – التهاب بريتونى – زيادة فى السائل البريتونى .

٦ – الليستريا :

تحدث أحياناً أعراض تسمم دموى جرثومى – مساحات متنكرزة على القلب والطحال والكبد – التهاب معوى – ربما توجد أعراض عصبية – إثبات وجود الجرثومة بالفحص الجرثومى .

إذا وجد التهاب بريتونى – فالمرض ربما يكون :

١ – كوليرا :

توجد الباستيريلا مالتوسيدا بالفحص الجرثومى – التهاب معوى – تغيرات فى الكبد – تغيرات فى الطحال – التهاب المبيض – التهاب التامور والتهاب البريتون .

٢ – الإصابة بالعصيات القولونية :

أعراض وعلامات مرضية لايمكن تمييزها عن الكوليرا – التهاب بريتونى – التهاب التامور – وجود مواد فيبرينية فى الفراغ البريتونى – علامات مرضية فى المبيض – إسهال – وجود الأيشريشيا القولونية بالزرع الجرثومى .

٣ – البولينا :

وجود رواسب حامض البوليك على البريتون والتامور – تضخم الكلى وابيضاض لونها .

٤ – العدوى بالفطريات :

وجود الفطريات على البريتون والأكياس الهوائية – عقد مرضية فى الرئة – يمكن رؤية الخيوط الفطرية مجهريا بعمل مسحات من العلامات المرضية .

٥ – التيفود :

إسهال أخضر – التهاب تامور – التهاب بريتونى ناتج من انفجار المبيض – تضخم الكبد – الطحال – تغير فى لون الكبد إلى اللون البرونزى الأخضر أوالبنى – حرارة مرتفعة – أحياناً التهاب بريتونى فيبرينى .

٦ – البللورم :

أعراض تسمم دموى جرثومى فى الكبد – تضخم وتغير لون الكبد ويصبح مغطى بإفرازات فيبرينية – تضخم الكلى مع تحللها – الأعضاء الداخلية تصبح مغطاة بإفرازات فيبرينية .

٧ – مرض الليكوزس المركب :

يلاحظ أحيانا التهاب بريتونى فى النوع الشللى أوالنوع الحشوى .

٨ – السـل :

درنات فى الكبد والطحال والبريتون والأمعاء – إيجابى لاختبار السلين.

٩ – مرض الرأس الأسود :

التهاب بريتونى يعقب اختراق القناة الهضمية عند منطقة الأعور – وجود الأعراض المرضية المميزة على الكبد – وجود رواسب التهابية متجبنة فى الأعور.

إذا حدثت عدوى فى الأكياس الهوائية – فالمرض ربما يكون :

١ – المرض التنفسى المزمن :

إفرازات مخاطية – كحة – قأقأة – مدة سير المرض طويلة – وجود مخاط فى الأكياس الهوائية – إثبات وجود الميكو بلازما مخبريًّا.

٢ – العدوى بالعصيات القولونية :

وجود علاماتْ مرضية فى الأكياس الهوائية – التهاب بريتونى – التهاب التامور – تغيرات فى الكبد – وجود مواد فيبرينية على البريتون.

٣ – الكوليرا :

التهاب معوى – التهاب بريتونى – تغيرات كبدية – تغيرات فى الطحال – التهاب مبيض – وجود مواد فيبرينية على البريتونى – التهابات رواسب فى الأكياس الهوائية – إثبات وجود الباستيريلا مخبريًا.

٤ – العدوى بالفطريات :

تنمو الفطريات على الأكياس الهوائية مكونة أغشية رقيقة فطرية لونها أخضر أوأسود أومائل للاصفرار مع إفرازات .

٢٣ – بعض أمراض طيور الزينة

عسر الهضم

هذه حالة مرضية يسببها عدم وجود حبيبات الرمل أوالحصى ضمن مكونات الغذاء أولتساعد على عملية الهضم الصحيحة كذلك تحدث نتيجة للتعرض للبرد وأعراض هذه الحالة (التثاؤب – قلة الحركة مع فقدان الشهية والتقيؤ مع حدوث نوبات وتشنجات عصبية) وتعالج هذه الحالة بتصحيح الغذاء وكذلك بوضع بعض الحصى أوالرمل حيث يوجد الببغاء ليلتقط مايحتاج ، ويمكن أن تعالج الحالة بوضع بعض قطرات من زيت الخروع على قطعة من السكر وتقديمها له ، كذلك يمكن إضافة قليل جداً من بيكربونات الصودا على ماء الشرب .

الإسهال عند طيور الزينة

يصاب الببغاء بالإسهال نتيجة الطعام وقد يحدث الإسهال نتيجة الإكثار من الغذاء على الفواكه الطرية أوالحشائش اللينة أونتيجة التعرض للبرد الشديد وربما يحدث الإسهال نتيجة الإصابة بالأمراض المعدية .

فإذا كان السبب غذائياً وجبت مراجعة نوعية الغذاء وإذا كان نتيجة للتعرض للبرد يجب فى هذه الحالة وضع الطيور فى مكان دافئ أما إذا كان المسبب جرثوميا فيجب إعطاء المضادات الحيوية المناسبة .

الإمساك عند طيور الزينة :

يلاحظ الإصابة بهذه الحالة عندما نجد الطيور تبذل جهداً فى عملية التبرز ونزول البراز جافا متحجرا .

وينشأ الإمساك نتيجة الغذاء الجاف وعدم الحركة وسوء الهضم أومن قلة وجود الحصى أوالرمل فى مكان تربية الطيور ، ويمكن علاج الحالة بواسطة إعطاء بعض قطرات من زيت الخروع للطيور المصابة .

التسمم الدموى فى الببغاء : (مرض سيتا كوزس) :

هذا مرض معد تسممى يصيب الببغاء وينشأ عنه حمى شديدة ودوخة وإسهال .

هذا المرض تنتقل عدواه إلى الإنسان وتحدث له التهابا رئويا خطيراً .

ومن أعراض هذا المرض :

الانكماش والإسهال مع نزول براز رغوى أخضر مدمم مع عطش شديد جداً وميل للنوم وعدم الحركة وفقدان للتوازن ويتدلى الجناحان ويغمض الطير عينيه وينفش ريشه ويضع رأسه على كتفه ، وينتهى المرض بأعراض تشنجية تنتهى عادة بموته . فى الإصابة المزمنة نشاهد نزول رشح من الأنف والفم مع سعال وهزال وقيىء من آن إلى آخر .

هذا المرض خطير ولكن لامانع من محاولة العلاج . يوضع الطير فى مكان درجة حرارته تصل إلى ٤٠ درجة مئوية مع وضع بعض المضادات الحيوية فى ماء الشرب ومراعاة حسن الغذاء .

الهزال فى طيور الزينة

تحدث تلك الحالة نتيجة الإصابة بجراثيم قولونية تصل عدواها عن طريق الغذاء أوالماء .

يجب فحص البراز لوجود الجراثيم أوالطفيليات الداخلية وكذلك فحص الدم لوجود الطفيليات الدموية ، وبناء على نتيجة فحص تتحدد طريقة العلاج .

أمراض الكنارى المعدية

مرض النيكروز المعدى فى الكنارى

يسمى حمى الكنارى أوطاعون الكنارى وتنحصر الأعراض فى انزواء الطير وانكماشه مع فقدان الشهية ثم ينتفض الطير ويموت فى خلال أربع وعشرين ساعة على الأكثر ، والحقيقة أنه لطبيعة المرض الحادة لايسهل تشخيصه إلا بتشريح أحد الطيور النافقة فنجد تنكرزاً واضحاً فى الطحال والكبد ويتضخم الكبد مع وجود بقع صفراء صغيرة على سطحه ويمكن عمل مزرعة جرثومية لتحديد المسبب ، وهو نوع من العصريات مسببة التنكرز .

مرض الباراتيفويد فى الكنارى :

تتعرض هذه الطيور لهذا المرض وتظهر عليها أعراض قلة الحركة ويفضل الطير أن يمكث فى قاع القفص وينكمش ويكتئب ويغلق عينيه ، وتقل شهيته ويصاب بالإسهال وتضطرب حركاته ويسقط منهكاً ويتشنج ويموت .

ومن خواص الإصابة بهذا المرض تصلب الجثة بسرعة مدهشة ، ويستدل على

ذلك بتمدد الرجلين وتصلبهما ، أما الأمعاء فتكون ملتهبة ويتضخم الطحال جداً ويحتقن بالدم وكذلك يحتقن الكبد والكليتان .

ويجب عزل الطيور المصابة وتنقل الطيور السليمة فى قفص نظيف ، ويمكن علاج المرض بوضع بعض المضادات الحيوية فى ماء الشرب للطيور متى ثبتت الإصابة بفحص العينات جرثومياً .

قمل الكنارى

يصاب عصفور الكنارى بقملة تسمى القملة السنجابية لها فقان قويان وتعيش على الجلد ، وريش العصفور ، وهى تحدث التهاباً جلدياً مقلقاً للطيور .

ويلزم تعفير جسم العصفور بالمبيدات الحشرية ، وتتكرر هذه العملية كل ثلاثة أيام حتى تتم نظافة جسم الطير .

الديدان المعوية للكنارى

تصاب طيور الزينة ببعض الطفيليات الداخلية التى تتسبب فى هزال الطيور وتضعفها وتقلل نشاطها ، ويجب عند التأكد من ذلك مجهرياً إعطاء الطيور طاردات الديدان وبعد يومين يلزم وضع نقطة أو نقطتين من زيت الزيتون فى فم الطير بواسطة قطارة صغيرة .

ملحوظة عامة : يجب عدم ترك الخضروات فى القفص حتى لا تتعفن وتحمض وتتسبب فى موت الطير .

يجب عدم تعريض الطيور للبرد

يجب وضع بضع حصيات من الرمل فى قفص الطير .

يجب وضع بذرة المكانس للطير للتغذية .

لا مانع من وضع جزرة صفراء فى القفص بين الحين والحين أو أوراق الخص .
يجب تغذية الكنارى على اللبن المغلى مخلوطاً مع لباب العيش وصفار البيض .

٢٤ – تغذية الطيور

تغذية الكتاكيت :

حالياً تقوم الهيئات المختلفة بمصانع القطاع العام وخلافه بعمل كافة أنواع العلائق اللازمة لتربية جميع الأعمار والنوعيات من الدواجن .

ولكن ما سأتحدث عنه هنا هو بعض الاحتياطات الواجب عملها بالنسبة لمن يهوى تربية الكتاكيت على نطاق ضيق (فى المنازل) ، فيجب مراعاة عدم إعطاء الكتاكيت أى طعام لمدة يومين بعد الفقس ، كذلك لايؤجل الإطعام أكثر من ذلك لأنه يضرها .

يفضل أن تعطى ماء دافئاً قبل إطعامها وبخاصة فى فصل الصيف ويتبع لتربية الطيور طريقتان إحداهما تعطى فيها الكتاكيت الحبوب فقط لمدة أسبوع ثم بعد ذلك تعطى خلطة فيها نوعيات مختلفة من الغذاء ، والطريقة الثانية هى البدء من الأسبوع الأول بإعطاء طعام مكون نصفه من الحبوب والنصف الآخر خلطة مع إضافة بعض الفيتامينات .

والحقيقة أن أفضل الطرق : هى إعطاء الحبوب والخلطة من أول الأمر ووضع الغذاء لمدة عشرة أيام وبعد ذلك تعطى الحبوب منفصلة عن الخلطة ، وهذه الطريقة تساعد الكتاكيت الضعيفة فى تناول نصيبها من الغذاء الجيد .

والخلطة تتكون من ردة (نخالة) ناعمة بنسبة ٢٠ جزءاً ومطحون الجير بنسبة

خمسة أجزاء ويعطى لبن الفرز للشرب بدلا من الماء.

يجب أن يراعى تقديم البرسيم المقطع إلى قطع صغيرة مرة يومياً وأن يقدم الغذاء حوالى ست مرات فى اليوم.

تغذية دجاج البيض

هذا الكلام أيضاً يمكن تطبيقه مع من يقومون بتربية دجاج البيض على نطاق محدود، فيمكن فى الصباح إعطاء الدجاج مخلوط من الحبوب (القمح والشعير).

وفى اليوم التالى الذرة الرفيعة وهكذا بالتبادل، أما فى فترة الظهر فيمكن تقديم طعام أخضر كالبرسيم المقطع أو ورق الكرنب أو الخس أو قشر البطيخ. أو قشر الخيار.

وفى المساء يجب تقديم الوجبة الهامة المكونة من مطحون القمح والذرة بنسبة جزء من الردة الناعمة وجزء من الردة الخشنة وملء ملعقة بن من مسحوق الخردل لكل عشرين دجاجة، كل ذلك يخلط بالماء الدافئ وتعمل منه عجينة سميكة القوام وتقدم للدجاج.

ويوجد مثال آخر لعليقة أخرى تتكون من الذرة والقمح الكسر ومطحون بذر الكتان والردة الخشنة بأجزاء متساوية.

ولا تنس وضع بعض الأحجار الجيرية أو الأملاح والماء النظيف أمام الدجاج طول الوقت.

تغذية الدجاج للتسمين

فى العادة يسمن الدجاج الذى قطع البيض أو غير المرغوب وجوده فى الحظيرة.

وأحسن الطرق للتسمين هو التغذية على الحبوب المطحونة المبثوثة فى لبن الفرز أو شربة العظام .

مثال لغذاء لتسمين الدجاج : (مطحون ذرة ٢٠ جزءا – ردة خشنة ٤ . أجزاء – ردة ناعمة ٤ أجزاء – مطحون اللحم أو مسحوق السمك جزء) .

ويخلط كل ذلك باللبن الفرز أو شوربة العظم ويقدم مرتين يومياً صباحاً ومساء ، ويستحسن وضع كل حوالى ثمانى دجاجات معا فى قفص ووضع الطعام خارجه وبجانبه الماء .

ملحوظة : يجب عند البدء فى عملية التسمين أن نقوم بتجويع الدجاج المراد تسمينه لمدة يوم ثم يقدم له الطعام بعد ذلك . يستحسن تغطية القفص بقطعة قماش لأن الظلمة تساعد على السمنة ، وعادة تحصل السمنة فى خلال أسبوعين بشرط ألا تخرج الطيور من القفص .

تغذية الدجاج الرقاد

يجب أن تعطى الدجاجة الرقادة غذاءها مرة واحدة فى اليوم فى ميعاد محدد ، يوضع الغذاء على مسافة قصيرة من مكانها وذلك دفعاً لها على تحريك أعضاء جسمها .

مدة حضانة البيض

النوع	مدة الحضانة	السن التى تبدأ عندها وضع البيض	فترة إعطاء البيض	كمية البيض سنويا
دجاجة	٢١	٦ شهور	٤٨ أسبوعاً	١٥٠ – ٢٥٠
بط	٢٨	٧ شهور	لغاية ٣٨ أسبوعا	٨٠ – ٣٠٠
رومى	٢٨	١٠ – ١١ شهر	١٢ أسبوعا	٢٥ – ٢٠٠
أوز	٣٠	١٠ – ١١ شهر	٤ – ٦ أسابيع	٨٠
حمام	١٨	٩ شهور	مارس / أغسطس	٢ كل مرة
بجعة	٣٥	سنتان	من ١٥ أبريل	٥ إلى ٧
طاووس	٢٤	١٠ إلى ١٢ شهر	من أبريل	إلى ٢٥
كناوى	١٨	١٢ شهر	من أبريل/ أكتوبر	١٢
الببغاء الاسترالى				
نعامة	٣٥ – ٤٢	٤ سنوات	يونيو / ديسمبر	٢٠

٢٥- نصائح عامة لمربى الدواجن

يلزم أن يكون مربى الدواجن متنبهاً وعلى درجة كبيرة من الخبرة حيث إن هذه الصناعة تعتمد اعتمادا كبيراً على ذلك .

فيلزم أن يتنبه من يقوم بهذا العمل أن تكون له عين فاحصة وحواس قديرة على اكتشاف أول بادرة أو نذير بإصابة مرضية ، لأن تربية الدجاج إما أن تحقق الربح الوفير وإما أن تنتهى بمالا يحمد عقباه .

فبالإضافة إلى الأمراض المختلفة التى تصيب الدواجن تلاحظ وجود بعض الخصال الردئية والتى يلزم أن يتصرف المربى حيالها فوراً .

الدجاج آكل البيض .

يحدث أحياناً أن تتغذى الدجاجة على محتويات بيضة مكسورة عن طريق الخطأ أو نتيجة لنقص بعض المواد الجيرية فى الغذاء وإذا بدأ حدوث هذه العادة تعودت الدجاجة ذلك وتسبب خسائر كبيرة فتقوم الدجاجة الأخرى بتقليدها ، لذلك يجب أن توضع أعشاش البيض عالية (٥٠ - ٦٠ سم) ارتفاعاً عن الأرض وأن يعطى الدجاج عليقة متوازنة محتوية على مسحوق الجير ، فإذا لم تجد هذه الطريقة عندئذ يجب إحضار بيضة وتفريغها وملئها بمعجون من مسحوق الخردل مع قليل من الماء وتركها أمام الدجاج ، فإذا واقت هذه البيضة فلن تلمس البيض الطازج ثانية ، ويحسن تكرار هذه العملية حتى تعتاد عدم محاولة أكل البيض ثانية .

نتف الريش والافتراس

إذا بدأت إحدى الدجاجات نتف الريش لدجاجة أخرى ، أو افتراس جسمها فإنها ستعود لتكرار المحاولة وينتج عن ذلك نزول الدم الذى تستطعمه الدجاجة وتكرر المحاولة وتبدأ هذه العادة فى الانتشار بسرعة .

لذلك يلزم عند اكتشاف مثل هذه الحالة عزلها فوراً وأحيانا يكون السبب وراء حدوث هذه العادة نقص الأملاح المعدنية وعدم توازن الغذاء .

٢٦ - أهم أمراض الأرانب وعلاجها

الأمراض الجرثومية

عدوى الجهاز التنفسى فى الأرانب :

الزكام المعدى

مرض حاد أو تحت الحاد أو مزمن فى الأرانب . يتميز بمتاعب الجهاز التنفسى فى النوع الحاد وتحت الحاد وبوجود خراريج تحت الجلد فى النوع المزمن .

المسبب :

جراثيم الباستيريلا أساسا مع مكورات سبحية - العصيات القولونية

العوامل المهيئة للمرض :

١ - الحمل .

٢ - الولادة .

٣ - عدم وجود رعاية صحية .

لقاحات الدواجن

اللقاح	لقاحات فيروسية					لقاحات بكتيرية				
	نيوكاسل		جدري		طاعون طيور	كوليرا			زهري طيور	تسمم دموي
	عضلي	عيني	طيور	حمام		دجاج	بط	رومي		أرانب
النوع	حي مستضعف	حي مستضعف	حي مستضعف	حي مستضعف	زيتي ميت	زيتي	ميـــــت		سائل ميت	زيتي ميت
سن التحصين المناسب	شهر ونصف	من ١ ـ ٩ يوم	شهرين	شهرين	شهرين	شهرين	شهرين	شهرين	شهرين	شهرين
الدواجن التي تحصن	دجاج ورومي	كتاكيت دجاج ورومي	دجاج ورومي	حمام	دجاج ورومي	دجاج	بط	رومي	دجاج ورومي	أرانب
التعبئة	أمبولات ١٠٠ و ٥٠٠ جرعه	أمبولات ١٠٠ و ١٠٠٠ جرعة	أمبولات ١٠٠٠ جرعة	١٠٠٠ جرعة	زجاجة ٣٠٠ جرعة	زجــاجات		٣٢٠	جـــرعـــة	
النقل	على الثلج	على الثلج	على الثلج	على الثلج	على الثلج					
التخزين	في الفريزر عن شهرين	لمدة لا تزيد من تاريخ استلامها	فريزر الثلاجـــة		على الثلج					
المذيب	محلول ملح ماء مقطـــر	فسيولوجي أو	محلول ملح	فسيولوجي						

تابع : لقاحات الدواجن

اللقاح	لقاحات فيروسية					لقاحات بكتيرية				
	نيوكاسل		جدري		طاعون طيور	كوليرا			زهري طيور	تسمم دموي
	عضلي	عيني	طيور	حمام		دجاج ،	بط	رومي		ارانب
مقدار المذيب	١٠٠ سم٣، ٥٠٠ سم٣	٥ سم٣ ، ٥٠ سم٣	٢٥ سم٣	٢٥ سم٣						
مدة الصلاحية اللقاح المحلول	ساعتان	ساعتان	ساعتان	ساعتان						
مكان الحقن	عضلة الفخذ	تقطير في العين	وخز بأسفل جلد الجناح	تزال ٥ ريشات بالفخذ ثم يوضع اللقاح مكانها بفرشاة	بين الفخذ والبطن	تحت	جلد	الرقبة	العضل	تحت الجلد
الجرعة	١ سم٣	نقط في العين	٣ وخذات بأسفل جلد الجناح	——	½ سم٣ للدجاج ١ سم٣ للرومي	١ سم ٣	١ سم ٣	١ سم ٣	١سم٣	½ سم٣

القابلية للعدوى :

جميع الأعمار الصغيرة تصاب بنسبة أكثر بالنوع الحاد مع حدوث نسبة وفيات عالية وفى الحيوانات متوسطة العمر والكبار تصاب بالنوع تحت الحاد والمزمن مع نسبة وفيات منخفضة .

طرق نقل العدوى :

تحدث العدوى من خلال الجهاز التنفسى بواسطة الإفرازات الجافة أو المبللة الناتجة عن الأرانب المريضة . تنتقل العدوى من الأم إلى أولادها خلال الأيام الأولى من الولادة .

تنتقل العدوى من مزرعة إلى مزرعة ثانية بطريق الهواء أو آلياً بواسطة العمال – الفئران – الذباب .

الأعراض المرضية وسير المرض :

١ – النوع الحاد :

فى أول مراحل المرض يمتنع الأرنب عن الأكل ويبدو خاملا ويميل للنوم ، شعر الفروة يصبح غير مرتب . مع شعور بعطش شديد .

سرعان ما تظهر أعراض متاعب الجهاز التنفسى فى صورة زكام ونزول إفرازات من الأنف – كحة بعد أن يحدث التهاب الملتحمة مع نزول دموع بغزارة .

سير المرض :

يستغرق فترة قصيرة تتراوح من ٤ – ٧ أيام .

٢ - النوع تحت الحاد .

أعراض متاعب الجهاز التنفسى تشبه أعراض النوع الحاد ولكن إفرازات الأنف تصبح مصلية متقيحة مع هزال مستمر .

سير المرض :

يستمر من ٣ - ٤ أسابيع .

٣- النوع المزمن :

توجد انتفاخات تحت الجلد يمكن جسها بسهولة وتكون محتوياتها سميكة القوام كريمية اللون تشبه الصديد . الحيوانات يصيبها هزال شديد . وقد يحدث عقم .

التشخيص : يتوقف على :

١ - تاريخ الحالة .

٢ - الصفة التشريحية .

٣ - عزل الجرثومية المسببة للمرض والتعرف عليها .

العلاج :

١ - بالمضادات الحيوية : داى هيدروستر بتومايسين ١٠٠ مجم / ك لمدة ٣ أيام .

٢ - أوكسى تتراسيكلين ٠,٤٪ من العليقة لمدة ٧ أيام .

الوقاية :

١ – إجراءات صحية .

٢ – عزل الحيوان المريض فوراً .

٣ – استخدام المضادات الحيوية بجرعات مضبوطة للوقاية والعلاج .

النزلة المعوية :

يصيب هذا المرض الرضع الجدد ويتميز بإسهال شديد ووفيات كثيرة .

المسبب :

١ – عصيات القولون .

٢ – الظروف المهيئة : البرد – عدم العناية عند تغيير نوعية الطعام من اللبن إلى الغذاء الجاف – كذلك تهاجم الجراثيم عندما تقل مقاومة الحيوان لأى سبب .

القابلية للعدوى :

من سن ٤ – ١٢ أسبوعا وخاصة سن ٥ – ٧ أسابيع فتكون نسبة الإصابة عالية .

طرق العدوى :

التهام طعام أو ماء ملوث بالجراثيم المسببة للمرض .

مدة الحضانة :

(الطبيعية) غير معروفة .

الأعراض :

١ – فى النوع فوق الحاد : تحدث وفاة فجائية دون أى أعراض .

٢ – فى النوع الحاد : فقدان الشهية – مظهره أشعث – عدم الميل للحركة – إسهال مائى – البراز يحتوى على مخاط أو يكون مصبوغاً بالدم .

٣ – فى آخر مراحل المرض يحدث جفاف للجسم وضعف مع انخفاض فى درجة الحرارة وإسهال ووفاة .

التشخيص :

١ – تاريخ الحالة .

٢ – عزل الجراثيم المسببة للمرض .

العلاج :

إجراء اختبار حساسية للجراثيم المسببة للمرض مع المضادات الحيوية نيوميسين – ستربتوميسين – تيراميسين – مركبات السلفا .

التحكم فى المرض :

١ – عزل الحيوانات المريضة .

٢ – الإجراءات الصحية المعروفة .

٣ – عدم إرهاق الحيوانات

٤ - علائق مضاف إليها مضادات حيوية .

السالمونيلوزيس :

هى عدوى معوية فى الأرانب الصغيرة وتتميز بإسهال ونفاخ .

المسبب :

جراثيم السالمونيلا وخاصة سالمونيلا تيفى موريم .

طرق انتقال العدوى :

التهام الطعام أو الماء الملوث .

الأعراض :

أول الأعراض هبوط عام – شعر الفروة يكون أشعث – عدم الميل للحركة فقدان للشهية – نفاخ – إسهال أصفر اللون – حمى – زكام .

نسبة الوفيات :

من ١٠ – ٤٠٪ .

التشخيص :

١ – تاريخ الحالة – الأعراض - الصفة التشريحية .

٢ – عزل الجراثيم المسببة للمرض .

العلاج :

يكون بالمضادات الحيوية (تيراميسين – نيوميسين) .

التحكم فى المرض ومنع انتشاره .

١ – عزل الحيوانات المريضة .

٢ – إجراءات صحية من نظافة يومية – عزل – تطهير .

٣ – تجنب وجود الكلاب – القطط – القوارض ودخولها مساكن الأرانب .

٤ – استخدام الأدوية السلفا – المضادات الحيوية فى جرعات وقائية .

السل الكاذب :

مرض منتشر بين الأرانب .

المسبب :

باستيريلا نظيرة السل .

طرق نقل العدوى :

التهام المواد الملوثة بروث الفئران المريضة أو الأرانب المريضة .

الأعراض :

هزال مستمر مع تكوين خراريج فى النسيج تحت الجلدى .

التشخيص :

ويعتمد على :

١ - تاريخ الحالة .

٢ - الأعراض المرضية .

٣ - العزل الجرثومى والتعرف على الجرثومة .

منع انتشار العدوى :

ويكون بواسطة :

١ - منع تلوث الغذاء بروث القوارض .

٢ - الإجراءات الصحية العامة .

٣ - الأرانب التى تظهر عليها أعراض إيجابية للمرض يجب إعدامها .

مرض الليستريوزيس :

مرض الأرانب تامة النمو . ويتميز بإجهاض أو عدم الولادة فى الميعاد المحدد مع وجود أعراض الإصابة فى الجهاز العصبى .

المسبب :

ليستريا وحيدة النواة .

طريقة نقل العدوى :

وتكون من خلال التهام طعام أو ماء ملوث .

الأعراض المرضية :

الإناث الحوامل لا تلد فى الميعاد المضبوط أو ربما تصاب بإجهاض وتظهر أعراض اضطراب عصبي فى صورة ميل الرأس إلى الجانب مع السير فى دوائر والتقلب على الأرض .

التشخيص :

١ – تاريخ الحالة .
٢ – بالأعراض المرضية والصفة تشريحية .
٣ – اختبارات مصلية .

العلاج :

بواسطة التتراسكلين .

منع انتشار المرض :

يكون بواسطة :

١ – إجراءات صحية عامة .
٢ – منع تلوث الطعام بمسببات المرض .

الباستيريللوزس (التسمم الدموى) :

وهو مرض معد سريع الانتشار .

المسبب :

باستيرليلا مالتوسيدا .

طرق نقل العدوى :

١ - بتناول الأغذية أو شرب المياه الملوثة بالجراثيم المذكورة .

٢ - البقاء مع الأرانب مصابة بالمرض .

الأعراض :

فى النوع الحاد :

١ - فقدان الشهية .

٢ - عدم الميل للحركة .

٣ - سرعة التنفس .

٤ - الوفاة خلال ٢٤ - ٤٨ ساعة .

فى النوع المزمن :

توجد أورام تحت الجلد - تكبر تدريجيا وتتقيح ويتجبن الصديد بداخلها .

الصفة التشريحية :

نلاحظ احتقاناً شديداً بالأمعاء والأعضاء الداخلية .

التشخيص :

بالفحص المخبرى وعزل المسبب الجرثومى .

العلاج :

يمكن تحقيق نسبة من الشفاء بواسطة :

١ - استخدام مركبات السلفا

٢ - حقن عضلى للبنسلين والستربتوميسين.

٣ - باستخدام المصل المضاد.

الوقاية :

تحصين الأرانب مرتين فى السنة (مايو - ديسمبر) باستخدام لقاح التسمم الدموى (٠,٥ سم).

وهذا يحقق مناعة لمدة ستة أشهر.

ملحوظة :

يلزم عزل المصاب والتخلص من النافق بالحرق وتطهير مساكن الأرانب.

تنكرز الشفاه :

وهذا مرض معد :

المسبب :

جراثيم فيوز فورمس نيكروفورس

طرق انتقال العدوى :

١ – من خلال الجروح .

٢ – عن طريق تناول أغذية أو مياه ملوثة .

الأعراض :

١ – نزول إفرازات مائية من الأنف .

٢ – قد تتكون مادة متجبنة يميل لونها إلى الإخضرار فى مكان الجرح .

٣ – ارتفاع درجة الحرارة .

٤ – الخمول .

٥ – الهزال .

٦ – الوفاة .

الصفة التشريحية :

١ – عند قطع الشفة السفلى المتورمة نلاحظ وجود كتلة متكرزة (بيضاء تميل إلى الإصفرار) .

٢ – تتكرز عظام الفك الأسفل المجاورة لمكان الإصابة .

٣ – توجد سوائل مدممة فى فراغات الصدر والبطن .

٤ – التهاب رئوى .

٥ – تورم الغدد الليمفاوية بالعنق .

التشخيص بواسطة :

١ – الأعراض المميزة أكلينيكيا .

٢ – الفحص المخبرى .

العلاج :

لا تحدث استجابة له .

التحكم فى المرض :

١ – التخلص من المصاب .

٢ – حرق ودفن النافق .

٣ – تطهير المساكن .

٤ – فور حدوث أى جرح يلزم العناية به .

٥ – مراعاة الناحية الصحية والنظافة فى الطعام والشراب .

•

زهرى الأرانب :

هذا مرض معد

المسبب :

نوع من اللولبيات

مدة الحضانة :

٢ - ٨ أسابيع

الأعراض :

١ - توجد بثرات صغيرة (فى حجم حبة البازلاء) على الأعضاء التناسلية الخارجية .

٢ - تتقرح هذه البثرات وتصبح مغطاة بقشرة لونها بنى .

٣ - ربما يصاب الجهاز الهضمى والتنفسى .

٤ - أحيانا تظهر إصابة بالعين - الأنف - الشفتين .

التشخيص :

بالفحص المخبرى :

العلاج : .

١ - باستخدام البنسلين ٢٠,٠٠٠ وحدة دولية يوميا لمدة ثلاثة أيام .

٢ - غسل القروح بواسطة محلول بوريك تركيز ٣٪ (بعد قص الشعر) ثم دهان المكان المصاب بمرهم زئبق تركيز ٥٪ .

الوقاية :

١ - عزل المصاب .

٢ - إيقاف عملية التلقيح بالنسبة للمصاب .

٣ - الفحص الجيد لجميع الأرانب المراد إدخالها إلى المزرعة .

الأورام الصديدية :

وهذه تحدث فى صورة إصابات فردية .

السبب :

المكورات السبحية – العنقودية وكذلك جراثيم قيحية أخرى .

الأعراض :

١ – عادة يصاب الفك الأسفل أو أحد جانبى الرأس .

٢ – عند إصابة الغدد اللبنية تلتهب حلمات الضرع ويتزل منها إفرازات صديدية (تمتنع فى هذه الحالة الأنثى عن إرضاع نتاجها) .

٣ – إذا أصيب الرحم – عندئذ تنزل من المهبل إفرازات صديدية وقد يتسبب ذلك فى عدم الحمل .

العلاج :

١ – باستخدام البنسلين (٢٠,٠٠٠ وحدة) والأستربتوميسين ٠,٢ جم لمدة ثلاثة أيام .

٢ – جراحياً مع استعمال المطهرات وعمل غيارات على المكان مع استخدام بودرة السلفا .

٣ – بالنسبة لحلمات الضرع – يجب إفراغ الإفرازات الصديدية يومياً برفق .

٤ – يجب غسيل الأجزاء التناسلية فى الأنثى بماء الأكسجين (تركيز ٥٪) .

السل :

مرض معدى ذو طبيعة مزمنة نادر الحدوث فى الأرانب .

المسبب :

يمكن الإصابة بالمرض نتيجة جرثومة السل البقرى أو الطيرى .

طرق نقل العدوى :

عن طريق الجهاز التنفسى والهضمى .

الأعراض :

١ - الهزال .

٢ - الضعف .

٣ - تناقص الوزن باستمرار .

٤ - النفوق .

الصفة التشريحية :

١ - توجد درنات سلية بالرئتين أو الأمعاء أو الكبد وربما الكلى .

٢ - تتضخم الغدد الليمفاوية .

التشخيص :

مخبرياً : .

التحكم فى المرض :

١ – التخلص من المريض .

٢ – تطهير مساكن الأرانب بمحلول فينك (٥٪) .

٣ – يراعى عدم تقديم لبن الماشية المصابة بالسل للأرانب .

٤ – كذلك يراعى تعقيم اللبن قبل تقديمه لتغذية الأرانب .

الأمراض الفيروسية

جدرى الأرانب :

مرض وبائى يحدث نادراً .

المسبب .

فيروس .

طرق نقل العدوى :

الاتصال المباشر وغير المباشر عن طريق الجهاز الهضمى والتنفسى .

الأعراض المرضية :

١ – نقص فى الشهية إلى الطعام .

٢ – ارتفاع فى درجة الحرارة .

٣ – التهاب الجفون والعيون .

٤ – التهاب الخصية فى الذكور .

٥ – توجد أطوار المرض المعروفة . (حبيبات – فقاقيع – بثرات قشور) على الأذنين – الغشاء المخاطى للفم وعلى اللسان .

العلاج :

١ – غسل العيون بمحلول بوريك ٤٪ .

٢ – دهن الأماكن المريضة بالجلسيرين وبعد سقوط القشور يجب دهنها بصبغة اليود .

التحكم فى المرض :

١ – حرق النافق .

٢ – ذبح الأرانب شديدة الإصابة .

٣ – تطهير المساكن .

الأورام الحلمية فى الفم :

مرض معدى .

المسبب :

فيروس :

الأعراض :

توجد أورام (حلمات) صغيرة أو عنقودية أو منتشرة على سطح اللسان الأسفل .

الوقاية :

يراعى عدم السماح برضاعة الصغار من أمهات مصابة ويجب إرضاعهم صناعيا أو من أم أخرى .

التواء الرقبة :

وهذه الظاهرة تصاحب بعض الأمراض مثل :

١ - الجرب فى الأذن

٢ - الإصابة بمرض الليستريا .

٣ - التسمم الغذائى .

٤ - وجود حويصلات الديدان الشريطية بين عضلات الرقبة .

الأمراض غير المعدية :

عسر الهضم :

هذا يعنى اضطراباً هضمياً ربما يكون مكانه المعدة أو الأمعاء حيث توجد العمليات الهضمية .

المسببات :

١ - أخطاء غذائية (إفراط فى الطعام - تغيير فجائى بين عليقة خضراء وغذاء جاف) .

٢ - نوعية الغذاء .

٣ - ضعف عضلات المعدة وتمددها .

الأعراض :

١ – قلة كمية البراز وجفافه نسبيا .

٢ – خمول عام .

٣ – ضعف .

٤ – جفاف الجلد .

٥ – خشونة الشعر .

العلاج :

١ – إزالة المسبب الأولى .

٢ – تقديم عليقة خضراء .

٣ – إعطاء مليّن أو مسهل بحسب الحالة (زيت خروع مقدار ملعقة شاى للأرنب) .

النفاخ :

تحدث هذه الحالة كثيراً فى الأرانب .

الأسباب :

١ – تخمر الغذاء فى المعدة .

٢ – تناول برسيم أو حشائش مبتلة .

٣ – أكل نباتات خضراء غير تامة النمو .

الأعراض :

١ – انتفاخ البطن .

٢ – الامتناع عن الأكل .

٣ – صعوبة التنفس .

التشخيص :

١ – بالأعراض المرضية .

٢ – بالتشريح المرضى

العلاج :

١ – تدليك جانب البطن تدليكاً هادئاً .

٢ – إعطاء مسهل (زيت خروع) .

٣ – إعطاء أقراص فحم للمساعدة على امتصاص الغازات .

الإمساك :

من الطبيعى أن يعنى هذا توقفاً فى حركات الأمعاء الطبيعية وبالتالى تبقى محتويات الأمعاء مدة أطول عن المعتاد فتجف .

الأسباب :

١ – نقص الإفرازات الهاضمة بالأمعاء .

٢ – خمول الكبد وقلة الصفراء .

٣ – ضعف الأمعاء .

الأعراض :

١ – البراز (الزبل) جاف جدا صغير الحجم وقليل العدد .

٢ – رائحة (الزبل) كريهة ويكون مغطى بالمخاط (فى صورة سبحة) .

٣ – خشونة الشعر .

٤ – الضعف .

العلاج

١ – بإعطاء مسهّل (زيت خروع – ملعقة شاى) .

٢ – إعطاء كبريتات الماغنسيوم .

٣ – تقديم علف أخضر .

٤ – توفير ماء الشرب النظيف ويستحسن إضافة كمية بسيطة جداً من كبريتات الماغنسيوم له لمدة يومين أو ثلاثة .

الإسهال :

وتلاحظ هذه الحالة بوجود براز ليّن – سائلى كريه الرائحة مع تلوث المنطقة حول الشرج .

الأسباب :

١ – أخطاء التغذية (تغيير فجائى لعليقة خضراء أو تقديم غذاء تالف) .

٢ – تناول مواد غريبة (سامة أو مهيجة) .

٣ – برودة المكان الذى توجد فيه مساكن الأرانب .

٤ – فى حالة الإصابة بالأوليات (كوكسيديا) .

٥ – فى حالة الإصابة بالطفيليات المعوية

٦ – عدوى معوية .

الأعراض :

١ – براز لين – مائى – كريه الرائحة .

٢ – تتكرر عملية البراز عدة مرات .

٣ – فقدان الشهية .

٤ – ضعف عام .

٥ – هزال .

التشخيص :

بتاريخ الحالة وبالفحص المخبرى

العلاج :

١ – إزالة المسبب الأولى للمرض .

٢ – إيقاف تقديم عليقة خضراء .

٣ – ماء شرب نظيف .

٤ – إعطاء العلاج المناسب بالنسبة للمسبب .

٥ – الاكتفاء بإعطاء خبز ولبن مخفف فى الفترة الأولى من العلاج .

الألتهاب الرئوى :

تحدث هذه الحالة كثيرا فى الأرانب الصغيرة السن .

الأسباب :

١ – التعرض للبرد أو بناء مساكن الأرانب فى مكان تتعرض فيه للتيارات الهوائية (المساكن سيئة التهوية) .

٢ – إهمال النظافة فيتراكم البراز والبول ويتصاعد غاز النشادر الذى يتسبب فى هياج الأغشية المخاطية للجهاز التنفسى .

٣ – تصاحب هذه الحالة بعض الأمراض المعدية .

الأعراض :

١ – رشح أنفس .

٢ – عطس .

٣ – سقوط دموع من العين .

٤ – صعوبة فى التنفس .

٥ – خمول .

٦ – ارتفاع درجة الحرارة .

٧ – نفوق .

التشخيص :

١ – بالأعراض المرضية :

٢ – بالصفة التشريحية فنلاحظ إصابة الرئتين .

العلاج :

١ – مضادات حيوية .

٢ – تهوية جيدة للمسكن .

٣ – نظافة جيدة .

٤ – ماء شرب نظيف .

٥ – غذاء سهل الهضم .

البول الدموى :

تحدث هذه الحالة فى الأرانب نتيجة لوجودها فى أماكن رطبة وتعرضها للتيارات الهوائية فتلتهب الكليتان أو المثانة .

الأعراض :

البول يتغير لونه إلى اللون الأحمر .

العلاج :

١ – وضع الحالات المريضة فى مكان دافئ مشمس .

٢ – ماء الشعير للشرب .

٣ – الشعير المسلوق ذاته للغذاء .

٤ – وضع مطهر للمجارى البالية فى ماء الشرب (سالول – يوروتروبين) .

الأمراض المسببة بالطفيليات الخارجية

الجرب :

اولا – جرب الأذن :

طرق انتقال العدوى :

بالملامسة المباشرة أو غير المباشرة.

الأعراض المرضية :

١ – التهاب شديد فى الأذن الخارجية . .

٢ – تواجد إفرازات بنية اللون – سميكة – كريهة الرائحة . تملأ الأذن من الداخل .

٣ – عندما تجف هذه الإفرازات تكوّن قشوراً .

٤ – يهز الحيوان رأسه ليتخلص من هذه الإفرازات ويحك المكان المصاب بأرجله .

٥ – فى الأماكن المصابة بشدة توجد قرحات .

٦ – إذا تركنا الحيوان بدون علاج فإن الطفيل يسبب تلفاً شديداً فى الأذن الوسطى والأذن الداخلية وربما يمتد ذلك إلى المخ فنجد الحيوان يُميل رأسه فى وضع مائل ويتحرك وهو مائل حول نفسه .

٧ – تصاب الأرانب بهزال .

التشخيص :

١ - الأعراض المرضية .

٢ - بفحص المكان المصاب وأخذ عينة وفحصها مجهريًّا للبحث عن الطفيل .

ثانيا - جرب الجسم

المسبب :

ساركوبتس :

طرق نقل العدوى :

باللمس المباشر وغير المباشر.

الأعراض :

١ - وجود قشور أرجوانية صفراء .

٢ - تصبح هذه القشور بنية اللون وتوجد هذه القشور على جلد الأنف والشفة العليا .

٣ - الحيوان المريض يحك بأرجله الأماكن المصابة ومن هنا يبدأ انتشار المرض إلى الأرجل .

٤ - حك المناطق المصابة يتسبب عنه إحداث جروح .

٥ - يمتد المرض إلى أجزاء مختلفة من الجسم فى الحيوانات المصابة بعده

٦ - الهزال .

٧ - الوفاة .

التشخيص :

١ – الأعراض المرضية .

٢ – الفحص المجهرى لعينة مأخوذة من المكان المصاب .

العلاج :

١ – فى حالة جرب الأذن :

(ا) تطهير الأذن بلطف بقطنة مغموسة فى ماء الأوكسيجين أو الجليسرين .

(ب) إدخال قطنة معموسة فى أحد الأدوية التالية كل ٥ – ٦أيام .

– كريزول أو حامض كربوليك جزء واحد .

– برافين سائل ٢٠ جزءاً .

– تتيموسول ١ : ٣

أوديلين فى ماء ١ – ٣

فى حالة جرب الجسم :

(ا) احلق المكان المصاب وحوله .

(ب) إزالة القشور من المكان المصاب بفرشاة جافة (سكين) مغموسة فى ماء دافئ وصابن .

(ج) جفف جيداً وضع أحد الأدوية التالية :

تيتموسول ١ : ٣

أوديلين ١ : ٣

تعطى التعليمات الخاصة بكل دواء . .

التحكم فى المرض ومنع انتشاره :

علاج الأرانب المصابة بشدة غير ذى فائدة ويستحسن التخلص منها مع تطهير المكان تماما وعزل السليم بنقله إلى أماكن نظيفة .

الأمراض المسببة بالأوليات

كوكسيديا الأرانب :

هذا المرض يكون حادا – تحت الحاد – مزمناً . وهو مميت ويتميز بإسهال مع نفاخ وزيادة فى إفراز اللعاب وهو نوعان :

(أ) كبدى .

(ب) معوى .

المسبب :

طفيل أولى – إيميريا .

الإيميريا التى تسبب النوع الكبدى تتم أطوار نموها فى الخلايا الظهارية التى تبطن القنوات المرارية .

الإيميريا التى تسبب النوع المعوى تتم أطوار نموها فى الخلايا الظهارية التى تبطن الغشاء المخاطى للأمعاء .

القابلية للعدوى:

ابتداء من الولادة وحتى سن ٥ أسابيع تكون الإصابة أكثر وأشد .

بعد سن ٨ أسابيع فأكثر تقل الإصابة ويتكون نوع من المناعة التى تنتج عن عدوى سابقة مضعفة .

طرق نقل العدوى :

خلال التهام الطعام أو الماء الملوث بالطور المعدى .

الأعراض :

١ – النوع الكبدى : تظهر الأعراض بعد ١٦ – ١٧ يوماً من ابتداء الإصابة .

(ا) كوكسيديا الكبد الحاد :

١ – شهية متغيرة

٢ – إسهال متناوب مع إمساك

٣ – شحوب الأغشية المخاطية الفمية والعينية .

٤ – هزال مستمر

٥ – وفاة .

(ب) كوكسيديا الكبد تحت الحادة :

١ – إمساك نادراً ما يحدث إسهال .

٢ – هزال مستمر .

٣ – نفاخ .

٤ – الكبد المتضخم يمكن إحساسه إذا كان الحيوان مصاباً بهزال شديد .

٥ – فقر دم .

٢ – النوع المعوى : تظهر الأعراض بعد ٤ – ٥ أيام من ابتداء الإصابة .

(ا) النوع الحاد :

١ – هبوط شديد – شهية متغيرة – إسهال .

٢ – سير المرض لمدة قصيرة ٢ – ٣ أيام .

٣ – وفاة – نسبة الوفيات ٧٥ – ٩٠٪ .

(ب) :النوع تحت الحاد :

١ – نفاخ .

٢ – إسهال مائى والبراز يلوث قوائم الأرنب الخلفية .

٣ – زيادة فى إفراز اللعاب .

٤ – هزال .

٥ – تشنجات – غيبوبة – وفاة .

(ج) النوع المزمن :

١ – إسهال وإمساك .

٢ – هزال شديد .

٣ – شلل بسيط ثم شلل كامل للقوائم الأمامية والخلفية .

التشخيص :

يعتمد على :

١ – وجود الطور المعدى فى البراز .

٢ – من الحيوانات الميتة بفحص مسحات من الكبد (نوع كبدى) أو مسحات من الأمعاء (نوع معوى) لاكتشاف الطور المعدى .

العلاج :

إن مركبات السلفا تمثل أهم المواد المؤثرة فى الكوكسيديا .

التحكم فى المرض :

١ – عزل المريض عن السليم .

٢ – الإجراءات الصحية للتخلص من الأرانب الميتة .

٣ – تنظيف منازل الأرانب بمحلول أمونيا ٣٪ .

٤ – استعمال السلفا فى جرعات علاجية لعلاج الحيوانات المريضة وفى جرعات وقائية تطبيق الإجراءات الوقائية .

تقوم الأرانب بدور العائل الوسيط لأنواع من الديدان الشريطية التى تصيب الكلاب .

الأمراض المسببة بالطفيليات الداخلية

١ – سيستى سيركوزس

هو إصابة الأرانب بالطور اليرقى للديدان الشريطية بيريفورمس .

طرق انتقال العدوى والأمراض :

تصابُ الأرانب نتيجة التهام الطعام أو الشراب الملوث ببراز الكلاب الذى يحتوى على بيض الديدان الناضجة ، وعند وصول البيضة إلى معدة الأرنب فإنه يهضمها ويخرج منها جنين يصبح حرًّا ويصل إلى الكبد بعد ذلك خلال الدم ،

ومن خلال النسيج الحشوى للكبد يهاجر فى حركات تموجية مسبباً تلفاً فى الأنسجة الكبدية ويحل محل النسيج الحشوى للكبد نسيج ضام . ثم يذهب الجنين إلى فراغ البريتون ليسكن هناك فى الثرب حيث ينمو الكيس فى صورة مثانية فى حجم حبة البسلة .

الأعراض :

هبوط – فقدان شهية – موت فجأة بسبب الهجمة المكثفة للطفيل .

الآثار المرضية :

يظهر على الكبد خطوط أرجوانية متموجة . وأحياناً نجد الأكياس فى الثرب المصاب .

التشخيص :

بإجراء الصفة التشريحية :

٢ – سينيورزس

تقوم الأرانب بدور العائل الوسيط فى الإصابة بالطور اليرقى لدودة مالتيسبس سيرياليس أو تينياسينيورس .

طرق نقل العدوى :

تصاب الأرانب نتيجة التهام الطعام أو الماء الملوث ببراز الكلاب المصابة بهذه الديدان . وبعد هضم البيض فى المعدة يخرج الجنين الذى يذهب إلى النسيج تحت

الجلد فى منطقة الظهر فى حالة (مالتيسبس سيرياليس) ونسيج المخ فى حالة (تينياسينيورس) .

الأعراض :

فى حالة إصابة نسيج الظهر لا تظهر أعراض مرضية . وفى حالة إصابة المخ تظهر أعراض عصبية .

العلاج :

فى حالة وجود حيوان ثمين يمكن إزالة الأكياس الموجودة فى منطقة الظهر جراحيا .

٣ - اكينوكوزس :

هذه الحالة تعنى الإصابة بالطور اليرقى للدودة الشريطية اكينوكوكس حيث يذهب الجنين بعد هضم جدار البيضة إلى الأمعاء ، ومن الأمعاء يذهب إلى الكبد خلال الوريد البابى حيث ينمو فى صورة أكياس .

التحكم فى منع انتشار المرض :

١ - منع دخول الكلاب إلى أماكن تربية الأرانب ومنعها من تلويث الأغذية الخضراء التى تقدم للأرانب .

٢ - إعدام جثث الأرانب الميتة :

الأمراض الفطرية

السعفة :

تصاب الأرانب أحيانا بمرض طفيلى يسمى السعفة .

السبب :

ترايكوفيتون أو اكوريون .

الأعراض :

تظهر على الوجه والأذن بقع دائرية بيضاء خالية من الشعر وهذه البقع تصبح مغطاة بقشور حرشفية ونقط حمراء فى مكان خلايا الشعر .

التشخيص :

يعتمد على عزل مسببات المرض .

العلاج :

١ – عزل الأرانب المصابة .

٢ – فى الحالات الثمينة : يجب حلاقة الشعر حول الأماكن المصابة وحرق هذا الشعر .

٣ – وضع صبغة يود أو ١٠٪ محلول حامض ساليسيليك كحولى لمدة أسبوع .

القراع :

المسبب :

ميكروسبورم أودونى

الأعراض :

وجود مساحات دائرية خالية من الشعر .

العلاج :

١ – إعدام المصاب .

٢ – يمكن علاج الأنواع الثمينة بكثير من الاحتياجات الواجبة وذلك باستخدام قاتلات الفطريات المرضية (جريزوفالفين بالفم – مراهم خاصة أو تركيزات خاصة من صبغة اليود) بعد إعداد المكان المصاب جيداً لوضع الدواء .

٣ – تطهير أماكن التربية .

العلاج :

بإضافة كربونات الكالسيوم وفوسفات الكالسيوم وفيتامين (د) أو زيت السمك إلى الغذاء .

من أمراض النقص الغذائى فى الأرانب

الكساح :

هذا المرض يصيب الصغار .

الأعراض المرضية :

- شهية غير منتظمة
- إسهال متناوب مع إمساك .
- صعوبة الحركة .
- يميل للنوم لمدة طويلة .
- مفاصل الحيوان تكون ساخنة .
- انثناء العمود الفقرى .
- عظام الوجه تكون لينة ومنتفخة مما يؤدى إلى ضيق فى المسالك الهوائية ينتج عنها صعوبة فى التنفس .

علامات الرغبة الجنسية (الشبق) :

فى الأغنام : مدتها قصيرة

فى الكلاب : مدتها طويلة .

فى الفرس : تحدث كل ثلاثة أسابيع - يسيل من الفرج مادة ذات رائحة تهيج الذكر مع تحريك شفرتى الفرج والبظر - ويقل الميل للأكل أو الشرب مع الشعور بالقلق .

فى البقرة : يستمر يوماً إلى يومين وتمتنع البقرة عن الأكل وتثب على رفيقاتها رافعة ذيلها ، وتكثر من النعير وتحرك قائمتيها الخلفيتين .

فى الناقة : الصياح - عدم الاستقرار - إذا لم يتم الجماع تصبح شرسة وإذا رأت الذكر تفك رباطها . الذكر إذا أحس بالرغبة الجنسية يصوم ويرغد ويزبد ويصيح ويعض .

فى النعاج : تغير فى الطباع - كثرة التبول - تركب غيرها - ويستمر يومين -

الدورة الشهرية ومدة الحمل فى الحيوانات البرية

الحيوان	الدورة الشهرية	مدة الحمل
الإبل	من يوليو إلى أغسطس	٩ – ٩,٥ شهور ونصف الشهر
الظبي	سبتمبر	٩ شهور
الخنزير البرى	من نوفمبر إلى يناير	١٠ أيام
الذئب	من يناير إلى مارس	٩ أسابيع
أنثى النمر والأسد	كل ٨ – ٩ أسابيع	١٠٢ إلى ١١٢ يوماً
النسناس	كل أربعة أسابيع	٨ إلى ٩ شهور
الأرنب البرى	من فبراير إلى أغسطس	٤٢ يوماً
الغوريلا	شهريا	٢٧٥ يوماً

الحمل فى الحيوانات

أنواع الحيوانات	فترة الحمل فى الأيام	عدد الصغار (المواليد)
الخيل (الفرس)		
خلاف خيول التربية وجر الأثقال	٣٢٠ – ٣٣٥ عادة ٣٦٦	١
الحمارة	٣٤٨ – ٣٧٧ عادة ٣٦٢	١
الجاموسة	٣٠٠ – ٣١٧	١
البقرة	٢٧٩ – ٢٨١ عادة ٢٨٠ = ٤٠ أسبوعاً	١
الغنم (النعجة)	٤٤ – ١٥٦ عادة ١٥٠	١ – غالبا ٢
الماعز	١٤٦ عادة ١٥٠	٢
الكلاب	عادة ٦٣ (٦٢ ½) وفترة الحمل أقصر من الفصائل الصغيرة يمكن أن تمتد فترة الحمل إلى ٦٨ يوماً فى الكلبات العزبة (تحمل لأول مرة) .	عدد المواليد ٥ – ١٠ فى السلالات المتوسطة عدد المواليد ٨ – ١٢ فى السلالات الكبيرة عدد المواليد ٢ – ٤ فى السلالات الصغيرة
القطط	٥٦ – ٦٠	عدد المواليد ٤ – ٦
الجمل (الناقة)	١٣ شهراً	١

علامات الوضع :

١ – ارتخاء العضلات الخلفية ٢ – تضخم الثدى ٣ – توتر الحلمات مع خروج سائل مصلى منها ٤ – يحتقن الفرج ويرتخى ويسيل منه سائل مخاطى لزج ٥ – قلق وعدم استقرار ٦ – امتناع عن الأكل ٧ – القيام والرقاد ٨ – تحريك الذيل ٩ – ازدياد فتحة الرحم .

علامات الحمل

١ – تنقطع علامات الشبق .

٢ – رفض الذكر .

٣ – زيادة السمنة وتحسن صحتها .

٤ – كبر البطن تدريجيًّا .

٥ – قلة إدرار اللبن بالماشية كلما تقدم الحمل .

العناية بالحامل

١ – غذاء كامل نظيف خال من أى تعفن أو تلف ,وسهل الهضم .

٢ – تجنب إيذاء الحيوان أو إجهاده .

٣ – عدم إعطاء ملينات شديدة أو طاردات .

٤ – عدم إيقاع الحيوان بعنف على الأرض .

٥ – عدم الضغط على الجسم بشدة

٦ – رياضة بسيطة يوميا .

٧ – ماء نظيف متوفر دائما .

إرشادات عن تكاثر الحيوانات

بيان فترات الشبق والحمل والولادة والتلقيح فى الحيوانات المختلفة

الحيوانات	يتم ظهور الشبق الاول في سن :	السن الملائمة للتربية يكون من سن :	دورة الشبق (في الحيوانات) للنزو على الحيوانات
الخيـــل	١ ــ ٢ سنوات	الحصان ٣ سنوات	خلال الربيع والخريف كل ٣ ــ ٤ أسابيع
الماشية	٨ ــ ١٠ أشهر	البقرة ٥ر١ ــ ٢ سنة الثور ٥ر١ ــ ٧٥ر١ سنة	كل ٢٠ ــ ٢٢ يوما
الخنزير	٤ ــ ٥ أشهر	خنزير ــ خنزيرة ١٠ ــ ١٤ شهراً	كل ٣ ــ ٤ أسابيع
الغنـــم	٧ ــ ٨ أشهر	في السنة الاولى مبكرا بعد الشهر التاسع	كل ١٧ يوما كل ١٢ ــ ١٧ يوما من أواخر سبتمبر حتى يناير كانون الثاني ــ فبراير ولفترة قصيرة في الربيع .
الكلب	٧ ــ ٩ ــ أشهر	الكلبة ١ ــ ٥ر١ سنه في الشبق الكلب ٢ سنة	مرتين سنويا في فبراير ومارس اغسطس ــ سبتمبر
الجمـــل	٣ سنوات	٤ سنوات	كانون الثاني حتى آذار (يناير الى مارس)

دوام فترة الشبق	أول بعد الولادة	أفضل وقت للنزو (التلقيح)
الشبق القصير ١ ـ ٢ يوم الشبق الطبيعي ٨ ـ ١٠ أيام الشبق الطويل عدة أسابيع	٥ ـ ١٥ يوماً	احتمال الاخصاب في الفرس يكون غالبا مع التبويض اذا حدث النزو أو الامتناع خلال الساعات الاولى واقصاها ١٢ ساعة بعد التبويض، يحدث التبويض عادة في ٥ر١ ـ ٣ أيام قبل نهاية دورة الشبق .
١ ـ ٢ يوم	٣ ـ ٨ اسابيع	أفضل وقت للاخصاب بين النزو (أو الامناء) والتبويض في البقر يكون ٩ ـ ١٦ ساعة بمعدل ٦ ـ ٨ ساعات . وبما يسبب التبويض بسهولة في البقرة ضغط الحويصلة المتفجرة أو المتمزقة خارجا من مكانها (الى الخارج) وهذا سوف يكون أجرى فقط بعد خمود الشبق .
٣٠ ـ ٤٠ ساعة (٢ ـ ١٥ أيام)	٥ أيام بعد فطام رضيع (صغير الخنزير)	ثاني يوم من الشبق
٣ أيام	الخريف ١٧ يوماً في الخريف	ثاني يوم من الشبق ثاني يوم من الشبق معتمدا على وقت الولادة (الربيع ـ الشتاء ـ الصيف ـ الخريف) .

فترة الإرضاع فى بعض الحيوانات (المستأنسة)

أنواع الحيوانات	أسابيع
المهر والخيل	١٢ — ٢٠
مهر صغير (الحمار)	١٢ — ٢٠
العجل (من أجل التربية)	٨ — ١٠
العجل (من أجل اللحم للذبح)	٤ — ٦
الحمل (الغنم)	٦ — ١٢
توأم حمل ضعيف	حتى ١٦
جدى (الماعز) الأنثى (سخلة)	٤ — ٦ — ٨
جدى (الماعز) الذكر	١٢ —
صغير الخنزير (من أجل التربية)	٨ — ١٠
صغير الخنزير (من أجل التسمين)	٣ — ٤
الجرو (الكلب)	٦
القطة	٤ — ٦

البلوغ

البلوغ يعنى العمر أو السن التى سترپى (تتناسل) فيها الحيوانات المدة الطبيعية (بالأشهر) :

– نعجة (شاة)	٨ – ١٢ شهراً
– أنثى الخنزير	٤ – ٥ شهور
– بقرة	١٢ – ١٨ شهراً
–فرس	١٢ – ٢٤ شهراً
– كلبة	٧ – ٨ أشهر

تتبع هذه التغيرات حالة التغذية – الفصيلة – الفترة والطقس .

٢٧ – إرشادات عامة عن الكلاب

يعتقد بعض الناس أن تغذية الكلاب شيء سهل والحقيقة أن الكلاب تتقبل فى أول الأمر أى غذاء وتتعود عليه ، ولكن إن آجلا أو عاجلا تظهر نتائج سيئة .

مثل متاعب هضمية – هزال – سمنة مفرطة – متاعب فى الكلية – بعض أمراض جلدية – وخلافه .

–كمية وتكوين الغذاء يلزم أنْ تتناسب مع الحجم والسن وطبيعة حياة ونوعية الكلاب .

– عموماً يلزم تغذية الكلاب كبيرة الحجم مرتين فى اليوم بل أحياناً يمكن

تقديم وجبة واحدة للكلب يومياً مساء .

- يلزم تقديم الوجبات فى مواعيد منتظمة .

- يلزم توفر المياه طيلة اليوم وبخاصة فى الجو الحار .

- كمية الغذاء تعادل ٣ - ٥٪ من وزن الكلب .

- كلما صغر حجم الكلب زادت كمية الغذاء الواجب تقديمها له وكلما كبر قلت الكمية الواجب تقديمها له .

يجب زيادة البروتين للأنثى الحامل - يجب طهو اللحم الذى يقدم للحيوان حتى يسقط اللحم عن العظم - ويمكن إعطاء اللحوم نيئة للكلاب الصغيرة السن والأمهات - يجب إعطاء العظام الكبيرة للكلاب كمصدر للمعادن ، ويجب عدم تقديم عظام الأرنب والكتاكيت - يجب عدم تقديم العظام بكثرة حتى لا يتسبب ذلك فى الإصابة بالإمساك أو على الأقل فى تغير طبيعة البراز إلى طباشير - الخضروات تقدم من ثلاث إلى أربع مرات أسبوعياً (نيئة - مطبوخة)

(جزر - قرنبيط - كرنب - وهذه تعتبر مورداً جيداً للألياف والمعادن) (زيت كبد الحوت يقدم من سن ٤ إلى ٥ شهور كمصدر لفيتامين ا - د) .

التغذية فى الصحة والمرض :

ربما يتبادر للذهن أنه تبعاً لصغر معدة وحجم كلاب الزينة فهى تحتاج إلى كمية من الأكل أقل مما تحتاج إليه معدة الكلب الكبير .

وهذا فى الحقيقة يرجع إلى نشاطها الكبير وجهازها العصبى المتناسق لا يستطيع هذا النوع من الكلاب أن يؤقلم نفسه مع الغذاء الخشن الذى تستطيع أكله الكلاب الكبيرة ولذلك يلزم إعطاؤها غذاء جيداً عالى القيمة طازجا ذا نوعية راقية

وكذلك يلزم أن تتشكل نوعية الغذاء بصورة جيدة لكى يحتوى الطعام على كافة العناصر الغذائية المطلوبة .

الغذاء الذى يتكون كله من اللحم لا يترك بقايا فى الأمعاء وبالتالى يتسبب فى إحداث الإمساك والتهيج فى الجلد .

كذلك الغذاء الذى يتكون كله من خضروات يترك بقايا كثيرة فى الأمعاء والفائدة المتحققة منه بسيطة .

لذلك يلزم أن يكون الغذاء مكونا من النوعين ليتحقق الغرض المطلوب .

الحقيقة أن الطبيعة أحسن معلم وقد منح الله المخلوقات نعمة التذوق لكى تختار ما يتناسب مع مزاقها واحتياجاتها .

(اللحم – والسمك – والبيض – واللبن) يجب أن يتكون حوالى ٥٠٪ من الغذاء اليومى للكلب من هذه الأصناف .

يستحسن عند تقديم العظام أو اللحوم مخلوطة بالعظم أن تكون العظام ذات حجم كبير – حتى تكون غير سهلة الكسر ولا يجب أن نتركها أمام الحيوان مدة طويلة حتى لا يحاول تكسيرها وتتسبب فى إيذاء بلعومه أو قبته الهوائية أو معدته .

ولا يجب ترك العظام لمدة طويلة أمام الكلاب حيث يتسبب ذلك فى إحداث عسر فى الهضم .

السالمون والسردين غذاء جيد للكلاب الصغيرة – البيض يمكن إعطاؤه نيئاً مخلوطاً مع اللبن .

اللبن ومنتجات الألبان :

يعتبر غذاء لا يستغنى عنه فى تغذية الكلاب الصغيرة وبخاصة فى فترة النمو – الزبدة يمكن استخدامها فى جميع فترات حياة الكلاب .

– أي غذاء يتكون من منتجات الألبان يعتبر لائقاً لتغذية الكلاب الصغيرة .
ويعتبر اللبن غذاء جيداً فى فترة العلاج ضد الطفيليات الداخلية (الديدان) أو الإمساك أو التسمم الذاتى .

الغذاء الملين :

لكى نتعلم كيفية الاختيار الجيد للأغذية لتساعد العلاج فى أداء مهمته فيجب علينا أن نعلم ما هى الأغذية التى لها تأثير ملين – وما هى الأغذية التى لها خاصية عكسية . كذلك ما هى الأغذية سهلة الهضم والتى لا ترهق الجهاز الهضمى العليل .

اللبن : (بدون غلى) واللبن المتخمر لهما تأثير لين على الأمعاء ، ولذلك لا يجب إعطاؤهما فى حالات الديستمبر أو فى حالة تهيج الأمعاء ، فى هذه الحالة يلزم غلى اللبن حيث يكون له تأثير مبطئ يحدث نوعاً من الإمساك الخفيف .

كذلك من الأغذية الملينة التى تتكون من القمح – الكبد – الفواكه – الزبدة – الحبوب والخضروات الليفية .

كذلك المكرونة والأرز :

اللحوم من الأغذية المفيدة ويمكن إعطاؤها كطعام فى حالة الاضطرابات المعوية ويجب عدم تقديم اللحوم للكلاب فى حالتين اثنتين فقط (١ – بعد الجماع – ٢ – بعد العمليات الجراحية) تتسبب فى رفع درجة الحرارة وهذا غير مرغوب فيه .

فى فترة النقاهة يجب إعطاء الأغذية التى لا تلقى عبئاً على كفاءة أجهزة الجسم التى تكون مرهقة من أى مرض عام .

لذلك لا يجب أن ترهق المعدة حتى لا يترتب على ذلك الإساءة إلى الحالة

العامة للحيوان ، وتتأخر حالته ، ففى الالتهاب الرئوى والديستمبر (الأنفلونزا) أو أى مرض مرهق يجب إعطاء غذاء سهل الهضم فى كميات صغيرة وعلى فترات متكررة نسبياً (اللبن – الشوربة – البيض – كاستردة – توست) .

النشويات :

الخبز الأبيض لا ننصح باستخدامه – الخبز العادى جيد – الأرز يجب طهيه حتى يصير ليناً – ويمكن بسهولة ضغطه بين الأصابع (السبابة والإبهام)

كذلك يجب طهى المكرونة جيداً – الشعير يعتبر مفيداً جدًّا لو أحسن طهيه .

التغذية فى حالة الإمساك : .

عدم السماح بالتريض يسبب الإمساك – يجب أن تتعود الكلاب الصغيرة أكل الخضروات من بدء حياتها لما فى لذلك من أهمية لدورها الملين .

من الصعوبة أن يأكل الكلب أى خضروات مالم يأكل ذلك ويتعوده وهو صغير السن – الخضروات تحتوى أيضا على الفيتامينات والأملاح وهى ليست أصلا غذاء للكلاب ، لذلك يجب أن يتعـودها بأن تفرم مع اللحم وتقدم له فى سن صغيرة . اللبن الدسم له تأثير ملين فيستحسن إعطاؤه .

الخضروات والحلوى :

الخضروات تعتبر هامة جداً لما تحتويه من ألياف وهى تقوم بدور هام فى إحداث الليونة المطلوبة فى محتويات الأمعاء – يمكن استخدامها بصورة جيدة مع الأرز واللحم مع قليل من الشوربة .

يحسن تقديم الطماطم والبصل – كذلك الخس لو قطع إلى أجزاء رفيعة فيعتبر

غذاء جيداً ويعتبر تعويضاً جيداً عن الحشائش التى يجب أن يتناولها الكلب لو تركت له حرية اختيار غذائه .

الكلاب تحب الحلوى إلى درجة ما ، ولكن يجب عدم الإكثار منها وكذلك الحال مع الفاكهة .

عدد الوجبات وكمية الغذاء

١ – يجب إطعام الكلب حتى تمتلئ جوانبه لا أن تتضخم .

٢ – يقدم الطعام للكلب طالما له رغبة فى أن يأكل حتى إذا ترك طعامه للحظات ثم عاد إليه يجب أن يرفع الطعام من أمامه ويؤجل إلى الوجبة التالية .

٣ – يجب الإقلال من الطعام إذا لاحظت أن الكلب قد زاد وزنه .

ملحوظة : بعض الحالات المرضية تحتاج إلى نوع معين من الغذاء تساعد على ليونة وحركة الأمعاء حتى يتخلص الحيوان مما تحتويه قناته الهضمية ، وفى حالة الديستمبر تفضل الحركة البطيئة فى الأمعاء .

تغذية الكلاب التى فقدت أمها :

فى الحقيقة هى عملية صعبة ولكن يحدث أن يفقد الصغير أمه فى أثناء عملية الوضع أو نتيجة لأى مسبب .

فى الحقيقة تغذية هؤلاء الصغار عملية صعبة ولكن يمكن التحايل عليها بإطعامها بطريقة مشابهة لطريقة الأم . (فنجان لبن كامل الدسم محلى + ٢ ملعقة شاى ماء جير + $\frac{١}{٢}$ ملعقة شاى سكر لبن (لاكتوز)

يدفأ ذلك بعيداً عن اللهب المباشر (لدرجة حرارة الجسم) ويوضع فى زجاجة لها حلمة رضاعة كما فى الأطفال – ويجب مراعاة النظافة التامة فى الأدوات

ويمكن الاستعانة بقطارة للتغذية بها – كذلك يجب مراعاة عدم إحداث شرقة أى دخول الغذاء فى القصبة الهوائية أو أن يتجمع الأكل فى البلعوم ، ولذلك يجب أن تتم هذه العملية ببطء .

تغذية الكلاب الضعيفة :

أحيانا نلاحظ أن أحد الصغار لا ينمو كبقية الكلاب أو لا تهتم به الأم أو ربما لا يتمكن من أخذ نصيبه نتيجة لإخوته الأقوياء فيجب معاونة هذا الصغير وتمكينه من أن يأخذ نصيبه ومساعدته فى الاقتراب من الأم حتى يحظى مثل إخوته بالغذاء كذلك يمكن دهان فتحه الشرج بأى مرهم أو كريم حتى تشجعها على أن تلحسه وبالتالى تنبه الأمعاء على أداء الحركة السليمة ويمكن إعطاء هذا الصغير لبناً كامل الدسم بالإضافة إلى ما يأخذ من أمه .

الفطام :

سن ثلاثة أسابيع :

بالإضافة إلى ما يناله الرضيع من الأم يقدم له لبن بقرى دافئ ثلاث مرات يوميا فى طبق منفصل ، وعند تقديم هذا الغذاء يجب إبعاد الأم لكى يتعلم الصغار كيفية لعق اللبن .

سن أربعة أسابيع :

بمجرد ما تظهر أول سنة قدم للحيوان قطعة لحم ناعمة مقطعة الألياف ثلاث مرات يومياً بالإضافة إلى اللبن البقرى كما سبق .

سن أربعة أسابيع إلى ستة أسابيع :

قلل من بقاء الأم مع الصغار لمدد تطول يوماً بعد يوم – حتى يتمكنوا عند بلوغهم سن ستة أسابيع أن يأكلوا طيلة اليوم بمفردهم ويرضعوا الأم فقط عندما ينامون معها .

أضف إلى اللبن البقرى قطعاً من العيش ويمكن زيادة كمية اللحم وإعطاء شوربة منزوعة الدسم .

من سن ستة أسابيع إلى ثمانية :

كما سبق بالإضافة إلى لحم نيىء غير مفروم يمكن إضافة بعض الطماطم .

سن ثلاثة إلى ستة شهور :

بالإضافة إلى اللحم يمكن إعطاء بعض السالمون أو السمك الخالى من الشوك – مكرونة – بيض – أرز – شعير (هذه سن تكوين العظام) .

سن ستة إلى ١٢ شهراً :

فى هذه السن يأكل الحيوان كل شىء .

تغذية الكلاب الصغيرة :

يجب تغذية الكلاب الصغيرة عدة مرات أكثر مما يتبع مع الكبيرة .

عند سن شهرين يجب إطعامها خمس مرات يوميا والخامسة منها تكون ليلا .

عند سن ثلاثة شهور أربع وجبات .

عند سن أربعة إلى خمسة شهور ثلاث وجبات

عند سن ستة شهور وجبتان

التغذية الإجبارية :

أحيانا يمتنع الحيوان عن الإقبال على الأكل ربما لتغير مكان مبيته أو لتغير صاحبه أو لتغير البيئة – عندئذ يلزم إعطاؤه الأكل إرغاما وبمجرد دخول الأكل إلى القناة الهضمية ستقوم هى بمهمة تحقيق الاستفادة – حقيقة أن الشهية هى عنوان الصحة ولكنها ليست ضرورة للحياة . يمكن إعطاؤه بيضة مضروبة جيداً فى اللبن ، فهذه تمنح القوة أو شربة لحمة أو لبناً وإذا امتنع الكلب كلية عن الغذاء يمكن إعطاؤه هذا الغذاء عن طريق فتحة الشرج (فى صورة حقنة شرجية) وبعد الحقنة أمسك الكلب من قوائمه الخلفية رافعا إياها لمدة تصل إلى عشر دقائق تقريبا وضعه فى مكان محدد (قفص أو غيره) حتى لا يجرى مساعدا بذلك على طرد ما يحتويه الشرج من غذاء .

٢٨ – إرشادات عامة عن القطط

حذار من وجود المبيدات الحشرية فى متناول القطط فى الدار

حذار من إطعام القطط عظم دجاج أو عظم سمك .

استحمام القطط لا نلجأ له إطلاقا إلا إذا كانت هناك حاجة ماسة لذلك ويمكن بواسطة بودرة التلك دهان الجسم ثم تمشيطه بالفرشاة .

وجود صعوبة فى التبول ربما يرجع إلى وجود حصى فى المثانة أو إلى التهابها .

عند إصابة القطط بنزلة برد يظهر ذلك فى إفراز العين للدموع والعطس .

ويجب عزلها فوراً عن أى قط آخر مع مسح الأنف بمحلول مطهر ، ويجب المحافظة على الحيوان حتى لا تحدث مضاعفات (نزلة شعبية أو التهاب رئوى) .

الإمساك :

فى هذه الحالة يستحسن العرض على طبيب ويمكن إعطاؤها جرعات متكررة من زيت زيتون أو برافين ويجب أن يكون الغذاء محتويا على سردين أو رنجة .

إذا حدث وقمت بتعفير القط بمسحوق د . د . ت فيخشى عندما تلعق القطة بلسانها هذا المسحوق فى عملية التنظيف التى تقوم بها لذاتها أن يتسبب ذلك فى إحداث حالة تسمم .

فى حالة إسهال القطط اعمل على تدفئتها ويجب أن يراعى أن يكون الغذاء خفيفاً مثل كورن فلاور باللبن .

إذا استمرت الحالة أكثر من ٢٤ ساعة اعرضها على الطبيب .

يوجد فرق بين الأنفلونزا التى تصيب الكلاب وتلك التى تصيب القطط .

أنفلونزا القطط تشمل ثلاثة أنواع : (التهاب معوى معدى - التهاب رشحى - التهاب بلعومى) .

والثلاثة أنواع كلها فى منتهى الخطورة وتنتقل إلى القطط الأخرى ليس بالملامسة المباشرة فقط بل بواسطة أيدى الإنسان الذى يتعامل معها ويجب ملاحظة أنه فى حالة النزلة البلعومية ينزل من الفم خيوط من اللعاب ويتقرح الفم والزور واللثة .

ملحوظة : يجب عندما تتعامل مع قطة مريضة أن تراعى النظافة التامة وغسيل الأيدى بمطهرات فقد إنه وجد أنه يمكن أن تنتقل العدوى عن طريق رسالة مكتوبة بخط اليد .

عندما تريد أن تحتفظ بقط وكلب فى نفس المنزل يجب أن يتم ذلك تحت ملاحظتك ووجودك فى الأيام الأولى ، على أساس ألا يحدث أى هجوم متبادل بينهما .

فى حالة الإصابة بالأكزيما نلاحظ أنها تسبب تهيجاً فى الجلد ، مما يضطر الحيوان أن يخربش جلده مسبباً بذلك جروحا تتكون عليها قشور .

يجب عندئذ تغيير نوعية الأكل ويستحسن أن يكون لحماً نيئا ويجب تجنب السمك والأغذية النشوية .

يمكن تنظيف فروة القط المصاب لإزالة القشر بواسطة الفرشاة .

يمكن دهان الأماكن المصابة بواسطة لوسيون الكلامينا .

يجب إيجاد وسيلة لعدم تمكين الحيوان من لعق نفسه .

إدماع العين يحدث نتيجة للإصابة بتيار هوائى أو نزلة برد ، ويمكن غسيل العين بمحلول بوريك فى اللبن أو شاى بارد . إذا لم يحدث استجابة يستحسن عرض الحالة على طبيب ، فربما تكون راجعة إلى مرض آخر .

تغذية القطط :

يجب أن تراعى الأمور التالية :

نظافة الغذاء – نظافة الأوانى – ثلاث وجبات – كمية الغذاء يجب أن تكون معتدلة – القطط الصغيرة بعد فطامها يجب تقديم أربع وجبات لها يوميا – مراعاة عدم إعطاء عظام دجاج أو أرانب أو سمك – يجب أن يكون اللحم مفروماً – يجب أن تعود أكل الخضار من سن مبكرة حتى تألفه – بعد الانتهاء من الطعام يجب رفع الأكل من أمامها .

إذا حدث وبلعت قطة أى شىء فيمكنك معاونتها على إخراجه وإذا تأكدت من ابتلاعها إبرة مثلا فيجب محاولة إعطائها قطعة من القطن .

النوبات العصبية :

ربما يفقد القط الصغير القدرة على استخدام أرجله مع حدوث تشنجات وهذا يحدث ربما من نتيجة التسنين أو لوجود ديدان داخلية ، ويمكن عرض الأمر على طبيب .

مدة الحمل :

تتراوح مدة الحمل فيما بين ٦٣ إلى ٦٥ يوماً .

تحتاج القطط إلى بعض الأعشاب أو أوراق النباتات ليس كغذاء ولكن كغذاء مالئ فقط – هذه الأعشاب تجعل القط يتقيأ ونتيجة لذلك يتخلص من وجود العصارة الصفراوية الزائدة ، أو وجود أشياء غير مرغوب فيها بأمعائه .

يلزم تنشيط القطط يومياً .

زواج أفراد العائلة الواحدة من القطط ينجب نسلا ضعيفاً .

التهاب الأمعاء المعدى :

مرض خطير ومميت وينتشر انتشاراً رهيباً بكافة الوسائل ، وأعراضه تشبه أعراض التسمم .

علامات قرب ميعاد الوضع :

القلق – عدم الاستقرار – يجب إعداد مكان الولادة قبل ميعادها بحوالى أسبوعين – يجب أن يكون الصندوق الخاص بذلك مريحا ودافئاً – عند الولادة يجب وضع ورق جرائد تحت القطة ويمكن بعد ذلك حرقه – لا يلزم التدخل

السريع عند صعوبة الولادة فبعض القطط تكون كسولة – عادة تلد مولوداً كل ساعة – إذا طالت هذه المدة وكان لا يزال فى بطنها مواليد أخر يلزم إسعافها .

يجب فطام القطط الصغيرة عندما نلاحظ أن الأم أصبحت ضعيفة ، وللإعداد لذلك يجب إبعاد الأم طول النهار ، والسماح لها بالمبيت مع أولادها مساء فقط .

ينصح بعدم الإمساك بالقط من جلد الرقبة وترك الأرجل مدلاة ، بل يجب أن تجعلها تستريح فى انثناءة ذراعك مع الضم إلى الصدر .

يمكنك إعطاء الأدوية للقطط بأن تمسك القط من جلد رقبته دافعاً الرأس إلى الخلف ثم بواسطة ملعقة يمكنك وضع الدواء فى الفم ، كذلك يمكن بواسطة حقنة طبية بلاستيك (بدون استخدام سن الإبرة) إعطاء الدواء . لا تنهك الحيوان المريض أثناء إعطائه الدواء .

إذا حدث جماع بين نوعين مختلفين فبلاشك النتاج سيكون خليطاً وهذا لا يعنى أن القطة ستظل تلد خليطاً حتى لو حملت ثانية من ذكر من نفس فصيلتها ، فحينئذ سيكون النتاج من فصيلتها الأصلية .

القطط تغير شعرها ابتداء من شهر مارس وحتى نهاية شهر يوليو .

– يكتمل نمو الشعر الجديد فى نهاية شهر سبتمبر– بعض القطط تستمر فى فقدان كميات (بسيطة) من شعرها على مدار السنة نتيجة للتمشيط .

– يمكن أن تتزاوج القطط فى حوالى نهاية الشهر الرابع من العمر ولكن الأفضل أن يتم تزاوج ما بين الشهر التاسع والثانى عشر حتى يكون النسل جيداً .

– عند الحاجة لاستخدام ملين لا تستخدم زيت الخروع بل يمكنك استخدام زيت الزيتون أو زيت البرافين .

– الإمساك أو وجود أى شيء غريب فى الأذن الداخلية يتسبب فى حدوث

شلل أو شبه شلل فى القوائم الخلفية ويلزم استشارة الطبيب .

– يلزم التخلص من الطفيليات الخارجية باستخدام التعفير بمبيد حشرى جيد .

– من الطفيليات الخارجية القمل والبراغيث وهذه تظهر واضحة على الجسم ويمكن مشاهدتها بالعين المجردة تتحرك على جسم الحيوان .

– من الطفيليات الخارجية أيضا يوجد نوع من الجرب يعيش فى داخل الأذن القذرة مسبباً التهاباً شديداً أو ينزل من الأذن بعض الإفرازات مما يلهب منطقة الأذن . وإذا أهملت هذه الحالة تتسبب فى فقدان السمع .

القراع فى القطط نوعان : أحدهما يصيب منطقة الرأس والأصابع وهو مهيج ، وعلاماته المرضية مستديرة الشكل ، أما الثانى فينتشر على كل الجسم ، ويسقط الشعر فى مناطق مختلفة غير محددة الشكل ، ونجد مكان الإصابة كما لو كان عليه رماد السجاير . وكلا النوعين ينتقلان إلى الإنسان ويلزم حرق مكان مبيت القطط وعزل الحالة تماماً وعلاجها جيداً .

– تبدأ الأسنان اللبنية فى الظهور عند بلوغ القطط سن أسبوعين .

– إذا لاحظت التهاباً فى الفم يستحسن تنظيفه بأى مطهر بسيط مثل محلول ملح مخفف .

كما فى الأطفال نلاحظ عند بدء ظهور الأسنان مشاكل هضمية مع صعوبة فى الأكل .

عادة أكل الصوف (نتيجة اللحس المستمر بالفروة) عادة سيئة ليست لها مسببات واضحة ، ولكن ربما تكون راجعة إلى نقص الأملاح والفيتامينات .

القطط تصاب بالديدان بصورة أو بأخرى ، ويجب عرض القطط على الطبيب فى سن أربعة شهور ، وعادة تعانى القطط من وجود الديدان الأسطوانية وهى إما أن يتقيأها الحيوان أو تنزل مع البراز – عادة القطط المصابة بالديدان تكون بطنها

مفوخة . وتوجد الديدان أحيانا فى المواليد وتحدث العدوى من الأم .

أخطر الديدان التى تصيب القطط هى الديدان الشريطية – وبما أن البرغوث يعتبر عائلا لبيض هذه الديدان لذلك غالبا ما نجد أن القطط التى تعانى من وجود البراغيث على سطح جسمها مصابة بالديدان الشريطية .

٢٩ – التسمم

ينتج التسمم فى الحيوانات والطيور نتيجة تناول الحيوان مادة سامة أو لإطعامه بنبات سام ، أو على نبات فى طور معين من حياته يكون ساما .

يحدث حاليا أن يقوم الفلاح أو نتيجة للرش بمبيدات الديدان والحشرات الضارة بالمحاصيل أن تأكل الحيوانات بعض هذه النباتات التى سبق رشها ، ويترتب على ذلك أعراضاً مختلفة مرضية تظهر على الحيوان ، وربما تودى بحياته أو تجعله عاجزاً عن الاستمرار فى الإنتاج المتوقع منه وعندئذ يذبح .

الحشائش المضرة :

الحندقوق – التفل المر – الداتورة – أبو لبن – هذه أسماء لأمثلة من النباتات السامة التى تتواجد مع المحاصيل الزراعية كالبرسيم والفول . هذه النباتات تتسبب فى الإضرار بحالة الحيوان وتتوقف درجة الإضرار على الكمية التى يلتهمها الحيوان . بعض الحيوانات يتحاشى أكلها وبعضه لا يبالى وقد يودى أكل هذه النباتات بحياة الحيوان .

بعض النباتات التى تتميز باحتوائها على مواد سامة

الذرة الشامى (وهى صغيرة سامة) – الذرة الرفيعة المرة (النبات الأخضر سام فى كل أطوار حياته) ذرة المكانس (سامة فى كل أطوار حياتها) لوبيا العلف (سامة قبل الإزهار) – بذور القطن (سامة للأغنام ، يجب إعطاؤها مجروشة للأبقار ، النبات ذاته سام جداً للماشية والأغنام) .

بذور الدحريج (سامة جداً) – فاصوليا الليما (النبات الأخضر سام) .

إرشادات عامة فى حالات تسمم الحيوان بالمبيدات :

١ – إزالة السبب المباشر للتسمم .

٢ – غسيل جسم الحيوان لإزالة أى بقايا للمواد السامة .

٣ – عمل غسيل معدة .

٤ – إعطاء مسهلات (سلفات الماغنسيوم) .

٥ – إعطاء عن طريق الوريد كميات كبيرة من الجلوكوز وجلوكونات الكالسيوم ومحلول الملح الفسيولوجى .

٦ – يجب أعطاء كميات كبيرة نسبياً من الأتروبين بمعدل ١٥, حجم /كجم من وزن الجسم بالوريد – مع ملاحظة حقن ربع الجرعة تحت الجلد .

٧ – يفضل أعطاء مضادات الهيستامين .

٨ – يحسن أعطاء مركب (البروتوبام) ٥٠ مجم /كجم من وزن جسم الحيوان .

رقم الإيداع	١٩٧٩/٢٧٣٢
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٦٩٨ - ٣

١ /٧٩/٤٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)